

عالم الفكر

المجلد العاشر - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٩

عدد خاص

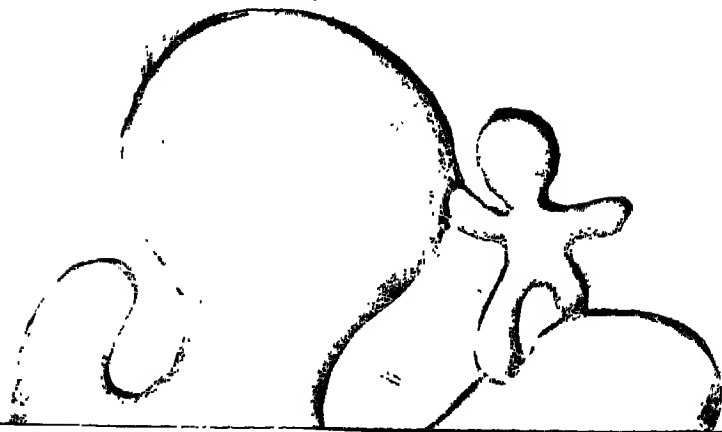
ثقافة الطفل

الأطفال واللعب

صحة الجنين والوليد

تنشيط نمو الأطفال

الطفل في التراث الشعبي



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر - ١٩٧٩
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الطفولة

| | | |
|-----|--------------------------------|---------------------------------|
| ٣ | بقلم مستشار التحرير | التمهيد |
| ١٣ | | اعلان حقوق الطفل |
| ١٥ | الدكتور محمد الجوهري | الطفل في التراث الشعبي |
| ٥٣ | الدكتورة الفت حقي | ثقافة الطفل |
| ٧٣ | الدكتور محمد احمد غالي | غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد |
| ١١١ | الدكتورة فيولا البيلاوي | الاطفال واللمب |
| ١٥٣ | الدكتور طلعت منصور | تنشيط نمو الاطفال |

• • •

شخصيات وآراء

| | | |
|-----|--|--------------------------------|
| ١٩٣ | الدكتور محمود أبو زيد | جان جاله روسو والعقد الاجتماعي |
| ٢٠٩ | بقلم موديس كرانستون - ترجمة : بدرية محمد احمد | في ذكرى روسو |

• • •

مطالعات

| | | |
|-----|--------------------------------|-----------------------|
| ٢٢٥ | الدكتور عبدالواحد لؤلؤة | ادب الرحلات والفامرات |
|-----|--------------------------------|-----------------------|

• • •

من الشرق والغرب

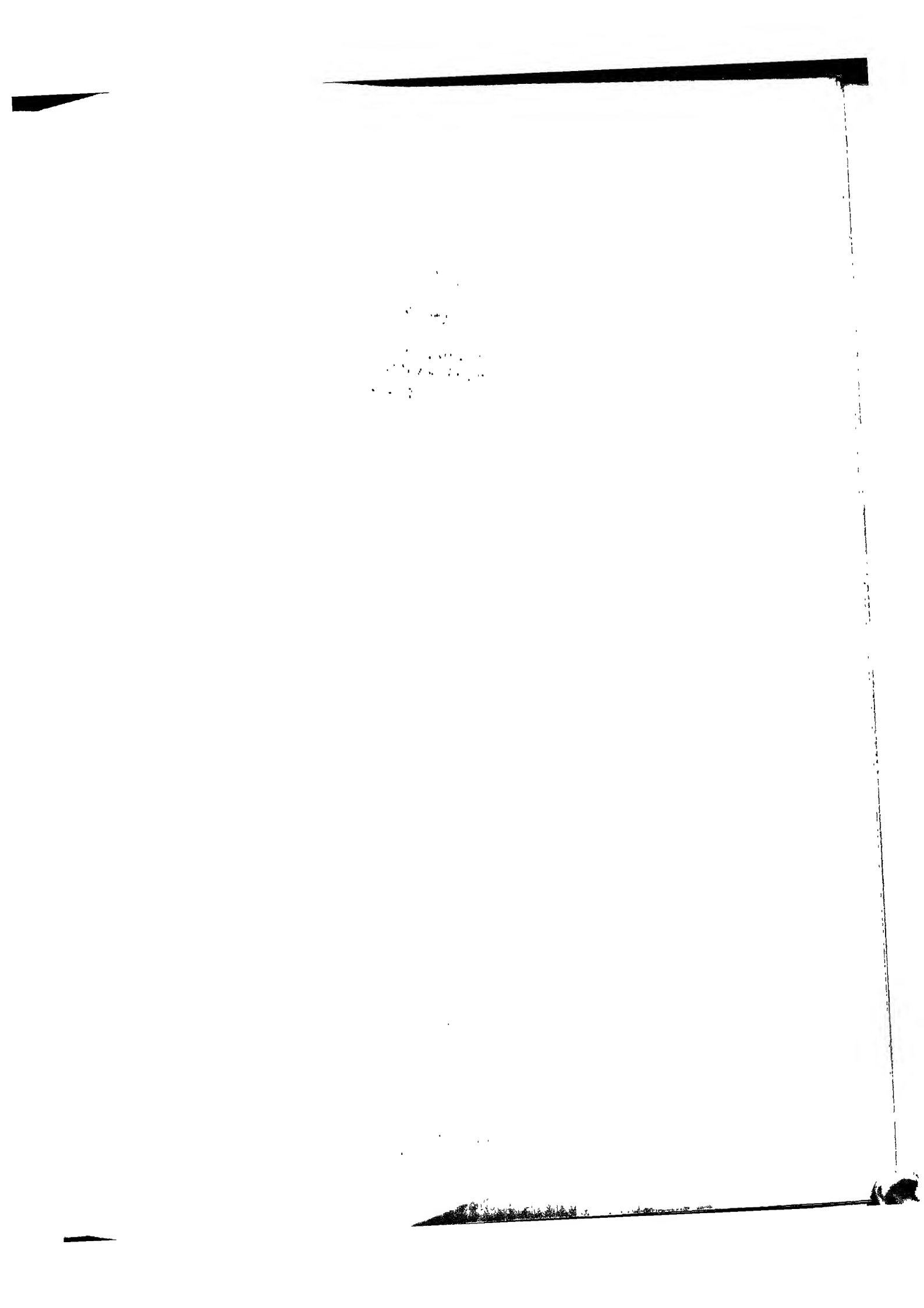
| | | |
|-----|---------------------------|----------------------------|
| ٢٦٥ | الدكتور محمد مصطفى | الكتابة العربية عنصر زخرفي |
|-----|---------------------------|----------------------------|

• • •

صدر حديثا

| | | |
|-----|---|---|
| ٣٤٥ | عرض وتحليل الدكتور محمد فاتم المريحى | ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث |
|-----|---|---|

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم





General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

الطفولة

تمهيد

«أسمى كويكوه وعمري تسع سنين اناس كثيرون ينادوننى (يا ولد) ولكنني اميش وحدى ، انا ابيع (اللبان) في ميدان أوردور في ساعات السينما، كثير من الاولاد والبنات يشترون منى قبل الذهاب للسينما . . لا اذهب للمدرسة لأن ليس معى نقود . . امى ماتت اثناء ولادتى ولا احد يعرف من هو ابى . . . احدى النساء ارضعتني اللبن حين كنت طفلاً صغيراً ولكنني كبرت الان واشتغل . . اناام بعد ان يتقدم الليل . . الساعة الثانية صباحاً واحياناً الساعة الثالثة . . ليس عندى بيت اناام فيه . . اناام فى محطة البنزين ، واشترى الاشياء التى يبيعونها على الطريق . الدنيا مليئة بالناس المرضى . . اتمنى ان تكون سنة ١٩٧٩ بدون حرب وبدون اطفال يولدون مثلى . . انا افاسى كثيراً . . ليس عندى صابون ولا سكر ولا أشياء أخرى كثيرة جداً . . اتمنى من سنة ١٩٧٩ أن تجلب لى بيتاً وتجلب للناس فى القرية الماء حتى يشربوا . . لا تأخذ صورتي اذ لا احب ان يرى الرجل الابيض قذارتى » .

(كويكوه - طفل من اكرا - غانا)

في اوائل هذا القرن ، وبالذات في عام ١٩١٢ كتبت ماريا منتسوري Maria Montessori التي كانت تعتبر من اكبر علماء التربية ليس في ايطاليا وحدها بل وفي العالم اجمع تقول ان حرية الطفل يجب ان يسمح بها في حدود مصلحة الجماعة لان هذا الشكل للحرية هو الذي يعتبر بحق مثال التربية الطيبة ، ومن هنا كان ينبغى علينا ان نوقف في الطفل كل ما من شأنه ان يتسبب في ابداء الآخرين او ازعاجهم ، وكذلك كل ما قد عساه ان يدفعه الى العنف او السلوك غير المهذب . . » وتتضمن هذه العبارة القصيره مبدأ عاما وهاما يجدره صدى قويا لدى الجميع لانه يكفل للطفل التمتع بحريته وان كان في الوقت ذاته يحدد هذه الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التي ينتمى الطفل اليها كما انه يعترف للطفل بحق (العمل) والانطلاق لكي يحقق ذاته ويهيء له الفرصة كاملة للخلق والابداع ، وهي كلها عناصر هامة في تكوين الشخصية المتكاملة التي تستطيع التكيف والتلاؤم مع المجتمع .

فالهدف الاساسي للتربية الصحيحة اذن - في راي ماريا منتسوري - كان هو تحقيق ذلك التوازن الحيوي بين الحرية والمسئولية ، بين الابداع والانطلاق والابتكار من ناحية ، والنظام والالتزام من الناحية الاخرى حسب ما تقول بل موني Bel Mooney في كتابها الذي صدر منذ اسابيع قليلة فقط (اوائل يوليو ١٩٧٩) والذي تقدم فيه ، بمناسبة العام الدولي للطفل ، دراسة طريفة لاثنتي عشرة حالة لاطفال مختارين من انحاء مختلفة من بريطانيا ، وتكشف لنا في هذه الدراسة عن العناصر السلوكية والتربوية والاجتماعية التي تتدخل في تكوينهم وتنشئتهم ، والى اى حد افلحت هذه العناصر في تحقيق التوازن المنشود (انظر :

Bel Mooney: The year of the Child: Portraits of British Children; Hutchinson, London 1979)

الا ان ماريا منتسوري تذهب في حقيقه الامر الى ابعد من هذا بكثير اذ تقول : « اننا لا ندرك تماما ما قد ينجم من آثار ونتائج وخيمه اذا نحن خنقنا منذ البداية كل عمل تلقائي يمكن ان يصدر عن الطفل بمجرد ان يبدي الطفل رغبة او ميلا في اداء ذلك العمل ، لاننا قد نخنق فيه بذلك الحياة ذاتها . . فالانسانية تكشف عن نفسها وعن كل مافيها من روعة ومن سمو عقلى في تلك السن المبكرة ، تماما مثلما تكشف الشمس عن نفسها وقت الفجر ، ومثلما الزهرة عن وجودها حين تظهر (بتلاتها Petals) المبكره . . ومن هنا الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التي ينتمى والاجلال هذه العلاقات الاولى للكيان الفردي » .

كانت هذه الاراء تتردد اذن منذ سبعة وستين عاما وكانت تعتبر في ذلك الحين اراء ثورية متمرده ، ولكننا اصبحنا نتقبلها الان ونسلم به رغم ما قد يكون هناك من خلاف في الراى حول افضل الطرق والاساليب التي يمكن بها التوفيق بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة او بين الحرية والمسئولية . . وعلى الرغم من ان التسليم بان التربية الصحيحة - ان كان هناك مثل هذه التربية - تتمثل في التوفيق والملاءمة بين هذين العنصرين الاساسيين فتمة تفاوت كبير بين المجتمعات المختلفة و

توكيدها على احد الجانبين دون الآخر، بحيث نجد المجتمعات الحديثة في الغرب مثلاً تتيح قدراً أكبر من الحرية الشخصية بحيث أصبحت تعرف عموماً باسم مجتمعات الإباحة والتحرر Permissive Societies بينما تؤكد مجتمعات أخرى ضرورة اعلاء سلطة المجتمع واشرافه وسيطرته على الفرد، وتركز على إبراز مسئوليات الفرد نحو المجتمع، وقد تبالغ في ذلك بحيث يكاد المجتمع يخنق فردية الانسان وكيانه المستقل وشخصيته الذاتية. فكان التوفيق بين هاتين الناحيتين كما ارادت ماريا منتسوري - مسألة صعبة للغاية وتكشف عن مدى صعوبة عملية التربية، فليست تربية الطفل في آخر الامر سوى عملية تنشئة اجتماعية، او تطبيع اجتماعي هدفها هو تحقيق ذلك التوازن بين الطفل وحاجات ورغبات ومصالح المجتمع الذي يعترف في الوقت ذاته بفردية الطفل واستقلال شخصيته وكيانه ووجوده.

والمعروف ان الكائن البشري عاجز الى ابعد حدود العجز، وانه يقطع خلال حياته طريقاً طويلاً شاقاً وملئاً بالمواقف الجديدة والتغيرات المفاجئة التي يتعين عليه ان يكيف نفسه معها ويتعلم منها ويسخرها لصالحه الخاص. وليست التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي Social. Zalion في جوهرها الا عملية تكيف مستمر مع هذه الظروف والاضاع والمواقف، ومن هنا فانها لا ترتبط في حقيقة الامر بسن معينة بالذات، ولا تقتصر على مرحلة عمرية معينة، وانما تستمر طيلة حياة الانسان، وان كانت تختلف عناصرها ومكوناتها باختلاف المراحل والتجارب التي يمر بها الفرد والمواقف التي يجد نفسه فيها والتي يتبقى عليه ان يعدل من سلوكه ليتلاءم معها او يستجيب لها او يستغلها لصالحه. ومن هنا تعتبر التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي شيئاً أكبر وأوسع وأعمق واشمل من مجرد التعليم الرسمي او التربية الرسمية المنهجية المنظمة، التي يتلقاها الطفل في المدرسة، ثم بعد ذلك في معاهد التعليم المختلفة. انها عملية تبدأ منذ اليوم الاول لولادة الطفل الذي يجد نفسه منذ البداية في مجتمع معين تميزه ثقافة معينة تتألف من عادات وتقاليد ونظم وعلاقات معينة ايضاً، فيخضع لتلك العادات والتقاليد ويدخل طرفاً في كثير من هذه النظم والعلاقات، وتتعدد علاقاته وتشابك وتنشعب بمرور الزمن. وهذه نقطة هامة في عمليات التنشئة او التطبيع الاجتماعي انبته اليها كل الذين درسوا الموضوع في مجالات علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والتربية، وبخاصة حين كانوا يعرضون لدراسة الطابع القومي او الشخصية القومية، كما ابرزها - وان يكن بدرجات مختلفة - كل الاساتذة الذين اسهموا بدراساتهم في هذا العدد من المجلة، والتي تناولوا فيها الطفولة ومقوماتها ومشكلاتها وتنشيطها نموها.

ولكن هذا لايعنى بالضرورة ان الاطفال الذين يولدون في مجتمع معين وثقافة معينة يصبون جميعاً في قالب واحد بحيث يصبحون نسخاً متشابهة من نفس الاصل. فالتجارب والخبرات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والعائلية تختلف من فرد لآخر مما يسمح بقيام الفوارق الفردية داخل المجتمع الواحد، على الرغم من وجود خلفية واحدة واساس واحد

يشارك فيه جميع اطفال ذلك المجتمع . وهذا الاساس هو الثقافة السائدة في المجتمع ، بكل ماتعنيه كلمة (ثقافة) في الاستخدام الانثروبولوجي . من الطبيعي ان يقوم الوالدان بالدور الاول في عملية التنشئة الاجتماعية ، مادامت هذه العملية تبدأ بولادة الطفل ، ومادام الطفل يولد في اسرة معينة تكون بمثابة المجتمع الاول ، او المجتمع النواة ، الذي يتعين عليه ان يتكيف معه ويكتسب منه اولى المؤثرات التي تتدخل في تشكيل حياته وتطويع سلوكه الاجتماعي . فالوالدان يدفعان طفلهما - قصدا او عن غير قصد - في طريق مرسوم ، ويخضعانه لاساليب تربوية محددة ، تتضمن اتجاهات وافكارا وآراء ومعتقدات وقيما وانماطا سلوكية متعارف عليها ، اى انهما يوجهان عن وعى او عن غير وعى منهما عملية التنشئة وجهات معينة منذ البداية ، وان كان الفرد بطبيعة الحال يخضع فيما بعد لكثير من المؤثرات الاخرى التي تأتي من الاشخاص الذين يحتك بهم (زملاء المدرسة وزملاء اللعب مثلا والمدرسين وزملاء العمل وما الى ذلك) ، او من البيئة الفيزيائية التي تحيط به سواء اكانت بيئة صحراوية او ريفية او حضرية او صناعية ، او من وسائل الاعلام كالتلفزيون والسينما والراديو وما اليها . وكل هذه المؤثرات لتشارك معا في تشكيل شخصيته وتكوين عقليته ، وفي تحقيق ذلك التواءم مع الجماعة وقيمها واهدافها وراثتها ، اى تطويع الفرد داخل انماط صاغتها ثقافة ذلك المجتمع على مر العصور ، حسب مايقول تشايلد J. L. child في كتابه الطريف (ايطالي او امريكي Italian or American) الذي نشره عام ١٩٣٤ والذي حاول ان يبين لنا فيه الى اى حد يعكس سلوك اطفال المهاجرين الايطاليين انماط الحياة الايطالية التقليدية ، والى اى حد يتلائم هذا السلوك مع الحياة الامريكية ، وهل يعتبر هؤلاء الاطفال على هذا الاساس ايطاليين او امريكيين . ويقول آخر فان هذا الكتاب كان يحاول الوصول الى اجابة عن التساؤل عن اين توجد ايطاليا كثقافة داخل كل طفل منهم ، واين توجد امريكا ؟

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على ان التنشئة الاجتماعية لاسير في اتجاه واحد فقط ، وان الطفل يخضع لمؤثرات كثيرة ومعقدة ومتشعبة ، ولكنها تتضافر كلها في اخر الامر في اعدادة لان يكون عضوا متكاملما مع غيره من اعضاء المجتمع ، وتحقيق ذلك التوازن الذي قالت به ماريا منتسوري بين حرية الفرد وانطلاقه وبين صالح الجماعة ، وانه مهما يكن من تأثير الوالدين المباشر على اولادهم فانه لايمكن الزعم بان الطفل يمكن ان يكون نسخة مطابقة تماما لاحد الوالدين . فكان التنشئة الاجتماعية تتألف في حقيقة الامر من عمليتين مختلفتين ولكنهما متكاملتان : الاولى هي عملية نقل الثقافة التي تسود في المجتمع الى الطفل ، والثانية هي عملية التكيف الذي يقوم به الطفل ليتلاءم مع البيئة والمجتمع والثقافة التي يعيش فيها . والعمليتان كلتاهما تستمران طيلة حياة الفرد ، وان كانت مكوناتها وعناصرها تختلف كما ذكرنا بحسب الظروف وتبعاً لتقدم الفرد في السن وما يكتسبه من خبرات . فليس من شك في ان الطفل يكون في بداية الامر (سلبيا) ان صح هذا القول ، بحيث يستقبل كل التأثيرات الخارجية التي تعمل باستمرار وبغير انقطاع في تشكيل شخصيته ، ثم لايلبث بمروء الزمن ان (يكون فكرة عن نفسه) او ، يكتشف ذاته وبذلك يصبح

اقدر على المقارنة وعلى الاختيار بين مختلف المواقف والامكانات وهذا عنصر اخر هام في تكوين الشخصية وفي ابراز الاختلافات والفوارق بين اعضاء المجتمع الواحد . فقد تتضارب المعايير التي يتعرض لها الطفل كما هو الحال مثلا حين تختلف معايير البيت والمدرسة والقيم التي تسود في كل منهما ، وبذلك يواجه الطفل كثيرا من المشكلات الصعبة حول أى النمطين من أنماط القيم والمعايير يقبل وايهما يرفض . . . وهذا التضارب هو الذى يريد تجارب الفرد منطفولته ويثرىها ، وان كان يعطل في كثير من الاحيان سير عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

وربما كان هذا هو الموقف الذى يواجهه الطفل في المجتمعات التي تتعرض للكثير من عوامل التغير السريع المفاجيء كما هو الحال مثلا في المجتمعات العربية التي تمر في الوقت الحالى بمرحلة من اخطر مراحل تاريخها، حيث تفزوها كثير من الافكار والفلسفات والاتجاهات الحضارية والثقافية الوافدة من الخارج ، في الوقت الذى لا يزال تأثير الثقافة التقليدية المتوارثة قويا للغاية، وبذلك يواجه الطفل منذ سن مبكرة أوضاعا اجتماعية متضاربة بل ومتناقضة . وكثيرا ما تكون هذه الاوضاع جديدة حتى على الوالدين نفسيهما اللذين يتوليان تنشئة الطفل وتوجيه حياته وسلوكه ، بحيث يجد الوالدان نفسيهما عاجزين عن التعرف على افضل الاساليب والطرق للتوفيق بين هذه الثقافة التقليدية الراسخة والثقافات والتيارات الفكرية والاتجاهات السلوكية الجديدة الطارئة التي لا يفهمها الآباء والامهات تماما ولا يقرونها لانها على اقل تقدير - لم تكن جزءا من تكوينيها النفسى والعقلى والاجتماعى ، كما لم تكن عنصرا من عناصر تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم للحياة . . . وربما كان هذا هو السبب في أن الكثيرين من علماء النفس والاجتماع والانثربولوجيا ممن يهتمون بدراسات الطفولة وعمليات التنشئة الاجتماعية يقفون في صف اساليب التعليم التقليدية في المدارس الابتدائية ، ويدافعون عنها على اساس ان تلك كانت هي الاساليب التى خضع لها الآباء والامهات حين كانوا اطفالا ، وبذلك فلن يكون ثمة تعارض بين تأثير البيت وتأثير المدرسة على الاطفال ، وهو الامر الذى لن يتحقق بسهولة في حالة اتباع المدرسة لاساليب التعليم الحديثة او غير التقليدية التى لم يألها الآباء بعد ، او التى ليس لهم بها علم او دراية . . . ويجب الا يؤخذ هذا الكلام على أنه هجوم على اساليب التعليم الحديثة او محاولة للتحويل من شأنها وفعاليتها .

وهذه على اية حال مسألة خارجة عن نطاق هذا الحديث ، وكل ما يهمنا هنا هو ان تؤكد ان افضل اساليب التنشئة الاجتماعية داخل نطاق الاسرة هي تلك التى لا تؤدى - ما يمكن ذلك - الى شعور الطفل بآية ضغوط حين يواجه المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهى الضغوط والتوترات التى كثيرا ما تدفع الى الانحراف والى الجنوح .

والشائع هو ان الام تلعب الدور الرئيسى في تنشئة الطفل وفي عملية التطبيع الاجتماعى كنتيجة طبيعية لارتباط الطفل بها في السنوات المبكرة من حياته ، اكثر من ارتباطه بالاب وتأثيره به . ويتمثل

هذا بوجه خاص في المجتمعات التقليدية التي تقف فيها المرأة حياتها وجهودها على شئون البيت والأسرة ورعاية الأطفال دون أن تمارس عملاً في الخارج . ولكن يبدو أن هذا الموقف أخذ في التغير بسرعة نتيجة خروج الأم للعمل خارج البيت وانتشار حركات « التحرر النسائي » في الغرب على الخصوص ، حيث ترتفع الأصوات بضرورة إشراك الأب في تربية الطفل ورعايته منذ الولادة ، على اعتبار أن التربية هي مسئولية الوالدين معا وليست عملاً متخصصاً وقاصراً على الأم . والواقع أنه حتى بدون هذه الدعوة وبدون قيام هذه (الحركات التحررية) فإن الأب يلعب في كل المجتمعات في تنشئة الطفل منذ الصغر دوراً أكبر مما يظن في العادة ، وإن كانت الأم تضي بحكم طبيعة الأشياء وواقع الأمور فترات من الوقت مع الطفل أطول من تلك التي يمضيها الأب ، ولذا كان تأثيرها أوضح وأعمق في السنوات المبكرة ، كما أنه يترك بعض البصمات على شخصية الطفل خلال بقية حياته . . . ومن هنا كان انفصال الطفل عن الأم أو إبعاده عنها - وبخاصة في السنوات الخمس الأولى من حياته ، يعتبر في نظر الكثير من أقسى الإجراءات التي يمكن أن يتعرض لها الفرد في حياته . وربما كانت هذه هي الحكمة من وراء منح حق الحضانة للأم في السنوات الأولى للطفولة ، وحتى سن معينة ، لما لهذه العلاقة بين الأم والطفل من أثر على التوازن النفسي والاجتماعي لدى الطفل . . . وصحيح أن هناك مجتمعات تفصل الأطفال عن أمهاتهم وهم لا يزالون في سن صغيرة نسبياً ويوكل أمرهم إلى أشخاص آخرين من أعضاء المجتمع الذكور لكي يتولوا تربيتهم والإشراف عليهم وتأهيلهم للحياة الاجتماعية ، كما هو الحال في بعض المجتمعات القبلية في إفريقيا وبخاصة تلك التي تعرف نظام طبقات العمر الذي يهيئ الأفراد للقيام بأدوار معينة يحددها لهم المجتمع . ولكن هذا يحدث عادة بعد أن يتخطى الطفل المراحل المبكرة من طفولته ، ويكون أقرب إلى مرحلة البلوغ ، كما أن النظام كله يهدف في آخر الأمر إلى دماج الفرد في المجتمع الكبير ككل ، وتحديد مركز اجتماعي له . أي أن للنظام وظيفة مكملية لوظيفة الأسرة والبيت في التنشئة الاجتماعية ، وهي أشبه بوظيفة المدرسة وحتى مراكز التدريب والتأهيل في المجتمعات الأكثر تقدماً . وزيادة على ذلك فإن هذا النظام يؤدي إلى خلق علاقات اجتماعية واسعة بين الأطفال الذين يمرون معا بهذه الشعائر بحيث تقوم بينهم ما يمكن تسميته بالقرابة الاجتماعية التي تفرض عليهم التزامات وواجبات تماثل تلك التي تقوم بين الأقارب الحقيقيين . وهذا نمط من التنشئة يتلاءم تماماً مع الظروف البيئية والاجتماعية والاقتصادية التي تعيش فيها تلك الجماعات والقبائل في الغابات ، والتي تحتاج إلى درجة عالية من التكافل الاجتماعي . وهذا النظام يشبه ، إلى حد ما على الأقل ، ما يحدث في كثير من المجتمعات التقليدية التي تسود فيها العائلات الكبيرة الحجم ، فهناك يخرج الطفل ليجد نفسه محاطاً بأعداد كبيرة من الأشخاص البالغين والذين يكبرونه سناً من كلا الجنسين ، والذين يسهمون جميعاً بشكل أو بآخر في تنشئته وتوجيهه وأعداده للحياة ، وبذلك لا تكون التنشئة عملاً قاصراً على الوالدين وحدهما . وهذا يساعد من ناحية على تحرر شخصية الطفل واستقلالها عن شخصية الأبوين ، ولكن من الناحية الأخرى كثيراً ما ينشأ عن هذا الأسلوب من التنشئة بعض المشكلات إذا تعرض الطفل لتأثيرات

وتوجيهات عديدة متضاربة من اشخاص لهم قيم وانماط سلوكية وافكار واتجاهات متعارضة . . وهذا يذكرنا بما سبق ان قلناه عن تصارع القيم والانماط السلوكية بين البيت والمدرسة واثره في حياة الطفل .

وايما تكون العوامل التي تتدخل في عملية تنشئة الطفل والصعوبات التي تتعرض لها هذه العملية وعدم اتفاق العلماء على خير الوسائل والاساليب التي يمكن اتباعها في ذلك واختلاف المجتمعات بعضها عن بعض في نظرتها الى الطفل واسلوب تربيته وتنشئته والتوقعات التي تنتظرها هذه المجتمعات من اطفالها حين يكبرون ، فالظاهر ان العملية اصبحت الان اكثر تعقيدا ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل والاجهزة الرسمية وغير الرسمية التي تضطلع الان بجانب هام ومؤثر في تنشئة الاطفال كانت تقوم به الاسرة والمدرسة قبل ذلك . وتقوم وسائل الاتصال والاعلام المختلفة بدور هام في ذلك . ولم يعد التلفزيون بالذات مجرد وسيلة للتسلية ، وانما اصبحت اداة هامة من ادوات التعليم والتربية والتوجيه ، وبالتالي اداة فعالة في التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي ، خاصة وان الاطفال في كل المجتمعات يميلون الى الجلوس لاوراق طويلة امام اجهزة التلفزيون ، وبذلك فانهم يقلدون في سلوكهم اليومي ما يشاهدونه في البرامج المختلفة . وكثير من الكتاب والمفكرين يعززون انتشار الجريمة والعنف والتحرر في السلوك الجنسي الذي يسود في المجتمعات الغربية وبخاصة امريكا الى البرامج التلفزيونية التي تميل الى ابراز هذه الجوانب وتدور حولها . انما الذي يهمنا في الدرجة الاولى هو ان وسائل الاعلام الجماهيرية تحقق ذبوع وانتشار ورسوخ انماط سلوكية موحدة ، وتعمل على تقريب الاتجاهات والمواقف والقيم في المجتمع ، وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك لانها تقلل من التناقض والتضارب داخل المجتمع الواحد . وهنا ايضا يكون من الخطأ الاعتقاد ان دور الاطفال امام وسائل الاعلام بما فيها التلفزيون دور سلبي بحت ، وانهم يتقبلون كل ما يشاهدونه امامهم بطريقة واحدة ، فالواقع ان استجابات الاطفال تتفاوت ، ولذا فان عملية تكيف الاطفال مع البرامج التي تقدم لهم تجد في الوقت الحالي كثيرا من عناية واهتمام علماء النفس والتربية . وكما يقول جيمس هالوران مدير مركز بحوث الاتصالات الجماهيرية بجامعة ليستر بانجلترا : « ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل الاتصال . . . ثم ان الاطفال بالاضافة الى الفروق السياسية في تكوينهم ينشأون في ظروف مختلفة ، ويرون اشخاصا مختلفين ، ويكتسبون تجارب مختلفة ، تتاح لهم فرص متعددة ، ولذلك فانهم عندما يتشاهدون التلفزيون يحكمون عليه بالمعايير التي اكتسبوها من مجموعة التجارب الماضية والعلاقات الحاضرة والامال المستقبلية . ومن هنا لم تكن القضية هي ما يفعله التلفزيون بالاطفال ولكن هي ماذا يفعل الاطفال بالمادة التي يعرضها التلفزيون عليهم . (انظر مقال هالوران عن آثار التلفزيون على الاطفال ، الذي نشر في مجلة رسالة اليونسكو



ولقد اعلنت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ عامادوليا للطفل ، وذلك بقصد تحسين ظروف الحياة لاطفال العالم . وكما جاء في أحد النداءات التي وجهتها الامم المتحدة حول هذا الموضوع فان هذا العام

سوف يشمل جميع الاطفال ولكن مع التوكيد بوجه خاص - وهو توكيد له ما يبرره على الاطفال المحرومين من الحب ومن الطعام ومن الصحة والماوى ، ومن التعليم نتيجة لظروف خاصة حرمتهم من اشباع هذه الاحتياجات ، او الاصح التمتع بهذه الحقوق الطبيعية للطفل . ولم يكن من مخططات هذا العام عقد اى مؤتمرات دولية او انشاء اية منظمات جديدة ، وانما هو عام يقوم ويرتكز فى المقام الاول على الجهود الذاتية التى تبذلها الحكومات والمؤسسات والافراد والهيئات العلمية فى مختلف الدول ، لدراسة مشكلات الاطفال بها ووضع خطط لمشروعات تتصل بتحقيق تلك المطالب وتمكين الطفل من التمتع بتلك الحقوق . ولقد حرصت الامم المتحدة فى الوقت ذاته على ان يؤخذ فى الاعتبار راي الاطفال انفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها وتصوراتهم ومطالبهم وحقوقهم . وهذا اتجاه جديد فى معالجة مشكلات الطفل والطفولة . فلقد درج الباحثون من قبل على الاكتفاء باستطلاع آراء الوالدين والكبار والبالغين بوجه عام باعتبارهم المسؤولين عن تربية الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم وتطبيعهم اجتماعيا ، دون ان يعطوا للطفل ذاته اية اهمية ، على الرغم من ان هذه الدراسات تدور حوله وسوف تؤثر نتائجها فى حياته ، وعلى الرغم من ان معرفة راي الطفل قد تكون مفتاحا لفهم كثير من المشكلات التى قد تدق على افهام الكبار .

ازاء ذلك ، وضعت منظمة اليونسكو قائمة قصيرة من الاسئلة الطريفة (عشرة اسئلة) اقترحت توجيهها الى اطفال العالم عسى ان تؤدى المعلومات التى تجمع عن طريقها الى الوصول الى فهم اعظم لمشكلات الطفل والطفولة . وسوف نرى كيف ان هذه الاسئلة تعتمد استثارة تفكير الطفل فى نفسه ووالديه والاضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه وتتيح له فرصة لتقويم هذا : -

- ١ - هل تعتقد انه ينبغى على الوالدين مناقشة المشكلات العائلية مع اطفالهما ؟
- ٢ - ماهى السن التى يجب ان يكون عليها الاطفال حتى يمكن للوالدين مناقشة المشكلات الجنسية معهم ؟
- ٣ - هل يتحمل الاطفال مسئوليات كافية ؟
- ٤ - هل ستعامل اطفالك بطريقة تختلف عن الطريقة التى عوملت انت بها ؟
- ٥ - هل تعتقد انه يجب معاملة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟
- ٦ - هل تريد ان تحيا حياة تختلف عن حياة والديك ؟
- ٧ - هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ؟
- ٨ - هل يخيفك الكبار ؟
- ٩ - هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات ؟
- ١٠ - هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟

ولقد حصلت اليونسكو على كثير من المعلومات الطريفة التى لا يخلو بعضها من كثير من العمق والفهم والسخرية حين وجهت هذه الاسئلة الى (عينة) مختاره من اطفال العالم . **مثال** ذلك ان طفلا كنديا يبلغ من العمر احدى عشرة سنة يجيب على السؤال التاسع : هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات بقوله : نعم ، ان الكبار يعتقدون انهم الوحيدون الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال ، حتى فى الحالات التى يجب أن يكون القرار هو قرار الطفل نفسه . فقد يقولون مثلا : **اننى اشعر بالبرد ولذا فمن الافضل ان ترتدى ستريتك ،** دون ان يهتموا بسؤال الطفل اذا كان يشعر بالبرد ام لا ، وانما هم يفترضون ان الطفل لا بد وان يشعر بالبرد لانهم هم انفسهم يشعرون به . « وقد اجاب على السؤال العاشر » هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟ بقوله : « اننى لا احب ان ارى شخصا كبيرا ينحنى فوقى ويفرض خدى ويقول لى كيف سارت الامور فى المدرسة اليوم ؟ هل تصرفت كولد طيب ؟ ... » وكثير من الكبار لا يحبون أن يجلسوا مع الصغار لانهم يعتقدون ان الصغار يشيرون كثيرا من الضجة والصخب ، ولكنهم كثيرا ما ينسون انهم هم انفسهم كانوا يفعلون الشيء نفسه حين كانوا صغارا . فالكبار يعتقدون ان ما يفعلونه هو اهم شىء فى الوجود . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم . ولكن حين يثير الصغار الضجة وحين يلعبون فان هذا يعتبر ايضا امرا مهما بالنسبة لهم (اى للصغار ولا يقل اهمية عما يفعله الكبار . وكثير من الكبار لا يعرفون كيف يتكلمون مع الصغار ، ويعتقدون ان الصغار متشابهون سواء كان عمرهم احدى عشرة سنة او خمس سنوات . ان ذلك يشبه ان يتفرس الناس فى (الاقزام الصغيرة) ويتعجبون منها لالشيء الا لانهم اعتادوا على رؤية الاجسام الطبيعية التى لها ذراعان وساقان ولها حجم طبيعى . فالصغار اشبه بهذه الاقزام الصغيرة فى نظر الكبار . انهم اقزام مضحكة لانهم صغار الجسم . والكبار لا يعرفون كيف يتصلون بهم لانهم غرباء عنهم تماما . الطفل فى نظرهم شىء مختلف وغير مألوف . شىء اشبه بالزنوج او الناس الفقراء جدا . »

وتجيب فتاة سويدية فى العاشرة من عمرها عن السؤال السابع — هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة — بقولها : « فى بعض الاحيان تثور امى عليّ حين تعود الى البيت من العمل ، واشعر انها تائرة بسبب شىء ما فى العمل نفسه ، ولكنها تفضب عليّ انا بدلا من ان تثور على العمل — ومن ناحية اخرى تجيب فتاة بريطانية فى العاشرة من عمرها ايضا على السؤال الخامس — هل تعتقد انه يجب معاملة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟ » بقولها : نعم ، فانا مثلا لا احب اللعب بالرمى وحين أحصل مثلا على جهاز لتجفيف شعر الدمية فان ما احب ان افعله هو ان انزع الفطاء عنه وانزع البطاريات وكل ما شابه ذلك . اننى اعتقد ان الاختلاف الحقيقى الوحيد بين البنات والصبيان هو ان الصبيان اقل انزانا »

وتكفى هذه الامثلة التى اخترناها من مجموعة كبيرة من الاجابات على الاسئلة العشرة السابقة لتبيين كيف يفكر الاطفال وكيف ينظرون الى مشاكلهم وإلى مكانتهم بالنسبة للكبار ، وكيف

يحكمون على سلوك هؤلاء الكبار وتصرفاتهم ويقومونها . والمفارقة الطريفة هنا هي ان التعرف على آراء الصغار قد يساعد الكبار الراشدين على فهم انفسهم ، على ان ينظروا الى انفسهم بعيون هؤلاء الصغار ، وقد يوحى اليهم ذلك بمراجعة تصرفاتهم وسلوكهم ازاء اطفالهم ، وان يوجهوا عملية التنشئة بالتالى وجهة تتفق مع الاحتياجات الحقيقية للاطفال كما يعبر عنها هؤلاء الاطفال انفسهم . لقد عبر كويكو - وهو الطفل الغانى الصغير ابن التاسعة - عن هذه الامال والاحتياجات وعن رايه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن نظرتة الى نفسه ، وبخاصة ازاء الرجل الابيض فى تلك العبارات العميقة المؤثرة التى استشهدنا بها فى مطلع هذا الحديث . . . وهذه الامال والتطلعات والاحتياجات ذاتها يعبر عنها - ولكن بأسلوب اخر وطريقة اخرى وان كانت تؤدي الى الهدف ذاته ، ابن اخر من أبناء افريقيا وهو أحمد مختار أمبو ، المدير العام لليونسكو ، حيث يقول بمناسبة العام الدولى للطفل (١٩٧٩) : -

«من الحقائق التى تتردد على السنة الناس كثيرا ان الاطفال هم امل العالم ، فلنتأكد خلال العام الدولى للطفل ، وفى كل عام يليه ان اطفال العالم يعلمون اننا ، معشر الراشدين ، نهتم بسعادتهم ونعمل من اجلها . ولتكن جهود هذا العام عوناً لنا على ان نفهم الاطفال بطريقة افضل ، وان نذكر حين نعاملهم اننا كنا اطفالاً مثلهم ، وبهذا يمكننا ان نتجنب الالام التى يعانيتها العديد من الاطفال فى العديد من الدول . واود لو استطعنا - عندما ينتهى العام الدولى للطفل - ان نعتقد ان روح الاخاء والوحدة فى العالم قد اصبحت اشد قوياً بفضل ما احرزناه من فهم للاطفال ، وبفضل روح التسامح التى غرساناها فى نفوسهم» .

أحمد أبو زيد

اعلان حقوق الطفل

١ - يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورة في هذا الاعلان . ويمنح هذه الحقوق كل الأطفال دون أى استثناء ، أو تفرقة أو تمييز بسبب الجنس أو اللون أو النوع أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو غيره ، أو الاصل القومى أو الاجتماعى أو الملكية أو المولد أو أية حالة أخرى له أو لأسرته .

٢ - يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنح عن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له أن ينمو جسميا وعقليا وروحيا واجتماعيا نموا صحيحا وسويا ، وفى ظل الحرية والكرامة . ويراعى عند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض أن يكون لأفضل مصالح الطفل اكبر اعتبار .

٣ - للطفل عند مولده الحق فى اسم وجنسية .

٤ - يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعى ، وله الحق فى أن ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من اجل هذا أن يحاط هو وأمه برعاية وحماية خاصتين ، بما فى ذلك الرعاية المناسبة قبل الولادة وبعدها . وللطفل الحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسليّة وخدمات طبية .

٥ - يعطى الطفل المعوق جسميا أو عقليا أو اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ - يحتاج الطفل من اجل نموه شخصيته ، نموا كاملا متناسقا ، الى التفهم ويجب ، كلما أمكن ، أن ينمو فى رعاية وتحت مسؤولية أبويه ، وعلى أية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى . ولا يجوز ، فيما عدا الحالات الاستثنائية أن يفصل طفل صغير السن عن أمه . ومن واجب المجتمع والسلطات العامة أن تشمل بالرعاية الخاصة الاطفال الذين لا أسرة لهم ، والاطفال الذين لا يملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه أن تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمة لاعالة الاطفال فى الأسر العديدة الافراد .

٧ - من حق الطفل أن يتلقى تعليما مجانيا واجباريا ، على الاقل فى المراحل الاولى . ويجب أن يعطى تعليما يرقى بثقافته العامة ، ويساعده على اساس من الفرص المتكافئة أن ينمى قدراته ومداركه واحساسه بالمسؤولية الادبية والاجتماعية ، ويصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ويجب أن يستهدف المسئولون من تعليم الطفل وارشاده تحقيق افضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية أولا وقبل كل شىء على كاهل أبويه .

ويجب أن يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب أن يوجها الى نفس الاغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة أن تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ - يجب أن يكون الطفل فى جميع الظروف أول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ - يجب حماية الطفل من كل اشكال الاهمال والقسوة والاستغلال ، ولايجوز أن يكون موضوعا للمتاجرة بأى شكل من أشكالها ، ولايجوز السماح بتشغيله قبل أن يبلغ حدا أدنى من العمر ، ولايجوز بأية حال حمله أو السماح له بأن يتولى عملا او وظيفة تضر بصحته او تعليمه ، او تعيق نموه الجسمى او العقلى او الخلقى .

١٠ - يجب حماية الطفل من ممارسة الاعمال التى من شأنها أن تعزز التمييز العنصرى او الدينى او سائر أنواع التمييز ، ويجب أن يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والاخوة الشاملة والادراك التام بأن يكرس طاقته ومواهبه لخدمة أقرانه .

أقر الإعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد براين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات .

الطفل في التراث الشعبي

يحتفل التراث الشعبي في كل مجتمعات العالم بالطفل احتفالاً خاصاً ، ولا عجب في هذا . فالطفل هو « بداية » الحياة ، وهو - في ميلاده وطفاه ونموه - رمز حي متجدد لتجديد هذه الحياة . وينسج التراث الشعبي حول حملته وميلاده وحمايته آلاف الممارسات والمعتقدات . وينعكس بعضها في كثير من العناصر الفنية الشعبية مادية وغير مادية ، مما سنلمس بعضه بوضوح أكثر فيما بعد . والطفل والالعاب الشعبية يمثلان رابطة بديهية قريبة لكل ذهن ، كذلك الطفل والفناء . الخ . ولذلك لانبالغ اذا قلنا ان دراسة الطفل في التراث الشعبي لاي مجتمع انما تمثل عرضاً لقطاع مستعرض في ثقافة هذا المجتمع ، وسنطوف اثناء ذلك بكافة اقسام هذا التراث من حيث ان الطفل في كل قسم منها يشكل حجر زاوية ومصدر الهام وبؤرة اهتمام .

وقد سبق لنا ان طورنا تصنيفاً رباعياً للعناصر التراث الشعبي ، رأينا وقتها انه يفي بالغرض من شمول الرؤية وعميق النظرة الى التراث الشعبي .

وقد قسمنا التراث الشعبي الى اربعة اقسام رئيسية هي :-

١ - المعتقدات والمعارف الشعبية

٢ - العادات والتقاليد الشعبية

٣ - الادب الشعبي

٤ - الثقافة المادية والفنون الشعبية (١)

ولما كانت دراسة الطفل في التراث الشعبي هي تطوير عبر التراث كله ، ففنا سنتخذ من هذا التصنيف مرشدا وموجها لنا في جولتنا آخذين في الاعتبار ان هذه التقسيمات انما هي حدود نظرية وهمية نعرضها على المادة الحية ، بفرض تيسير الدراسة وتجزئ المعالجة ، وهو امر تحتمة طبيعة التناول العلمى . اما المادة الحية المحفوظة في صدور الناس وفي سلوكهم وفي اشياهم المصنوعة فتتداخل فيها هذه الاقسام تداخلا طبيعيا .

وسيلاحظ القارىء ، فضلا عن هذا ، ان هناك بعض المراحل في حياة الطفل لا نستطيع ان نتناوله فيها بعيدا عن أمه . فهو يظل مرتبطا بأمه في مرحلة الحمل ، وفي الولادة والرضاع . . . الخ . فالكلام عن كل تلك الموضوعات هو كلام عن الام والطفل معا وهو كلام عن الطفل من خلال الام . واقصد بذلك ان أجسد مدى تلاحم العلاقة وقوتها في تلك المرحلة (٢)

وتدخل تلك العلاقة الوثيقة في مرحلة حاسمه ، كما انها تتعرض لاول تجربة قوية في عملية الفطام . فالفطام هو أولى خطوات الطفل على طريق الاستقلال بكيانه ووجوده الفيزيقي . كما انه في نفس الوقت بداية الاستقلال النفسي . فهو اذن مرحلة حاسمة وهامة في حياة الام والطفل معا ، ولكن اذا اردنا الدقة فهي اكثر اهمية وابعد دلالة بالنسبة للطفل عنها بالنسبة للام . فهذه ليست في العادة اول تجربة للام في الانفصال الجسدى عن طفلها . ربما تكون قد مرت مرارا بتلك التجربة ، وان لم تكن قد فعلت ، فالارجح انها ستمر بهامرارا بعد ذلك ، اما الطفل فهي تجربة يتيمة في حياته . ومن هنا قلنا ان تجربة الفطام بالنسبة له ابعد دلالة واخطر وزنا .

وتظل الام على اى حال مرتبطة بعلاقة خاصة مع اولادها ، ربما اكثر من اى مصدر اجتماعى اخر (وان كانت قوة هذه الرابطة تشتد بالنسبة للبنات عنها بالنسبة للاولاد) . فالام في مجتمعاتنا التقليدية كانت حتى عهد قريب لاتعمل ، ومازالت اغلب الامهات بعيدات عن سوق العمل خارج البيت . ولم تكن امام تلك الام وسائل اتصال او تسلية عامه ، ولم يكن التعليم منتشرا بقدر يذكر . ونتيجة كل هذا بقاء الام مع اولادها الفترة الاكبر من طفولتهم المبكرة ، وقبل خروج

(١) - ناقشنا كافة التقسيمات السابقة - العالمية والمحلية - وعرضنا لعناصر القوة والضعف في كل منها ، وانتهينا الى هذا التقسيم الذى ياخذ في اعتباره تطورا لبحث الفولكلورى على المستوى العالمى ومراعاة الواقع المحلى لبلادنا ، انظر محمد الجوهري ، علم الفولكلور . الجزء الاول ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، الفصل الثالث ، ص ٥٣ - ٥٨ .

(٢) بلغ من عمق التصور الشعبى لقوة هذه العلاقة ان الام الحامل - كما ترى بعض المجتمعات - تربطها علاقة خاصة مع الجنين الذى في بطنها : تعرف ان تضايق وتعرف ان فرح ، وتحس به في كل حالاته . (مع خلاف هذا التصور اختلافا اساسيا بديها مع المعطيات العلمية الحديثة) . ومن هنا حرص المحيطون بالام الحامل على رعاية مزاجها وملاطفتها ومسايرتها طوال فترة الحمل ، وللموضوع جوانب اخرى ستنتضح في سياق الدراسة .

الذكور إلى العمل أو إلى مجالس الرجال ، وبالنسبة للبنات حتى زواجهن . (٣) فالأم هي التي تنقل لهم تراث المجتمع الذي يعيشون فيه ، هي التي تطعمهم ، وتربيهم في شئون الحياة اليومية ، وتحكي لهم القصص ، وتغنى لهم ، وتلاعبهم ... الخ .

ثم تمر علاقة الطفل بأمه (وبمجتمعه الكبير المحيط به) ، كما يمر نموه الجسمي والاجتماعي ببعض المراحل الحاسمة ، التي تمثل (محطات على رحلة حياته . ويحتفل المعتقد الشعبي ، كما تهتم العادات الشعبية ، بتلك المراحل احتفالا كبيرا : فتنسج حولها الأفكار وترسم فيها أساليب السلوك ، وتتحوط بكافة السبل ضد ما يتهدد الطفل فيها من أخطار .

ومن أهم تلك المراحل انقضاء الأسبوع الأول من عمر الطفل . (وفي بعض المجتمعات الأربعون يوما الأولى) ، حيث يؤدي حفل الأسبوع دورا مناظرا لعملية « التعميد » ، ولكن بالمفهوم الاجتماعي وليس الديني . فالأسبوع هو قبول أو « ادخال » الطفل للمجتمع المحيط به من خلال عملية « التسمية » من ناحية » ، وتأكيد الوجود الاجتماعي للطفل من ناحية أخرى . وهذا الوجود الاجتماعي هو الأمر الحاسم والهام ، وليس مجرد الوجود الفيزيقي الذي تحقق فعلا من خلال عملية الولادة .

ومن المراحل الهامة في حياة الطفل أيضا انقضاء السنة الأولى من عمره ، حيث يكون الاحتفال بعيد الميلاد الأول ، ثم بأعياد بعد ذلك ، وبمضى الطفل لأول مرة ، وكلامه لأول مرة ... الخ . تلك كلها « بدايات حاسمة وهامة لمراحل أساسية في حياة الطفل ، يتصرف المعتقد الشعبي والعادات الشعبية حولها بكل دقة ، وترسم استجابات المحيطين ، وتفسر كل الظواهر المصاحبة لها .

بعد أن تتطور عمليات نمو الطفل نسبيا ، تظهر ألعاب الأطفال وأغاني الأطفال بشكل أولى بسيط ، وعلى لسان الأم أولا . فهي أول من يردد لوليدها الأغاني ، ومعها تبدأ أولى محاولات اللعب وتطوره تتطور قدراته على الفناء واللعب ، ويكتسب من خلالها سبيله إلى أطفال الأسرة الآخرين ، ثم أطفال البيت ، والشارع والمدرسة بعد ذلك . فالألعاب هي أول مدرسة اجتماعية يدخل إليها الطفل ، ومن خلالها يجتاز أولى تجارب حياته .

وتمر حياة الطفل بعد ذلك بمراحل أخرى ذات أهمية ودلالة أيضا ، حين يبدأ أول « خروج » منتظما للطفل من البيت ، سواء للعمل (كما في المجتمع البدوي للرعى مثلا ، أو من المجتمع

(٣) ولذلك ليس من الغريب أن يشير العالم الفرنسي دي شابرول ، في دراسته عن سكان مصر المحدثين ، إلى هذه الحقيقة قائلا : « .. إذا كانت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية إلا تأثيرا بالغ الفاعلية على الرجل بالمقارنة بما يحدث في أوروبا ، فإن الأطفال في سني عمرهم الأولى يخضعون لتأثيرها هي أساسا » . انظر :

دي شابرول ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧ ، (حلقة من كتاب وصف مصر ، الذي يخرج له زهير الشايب ترجمة كاملة ، ظهر منها ثلاث أربع مجلدات ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .)

الزراعى للمساعدة فى أعمال الحقل البسيطة) اوحدينا للمدرسة . ولكن لا جدال فى ان اهم تلك المراحل على الاطلاق مرحلة الختان ثم مرحلة البلوغ . وهى تعد ايذانا بدخول هذا « الطفل » الى مجتمع الرجال (ان كان ذكرا) ، او الى مجتمع الاناث (ان كان انثى) .

واشرنا الى ان كل تلك المراحل يحيطها المعتقد الشعبى ، كما تحيطها العادات الشعبية ، بالكثير من الاجراءات والممارسات الرمزية والسحرية التى تهدف الى حماية الطفل وتأمين انتقاله الى المراحل التالية ، او الحفاظ عليه من اخطار هذا الانتقال . كما يمثل الطفل خلال كل مرحلة حاسمة منها بؤرة احتفال اجتماعى يقوم به الكبار من حوله ، ويعبرون خلاله عادة بمختلف اساليب التعبير عن فرحهم وسعادتهم بوصول الطفل الى هذه المرحلة ، ونجاحه فى اجتيازها بسلام .

حول مفهوم الطفولة :

لم نتعرض فى هذه الدراسة بشكل مباشر لتحديد مفهوم الطفولة من وجهة نظر المعتقد الشعبى . فتلک النقطة على بساطتها الظاهرة من أعقد موضوعات الدراسة وأكثرها اتساعا . اذ تختلف الشعوب فيما بينها اشد الاختلاف فى تعيين البدايات والنهايات (الزمنية) لتلك المرحلة فبعضها يرى أن الحياة تبدأ منذ بداية الحمل (انقطاع الدورة عند المرأة) ، وبعضها يبدؤها بتحرك الجنين فى بطن أمه ، وطائفة أخرى تبتدئها بال ميلاد ، ورابعة بالسبوع ، وأخرى بالتسمية ، وسادسة بالختان ، وغيرها باجتياز طقوس العبور الشاقة ... الخ . هذه فكرة سريعة متعجلة من الاختلاف حول بداية مرحلة الطفولة ، ويمكننا مما سبق أن نتصور مدى الخلافات حول تحديد نهايات هذه المرحلة .

فخروج الطفل الى مجتمع الكبار للمشاركة فى أداء وظيفة اقتصادية - مهما كانت متواضعة - يمكن أن يبدأ فى الرابعة أو حول تلك السن . وقديتاخر الى السابعة أو العاشرة (٤) . على أن المشاركة فى النشاط الاقتصادى للجماعة لا تعنى اوتوماتيكيا اعترافا بانتهاء مرحلة الطفولة وبدء مرحلة الشباب فقد يتأخر الاعتراف بهذا « العبور » الى سن أبعد من ذلك ، الى حين تمام البلوغ (بلوغ الكفاءة الجنسية الكاملة للذكور والاناث) ، او الى حين اجتياز بعض اختيارات العبور الشاقة ، وربما الى ما بعد تكوين الفرد اسرة نووية جديدة ، وأحيانا يمكن أن يؤجل هذا الاعتراف الى ما بعد انجاب اول طفل فالمسألة كما نرى معقدة ومتشابكة مع انساق اجتماعية ثقافية أخرى ، ولا يمكن ان نلقى فيها حكما عاما ببساطة .



(٤) نذكر هنا الحديث النبوي الشريف الذي ينصحنا بان نأمر الطفل بالصلاة فى السابعة ونضربه على تركها فى العاشرة . فالسنة العاشرة بداية تحمله نوع من المسئولية التى يجب ان يحاسب عليها .

أولاً : المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل

هناك بعض التحفظات والملاحظات التي يجب أن نبدأ بها حديثنا عن المعتقدات الشعبية . فصفة « الشعبية » تدل هنا على ما تدل عليه في عبارة « الأغاني الشعبية » أو « العادات الشعبية » . الخ . أى أننا نقصد المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي . وليس من الأمور ذات الأهمية الرئيسية - مع أننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفي التحليل - ما إذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرؤية أو الإلهام ، أو أنها كانت أصلاً معتقدات دينية (إسلامية أو مسيحية أو غير ذلك) ثم تحولت في صدور الناس إلى أشكال أخرى جديدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رسمية بالمعنى الصحيح ، أى أنها لا تحظى بقول وإقرار رجال الدين الرسميين . وقد كان الشائع أن يطلق عليها في الماضي اسم ينطوي على حكم قيمي واضح ، إذا كانت تسمى خرافات أو خزعبلات . ومن الواضح أن هذه التسمية كانت صادرة عن رجال الدين الرسميين ، سواء في الخارج أو عندنا . لأن المعتقدات التي تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الدين الرسمي ، لا تستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اسم « معتقدات » . فكانت تسمى بهذا الاسم الخاطئ الذي تخلينا عنه اليوم كلية . (٥)

الملاحظة الأخرى أن أغلب تلك المعتقدات - التي يدور عنها الحديث هنا - تفصح عن نفسها غالباً في شكل عادات وممارسات شعبية . ومن هنا تؤكد من جديد أن الفصل بين المعتقد والعادة هو فصل نظري بحث لأغراض الدراسة العلمية ، ولا وجود له في الواقع الحي . فالمعتقد والعادة هما وجهان لعملة واحدة .

كما نلاحظ أن الغالبية العظمى من العادات التي تمارس إزاء الجنين والطفل الوليد ، ثم بعد ذلك قبل قبوله في المجتمع ، إنما يمكن تفسيرها في ضوء معتقد شعبي أساسي . فهى جميعاً تستهدف حماية هذا الجنين ثم الوليد من الأخطار التي تهدده سواء من جانب قوى منظورة أو خفية . وأغلب تلك الممارسات (التي سنعرض لطرف منها في سياق حديثنا التالي) كانت في الأصل ممارسات سحرية وطقوساً دينية تخدم نفس الغرض ، ثم « سقطت » إلى مستوى العادات ، وتحولت إلى الصورة التي نجدها عليها اليوم . فعادات وتقاليد رعاية الجنين والمرأة الحامل ثم المرأة الواضعة ووليدها إنما هي بهذا المعنى « رواسب » لممارسات قديمة كانت تمثل درجة أعلى من التقديس ، ولكنها تخدم نفس الوظيفة الثقافية .

الوظيفة الثانية لبعض العادات التي تمارسها الحامل ، أو تمارس عند الولادة أو بعد ذلك هي الاعتقاد بأن كل ما يحدث للجنين أو الوليد في تلك الفترة سيؤثر على مستقبله ومصيره . فالقاء « الخلاص » في مياه جارية يطيل عمر الوليد ، و « الوطوطة » للبنات هامة لجمالها لأنها تمنع

نمو الشعر في الاماكن الموطوة . بل ان التسمية نفسها ليست عملية فردية عشوائية ، ولكن الاسم الذى سيطلق على هذا الوليد سيؤثر على خصائصه ، وعلى مستقبله . (٦)

اما الوظيفة الثالثة فجمالية بحتة ، حيث تستهدف هذه الممارسة او تلك : اطالة الشعر والتأثير على خصائصه ، او توسيع العينين ، او تقوية الذاكرة عند الطفل ، او التأثير على لون البشرة ... الخ مما سيتضح بعضه في سياق حديثنا .

وتبدأ جولتنا مع المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل بالاشارة الى تفسير أصل الطفل له ، او بيان الكبار المحيطين به المصدر الذى حصلوا منه عليه . فهناك طائر او حيوان او انسان او كائن ما « أحضر » هذا الطفل الى البيت . قديكون الضفدعة ، او الغراب ، او الثعلب ، او « الداية » (او بابا نويل فى بعض المجتمعات الاوربية) . (٧) ويعتقد أحيانا أن كل الاطفال موجودون فى مكان معين (فى بئر معين ، او تحت شجرة معينة ، او فى أحد المناجم ، او فى بحيرة معينة ، او فوق جبل بالذات او امام أحد المساجد . الخ) وان هناك شخصا معيناً هو الذى يحضرهم للأسرة .

والطفل الذكر فى كل المجتمعات العربية أكثر تفضيلاً من الطفل الانثى . وقد عرضت الدراسات الفولكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون أى لبس (٨) . ويعرف المعتقد الشعبى كثيراً من التفاصيل التى تجب مراعاتها والممارسات التى يجب اتباعها لانجاب طفل ذكر (٩) .

فأهم خبر يترقبه أفراد الأسرة بمجرد أن تضع الوالدة طفلها هو جنس المولود من حيث كونه ذكراً أو أنثى . ويصل هذا التفضيل الى درجة أن « بعضهم يملؤه الحزن اذا ولدت له أنثى . اما

(٦) انظر مزيداً من التفاصيل والامثلة ، عند ريتشارد فايس ، الفولكلور السويسري (بالالمانية) :

R. Weiss, Volksunde der Schweiz, Zurich, 1946, P. 175.

(٧) انظر مزيداً من التفاصيل عند ريتشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، (بالالمانية) : -

R. Beitzl, Worterbuch der Volkskunde, herausgegeben von O.A. Erich und R. Beitzl, Z. Auflage, Alfred Kroner, Verlag, Stuttgart, 1955, P. 409.

(٨) انظر بيانات اثنوجرافية دقيقة ومفصلة أوردتها علياء شكرى فى دراستها لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، علياء شكرى ، بعض ملامح التفسير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى . دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

وانظر كذلك مؤلفى احمد أمين وفوزية دياب وغيرهما ما سيرد ذكره فى حواشى هذه الفقرة فيما بعد .

(٩) وقد أورد احمد أمين فى « قاموسه » أن : الرجل اذا أراد ان تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي فى ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : اللهم ان كنت خلقت خلقاً فى بطن زوجتي هذه فكونه ذكراً وانا اسميه محمداً . رب لا تدنني فرداً وانت خير الوارثين . فبشرناه بأسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بقلم عليهم «

انظر احمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

الطفل في التراث الشعبي

الصبي فالكل يفرح ويتهلل لمقدمه بدليل القول السائر لدى الفلاحين المصريين : « لما قالوا ده ولد انشد زهرى وانسند ، ولما قالوا دى بنيه انطبقت الدار على » او القول : « لما قالوا ده غلام انشد زهرى واستقام ، ولما قالوا دى بنية شمتت العدافيه » . (١٠)

ومع ذلك فان دراسة أشمل لتراث الامثال والعبارات الشعبية المتداولة في مجتمع كالمجتمع المصرى (يجلد كما رأينا انجذاب الذكور) توضح لنا أن هناك عديدا من الامثال التى تمتدح انجاب الاناث . (١١) والرأى عندنا أن مثل هذه الامثال التى تحجب في انجاب البنات انما هى دليل يؤكد القاعدة الاولى ولا ينفىها . فهى تؤكد تعاسة المرأة التى تلد بنتا ، وتنبهنا الى أن المجتمع انما ابتكر تلك العناصر الشعبية لكى يخفف عن هذه المرأة ويواسيها .

ويعد ميلاد التوائم مثارا لاهتمام المعتقد الشعبى . ومع أنه من المعروف أن التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على مستوى العالم ، الا أننا نجد المعتقد الشعبى لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم .

وتتراوح المواقف من التوائم في المعتقد الشعبى بين التشاؤم الشديد منها (وما يتبع ذلك من ممارسات) ، والتفاؤل او التقدير الكبير . وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين او وزنهما من حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهما والتشاؤم هو الاوسع انتشارا والاكثر تواترا بين الناس

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات ان أحد التوائم ينسب عادة الى الالهة ، أما الآخر فينسب الى اب من البشر (قارن في هذا حكاية هرقل في الاسطورة الاغريقية) . بينما تعتقد شعوب اخرى ان التوأمين يكونان دائما لرجلين شاركا في اخصاب الام ، كل منهما أب لواحد من التوأمين . وكثيرا ما يعتقد ان انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه .

(١٠) انظر مزيدا من التفاصيل عند فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، صص ٣١٤ وما بعدها .

(١١) من الامثال والمباريات التى تحجب في انجاب الاناث : -

- « اخير الناس اللي تبكر بالبنت »

- « اللي يسعدنا زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها » .

- « اللي مالهاش بنية تصبغ اياديها ، تعيط بحرقه والناس تمزيها » .

- « اكبري يابنتي والنصيب كثير » .

- « ام واحدة ربنا محيرها ، وام عشرة ربنا مدبرها » .

- « ابو البنات مرزوق »

- « اللي ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات »

انظر مزيدا من التفاصيل عند ، ابراهيم احمد شعلان ، الشعب المصرى في امثاله العامية » ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، صص ١٢٩ - ١٣٠ ، ص ١٣٥ .

اما المجتمعات الاحداث والاقرب اليها والاكثر تقدما فتعتقد ان انجاب التوائم هو دليل على زيادة في رجولة الأب . بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية ان التوائم يجب التخلص منها ، وان على المرأة ان تتطهر لفترة من الوقت بعد ان تضعهما .

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب اكل المرأة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، او موزتين ملتصقتين . الخ حيث يعتقد ان اكل تلك الاشياء يؤدي الى انجاب التوائم . ويورد قاموس فونك للفولكلور تفصيلا لبعض الممارسات - مشفوعة بالنصوص المستخدمة - التي يتحتم اللجوء اليها في حالة اذا ما اضطرت الفتاة او المرأة الى اكل مثل هذه الثمار المزدوجة . والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم . (١٢)

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذي يحجب انجاب التوائم ويسعد بها ويعتبرها فالا حسنا . فيعتقد ابناء تلك الثقافات ان التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، اوهم يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصيتين في نفس الوقت . كما ترى احدى قبائل الهنود الحمر ان التوائم تستطيع رؤية الأرواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية . وهو الامر الذي لا يستطيعه الناس العاديون كما نعرف . ولكن التوائم يمكن ان تفتقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من اعداد امرأة حائض .

ونستطيع ان نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم في الثقافة الافريقية جنوب الصحراء ايضا ، خاصة غرب افريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد . ويفسر البعض هذه المواقف المتطرفة من التوائم في ضوء انهم يمثلون نوعا من الولادة الشاذة او التي تلابسها ظروف غير طبيعية . ويرسم هيرسكوفيتش في مقاله عن التوائم في غرب افريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتي تقديس التوائم والنفور منهم بأنه يمتد عبر وسط نيجيريا . حيث نجد ان اليوروبا وقبائل الساحل الغربي غربا من الفريق الذي يحجب التوائم . اما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتخذون الموقف المعاكس .

ويشير فضلا عن هذا الى أن هناك طائفة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالي في الولادة على التوائم . اذ ترى تلك الثقافات الزنجية أن هذا الطفل يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وأنه يجب ان يلقي معاملة خاصة . الخ . ويفسر انتشار الممارسات والعبارات المتعلقة بالطفل التالي على التوائم (والمعروف باسم "the dosu" في مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتي وغيرها من شعوب البحر الكاريبي بأنه يكاد يكون احتفاظا طبق الاصل لنظائرها الاصلية ، والتي انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون اعادة تفسير .

Funk & Wagnalls Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, (١٢)
ed. by Maria Leach, Funk and Wagnalls Publishing House, N. Y., 3rd ed. 1972. Art.,
„Twins”, PP. 1134-6.

وانظر ، كذلك محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني : (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ . الفصل الخاص بالمعتقدات الدائرة حول الانسان .

الاحطار المحيطة بالطفل جنينا ورضيعا وطفلا :

يرى المعتقد الشعبي ان الام وجنينها يتعرضان طوال فترة الحمل وعند الولادة وبعدها الى عدد من الاخطار المتنوعة التي تأتي من مصادر مختلفة ولاعتبارات شتى . وسوف نحاول الالمام بتلك العناصر بشكل موجز ، ثم نركز كلامنا على نقطة واحدة على سبيل التوضيح .

تعرض الام وهي حامل لخطر المشاهدة (او الكبس) : ومعنى ذلك الوقوع تحت تأثير الحسد وتأثير ارواح شريرة . وهناك عدة اساليب وسبل تؤدي الى مشاهدة الحامل ، فدخل رجل أجرودى عليها ، او امرأة عاقر ، او امرأة حائض . . . الخ كل ذلك من عوامل مشاهدة تلك الحامل .

ومن المستحب فوق ذلك ان تتفنى الحامل ويفنى لها الآخرون اغان معينة تتفق والمناسبة السعيدة المقبلة عليها . ويجب على المحيطين بها على وجه العموم الحرص على عدم ذكر اى حكايات مخيفة او اخبار سيئة او حكايات ولادات عسرة امامها . ولابد من الحرص على اعتدال مزاجها وسرورها بقص الحكايات ورواية الاخبار الطريفة المبهجة الباعثة على التفاؤل . (١٣) ولا يصح لها ان تشارك في مناسبات العزاء ، ولا ان تقوم بزيارة المقابر طوال فترة الحمل . ويستحب لها ارتداء الالوان المبهجة الجميلة وترك الملابس ذات الالوان القاتمة ، فلا يصح ان ترتدى ملابس الحداد اطلاقا واذا حدث فلمدة قصيرة جدا وبشكل رمزي .

وعلاوة على هذه الرعاية النفسية فهناك رعاية جسمانية للحامل ، حيث يخشى عليها من حمل الاحمال الثقيلة او اداء الاعمال الشاقة (تجنباً لحدوث اجهاض) .

ومن الممكن القول بصفة عامة بان الاسرة تحرص ، خاصة بالنسبة للام « البكرية » على الاستجابة لكل طلباتها والتسرية عنها ، وتخفيف الام الحمل التي تشعر بها . واهم احداث تلك الفترة « الوحم » . والوحم ظاهرة تحدث في الشهر الثالث والرابع في اشهر الحمل . وكثيرا ما تتوحم الحبل فتشعر برغبة ملحة في نوع او انواع خاصة من المأكولات . وفي بعض الاحيان تكون هذه المأكولات نادرة ، او غير موجودة في فترة وحم الزوجة ، لان لها اوانا واوقانا او مواسم معينة . وهناك اعتقاد شائع ان الحامل التي تتوحم اذا اشتت شيئا من المأكولات ولم يحضر لها ، فان هذا النوع من الطعام سيظهر على بشرة الوليد على هيئة بقعة تسمى « وحمة » كبيرة او

(١٣) واتساقا مع هذا حرص الحامل طوال ايام الحمل والوحم على الابتعاد عن كل المناظر القبيحة ، كمنظر الحمير او القرد مثلا ، او منظر الاشخاص المشوهين . لان الاعتقاد الشائع انه اذا وقع نظر السيدة الحامل على منظر شخص او حيوان قبيح ، فان وليدها سيكون قريب الشبه منه ، لان العين « لقاطة » كما يقولون . ولذلك تعتمد الحامل ان تنظر الى الاطفال والاشخاص ذوي الخلقة الجميلة والوجه الحسن ، لكي تلتقط عينها مناظرهم فيأتي الجنين على هذه الصورة الجميلة .

كذلك تحذر الحامل كل التحذير من « المخيلة » على اى شخص ، اى السخرية والتهكم على من كان اسمر مثلا او قزما او متوها او به اى صفة معينة بشكل عام . فان سخريتها من مثل هؤلاء ، وتهكمها عليهم ، يجعل وليدها يأتي متصفا بصفاتهم . انظر فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

صغيرة. وقد تظهر في وجه الوليد فتشوه منظره. ولذا يحرص الزوج وأهله على السعى لحضار ما تشتهى الزوجة الحامل، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومشقة. (١٤)

وتتعرض الام الحامل، ثم هي ووليدها بعد ذلك لآخطار الحسد. وكتب الدراسات الشعبية تزخر بعشرات، بل مئات، الشواهد والنماذج على ذلك. (١٥) فالطفل الجميل أكثر تعرضا للحسد من العادى والقبيح، والوحيد أكثر تعرضا ممن له أخوة، والذكر أكثر تعرضا للحسد من الانثى، وهكذا. وتلجأ الامهات الى اساليب شتى لدفع خطر الحسد، فالبعض يلبس اولادهن الذكور ثياب الاناث في الايام الاولى عقب الميلاد، بل بعضهن يطلق على الذكر اسم انثى. وكانت الامهات المصريات الموسرات على ما يحكى وليم لين يتركن اطفالهن في ثياب قدرة ومظهر رث خفا من الحسد وقد تعلق بعض الاسر على اطفالها الاحجبة المختلفة لحماية من الحسد. الخ.

وتتخذ اعظم الاحتياطات وأكثرها جدية ساعة مولد الطفل، بهدف حماية الام وحمايته هو. فتتلو الحاضرات الادعية والايات والصيغ والعبارات التي تستهدف تخفيف آلام الولادة والتعجيل بها ونهايتها نهاية حسنة سليمة. ويمثل انفتاح رحم الام في تلك اللحظة مصدر خطر - حسبما يرى المعتقد الشعبي في كثير من الثقافات - يجب التحرز من اخطاره وتجنب دخول ارواح شريرة من حيث يتدفق الدم. ثم ان هذا الدم نفسه موضع احساس مزدوج: فهو رمز للخير والنماء والتجدد والحياة الجديدة، وهو في نفس الوقت عنصر نجس ينطوى على خطورة غير معلومة وعلى تهديد للام والطفل والمحيطين. (١٦) ويحتم كل ذلك التصرف بحذر في الخلاص وبقايا الحبل السرى، ومعالجة الوليد بحكمة ودراية. الخ على اساس ان كل سلوك في تلك اللحظة ستكون له آثار بعيدة المدى على حياة الام والطفل، وعلى الطفل بوجه خاص. وترتفع درجة الاستعداد وتتخذ ابعادا مختلفة في حالات الولادات العسرة، حيث انه من المنطقى أن تزداد احتمالات الخطر التي يتعرض لها الام والطفل معا.

وبعد نزول الجنين من بطن أمه وليدا، تجرى له بعض الاستعدادات وتقدم له بعض ألوان الرعاية، كقطع الحبل السرى، ودهان جسمه ببعض المواد، وتكحيله. الخ ومن هذا أيضا عصر ثدييه (ساعة الميلاد ويوميا لمدة سبعة أيام، اعتقادا بأن هذه الممارسة تقى الطفل رائحة

(١٤) فوزية دياب، المرجع السابق، الموضع، وتبدي الدكنورة فوزية دياب بهذه المناسبة ملاحظة طريفة، حيث تقول: «والواقع ان رغبات الحامل في فترة الوحم تعد فرصة امامها وامام أهلها لاختبار شعور زوجها وأهل زوجها نحوها، وما يعملونه لها من محبة وعطف واهتمام وتسامح. ولذلك كثيرا ما تنتهز الزوجة هذه الفترة وتندلل على زوجها وأهله بطلب الاكولات والملبوسات المختلفة التي كانت تشتهيها قبل الحمل».

(١٥) أنظر على سبيل المثال وليم لين، المصريون المحدثون. شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلي طاهر نور الطبعة الثانية، الناشر غير مبين، القاهرة، ١٩٧٥، وكذلك أحمد أمين، مرجع سابق وغيرهما كثير.

(١٦) أنظر مادة «ميلاد الطفل» child birth في قاموس فرنك للفولكلور، التي سبقت الإشارة اليه، صص ٢١٧ - ٢١٨.

الطفل في التراث الشعبي

العرق الكريهة عندما يكبر) . و « الوطوة » (بالنسبة للبنات، بدهن ابطاها وعانتها بدم خفاش أو وطواط كما يسميه الفلاحون المصريون ، لكي لا ينمو الشعر في هذه الاجزاء عندما تكبر) . وفي تلك اللحظة ايضا تقدم للام بعض صور الرعاية ، كتدليك جسدها ، وتغذيتها .. الخ .

ولكن من أهم ملامح تلك الفترة وأكثرها خطورة وأبعدها تأثيرا على حياة الطفل فيما بعد كيفية التصرف في الخلاص وبقايا الجبل السرى . وسوف نركز دراستنا الباقية في تلك الفترة على هذا العنصر كنموذج للاهتمام الذي يمكن توجيهه الى سائر الموضوعات والعناصر التي أشرنا اليها على سبيل الإيجاز (١٧) .

الخلاص في المعتقد الشعبي :

من الملاحظ أن الخلاص يرتبط عند كافة شعوب الأرض تقريبا - المتخلف والمتحضر على السواء - ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ، وصحة ، وطباع ، ونجاح أو فشل الشخص الذي يولد فيه . ولذلك نجده يرتبط بالاعتقاد الانساني الراسخ الجذور في الروح الخارجية أو الروح التي لا تنفصل عن الجسد . ومن هنا أصبح ما يحدث للخلاص (وكذلك الجبل السرى وبرقع الجنين - وهو غشاء رقيق يغطي رأس المولود أحيانا) يؤثر في حياة الطفل كلها ، بل يحدد مصيره حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليد أو يضم روحه الحارس ، أو هو أخوه أو توأمه أو نظيره الحقيقي ، أو أنه مرتبط به ارتباطا غامضا ووثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وحظه ومصيره في الحياة .

وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوب الأرض وشتى الثقافات من كولومبيا البريطانية . الى تيراديل فويجو ، ومن أيسلنده حتى سيبيريا ، ومن أوربا حتى جنوب أفريقيا ، وعند شعوب الصين وأندونيسيا وجنوب المحيط الهادى . بل وحتى عند شعوب الهنود الحمر الأمريكيين . فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقدير وحرص شديدتين ، وتعمل على المحافظة عليه أو التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدى الجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقاد عند الشعوب المختلفة (١٨) . من هذا مثلا ما يقوم به هنود كواكيوتل الحمر في كولومبيا البريطانية حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقدين أن ذلك سوف يمنح هذا الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل . أما خلاص البنت فيدفن في أحد الأماكن المرتفعة التي تغطيها مياه الجزر لتكون امرأة ولودا .

(١٧) انظر حصرا شاملا بالعناصر والموضوعات التي يجب دراستها حول هذا الموضوع في الدليل الذي قمنا بإعداده مع بعض الزملاء لدراسة عادات دورة الحياة ، انظر محمد الجوهري وعلياء شكري وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، خاصة الاسئلة من ١١ حتى ٩٢ . وانظر كذلك وليم لين ، المرجع السابق ، واحمد أمين ، المرجع السابق ، وفوزية دياب ، المرجع السابق ، وغيرها من المراجع .

(١٨) النماذج التي سنستعرضها فيما يلي نقلا عن مثال من « الخلاص » بقاموس فونك للفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٢٤ - ٢٥ حيث يقدم مادة انثوجرافية وفيرة عن الموضوع .

ونجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفى عند شعب اليوكاغير "Yukaghir" فى شمال شرقى سيبيريا . اذ كانوا يلقون خلاص الوليد فى جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصفرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء . وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . أما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء فى اصبعها عند الخياطة) وابرة . ويلف كل هذا مع الخلاص فى لفة . والهدف من ذلك ان تصبح المرأة ماهرة فى بيتها .

وهناك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شعب الايمارا "Aymara" ، فى بوليفيا بأمريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا . فيغطون هناك الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدان ادوات العمل الزراعى أما بالنسبة للبنات فيدفن ومعه وعاء طهى صغير .

كذلك نجد فى جميع أنحاء اوربا أن المعتقد الشعبى السائد يرى أن مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبطة به . ولذلك يحرصون أكبر الحرص على ألا يعثر عليه حيوان ويأكله ، أو يتعرض للارواح الشريرة . لأنه لو حدث وعثر عليه أحد الحيوانات وأكله ، فإن الطفل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الذميمة (الجسمية او النفسية) لذلك الحيوان .

أما الاعتقاد بأن خلاص الوليد يحوى جزءا من روح ذلك الطفل فشائع فى أطراف الارض جميعا من أيسلنده حتى زنجبار ، ومن استراليا حتى سومطرة . من هذا ما يعتقد شعب الباجندا فى وسط افريقيا ، اذ يرى هذا الشعب ان الخلاص هو التوأم الحقيقى أو هو « قرين » الطفل المولود ، ولذلك فانهم يعمدون الى وضعه فى وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة أو لسان الحمل . بعدها يتحول الخلاص الى شبح يحل فى الشجرة المدفون تحتها . وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوفا من أن يقوم شخص من غير أقارب الطفل بالاكل من الشجرة أو الشرب منها . لأنه اذا حدث ذلك فان التوأم الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفى . وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود فى البيت ثم يموت .

أما توأم (أى خلاص) الملك عند الباجندا فيحفظ فى معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه . ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه من ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسحه بالزبد ، ويعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه . ثم يعيده فى النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد .

كذلك تعتقد قبائل جنوب اوغندا أن الخلاص عبارة عن كائن بشرى . ويحكى أيضا بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد فى الخلاص كتوأم للطفل . ومن هذه القصص تلك التى تحكى أن طفلا طلب من أبيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) فى الغابة . فقرر الاب أن يختبئ ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذى يلعب معه . وقد رأى الاب من مخبئه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل فى الاحراش ليلعب مع ابنه فأدرك أنه هو توأم ابنه .

الطفل في التراث الشعبي

وهناك حكايات عديدة جمعت من مناطق متعددة تكشف بوضوح عن ظهور التوأم من خلاص الطفل . وان كانت هناك بعض الحكايات التي تروى ظهور ذلك التوأم من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمال ولا يعتنون بدفنه .

والملاحظ أن الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل في الشجرة المدفون تحتها الخلاص يربط المعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من أجله . ففي « كالابار » في غرب افريقيا تزرع شجرة نخيل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خلاص ذلك الطفل . ويعتقد أن الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما أن نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل . واللافت للنظر حقا هو أن ذلك المعتقد وتلك الممارسة تنتشر في نيوزيلندا وجزر ملقا ، كما كان معروفا في منطقة « بومرن » بشمالى ألمانيا وفي بعض المناطق الاوربية الاخرى .

وقد حفل التراث العبرى القديم بكثير من الممارسات الطبية والمواد السحرية التي كانت اصنع من الرماد المتخلف عن طريق الخلاص . فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون أنه يفيد في علاج امراض هزال الاطفال الصغار . أما اذا خلط مع نبات أنف العجل (١٩) ووضع في وعاء صغير ملق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسد المؤذى . أما في الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص اقراص طبية . كذلك يستخدم هنود الايمارا (في بوليفيا بأمريكا الجنوبية) الرماد المتخلف عن حرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض .

أما العادات الشائعة في جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه . اذ تعتمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد في وعاء صغير ، ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشموع المضيئة وترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليلا لارضاء التماسيح . وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجع الى أن جميع الخلاص ليست سوى تماثيل (بمثابة اخوة أو اخوات لاقرانها البشر) ، أو لأن التماسيح هي مئوى أرواح أسلاف أولئك الناس . وأن تلك الممارسة تتم لكي تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوأم اليهم .

أما بالنسبة للتصرف في الخلاص في المجتمع الريفي المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه في حجرة الوالدة حتى تمر عليه ثلاثة « أذانات » . حيث تعتقد النساء أن ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد . فاذا فرض أن الولادة تمت في الفجر أو في الصباح مثلا ، فلا بد أن يبقى الخلاص حتى يمر أذان الظهر وأذان العصر وأذان المغرب .

ثم تحكى فوزية دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص . « ومن العادات المتبعة في التخلص من الخلاص ، أن يرمى في الصاغة اعتقادا بأن هذا يجعل الطفل ثريا في المستقبل ، أو يرمى في ماء البحر أو النهر أو الترعر اعتقادا أن هذا يجعل جروح الطفل في المستقبل سريعة الالتئام

(١٩) أنف العجل أو السمكة snap dragons نبات ذو زهر أبيض أو لرمزي أو أصفر .

بفسلها بالماء (٢٠) . ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا في أن تكون الزوجة ولودا مثل أنثى الكلب المعروفة بكثرة خلفها . وكثيرا ما تلجأ السيدات اللاتي يموت أطفالهن في سن معينة الى وضع الخلاص في قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن . ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ في مكان أمين . والمعتقدان هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت .

هذا ويراعى فيمن يرعى الخلاص أن يكون ضاحكا في اثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار . . . ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد أن الخلاص اذا خرج من الحجرة التي بها السيدة الوالدة ، فلا يدخل عليها مرة اخرى لاي سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ، أى انقطاع حملها بعد ذلك « (٢١) » .

الطفل والطب الشعبي :

أوضحنا في دراسة سابقة لنا عن الطب الشعبي أن فلسفة العلاج في الطب الشعبي تقوم على الاعتقاد بأن لكل داء دواء ، ومن ثم فإن كل مرض من الممكن شفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة في تلك اللحظة . وهنا يستحيل على أى طب أن يغير مشيئة الله . ولكننا نجد داخل هذا المفهوم أن المعتقد الشعبي يفسح مكانا كبيرا للعوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » أو قل سحرية ، أو بمعنى آخر تلك التي لا ترجع الى أسباب مادية معروفة ملموسة . فكثير من الامراض (يستوى في ذلك الحمى - ارتفاع درجة حرارة الجسم - أو الصرع أو حتى العمى) . يمكن أن تعلق بالعين أو الحسد (٢٢) .

ويندرج تحت هذا البند أيضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وأبرزها القرينة (أو أم الصبيان) والجن بصفة عامة ، فهي قد تعمل على إلحاق الضرر بالطفل . وأبرز خطر تمثله القرينة هو الاعتداء على حياة الطفل نفسه ، أو أخذ الطفل الانسى واعطاء الام احد اولاد الجن ، فيسمى هذا الجديد « مبدولا » (أى أن الجن ابدلوه) ، ويطلق ذلك بالذات على الطفل الدائم الصراخ ، والذي يتألم دائما لاسباب غير مفهومة (٢٣) .

ولما كان المرض يمكن أن يرجع الى عوامل نفسية أو روحية وأخرى مادية عادية ، فإن العلاج يمكن - أو يتحتم أحيانا - أن يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة : كالرقى والتمائم وما الى ذلك . كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية أو باستخدام مشروط الجراح أيضا . ولكن الملاحظ

(٢٠) هناك تفسيرات اخرى اقرب الى حقائق التاريخ الثقافي ، انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٢٢) انظر احمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، وكذلك ص ٣٢٤ .

(٢٣) بالنسبة للقرينة ، انظر محمد الجوهري ، الجريفي المعتقد الشعبي المصري ، مقال في المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٢ ، ص ٩٥ - ١٣١ ، حيث نجد معالجة لموضوع القرينة وتأثيرها على البشر وصور تدخلها في حياتهم بالصر ، خاصة الامهات الواضعات حديثا والاطفال الحديثي الولادة .

الطفل في التراث الشعبي

على أى حال أن الفئة الأولى من الوصفات تحتل المكانة الأبرز والأسبق . حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد ذات الطبيعة السحرية الخالصة (٢٤) .

إذا انتقلنا إلى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعها ، فسوف نجد أن الفئة الأولى - ذات الطبيعة السحرية - تضم كل العناصر المستخدمة في « الأعمال » السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للروح الإسلامية الصحيحة) ، (أو طاسة الرجفة) ، والأحجية ... الخ .

أما عن المواد والعناصر المستخدمة في النوع الثاني من الوصفات العلاجية ، وهى الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات . وكلها أشياء عادية قد تستخدم كماهى ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد أحيانا . وليس من الضروري أن يستخدم العنصر النباتي أو الحيواني كله ، بل أن الأمر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصر حيواني ، على عضو منه ، أو على أفراسات ذلك الحيوان . ولكن القاعدة العامة أن تكون مواد عادية مألوقة كالعسل أو الزيت ... الخ (٢٥) .

إلا أن هذه العناصر النباتية أو الحيوانية لا تستخدم في الغالب كما هى بحالتها الطبيعية . وإنما يتطلب الأمر تقييدها بعدد من الظروف والقواعد والإجراءات « الفنية » . أول هذه القيود وأبسطها قصر استخدام العنصر على وقت معين (٢٦) . ومن القيود الأخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل . ومن ألوان هذا التعقيد أن تضم الوصفة عددا من العناصر ، وأن ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد ... الخ .

تلك فكرة سريعة عن طبيعة الوصفات الطبية التي تستخدم في ميدان الطب الشعبي لعلاج الطفل . ولكن ما هى أبرز الأمراض ، التي تصدى لعلاجها تلك الوصفات ؟ هناك قائمة طويلة تتصل في أول الأمر بكون الطفل طفلا . فتأخر نمو الطفل عن أقرانه في أى مجال من المجالات ، خاصة التأخر في المشي أو التأخر في الكلام يجعله هدفا ضروريا لممارسة الوصفات الطبية الشعبية (٢٧) . وأمراض الأطفال هي الأخرى : كالسعال ، والحصبة ، والقراع ،

(٢٤) انظر بعض الملاحظات حول ذلك عند الكسندر كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٧ .

(٢٥) انظر شواهد على ذلك في مصر الفرعونية عند رانكه ، مصر والحياة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٩٤ . أما بالنسبة للمجتمع المصري المعاصر فتؤكد ذلك الخبرة العامة ، بصرف النظر عن التفصيلات والتحفظات التي ترد عند ذكر كل وصفة . وانظر كذلك وليم لين المصريون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) لعل هذا الفيد يمكن أن يفهم بشكل أفضل في ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للآوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر . فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكل بها .. الخ . وهي تفاصيل يمكن استيعابها بشكل أفضل بالرجوع إلى محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني من المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالسحر .

(٢٧) انظر عند وليم لين المرجع السابق ، وصفة لعلاج الطفل الذي تأخر في المشي ، ص ٢٢٨ .

والبكاء المستمر . الخ . وهناك قائمة أخرى من الامراض التي يعانى منها الطفل لانه يعيش في هذا المجتمع ، وليس لمجرد كونه طفلا ، اذكر منها على سبيل المثال امراض العيون ، والصرع ، والحمى ، والهزال (الضعف الشديد) ، والجرب الخ (٢٨) .

الطفل والممارسات السحرية الاحترافية :

قد يبدو هذا العنوان غريبا بسبب صعوبة تصور اشتراك الطفل في عملية سحرية احترافية ، فهو لا يمكن أن يكون ساحرا محترفا ، ولا يمكن أن يكون عميلا يلتمس وصفة سحرية عند أحد من السحرة . انما الذى يحدث أن هناك بعض العمليات السحرية - التي تتم على يد سحرة محترفين - يدخل فيها الطفل كأداة أو عامل مساعد في اتمام العملية .

والسبب في ذلك أن الطفل كائن نقى لم تعرف الشرور طريقها اليه ، وطبيعته خيرة مطلقة ، ولا يعرف الكذب ولا المداراة ، كما أنه أمين على ما يرى وما يسمع . فلن يحدث احدا بحقيقة ما رأى ، ربما لانه لن يفهم تماما دقائق ما يدور امامه .

ولا بد أن تتوفر في الطفل الذى يستخدم في مثل هذه الاعمال عدة شروط ، أولها وأهمها أن يكون دون سن البلوغ ، ويفضل السنة السابعة أو الثامنة ، لكى يستطيع أن يتحدث بوضوح ويصف ما يراه بدقة (٢٩) . والشرط الثانى أن يكون ذكرا ، فاستخدام البنات في مثل هذه الاعمال خطأ فادح . ثم قد يضاف الى هذين الشرطين شروط أخرى ، منها أن تكون علامات كفه ذات شكل معين ، أو يكون ذا ملامح فيزيقية معينة ، أو من أسرة معينة . الخ (٣٠) .

ومع ذلك فقد تصادف من السحرة من لا يتطلب في الطفل الذى يستخدم في « ضرب المندل » أو « فتح المندل » أى صفة خاصة ، سوى أن يكون دون البلوغ ، فهذا الشرط لا استثناء فيه . وقد لجأ الى هذا الاسلوب الساحر الذى حكى عنه وليم لين في كتابه الذى سبقت الاشارة اليه (صفحة ٢٣٥) . ولكنه في تجربة أخرى أجرى التجربة على ثلاثة صبيان على

(٢٨) انظر دراسة مفصلة عن الطب الشعبي ، محمد الجوهري ، مقدمة في دراسة الطب الشعبي ، مقال بمجلة الحكمة ، طرابلس ، عدد خريف ١٩٧٩ ، وهي تضم عديدا من الشواهد المؤلفة لكل غرض من اغراض العلاج الطبى الشعبي .

(٢٩) انظر تحديد السن عند وليم لين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٣٥ وما بعدها ، ونموذج مفصل عند احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٢٨١ وما بعدها .

(٣٠) من هذا مثلا ان يكون رسم كفه يقرأ ٧١ ، و ١٧ ، لكى يضمن ذلك نجاح المندل . احمد امين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . ومع ذلك فليس من المعتم ان كل طفل يصار لذلك . فمن الممكن ان يحدث كما يحكى لين ، وكما تدل خبرتنا الشخصية في دراستنا لبعض السحرة المحترفين زممر ، ان الساحر قد يجرب مع طفل أو أكثر ، ولكن ايا منهم لا يستطيع مع ذلك ان يرى شيئا في كفه . فاما ان يؤجل العملية ، أو يبحث عن طفل آخر . ولما سالت أحد السحرة المحترفين عن تفسير عدم صلاحية هذا الطفل أو ذاك ، اجاب بان هناك عدة اسباب محتملة لذلك . اقربها ان يكون الطفل قد بلغ العلم مبكرا ، ومن الاسباب الاخرى ان يكون واقعات تحت تأثير بعض الارواح أو « الاسياد » الذين يعارضون في اتمام ذلك العمل . انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري ، استخدام اسماء الله في السحر ، (بالالمانية) ، رسالة دكتوراة منشورة ، بون ، ١٩٦٦ . انظر عرضا مفصلا لهذا العمل عند : علياء شكري ، التراث الشعبى المصري في المكتبة الاوروبية ، الفصل الثامن ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ .

التوالى ، « ولكنها لم تنجح تماما مع أولهم ، وفشلت مع الآخرين » . وبناء على ذلك أجل الساحر التجربة الى يوم آخر (صفحة ٢٣٦) .

فالطفل بهذا المعنى وسيط روحى غير متخصص ، سبق وما زال (فى ثقافتنا) الوسطاء الروحانيين المعروفين الذين تستخدمهم اليوم جمعيات وهيئات تحضير الارواح للاتصال بهذا العالم فوق الطبيعى .



ثانيا : العادات والتقاليد الشعبية المتعلقة بالطفل :

لن نحتاج الى أن نكرر هنا بعض ما قلناه فى موضع سابق من هذا المقال ، من أن حديثنا الذى سبق عن المعتقدات قد تضمن بالضرورة اشارة الى طائفة من العادات والتقاليد . وبالمثل لن تقدم فى هذه الفقرة عن العادات اشارات الى المعتقدات الكامنة وراءها والدافعة اليها .

ونلاحظ بعد هذا أن العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مرحلة حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية او البلوغ ، أو حتى الزواج . وسنقتصر فى عرضنا على التوقف عند بعض « المحطات » الهامة على طريق هذه الرحلة الطويلة .

١ - السبوع :

السبوع هو اليوم السابع لولادة الطفل ؛ ويقام له احتفال خاص ، يكون أكثر بهاء وكلفة فى حالة المولود الذكر . وتحت أيدينا عدة أوصاف مكتملة لهذا الحفل ، نذكر على رأسها وصف شابرول ، ووليم لين ، وأحمد أمين ، ورشدى صالح ، وفوزية دياب .

ونقدم فيما يلى وصفا مختصرا لهذا الحفل ، نعلق بعده على التفسيرات المطروحة لبعض الممارسات التى تتم اثناءه ، وسوف استعين بالوصف الوارد عند فوزية دياب مع اسقاط التفسيرات التى قدمتها . ذلك أنها خلطت فيها بين تفسيرات الاخباريين لما يمارسونه من سلوك ، والتفسيرات العلمية التى يجب ابرازها فى مثل هذا العرض . ولذلك لا نعرف بالتحديد هل التفسيرات الواردة تمثل خلاصة بحثها ودراستها أم أنها مستقاة من الاخباريين لما فيها من أخطاء تجانب حقائق التاريخ الثقافى المعروفة (٣١) .

« يبدأ الاستعداد للاحتفال منذ الليلة السابقة على السبوع ، بما يسمى « تبييتة السبوع » التى تشمل استحمام المولود والباسه ملابس نظيفة . ثم يؤتى بصينية كبيرة يوضع فيها ماء استحمام الطفل الذى يسمى « ماء الملوك » ، ويوضع فيه مقدار من حب الفول . ثم يوضع وسط الصينية قلة مملوءة بالماء اذا كان المولود أنثى . أما اذا كان المولود ذكرا فيوضع إبريق بدلا من القلة . ويزين الإبريق أو القلة بشمعة كبيرة تظل مضيئة الى أن تنطفئ من تلقاء

نفسها ... ويوضع تحت رأس المولود بعض الخضروات ... كما يوضع بجواره أيضا اناء به سبعة أصناف من الحب مثل القمح والشعير والذرة والفول والارز والحلبة والبرسيم .

وفي صباح اليوم السابع تأتى المدعوات من النساء ومعهن أطفالهن للاحتفال بالمولود . وتأتى القابلة فتكحل عينى الطفل بالكحل الأزرق . ثم تضعه فى غربال ، وتضع معه الحبوب السبع المذكورة آنفا . وبعد أن تطلق البخور المضاف اليه الملح ، تغربل الطفل قليلا ، وهى تغنى أغنية خاصة بالسبوع (تختلف من منطق لآخرى) ... (٣٢) وبانتهاء الاغنية يوضع الغربال على الارض لتخطو الام فوقه سبع مرات ... وعلى مقربة من الغربال تدق احدى السيدات « الهون » او ما يشبهه لاحداث صوت عال .. ومع هذا الدق تقول القابلة « اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبوك ، شرق شرق ، غرب غرب » ...

وبانتهاء هذا الاجراء يؤخذ الطفل والحبوب من الغربال الذى يتدحرج على الارض أطول مسافة ممكنة .. ثم تحمل القابلة الطفل وتدوربه فى أرجاء المنزل لتزفه ... ويمشى وراءها الاطفال الصغار ممسكين بالشموع المضاء وهم يرددون وراءها أغنية برجالاتك .

وهنا تزغرد النساء ويتهلل الجميع وتنثر القابلة الملح ... بينما تردد بعض الادعية والدعوات ... ثم يوزع على الموجودين الحلوى والحمص والفول السودانى مع شراب المغات . اما الفول المستنبت فى ماء الملوک (وهو ماء استحمام الطفل) فتنظمه السيدات الموجودات فى شكل عقود صغيرة (وذلك بعد ثقب كل حبة بالابرة) ، وتوزع على الاطفال . وفى أثناء ذلك تعمل القابلة حجابا للوليد يحتوى على الحبات السبع المذكورة سابقا ، مع قليل من الملح وبعض قطع النقود الصغيرة . وتعلق هذا الحجاب فى خيط حول عنق الطفل وهى تردد أثناء ذلك بعض الدعوات والصيغ الوقائية المسجوعة ... اما ماء الابريق أو القلة ، فيسكب بجوار شجرة مخضرة مترعرة ... (٣٣) . وعلاوة على هذا يعد السبوع مناسبة هامة لتقديم النقوط سواء بمبادرة من المدعوات أو ردا لنقوط سبق أن قدمته أسرة المولود فى مناسبة سابقة .

ونتناول فيما يلى بالمناقشة السريعة أهم التحليلات والتفسيرات التى صاحبت هذا الوصف، والتى لم تحدد المؤلفة كما قلنا مصدره بوضوح ، هل هى بيانات الاخباريين أم تفسيرات علمية مستمدة من دراسة تاريخ الثقافة .

١ - فبالنسبة لتسمية هذا الاحتفال بالسبوع ، فمن غير المعروف فى أى من كتب الفولكلور او التفسيرات العلمية أنه فى هذا اليوم « تفارق الملائكة السبعة الطفل ، بعد أن كانت تحرسه طيلة

(٣٢) انظر عند فوزية دياب نص الاغنية ، وانظر نصوصا اخرى عند رشدي صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، وكذلك عند وليم لين ، المرجع السابق ، وتحت أيدينا يضع مئات من النصوص المسجلة من مختلف أنحاء مصر بنصوص وعبارات مختلفة .

(٣٣) نقلا عن فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ - ٣٢٣ . يلاحظ القارئ ان النقط الفاصلة بين بعض الجمل قد وضعناها لتحل محل تفسيرات المؤلفة التى أسقطناها .

هذه المدة من الجن والعفاريت » (كما تشير المؤلفة على صفحة ٣٢٠) . وانما السر في تحديد اليوم هو دلالة الرقم ٧ ، الذى يمثل عددا مكتملا في نظر المعتقد الشعبي ، شأنه في ذلك شأن العدد أربعين والعدد مائة . ولذلك نجد بعض المجتمعات تحتفل بهذه المناسبة في اليوم الأربعين لمولده وليس في اليوم السابع . ومن هنا فان البحث عن دلالة اختيار اليوم يجب التماسها في المعتقدات الشعبية المتعلقة بالارقام والاعداد ، وليس في مجال آخر (٣٤) .

ب - بالنسبة للشمعة التى تضاء ليلة الاحتفال في القلة أو الابريق ، فهي لا تضاء « ، اكراما للملائكة واعترافا بفضلهم في حراسة الطفل من الجان والعفاريت والاشرار » ، (كما قالت المؤلفة في الموضع السابق) ، وانما لأن النار - أيا كان مصدرها - هي قوة حامية وحافظة من الارواح الشريرة ، والمقصود هنا « أم الصبيان » (أو القرينة) بالذات . كما أن النور في ذاته عامل وقاية من تلك الارواح الشريرة ، حيث أنها ترتاح وتعيث فسادا في الظلام . فقوة النار وتأثير النور هما التفسيران المحتملان لضاءة الشموع في تلك الليلة .

ج - أما وضع بعض الخضروات تحت رأس الطفل ليلة الاحتفال بالسبوع ، فهي من الممارسات التى تهدف الى الانماء والخير والبركة بصفة عامة ، كما ذكرت المؤلفة ، رغم أنها وضعت هذا التفسير بين قوسين مما يرجح معه انه تفسير الاختاريين ، على خلاف التفسيرات السابقة التى اطلقتها بين الكلام دون تمييز خاص مما يؤكد أنه تفسير من وضعها هي .

د - أما بالنسبة لوضع سبعة حبوب في الاناء الموضوع بجوار المولود ليلة السبوع ، فليس الهدف منه كما جاء في الموضع السابق : « ويرمز هذا الاجراء الى أمل أهل الطفل في أن يكون فلاحا يزرع هذه الانواع كلها » . انما تفسير ذلك يجب أن يلتصق في عنصرين :

الاول : هو الرقم سبعة الذى يدل على الكثرة أو الاكتمال ، **والثاني :** هو الحبوب التى ترمز الى النماء والخصوبة .

هـ - وبالنسبة لخطو الام سبع مرات فوق وليدها الموضوع في غربال على الارض ، فهي لا تفعل ذلك « اعتقادا بأن هذا الاجراء يقى الطفل الاصابة بداء القراع اذا خطا فوقه أحد في المستقبل » . ذلك أن الخطو أو التخطية فوق شيء أو كائن لما هو توحيد بين كياني القائم بالتخطية والمخطو عليه ، أو هو اكتساب كل منهما لقوى وعناصر الكائن الآخر ، كما تفعل المرأة العاقر في تخطية احجار مقدسة أو بخور أو عمل سحرى معين ، وتخطية الشيخ الساحر للمريض ... الخ . فالتخطية في المعتقد الشعبي لها مدلول عام موسع ينطبق في هذا الموقف متخذة مدلولاً متميزاً معيناً ، ولكنه مشتق من ذلك المدلول العام . فالام - بما يسكن جسدها من قوى روحية - تحمى وليدها ، وهي تحقق نوعاً من الالتحام والتكامل بين كيانهما وكيانه .

(٣٤) انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالاعداد .

و - اما الاصوات التي يحدثها المحتفلون بالسبوع بالدق في الهون (الهون وعاء نحاسى له يد من نفس معدنه يستخدم أصلا لطحن الحبوب الدقيقة بكميات قليلة) أو ما يشابهه . فنجد أن التفسير الشائع والذي صادفناه لدى عشرات الاخباريين فيما قمنا به من تسجيلات ميدانية هو الرغبة في تويد الطفل على ضوضاء الحياة وعلى الاصوات ، لكى لا يفزع كلما سمع صوتا . أما المؤلف فلم تثبت هذا التفسير - الحديث في نظرنا - ولكنها قالت ان ذلك يتم لجذب سمع الطفل . والواقع ان احداث الاصوات العالية له هدف معلوم من دراسة تاريخ الثقافة هو طرد القوى الشريرة وإبعادها . فالصوت يؤدي هنا نفس الدور الذى تؤديه النار ، أو يؤديه الملح في دفع الارواح الشريرة واتقاء خطرهما . وهو معروف في ثقافات عديدة .

ز - ويصدق تفسير المؤلف عن مغزى الزفة أو الجولة التى تقام للمولود المحتفى به داخل أرجاء المنزل وفي كل غرفة من غرفه ، فهى تستهدف « تقديمه » الى ساكنيه غير الظاهرين « ، واسمهم في المعتقد السحري الرسمى (الاحترافى) « القمر » (٣٥) .

ح - كما يصدق تفسير استخدام الملح لدرء الحسد ، وهو يستخدم على العموم كالشبه لمقاومة الارواح والقوى الشريرة ودرئها عن الانسان . ويدخل في عدد من العمليات السحرية لاداء نفس الوظيفة .

٢ - التسمية :

تعنى اللغة الشعبية بصفة عامة وأسماء الاعلام بالذات محاولة لفهم العالم المحيط وترتيبه وفق نظام خاص . وتخلق الاسماء بين الدوات الفردية التى تهتم الشخص نوعا من العلاقة الخاصة التى تحقق التفاعل وتيسير التكامل . ويدلنا تاريخ الثقافة العام أن معرفة اسم الشخص أو الشيء تعطيك سطرة على هذا الشخص أو الشيء . وهذا معتقد شعبى قديم جديد في نفس الوقت . فالاسم قوة ، والاسم والمسمى كيان واحد أو شيء له وحدة واحدة ، من عرف الاسم استطاع من خلاله أن يؤثر على صاحبه . فالاسم على هذا النحو ليس مجرد وسيلة للتعريف والتحديد وتصنيف الاشياء والاشخاص ، ولكنه جزء من وجود المسمى به .

وفي بعض الثقافات كان يعتقد أن الطفل الوليد لا تدب فيه الروح الا بعد أن يتسمى باسم معين ، فالاسم والوجود الروحى شيء واحد . ومن هنا يمكن أن نفهم سر الرابطة التى يقيمها المعتقد الشعبى بين الاسم والمسمى ، فالاسم ينبىء عن مستقبل صاحبه ومصيره . ولذلك يحرص الاهل في العادة على اختيار اسم لوليدهم كشخص عرف عنه التقوى أو الصلاح أو النجاح أو العمر المديد ... الخ تلك الصفات المرغوبة .

(٣٥) بالنسبة لهذا المفهوم أرجع الى مؤلفنا ، استخدام أسماء الله في السحر ، مرجع سابق ، الملحق رقم (١) .

ولهذا يطلق على الاطفال الذكور المسلمين أسماء الرسول وأهل بيته وصحابته وخلفائه الراشدين ... وغيرهم من الصالحين . وفي مناطق أخرى يسمى الولد الاول على اسم جديه لابييه ، ثم يسمى الثانى على اسم جده لأمه ، ثم على اسم أبيه وأعمامه وهكذا . اما البنات فتطلق عليهن أسماء بنات النبى وزوجاته وغيرهن من الصالحات . كما تطلق عليهن أسماء الزهور ... الخ (٣٦) .

ولكن مع ذلك فان أسماء الاشخاص تختلف من اقليم لآخر داخل المجتمع الواحد ، تماما كما تختلف من مجتمع لآخر . ومن عوامل ذلك اختلاف نسبة التركيب الدينى من مجتمع لآخر ، واختلاف أسماء الاولياء المحليين من منطقة لأخرى (على اعتبار أن نسبة كبيرة من الاطفال يسمون بأسماء الاولياء المحليين) ، وتباين المناطق في قربها لتيارات « الموضة » في الاسماء ... الخ ذلك من العوامل التي يمكن الكشف عنها وتحديد هافى كل حالة .

وقد لفت نظر كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن أسماء المصريين طائفة من الاسماء الغريبة والمضحكة (مثل : الامور - الحيوان - بلاص - حلوف - أبو طبيخ - خيشة - جحس - غراب - عجل - فار - قط - وزه - الاعمش - الاخيش ... الخ) . ولكن العجيب أن تلفت تلك الاسماء نظر باحث مصرى الى أن يقف منها موقف السخرية (مثلا : الدكتور احمد أمين فى قاموسه ، ص ٤٤) . والحقيقة فى تلك الاسماء أنها اطلقت على أصحابها انطلاقا من معتقدات شعبية ، وليست مجرد صدى أو تعبير عن « ذوق » أصحابها . فالام التي يموت لها ولد أو أكثر تطلق عليه اسما قبيحا غير مألوف لكى يعيش . (٣٧) والام التي يتعثر حملها فترة من الزمن ، تطلق على وليدها الجديد اسما قبيحا أيضا لكى يعيش . كذلك الحال بالنسبة للام التي تنجب ولدا ذكرا بعد عدد من الاناث ، فانها تخشى على حياته أشد الخشية . ومن وسائل الحفاظ عليه أن تطلق عليه اسما قبيحا ... وهكذا .

لهذه الاسباب جميعا كان حرص الناس كبيرا على اختيار اسم لوليدهم . ونعرف أنه كانت تتم فى الماضى عمليات استطلاع للنجوم والكواكب لمعرفة طالع المولود والكوكب الذى يناسبه ، فيختار له المنجم الاسم المناسب . ومع ثبوت الشواهد التاريخية التى تحدثنا عن ذلك أننا لا يمكن أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتبع فى تسمية أبناء الشعب العاديين .

(٣٦) انظر احمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ولیم لیں ، المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ ، وكذلك ريشارد فايس ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣٧) ذلك أن الارواح الشريرة تترىص لكل ما هو جميل ، فتصيب الوجه الجميل ، والحيوان الجميل ، وكذلك بالطبع لاسم الجميل ، فتقبح الاسم وسيلة لرد تلك القوى والارواح الشريرة من هذا الطفل ، بهدف انقاذه من الامراض أو الموت . هذا وقد تعرضنا لموضوع الاسماء بتفصيل كبير فى دراستنا عن استخدام أسماء الله فى السحر ، (باللاتينية) ، انظر عرضا وافيا لها عند علياء شكرى ، التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوربية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وتحدثنا كتب التراث (وكذلك بعض الاخباريين المتقدمين في السن) عن طريقة أخرى أكثر يسرا ويمكن أن تكون في متناول عامة الناس . حيث يقع اختيار الاسرة على عدد من الاسماء ، ولكنهم لا يستطيعون - أولا يريدون - اختيار أحدها بالذات . فيحضرون عددا من الشموع يماثل عدد الاسماء التي وقع عليها الاختيار المبدئي . ويطلقون على كل شمعة اسما منها ، ثم يشعلونها ويتركونها مشتعلة الى أن تنتهي . ولا بد أن أحداها ستظل مشتعلة ولو لفترة بعد نفاذ كل الشموع ، عندئذ يطلق على الوليد الاسم الذي سميت به تلك الشمعة (لانها أطولهم عمرا ولاعتبارات أخرى) .

ومع أن استخدام هذا الأسلوب في التسمية قد انحسر ، إلا أنه يدلنا بشكل واضح على أهمية اختيار الاسم الذي ما زالت الاسر توليه اهتمامها ، وفقا لطرق الاختيار التي ألحنا اليها آنفا .

٣ - الختان :

الشائع أن يتم الختان للذكور (خاصة في المجتمعات العربية الإسلامية) أما ختان البنات ، فهو أقل انتشارا . والنظرة الدينية لكليهما تختلف ، ذلك أن ختان الولد أوجب ، والاتفاق عليه أكبر بين الفقهاء . وسأقتصر فيما يلي على الكلام عن ختان الولد .

وليس للختان سن معينة يتم فيها ، وتحت أيدينا شواهد عن اتمامه في سن مبكرة نسبيا ، وشواهد عن اتمامه في سن السادسة أو السابعة ، وأخرى عن اتمامه قبل البلوغ على أي حال ، وأخرى عن ضرورة اتمامه قبل الزواج (٣٨) . وهذا الاختلاف الشائع في تحديد مواعيد الختان ، يدلنا على أنه قد وعى ممارسوه كثيرا من دلالاته الطقسية التقليدية باعتباره أحد « المحطات » الرئيسية في رحلة الانسان عبر الحياة ، والتي تدل على تجاوزه مرحلة الاولاد ودخوله مرحلة الرجولة ، أو الشباب (٣٩) . حيث تدلنا المواعيد السابقة أحيانا على ربط الناس بينه وبين قدرة الولد على أداء الفروض الدينية (لان وجود الغلفة يمنع الطهارة ، والطهارة شرط لأداء الصلاة) . وأحيانا بينه وبين القدرة على ممارسة الجنس مع الزوجة . . . الخ . بل اننا نجد هذه المرونة تبلغ مداها عندما تنتهز أسرة الولد مناسبة أحد أفراس الأقارب أو الجيران لأجراء عملية الختان لأولادها . فهنا يكفي بتحديد مجال زمني معين يعد الولد فيه صالحا لأجراء هذه العملية ، ولكنه لا يتحدد لذلك سن معينة تحديدا دقيقا .

(٣٨) أنظر حول هذا الموضوع : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي ، مرجع سابق ، وكذلك وليم لين ، مرجع سابق ، ص ٥٢ وما بعدها ، وشابروول ، مرجع سابق ، ص ٥٧ - ٥٩ ، وأحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٣٩) أنظر مثلا تعبير شابروول عن شيء قريب من هذا : « . . . ويعتبر الختان عند المسلمين (حديثه عن مصر اوائل القرن التاسع عشر) بمثابة الخطوة الاولى في الحياة . إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية . إذ يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصري بتلنزلها وطيشها . ويمكن القول أنه بهذه العملية يولد مره أخرى ، لكنه في هذه المرة يولد رجلا » ، شابروول . المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وتقدم لنا المراجع المذكورة آنفا عدة أوصاف لمركب ختان ولد ، كلها مستمدة من المجتمع المصري في فترات تاريخية مختلفة . واللافت للنظر في هذه الأوصاف جميعا أنها تبرز هبة الرفة ، فموكب الختان كموكب العرس ، ولكن بشكل مصغر ، والطفل المختون « عريس » ، كما يسميه أهله والمحتفلون به . والرفة تعنى -علاوة على اظهار الفرحة - الاشهار ، فهذا الطفل قد بلغ اليوم مبلغ الرجال . وتتفاوت عناصر الاحتفال من زينة الطفل ، وهيئة ركوبه ، والماكولات والمشروبات التى توزع ، وعدد المشتركين ، والعناصر الموسيقية أو الغنائية ... الخ تتفاوت كل تلك العناصر الاحتفالية حسب مكانة الطفل المحتفى به داخل أسرته حسب مكانة تلك الأسرة داخل المجتمع المحلى .

ولكننا نلمس لحفل ختان الطفل ملمحا آخر أشد تمايزا وأكثر إثارة وادعى الى الاهتمام من كل ما سبق ، وحيث تعد تلك المناسبة ، « امتحانا » لرجولة الولد المختون ، بكل معنى الامتحان . فعملية ازالة الغلفة تتم على مرأى من أفراد المجتمع المحلى جميعا ، ذكورا واناثا ، ولا تستخدم فيها بالطبع أى مخدرات أو مهدئات طبية لتخفيف الألم ، وعار على الولد المختون أن يصدر أى تعبير عن الألم ، والا فقد ماء وجهه في المجتمع الى الابد ، واثار ذلك على سمعة رجولته بين ذويه . وهذا البعد هو الذى يحملنا على أن نقدم فيما يلي وصفا لاحد حفلات الختان من المجتمع العربى السعودى ، كما سجلته علياء شكرى عن بعض الاخباريين . وهى صورة لم تكن معروفة من قبل فى أى من كتب التراث الشعبى عربية أو اجنبية عن هذا المجتمع .

« ... تجرى عملية الختان للذكور فقط . وكان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره وربما أكثر . ثم يجمع الاقران من صبيان القرية (٤٠) فى احدى ساحاتها فى مظهر يتم عن بواذر الرجولة كحمل السلاح من بنادق أو سيوف وغيرها ، وعدم الاكتراث أو الخوف من هذه العملية التى يفوق تعذيبها وألمها كل تصور . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لتمامها ، وهم يرددون بعض اشعار الحماسة وعبارات فخر الصبى بأسرته وأسرته اخواله وأجداده ، كان يقول أنا فلان من فلان واخوالى فلان وفلان من أسرة كذا .. وهكذا .

وبعد أن ينتهى الجميع من عملية الطهارة يقوم كل واحد بربط القضيب بخيط يسمى « حتيلة » وربطه بحزام فى أسفل البطن يسمى « حتيله » ليمنع القضيب من الالتصاق فى الأرجل بواسطة الدم الذى ينزف من القضيب بكميات كبيرة حيث يقطع أرجل الصبى المختون ، والذى لا يرتدى سوى ثوب يحرس على سلامته من الدم برفع يديه .

(٤٠) القرية هي « سبت العلابة » احدى قرى قبيلة بلقرن التى تقطن جبال السروات جهة الجنوب ، والتي يبلغ عدد قراها حوالى ١٤٥ قرية . وتقع سبت العلابة على الطريق بين الطائف وأبها ، حيث تبعد عن الطائف بمسافة ٢٠٠ كيلو متر وعن أبها بمسافة ٢٢٠ كم . انظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ٣٥ وما بعدها ، حيث توجد معلومات مفصلة عن القرية .

بعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارع القرية في شكل عرضه شعبية (رقصة شعبية ذات شكل خاص) وكل واحد منهم يمسك بثوبه، حيث يرددون قصائد البطولة والشجاعة ثم يغادرونها إلى القرى الأخرى بنفس المظهر .

وبعد أن يشعروا أهل القرية التي وصلوها بأنهم أجروا عملية الختان يقومون بأداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم أهل القرية باستقبالهم واستضافتهم حسب إمكانياتهم وظروفهم . فتارة يتناولون في إحدى القرى وجبة وفي أخرى ربما يقضون نهارا كاملا . وهكذا تستمر زيارة القرى من قرية إلى أخرى حيث يستقبلون ويضيفون في كل قرية يزورونها . وليس هناك عدد محدد لأيام الزيارة التي كانت تتم مشيا على الأقدام .

وفي اليوم الثاني لعملية الختان يحفر في الأرض حفرة ضيقة يبلغ عمقها حوالي ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر حيث يستلقي الصبي المختون على بطنه في وضع يسهل تعرض القضيب لحرارة النار . وعندما يحاول الهرب من شدة الألم يكون هناك أحد أقرانه يعمل على إرغامه على الصبر وتحمل حرارة النار ، وذلك بأن يدوس على ظهره بأحد قدميه . وبعد هذه العملية التي تستمر لوقت يسير ينظف من الصديد الذي قد تكون عليه ويوضع عليه كمية من قشرة الجبر بعد سحقه سحقا جيدا .

وتستمر هذه الطريقة وهي التسخين على النار ثم تنظيف الصديد ووضع طبقة من مسحوق قشرة نبات الجبر لعدة أيام ريثما يندمل الجرح . ولا يخفى ما لهذه العملية من الألم وتعذيب (٤١) .

٤ - أعياد الميلاد :

ربما يبدو للبعض أن موضوع الاحتفال بأعياد الميلاد من « الموضوعات » الجديدة التي لا يصح أن يلتفت إليها دارس التراث الشعبي ، لأنها لا تدخل في اختصاصه ، فإذا كان يهتم بالممارسات والمعتقدات التقليدية المتوارثة ، أي القديمة المستمرة ، فلا يصح أن يهتم بهذه الموضة . والحقيقة أن دارس التراث الشعبي لا يغفلون ولا يستطيعون أن يتجاهلوا التجديدات التي تطرأ على السلوك التقليدي للشعب . فهذا الموضوع فوق أنه يرصد عناصر جديدة من التراث ، فإن الدراسة المتعمقة قد تكشف أن هذا الذي نظنه شيئا جديدا ، ليس في الحقيقة سوى أحياء لممارسات قديمة ، ربما بنفس شكلها القديم المندثر، وربما في ثوب جديد يلائم ظروف العصر . كما أن هذا التجديد قد يحدث نتيجة اتصال ثقافي بمجتمعات جديدة ، نقلت إلينا أو نقلنا عنها بعض العناصر السلوكية والاعتقادية الشائعة عندها . ولكن يجب أن ندرك بوضوح أن سلوكا

(٤١) انظر علياء شكري ، المرجع السابق ، صص ١٣٥ - ١٣٧ .

وبعد أن فرغت من وصف عملية الختان كما كانت تحدث في الماضي القريب ، وهو ما أوردناه بنصه ، بدأت تستعرض الوضع الراهن لهذه المناسبة وكيفية إجرائها والاحتمال بها ، انظر ص ١٣٧ وما بعدها . وقد درست المؤلفة في هذا الكتاب ثلاثة مجتمعات محلية في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية ، وقد تناولت الموضوع في كل قرية من القرى الثلاث .

جديدا مثل الاحتفال بأعياد لا يمكن أن يلقي قبولا وينتشر الا اذا كان يستجيب لشروط وأوضاع جديدة طرأت على المجتمع المستقبل الذي تقل هذا السلوك الجديد وأذاعه بين أبنائه . ولعلنا نلمس ان هذا الانتشار الواسع المدى - في المناطق الحضرية من بلادنا أساسا - لعادة الاحتفال بأعياد الميلاد انما هو تعبير عن المكانة التي أصبح يحتلها الطفل في الأسرة في عالم اليوم (٤٢) .

لكل هذه الأسباب لا نعجب عندما تتصدى دراسة كهذه لموضوع الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال في الأسرة العربية المعاصرة .

واشارتنا المحددة الى « اعياد ميلاد الاطفال » تعنى ان أغلب الكبار ما زالوا يستنكفون او ينفرون من الاحتفال بمناسبة ذكرى مولدهم، هذا اذا طرحت الفكرة أصلا . فالشائع في المناطق الحضرية ، وفي الطبقات الاجتماعية الوسطى والعليا أن يتم الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فقط .

واذا أردنا أن نعود الى الوراء لنتبين أصل عادة الاحتفال بعيد الميلاد ، فسوف نجد أن الفرس والافريق كانوا يحتفلون بعيد ميلاد الشخص بمناسبة لاهياء ذكرى الاجداد ودعم صلة المرء بأسلافه . كما أن الاحتفال بعيد الميلاد لم يكن احتفالا بالشخص المحتفى به نفسه بقدر ما كان احتفالا بالقدس او الاله (المحلى) الذي يحمى ذلك الشخص .

ولذلك حدث في فجر المسيحية أن رفضت الكنيسة بشدة عادة الاحتفال بعيد الميلاد لكونها « ممارسة وثنية » . ولم يبدأ الاحتفال بعيد المسيح نفسه الا في القرن الرابع الميلادي (وقد كان ذلك يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام) .

والملاحظ بصفة عامة أن الاحتفال بعيد الميلاد في المجتمعات الغربية ليس على تلك الدرجة من العمومية والانتشار التي نراها ، او حتى يظنها أبناء الاوروبيين (٤٣) . فالاحتفال بعيد ميلاد الشخص هو أصلا أكثر شيوعا في الطبقات والقطاعات المسورة من المجتمع . ويكثر الالتزام به في بعض البلاد اذا صادف فترة الشتاء (باعتبارها وقت راحة من العمل الزراعى ، او من العمل بصفة عامة) ، وهو أكثر انتشارا في الاجواء المناسبة منه في اليوم الغابر السيء الطقس ، وهو كذلك يقام بمعدل اكبر في أيام الاحاد أكثر منه في أيام الاسبوع العادية .

وهناك بعض المناطق الاوربية التي تقتصر على الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، او أعياد الميلاد عند بلوغ رقم مكتمل . (الخمسين ، والستين ، والسبعين ، او الخامسة والسبعين) .

ولكن الملاحظ أن الاحتفال بأعياد الميلاد بات موضة عامة شديدة الانتشار في كل أنحاء أوروبا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بحيث سقطت كثير من التحفظات والتحديدات التي كانت تراعى من قبل ، والتي ذكرناها آنفا . كما يلاحظ أيضا أن الاجيال الشابة والصغار أكثر

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل عند علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة .

١٩٧٩ .

(٤٣) انظر ريشارد باتيل ، قاموس الفولكلور (بالالمانية) مرجع سابق ، مادة « عيد الميلاد » ، ص ص

٢٤٣ - ٢٤٤ .

ارتباطا اليوم بالاحتفال بهذه المناسبة واكثر حرصا على استمرارها والالتزام بها . وعن ذلك الوضع نقلت كثير من الطبقات المسورة والوسطى في مجتمعاتنا العربية عادة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل .

٥ - الاحتفال بالبدايات الاولى لما يفعله الطفل

القاعدة العامة أن الأشياء التي يأتيها الطفل لأول مرة ، أو تؤدي له لأول مرة ، تكون موضع اهتمام المحيطين به ويسجلونها بعناية ويتندرون بها ، وربما يحتفلون بها على نحو أو آخر ، كما سيتضح فيما بعد . ونفس الاهتمام يوجه بالطبع للأقوال أو العبارات ، بل والأصوات ، التي تصدر عنه لأول مرة . وإذا تجاوزنا هذا المستوى الأولى ، نجد اهتمام الأسرة ، وخاصة الأم ، بكل شيء يفعله الطفل لأول مرة ، كخروجه من البيت لأول مرة ، وذهابه إلى « الكتاب » أو المدرسة لأول مرة ، وقص شعره لأول مرة (قص شعر البطن) ، واستحمامه لأول مرة ، وفطامه عن لبن أمه الخ .

والملاحظ بصفة عامة أن ذلك الاهتمام قد يكون من جانب الأسرة كلها ، وقد يكون مقتصرًا على الأم وحدها . وأنه قد يتخذ حجما خاصا بالنسبة للطفل الأول « البكرى » وقد ينعدم تماما بالنسبة للأولاد غير الأول . وهذا شيء منطقي ، ولكنه قاصر على الأمور التي تثير الدهشة والفرحة . ولكن هناك بعض تلك البدايات التي تكون لها أهمية طقسية أو اعتقادية خاصة ، فتلقى قدرا أكبر من الاهتمام وتلتزم الأسرة أو الأم بمراعاتها بالنسبة لكل الأولاد دون تمييز بين الأول ومن عداه .

ومن أبرز تلك البدايات ذات الأهمية الطقسية : قص « شعر البطن » ، وقص الأظافر لأول مرة ، وفي أحيان أخرى مياه أول حمام للطفل . فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه إذ لا يصح إطلاقا القاءه هكذا . لأن له صلة وثيقة بشخصية صاحبه ، وقد يتخذ « أثرا » له تمارس عليه بعض العمليات السحرية « الأعمال » التي تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا أول أظافره فهي أيضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر ، وعلى نحو لا يؤدي إلى وقوعها في أيدي أغراب أو أعداء يمكن أن يستغلوها على النحو المذكور لایقاع الضرر الجسيم بالطفل . وبالنسبة لماء أول حمام للطفل رأينا في حديثنا عن السبوع ، كيف تستنبت فيه بعض الحبوب التي تلعب دورا في حفل السبوع ، وتؤدي وظيفة انمائية حافظة بالنسبة لحياة الوليد الجديد .

ولكن تتركز حول شعر البطن أكبر عدد من الممارسات والمعتقدات . فالأساس في بعض مناطق الريف المصري - ألا يقلص هذا الشعر عند قبر أحد الأولياء في مناسبة الاحتفال بمولده . ولذلك ينتشر في احتفالات الموالد (خاصة المشاهير منهم) عدد كبير من الحلاقين الذين يقومون بقص شعر البطن للأطفال الصغار . حيث يوهب ذلك الشعر للولي . وبعضهم يتصدق بوزنه مالا (فضة أو ذهبا حسب الأحوال) ، وإذا اضطرت الأسرة إلى قص شعر الطفل ولم

يتيسر لها لسبب أو لآخر زيارة ضريح الولي الذي وهب له الشعر (٤٤) ، فاننا نجد الأسرة تقص شعر الطفل كالمعتاد ، ولكنها تترك وسط الرأس خصلة . وتظل تلك الخصلة ذات شكل متميز (غير حلقة) وسط رأس الصبي الى ان يتيسر للأسرة زيارة الولي ، حيث تقص هناك .

٦ - الاطفال في الاعياد والمواسم :

المقصود هنا الاعياد والمناسبات الدورية التي تتتابع على مدى العام ، وترتبط بتعاقب الشهور (العربية أساسا) وتتابع المواسم . من أهم الاعياد والمواسم : الاعياد الدينية ، والمواسم الدينية الشعبية : كبداية رجب ، ونصف شعبان ، وبداية رمضان ، ومواليد الاولياء (المحليين أو الاقليميين) .. الخ .

وفي كثير من تلك المناسبات يكون الاطفال هم اصحاب الاحتفال الرئيسيين ، أو هم الذين من أجلهم وبهم تتم اغلب الممارسات الاحتفالية . فالمصري - على سبيل المثال - يحتفل بالعيدين بالتوسعة في الطعام ، ليس على نفسه وزوجته ، وإنما على أطفال الأسرة أساسا . ويحتفل كذلك بلبس الجديد ، وإن ضاقت امكانياته ، عن تدبير ملابس جديد له ، ولكن لابد من تدبير ملابس جديدة للاطفال . ويوسع الاب في المصروف على أطفاله في الاعياد .

ففي ليلة النصف من شعبان يحرص كل أب ريفي على اصطحاب اولاده معه الى المسجد ، والاشتراك في الدعاء ، ثم يسلكون سبيلهم بعد ذلك الى البيت للاشتراك في وليمة « ليلة النصف » . فركنا الاطفال في هذه المناسبة هي الدعاء في المسجد ، والوليمة . والاطفال في كليهما محور أساسي .

وطوال ليالي رمضان يصحب كل طفل فانوسه ويتجولون في مجموعات على بيوت الحي يغنون لاصحابه و « يشحتون » منهم الهدايا ، ولا يمكن ردهم بسهولة دون هدية . وأغنية « وحي يا وحي » مشهورة بهذه المناسبة . (٤٥)

ومواكب الاطفال الذين يقومون بالاستجداء معروفة في اغلب ثقافات العالم ، خاصة عند الشعوب ذات التاريخ الحضاري . وأغلب المجتمعات كالأوروبية تعرف تلك المواكب في مناسبات مختلفة . ولكل مناسبة أناشيد وأغان وعبارات محفوظة يتم ترديدها لهذا الغرض . (٤٦)

(٤٤) من أهم أسباب اضطراب الأسرة الى قص شعر الطفل مقاومة ما قد يكون تجمع فيه من حشرات ، أي لغرض النظافة .

(٤٥) « وحي يا وحي » أغنية منتشرة في رمضان بين الصبيان حيث يجتمع الاطفال بعد الفطور ويأخذونهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بألوان مختلفة ، من أحمر ، وأخضر وأزرق وأصفر . ويتشدد منشد : وحي يا وحي . فيجيب الآخرون : يا صاح . ثم يستمر المنشد : « بنت السلطان لبسة قفطان بالأحمر ، بالأخضر ، بالأصفر » . وينشد الاطفال وراء كل كلمة : « يا صاح » . ويظل الاطفال يمتدحون صاحب البيت وأسرته ، ولا ينصرفون الا بعد أن يقدم لهم شيئاً من الحلوى أو المكسرات أو النقود . راجع كذلك أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص ١٤ - ١٥ وكذلك رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، ١٩٥٦ ، مواضع متفرقة .

(٤٦) أنظر دراسة قيمة في التاريخ الثقافي المقارن لهذه الممارسة عند ريشارد فابس ، الفولكلور السويسري . مرجع سابق ، ص ١٦٥ وما بعدها .

كما يشارك الاطفال بدور حيوي في مجالس السمر التي كانت تشهدها ليالي رمضان حتى عهد قريب . وبعد انقضاء رمضان وحلول العيد تحرص الاسرة على التفتن في عمل كحك للاطفال على هيئة عرائس آدمية لادخال السرور الى نفوسهم . وهي ظاهرة ما زالت معروفة في بعض انحاء الريف المصري وقليل من احياء المدن المصرية حتى اليوم . (٤٧)

٧ - تربية الاطفال :

من الطبيعي ان حديثنا عن التربية لا يمكن ان يكون شاملا ولا وافيا ، فنحن اولاً لا نعد بحثاً عن التربية ، ثم اننا لا نستطيع ان نستغرق في هذا الحيز المحدود كافة الوسائل والاساليب التقليدية في التربية . وانما سنقتصر على عرض بعض الخطوط الرئيسية .

الملاحظ اولاً ان الاسرة هي اهم عامل في نقل التراث الشعبي الى الطفل ، وهي تتفوق في ذلك على كافة وسائل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، خاصة في المجتمعات التقليدية . ومن بين افراد الاسرة تعد الام الشخصية الاولى صاحبة الدور الجوهري في توصيل التراث الى الطفل .

وقد أشرنا في صدر هذه الدراسة الى قوة العلاقة بين الطفل واهله . ولكننا نؤكد هنا ان الطفل هو كل شيء في حياة والديه . وقدمبر شابرول عن ذلك بصورة بليغة في دراسته المتضمنة في كتاب وصف مصر (٨) ، حيث يقول : « وهكذا يبدو ان العناية الالهية تقيم نوعاً من التعويض بين المزايا التي توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصري الذي ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا او نفس ميزاتنا الجسدية او الروحية التي تبعده عن أسرته يعرف اكثر منا معنى العواطف الطبيعية . فاطفاله هم كل شيء في حياته . وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله . ولربما كانت احساسه اكثر واقل تنوعاً لكنها اكثر نقاذاً وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنّة في نفسه وفي ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلي ما يسمم مباهجه . »

الملاحظة الثانية ان عملية التربية واعني بها توصيل التراث الثقافي الى الطفل لا تتحدد بحدود زمنية معينة ، وانما هي تتم بشكل مكثف في سنوات العمر الاولى . ولكنها تظل مع ذلك مستمرة طوال العمر ، بحيث يتم امتصاص (او استدماج) القيم والمعايير ونماذج السلوك الاجتماعية امتصاصاً كاملاً .

والتربية لا تتم على نحو واحد او بوسيلة واحدة او وسائل بعينها ، ولكن الاسرة والمجتمع المحلي بوجه عام يسخر كل ما لديه من ذخيرة لتحقيق هذا الهدف العزيز . فتتوسل الاسرة

(٤٧) يروي وليم نظير في : العادات المصرية بين الامل واليوم ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، يروي انه عثر في دير المدينة بطنية من مصر الدولة الحديثة على انواع من الخبز على هيئة اشكال آدمية كانت تقدم للاطفال في الاعياد . وهي محفوظة بقسم الزراعة المصرية القديمة بالمتحف الزراعي بالقاهرة (قطعة رقم ١٤٢٧ ، ا ب ، ج) .

(٤٨) دى شابرول ، سكان مصر الحديثون ، مرجع سابق ، صفحة ٥٤ .

الطفل في التراث الشعبي

الى ذلك بالقُدوة أولاً ، وبالتعويد والتدريب المتكرر ، وبالأوامر والنواهي المباشرة والمتفاوتة القوة ، بقص وانشاد الاغانى ، والقاء الأمثال والحكم ، والاشتراك فى المناسبات والطقوس الاجتماعية (عامة وخاصة على السواء) .

والقيمة الأساسية التى تحرص الأسرة على غرسها فى نفس الطفل هى قيمة احترام الوالدين ، والكبار بصفة عامة . وبديهي أن استقرار هذه القيمة فى نفوس الاطفال تسهل مايلى ذلك من وصول تأثير سبل التنشئة السالف ذكرها الى أعماقهم . ولشابلرول عبارة جامعة عن قيمة الاحترام فى نفس الطفل المصرى، يقول فيها : « ان احترام الابناء لآبائهم وامهاتهم يذهب الى حد بعيد ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ . ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة . ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم - ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم . ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام . ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من اعياد الأسرة . (٤٩) وهو - كذلك - لا يسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة . » (٥٠)

على أن هذا الحرص الكبير على تربية الطفل يمكن أن يتعرض - كما هو متوقع - لبعض الصور غير السوية ، أو مظاهر التطرف من تدليل أو قسوة . وتحت أيدينا شواهد عن مظاهر هذا التدليل كما سجلها بعض المؤلفين . أما اذا أردنا شواهد عن القسوة فيكفى أن نرجع الى أى وصف للكتاب فى القرية المصرية ، لنرى الى أى مدى يسوء العريف استغلال السلطة التربوية الممنوحة له (٥١) .

أما عن التربية الرسمية فكانت تتم أساساً فى الكتاتيب ، ثم تراجعت جميعاً ، أو كادت متخفية عن وظيفتها للمدارس بمراحلها المختلفة والى عمت مختلف أنحاء البلاد .

ومن الموضوعات التربوية ذات الأهمية الفولكلورية الواضحة الشخوص التى تستخدم لتخويف الاطفال . اذ تعرف كل الثقافات الشعبية عدداً من الشخوص والهيئات التى تخيف بها الاطفال فترتعد فرائصهم لمجرد ذكرها، أو تمثيل هيئتها ، أو مجرد التهديد بجلبها .

(٤٩) لغتت هذه الظاهرة نظر وليم لين الذى دعى مرة على مائدة افطار ، وللال اولاد المصيف الذكور (وبعضهم فوق الاربعين) يخدم على المائدة دون أن يشاركهم فى الطعام .

(٥٠) يشير شابلرول بوجه خاص الى الاسراف فى تغذية الطفل الى حد اصابته بالتخمة وأمراض اضطراب التغذية ، وكثرة الإفطية التى لاحظها على اطفال بعض الطبقات والى لا تتفق وطبيعة جو مصر ، كما لا تتفق ومتطلبات الحركة الصحية للطفل ، انظر شابلرول ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥١) بالنسبة للكتاب انظر الاوصاف التى وردت لعند أمين أمين ، مرجع سابق ، صص ٢٢٤ - ٢٣٥ . وليم لين ، مرجع سابق ، صص ٥٤ - ٥٥ . وقبل هذا وبعدها الوصف الرائع الذى قدمه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام .

وهي تستعمل للأغراض التربوية عامة : لابتعاد الطفل عن أماكن معينة ، أو تخويله من ممارسة فعل أو سلوك معين أو إصدار قول معين ... الخ .

وإذا أردنا القاء نظرة شاملة على تلك الشخصيات التي تستخدم للتخويل من الثقافة الشعبية المصرية وجدنا أنها تنقسم إلى : -

١ - كائنات خرافية ، كالعفريت ، وأبورجل مسلوخة (٥٢) ، والسلوعة ، والبيع (٥٣) ، و « الأخت التي تحت الأرض » ... الخ ب - حيوانات : أغلبها مألوف في البيئة ، ولكن تتردد بين الحين والآخر حكايات عن أذاه لبعض الأفراد ، ومنها : الكلب ، والذئب ... الخ .

ج - أشخاص ووظائف معينة في المجتمع : وهي تستدعى للتخويل إما لأنها رمز للسلطة والبطش كالمسكري (الشرطي طبعا) ، أو لما تحدثه من ألم شديد يفزع منه الطفل كالذكور (الطبيب) واعطائه الحقنة ... الخ . (مع مراعاة ما لذلك العنصر الأخير من آثار تربوية سليمة) .

ثانيا : الأدب الشعبي والطفل

أ - أغاني الطفل :

الأغاني الشعبية عموما هي أكثر عناصر التراث الشعبي التي أثبتت بشكل واضح العلاقة بين الثقافة الراقية (أو الرسمية) والثقافة الشعبية . وتحتل أغاني الأطفال مكانا متميزا داخل تراث الأغاني الشعبية . فهي أقدم أنواع الأغاني الشعبية على الإطلاق وأوسعها انتشارا . كما نجدها تتشابه فيما بينها إلى حد بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهي من أغنى المصادر التي تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لها وجود في عالمنا المعاصر . (٥٤) .

(٥٢) « أبو رجل مسلوخة » اسم للعفريت يخوف به الأطفال ويصفونه بأنه مخلوق نصفه الأعلى كالإنسان ونصفه الأسفل كالجمار ، وله ذنب وبخديه سلوخ في الجلد يظهر منها لحمه الأحمر . وهذا الوصف نقلا عن أحمد أمين ، قاموس ١٧ . مع مراعاة أن تلك الأوصاف تختلف اختلافا شاسعا من صالة لأخرى ، لأنها تصف كائنا خرافيا لا وجود له ، ويختلف كل إنسان لنفسه بصورة خاصة عنه تشترك في اللاحق العامة ولكنها تختلف في بعض التفاصيل .

(٥٣) « البيع » - حسب وصف أحمد أمين أيضا - المرجع السابق ، ص ٩١ مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الأطفال ... وهو من الأشياء التي تخلع قلوب الأطفال من الصفر ، وتنشئهم جبناء » . لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصيات الخرافية أرجع إلى مقالنا عن الجن ، المعتقد الشعبي المصري ، الذي سبقت الإشارة إليه .

(٥٤) سوف نقتصر في هذا القسم من الدراسة على تناول موضوعي أغاني الأطفال والألغاز ، مع علمنا بأن هناك بعض الأنواع الأدبية الشعبية الأخرى الوثيقة الاتصال بالطفل ، ولكنها تحتاج إلى دراسات مستقلة ، وعلى رأسها الحكايات الخرافية . كما أن معالجتنا للموضوعات الشعبية ستأتي بالضرورة موجزة أشد الإيجاز لأنها قد درست بتفصيل أكبر في المؤلفات الخاصة بالأدب الشعبي . انظر حور موضوعنا مزيدا من التفاصيل عند ، رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مواضيع متفرقة ، نبيلة إبراهيم ، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، وأشكال التعبير في الأدب الشعبي ، « الحكاية الخرافية » ، وانظر نماذج عند أحمد أمين ، مرجع سابق ، وكذلك قاموس فونك للفولكلور . ص ٢١٩ ، وقاموس باثيل للفولكلور ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

ومن أوجه الأهمية الكبيرة التي تحفزنا إلى ضرورة الاهتمام بتسجيل أغاني الأطفال ودراستها وتحليلها :

١ - تتميز أغاني الأطفال الشعبية بوضوح ارتباطها الاجتماعي ، فهي تعبير حي واضح عن المجتمع ، وهي ما يمكن أن نسميه تراثا شعبيا بالمعنى الصحيح .

ب - كشفت الدراسات السابقة لأغاني الطفل (العربية والأوربية على السواء) بوضوح شديد عن صفة الاستمرار عبر الزمن ، على نحو يمكن أن يمتد عبر مئات أو آلاف السنين أحيانا ، وهي تشبه في ذلك أغلب عناصر التراث الشعبي المتصلة بالطفل .

وتتميز أغاني الأطفال من الناحية الشكلية (أو الفورم) بأن الإيقاع هو الذي يلعب الدور الحاسم فيها . وهذا يفسر لنا طبيعة العلاقة الوثيقة بين أغاني الأطفال والألعاب الشعبية ، وكذلك بين أغاني الأطفال والرقص الشعبي . كما تتميز أغاني الأطفال بالقافية الواضحة التي يستبدل بها أحيانا السجع والجناس الاستهلاكي . أما النغم فموقع توقيعا شديدا ، ويتميز بنفس الشكل الأساسي الذي يطوع عضويا مع كل النصوص . بل يمكن القول بأن لحن أغنية الأطفال واحد متكرر ، طالما لم يتعرض بالطبع لمؤثرات من المدرسة أو أي مصدر آخر من مصادر الثقافة الرسمية .

ويمكن تقسيم أغاني الأطفال من حيث المضمون إلى أربع مجموعات أو فئات كبيرة هي :

١ - المجموعة الأولى هي تلك الأغاني التي تتردد في أثناء التعامل بين الطفل والكبار المحيطين به ، خاصة الأمر . وتنتمي إلى تلك المجموعة أغاني المهد ، وأغاني ملاعبة وهذه الطفل ، والأغاني ذات المضمون التربوي بصفة عامة . (٥٥)

ب - المجموعة الثانية هي تلك التي تتردد من خلال تعامل الطفل مع البيئة ، وخاصة البيئة الطبيعية المحيطة . فالطفل يغنى لكثير من الظواهر والتغيرات الطبيعية التي تلفت نظره أو تخيفه أو تعجبه أو تفاجئه . . . الخ فهو يفرح للمطر ، ويمضي تحت وإبله منتشيا ، فيتمنى أن يشتد ليزكو الزرع ويفيض الانتاج فيمتلئ بطنه . (٥٦) ومرة ثانية يتمنى أن تصيب السماء ماءها فيملا « القلة » (٥٧) . وأغنية أخرى يربو فيها أن يفيض المطر فتفيض به

(٥٥) انظر بعض نصوص لأغاني هدهدة الطفل عند رشدي صالح ، الأدب الشعبي مرجع سابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٥ وما بعدها .

(٥٦) انظر نصا لأغنية بهذه المناسبة عند رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٢٢٩ .

(٥٧) نص الأغنية في المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

دروب القرية ويعوم الاز . (٥٨) والطفل يغنى للقمر عندما يختنق ، ويغنى للشمس وهو يرمى اليها بسنته التي سقطت (٥٩) ويغني للرعذوالبرق . . . الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة في بيئتها . وقد أورد رشدي صالح أغنية تحكى قصة طائر « أبو قردان » الذى طالما عرضة في الحقول وبهرهم بخفته وسمعوا من آبائهم أن صيده « حرام » ، والذى تثير مثل هذه الاغنية حبههم له لأنه « مسكين » بلا ولد . (٦٠)

ج - المجموعة الثالثة هى تلك الاغاني التى تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الايقاع واللعب ، فتنشأ اغاني اللعب ، واغاني الرقص ، والاغاني التنافسية . الخ . (٦١)

د - اما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به في مناسبات العادات الشعبية المختلفة في مراحل دورة الحياة (كأغاني السبوع ، والختان ، والزواج . . . الخ) ، والمناسبات التى ترتبط بمرور العام وتتابعه (كأغاني الاعياد الدورية ورمضان . . . الخ) . ويبدو هذا بشكل جلى سمة هامة من سمات الاغنية الشعبية (بالمعنى العام الشامل) التى فقدتها بمرور الوقت ، وظلت باقية في اغاني الاطفال فقط ، وأعنى الترابط العضوى الوثيق بين الاغاني الشعبية ومناسبات العادات الشعبية المختلفة . ولا نغالي اذ نقول ان استخدام تلك الاغاني في مناسبات العادات الشعبية أصبح هو المبرر الاول لبقاء واستمرار اغاني الاطفال .

ولكن ماذا عن مستقبل اغاني الاطفال ؟ من الملاحظ بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى - على سبيل المثال - أن الثقافة الرسمية (الراقية) لم تكن تحفل باغاني الاطفال ، وأن كل اغاني الاطفال كانت مستمدة - حتى عهد قريب - من التراث . ولم يكن هناك اختلاف بين الطبقات الاجتماعية أو المناطق الجغرافية في هذا الأمر . اذ كان الجميع يهدون أطفالهن باغان تعلمنها من أمهاتهن وجداتهن . كذلك كان الاطفال في سن المدرسة يلهون باغان مما لم يتم انتاجه في «معامل» الثقافة الرسمية . ولكن ما إن بدأت الثقافة الرسمية تنتج اغانيا للطفل ، حتى تلقفها اغلب الطبقات العليا والوسطى ، خاصة تلك الفئات التى ترغب في أن تنفض عن نفسها العناصر الشعبية وتبعد عن نفسها أى شبهة انتماء شعبى (لأنه أصبح يعنى انتماء للطبقات الدنيا) . ثم لانسى بعد هذا دور المؤسسات التربوية الحديثة (المدارس أساسا) ووسائل الاعلام في ترويج كثير من أغاني

(٥٨) النص في المرجع السابق ، نفس الموضوع .

(٥٩) أنظر هانز فينكلر ، الفولكلور المصرى (بالمانية) ، شتوتجارت ، ١٩٣٦ .

(٦٠) نص الاغنية عند رشدي صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٦١) أنظر بعض النصوص في المرجع السابق ، صص ٢٤٠ - ٢٤١ .

المناسبات الوطنية للأطفال . معنى هذا أن ثروة أغاني الأطفال في مجتمعاتنا المستمدة من التراث الشعبي معرضة للزوال في المستقبل القريب ، ما لم نلتفت الى تطويرها والترويج لها (من خلال وسائل الثقافة الرسمية ايضا) .

٢ - الالغاز :

يرى بعض العلماء أن الالغاز في نشأتها الاولى تعد نوعا من الشعر الشعبي من مستوى رفيع ، شأنه في ذلك شأن التعاويذ والأدعية السحرية ، وصيغ الاستنجاد بالقوى العلوية . ويرى هذا الفريق من العلماء أن الطرق الصوفية والفرق الدينية كانت تستخدم هذا الأسلوب (من التساؤلات الحكيمة ذات المغزى الدينى أو الصوفى) في تربية أفرادها والحكم عليهم وترقيتهم في مدارج الطريق . كما كان بعض المطاردين من أصحاب الدعوات الدينية والصوفية وأصحاب الدعوات السرية يتخذون الالغاز أسلوبا لتبادل الرأي وإذاعته . (٦٢)

ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر في تكوين اللغز والاحتفاء به لدى الأطفال والكبار على السواء . هذا العامل هو الرغبة الكامنة لدى الإنسان والميل الى لعبة الاخفاء . ويبدو هذا الميل في أوضح صوره لدى الطفل ، ولكنه موجود لدى كل منا على أى حال .

ومحور هذا الأسلوب حفز المشتركين الى البحث عن الأشياء العادية المألوفة وراء هذا الوصف الشعري المغمى . وهذه الرغبة في الاخفاء والالغاز تتعارض بطبيعة الحال مع أسلوبنا العصري (الرسمي) الذي يتوسل بالمنطق ويسمى الى الوضوح . ولكنه يتفق مع ذلك مع التصور البدائي عن وجود صلة قرابة بين كل الأشياء الموجودة في هذا العالم . وهو تصور على الاعتقاد البدائي بوجود نوع من التناغم في الوجود كله . ومعناه أنه توجد بين كافة الأشياء والعمليات التي تبدو متقاربة أو متباعدة في الظاهر علاقة داخلية عميقة .

فعلى حين يبدو لنا أسلوب اللغز أمرا مجافيا لتفكيرنا المنطقي ، فقد كان يؤدي في الاصل وظيفة عميقة الدلالة هي رؤية صلة القرابة والرابطة المشتركة بين البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، وكافة الأشياء ، وإدراكها ككائنات على مستوى واحد .

ويمكننا ان نلتمس اليوم القواعد الراسخة لكل من الالغاز والحكايات الخرافية من نفس القطاعات الشعبية ، حيث تتجلى بأوضح صورها لدى الأطفال . فهم اليوم الجمهور الاول لكل من اللغز والحكاية الخرافية . فالصبي أو الفتاة يحفظون منها قدرا يسوقه الواحد منهم عندما

(٦٢) وذلك على أساس أن الالغاز رموز لمعان مخبوءة ، قد يستطيع الفرد حلها بذكائه ، ولكن الكثير منها لا بد أن يعرف المرء « شفرته » كما يقال . انظر رشدي صالح ، فنون الأدب الشعبي ، الجزء الثاني ، ص ص ١٤ - ١٥ ، حيث تجد معالجة أوسع لموضوع الالغاز من وجهة نظر دارسي الأدب الشعبي .

ينازل أحد أقرانه ، ويتلهم الاب والام بإيرادها على مسامع ابنائهما . وذلك بأن حل اللغز من أكثر الموضوعات راجا وقبولا لدى العامة ، ومن أكثر الموضوعات نجاحا في الادب الشعبي .

وتعكس الالغاز علاوة على هذا سمة من السمات المميزة للغة الشعبية بصفة عامة ، وهي الميل الى التشخيص (أو التجسيد) ، مما لا مجال للخوض فيه تفصيلا هنا ، ويجد القارئ دراسات وافية في بعض مراجع الادب الشعبي الحديثة . (٦٣)

ويترتب على تلك السمات السابقة للغز أننا لا يصح أن نفاجأ عندما يحاول البعض إقامة الدليل على وجود نفس اللغز (وكذلك بعض الحكايات الخرافية) ربما بنفس النص ونفس الاستخدام - في أماكن متباعدة على خريطة العالم ، بل ربما في كافة أرجاء العالم . ذلك لأنه يستجيب بهذا الوضع لسمات انسانية عامة لصيقة بالإنسان حيثما كان ، لأنها انبثقت عنه بوصفه إنسانا .

ومع ذلك فلا بد أن نسلم في نهاية الأمر - ورغم كل ما قلناه - بأن الحضارة العقلية الحديثة التي تتسم بالرشد قد أدت الى تراجع اللغز حتى بين الاطفال أنفسهم . حيث أصبح الناس أكثر انطبعا بالاسلوب المنطقي في التفكير ، علاوة على أن سرعة إيقاع الحياة الصناعية الحديثة لم تعد نوع مكان للتفكير العاثر أن يأخذ مداد ويستغرق في حل ما يطرح عليه من الفاز .

والملاحظ كذلك - على الأقل في كثير من دراسات الفولكلور الاوروبى - أن الميل الى الالغاز (تأليفها وحلها) لدى الكبار قد انحسر بحيث أصبح يقتصر أساسا على ميدان الجنس . وفي هذا المجال تداخل اللغز الجنى مع النكتة الجنسية المعتمدة على التورية والجناس والتلاعب اللفظي .



رابعا :

الالعاب الاطفال الشعبية :

الالعاب الشعبية ضرورة اساسية من ضرورات الطفولة تصاحب الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده ، وتتطور معه تبعا لتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية . فهي بذلك حاجة طبيعية لديه ، لاحتياج الى تربية معينة لتعويده عليها أو جذبه اليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائي عادة من خلال التفاعل مع أمه في البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك .

(٦٣) انظر على سبيل المثال ، ريشارد فايس ، المرجع السابق ، صص ٢٥٢ - ٢٧٦ . وكذلك المراجع والدراسات الواردة هناك .

والالعب الشعبية بصفة خاصة متنوعة تنوعا كبيرا فمنها الالعب الصغيرة والكبيرة ، ومنها الفردية والجماعية ، والهادئة والكثيرة الحركة ، ومنها الداخلية (التى تتم داخل مكان مغلق) والخارجية . كما أنها متدرجة ففيها ما يصلح لكل الاعمار والقدرات . وهذا التنوع الكبير يلبي شرط العمومية والانتشار ، ففيها المناسب لكل اتجاه ولكل قدرة ولكل مرحلة عمرية . والالعب الشعبية لا تحتاج لمعدات خاصة أو أدوات رياضية معقدة ، ولا تحتاج بالطبع للاعب خاصة ، وانما يمكن تدبيرها بأبسط الامكانيات وبما هو متاح فى البيئة المحلية ، وعلى أى أرض أو فى أى مكان متوفر امام الطفل . والسمة الهامة الاخرى فى الالعب الشعبية أنها لا تتطلب مسبقا أية استعدادات خاص أو مهارات معينة فيمن يود ممارستها ، بل هى التى تربي المهارات وتهدب الاستعدادات وتنميتها . وهى لذلك تتسم بالبساطة اذ بوسع أى فرد أن يفهمها وان يؤديها ، لأن القوانين التى تحكمها سهلة ميسورة وبسيطة . وهذه الخاصية تجعلها فى متناول الجميع فلا يشعر أحد بعجزه ازاءها . وتلك من العوامل التى تؤكد ذيوها وانتشارها بين كل الدوائر الشعبية . ومن أهم سمات الالعب الشعبية انها طابع محبب يستهوى اللاعبين . فهى تهدف - من بين ما تهدف اليه - الى اظهار المهارة وسرعة البديهة (وأحيانا القوة) ، فتشد الاطفال الى ممارستها وتحقق لهم بذلك قدرا من الاشباع هم فى حاجة طبيعية اليه . وهى كذلك تساهم فى نهاية الأمر من خلال الممارنة المستمر عليها - الى تنمية سرعة الخاطر وحضور البديهة لدى ممارسيها .

لذلك يمكن أن نقول بحق ان الالعب الشعبية تعمل على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته ، ومتابعة احتياجاته الاساسية بدنية ونفسية واجتماعية (٦٤) .

وتتميز العاب الاطفال شأنها شأن كافة العناصر الشعبية المتعلقة بالطفل (كأغاني الاطفال مثلا) بأنها تحتل فى المجتمع مكانة اكبر من ألعاب الكبار . كما أنها تعكس مثل بقية عناصر التراث الشعبى الخاصة باطفال تراث الاجداد بشكل أوضح من تراث الكبار (٦٥) .

(٦٤) انظر حول هذا الموضوع ، محمد عادل خطاب ، الألعاب الريطية الشعبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ص ٣٢ وما بعدها .

(٦٥) استعرضي وليم نظير ، المرجع السابق ، ص ٨٥ وما بعدها عددا من الالعب التى وردت شواهد من وجودها عند قدماء المصريين ، وما زالت تمارس حتى اليوم فى مدن مصر وقراها . من هذا مثلا التحطيب ، ولعبة الكرة ، (ثقاف الكرة باليد بين التثنيات) ، والنط (التى تعرف باسم نطه التجليز) ، والسيجة ، والداما (الداما كانت على هيئة مائدة من الطين غير المحروق فوق اربع قطع من الطين تقوم مقام الأرجل ، وسطحها مقسم الى ثمانية عشر مربعا ومعها نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين ومغطاة بالشمع . وهى لعبة مسلية) . هذا علاوة على رياضة الصيد ، بأنواع واساليب مختلفة . وقد أورد نصوص وصور عدد من الشواهد التى استند اليها .

فعلى حين نجد أن ألعاب الكبار لا تمدوان تكون في أغلب الأحيان مجرد تمارين بدنية أو عمليات تحريك للجسم ، نجد أن ألعاب الأطفال تتميز بأنها مزيج رائع بين حركة الجسم والمضمون الذي تعبر عنه .

ومن هنا ندرك سبب اهتمام علم الفولكلور في كل بلاد العالم بدراسة ألعاب الأطفال بدرجة تفوق الاهتمام بدراسة ألعاب الكبار . فقد لاحظنا أن ألعاب الأطفال قد حفظت لنا كثيرا من عناصر التراث القديم ، التي كان يمكن أن تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الأطفال . ولكن هذا الاستمرار الثقافي يفرض علينا التزام الحذر الشديد عند التعرض لتفسير مدلول هذه الألعاب ومعاني ما تتضمنه من رموز أو إشارات . ذلك أننا هنا بصدد صور باهتة - غالبا ما تكون مشوهة أو معدلة - لألعاب قديمة درست من عالم الثقافة التقليدية على امتداد آلاف السنين .

ولكن هذا الحذر وهذا التحفظ لم يمنع كثيرا من الباحثين من أن يؤكدوا بكل قوة :- أن دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل وألعابه دلالة واضحة وقوية . ويرى هذا الفريق من الباحثين أن دراسة ألعاب الأطفال تعد أسهاما هاما بعيد الأثر في تأسيس فهم أنثروبولوجي شامل ومتكامل للإنسان (٦٦) .

ويدلنا التأمل السريع لألعاب الأطفال التي عرفتها المجتمعات في العصور الغابرة وتلك التي ما زالت معروفة في أيامنا أن بعض تلك الألعاب مجرد تقليد لبعض العمليات أو أساليب السلوك وبعضها الآخر مجرد تدريب أو استعداد (ربما من الوجهة البيولوجية) لحياة الطفل في مرحلة البلوغ عندما يصل إليها . أما الجانب الأكبر من تلك الألعاب فيعكس لنا بوضوح خيال الإنسان وقدراته الخلاقة ، وفن التجسيد الحي للأفكار والعمليات والمعاني ، والقدرة على الفهم الحقيقي لكثير من جوانب الحياة .

ويبدو أن اللعبة (أعني الدمية أو الشيء الذي يلعب به الطفل) هي التي تضيء على ألعاب الأطفال طابعها الرئيسي ومعناها الخاص . ولكننا نلاحظ مع ذلك أن تطور اللعبة واندماج الطفل فيها يأخذ في الابتعاد التدريجي عن اللعبة كشيء مادي ، وتحتل فيها اللعبة (الدمية) مرتبة ثانوية في عملية اللعب نفسها . ولكن لنا أن نتساءل إذا كانت اللعبة (الدمية أو الشيء) تتقلص أهميتها ويتراجع دورها بهذا الشكل ، فقيم إذن ذلك الاهتمام الكبير من جانب دارسي

(٦٦) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق مادة ألعاب الأطفال ، صص

التراث الشعبي بالعباب الاطفال ؟ ربما يرجع ذلك الى اننا نرى في تلك الالعب تعبيرا عن قدرة فنية بدائية على التشكيل ، تتفق وشخصية الطفل وتكوينه النفسى والفكرى والعاطفى (٦٧) .

والملاحظ بصفة عامة أيضا أن العباب الاطفال الراقصة والغنائية ترتبط بالمرحلة العمرية للطفل ، فكل عمر له العابه وله أغانيه التي تتفق ومزاجه وتتفق كذلك و « العرف » السائد بين الاطفال . فطفل العام والعامين يسعد أكبر السعادة حين الاعبه لعبه البيضة » ، ويستنكف طفل السادسة ان الاعبه اياها .

ولكن في كل تلك المراحل تتحدد حركات اللعب بايقاع الاغاني او الكلمات المسجوعة المصاحبة، فهي التي تضبط هذه الحركة وتنظمها، وتدخل في تكوينها مكونة معها نسيجاً عضوياً متماسكاً . ولكن مع اضطراد نمو الطفل ، ثم نلاحظ بدايات حدوث اختلاف بين تطورها عند الاولاد وعند البنات . حيث تظل الايقاعات الغنائية والكلمات المسجوعة تنظم حركة اللعب عند البنات . أما عند الاولاد فتتجه الالعب الى اتخاذ الطابع الحركى والطابع الصراعى الواضح (الذى لا يخلو من العنف أو استخدام القوة البدنية) .

وهذا التطور هو نفسه الذى يجعل من الصعب علينا في بعض الاحيان أن نفصل فصلاً قاطعاً حاسماً بين العباب الاطفال والعباب الكبار . اذ تمثل تلك الحلقة بدايات الدخول في العباب الكبار أحياناً .

واقصى ما يمكن أن نجريه في هذا الصدد هو التمييز بين العباب الشباب أو كبار الاطفال والعباب الكبار العاملين (الذى بدأوا يمارسون عملاً منتجاً) . ولكن لا شك أن مثل هذا التمييز شئ قليل الفائدة وضعيف الدلالة بالنسبة لتاريخ الالعب من وجهة نظر دارسى الفولكلور . واقصى ما يستطيع دارسو التراث الشعبى عمله اليوم هو تحديد الخطوط العريضة لتطور العباب الاطفال في ضوء التاريخ العام للالعب عموماً .



(٦٧) يشير بعض المشتغلين بالفولكلور مسألة تحول أنواع معينه من أدوات السحر والادوات المستخدمة في الطقوس والمناسبات الاعتقادية الى مدار اللعب أو الى حيث تكون مادة للسخرية . ومن الامثلة التي يقدمونها شاهداً على ذلك عرائس الاطفال . فالمعروف انها شائعة في شتى ألوان السحر في كل العصور ، تتخذ انموذجاً للكائن البشرى ، فتلقى عليها العزيمة أو الرقية . وما تزال النساء في قرانا حين يردن رد العين يصنعن عروساً يشقن بها بدبوس ، ويلقينها في النار بين البخور ، وكأنها تمثال للحاسد أو الحاسدة . لم تجد البنات يشقن شقفاً جماً بالعرائس . ونقطة الجدل هنا خاصة بالصلة بين السحر واللعب . ويرى رشدى صالح في كتابه الأدب الشعبى (ص ٢٤١) أن الفراغ ووسائل تمسيته توأم العمل ذاته ، ومثله في العراقة والقدم . ويرجح ان الانسان بدأ في فجر تاريخه يلهو أثناء قعوده عن طلب الطعام وقبلما يخطو الى حيث يريد السيطرة على مصادر الخير والشر . وبالتالي فاللعب ووسائله أعرق من السحر .

خاتمة

لمسنا على امتداد الدراسة كيف أن الطفل هو محور لكثير من العادات والمعتقدات الشعبية؛ ومستهلك رئيسي لمعدي من الأنواع الأدبية الشعبية ولطائفة كبيرة من الألعاب الشعبية . وهو البطل الأول لعملية التنشئة الاجتماعية ، وكل عملية نقل التراث ، من جيل إلى جيل إنما هي بيان عملي حتى متجدد لأهمية الطفل من حيث علاقته بالتراث الشعبي .

ولكن الملاحظ أن طريقة الاهتمام بالطفل قد اختلفت في المجتمع المعاصر عن المجتمعات التقليدية ، واتخذت مسارا مغايرا . فقد أصبح الطفل في مجتمع اليوم تعبيرا عن مستوى الأسرة ، وأصبح مظهره مقياسا لحالة الأسرة . ولذلك أصبحت عملية تنشئة الطفل متأثرة بسيطرة النزعة الفردية على مجتمعنا المعاصر . ذلك المجتمع الذي يركز بكل الشدة والاصرار على تدعيم القدرات الفردية لكي يحقق الطفل نجاحا كبيرا في مستقبله . والتعليم هو في رأي أبناء كافة الطبقات الاجتماعية خير ضمان لتهيئة مستقبل مناسب للطفل . ولم يكن هذا التوتر قائما في الماضي ، لأن الطفل كان يرث مكانة أسرته كما يرث مهنة والده .

وهذا التركيز على الأعداد الفردية للطفل حرمه من اللعب ، ومن الغناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من أركان عملية التربية الحقة . لأن المهم هو تحصيل مزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردي في المستقبل .

وترتبط هذه النقطة كذلك بانفتاح الطبقات الاجتماعية ، وشدة وكثافة الحراك الاجتماعي في المجتمع المعاصر . فهذا الانفتاح الطبقي وبروز المكانة المكتسبة كعنصر غالب في تحديد مكانة الشخص ، جعل الطموح الفردي أو طموح الوالدين لابنهما لا يقف عند حد . ومن هنا تفسر هذا الاهتمام الهستيري بنجاح الابن في المستقبل . ذلك أن هذه المرونة في سلم التدرج الاجتماعي هي نفسها التي تجعل من السهل أن يسقط أو ينحدر هذا الابن في سلم التدرج الاجتماعي إذا لم يزود بإمكانيات النجاح .

إن الطفل في مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل طرفا في سباق الصعود الطبقي ، فأرهقت ملكاته الرقيقة ، واستنفذت في أغلب الأحيان لغير ما خلقت له . فأصبح هذا الطفل - ما لم ندركه بالعلاج المناسب - أقل سعادة وأقل « طفولة » .

نقافة الطفل

في أواخر القرن الثامن عشر ، أثناء ظهور البوادر العلمية الأولى لفهم التطور العقلي والانفعالي للإنسان ، عثر بعض القناصة على طفل في الثانية عشرة من العمر (١) ، يجوب غابات أفيرون Aveyron خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لا يتحرك إلا على يديه وقدميه ، يطلق أصواتا غير مفهومه تصدر عادة من حيوانات المنطقة ، ويهاجم بأسنانه وأظافره كل من يقترب منه . عندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ - ١٨٢٦) وهو من مشاهير الأطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على أنه حالة تخلف عقلي عميق غير قابلة للتحسن . ولكن تلميذه إيتار J.M.C. Itard . . . رأى أن شدة التخلف العقلي عند الطفل لم يكن سببها الانعزاله عن المجتمع الحضاري ، وحرمانه ، بالتالي ، من تكوين استجابات اجتماعية يتعلمها الأطفال الآخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التي تولدها . ومع أن إيتار نشر ورقتين في سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة أمله الشديدة لاختفاقه في تعليم الطفل الاعتماد الكامل على نفسه ، إلا أن الأكاديمية الفرنسية للعلوم

(*) مدرسة علم النفس بكلية الإدارة جامعة الإسكندرية .

Humphrey, G. and Humphrey, Muriel. (1932). The Wild Boy of Aveyron. (١)
Appleton-Century Crofte. New York. (Translation of Reports of Itard IBOI-1807).

أجمعت على أن الطفل أظهر تقدما ملحوظا عن الحالة التي وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصباً ، وأصبح ينطق كلمات بسيطة ، ويتعامل مع الأفراد المحيطين به بأسلوب أكثر تحضراً ، حصل هذا كله ، مع أنه كان متخلفاً عقلياً .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غدا من معارف ، كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالأرقام ، أو التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف ، أو التوتر لعمل الأشياء أو

توليد الأفكار أو مواجهة المشاكل ؟

يساعده في الوصول الى هذا كله قدرته على المادة واسلوبه في اختيار المنهج ، علاوة على أسلوب محيطه في تقديم المادة التي ستوصله الى أهدافه ، . وتنتهي هذه العمليات المتصلة بتكوينه النفسي والعقلي الى تكامل وظيفي بينه وبين بيئته يسمى ثقافته .

الثقافة هي مجموع المورثات الاجتماعية التي تمثل انجازات جماعة ما (٢) . وعليه فإن ما تنوصل اليه مجموعة من الأفراد ، من أفكار وعادات وقيم أو مناهج وأنشطة عملية أو إنتاج فكري أو يدوي أو أساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل لجيل ، كل هذه في مجموعها تمثل ما نسميه بالثقافة ، وهذا يعني أن التنظيم الاجتماعي لأي مجموعة من السكان لا يمكن أن يدرس ويفهم إلا عن طريق ثقافتها . فالجزء الفيزيقي من البيئة الذي يصنعه الإنسان حوله (ماواه - أواني - كساؤه - أدواته العملية وأسلوبه التكنولوجي) ، ثم الجزء الميتافيزيقي الذي يخلقه لنفسه في نفسه (الرموز - المثل - قواعد المعاملة - الخيال والأساطير - التنظيمات العلمية أو الترفيحية أو الضابطة) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الجماعة الحاضرة لكي تعيد صياغتها للجماعة المستقبلية أو تناولها لها كما تناولتها .

أين يقف الطفل من كل هذا ؟

الاجابة على السؤال هنا تركز على قاعدة عريضة أساسها أن الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصة بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف أي أنه منظمة حيوية خام ، لها صفاتها الخاصة فعلاً ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل ما تحتك به . هو إذن اجتماعي من صنع بيئته ، ولكنه تكويني من خلال وراثته . فتكوين الطفل يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته genes وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى مالا نهاية أحياناً . وقد يتبادر الى الأذهان أن الثوابت الوراثية لأشأن لها بثقافة الطفل ، ولكنها في الحقيقة تلعب دوراً هاماً في تثقيفه . فمما يرثه قد يكون تخلفاً عقلياً

أو إعاقة حسية أو اضطراباً غدياً . (٣) ونجده بذلك معرقلاً من أول مرحلة التثقيف ، ولن يعنى هذا إحباطاً في كل الحالات ، لاننا عرفنا في طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وميلتون أمثله لإعاقة حسية نجحت في دفع أصحابها إلى الإبداع . ولم يكتف العلم بالبحث في تأثير هذه المحددات البيولوجية فقط ، لأنه اتجه إلى دراسة طوبولوجية التذكر مثلاً . (٤) وتبع عمل الحمض النووي ribonucleic acid وتصنيعه للبروتينات المستولة عن عملية التعلم والتذكر . بل واتجه إلى أعمق من هذا في نظرية الانجرام (أى قصاص الذاكرة memory trace) . لان التجارب العملية على ديدان planaria كشفت النظر إلى أن استجاباتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف منذ أول جيل لهذه الديدان (٥) . فلم ينطفئ تعلمها الشرطي في جيل آخر من أنصاف هذه الديدان (٦) ، بعد أن فصلت رؤوسها عن أذيالها ، وتركت إلى أن استكمل كل جزء ما فصل عنه ، ليصبح النصفان دودين كاملتين ، أي جيلاً آخر ، أو امتداداً للجيل الأصلي . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حول اللاشعور الجماعي أي النفس الموضوعية objective psyche ؟ (٧) وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجة لخبرات الأجيال السابقة أثر على أجيالها التالية فعلاً ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع أن هذا اللاشعور الجماعي ليس إلا جزءاً صغيراً من ثقافة الطفل ، إلا أنه قد يلعب دوراً ذا وزن في نوع المخاوف أو أساليب الإدراك التي ستلاحقه .



يدرك الطفل الأشياء والتغيرات الحادثة حوله لأن له حواساً تعدده لذلك ، ودوافعاً تنشط إدراكه ، وقسطاً مما نسميه بالدكاء يتعامل به ليصل إلى المعرفة ويخزنها . وهذه هي الخصائص الذاتية التي سيساهم بها من ناحيته في عملية تثقيفه . لأن لتثقيفه قطبا آخر مقابلاً هو

Kleinmuntz, B. (1974). *Essentials of Abnormal Psychology*. Harper and Row. New York. (٣)

Lashley, K. (1960) In search of the engram, In *The Neuropsychology of* (٤)
Lashley. F.A. Beach, D. D. Hebb, C.T. Morgan, and H. W. Nissen, editors. McGraw-Hill.
New York.

John, E.R. (1967) „Neurophysiological correlates of learning and memory,” (٥)
In *Comprehensive Textbook of Psychiatry*. A. M. Freedman and H. I. Kaplan, editors. The
Williams and Wilkins Co. Baltimore.

John, E.R. (1964) „Studies on learning and retention in planaria” In (٦)
Brain Function. M.A.B. Brazier, ed. University of California Press. Los Angeles.

Jung. C.G. (1963) *Memories, Dreams, Reflections*. Collins and Routledge (٧)
and Kegan Paul. London.

خصائص مادة ثقافته . وهى صفات لاحصر لها تناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، هو مسطرة معيارها السرعة ، وتعرف بالزمن . لان الطفل ولو انه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا انه شديد الاعتماد على بيئته وعلى هذه المسطرة الزمنية منذ البدايه . فقد يظل خاوى المعلومات الحضارية مثلابينما هو يتقدم فى النمو مع الزمن . ويقترب بذلك من النضج الفيزيقي ، ولكنه يبتعد عن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى افيرون . معارف الطفل اذن رهن بمتغيرات تحيط به وتتولد حوله وبعوامل بيولوجيه تحرك استجاباته للآثاره ، ثم فهو ونضجه ثم عجزه . وحيث ان الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف فى السرعة من فرد لآخر ، فان المقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل فى الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، ثم نوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية اخرى . فكم من طفل نابغة وصف بالجنون (توماس اديسون) او بالفشل (تشارلز داروين ثم اينشتاين) لان عمره العقلى كان اكثر تقدما من عمره الزمنى . فاضطر الى التقدم بتفكيره وانتاجه حتى وان تمهل الآخرون ، اوفقد الدفعية حتى الى مشاركة العاديين الآخرين فى مستوى تفكيرهم لاحساسه بالاحباط . ولا يتوقف المقياس الزمنى عند رصد العبقرية او التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هو التغذية الموقوتة للنفس النامية ، بحيث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفس اقتصادى يفيدها ويفيد المجتمع الذى تتعامل معه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفه الاعداد ، ولن يدرك مفهوم الامانه قبل تطور عملياته السيمانتيكيه .

الثقافة التى يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشء على علاقتها . لذلك تكون مهمة العطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلة الطفل او مجتمعه الكبير ، له هو الآخر صفاته . وحيث انه اقدم واكثر خصوبة واغوى فاعلية من الناشء الفج ، فانه يفرض عليه اساليب الفكرية والعملية بلا منازع . فبصمات العائلة العاملة الامينة او المفككة اللااخلاقية تظهر واضحه على جيلها الثانى الناشء . ولا تتغير آثارها ، ان تغيرت ، الا بعد ان ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد ، او تغير ثقافته بيئة اخرى موازية لبيئته المباشرة . لاننا نعجب احيانا مثلا من صغير ينحرف مع انه من عائلة مستقيمة . او من آخر يتحلى بصفات مثالية مع انه من أسرة لامثل لها . ويكون السبب ان كلاهما قد حول انتماءه الى جماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا فى تكوينه النفسى .

وانتقال الثقافة من الاباء ظاهرة غير معقدة قوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار . وهى عملية واضحة ومنطقيه فى معظم الاحيان . ولكن العملية الاكثر تعقيدا هى انتقال الثقافة جماعيا من اجيال ، بأكملها الى الاجيال التى تليها ، مع وجود فروق فردية بين ابناءها تساعد على عدم

ثبات الميراث او على الاقل على عدم ترابطه . هذا بالإضافة الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعي (٨) واساليبه ومنجزاته . فللحضارة المصرية القديمة مثلاً خصائص ثقافية لم تتغير كثيراً عبر عشرين قرناً تقريباً ، منها فن المعمار والنحت والتصوير ثم عقائد الالهية وعودة الروح ثم الهيراكلي الاجتماعية والسياسية . كما كانت للحضارة الرومانية من ناحية أخرى طباع ثقافية بدأت سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسابعه ، ولم يؤثر فيها كثيراً اختلاطها بالحضارات الأخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافي الذي فرضه ظهور المسيحية (٩) . وكان لهذا التطبع الصارم يد في تقوضها . ومن الطريف مثلاً ان كثيراً من الطقوس والعادات التي يمارسها الكثيرون في مصر اليوم يرجع أصلها الى الثقافة الفرعونية ، كاستمرار الحداد على الموتى اربعين يوماً . بل ونجد ان اللون الاسود يتبناه العالم في الحداد بعد المصريين القدامى أيضاً . ولا دخل للدين في العادة على الإطلاق ، لأن كثيراً من المجتمعات الإسلامية لا تمارس هذه العادة بل وتستكبرها ، بالإضافة الى انها عادة عالمية لا يحددها الدين او المواقع الجغرافية .

أهم عناصر الثقافة التي يقابلها الطفل ، سابقة التجهيز في مجتمعه ، هي أسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الديني الذي سيتبناه . فإذا ولد في الشرق الأقصى او الأوسط في الغرب ، فان الدين الذي ولد فيه وتعلم ان يميل اليه هو الذي سيمتسك به في معظم الاحيان . لان حالات الانتقال من دين لآخر طوعية (بعد نزول كل الأديان واستتبائها على الأرض) تعد ضئيلة جداً اذا ما قورنت بالحالات التي استمرت بدون تغير ، حتى وان تعرضت لمفريات الانتقال او لعوامل التفكير الدائم . ومع ان دين الطفل هو ميراث جماعته الدينية ، الا ان الطرف المباشر في التوريث يكون عائلته . لذلك نجد ان عملية التطبيع الديني رهن بفهم وتطبيق أسرة الطفل قبل كل شيء ، حتى وان تعرضت العملية للتطور فيما بعد ، لانه اخفق في التذكر . ومع ان القسط الأكبر من اعباء العملية يقع على عاتق المربي الديني في حياة الطفل ، الا ان جذور التربية تنتهي الى جماعة الدين الكبرى . لذلك يعتبر هذا المدخل الثقافي اجتماعياً أكثر منه فردياً . ويهملنا من الناحية التربوية اثر هذا النوع من ثقافته على سلوك الطفل في طفولته ثم بعد نضجه ، لان الطفل لن يقابل في حياته بعد هذا شيئاً يمثل قوته ، مع غموضه وغرابه جلده ورهبته . فهو حتى وان عوقب لانه كسر قانوناً اجتماعياً ، او جوزى لانه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا ان خبرته المبتدئية المتصلة بالثواب والعقاب الديني (المؤجل ، غير المحسوس) هي التي ستؤسس قواعد الضمير والاخلاق لديه .

(٨) Sherif, Muzafer and Sherif, C.W. (1969), Social Psychology. Harper and Row. New York.

(٩) Van Loon, Hendrik. (1938 The Story of Mankind. Garden City Publishing Co. New York.

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعية الوحيدة بالنسبة للطفل . لانه سيولد ايضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها واخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه اكل الابقار مثلا ، او يفرض عليه اكل اللحوم البشريه ، او يحتم عليه ارتداء انواع خاصه من الكساء والطلاء ، او يبيع له التعرى . وقد يولد فى مجتمع يمارس طقوس التكريس او ختان الاناث او تفضيل الذكور او انتهاء حياة الكهول فى المجتمع . ويكون موقع حادثه ميلاده هو المقرر لما سيتمرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده او للجماعات المستقلة فى الموقع الواحد . ولن تكون كل العادات متطرفة او غير مقبولة فى معظم المجتمعات الاخرى . لان من اساليب السلوك التى تفرضها معظم المجتمعات مثلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة واخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخرى كاحترام السن او الوقت او المحافظة على العهد . وهى صفات تختلف نسبيا من مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها او مرورا غير ملحوظ فى اخرى .

وفى النهاية تتولد من هذين الاصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية اخرى يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق او يخالف قواعد الاخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسيختار ماذا يأكل وكيف يأكله ، متى يأخذ واين يتوقف ، الى من يلجأ ليتعلم او يستكشف . ولن تكون كل جهوده ذاتية . لانه سيحاط فى كل مراحلها بأفراد اكثر خبرة منه يرشدونه او يضبطونه . والمهم من الناحية الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بين المتاح لبعض الاطفال والذي يحرم منه آخرون . لأن كثيرا من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة او حتى العلم الكفاء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لا تتوافر هذه ايضا . فمن المؤلم مثلا ان يتوقف الانسان اولا فى بلد يتمتع فيه الطفل بالدفع والشبع والصحة ، ويدير قرضا فيتصل بأى مكان فى كوكبه ، او يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع او ينال ما أراد من خدمات آليا ، او يستفهم فيجيب على اسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يئن فيه الطفل من المرض والجوع وهوامل الجو ، ولا يجد فى بيئته ما يوصله الى أى معرفه ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا يعيش ليومه لا غير ، لأن أى عمل يقوم به سينتمى الى عيش اليد الى النعم .



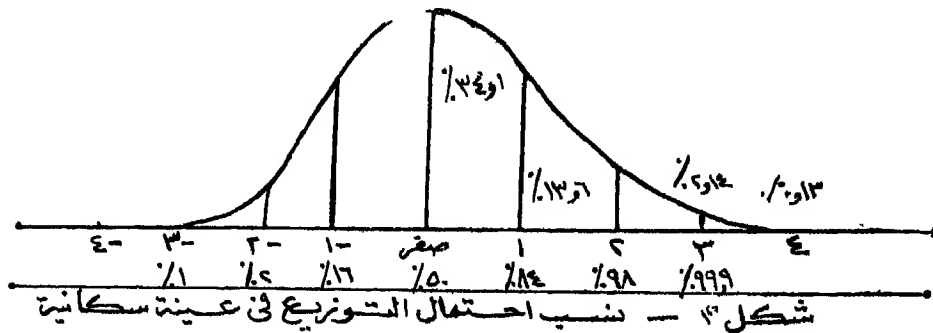
مادة الثقافة التى ستملا حياة الطفل ، لنثير انتباهه فيعيرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبة بعضها نشط العناصر والبعض الآخر ثابتها ، فاذا اتجهنا مثلا الى ادواته التى سيستعملها لكى يصل الى اهدافه لوجدناها اسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل

المادة المجردة بطيئة التغير قليلة التعديل . ولناخذ على سبيل المثال أدوات طهى طعامه من ناحية ، واكله لما يميل اليه من ناحية اخرى ، او مسكنه وولائه لعائلته ، او معدات قتاله وحاجته الى الامن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الانتقال من موقد الفحم القديم الى افران الاشعة القصيرة microwa ve ovens لم يتوقف في مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نيء الى زجاج الالياف fiber glass مازل يتطور ، بينما احاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة حيث التغير والثبات فقط ، لانها تختلف ايضا من حيث الابتكار والاستكشاف . فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن موجودا ، نجد ان المستكشف يعثر على شىء جديد كان . ولناخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعة حوله من ناحية اخرى . فالطفل البدائي لم يعرف سوى كتف امه اولا وقدميه ثانيا . واضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيارة ففواصة ، ثم طائرة فمركبة فضاء . ومع ذلك 'فالتبيعة هى كما كانت عندئذ . يابس وماء وفضاء . بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم فى معظم دول العالم تعرف على عطارذ وعلى الثقوب السوداء black holes فى فضائه ، وسمع عن اتلانتيس ومثلث برمودا فى مائه ، ودرس مواد الطاقة التى يخزنها يابس من بتروى الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم تكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الاول يمتطى جوادا فقط . ولكنها ، وغيرها ، كانت وما يزال بعضها الآخر ، فى ظلمات المجهول ، تنتظر ثاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك واينشتاين .

نخطئ الظن اذن لواعتقدنا ان ثقافة كل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط . لان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لا يتمتع بها الاقليل منهم . كالطفل الذى اجاد اللعب على الهارب والكمال والارغن ولم يتعد الخامسة من العمر . والى الموسيقى بينما اطفال سالزبورج الآخرون يطاردون الفراش فى حدائقهم . وعند انطفاء حياته فى الثلاثين من عمره كان موتسارت قد ملا آلاف الصفحات الموسيقية ليمتدح العالم بالعديد من السيمفونيات والكونسيرتو واعمال الاوبرا مثل دون جيوفانى ، وزواج فيجارو ، والفولت السحري . الامثلة الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، ولكن كل العباقره الراشدين كانوا اطفالا . ومما يحير العلم مثلا ان البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثة ، وانه كان يتعثر فى لغته حتى التاسعة ، وان ابويه خشيا ان يكون متخلفا عقليا (١٠) . وترك اينشتاين مدرسة الجيمازيام بلا رجعة ، نائرا على طريقة التدريس المارينشتالية بها . واخيرا التحق بمعهد بوليتكنيك زيورخ وهو فى السابعة عشرة من العمر ، بعد ان فشل مرة فى اختبار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، اذهل علماء الفيزيكا وهو فى السادسة والعشرين بأربع أوراق علمية فى مجلد واحد ، فجرت

نظرية نسبية الفراغ والزمن ونظرية الكوانتوم ونظرية الدرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا في مكتب تسجيل بمدينة برن سنة ١٩٠٥ .

ما هو العدد المنتظر من هذه النماذج العقلية في الطفولة المبكرة او فيما بعد ؟ لان امثلة هذا النوع الذي لن نتوقف . بل من المؤكد ان المسيرة ستضيف الى ميادين العلم آخرين يسلطون الضوء على مجهول ويخلقون ويبدعون . ومن الواضح ان الرهط يرداد كثافة ، وان المسافة الزمنية بين المبقرى والاخر اصبحت اقصر ، فما الذى يحدث للعقل البشرى ؟ الحقيقة الاولى هى ان عدد العباقرة بالنسبة للتوزيع السكانى لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبه الاحتمال probability لوجدنا ان ٠.١٣٪ فقط من البشر سيتفوقون في الذكاء اوفى الانتاج العقلى او العلمى او الفنى . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدرا بمائتى مليون نسمة (١١) ، فان اغلب الظن ان من بين مواليده عاش ٢٦٠ الف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدر لهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا ، وعلى الأرجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوى قرابة ٣٣٨ عبقرى في كل الميادين . واليوم نحن نقارب اربعة آلاف وخمسمائة مليون على ظهر الارض . ومع ان التعداد السكانى يتزايد الان نسبه الاحتمال في حدوث اى ظاهرة تظل ثابتة . وبتطبيقها على سكان اليوم سنجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة ايضا سيحس العالم بوجود واحد في الالف منها . لان احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعيارى الموجب الرابع من التوزيع ايضا . اى اننا سنسمع عن ٦٥٠٠ تقريبا من مثل ابن سينا او اينشتاين او شيكسبير او ما يكل انجلو جديد في هذا الجيل .



ما الذى يلهب مثل هذه الشعلة سواء في الطفولة المبكرة او عند الرشد ؟ فاذا ورث الطفل الذكى حدة النشاط العقلى ، ولم ير او يسمع منه احد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتنى نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطى طاقاتها ليخلق في اجواء معيشيه عليا .

عنصر الاختلاف بينهما خليط آخر من امكانيات ثرية ومعلومات نشطة في بيئته ، وهو خارجي . كيف نوصل الطفل الى اقصى حدوده من اول الطريق ؟ ولاننى توصله الى العبقرية او الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفل مستكشف منذ البدايه ، فهو لذلك يفتح الاشياء ليعرف ما بداخلها ، ويسأل فيما بعد أين نذهب عندما نموت او ما هو شكل الله ، ثم عندما يشب سيتعلم أنه سيعيش اسعد واطول اذا لم اكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هي الفرصة المثلى لأول دفعة في ثقافته . ان يترك ليبحث وان يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على دراية علمية بما قد يسأل عنه ، ودراية بكيفية الاجابة عليه . ولايسء الى الطفل اكثر من سقوط بطله الذى اعطاه معلومات يظهر خطأها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فأهون على الطفل ان يسمع من أبيه اقتراحا بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن ان يتضامل العملاق في اعين الطفل لأنه كذب . بل وتخلق الأمانة في هذه الحالة دافعا جديدا هو المشاركة والزمالة في البحث ، او الاتجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشاف والتحسس والانتماء والاتصال والمشاركة الاجتماعية معروف انها مكتسبة ، ابنى ان الطفل يتعلمها ممن يعيش معهم . وليس كل اكتسابها معتمدا على هذه البيئة ، لان الطفل نفسه يقتنى بعضا من هذه الدافعية بالفطرة . لانه ، وهو مازال في اشهر الجهل الاولى من عمره ، يتلفت تلقائيا الى المثيرات الضوئية او الصوتية كلما نشطت وهو يخطط بيده على ماتقع عليه ليحدد نوعه وصلته به . فاذا صح تنظيم مورفي Murphy لبناء الشخصية الاخذ بتبادل العلاقات بين عوامل اربعة هي : (١) الاستعدادات التكوينية ، (٢) التوجيه أو التقنيه canalyzation ، (٣) الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والادراكية (١٢) ، فان ميلاد الطفل يضعه في المحتوى الثانى بمجرد اتصاله بالعالم الخارجى ، ليوافقه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناء الاخرى . وفي النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئة دور role هو الطريقة الثابتة نوعا للسلوك والاتجاهات ، وهذا الدور تفرضه ثقافته على الطفل .

اى ان تكوين الطفل ، وبالتالي وظائف هذا التكوين تعد نقطة انطلاقه النفس ونموه . وقد فسر كارلا يونج (١٣) الديناميات النفسية بمبدأين : مبدأ التعادل ومبدأ الانتقال entropy . ومبدأ التعادل يوازى مبدأ هلمولتن Helmholtz الاول للديناميكا الحرارية في الفيزيكا ، الاخذ بثبات الطاقة . فانخفاض قيمتها في مجال ما يعنى رفعها في أخرى . فاذا

Murphy, G. (1951) Introduction to Psychology. Harper. New York. (١٢)

Jung, G.G. (1916) Analytical Psychology. Moffat and Yard. New York. (١٣)

انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلاً فسوف يزيد اهتمامه بأشياء أو أفراد آخرين . أما مبدأ الانتقال ، وهو أيضاً يوازى المبدأ الثانى للديناميكا الحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس فيعنى توازن القوى يتبادل الطاقة . هذا مع أن الطاقة والحركة فى النفس لا تتبعان نفس الأسلوب الجامد النمطى الذى تتبعانه فى الطبيعة . فالطاقة النفسية كيان فرضى كما أكد يونج ، يستخدم الفرد كل ما يلزمه منها لاشباع احتياجات بقائه أولاً ، وأى فائض بعد ذلك يخدم أنشطة الفرد الثقافية والروحية وهناتجه الى أهداف أرقى من مجرد البقاء وإذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا أن توليد دافع حب المعرفة والبحث عن الحقيقة فى الطفل الناشئ لا يمكن أن ينجح إذا كان محروماً من حاجاته الأساسية . فكيف يدرس سبب انجذاب الأشياء الى الأرض إذا كان جائعاً أو محروماً من الرعاية ؟ ولا يعنى هذا تعميم القانون . لأن الفريد أدلر (١٤) رأى أن الفرد يكافح فى سبيل التفوق . والتفوق عنده لا يعنى التميز الاجتماعى ، ولكنه يقترب كثيراً من فكرة تكون الذات عند يونج ، وهى الانتقال من الانا الى مركز أقل بدائية وأكثر جدية يقع بين الشعور واللاشعور ، ومن مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين (١٥) وهو خاصية فردية تختلف من شخص لآخر اختلافاً كبيراً . لأنه وجد أن بعض ضحايا آفات المخ يخضعون لمرضهم ، بينما البعض الآخر يتخطى الإصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عن المرض . بل ويمكننا الخوض أكثر من هذا (١٦) لأن الحرمان أو الاحباط يتسببان أحياناً فى توليد دافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لا يتساوى فى القوة عند كل الأفراد ، ولا يزول توتره عند بلوغ نهاية السلوك الهادف الناتج عنه - لأن حالات الفقد أو الاحباط أو الحرمان تظل مستمرة ، ويظل الدافع الجديد مستمراً معها . ولعل أبرز الصور لهذا النوع من الدافعية هو المقاومة التى يبديها بعض الأفراد فى الكوارث أو الشدائد حتى بعد نقطة اللارجع .

• • •

البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل : -

واضح مما سبق أن الثقافة تتولد فى كائن حى لأنه تعرض لكائنات أخرى وأشياء تخصهم . وواضح أيضاً أن لهذا الكائن الصغير صفات ساجية مزوداً بها قبل أن يلتقى بالبيئة التى سيتفاعل معها . وأن هذه الخصائص قد تساعده على تلقى الثقافة أولاً تساعده .

Ansbacher, H.I. and Ansbacher, R.R. (1959) *The Individual Psychology of Alfred Adler*. Basic Books. N.Y. (١٤)

Bischof, L.J. (1970) *Interpreting Personality Theories*. 2nd edition. Harper & Row. New York. (١٥)

Hakky, U.M. (1976) *Basic Psychology*. Manar El Elm. Alexandria. (١٦)

ويهمنا الآن التعرض لما تساهم به بيئة الصغير الجديدة من مثيرات ومؤثرات ستكون في مجموعها ثقافته على حده ، وثقافة الاجيال التالية بعد ان يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه اياه مجتمعه لن يظل كما هو الى مالا نهاية ، بل سيتعرض للتغير والتعديل ، شأنه تماما شأن كل شىء حي نشط .

اذا شرحت البيئة الاجتماعية الكل لوجدت مجزأة الى اربعة مكونات : افراد ، اشياء ، انظمه ، وحاجات (١٧) . ومن الممكن الاشارة الى الافراد ككتلة عامة لتمييزية من الادميين homosapiens ، أو كمجموعة مختلطة من البشر في موقع جغرافى محدد (دولة) ، أو كمجموعة اصغر من الافراد متجانسة الميول والاتجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، أو جمعية الرفق بالحيوان مثلا) . اما الاشياء فيمكن ان تكون اجزاء من الطبيعة (زرع ، جبال ، انهار ، موارد ، أنشطة طبيعية كالطر والضوء والحرارة الخ . .) واشياء من صنع الافراد (مساكنهم ، ملابسهم ، اوانهم ، وسائل مواصلاتهم وترفيههم وتخطابهم الخ . .) والانظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع لاتباعها افراده ، كلهم او من ينطبق عليهم نظام بالذات . ومن هذه الانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ، السياسة ، التعليم ، الزواج ، الملكية ، الحريات الخ . . اما الحاجات ، وان كانت اصلا فردية ، الا انها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات اجتماعيه . ومنها مثلا الاتصال ، التكامل ، المشاركة ، الاستقرار ، الامن والمنفعة الخ . .

اقترح ايريك فروم Erick Fromm (١٨) مجتمعا مثاليا يربط الانسان بالانسان برباط المحبة ، ويتيح له امكان التعامل مع الطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائدا فى فكرته ، لأن جان جاك روسو سبقه اليها بأسلوبه الخاص فى تشخيص امراض المجتمع وعلاجها . بل وسبق كلاهما افلاطون بمدينةته الخالدة يوتوبيا ، بمثلا ونظمها . وحيث ان تمنى الشىء يعنى الحرمان منه (١٩) ، فان تهيو هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فى حد ذاته مؤشرا للمرض الاجتماعى الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعات عما كانت عليه آنثا ؟ وما هى الهيئه التى يكون عليها المجتمع اليوم عندما تطفو قدم الطفل ؟ هل يعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينة والدراية ؟ وهل يوفرها له طول الوقت منذ البداية حتى تشكل دعائم ثقافته ، وتهيئ الميدان لديناميات سلوكه وتفاعله السليم الجدى مع هذا المجتمع ؟

(١٧) حقى ، الفت . (١٩٧٩) علم النفس الحديث . منار العلم - الاسكندرية

Fromm, Erick. (1955) The sane Society. Rinehart. New York. (١٨)

Guetzkow, H.S. and Bowman, R.H. (1964), Men and Hunger, Brethren (١٩) Publishing House, Elgin, Illinois.

المجتمع ، أو الكل من أفراد وأشياء ونظم وحاجات ، يخضع هو الآخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها أحداثه . وهذا التتابع ، التطور في المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافته الطفل التاريخية . من أين نرحت عائلته الاولى ، ولأى أحداث تعرضت ، ثم أين استقرت وكيف تأثرت بالطبيعة وانتفعت بها ، ولما خضعت أو على من سيطرت ، كلها آثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك في وجود اختلاف ثقافي مثلاً بين طفل نشأ في صحراء غرب إفريقيا ، وآخر في ادغال البرازيل ، وثالث في جبال سويسرا . لان لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة على تاريخ قديم يتابعه الصغير في عادات قومه وفي فولكلورهم وفيما يفرض عليه من أساليب المعاملة والمآكل والملبس .

ولا ترسخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية، أو لأساليب ماضيها التقليدية . وهنا يواجه الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة ، ولا يحدث الانتقال فجأة الا في حالات قليلة ، كقيام الحروب أو تغيير أسلوب الحياة (تعديل تكنولوجيا مثلاً) أو الهجره . وعادة ما يشارك الاهل الطفل في مواجهة الصراع في مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف ، الواقع على عاتقه اقل ثقلاً . وإذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل باويه والتغير الحادث في ثقافة جيله لوجدنا للتوافق مظهراً آخر . لانه سيواجه ، وحيداً ، تياراً داخل عائلته . ولنأخذ على سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة أو الجامعة في مجتمعات كانت تحرمها منه . هل اذا ارادت الفتاة سيستجيب الاب ؟ وحتى ان رضى الاب فهل سيرضى العم أو الجد أو رئيس القبيلة ؟

تغير أسلوب الحياة في المجتمع الواحد لا يحدث كثيراً في المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل في العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو اكثر العوامل الثقافية تفاوتاً بينها . فقد يولد الطفل مثلاً في مجتمع زراعي يعتمد على أسلوب محدود لانه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيكية معينة . أو يولد في مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافي للطفل الاول يظهر كما جاء في معظم الاحيان ولكن الطفل الثاني يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل والتهيؤ لاستقبال التطور المنتظر في كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل ، وإذا تواجد فانه نادراً ما يشبع .

ثراء الثقافة المطروحة امام الطفل مسئولية مجتمعة اولا واخراً . فاذا لم يصعد رصيدها دائماً ، فان اقتصاديات هذه الثقافه يصيبها الكساد لا بالنسبة لنفسها فحسب ، ولكن بالمقارنة بالثقافة الموازية . لان معيار التقدم في أى مجال ليس الزيادة في القوة والسرعة

فحسب ، ولكنه الفرق في التطور بينه وبين آخر . ولناخذ على سبيل المثال أسلوب تلقين اللغة للطفل . فإذا افترضنا بأن وسيلة الاتصال بين الأفراد في المجتمع الواحد هي رموزهم الخاصة لمعاني عامة عالمية ، وأن هذه الرموز اللفظية تختلف في المنطق والمسمع من مجتمع لآخر ، ولكنها في النهاية تتفق في اشارتها الى نفس الشيء ، فإن هذا النوع من الاتصال الاجتماعي يعتبر أولى حاجات الطفل غير الحيوية التي يقاوم بها العزلة ، والتي يعتمد في اقتنائها على مجتمعه .

وحيث أن حجم وغزارة هذه الرموز يشير الى كمية وعمق المفاهيم والمعاني التي ترمز اليها ، فإن اللغة خير معبر عن ضيق أو سعة الثقافة . وغنى عن الذكر أن افتقار لغة ما الى المصطلحات التي تزخر بها أخرى لخير مؤشر على تخلف مجتمع الأولى . كيف تولد أذن هذه الرموز ؟ إذا رجعنا الى الوراء السحيق في تاريخ البشرية لاستنتاجنا ، وهذا محض تخمين ، أن الإنسان الأول لا بد وأنه لجأ الى نوع من الاصوات ، يخلقها في حلقه ، ليبر بها عن خوفه أو ألمه أو لينبه بها أفراد مجموعته الى خطر أو أي شيء حادث . لأن الاصوات الحلقية هي استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحية عند انفعالها . بل وتظهر هذه الحاجة للتعبير عن الانفعال بشكل أوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع أن الاصم ابكم ، إلا أنه عند الانفعال يصدر من حلقه اصواتاً ، لا معنى لها بالنسبة لباقي المجتمع ، إلا أنها موحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وترجع معظم الدراسات الفيلوجينية للسلاسل احتمال اعتماد الإنسان بالذات على حنجرته وعلى تعبيرات وجهه الفطرية في نقل افكاره على الآخرين . وأن استعماله لحنجرته لم يتعد إصدار ما نسميه اليوم الحروف المتحركة ، تماماً كما يلاحظ على الأطفال في دراسات نموهم الارتقائي (٢٠) .

وهذا يعني أن ضحالة الرموز اللفظية في المجتمعات البدائية يرجع افتقارها الى المثيرات التي تولدها . لأن الإنسان الأول لم يلجأ الى تكوين هذه الرموز إلا عندما اضطره ازدحام بيئته الى خلق اصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتم التفاهم مع الآخرين عن طريقها .

ضحالة أو عمق اللغة ، وتهذب السلوك اللفظي أو عدمه ، لا يشيران الى ثراء الثقافة

فحسب (٢١) ، ولكنهما يحددان الطبقة العقلية والاجتماعية التي ينتمي اليها المتكلم . فالمتخلف العقلي والمتخلف الاجتماعي يستعملان رموزاً لفظية محدودة ، سهلة التفصيل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء أو ثري الثقافة بكودات لغوية أكثر تعقيداً واشد تركيباً من حيث التفصيل والتحديد والاتساع . وعليه فإن دور المجتمع واضح في هذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشة والعلوم ، وتلقين النشء لها في سنين حياتهم

Bernstein, B.A. (1955) „A Socio-linguistic approach to social learning, In (٢٠) Social Science Survey, J. Gould, ed. Pelican Books, London.

Deutsch, M. (1965) The role of social class in language development and (٢١) cognition, American Journal of Orthopsychiatry. 35:78, 1965.

الاولى ، خير دعامة للكسب المعرفى . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لانه فى حاجة الى أخريات تخص مجتمعات موازية ، حتى تتحسن مهارته فى الاتصال الاجتماعى والقدرة على حل المشاكل . وحيث ان اللغات تعبير عن الافكار ، والافكار تعبير عن المعارف ، وأن المعارف معيار للتطور الاجتماعى (٢٢) ، فان لغة الطفل فى النهاية هى معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعاني والعلوم القائمة فى مجتمعه .

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من أركان ثقافة الطفل التى تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى ان يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى (٢٣) . وهذا ما فعلته مثلاً مارجريت ميد (٢٤) ، عندما عاشت فعلاً فى جزيرة بالى (جنوب شرق اندونيسيا) ، وسجلت ، على مدى عامين ، كل ما يتصل بشخصية اهل هذه الجزيرة النائية عن العمران . وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية فى خصائصها ، فى مجتمع بالى والمجتمعات الغربية . فسكان بالى يتفادون الاكل امام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك ، فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة ، كما لو كانت العملية مخجلة أو معيبة . وقد ربط بعض الملاحظين اتجاه اهل بالى نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخرى نحو الاخراج . ويزيد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تفضية الاولى ، بدس الطعام فى فمه عنوة وهو مطروح على ظهره ارضا ، سواء رغب ام لم يرغب . ومن العادات الاخرى التى شاهدها ميد هناك ، طريقة المعاملة التى يلقاها الطفل من أمه . فدافع الامومة معروف انه يهدف الى حنو الام على اطفالها لاعتمادهم عليها عاطفياً وجسيمياً . ولكن مجتمع بالى يخرج تماماً عن هذه الاستجابات المكتسبة ، لانه يفرض على الام تبنى اطفال اخر ، لتعود اطفالها على الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير ، بما فيهم الام . ويشب الفرد بعد ذلك محافظاً على « بعد اجتماعى » يقيه من عواقب الاحتكاك الانفعالى مع الآخرين ، ويعطيه فرصة اكبر للتأمل الذاتى . واذا قارنا هذه القيم بتلك التى تفرضها المجتمعات الاخرى ، لوجدناها فى كثير منها تشخص على انها انطواء اجتماعى .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام اجتماعى الى آخر ، لا يعنى بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذى شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحي القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعنى

(٢٢) Piaget, J. (1926) *The language and Thought of the Child*, Harcourt Brace, New York.

(٢٣) Mead, Margaret (1934), *Mind, Self and Society From the Feral Man*, Harper Standpoint of a Social Behaviorist. University of Chicago Press, Chicago.

(٢٤) Mead, Margaret, Ed. (1937) *Cooperation and Competition Among Primitive Peoples*. McGraw-Hill. New York.

ان التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توفرت القدرة والامكانيات من داخل الطفل ومن خارجه . فاذا كان طفل افيرون قد عانى من التخلف العقلى ، وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالات الهندية نجحت في الارتقاء من سلوك حيواني عدواني بحث الى سلوك اجتماعى ذكى (٢٥) . فبعدما عاشت كمالات تسع سنوات في جحر ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الذئاب الى الانسان . وتعلمت كيف تمشي منتصبه . على قدميها ، وكفت عن التجوال ليلا والعواء . وتعلمت مخالطة الناس بحرارة والتحدث بلغتهم بطلاقة وبدون تعثر ، الى ان توفيت وهى فى السابعة عشرة من العمر . وتضيف هذه الامثلة براهين اخرى على ان اسلوب الحياة رهن بالاحتكاك الاجتماعى الذى يتعرض له الطفل .

ومع ان التغيير فى الحالات السابقة يعتبر فرديا ، الا انه يساعد فى الاشارة الى ما يمكن ان يحدث عند عبور الثقافات او عند هجرة الجماعات الى مجتمعات ثقافية اخرى . وحيث ان الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخل القرن العشرين ، فان تداخل الثقافات اليوم يجعل من العسير التعرف على اسلوب حياة مميز لكل مجتمع معاصر على حده ، الا فى عدد صغير من المجتمعات المعزولة جغرافيا . لان معظم دول العالم مثلا تبني نفس النظم الاجتماعية والترفيهية والسياسية والقانونية تقريبا ، كالزواج والملكية وقواعد المرور والحريات الخ . . واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا ان الحدود المميزة تتلاشى بين العديد من الثقافات المتجاورة ، بحيث اقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بين الشرق والغرب مثلا ، او الزراعى والصناعى ، او المجتمعات المتحضرة والنامية .

بقي شيء اخر ، هو معنى من ناحية ، وفيبقى من ناحية اخرى . فالبشرية باعدادها المتفجرة لم تعد تهيم نفس الظروف التي كانت تهيؤها للاجيال السابقة . وبشكل هذا النوع من التغير فى الكثافة السكانية ضغطا على بعض المجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئية ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخل والفرص . والصارخ فى هذه الحقيقة ان المجتمعات المسؤولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعاني اصلا من ثقافة محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتي تتحكم تكنولوجيا فى تلك العوامل ، تقاسى من القلق الناتج عن اللامبالاة والاحطار التي يتسبب فيها غيرها .

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفل التي يكتسبها من مجتمعه ، معتمدة على مداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالآخرين من حيث سلوكه اللفظى والعملى والانفعالي فقط .

ولكن مساهمة المجتمع في ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط ، لأنها تشمل ايضا عناصر مادية محسوسة هي ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد في مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذي يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفني التي يلجأ اليها لتسليته .



يعتمد المام الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها في مستقبله ، الخاصة بحياته ومأكله وفهمه للأمراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث ان هذا المجتمع يوفر له ايضا نوع وقوانين مسكنه ، ثم نظام محاصيله الكبرى والصفري وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعة ومن المجتمعات الاخرى ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهن بمطاء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هي البق ما بوسع هذا المجتمع ان يقدم ؟ وهل هي آخر ما وصل اليه العلم في باقى المجتمعات ؟ وهل هي تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذى لم يكن له شأن بميلاده ، حياة السعة والطمأنينة والعافية ؟

الاسرة وثقافة الطفل :

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات اصغر هي الاسر . ومع ان هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذى يخضع له المجتمع الكبير ، الا ان لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيون ان سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسى للطفل ، وانها اكثر مراحل نموه حرجا . وحيث ان سنواته الخمس الاولى « الحرجة » تجده في كنف اسرته طول الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة . فكيف ينفع ، ماذا ياكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف او يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الاسرة وما يبدر عن افرادها .

تكوين الذات ، اى الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى ان ينضج . وهذه الذات ، أو « الانا » ، لا تظهر بوادرها فى الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التى تحيط به . يعنى ان جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى ان يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذاكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف على ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به ايضا .

الدات تنظيم يتطور ٤.٤ لأن الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه أولا ، وأخرى تخص عملياته العقلية والحشوية بعد فترة قصيرة . وكما قال وليام جيمس فانه « بمجرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل » . فتتطور الوظائف الدماغية بين الأسبوعين الرابع والسادس (٢٦) بحيث تبدأ في الاستقلال عن وظائف التوازن الحيوى . لأن الطفل يولد مستعدا للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن له الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التي ستعتمد على حواسه ، لا تكون مؤهلة للعمل إلا بعد عدة أسابيع ، بل ولا تعمل إذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقد ثبت تجريبيا مثلا (٢٧) أن قردة الشمبانزى التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ من خلايا الإبصار بشبكيتها . وأن القطط التي منع الضوء عن إحدى عيونها فقط (٢٨) ، لكى تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجارب ، أصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فقط في الاستجابات التلقائية (المتماثلة أصلا في الانثنين) المتصلة بمتابعة الضوء أو المثيرات المتحركة . أى كما رأى بياجيه Piaget ، يلزم الكائن الحى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحدث في جهازه الهضمي ، لكى ينمو ويتطور . وتكفيها الحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على أن النمو رهن بالوظيفة بالإضافة الى الوراثة ، لأن حجم مخ الإنسان الاول Australopithecus (٥٠٠.٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن أكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب ، بينما أصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك إلا لأن ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرته الى توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه ، وبالتالي عدد نوروناتها .

ما سبق يعنى أن ثراء بيئة الطفل الاولى يثرى ثقافته سواء من الناحية التكوينية او من الناحية الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو على الخلايا الدماغية فقط ، لأن انظمة الطفل الحيوية ، وعظامه وعضلاته تتأثر بعوامل البيئة ايضا . فعلاوة على انه قد ثبت ان اطفال الملاحياء اللقطاء (٢٩) يعطون متوسطات اقل للذكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة ترعاه ، فان نسب الوفاة

(٢٦) Erikson, E.H. (1959) *Identity And The Life Cycle*. Psychological Issues, Monograph No. 1 International Universities Press, New York.

(٢٧) Riesen, A.H. (1960) „Effects of stimulus deprivation on the development and atrophy of the visual sensory system,” *Amer. J. Orthopsychiatry*. 30:23, 1960.

(٢٨) Wiesel, T.N. and Hubel, D.H. (1963). Effects of visual deprivation on morphology, and physiology of cells in the cat's lateral geniculate body,” *J. Neurophysiology* 29:978 1963.

(٢٩) Bowly, J. (1952) *Maternal Care and Mental Health*, 2nd ed. Monograph Series. No. 2, World Health Organization, Geneva.

تختلف ايضا بين اطفال الملاجىء والاطفال المتبنين (٣٠) ، بل ويتباين طوال عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان من حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم (٣١) .

الرعاية التى تحيط بها الاسرة طفلها هى السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعد هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة فى المجال الاجتماعى ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكن بالنسبة لتقديره السوسيو ميترى لنفسه ايضا (٣٢) . ويلاحظ ان يبايحه قسم التطور المعرفى للطفل الى ثلاث مراحل : ١ - الحس - حركية (العام الاول والثانى) ، ٢ - العمليات المحسوسة (٢ - ١٢ سنة) ، وأخيرا ، ٣ - العمليات المدروسة (١٢ سنة فصاعدا) ، وانه وجد فروقا فى التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى . يعنى ان انتماء الاسرة الى واحدة او الى اخرى يؤثر على نمو الطفل المعرفى . بل اثبت الباحثون (٣٣) تميز الانفعالات الطفلية من اول الشهر الثالث ، وان الفروق تبعث خصائص الانفعالات لدى الابوين او من يقوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادىء الطبع يتبع الراعى الحنون . اما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم فى استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة او الفظة .

ثم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الى مرحلة المشى toddler stage ، يجنى اثناءها مهارات كثيرة ، كالكلام والاعتماد على ساقية والتفريق بين ما يريده وما لا يقبله . ويتبنى للمرة الاولى اما سياسة الرفض او الاتجاه السلبي نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم ان يقول « لا » قبل « نعم » . ويتعرف على ما يمقته قبل التعرف على ما يريد . وفى هذه المرحلة تستكشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الدات الجديدة . لان اسلوب الجذب والشد لن يؤدي الى حل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هي التي ستنتج في اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول (٣٤) .

Spitz, R.A. (1946) Anacletic depression, *Psychoanal. Stud. Child.* vol 2, (٢٠) pp. 313-42.

Sherif, M, (1967) Group processes and collective interaction in delinquent activities *J. Res. in Crime and Delinquency*, January, 43-62. (٢١)

Petri, H. L., Mills, R.G., and Barry, L.S. (1974). Variables influencing the shape of personal space, *Proc. Amer. Psych. Assoc.* New Orleans, Aug. 1974. (٢٢)

Thomas, A., Brich, H.G., Chess DS., Hertzig., M.E., and Korn, S. (1965) (٢٢) *Behavioral Individuality in Early Childhood.* New York University Press. New York.

Kessen, W. (1965), *The Child.* Wiley. New York. (٢٤)

وفي السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة في الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرفي . ويزيح أسرته الى اقصى محيط انشطته . لان الطفل يأبى الآن ان يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من أسرته في هذه المرحلة (٣٥) التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل في النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوى طموحه في هذه المرحلة يفوق دائما مستوى امكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه اعمالا لا يستطيع اتمامها ، أو يدخل في مشاكل لا قدرة له على الخروج منها . ويكون دور الاسرة اما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفذ كل طاقته في المحاولة ، أو ارشاده في المراحل النهائية الى انجح السبل لحل مشكلته . واهم من هذا وذاك هو دور الاسرة في اعداده لتقبل الفشل أو القصور ، وانتظارهما كواحد من وجهي اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعي في هذه الفترة ايضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد في العائلة ، أو يقابل اطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، والم فراق بعض اشياءه دائما أو احبائه بعض الوقت ، لان الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيتجه في نفس الطريق الى البحث عن ذاته ، وسيتأثر بهؤلاء الغرباء ، وسيعين ايهم يميل اليه وايهم ينفر منه . وهنا ايضا تؤثر أسرته على اختياره ، لانها تتحكم فيمن يخالط ، أو لانها تحدد له القيم التي ينتظر منه ان يزن بها الافراد والاشياء والافعال .

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي تتيحها الاسرة للطفل بعد هذا في قيم تعتبر في الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه ان يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته ، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه ان يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود ان يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه ، وعليه ان يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه في أي عمل ، وان يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تمرقّل هدفه أو فشل أول الامر . واخيرا ان يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عند الحدود التي رسمها هذا المجتمع ، حتى وان أدى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية أو نفسية . وحيث ان الرياح لن تجيء بما تشتهي السفن دائما ، فان عليه ايضا ان يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء أو بتغيير اوضاعه النفسية . ومهمة أسرته في هذه الثقافة النفسية

طويلة شاقة ، لانها لا تخضع للوقت او لقانون او لطريقة . فهي تبدأ من اول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات مع من يقوم برعايته . ولا تنتهى الا عندما يصبح الطفل راشدا آخر مسئولاً عن طفل آخر ، يرعاه ويحبه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عند ارشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه (٣٦) :

((واذا استطعت ان تملأ كل دقيقة قاسية بستين ثانية من سعى ومثابرة ، لك الارض بكل ما عليها ، واكثر من ذلك ، تكون قد صرت رجلا يا بنى)) .

لنتنقل الثقافات من الجيل الى الجيل عن طريق فرد ، ميراثا ومتعة ودين .

★ ★ ★

محمد احمد غالى

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

مقدمة : -

حقق علم الاجنة ، وعلم نفس الطفل توسعا كبيرا فى دراسة مرحلة ما قبل الميلاد ، باعتبارها اهم مرحلة تضع البدور الاولى لحياة الانسان بعد الولادة فترسم له عن طريق الوراثة ، ومن طريق ما يصله من الام من خدمات التغذية ، ووظائف التنقية ، ترسم له اطار مستقبل حياته اما حياة سليمة سوية ، او حياة متعثرة فاشلة جسميا او عقليا او انفعاليا ، او هى جميعا .

ولقد عشنا عصورا طويلة ننكر ، او نجهل اثر هذه المرحلة على نمو الفرد بعد الميلاد ، ولا زالت الكثير من الامهات الى اليوم لا يعين هذه الاهمية ، ولذلك فانهن بالتالى لا يسمعن الى صوت الجنين الصامت يشكو النقص ، ولا فرحته المدوية دون ضوضاء حين ينعم بالكمال ، كل الكمال ، فيما ياتيه من امدادات غذائية ، او يخطى به من اعفاء من عمليات الاخراج او التنفس للتخلص من الفضلات او العناصر الضارة بجسمه الواهى ، الى ان ظهرت على بعض المواليد امراض

وعلل ، أو تطورت لديهم أنواع من النقص الجسمي أو العقلي ، اضر بهم وبمستقبلهم وارق مضاجع آبائهم ، فانتبه الناس الى هذه المرحلة مرحلة ما قبل الميلاد « prenatal period » يتلمسون فيها ما قد يحدث أثناءها من نقص في غذاء الجنين أو دوائه ، أو عجز في مقومات حصانته من كل سوء ، أو عوامل قد تؤخر نماءه .

لقد عاش الفكر النفسى فترة طويلة يقصر تأثير هذه المرحلة على المواليد في حدود تأثير العوامل الوراثية دون غيرها ، منكرًا أحيانًا ومتجاهلاً أحيانًا أن ذلك الكائن الذى يعيش في ظلمات ثلاث ، هى ظلمات الرحم ، يتأثر كثيرا وكثيرا جدا بما وراء هذه البيئة الرحمية ، أو ماهية البيئة الخارجية التى تعيشها الام الحامل .

ولقد توصل العلم الحديث الى الكثير عن التأثير المباشر الذى يظهر على الجنين في بطن أمه ، اذا تغيرت المؤثرات البيئية التى تحيط بالام ، او تغيرت الام نفسها بما يغير البيئة الرحمية . ولا غرو فالجنين كائن متطفل على الام يعيش بها ومعها ، وعلى ما تقدمه له من احتياجاته الغذائية والهوائية والوقائية جميعا .

ان الجنين في بطن أمه كائن عاجز ، ولكنه مع عجزه لديه استعدادات تبدأ من لحظة تلقيح البيضة تعطيه طاقات حيوية واضحة جدا ، فبمجرد تلقيح البيضة التى يفرزها مبيض الام بواسطة الحيوان المنوى تصبح لها القدرة على الحركة ، ثم تخرج من الشعيرات « الحوالق » ما يصلها ويزرعها في جدار الرحم . ثم لديها من الطاقة - طاقة الحياة - ما يجعل خليتها الواحدة تنقسم ثم تنقسم وتنقسم عددا ، ثم تتمايز وظيفية ، ثم تصبح علقة ثم مضغة ، ثم تنكس أو يكسوها الله - بعد تكوين العظام لحما - الخ من التطورات المعروفة .

قابلية الجنين للتأثر بظروف البيئة الخارجية .

المعروف ان تطور الجنين في مرحلة ما قبل الميلاد يمر بمراحل نمائية هامة هي : -

- ١ - مرحلة البذرة أو البيضة الملقحة بالحيوان المنوى . وتستمر لمدة أسبوعين بعد الاخصاب . .
- ٢ - مرحلة المضغة وتستمر من الاسبوع الثالث حتى السابع .
- ٣ - ثم مرحلة العلقة والجنين وتبدأ من الاسبوع الثامن يوم الولادة .

وفي كل مرحلة من هذه المراحل تحدث تغيرات نمائية ، وتظهر أعضاء وتوضح وظائف لهذا المخلوق ، وهو يبدأ اول حياة في تاريخه الطويل .

وقد يفيدنا هنا أن نستعرض في عجلة سريعة أهم التغيرات التكوينية والحيوية والبيولوجية التى تظهر في كل مرحلة من هذه المراحل . ذلك أن اهتمام هذا البحث بموضوع التغذية يجعل من الضرورى تحديد المراحل النمائية - قبل الميلاد - التى قد تتأثر باضطراب مورد الغذاء أو عناصر تكوين الغذاء الواصل من الام « شكل ٢ »

مراحل التغير قبل الولادة : prenatal development

١ - مرحلة البذرة : وهى مرحلة البيضة التى تم اخصابها بواسطة الحيوان المنوى . بعدها يتكون حول البيضة غشاء قوى يمنع دخول اكثر من حيوان منوى واحد من مئات الملايين التى تصب فى الرحم بعد عملية الوصال الجنىسى . بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية فى التطور وهى انقسام الخلية الى العديد من الخلايا ، وهى ما تسمى مرحلة الانقسام « metosis » (١) وفى اليومين التالىين تستمر عملية الانقسام الخلوى . وخلال هذه العملية تتحرك البيضة المخصبة خلال قناة فالوب لتصل الى تجويف الرحم (انظر شكل ١ وشكل ٢) .

وبين اليوم الثالث واليوم الخامس بعد الاخصاب تبدأ الخلايا فى اعادة تنظيم نفسها لتتجمع حول السطح الخارجى تاركة فراغا خاويا وسطها يمتلئ بسائل ما .

وفى اليوم الخامس او السادس تتجمع خلايا معينة داخل هذا الفراغ ثم تبدأ فى التخصص ، فالخلايا التى تتجمع على أحد جوانب هذا التجويف ستصبح فيما بعد العلقه ، أما الخلايا الباقية فانها تكون منطقة الاتصال بالرحم وهى البشيمة « placenta » والسائل الداخلى الذى سوف يسبح فيه الجنين .

وبعد اليوم السابع الى التاسع من الاخصاب ، تحتك هذه التركيبة بجدار الرحم ، وتبدأ عملية التصاق بالجدار بواسطة « حوائق » تظهر فيما بعد وتكون بعد ذلك المضفة . ان افراز الام الحامل لهرمونات الاستروجين والبروجسترون تهىء الرحم لاستقبال هذا الضيف الجديد المقدس (٢) . هنا تترقد كتلة العلقه فى احضان جدار الرحم ويبدأ تموينها بالغذاء من دم الام من طريق حويصلات تتكون فى جدار الرحم تتبادل دم الأم مع دم الجنين . والام هنا معطاءة كريمة ، حانية على التكوين تطهر دمه لحظة بعد لحظة فى عملية تبادل غريبة كلها السخاء والعطاء . (انظر شكل ١) .

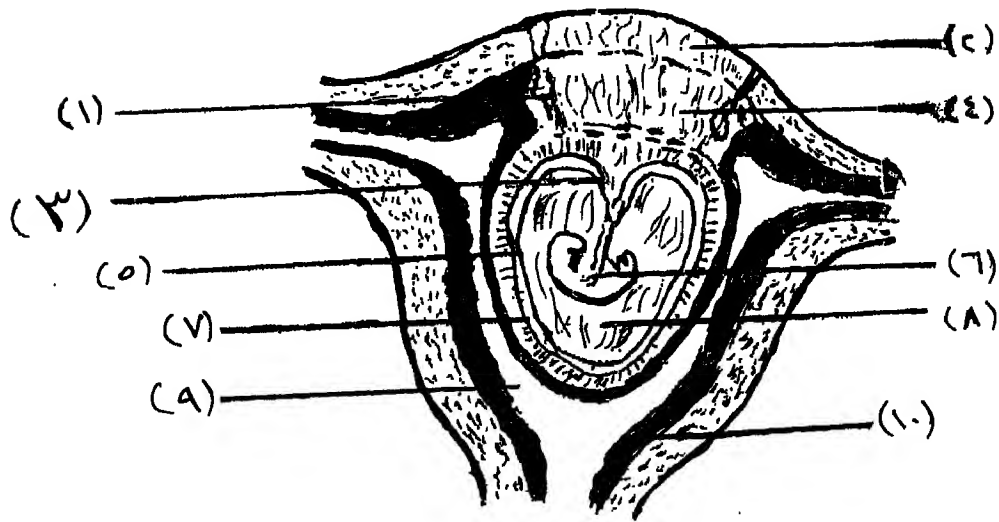
هنا يحدث نماء سريع جدا لهذه العلقه يوما بعد يوم ، ويتضاعف حجمها كل ٢٤ ساعة (انظر شكل ٢) وبعد حوالى اسبوع يكون طول العلقه تقريبا ١ : ١.٠٠ من البوصة . ان احتضان جدار الرحم لهذه العلقه يعطى الحياة لهذا التكوين حين يتسلم الغذاء والاكسجين من دم الام ويطرد منه الفضلات . ولا يزال الكائن هنا جسما غريبا على الام ، ولولا ما تقدمه له من هرمونات ، ولولا قوة هذه المنطقة لحدث للجنين طرد سريع ولم يتمكن الرحم من الامساك بالتكوين .

مرحلة المضفة : « The embryonic period »

هذه مرحلة هامة جدا فى تطور الجنين وهنا يتغير مظهر العلقه بصورة جذرية من كتلة من الخلايا الى كائن بشرى واضح المعالم .

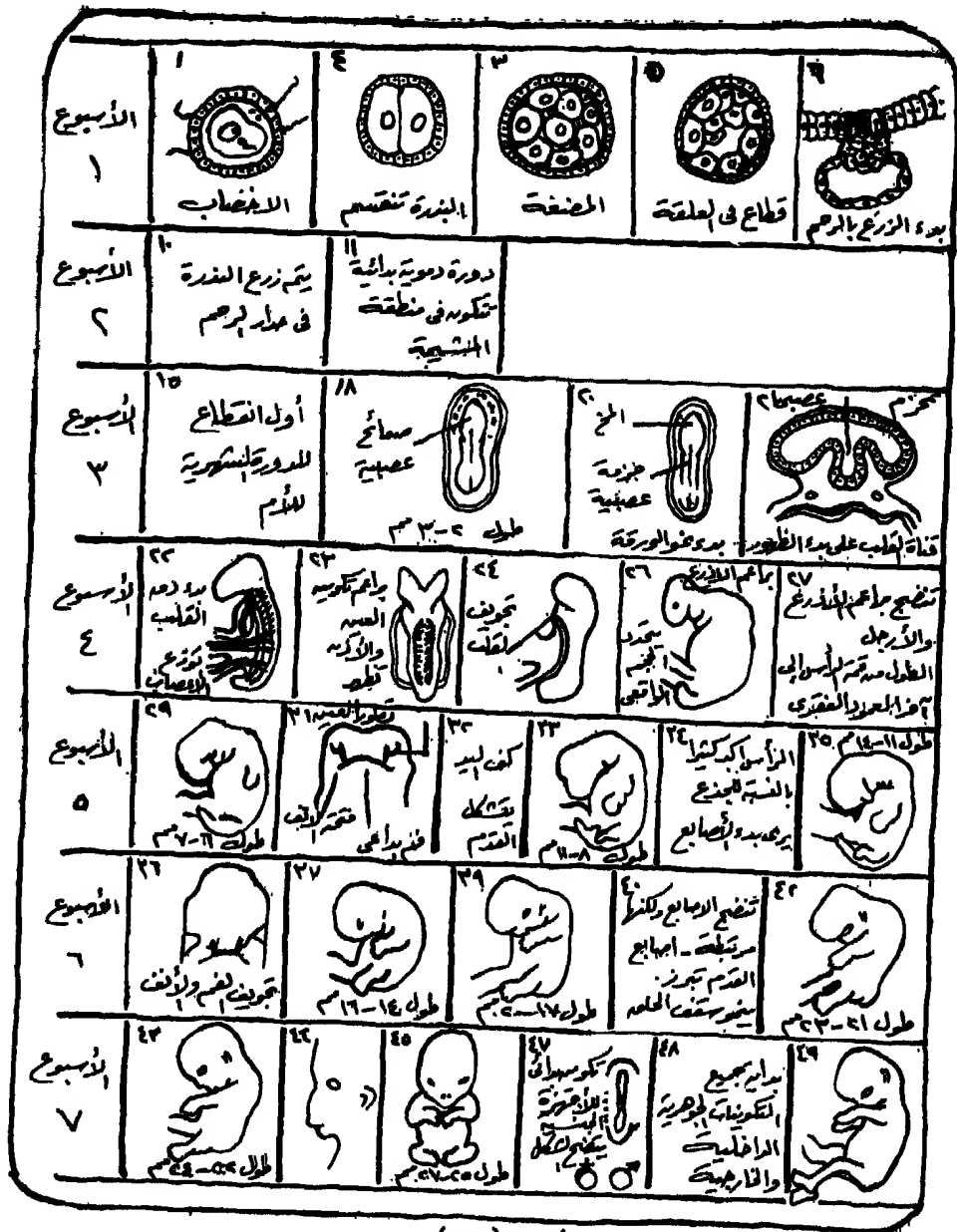
(١) تسمى احيانا حالة تكاثر الخلق بالانقسام المتتابع (cleavage) .

(٢) غالبا وآخرون



شكل (١)

رسم توضيحي يبين العلاقة بين الرمح والغشاء الرمحي والجسيم أمام المحل



شكل (٢)

أمناء على عمر الحبيب في الأسابيع الثمانية الأولى من حياة عمر " Moore " 1972 (13)

وهنا نشهد بديع خلق الله فيما جاء في قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفه في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٥ .

وبنهاية المرحلة تكون جميع الاعضاء الكبرى والاجهزة الرئيسية قد تكونت كما يتضح ذلك من « شكل ٢ » . وهذه المرحلة التي تنتهى بنهاية الاسبوع السابع أو آخر الشهر الثانى من الحمل تتسم بالنمو السريع ، وهى لذلك مرحلة يكون فيها التكوين أكثر عرضة للتأثر بالعوامل البيئية الخارجية التي قد تمتاز بنقص أو قصور ما . ولهذا فإنها بالنسبة للكائنات البشرية تعتبر أكثر المراحل حساسية لآى مؤثر رحمى أو خارج رحمى . وهنا نلاحظ أنه - بين اليوم ١٨ - ٢٨ يبدأ الجهاز العصبى فى الظهور والتطور . وهو الجهاز الذى يقوم بعملية توجيه النماء والتطور لأغلب الاجهزة الحيوية الاولى ، ويبدأ تطوره من تجميعه عصبية ثم تتطور لتكون المخ والمخيخ والحبل الشوكى .

- فى نفس الوقت تقريبا تتطور أجهزة دقيقة أخرى فى نفس فترة تطور الجهاز العصبى المركزى . ففي الاسبوع الثالث من الاخصاب يبدأ تشكيل الاوعية الدموية والمعدة . وهنا تظهر أنبوبة صغيرة تتطور لتكوين القلب ، ولذلك يظهر عليها نوع من النبض البدائي فى الاسبوع الرابع . وبعد ذلك يسير تكوين الجهاز الدورى بانتظام .

وفى اليوم الثامن والعشرين تظهر فى جسم المضغة ٤٨ زوجا من قطاعات الانسجة هى التى تتكون منها العضلات فيما بعد .

- ثم يبدأ تكوين الاربطة والمظام فى صورة خلايا غضروفية .

- وفى نهاية الاسبوع الرابع تحدث تغيرات غاية فى العجب فى المضغة ، فهنا يزيد حجمها ليصبح قدر ما كانت عليه ٧٠٠ مرة ، ومع ذلك لا يمكن تمييز كائن بشرى أبداً من مظهرها فحسب . فهنا لا تختلف عن مضغة أى كائن حي آخر . « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تفيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » سورة الرعد آية ٨ ، ٩

- وابتداء من الاسبوع الخامس الى السابع تتطور المضغة تطورا واضحا حين تصبح وظيفة المخ والقلب ضرورية تماما لعملية تطورها ، وهى أكثر حاجة لهما من حاجتها الى وظيفة الهضم مثلا . (شكل ٣)

- فى الاسبوع الخامس يكبر حجم المخ نسبيا اذا قورن بكبر حجم كتلة المضغة ، وتبدأ قشرة المخ الدماغية فى الظهور لأول مرة ، وهى الجزء من المخ الذى يحكم النشاط الحركى والدهنى العقلى ، ويؤثر فى أسلوب الفرد الانفعالى بعد الولادة (٣) .

[illegible]

78(2)

بسم الله الرحمن الرحيم ونزلت انباء الحاسه في نحو اليهم في مرحله ما قبل الولده - " المناطعه السوراء نزل على اذن الفتره حاسه
لهذه الاسباب لطيفه خارج الرسم خامسه الغذاء - والبعضا وصف نفثه كبريه من الكونيه قل حاسه

- وفي الاسبوع الخامس يتم تكوين التجويف الصدرى والبطن . ولذلك هنا تصبح العيون واضحة من خلال الجفون المفلقة ، ثم تظهر براعم الرئتين وصفائح اليد والقدمين غير متميزة بأى أصابع » .

- وفي الاسبوع الخامس يبدأ تكوين النصر الشمى من المخ .

- وفي الاسبوع الخامس والسادس يتعرض القلب لتغيرات جذرية فى التكوين والوظيفة ، اذ تتحول صورته الانبوية الى القلب الرباعى التقسيم .

- ولا يزال التكوين خفيف الوزن صغير الحجم حتى اليوم ٣٦ حين تظهر جميع الكتل العضلية وتتكون براعم الاذرع والساقين .

- فى اليوم ٤٧ يبدأ تشكيل الاجهزة الجنسية وفتحة الشرج ولو انه يكون من الصعب تحديد جنس التكوين - ذكرا كان ام انثى .

- وفى نهاية المرحلة اى فى اليوم ٤٩ تكون جميع اعضاء التكوين قد ظهرت ، ويسمى الكائن النامى هنا بالجنين .

ليس فى ذلك ابراز لمعظمة الخالق الذى حدد كل هذه المعالم المتغيرة فى الجنين فى الكتاب الكريم فى آيات بينات « هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم » . آية ٦ سورة آل عمران . وقوله تعالى « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » آية ٧٨ سورة النحل .

مرحلة الجنين : Fetus

ان التغيرات النمائية التى تتم فى هذه المرحلة تكون اقل غرابة من تلك التى تمت فى المرحلة السابقة ، ولو أن التغير يظل مستمرا .

- ففى خلال الشهر الثالث تتضح الاجهزة التناسلية ويتمايز الجنسان .

- ثم هنا تبدأ التكوينات العظمية تحل محل الانسجة الغضروفية الطرية فى الهيكل العظمى ، اى تتكلس الغضاريف نوما ما .

- ونظرا لاتصال العضلات بالجهاز العصبى المركزى تبدأ حركة الساقين والذراعين ، وهو امر يحتمل حدوثه دون أن تشعر الحامل بحركة الجنين .

- ان الاستجابات الانكاسية الاولى للجنين تكون بصورة كلية يقوم بها بكل جسمه قبل بدء تخصصه العضوى ، لكل مثير . ثم تبدأ مناطق معينة من الجسم فى التخصص . وبنهاية الشهر الثالث تنضج للجنين : -

✱ جفون العين

✱ اظافر الاصابع

* ثم براعم أسنان الطفل .

وخلال الشهر الرابع : -

* يظهر الشعر على الرأس

* ويبدأ ظهور الرموش والحاجب

وفي الشهر الخامس : -

* يزيد شعر الرأس

* ويأخذ الجلد شكلا واضحا في المشاى .

* وخلال الشهر الخامس يسمع نبض القلب بالسماعة المعروفة ، وهذا دليل هام على أن الجنين يتمتع بالحياة .

اما الفصل الثالث والآخر فهو الشهور الثلاثة الأخيرة ، السابع والثامن والتاسع وهي شهور يكون فيها الجنين قد نضج بدرجة تكفيه للحياة خارج الرحم في حالات الولادة المبكرة "Premature birth"

ففى الشهر السادس يكون الجنين قد تعلم التنفس بنفسه عن طريق رئتيه ، ويمكنه ان يعيش لو ولد ، ولو أن الأفضل أن يتم الشهر السابع لكى يتم له فى هذه الفترة الكمية اللازمة لاكتمال حجم المخ والجهاز العصبى المركزى .

هذا وتحدث هنا أيضا تغيرات ذات مغزى، فقد يطول شعر الرأس الى بوصة ، وتمتد الاظافر الى أبعد من أصابعه فى اليدين والقدمين . ولعل من أهم ما يحدث فى الشهر التاسع هو وصول الاجسام المضادة « Anti bodies » والتي تقاوم الامراض العديدة تنساب مع دم الام الى الاوعية الدموية للجنين ، وبذلك تعطيه المناعة الضرورية ضد الكثير من الامراض ، الامر الذى لا يتحقق له بدون ذلك لمدة شهرين او ثلاثة بعد الولادة (٤) .

وخلال هذه المرحلة يزيد حجم الجنين باستمرار وصول امدادات من عناصر الغذاء الضرورية لعملية التسمين فى هذه الفترة ، ولوانه على العموم يأخذ معدل النماء فى الانخفاض تدريجيا فى الشهر التاسع . وينمى الجنين كذلك طبقة اضافية من الجلد السميك المتدهن الناعم الاملس تملأ غالبا من الشعر الذى يكسو أغلب الجسم .

وبعد الولادة يفقد المواليد بعض الوزن بسبب عملية التأقلم للبيئة خارج الرحمية ، والمعروف ان فرص الحياة تكون أفضل بعد الولادة كلما قضى الجنين فترة أطول فى المرحلة الاخيرة تصل الى ٤٠ أسبوعا من آخر دورة شهرية .

النماء والغذاء من البيئة الخارجية :

لقد أردنا بعرض هذه الصورة أن نبرز المراحل الهامة والحيوية من حياة الحمل والتي قد تتأثر بنقص الغذاء أو نقص العناصر الغذائية ، وذلك لتكون الأم الحامل على وعي بالعناصر الضرورية لكل مرحلة نمائية من مراحل عمر حملها ، وما يحتاجه لكل منها من عناصر غذائية ، فمثلا في فترة تكون الجهاز العصبي المركزي تكون حاجة الجنين ماسة للبروتين والفسفور والبوتاسيوم ، وفي حالة تكون أو نمو الهيكل العظمي تكون الحاجة ماسة للكالسيوم وغيره من العناصر مثل فيتامين (د) مثلا .

هذا ونحن هنا - وبصدد دراسة أثر نقص الغذاء على تطور الجنين - نحب أن نشير الى ان علوم الاجنة وعلم نفس الطفل قد تلمسا هذه النتائج من تتبع تطور الاجنة في بطون امهاتها وكذلك لما قد يبدو على المواليد من نواحي النقص النمائي نتيجة ذلك .

كذلك نحب ان نوضح هنا ان هذه الدراسة ، وهي تبرز الجوانب السلبية للامدادات الغذائية من الام ، انما نفترض ان هذا يوضح ضرورة الاهتمام بعكس هذه المظاهر ، اي توفير ايجابيات غذائية الحمل في كل مرحلة من مراحل التطور .

كذلك نحب ان نشير هنا الى اثر البيئة الخارجية على نمو الجهاز العصبي المركزي وتطوره في عجالة نبدأ بها جذب انتباه كل مهتم بالطفولة باثر ذلك على هذا الجزء الحيوي ، والحيوي جدا من التكوين .

فالمعروف ان مراحل نضوج المخ الاساسية ثلاث ، ولو تعرض نماء المخ لاي تأثير من البنية الخارجية وخاصة نقص الغذاء فان لذلك آثارا سيئة جدا كما يتبين من الجدول التالي :

جدول رقم ١

يبين الالوجه الثلاثة لنماء المخ وتأثير سوء التغذية فيها (٥) .

| الوجه أو المرحلة النمائية | المظهر النمائي | اثر سوء التغذية |
|---|---|---|
| (١) من التلقيح الى الولادة وتسمى Hyperplasia | استمرار زيادة عدد الخلايا العصبية | يؤثر في انقسام الخلايا ويسبب عطبا دائما . |
| (٢) من الولادة حتى آخر السنة الاولى خليط من hypertrophy و Hyperplasia | زيادة في عدد الخلايا وفي حجمها ووزنها . | يسبب عطبا واصابة دائمة قد يكون من الممكن اصلاحه جزئيا ولكن هذا امر غير مؤكد . |
| (٣) ما بعد السنة الاولى Hypertrophy | استمرار زيادة وزن الخلايا العصبية | يكون حجم الخلايا اقل من العادي ويمكن اصلاح النقص بالاهتمام بزيادة الغذاء اللازم . |

الحمل والغذاء وحجم المشكلة :

يتبين لنا من العرض السابق لمراحل تطور الحمل ان تأثير الظروف البيئية الخارجية يختلف باختلاف المرحلة التي يحدث فيها : فمثلا ان بعض الظروف البيئية قد تسبب هلاك التكوين في ٣٠٪ من الحالات اذا حدثت في مرحلة المضغة لشدة ضعفها ، وافتقارها لعناصر المقاومة، وفي هذه المرحلة كذلك تكون مظاهر النقص الخلقي والتشوه الاستعدادي او الولادي اكثر احتمالا « Congenital » . هذا ونحب ان نشير هنا الى ان المؤثرات البيئية الخارجية لا تؤثر في الكروموزومات ولذلك فانها قد لا تنتقل الى الاجيال التالية ، ما لم تتعرض لمثل هذه الظروف .

ولعل من فضل الله على البشر ، ان المؤثرات البيئية الخارج رحمية قد لا يظهر لها اى اثر اذا حدثت بعد الاسبوع العاشر من الاخصاب ، فلا تسبب هنا اى تشويه للجنين او نقص خلقي ، الا ما قد يحدث للمخ والجهاز العصبى المركزى او العيون والاجهزة التناسلية، كما يحدث في حالات الولادة من امهات أصبن بالامراض السرية التناسلية .

كذلك مما يجب ان نشير اليه ان النقص والشذوذ الخلقي بالولادة لا يصيب اكثر من ٢٥٪ من المواليد واغلبها يكون من انواع الخلل والنقص البسيط . ففي كل ٢٠٠ مولود يولدون أصحاء تماما يولد واحد فيه علة او نقص ما ظهر عليه قبل الولادة ولم تدركه الام او المسئول عنها .

ان مرحلة المضغة تعتبر مرحلة حساسة تماما ، حيث ان الكثير من التكوينات والاجهزة الاساسية يبدأ تطورها ، بل يتم بعضها في هذه المرحلة ، وهى عملية تسير بسرعة مذهلة . والمعروف ان التطور السريع يجعل الكثير من الصفات او السمات الموروثة قد تنحرف عن جادة تطورها السوى . ولذلك فان الكائن في هذه المراحل الدقيقة يكون اكثر عرضة واستعدادا للتأثر بالمؤثرات خارج الرحمية من البيئة الخارجية ، التى قد لا يكون لها نفس التأثير في المراحل اللاحقة ، اى انه كما يرى Waddington « ان هذه المراحل مراحل المضغة هى مراحل الازمات التكوينية الخلقية » . اكثر المراحل حساسية للمؤثرات الخارجية Epigenetic crises .

ففى الايام التى يتطور فيها عضو بذاته ، كالقلب مثلا ، يكون لكل مؤثر من البيئة الخارجية يصل الى هذا العضو اثره الخطير فى حسن تطوره وتشكله وتوصله الى الاداء الوظيفي الامثل (٦) .

كذلك نجد ان هناك اياما وفترات مبنية (شكل ٣) تبدأ فيها وبسرعة أعضاء مما فى الظهور والتطور ، ويتوقف تأثير اى نقص او عجز او ضغوط بيئية على نوع العضو النامى فى هذه الفترة .

فمثلا قد وجد ان تأثير عقار الثاليدوميد « Thalidomide » وهو واحد من العديد من العقاقير المهدئة التى شاع استعمالها فى الستينات - تأثيره على الجنين كان واضحا تماما فى اكثر

من حالة . وقد ظهر من دراسات عديدة على مواليد أمهات كن يتعاطين هذا العقار أيام الحمل ما يمكن أن يكون للبيئة الخارجية من تأثير على تطور الجنين . بل ان هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسة العملية لآثر البيئة الخارجية على تطور الجنين . ذلك أنه ثبت أن تأثير هذا العقار على تطور التكوين أيام الحمل يتوقف على تاريخ تعاطيه . فمثلا أكدت البحوث أنه : -

- إذا تعاطته الحامل بين الايام ٣٤ - ٣٨ من تاريخ الاخصاب فان الوليد يولد بدون الاذن الخارجية .

- وإذا تعاطته الحامل بين اليوم ٣٨ - ٤٦ فانه يسبب عدم ظهور الاذرع أو تشوه نموها . وقد يكون له تأثير كذلك على الساقين .

- وإذا كان تناول العقار بين اليوم ٤٦ - ٥٠ من تاريخ الاخصاب فانه يسبب ظهور عظام زائدة في اصبع الابهام .

وينطبق ما أمكن الكشف عنه من الدراسة التتبعية لآثار تناول هذا العقار على تأثير سوء التغذية على حياة الحمل . ذلك أن التغذية تؤثر من اتجاهين :

- الاول كمية الغذاء ودرجة كفايته للحامل وحملها معا .

- والثاني توفر كيفية وعناصر معينة ضرورية في الغذاء .

ومن هذين الاتجاهين يختلف التأثير باختلاف فترة تطور الجنين وطبيعة التغيرات النمائية التي تحدث له . فكل فترة تحتاج لعناصر غذائية تختلف عن الفترة الاخرى ، سواء في كمية الغذاء أو كفيته وتوفر عناصر معينة فيه .

تحديد أثر سوء تغذية الحامل على تطور الجنين :

ثبت من دراسات عديدة أن ٦٦٪ الى ٧٥٪ من المواليد في الدول النامية يولدون من أمهات يعوزهن الكفاية الغذائية قبل وأثناء وبعد الحمل . وليست حالة سوء التغذية قبل وبعد الولادة ظاهرة تضر بالكائن الجديد أثناء الحمل وبعد الولادة في الدول النامية وحدها ، بل ان هناك نفس هذه الظاهرة في أمريكا نفسها .

فقد أثبتت الدراسات الاحصائية أن الكثيرات من الامهات الحوامل القادرات لا يختلفن كثيرا عن صاحبات الدخل المنخفض في هذا الامر من حيث أنهن يعانين نقصا وحرمانا كبيرا من البروتين الكافي ، وذلك لان هؤلاء يكتفين فقط بالتهام أكالات خفيفة أثناء العمل ، وهى وجبات يعوزها السعرات الحرارية الضرورية اللازم توفرها للأم الحامل ، أو لأنهن يعتمدن كثيرا على المشروبات الخفيفة أو أنواع « البسكويت » الملح أو يحصلن على حاجتهن من السعرات الحرارية من تناول الكحول أو بعض الدهون أو الكربوهيدرات ، دون الاهتمام بالافذية التي توفر لهن البروتين اللازم من اللحوم والبيض وغيرها ، كالإسماك مثلا ، كذلك دون رعاية لاهمية الخضار والفواكه في تزويد أجسامهن ، وبالتالي أحمالهن من الاجنة بال حاجة الضرورية من الفيتامينات المختلفة .

كذلك لوحظ بين أبناء الطبقات الفنية في أغلب بلاد العالم تمسكهم « بالحصنة » أيام الحمل « الرجيم » حفاظا على القوام المشقوق ، وقد تصل (٧) بهن هذه النزعة الى درجة من فقدان الشهية الهستيري *Anorexia nervosa* . وهذه كلها أمور تحرم الحمل المتعطش للغذاء كل الغذاء ، النهم المحتاج لتنوع العناصر الغذائية ، تحرمه من توفر البيئة الغذائية وهو حبيس الظلمات الثلاث ، داخل التجويف الرحمي لاحول له ولا قوة الا من أمه .

ولقد ركزت البحوث الأخيرة على تأثير سوء التغذية بين الحوامل في مرحلة ما قبل الولادة والشهور الست الأولى بعد الولادة ، على اعتبار أنها امتداد لمرحلة الرحم ، على آثار هذه الحالة على جوانب نمو هامة أهمها : -

١ - سوء تغذية الحامل وأثره على النمو العقلي للجنين :

ان الأطفال الذين يولدون بعد جو من سوء التغذية في المرحلة الرحمية قد لا يحققون أقصى درجات النماء الجسمي ، وقد لا يتوفر لديهم التكوين اللازم لتحقيق أقصى درجات النمو العقلي . فقد أثبتت دراسات أجراها دايتن Daytin في عام ١٩٦٩ أن سوء التغذية يؤثر تأثيرا مباشرا على نضوج المخ ونمائه عند الجنين ، ما دام يعتمد في غذائه على الام الحامل ، وهي لا تمدّه بالعناصر أو الكميات الضرورية الغذائية اللازمة لنماء هذا العضو الهام في التكوين . (جدول رقم ١)

ان دراسات ذلك العالم وغيره من العلماء أثبتت أن الجنين اذا لم يحصل على القدر الكافي من الغذاء أيام الحمل فان معدل انقسام خلايا المخ وتكاثرها الانقسامى يقل بنسبة ٢٠٪ عن المعتاد . وانه اذا كان يعاني من سوء التغذية في الشهور الست الأولى بعد الولادة فان الانقسام الخلوى في المخ يقل مرة ثانية بمعدل ٢٠٪ اخرى عن المعتاد . وهكذا يمكننا ان نتصور كيف يمكن ان تكون صورة الكارثة اذا اجتمع للجنين سوء التغذية قبل الميلاد وبعد الولادة ، ولو علمنا أنه في هذه الحالة الأخيرة يقل حجم المخ بمعدل ٦٠٪ عن الحجم الطبيعى (١) (٨) .

ولعل مما يزيد هذه الكارثة فظاعة ما نعلمه من أن هذا الجهاز هو من أول الاجهزة التى تتكون في تطور الحمل كما بينا ، (شكل ٣) ، وذلك لأن الحاجة اليه ملحّة في تشغيل وتنظيم عمل وتناسق وظائف ما يأتى أو يتطور بعد ذلك من الاجهزة .

ولو علمنا ان في وسط هذا الجزء من الجسم تتكون أهم الغدد الصماء ، التى تلعب دورا قياديا بين الغدد ، ونعنى بها الغدة النخامية « Piruatry » وهى الغدة التى تنظم عمل جميع الغدد ، كما أنها هى نفسها تفرز ، وفي وقت مبكر من الحياة ، هرمون النمو او المنشط للنمو الجسمى . *Soma to trophic hormone* . وأنها تتأثر بلا شك بأي إصابة او نقص او انخفاض في جسم المخ ، لو تصورنا ذلك كله لا يمكن ان ندرك أى جناية تجنيها الحامل على

وليدها اذا حرمته وهو في احشائها من حاجته الضرورية للغذاء ؟ ! ! الغذاء المكتمل كما المتكامل
كيف ؟ !

ان العمليات العقلية المختلفة العليا ، والوظائف الدهنية تتأثر الى حد كبير بحجم المخ ،
ولعلنا جميعا نعرف الارتباط الكبير بين حجم المخ وظاهرة النقص العقلي عند من يسمون
اصحاب الرؤوس الصغيرة « Microcephals » .

ولقد اجريت دراسات عديدة اجراها العلماء من امثال وايدن « Wyden » ودرايتون
« Dryton » على اطفال من مواليد شيلى وجواتيمالا وجنوب افريقيا تبين منها ان الاطفال الذين
عانوا من سوء تغذية الام ايام حملهم ، او سوء تغذيتهم في الشهور الست الاولى لا يمكنهم ان
يعوضوا آثار ذلك من نقص الكفاية الدهنية ، ولا يمكنهم ان يلاحقوا اندادهم من العاديين في الاداء
الدهنى ، حتى ولو امكن امدادهم بالتعويض الغذائى فيما بعد (٩) .

ولقد تأكدت هذه الكشف بنتائج دراسات جديدة على الاطفال الامريكيين من الذين كانت
امهاتهم تعاني نقصا واضحا في كمية البروتين في الغذاء في النصف الثانى من فترة الحمل ، وهى
الفترة التي تزداد فيها حاجة الجنين الى البروتين للتسمين ، وتأكد وظائف الاعضاء المختلفة ،
وتقوية الخلايا العصبية ، خاص في الجهاز المركزى .

ولقد قورنت حالة المواليد من هؤلاء الامهات بمواليد امهات اخريات كن ايام الحمل يحظين
بقدر كاف ووافر من البروتين اثناء فترة الحمل الاخيرة خاصة ، ووجد ان اطفال المجموعة الثانية
كانوا يولدون ووزنهم اكبر كثيرا من اطفال المجموعة الاولى .

وعند اجراء اختبارات عقلية ، ومقاييس النمو الحركى ، ويقاس نسبة الذكاء على هؤلاء
في دراسات تتبعية استمرت حتى الرابعة من العمر ، وجد ان الاطفال الذين حرمتوا من
البروتين ايام الحمل كانت حالتهم العامة اسوأ بكثير من حالة المجموعة الاخرى . فقد كانت
نسبة ذكاء المجموعة التي حظيت امهاتها باللازم من البروتين تزيد عن ١٠٠ في المتوسط ، بينما
كان متوسط ذكاء مواليد الامهات المحرومات ٨٤ .

وفى هذا المقام يكتب Kagan و Konge و Mussen (١٠) الكثير من اهمية التغذية للام الحامل ،
فيري هؤلاء جميعا ان الام التي تتوقع مولودا يجب ان تحتفظ لنفسها بنسبة معقولة من
التغذية الجيدة اذا كانت حريصة على ولادة طفل يتمتع بدرجة معقولة من الصحة . وهذا يبدو
امرا معقولا اذا علمنا ان امداد الجنين النامى من الغذاء يأتى كلية من مجارى الدم للام (شكل ١)
عبر غشاء شبه كامل يقع في منطقة التبادل الدموي البشيمية Placenta والحبل السري .
ولقد قدم لنا هؤلاء العلماء تجربة اجريت لدراسة وببحث تأثير الغذاء على الجنين ، غذاء الام ايام

(٩) Wyden 1971 (19) Dayton 1969 (3)

(١٠) Mussen et al 1963 p 81 (I S)

الحمل . ولقد تحدد المتغير المراد دراسته بسوء تغذية الام اثناء الحمل ، وأجريت التجربة على ٢١٠ من الحوامل اللاتي كن يحضرن عيادة رعاية الحوامل في جامعة تورنتو . كن جميعا يتناولن غذاء غير ملائم من الناحية الصحية ومن ناحية احتوائه على عناصر الغذاء الضرورية ، وكان ذلك في الاربع والخمس شهور الاولى من الحمل . وفي المراحل التالية اختيرت منهن تسعون امرأة من الحوامل اعطي لهن غذاء اضافي ، وكانت تغذيتهن اكثر ملاءمة لوضعن ، اما المجموعة الباقية وعددها مائة وعشرون من الحوامل فقد استمرت حالة التغذية لديهن طوال الحمل . ولقد استطاع الباحث في هذه الدراسة مقارنة المجموعتين لدراسة تأثير الغذاء الجيد والسوء للام الحامل على مجريات عملية الحمل وعلى حالة الوليد في الشهور القليلة الاولى بعد الميلاد .

اما عن النساء اللاتي احسنت تغذيتهن فكن ينعمن بصحة جيدة طوال فترة الحمل ، ولم يتعرضن لما تعرضت له مجموعة الحوامل اللاتي لم يحظين بتغذية جيدة ، وهن اللاتي كن اكثر عرضة لعلل فقر الدم ، والتسمم الجنيني ، وكن يتهددن الاجهاض او الحمل الخاطئ (خارج الرحم) . والولادة المتيسرة ، او ولادة الاجنة الميتة ، وحتى التي شاعت في حالات السيدات من المجموعة الثانية بفروق ذات دلالة واضحة عن مجموعة الحوامل جيئات التغذية . وقد استطاعت السيدات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ان ينتهين من الوضع في وقت اقل . من المجموعة الاخرى بمتوسط خمس ساعات . ناهيك عن تكرار تعرض الامهات سيئات التغذية للالام الشديدة في الظهر والبطن أيام الحمل .

اما عن المواليد فقد تبين من الدراسة والمتابعة وجود فروق هامة فقد كان مواليد الامهات اللاتي تمتعن بالغذاء الجيد ينعمن بصحة افضل خلال الاسبوعين الاولين بعد الولادة . كذلك كانت معدلات الإصابة بالامراض الخطيرة بينهن اقل ومنها ، (الالتهاب الرئوي ، والتيتانوس ، وفقر الدم ولين العظام) ، كذلك كانوا اقل عرضة للامراض الخفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من الميلاد (ومنها نزلات البرد والالتهابات الشعبية) .

وفي دراسة اخرى على الف جانح من امهات لم ينعمن بالغذاء الملائم (١١) وجد في نسبة كبيرة منهن حالات الولادة الميتة ، والمتيسرة ووفيات الاطفال بين هؤلاء المواليد الذين كانت امهاتهم لا تنعم بالغذاء الملائم . كذلك وجد ان حسن تغذية الام التي ترضع ابنها في الشهور الاولى كان يساعد تماما على نقص حالات وفيات الاطفال في الاسبوعين الاولين . كما ان الدراسة بينت ان نقص البروتين في غذاء الام كان يرتبط كثيرا بحالات الولادة المتيسرة ، ويسبب أيضا اشكالا من النقص العصبي للمواليد .

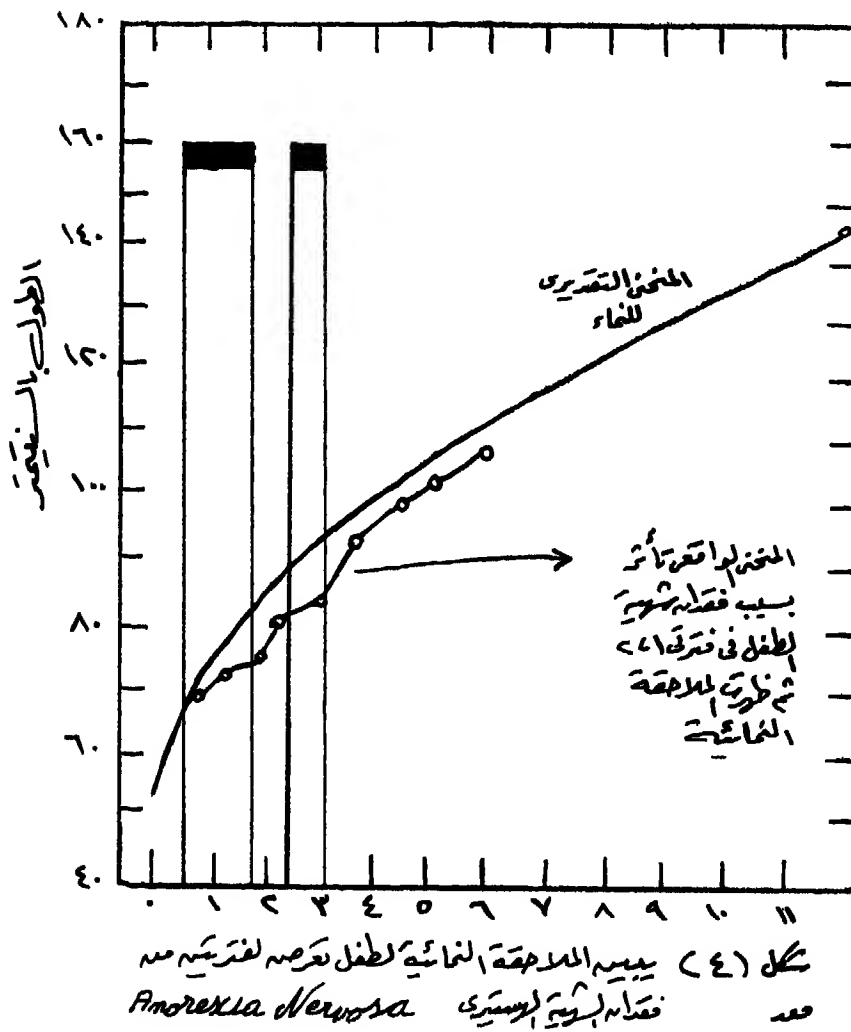
ان نتائج الدراسات جميعا تؤكد ان الجنين يستمد حاجاته الغذائية من الام قبل ان تحصل هي على حاجتها من هذه العناصر الغذائية ، ولذلك فهو يستهلك قدرا كبيرا من مخزون الغذاء لدى الام . فاذا كان هذا المخزون يتناقص الى درجة القصور الكبير لدى الام الحامل ، فان الجنين لن يتحقق له الحصول على العناصر الغذائية الضرورية .

ويؤكد Mussen (١٢) ان الادلة عديدة على صحة الفرض القائل بأن النقص الحاد في غذاء الام الحامل قد يسبب التأخر العقلي للطفل ذلك انه في جميع الكائنات الحيوانية يوجد غطاء من الدهن يكسو الالياف العصبية Myelin وهذا الغشاء لا يتكون ، بل انه يتهتك اذا تعرض الجنين لسوء التغذية في فترة تكون هذا الغشاء الدهني . والجنين البشري يبدأ تكوين هذا الغشاء في الشهر السابع من الحمل ، ولهذا فانه من الممكن في مرحلة الجنين ، اذا لم يتوفر له الغذاء الكافي بسبب سوء تغذية الام ، ان يتعطل لديه تكوين هذا الغشاء . هذا النقص قد يؤدي الى تعطل تطور وظيفة المخ وبالتالي قد يؤدي الى تأخر النمو العقلي ، ناهيك عن تعريض كثير من الالياف العصبية للالتهابات .

واذا كنا نشهد ظاهرات نقص التغذية بين الامهات الحوامل في كل دول آسيا تقريبا ، وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، فان ذلك قد يهدد هذه المجتمعات بزيادة المواليد الذين يتعرضون لتلف المخ في فترة الحمل وهم أجنة في بطون أمهاتهم ، ولذلك فعلى المؤسسات الصحية المحلية بل والعالمية استدراك هذا النقص ورعاية غذاء الامهات حتى لا تصاب البشرية جميعا ، بزيادة نسبة من يعانون من التأخر العقلي ، خاصة وان هذا العامل يمكن التحكم فيه ، وهذا يكلف الدول والمجتمعات أقل كثيرا مما تتكلفه هذه المؤسسات لعلاج وتحمل مسؤوليات هذه الولادات المشوهة عقليا .

كيف يؤثر سوء التغذية على المخ ؟ :

هذا سؤال يتبادر الى ذهن كل باحث ، بل لقد اثار هذا السؤال بحثا عديدة في تطور نمو المخ عند الكائنات وخاصة الانسان . ولقد أصبح من الممكن الان - وبعد تطور علوم النيورولوجيا في دراسة الخلايا العصبية - الاجابة على هذا السؤال بشكل أفضل . لقد أثار العلماء قديما اثر الغذاء على مخ الانسان واكتفى الفكر النفسي وعلوم الاحياء بالاهتمام بتأثير الغذاء على طول القامة ووزن الجسم ، وربما محيط الجمجمة . ولقد كانت هذه وحدها المقاييس التي اهتم بها العلماء كادلة على سوء التغذية ، وكانت مع ذلك مقاييس تقريبية عرضة لكثير من الخطأ الى حد ما ، بل أحيانا لم تكن لها دلالة كبيرة نظرا لتعدد العوامل التي قد تؤثر فيها ، ومنها الوراثة والامراض وغيرها . فهناك بعض المواليد يكونون على العموم صغار الحجم بالوراثة ، او بسبب الإصابة بمرض معين ، او بسبب الاضطراب في الكروموزومات ، او اضطراب افراز الغدة الدرقية مثلا ، دون أن يكون للتغذية دور يذكر في حجم الجسم .



اما اليوم فان التقنية الحديثة قد مكنت العلماء من دراسة وقياس معدلات النمو لا عن طريق مجرد حجم الجسم ولكن بتحديد عدد وحجم الخلايا العصبية المختلفة ، او الخلايا الاخرى المكونة للعضو موضوع القياس والدراسة. ولقد ساعد هذا الانجاز العلمي الكبير على دراسة وفحص وقياس حجم خلايا المخ عند الانسان .

ولكي نجيب على سؤالنا هذا ، السابق التقديم به لهذا الجزء الخاص بالآثار سوء التغذية على نمو المخ ، لا بد من ان نتتبع الصور المختلفة التي تأخذها عملية النمو لهذه الخلايا . ان الخلايا في المخ تزداد عددا عن طريق الانقسام الخلوي ، اي ان الخلية تنكاث وتقسّمها المستمر الى خلايا عصبية تتضاعف يوما بعد يوم ايام نمو الجهاز العصبي المركزي في الحمل ابتداء من الاسبوع الثالث تقريبا . كذلك يزيد حجم الخلية المخية يوما بعد يوم . اذا هناك نماء عددي ونماء حجمي او كمي معين . ولقد استطاع العلماء ان يميزوا ثلاث مراحل او اوجه لتطور المخ ونمائه : (راجع جدول رقم ١) .

١ - ففي المرحلة الاولى ، قبل الولادة تزيد خلايا المخ في عددها عن طريق الانقسام الخلوي .

٢ - وفي المرحلة الثانية بعد الولادة مباشرة وخلال السنة الاولى من عمر الوليد تستمر عملية الزيادة بالانقسام الخلوي ، كما تبدأ الزيادة عن طريق كبر حجم الخلية الواحدة وتسمى هذه العملية Hyertrephy hyperplasia

٣ - وتبدأ المرحلة الثالثة بعد السنة الاولى حيث يزداد حجم المخ عن طريق استمرار زيادة حجم ووزن الخلايا العصبية فقط ، وتستمر هذه العملية الى ان يصل حجم المخ الى ما يقرب من حجمه عند الراشدين بنهاية السنة الثانية من عمر الوليد تقريبا Hypertrophy

ويضيف بعض العلماء في هذا المقام مرحلة رابعة وهي مرحلة تكون ارتباطات عصبية بين الخلايا المختلفة في المخ ، وهي العملية او المرحلة الهامة والضرورية لاحداث عملية التعلم والارتباط الشرطي ، وهي مرحلة قد تستمر الى نهاية مرحلة النمو العضوي او الى أقصى درجاته . (١٣)

هنا نعود مرة ثانية للاجابة عن سؤالنا الذي يفرض نفسه دائما وهو ما تأثير سوء التغذية على نمو المخ ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال لا بد ان تأخذ في الاعتبار الزمن او الوقت الذي تحدث فيه حالة سوء التغذية . ففي المرحلتين الاوليتين - قبل الميلاد والسنة الاولى من عمر الوليد - تؤثر حالة سوء التغذية ونقص العناصر الضرورية لنمو الجهاز العصبي المركزي في سرعة انقسام الخلايا، بحيث يولد الطفل الجنين وفي جمجمته عدد اقل من المعتاد من الخلايا العصبية التي تكون المخ لدى من تحظى امهاتهم ايام الحمل بالفذاء الانسب .

هنا يقول العالمان الشهيران مايرون Myron..... ووتش "Witch" وهما من الرواد الأوائل في دراسة نماء المخ وتطوره « أن المخ لا يمكن أن تتوفر له فرصة أخرى إذا فاتته فرصة التكاثر عن طريق الانقسام الخلوي في مرحلة الجنين ، ذلك أن عملية التكاثر في الخلايا تتوقف في وقت واحد عند كل من الفئتين من الاجنة ، فئة من يحظون بنعمة الغذاء الجيد للام الحامل وفئة من يقاسون نقص التغذية لدى الامهات الحوامل . (١٤)

وكذلك يلاحظ ان السنة الاولى من حياة الوليد ، وهي تكاد تعتبر امتدادا للمرحلة الرحمية ، تتأثر بالغذاء ، لان نقص الغذاء يعطل عملية النماء في صورة زيادة حجم الخلايا العصبية ، وهو امر يصعب تداركه كذلك .

الا انه بعد السنة الاولى من الميلاد ، أي من عمر الوليد فان سوء التغذية قد يؤدي الى نقص حجم ووزن الخلايا بالمخ ، وهذا نقص يمكن تصحيحه بالتغذية الملائمة بعد ذلك . ذلك ان الدراسات المتعددة في موضوع النمو النفسي قد اثبتت ان الاطفال يمكنهم ان يلاحقوا في نمائهم وبسرعة مذهلة بعد فترة من سوء التغذية ، ذلك ان النماء ، بعد ان يحظى الطفل بظروف تغذية افضل يزيد معدله بصورة ظاهرة وبسرعة تجعلهم يصلون الى المستوى المعياري للطول والوزن في حدود العوامل الوراثية لديهم ، وهذا ما يعرف بظاهرة الملاحقة النمائية ، كما سنشرح ذلك فيما بعد .

هذا امر يصدق بعد الميلاد ولكن ذلك يصعب تماما اذا حدثت نتائج سوء تغذية الام الحامل ايام الحمل فان الجنين يلاحق حتى لو تحسنت ظروف التغذية بعد الولادة ، وخاصة فيما يتعلق بالنماء الخلوي العصبي في خلايا المخ بالذات وهي التي لا تستطيع ان تحقق ظاهرة الملاحقة النمائية بعد الولادة .

الملاحقة النمائية : "Developmental catch up"

الملاحقة النمائية ظاهرة تعتبر من أهم وأوضح امثلة الاتجاه النمائي في الاجهزة المختلفة لدى الكائن البشري ، ويقصد بها انها عملية تنظيم ذاتي في سير الفقرات النمائية ، بمعنى ان الكائن البشري يستطيع بسرعة ان يعوض ما فاتته من نماء في حياته اذا تحسنت الظروف وزالت العوامل المعطلة للنمو ، والا تعرض لما يعرف بالهوة النمائية او التخلف النمائي او ما يعرف باسم Developmental Lag.....

وهنا يهمنا كيف يمكن ان تظهر هذه الظاهرة مع متغير نقص او سوء التغذية . فالاطفال الذين يعانون نقصا في الغذاء يتعرضون نموهم بصورة عامة ، ولكنهم اذا استعادوا حاجاتهم المناسبة من الغذاء ، فان معدلات النمو تكون اسرع من متوسط معدلات نمو العاديين من اندادهم في السن ، وذلك يحدث للجهاز او الوظيفة او العملية الحيوية التي تأثرت بسوء

التغذية . هذا الاسراع الواضح في معدل النمو والتطور والنماء يستمر حتى يقترب الكائن من وضعه الطبيعي في المنحنى الاعتدالي للنمو عند الاندماج من نفس السن ، وهو المنحنى الذي يتأثر وضع الفرد فيه بعوامل الوراثة وغيرها ، من يحدد ما نسميه مستوى اكتمال النضج وحدوده Maturity والذي يختلف من سن لآخر ، ويختلف كذلك بسبب عوامل ترجع لفروق فردية .

وللدلالة على ان ظاهرة الملاحقة النمائية تعتبر ظاهرة ذات فعالية كبرى في مواقف معينة نسوق هذا المثال : -

فقد تعرض طفل لمجاعة غذائية في فترتين بسبب اصابته بمرض عصابي هو فقدان الشهية الهستيرى Anorexia nervosa وهو اضطراب يجعل الفرد يرفض الطعام كله أحيانا أو أطعمة معينة أحيانا أخرى . ولقد تبين من دراسة حالة هذا الطفل « راجع شكل ٤ » ان منحنى نمو هذا الطفل كان يلاحق في آخر كل مرحلة حتى يصل الى مستوى المنحنى العادي لامثاله ، بعد ان تزول حالة نقص السكر في الجسم .

ولقد لاحظ العلماء ان عملية النماء وما يظهر فيه من الملاحقة تشيع لدى الاطفال الذين يعانون اضطرابا في الهرمونات . وكذلك في الاطفال الذين يعانون من آثار سوء التغذية بعد الولادة ، وحتى في الاطفال الذين يولدون ولديهم حاملات الوراثة التي تؤهلهم لطول القامة ، مع أخرى تورثهم نزوعا لقصر القامة ، فهؤلاء يغالبون ما قد يرثونه من ميل لقصر القامة الموروث عن الام القصيرة عن طريق ظاهرة الملاحقة النمائية ، هؤلاء جميعا يكون نماؤهم ظاهرا واضحا ، ويسير بمعدل اكبر خاصة في السنة الاولى ، بل اكثر واكثر من المتوسطين في الشهور الستة الاولى بعد الولادة . (١٥)

هذا وعملية الملاحقة كظاهرة نمائية لا تكون كاملة تماما . فقد دلت التجارب على الفئران على انه اذا تعرضت للتجوع بعد الولادة اعطيت لها بعد ذلك حرية كاملة في تناول الغذاء او اعطيت كميات اكبر من الغذاء .

ان ظاهرة الملاحقة النمائية في موضوعنا هذا تشير الكثير من التساؤلات ولعل أهمها ؟!

١ - لماذا تحدث هذه الظاهرة على العموم ؟!

٢ - ما الذي يجعل النماء يبطئ عندما يصل الانسان الى مستوى المعدل العادي كما يظهر في منحنى النمو ؟

٣ - لماذا تكون عملية الملاحقة غير كاملة عندما تحدث آثار سوء التغذية في فترات حرجية من عمر الكائن البشري وأهمها مرحلة ما قبل الميلاد والشهور الستة الاولى من العمر بعد الولادة ؟!

لا تبدو الإجابة على هذه التساؤلات واضحة تماماً لدى كثيرين من العلماء . ثم انه يزيد المسألة تعقيداً ما يلاحظ من ان ظاهرة الملاحقة النمائية تؤثر في الجهاز أو العضو الذي تخلف عن النماء كله ، بل ربما يمتد اثرها لغير الجهاز أو الوظيفة أو العضو الذي حدث فيه الخل ، ثم أعقبه ظاهرة الملاحقة النمائية . هذا ولقد حاول بعض العلماء ان يجيبوا على هذه التساؤلات بما جاء في بعض دراساتهم مما يؤكدان للقدرة التعويضية لبعض الغدد الصماء دورها في إبراز هذه الظاهرة - ظاهرة الملاحقة النمائية - ذلك ان القصور أو التعتل في بعض جوانب النمو قد يثير مزيداً من افراز غدة من الغدد الصم تساعد على اتمام الملاحقة النمائية ، حين تزيد سرعة المعدلات النمائية . (١٦)

اختلاف التوافق الزمني واثـر ذلك على نمو المخ :

هناك نظرية جديدة توصل اليها العالم تانر Tanner (١٧) الذي استمر في دراساته للموضوع من عام ١٩٧٠ - ١٩٧٣ ، وهى نظرية تساعد على تفسير ظاهرة الملاحقة النمائية . فهو يرى انه ما ان يصل المخ والجهاز العصبى المركزى كله فى نموه وتطوره الى نقطة معينة ، وربما بنهاية الشهر الثالث بعد الاخصاب حتى تتراكم مادة معينة ذات طبيعة دهنية على جدران خلايا هذا الجهاز التى تسير فى نمائها بدرجة وحسب منحنى معين ، وهذه المادة الفرضية تغطى الجهاز العصبى الوقت أو التوقيت الأنسب للنماء العصبى الكلى ، وهى تختلف فى كميتها وتركيبها من فرد الى فرد . وهو يرى أن الحجم الحقيقى للجسم الكائن فى مرحلة ما من مراحل نموه قد يدل عليه ويمثله مادة أخرى تنتجها خلايا هذا الجسم . وبمعنى آخر فانه كلما توفر للكائن من الغذاء ما يزيد وزن جسمه كلما توفر له قدرة أكبر على افراز هذه المادة الثانية فى جسمه .

وبمعنى آخر فانه اذا تمرض الجنين أو الطفل فى مراحل معينة حرجة من نموه لآى نوع من انواع المجاعة نتيجة نقص التغذية أو الجوع ، أو غير ذلك من أشكال الحرمان البيئية ، فان حجم جسمه الواقعى يكون أقل كثيراً مما يجب أن يكون عليه حسب منحنى النمو الطبيعى لامثاله . وبذلك يقل حجم المواد اللازمة للمساعدة على نموه والمحافظة على خلايا الجهاز العصبى المركزى .

ونظراً لأنه حتى ولو زالت أسباب هذه الحالة من المجاعة ، فان النماء لايسير بنفس السرعة المطلوبة التى تصل بالكائن الى المستوى العادى للأطفال بعد نفس سنه ممن يعيشون فى ظروف بيئية غذائية أفضل . فقد تبين انه اذا حدثت حالة مجاعة ما تأثراً على الجنين فى مرحلة النماء السريع للمخ والجهاز العصبى المركزى ، حين تكون هذه الاجهزة نفسها واقعة تحت تأثير مظهر نمائى سريع جداً عن طريق الانقسام الخلوى ، فان الملاحقة النمائية الزمنية التى يمكن أن تولدها طاقات المخ ليستعيد قوته تتأثر بشكل ظاهر ولا تكون لها فعالية كاملة تماماً .

(١٦) راجع فى غالى وآخرون الوظيفة التعويضية للغدد وخاصة الغدد الجنسية وبالأخص البيفسيين .

Tanner 1973 - Ibid (17)

(١٧)

ان فشل الملاحقة النمائية هنا تعنى ان هناك نقصا ما في التقدم الطبيعى للطاقة النمائية الموروثة في المخ . فاذا كان النقص في الغذاء او كانت حالة المجاعة غير حادة او طويلة الامد او الاثر ، فانه عندما يزول سببها ، فان مخطط النمو يعود الى مجراه الطبيعى عن طريق آلية الملاحقة النمائية . اما اذا كان النقص حادا ، او طويل المدى والاثر ، فان هذا يؤدي الى تعطيل الملاحقة النمائية الزمنية ، ويأخذ النمو طريقا آخر ينجو به نحو النقص او عدم الكمال غالبا . وهذه الحالة تشيع كثيرا في فترات النماء الخلوى للمخ التى سبق ان اشرنا اليها .

نقص الوزن واثره في نمو الطفل :

بناء على هذا فاننا نجد من النتائج الشائعة بسوء تغذية الام الحامل نقص وزن المولود عند الولادة . ولقد كان العلماء قديما - والى عهد قريب - يسلّمون بان المواليد الذين يزنون اقل من ٥٠٠ رطلا عند الولادة (٢٥٠ كيلو جراما) كانوا يعتبرون مواليد من ولادة مبسرة Premature birth او انهم ولدوا ناقصى اكتمال النضج ايام الحمل . اى بمعنى آخر انهم ولدوا قبل مرور ٣٧ اسبوعا من الحمل . الا ان ابحاثا كثيرة قام بها العلماء في الستينات اثبتت ان الكثير من الاطفال الذين ولدوا في تلك الايام ناقصى الوزن ، كان مالا يقل عن ثلث عددهم قد اكملوا ايام الحمل الى آخر اسبوع ، ولكنهم عانوا اثناء الحمل من آثار نقص تغذية الام الحامل وتأثروا لذلك من سوء تغذيتهم داخل الرحم .

ان نقص الوزن الناجم عن سوء التغذية يختلف تماما عن نقص الوزن الناجم عن الولادة المبسرة ، او قصر مدة الحمل ، فهما ظاهرتان متشابهتان في مظهرهما مختلفتان في أسبابهما . ولهذا يطلق على الاطفال الذين يولدون ناقصى الوزن مع اكتمال مدة الحمل Low birth weight infants . اما الذين يولدون قبل الاسبوع السابع والثلاثين من الحمل فانهم يطلق عليهم اسم Short gestation period infants S.G.P.I. .

ولقد حدد العلماء الاوزان المعيارية لكل مولود في اى لحظة يولد فيها بعد عملية الاخصاب . وهنا تتضارب الآراء بين آراء اطباء النساء والولادة وبين اطباء الاطفال عن الوزن الامثل للجنين في مراحل تطوره داخل الرحم ، ولكنهم على العموم يحددون سن الجنين ومن الحمل عند الولادة بعلامات عديدة منها لون الجلد وصبغته ، وشكل الاذن وتكوينها كذلك بعض الخطوط التى تظهر على كعب الوليد في شكل تجاعيد ، وغير ذلك من المقاييس العصبية ومنها وضع الوليد عند الولادة وطريقته في النوم وكذلك سرعة انشاء الرسفين والكعبين والعودة الى وضعهما . ولهذا فان اى وليد يولد في اى لحظة من اوقات الحمل يمكن تحديد مركزه بالنسبة لعمره الجنينى ، وهل هو عادى الوزن اقل . او اكثر من المعتاد .

لقد تأكد ان هناك اهمية عملية للفرقة بين نقص الوزن لسبب الولادة المبسرة ونقص الوزن عند الميلاد لسبب سوء التغذية ، ذلك لان لكل منها اجراءات معينة وطرق رعاية تبدأ بعد الولادة مباشرة لتحقيق الملاحقة النمائية .

فقد يحتاج المواليد نتيجة ولادة مبسرة الى التغذية بالحقن الوريدي ، والى المعينات الضرورية لضمان التنفس السليم ، اما اولئك الذين يولدون في حالة نقص الوزن بسبب سوء التغذية فانهم يعانون من نقص سكر الدم Hypoglycemia ، وهذه الظاهرة تؤثر كثيرا في الخلايا العصبية ، ذلك لان الخلية العصبية تعتمد في حياتها على القدر الكافي من البروتين وكذلك المواد السكرية والكربوهيدراتية التي تمنع احتراق الخلية نفسها . لذلك فان هذه الحالة تجعل هؤلاء المواليد يتعرضون لتلف في خلايا المخ اذا لم يتم حقنهم فورا وبمجرد الولادة بكميات من الجلوكوز . لهذا يعتقد العلماء ان الاهتمام بمن يولدون ناقصي الوزن بسبب سوء التغذية ، ورعايتهم الغذائية بعد الولادة مباشرة، قد يقلل وفيات مثل هؤلاء المواليد بنسبة ٥٠٪ وربما كان لهذا كله اثره الطيب في استبعاد حوادث تلف المخ وما يترتب عليه من نقص الكفاية او الكفاءة العقلية اذا تمت الملاحظة النمائية .

وعلى اية حال ، فانه بالرغم من كل ماتقدم من الرعاية التي يمكن ان تقدم للمواليد ناقصي الوزن بسبب سوء التغذية ، فان هؤلاء الاطفال يعانون كثيرا من الاضرار في نمو وتطور قواهم العقلية لدرجة قد تعرضهم للضعف العقلي . فقد دلت الابحاث على انه لا توجد علاقة تذكر بين الولادة المبسرة وبين النمو العقلي في ايام الطفل المقبلة ، الا ان الدراسات التي قام بها علماء من امثال وليامز وديفز (١٨) عام ١٩٧٤ على مواليد عام ١٩٦٠ قد اظهرت ان الاطفال الذين ولدوا في تلك السنة (١٩٦٠) وكان وزنهم عند الولادة اقل من المتوسط كان متوسط نسبة ذكائهم ٩٢ ، بينما كان متوسط نسبة ذكاء من ولدوا في نفس السنة وكان وزنهم عند الميلاد في حدود المتوسط ٩٩٫٢ . كما انه كذلك اثبتت دراسات اخرى ان متوسط وزن المخ لدى الاطفال الذين يولدون قبل الموعد المنتظر العادي او الذين يولدون ناقصي الوزن كان اقل من المعتاد بصورة ذات دلالة واضحة ، مما يدل على ان عملية النماء الضرورية بالمخ لم تحقق القدر الكافي من الانقسام الخلوي او زيادة وزن المخ . (١٩)

دراسات احصائية لتدعيم الآراء النظرية في تأثير سوء التغذية : -

ان حجم مشكلة المواليد ناقصي الوزن تختلف من دولة الى دولة وذلك لاسباب ثقافية حضارية ترتبط الى حد كبير بالوضع الاقتصادي لهذه الثقافة وتؤثر بالتالي في حالة الام الصحية ، كما تؤثر في مدى تحقيق انسب الغذاء لها ايام الحمل . وفي دراسة عبر الثقافات ظهرت الحقائق التالية : -

- في الولايات المتحدة كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن ٧٫٤٪ من المواليد الاحياء (وزن ٥رطل ٢ كيلو) احصائية ١٩٧٥ .

- في المناطق الفقيرة من الهند وقرى جواتيمالا كانت النسبة ٤٠٪ أو أكثر من المواليد الاحياء .

وفي جميع بلاد العالم تتأثر نسبة المواليد ناقصي الوزن بعوامل اجتماعية اقتصادية « Socioeconomic »

- فمثلا في أمريكا نجد ان نسبة المواليد ناقصي الوزن بين غير البيض ١٣١٪ من المواليد الاحياء .

وهؤلاء بالطبيعة يعيشون ضغوطا اقتصادية من نوع أو آخر .

- بينما نجد أن نسبة المواليد ناقصي الوزن بين البيض ٦٥٪ .

- وفي الشعوب والسكان الذين يعانون قسوة الفقر المدقع نجد أن المواليد ناقصي الوزن تزيد نسبتهم بين مواليد الامهات القصيرات القامة .



- ان الوزن المنخفض عند الولادة يرتبط كثيرا بنسبة الوفيات بين الاجنة ، وحديثي الولادة ، ففي الشعوب التي يرتفع فيها نسبة اى من هذه الانواع ، ترتفع النسب الاخرى .

ان زيادة وزن الجنين تعطيه فرصة اكبر للعيش والحياة ، سواء في لحظات الولادة أو بعد الولادة . والوزن الامثل طبعاً هو ٨ أرطال (٣٦٣ كجم) .

فقد وجد أن نسبة الوفيات بين المواليد الناقصي الوزن (اقل من ٥ أرطال أو ٢٥ كيلو) هي ٥٨ في كل ألف من المواليد من هذه الفئة . وهذه النسبة تصبح ٢٠٧ اذا نقص وزن المولود عن ٢ كيلو ، وهذا ما أبرزته تقارير مكتب الاحصاء في أمريكا عام ١٩٧٥ . كذلك دلت الدراسات التي اجريت في بلاد غرب أوروبا على نسبة الوفيات قبل الولادة وبعدها مباشرة على انها كانت ترتبط الى حد كبير بتوافر اعداد المواليد ناقصي الوزن . ولعل من الغريب أن أغلب الوفيات من هذا النوع كان يرجع الى الضعف العصبي الشديد أو تلف المخ الشديد ، أو الالتهاب العصبي بسبب تأخر تطور الغشاء المبطن لحماية الالياف العصبية .

وفي السويد مثلاً ، وبلغاريا ، حيث وجد أن ٥٪ من المواليد كان وزنهم اقل من ٥ رطلا عند الولادة كانت هناك حوالي ٢٠ حالة مولود ميت في كل ألف من المواليد الاحياء . وفي المجر حيث كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن تصل الى ١٠٪ كانت نسبة المواليد الموتى ٣٥ في كل ألف من المواليد الاحياء .

وهذا ما أبرزته تقارير منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢ .

- هكذا نجد أن وزن المولود أمر هام لعدة أسباب :-
- فبالإضافة الى أنه يرتبط بتحسين فرص البقاء ومقاومة العلل والادواء بعد الولادة .
- فانه كذلك يعتبر دليلا جيدا للتنبؤ بالنمو السليم عامة ، جسميا وذهنيا .
- وهو كذلك يرتبط بالكثير من أدلة النمو السليم كالطول ومحيط الجمجمة وحجم المخ ، والنمو العقلي والمعرفي بالتالي .
- وهو يعني فيما يعني ان الجنين قد تحققت له فرص تغذية أفضل أيام الحمل بما يرجح ان يكفل نماء الجهاز العصبي المركزي بصورة أفضل .

نقص الوزن عند الولادة وأثره على النمو العقلي :

لقد دلت الدراسات التي أجريت في البلاد التي يعاني سكانها النقص الحاد في الغذاء على أن نقص وزن الوليد من الامهات اللاتي يعانين سوء التغذية - يعتبر من العوامل الهامة في تواتر ظاهرة التأخر العقلي .

ففي إحدى المدن المكسيكية دلت الأبحاث على أنه كلما صغر حجم الطفل بالنسبة لسنة كلما نقصت درجاته في اختبارات القدرة على التعلم واختبارات السلوك الأخرى .

وفي بحث أجرى في قرية مايان Mayan الهندية ، حيث وجد أن أغلب الاطفال في سن ما قبل المدرسة (قبل السادسة) يبدو عليهم التأخر الواضح في النماء الجسمي ، تأكدت هذه الحقيقة بصورة واضحة . فقد كان يطلب الى الاطفال تادية ثلاثة من الاختبارات لقياس قدرتهم على اكتساب المعرفة المتكاملة من حواس عديدة ، وفي هذه الاختبارات كان أداء الاطفال ذوي الاجسام الصغيرة الحجم أسوأ من غيرهم دائما وبصورة واضحة .

وهنا يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، وهي ان نتائج مثل هذه الاختبارات كانت تعتبر صادقة فقط عندما كان صغر حجم الطفل يرجع الى سوء التغذية L. b. w. I

وفي مدينة جواتيمالا ، وبين اطفال الطبقة العليا والوسطى حيث صغر حجم الاطفال يرجع لاسباب وراثية أو بسبب جينات معينة من المورثات أكثر منه الى سوء التغذية ، وجد أنه لا يوجد ارتباط يذكر بين صغر حجم الطفل وطول قامته من جهة ، وبين انخفاض مستوى قدراته العقلية أو نموه العقلي المضطرب .

ان النتائج التي تترتب على سوء تغذية الام الحامل اثناء الحمل تزداد عمقا : في اثرها في نمو الطفل العقلي بسبب الظروف البيئية التي قد تعمق هذا الاثر . ومنها ظروف حياة الطفل وتغذيته بعد الولادة مثلا .

كذلك نلاحظ أن الاوضاع الاجتماعية هي عوامل لا يمكن فصلها فصلا تاما عن العوامل البيولوجية في التأثير وأحداث ما يعرف بتأخر النمو العقلي . ذلك ان الأسر التي يتوافر

فيها سوء تغذية الام والاطفال تميل لان تكون من تلك الاسر التي لا تحظى بالقدر الكافي من الرعاية الصحية او النظافة ، وهي غالبا أسر كبيرة الحجم ، وغالبا ما يكون الآباء ممن يعوزهم القدر الكافي من العلم والثقافة . وبالرغم من أنه يصعب أن نميز أو نفرق بين أثر سوء التغذية وبين تأثير غير ذلك من العوامل او من الظروف البيئية المختلفة المتعددة المتنوعة ، الا أن هناك حقيقة تبرز واضحة في كل الدراسات : وهي ان النتائج السيئة المتعددة التي تترتب على سوء التغذية بأيام الحمل تزداد سوءا بسبب البيئة الفقيرة التي يعيشها الطفل فيما بعد ولادته . فالاطفال الذين يقاسون من العاملين معا - سوء تغذية الام أيام الحمل ، وسوء الظروف البيئية - انما يتعرضون لخطر بتضاعف قدره وأثره باستمرار ، وهو خطر مرعج فاحش مدمر للقوى البشرية ، وذلك لانهم لا تتوفر لهم غالبا عوامل تحقيق الملاحقة النمائية ، ولو أنها تكاد تكون فرصا غير مؤكدة .

هذا وبالنظر الى تعدد أسباب تأخر النمو عامة لدى الاطفال ، والنمو العقلي خاصة ، تعدد هذه العوامل وتداخلها وتراكبها ، فاننا ننصح بما يأتي كوسيلة لوقاية الاطفال من أسباب تأخر نموهم العقلي بصورة خاصة وهي : -

- تحسين الظروف المدرسية والصحية والغذائية والتعليمية خاصة في المراحل الاولى .
- نشر الثقافة الصحية والغذائية بين الآباء وخاصة الامهات الحوامل .
- توفير التموين الغذائي المناسب لكل من الام الحامل والمولود في أول أيامهم .
- تحسين القيمة والنظام الغذائي للام الحامل في الاسرة والعمل وذلك للتقليل من حالات المواليد الموتى ونقص وزن المولود .
- توفير الظروف الصحية للأم الحامل في المنزل وخارجه .

هذا وفي هذا المجال ، مجال اثر تغذية الام الحامل لدينا دليل ملموس مما حدث في بريطانيا خلال الحرب العظمى الثانية عندما بدأ فيها نظام الحصص الغذائية بالبطاقة وهي « تجربة طبيعية ميدانية حية » توضح تماما تأثير الاهتمام بالتموين الغذائي الاضافي للحوامل . فقد جاء في التقرير الذي أصدره مجلس البحوث القومي البريطاني سنة ١٩٧٠ ص ١٢٢ - ١٢٤ ما يأتي : -

« في اطار نظام الحصص الغذائية أعطيت أيام الحروب اولوية خاصة للنساء الحوامل في الحصول على حاجتهن من الغذاء ، وخاصة من حيث مستوى الغذاء اللازم في كميته وجودته ، وخاصة أولئك اللائي كن من أسر ذات دخل مادي منخفض ، وكان هذا الامر موضع اهتمام المسؤولين بصفة خاصة تماما . لهذا كله انخفض معدل الوفيات بين الاطفال او المواليد الموتى الذي ظل ثابتا فترة طويلة على مستوى ٣٨ في كل ١٠٠٠ من المواليد الاحياء انخفض الى ٢٨ في كل ١٠٠٠ في الفترة التي كانت بريطانيا تعاني فيها من التدهور الشديد في كثير من نواحي الحياة المادية ، وهذا الانخفاض الذي بلغ ما يقرب من ٢٥٪ يعتبر تحسنا جيدا يدل على اثر الاهتمام بتغذية الام الحامل في تحسين مستوى المواليد صحيا » .

ولقد أكدت دراسات العالم شوفيه "Chavez" وآخرين ، وهي دراسات أجريت عام ١٩٧٤ على بعض مدن كولومبيا والمكسيك أن الامدادات الغذائية الإضافية للحوامل والاطفال الحداثى الولادة قد أدت الى تحسن ملحوظ فى نمو الاطفال العقلي ، وكذلك فى اتجاهات الآباء نحو تقبل البناء ، والابناء نحو الآباء ، وبالتالي فى نموهم الاجتماعى عامة . (١٩)

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات المتعددة والمتداخلة بقوة أن تحسين التغذية الاموية له اثر ايجابى على المواليد . وعلى أى حال فان صحة الحامل والجنين لاتتأثر وتأخذ صورتها المزهرة بتحسين الغذاء اثناء الحمل فقط بل أيضا بالحالة الصحية التى تكون عليها الام قبل الحمل . وهنا يؤكد العالم مرييل ريند "Merrill's Rend" وهو الذى عمل مديرا لمشروع « النماء والتطور » الذى تبناه « المعهد القومى لصحة الطفل والنمو الانسانى » أن رصيد الام من الغذاء الذى يجب أن يتوفر لها ليكفى لامداد حملها من الجنين ، لا يمكن أن يجمع أو يجتمع اثناء فترة الحمل وحدها ، بل ان هذه النتيجة الطبية ، وهى حسن تغذية الجنين هى محصلة تراكم الغذاء خلال سنوات عمرها السابقة .

وهنا يضيف هذا العالم كذلك أن أكثر النساء حظا « لا يجب ان يثقن ثقة مطلقة فى أن أجسامهن سيكون لديها المخزون المطلوب من رصيد الغذاء اللازم للجنين حين يحملن حملهن بأية حال » .

هنا يجدر بنا أن نتقدم ببعض النصائح الضرورية التى يمكن ان تطبق على أغلب النساء الحوامل أيام الحمل . فالبحث الى هذا الحد كان يهتم باسماع صوت الجنين للامهات الحوامل ، وذلك عن طريق دق نواقيس الخطر بابرار سلبيات نقص تغذية الام الحامل . ويجب هنا وفى نهاية هذا العرض الطويل ان نوجه الاذهان الى طريقة التغلب على هذه النتائج او الوقاية منها بمعنى أصح .

الوقاية والعلاج من مشكلة سوء تغذية الحوامل واثرها السئ على الجنين

من الافضل ان تحصل الام الحامل على حاجتها من السعرات الحرارية من العناصر الغذائية الاربعة ولا تقتصر على مجموعة دون أخرى ، وهى : -

١ - مجموعة الأسماك واللحوم والالبان ومنتجاتها وهى توفر البروتين اللازم لبناء الخلايا عامة والخلايا العصبية خاصة .

ب - مجموعة الخضر والفواكه وهى التى تمد الجنين بحاجته من الفيتامينات العديدة التى تؤهله بمقومات الوقاية من كثير من الامراض .

ج - مجموعة الخبز والكربوايدرات بأنواعها ، وهي التي تفيد في عملية امداد الجنين بما يلزمه في وقت التسمين بعد الشهر الرابع والخامس من الحمل .

كما أنها تفيد في توليد الطاقة اللازمة لحركة الجنين بعد الشهر الرابع .

د - مجموعة البقول وهي تحتوى على مزيد من البروتين وبعض العناصر الضرورية لبناء الخلايا .

وهكذا يضر الحامل ويضر الجنين معا أن تعتمد الحامل في غذائها على الحلوى فقط ، او المشروبات الخفيفة « المياه الغازية » أو شرائع البطاطس وحدها دون غيرها .

نظام الغذاء الأمثل أيام الحمل (٢٠)

لقد توصل العلماء أخيرا الى ما يجب أن يكون عليه التركيب الجيد لغذاء الحامل بحيث يضمن لها ولحملها ما يحتاجه كلاهما من العناصر الغذائية ولذلك تحدد الغذاء على النحو التالي : -

١ - اربع مرات يقدم لها فيه وحدة من اللبن الطازج ومجموعة من منتجات الالبان أى ما يعادل ١/٢ لتر من اللبن

٢ - في مرتين يقدم للحامل قطعة من اللحم أو الدجاج أو الاسماك او البيض بكمية تزن بين ٣ - ٥ أوقيات حسب وزن جسم الحامل .

٣ - في اربع مرات أو أكثر يقدم لها عناصر من الخضر والفواكه بحيث يكون منها الخضر الطازجة الخضراء ، ذات الورق الأخضر او الاصفر أحيانا ، مع اضافة وجبة يكون فيها من الفواكه ما يكفي لتموين الحامل بكمية كافية من فيتامين ج (Vit. C) .

٤ - في اربع وجبات أو أكثر يقدم للحامل غذاء يحوى حبة كاملة من الخبز الغني بالفيتامينات مع الدهن أو الزبد وكذلك البقول .

ولقد أوصى المكتب الدولي للصحة والتربية والرعاية الاجتماعية بأمريكا في تقرير له صدر عام ١٩٧٣ بهذا التنوع الغذائي للأم الحامل ، كما أنه حدد في جدول دقيق المزيد من العناصر الغذائية التي يجب أن تحصل عليها الحامل أيام الحمل بما يزيد عما تحصل عليه غير الحامل ، وذلك رعاية لصحة الجنين في أكثر مراحل تطوره حساسية للتأثر بنقص عناصر غذائية معينة ، ضمانا لصحته ، وكفالة لحسن سير خط نمائه .

هذا الجدول نعرضه فيما يلى ، ويتضح منه كيف أن المزيد من العناصر الغذائية الإضافية تحتاج اليها الحامل بدرجة قد تصل الى نسبة ١٠٠٪ مما تحتاجه المرأة غير الحامل ، وذلك في بعض العناصر الغذائية .

(جلول ٢) (٢١)

| فعالية هذه العناصر وأثرها في تطور الكائن | نسبة الزيادة أيام الحمل | إضافة في أيام الحمل | غير الحامل يومين ١٨ - ٢٢ سن | العناصر الغذائية |
|--|-------------------------|-------------------------|-----------------------------|--|
| لتزويد الكائن بالطاقة - يتوفر في الكربوهيدرات هام لنمو الخلايا خاصة الخلايا العصبية والمضلات | ١٠٪ ١٨٪ | ٢٠٠ يومياً ١٠ يومياً | ٢٠٠٠ يومياً ٥٥ يومياً | ١ - سعرات حرارية ٢ - بروتين بالجرام |
| لتقوية الشبكية ونمو العصب البصري | ٢٠٪ | ١٠٠٠ يومياً | ٥٠٠٠ يومياً | ٣ - فيتامين ١ (وحدة دولية) |
| يقوى العظام ويمنع لين العظام والكساح | - | - | ٤٠٠ يومياً | ٤ - فيتامين د (وحدة دولية) |
| يمنع اكسدة المواد الدهنية على جميع الخلايا والخلايا العصبية وفشائها | ٢٠٪ | ٥ يومياً | ٢٥ يومياً | ٥ - فيتامين هـ (وحدة دولية) |
| يقوى جذران الارعية الدموية الشعرية والأغشية المبطنة | ١٨٪ | ١٠ يومياً | ٥٥ يومياً | ٦ - حامض الاسكوربيك « ملجم » |
| يساعد على سرعة توليد الكريات الحمراء وينع الإنيما | ١٠٠٪ | ٤٠ يومياً | ٤٠ يومياً | ٧ - الفولاسين B « ملجم » |
| يسهل التمثيل الغذائي للجيكوز | ١٥٪ | ٦٠ يومياً | ١٣ يومياً | ٨ - النياسين « ملجم » |
| نفس مفعول فيتامين ب | ٢٠٪ | ٦٠ يومياً | ٥٠ يومياً | ٩ - ريبوفلافين « ملجم » |
| ب ١٢ لسلاسة الإصصاب وتقويتها ويدخل في تركيب أربعات التمثيل الغذائي | ١٠٪ | ١٠ يومياً | ١٠٠ يومياً | ١٠ - ثيامين « ملجم » |
| يساعد على منع قيء الحمل المستعص | ٢٥٪ | ٥٠ يومياً | ٢٠٠٠ يومياً | ١١ - فيتامين ب ٦ « ملجم » |
| لسلامة تركيب الدم وتقوية فعاليته | ١٠٪ | ٣٠٠ يومياً | ٥٠٠٠ يومياً | ١٢ - فيتامين ب ١٢ مجلرام |
| لسرعة نمو الهيكل العظمي وتوازن التطور من الانفصاري | ٥٠٪ | ٤٠ يومياً | ٥٠٠ يومياً | ١٣ - كالسيوم (جرام) |
| لسلامة عمل الجهاز العصبي وتطوره وحسن أدائه | ٥٠٪ | ٤٠ يومياً | ٥٠٠ يومياً | ١٤ - فسفور (جرام) |
| يساعد على النماء الكلي وفعالية الدرقية | ٢٥٪ | ٢٥ يومياً | ١٠٠ يومياً | ١٥ - يود « ميكروجرام » |
| تقوية عامة وزيادة الهوموجينين - والكريات الدموية الحمراء | ١٦٪ - ٣٣٪ | ٢٠ - ٦٠ يومياً | ١٨ يومياً | ١٦ - حديد « ملجم » |
| يلزم لسلامة وقوة فعالية الجهاز العصبي المركزي | ٥٠٪ | ١٥٠ يومياً | ٣٠٠ يومياً | ١٧ - مفسيتيد م « ملجم » |

Yneta Y fein 1978. Ibid (5)

(٢١) منقول بتصرف وإضافة

هذا الجدول يبرز أموراً هامة لعمل من أهمها حاجة الحامل لمزيد من العناصر الغذائية وكذلك اختلاف هذا الميز من الامدادات من العناصر الغذائية من عنصر لآخر . ولذلك تتحقق الفائدة من هذا الجدول لو أمكن الربط بينه وبين توقيت ظهور أعضاء معينة أو وظائف بذاتها في تطور الجنين . (راجع شكل ٣)



لقد أصبح الشغل الشاغل لجميع دول العالم هو موضوع غذاء الحامل ، بل ان الكثير من الدول النامية قد أصبحت تقدم للحامل التي تعيش في ظروف اقتصادية صعبة الكثير من العناصر الغذائية بالمجان ، وتجد في ذلك استثماراً اقتصادياً ووفراً كبيراً . ذلك ان النفقات التي تنفقها الدول على الاطفال المرضى ، والامهات الضعيفات والمواليد الموتى وغير ذلك تفوق كثيراً ما ينفق في اعطاء الحامل كفايتها من الغذاء بما يكفل وقاية الجنين من العلل ، ويوفر على الحامل جهداً يضيع هباءً بموت حملها ، ناهيك عما يصيب الأم الحامل من احباط واضطراب نفسى كلما ضاع جهدها هباءً ، وكان شقاء حملها جهداً لا ثمرة منه ، ولا نتيجة له ، حين تعود من عملية الولادة خاوية الوفاض مهيضة الجناح محرومة من متعة الامومة بعد شقاء دام شهوراً تسعة .

عوامل قد يكون لها اثر سلبي على تغذية الحامل الجيدة : (٢٢)

قد تكون الشعوب التي تعيش في غرب أوروبا والدول الصناعية أسعد حظاً وأقل عرضة لاضرار سوء تغذية الحامل ، من كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، ومع ذلك فان الكثير من الأمم الراقية المتقدمة والحديثة تعاني أخطاراً جديدة تتعرض لها الأم الحامل هي وما تحمله من جنين .

وبالرغم من أن موضوعنا هنا ينصب على اضرار سوء التغذية ومحاسن التغذية الجيدة للحامل ، الا أن مجتمع القرن العشرين في أغلبه، وخاصة في الثقافات المتحضرة تتعرض لظروف وأخطار قد تجعل فعالية الغذاء الجيد في حسن تطور الجنين في بطن أمه تتهددها الاخطار ، وتكون بذلك أقل جودة ، بل تقل استفادة الجنين بشكل واضح من العناية الغذائية بالحامل .

فهناك على سبيل المثال :

(١) - **تلوث البيئة** : خاصة في البلاد الصناعية والمدن المزدحمة . وسواء كان هذا التلوث كيميائياً أو ذرياً أو صحياً ، فانه يتلف فعلاً الكثير من العناصر الغذائية قبل وصولها الى الجنين ، بل يتلف الكثير من الخلايا الدموية في دم الأم مما ينعكس على صحة الجنين .

(ب) - **والمخدرات** التى قد تتعاطاها الأم أيام الحمل بارادتها قد تسبب خطرا كبيرا على الجنين . فانها بالإضافة الى انها تسبب فقدان الشهية لدى الحامل ، فانها تحرمها وتحرمه بالتالى من كثير من احتياجاته من الفيتامينات خاصة فيتامين ب المركب و ب ١ و ب ٦ .

والمخدرات لها ضرر بليغ على صحة الجنين - ابتداء من الكحول وانتهاء بأنواع المخدرات الاخرى ، حيث انها تمر فى الدم مباشرة الى دورة الجنين وتخترق الغشاء المصفى الذى يفرز بحجب كل الفيروسات ، وهو الموجود فى منطقة التبادل الدموى البشيمة Placenta السابق الإشارة إليها ، وتؤثر تأثيرا مباشرا على صحة الجنين فتحول بذلك بينه وبين الاستفادة الكاملة من الغذاء الواصل مع دم الحامل .

(ج) - **العقاقير** : وهناك كثير من العقاقير التى تتناولها الحوامل دون وصفة الطبيب عادة، وهى العقاقير الأكثر خطورة على صحة الجنين ، ولذلك يؤكد العلماء من أمثال روغ وشملز Rugh and Shemles انه لا يجب على الحامل أن تتعاطى أى عقار - ولا حتى الاسبرين - دون استشارة الطبيب ، وهؤلاء يعددون العقاقير التى يجب أن تمتنع عنها الحامل امتناعا باتا وأهمها :

- هرمون الاندروجين وغيرها من الهرمونات الجنسية الذكورية ، وهى رغم انها قد تفيد فى تقوية الرحم ومساعدته على الحفاظ على الحمل ، الا انها قد تسبب اضطراب تطور الاجهزة التناسلية للجنين .

- التابولامين Tabulamine وهو عقار يوصف أحيانا لمرضى السكر ويسبب نقص حاجة الجنين من المواد الكربوهيدراتية .

- الادوية المضادة للتجلط والتى توصف فى حالات ارتفاع ضغط الدم وهذه قد تسبب نزيفا داخليا للجنين وتعطل استفادته من الغذاء .

- الكورتيزون بجميع فصائله ، وهذه قد تسبب للجنين بعض التشوهات الخلقية خاصة ثقب سقف الحلق ، وتشوه الاذن الخارجية ، لو تعاطتها الحامل فى الشهور الاولى من الحمل .

- العلاج بالتيروكسين أو مضادات التيروكسين، وقد يسبب ذلك تلف الغدة الدرقية، وما يترتب على ذلك من مرض الجويتر Goiter... وقد يؤثر ذلك فى حجم الجنين ووزنه، وقد يترتب عليه ولادة جنين قميء cretine...

- انواع العلاج بالاشعة العميقة أو غيرها فى حالات مرض السرطان وهى تسبب تلف الخلايا المختلفة فى الجنين فتهدم ما بناه من خلايا نتيجة امداده من غذاء الأم .

هكذا نجد أننا - ونحن بصدد أهمية الغذاء للحامل ودوره في نمو الجنين - نجد أن هذه العقاقير قد تعطل القيمة النمائية للغذاء الجيد .

(د) **التدخين :** وقد وجد مثلا أن افراط الحامل في التدخين أيام الحمل يؤثر كثيرا في مضاعفة حركة الجنين في بطن أمه ، وهى حركة تزيد أحيانا بنسبة ٢٠٠ ٪ عن الحركة الطبيعية بسبب ما يصله من النيكوتين مع دم الأم . وبذلك تبدد هذه الحركة نسبة كبيرة من أثر الغذاء في الطاقة التى يبذلها في الحركة الزائدة Huprtmobility... وهو الغذاء الذى كان يمكن أن يستفيد به الجنين في تسمينه أو زيادة وزنه ، أو مضاعفة عملية النماء الخلوى في الجهاز العصبى المركزى .

ولقد وجد من دراسات عديدة أن أغلب مواليد المفرطات في التدخين يكونون أقل وزنا من المعتاد ، وكذلك أقصر في طول القامة وتكون نسبة الوفيات بينهم كبيرة نسبيا . ثم هم يولدون شديدى الحركة Hyperactive

ولقد أكدت دراسات أجريت في بريطانيا عام ١٩٧٣ أن أكبر العوامل ارتباطا بنقص الوزن عند الولادة هو عامل افراط الأم في التدخين ، ويرجح أن التدخين يفقد الدم الواصل للجنين نسبة كبيرة من الأكسجين الضرورى لأكسدة الأغذية حتى تتم عملية الايض لدى الجنين على الوجه الاكمل ، وذلك لانه يحمل كمية كبيرة من ثانى اكسيد الكربون والنيكوتين .

(هـ) - **الخمور وتعاطى الكحول :** ان تعاطى الخمور باعتدال أيام الحمل قد لا يضر الجنين ولو أن الكحول يصل الى دم الجنين مباشرة ، ولذلك فإن الافراط في تعاطى الخمر قد يسبب ولادة أطفال يعانون من الارتعاد الذى يشبه الارتعاد الهترى (٢٣) لدى المدمنين ، أى انهم يولدون وعندهم رعشة عصبية فربية تعطل بلا شك فعالية ومفعول الغذاء الجيد . ناهيك عن أن المرأة المدمنة على الكحول تفقد الشهية للطعام المكنم العناصر أو الاهتمام بالطعام وهذا مما لا يجعلها تراعى القواعد الغذائية على الوجه الامثل . كذلك وجد أن هذه الحالة تصيب الأم المدمنة بنقص فيتامين ب ، وفيتامين ب ١ ، وهى فيتامينات ضرورية لتقوية وتحسين ظروف نمو الجهاز العصبى المركزى عند الجنين وتطوره .

(و) - وجد أيضا أن ادمان الهيروين أو الأفيون أو غيرها يرتبط كثيرا وكثيرا جدا بظاهرة نقص الوزن عند الميلاد ، هذا الى أن الوليد يكون شبه مدمن ، فهو يولد في حالة دوخان وتخدير ، ويتمرض من أول أيامه للسلبية والانسحابية وعدم الاقبال على الطعام فترة تمتد

(٢٣) Delerius tramen وهو نوع من الاضطراب العصبى يعيب كثيرين من المدمنين على الخمر اذا عادوا اليها

بعد الاقلاع عنها .

من ٢٤ - ١٢٠ ساعة بعد الولادة . هذا يجعل الوليد عزوفا عن الرضاعة ، ويزداد ضعفا على ضعفه الطبيعي الذى يحدث نتيجة تكسر الكريات الدموية الحمراء فى أول عهده بالحياة وهو يحاول التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة خارج الرحم . هذا واطفال المدمات يكونون بعد فترة التخدر هذه شديدى الحركة ، يتعرضون لحالات توتر عنيف وتقلصات وقد يتعرضون لنوبات من الاغماء متكررة ، وقد يفضى بهم ذلك للموت . (٢٤)

وفى هذا المقام لا بد من الاشارة الى بعض الامور البديهية والظروف البيئية التى قد تعطل اثر التغذية الجيدة ونذكر منها على سبيل المثال:

- مرض الأم وخاصة فى الشهور الاولى مما قد يعطل نمو الجهاز العصبى المركزى على الوجه الامثل وخاصة عندما تصاب بالحميات او الحصبة الالمانية او النكاف او الحمى القرمزية والانفلونزا الحادة والامراض السرية وغيرها من الامراض التى تستطيع فيروساتها ان تخترق المشاء المصفى فى منطقة التبادل الدموى وتصل الى الجنين ، فتعطل بالتالى التأثير الجيد للغذاء المتكامل فى نمو الجنين .

ان ما يهمنا من هذه الامراض هو تأثيرها على فعالية الغذاء فى تطور الجنين ونمائه ، ذلك الغذاء الذى نهدف من وراء تأمين وصوله للجنين الى ان يحقق الغاية من سرعة نماء الكائن خاصة فى مراحل التطور الحرجة ايام تكوين الهيكل العظمى او الجهاز العصبى او ظهور الحواس الدقيقة الهامة كالسمع والابصار .

فمثلا قد تسبب الحصبة العادية اضطرابا فى تكوين القلب وقد تحدث فيه ثوبا اذا أصيبت بها الام فى الشهور الاولى ، وقد تسبب صفر حجم الجمجمة ويترتب على ذلك عدم كفايتها لتكاثر خلايا المخ وتطور حجم هذه الخلايا بما يكفل نمو هذا الجزء الهام جدا من أجهزة الجسم ومن هنا قد تتطور ظاهرة التأخر العقلى . كذلك قد يسبب بطء النمى الخلوى فى العضلات او تغير التكرار وموزمات حاملات الوراثة اضطرابا كبيرا فى نمو الطفل الجسمى ووزنه ، ويترتب عليه ما أشرنا اليه من اضطراب النمو العقلى .

اما عن الحصبة الالمانية ، فان لها آثارا سيئة تماما على نحو الجنين ، خاصة لما تحدثه من خلل فى الجهاز العصبى المركزى الذى يصاب بكثير من التلف اذا أصيبت بها الام قبل الشهر

الرابع من الحمل ، وهكذا تعطل هذه الاصابة ما نرجوه من التغذية الانسب في أن تحدثه في هذا الجهاز الهام .

لذلك يترتب على اصابة الام بهذا المرض قبل الشهر الرابع من الحمل ضعف العقل كالولادة المشوهة وأحيانا الميتة ، ناهيك عن أنها تسبب ولادة (٢٥) الجنين بثقب في القلب او نقط فيه او اضطراب في تكوين الاوعية الاساسية وغير ذلك مما يعتبر عاملا معطلا معوقا لاثر الفداء الجيد .

كذلك الامراض السفلسية السرية التي ان وصلت الى الجنين توقف تماما اثر التغذية الجيدة في تطور الجنين . فهي التي تسبب ٢٥٪ من حالات الولادة المبكرة ، و ٢٥ - ٣٠٪ من المواليد الموتي ، كما يكون لهذه الامراض دائما اثر سئ في وزن الجنين وصحته العامة ، فهي تعطل النمو الخلوي السابق الاشارة اليه وبذلك تحرم الجنين من الصحة والحيوية اللازمة لعملية الولادة وما تعنيها من جهد شديد قد يقع امامها الجنين الضعيف المصاب صريعا ، ولو ولد بعد جهد شديد فهو مولود معوق لما يصاب به من عاهات العمى او الصم او لين العظام او غيرها . وهنا تكون قد فاتت عليه فرصة الاستفادة من الفداء في تقويته وتقوية حواسه . ناهيك عن ان المواليد بالامراض السرية بالوراثة هم ضعاف العقول غالبا .

اما عن الام المصابة بالسكر ايام الحمل فان مرض السكر يعطل تماما النمو الطبيعي للجنين ، وذلك اما لان الام تتبع نظاما خاصا في الحصنة ، اولان الانسولين الذي تتعاطاه لكي يساعد على تخلصها من سكر الدم بتعويض نقص السكر الحيواني الذي تفرزه غددة الام يصل مع دم الام الى الجنين فيسبب اضطرابا ما في عملية الابض والبناء الطبيعي في خلايا الجنين . كذلك فان حرمان الام من بعض العناصر الغذائية لتقليل نسبة السكر في دمها ينعكس على الجنين في فترة شدة احتياجه الى هذه العناصر .

ولقد وجد - ان نسبة كبيرة من الاجنة تموت في الاسبوع الاخير من الحمل بسبب مرض الحامل بالسكر ولذلك ينصح الاطباء عادة مريضات السكر بأن يتممن عملية الولادة بالقيصرية بحيث تتم عملية الولادة قبل موعدها بأسبوعين حفاظا على الجنين وتلافيا لما يعانيه الجنين من نقص عناصر غذائية معينة .

ان الجنين في عملية الولادة يحتاج لبذل جهد كبير حتى يساعد في تمديد عضلات جدران

الرحم وعنق الرحم ، وحتى يوفر لنفسه فرص الخروج الى الحياة . فاذا كان يعوزه الغذاء في فترة أمس الحاجة اليه أيام الحمل بسبب ما تسير عليه الام من حصنة ونظام التغذية المحدد ، فان ذلك يؤثر في تموين الجنين بحاحته من الغذاء وبالتالي يجعله ضعيفا في عملية الولادة بدرجة قد تعرضه للاختناق .

هذا وكثيرا ما تصاب الام بظاهرة نقص السكر بالجهاز العصبي والدم ، وهي ما تعرف بظاهرة « هيوجلايسيميا » Hypoglycemia وهي حالة من الدوار والاضغام أحيانا بسبب ضعف قدرة الجهاز العصبي على الحفاظ على مخزون من المواد الكربوهيدراتية لفترة طويلة . هذه الحالة في ذاتها قد يتعرض لها الجنين وهو في بطن أمه فيعاني ظاهرة نقص الغذاء في خلايا جهازه العصبي ، وربما تعرض لشبه دوار الهيوجلايسيميا عندما تتعرض له الام .

والمعروف ان تكرار تعرض أي كائن لهذه الحالة - صغيرا كان أو كبيرا - يؤدي الى ضعف الخلايا العصبية ويترتب على ذلك - في حالة حدوثه للجنين ، تأخير عملية النماء العصبي سواء عن طريق الانقسام الخلوي قبل الولادة أو كبر حجم الخلايا العصبية قبل وبعد الولادة ولذلك فقد دلت بحوث عديدة على ضعف الاجنة الذين يولدون من امهات مرضى السكر وخاصة السكر الذي يورث الاستعداد له ويولدون بجهاز عصبي اضعف بكثير من المعتاد عند الولادة .

هذا وتعتبر الوراثة عاملا هاما في وراثة الجنين للاستعداد للاصابة بالمرض نفسه - مرض سكر الدم - حيث يرث الجنين الاجهزة الضرورية للموازنة في كمية السكر في الدم في حالة استعداد تكويني يهيئ الفرد للاصابة بمرض السكر . ولذلك قد تضعف قدرة الجنين وهو في بطن أمه على ابيض المواد الكربوهيدراتية واكسدتها بما يعين على دخولها في بناء خلايا جسمه .

اختلاف وجود عامل : R.H. وهو عامل وجد انه قد يثير في الام نشاطا زائدا في تكوين الاجسام المضادة اذا كان الاب RH+ والام R.H- ، وهذه الاجسام تقوم بدور اتلاف خلايا الكريات الدموية الحمراء في الجنين ، فتعطل بذلك آثار الغذاء الجيد من الام . ثم ان هذه الظاهرة ، ظاهرة تكسير الكريات الحمراء بواسطة الاجسام المضادة من الام تعتبر الخطوة الاولى نحو ذلك الجسم الغريب - جسم الجنين الذي دمه به عامل R.H.+ ، ولذلك قد يترتب عليها ، بعد مدة الاجهاض او ولادة الطفل بدون حركة still birth ضعفه ، وزيادة الصفراء في جسمه . والصفراء تنجم عن زيادة البليروبين Bilirubin... او غشاء الكريات الحمراء المتكسرة التالفة ، وهو بذات قد يؤثر في الجهاز العصبي ويكون مسئولا بالتالي

عن المواليد ضعاف العقول او المصابين بالكساح او العاهات المختلفة وهذا كله تعطيل للتأثير
المرغوب من الغذاء الجيد يصل الى الجنين .

اخيرا : نحن نرجو ان يؤتى هذا البحث ثماره في استشارة اهتمام كل ام يهبها الله نعمة
الحمل ، اهتماما بغذائها كما وكيفاً .

كما نرجو ان يكون لهذه الدراسة اثرها في استشارة انتباه الحكومات والهيئات المسؤولة عن
الحوامل في أي مجتمع الى ضرورة توفير الغذاء الامثل بأي ثمن ، او بغير ثمن للامهات الحوامل،
وهذا ما تنبتهت اليه هيئات وحكومات عديدة . تتأثر تشريعاتها في هذا المجال بظروفها الاقتصادية،
بل العكس من ذلك لقد أصبحت مثل هذه المجتمعات تجد ان من أهم مشروعات الاستثمار
الاقتصادي ان العناصر الغذائية الضرورية للحوامل والمرضعات اذا حالت ظروفهن المعيشية
الاقتصادية ، دون التمكن من توفيرها ، بالحصول على الغذاء الامثل والاكثر تكاملاً .

★ ★ ★

مصادر البحث :

لمزيد من الاطلاع في موضوع البحث يمكن الرجوع الى المصادر الاتية :

(١) - المراجع العربية :

١ - الفقى ، حامد عبد العزيز : دراسات في سيكولوجية النمو . قرطاسية العتيقى ، الكويت ١٩٧٧ . الفصل الثالث .

٢ - غالى ، محمد أحمد وآخرون : القلق وامراض الجسم . مكتبة الفلاح بالكويت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ الفصل الخامس والسادس (الجهاز العصبى - والغدد الصم .)

(ب) - المراجع الأجنبية :

- (3) Dayton. D.H.
Early maturation and human development. Wiley 1969.
- (4) English, H.B.
Dynamics of child development. Holt Rinehart and Winston INC. 1967. chs 8 & 11.
- (5) Fein, G. Greta, Child development.
Prentice Hall Inc Englewood Cliffs, New Jersey. 1978
- (6) Francis Williams, J. Davies, P.A., Very Low birth-weight and later intelligence. In :
Developmental medicine and Child Neurology. 1974, 16.pp. 709-728.
- (7) Hill, D.E., Placental insufficiency and brain growth of the fetns. In: D.B. Cheek, Fetal
and postnatal Cellular growth. edited. New York. Wiley. 1976.
- (8) Hurlock, E.B., Developmental Psychology. Tata McGraw-Hill Publishing Company
Ltd., Bombay, New Delhi 1959-Ch. 2
- (9) Hurlock, E.B., Child development. McGraw-Hill Book Company INC 1972 Chs. 4
and 5.
- (10) Johnson, R.C., and Medinnus, Gene, R., Child Psychology, behavior and development.
John Wiley & Son Inc. N. Y. London. Second Edition 1969.
- (11) Liebert, R.M., Poulos, R.W., and Strauss, G. D., Developmental Psychology. Prentice-
Hall, INC. New Jersey 1974 Ch. 3. pp 47-77.
- (12) Marcus, A. Krupp and Milton, J. Shatton, and associate authors. Current medical
diagnosis and treatment. edited. Langne Medical Publications (L.M.P.) Los altos
California. 1975.
Ch. 20 on Nutrition : Nutritional and Metabolic Disorders : By Milton, J. Shalton, and
Phyllis, M. Ullman.
- (13) Moore, K.L. The developing human : Clinically oriented embryology. (2nd ed)
Philadelphia. Saunders 1977.

- (14) Mussen, P.H., Conger, J.J. and Kagan, J. Child development and personality. Humper and Row Publishers N.Y. 1963 Chs. 3 and 4.
- (15) Pribram, K.H., Brain and behaviour 1. Mood, States and Mind. edited. Penguin Modern Psychology 1969.
Ch. 2 : Research on the nervous system in general and on that of the brain in particular :
By : F.G. Gall and G. Superzheim.
Ch. 6. pp. 61 - 69.
- (16) Smith, A.M. Sheridan, The retarded child and the mother. Trans. Tavistock Publications. London 1973. 1 - 2 pp. 3-45.
- (17) Tanner, J.M. The regulation of human growth. In : F. Robelsky and L. Dorman (Eds) Child development and behavior. New York. Knopf. 1973.
- (18) Waddington, C.H. The strategy of genes. London. Allen and Unwin 1957.
- (19) Wyden, B. Growth : 45 crucial months. Life. December 17 1971 - pp. 93 - 95.

الأطفال واللعب

مقدمة :

الطفل لا ينمو من تلقاء نفسه : فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية ، بقدر ما توفر له ، في الوسط الانساني الاجتماعي الذي يعيش فيه ، من عوامل التربية ومقوماتها ، بل اننا لنستطيع بتربية رشيدة ان نشكل هذا الكائن الحي بمواصفات تجسد الجوهر الحقيقي للانسان .

وقد جرت عادتنا ان نهتم فقط ، بتربية الطفل في المدرسة ، استنادا الى التعليم المدرسي خاصة ، كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل . هذه النظرة تنطوي على معنيين مختلفين : فمن ناحية تعني ان اهتمامنا بالتربية المنظمة كما لو انها تبدأ مع التعليم الشكلي ، أي مع التحاق الطفل بالمدرسة . وتعني من ناحية أخرى ان التعليم المدرسي وكأنه غير متصل بنشاط الطفل وخبراته خازج المواد الدراسية التقليدية ، ويتعلم الطفل في سنوات ما قبل المدرسة .

ان من أبرز المقومات التربوية ، في سنوات الطفولة خاصة ، اللعب كنشاط مميز لحياة الاطفال . وهي مقومات لا نكاد ندركها بوعي ، أو اننا لانعطيهما قدرها الذي تستحقه في تربية

(*) مدرسة علم النفس بكلية التربية ببها - جامعة الزلايق ، وحاليا بقسم التربية بكلية الآداب والتربية - جامعة الكويت .

الطفل . فالدراسات والبحوث الكثيرة والمتنوعة تؤكد على أن اللعب هو مدخل وظيفي لعالم الطفولة، ووسيط تربوي فعال لتشكيل شخصية الفرد في سنوات طفولته .. وهي تلك الفترة التكوينية التي تجمع نظريات علم النفس على أهميتها الحاسمة كركيزة أساسية للبناء النفسى للفرد في مراحل نموه المتعاقبة .

و « اللعب » كلمة كثيرا ما نستخدمها في حياتنا اليومية ، الى درجة يكاد معها هذا المفهوم يفقد معناه الحقيقي . فاللعب قد نربطه بأي نشاط يمارسه الفرد لكي يبعث في نفسه البهجة والارتياح ، ووفقا لذلك فقد نفهم اللعب على أنه نشاط هدفه اللهو واستهلاك الوقت والجهد ، بدون أن تكون هناك قوى أو دوافع خارجية تحركه وتوجهه . واللعب بذلك قد نفهمه على أنه يختلف عن العمل الحقيقي الذي هو نشاط موجه نحو غاية محددة يقوم به الفرد .

بل ان اطفالنا كثيرا ما يفرقون بين العمل واللعب على اساس الشروط الخارجية التي يفرضها المجتمع ، فالعمل بالنسبة للطفل هو العمل المدرسي أساسا ، أو قد يعني لديه في بعض الاحيان ما قد يكلف به من مهام منزلية يساعد فيها أسرته ، بينما يعنى اللعب أى شيء آخر يبعث على اللهو . وغالبا ما يهتم الاطفال، ونشجعهم نحن الكبار ، بأن العمل نشاط جاد مفيد ، بينما اللعب لهو لافائدة منه .

والحقيقة ، ان أهمية اللعب في حياة الاطفال وتحقيقه لدوره التربوي في بناء شخصية الطفل ، تتحدد أساسا بوعي الكبار عامة والآباء والمعلمين خاصة ، وبمدى اتاحتهم الفرصة أمام الطفل لتحقيق الذات في أنشطة اللعب ، ومواقفه المتنوعة ..

● ● ●

الخصائص المميزة للعب الاطفال

يختلف لعب الاطفال عن لعب الكبار في أوجه كثيرة . ويتميز بجانب ذلك بخصائص معينة نجدها في أى مجموعة من الاطفال نقوم بدراسة نشاطها .

١ - اللعب عملية نمو :

فاللعب يأخذ النموذج الذي يتطور به نمو الطفل نسقا نمائيا محددا . تتضح هذه الحقيقة اذا تتبعنا الخط النمائي للطفل منذ ميلاده ، وموقع اللعب فيه .

فمنذ المهد والطفولة المبكرة ، تبرز أنشطة معينة للعب ، وتشيع في سن عن آخر ، بصرف النظر عما ينتمى اليه الطفل من بيئة أو قومية أو سلالة أو خلفية اجتماعية اقتصادية . ومع ذلك ، وبالرغم من أن شكل النشاط يتغير كلما ازداد الطفل نضجا ، إلا أنه لا توجد بداية أو نهاية محددة لنشاط لعب معين . بيد أن المرحلة العمرية ، التي يشيع فيها لعب معين ، تكون متالية بدرجة كبيرة لدى جماعة أخرى من الاطفال .

فاللعب ، في البداية ، يكون بسيطا للغاية ، يتألف أساسا من حركات عشوائية ، ومن استثارة لأعضاء الحس . وهي تلك الفترة العمرية التي تستغرق العامين الأولين تقريبا من حياة الاطفال (مرحلة المهد) ، حيث تكون الحياة النفسية - وفقا لنظرية جان بياجيه (*) - عبارة عن نشاط حسي - حركي sensori-motor ، يتمثل في ممارسات الأفعال المنعكسة reflexes والارجاع الدورية circular reactions ، وتكون فاعليه استثارة أعضاء الحس والحركة في هذه المرحلة « منبثا » الى حد كبير من فاعلية الحياة النفسية في مراحل النمو التالية .

ومع تطور نمو ذكاء الطفل ، يصير لعبه معقدا بشكل متزايد . فاللعب بالدمى يجتذب الطفل منذ الطفولة المبكرة ويصل الى ذروته في العام السابع أو الثامن من العمر ، لذا تعرف هذه الفترة بـ « سن اللعب بالدمى » toy age . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة ، تبدأ اهتماماته باللعب في التغير . فخلال العام الاول أو العامين الأولين من الحياة المدرسية ، يجري تداخل بين أنشطة اللعب المميزة لمرحلة الطفولة المبكرة (سن ٣ - ٦ سنوات) وتلك المميزة لمرحلة الطفولة الوسطى (سن ٦ - ١٠ سنوات) . فبينما تظل أنشطة اللعب المحببة الى الصغار في الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة ، تنمو في نفس الوقت اهتمامات جديدة باللعب ، وفي البداية يكون الطفل شغوفاً بالعباب الجرى ، ثم تصبح الألعاب الرياضية القائمة على قواعد ونظم محددة هي تسلية المفضلة بعد ذلك . وعلاوة على هذا ، تأخذ اهتمامات الاطفال باللعب في الاتجاه الى آفاق أخرى - كالقراءة مثلا ، أو جمع الأشياء كالطوايع والعملية والفراشات والنبات ، والافلام والصور ، والاذاعة والتلفزيون ، والاناشيد والغناء ، والتركيب . الخ وتنبلور هذه الاهتمامات بصورة واضحة في مرحلة الطفولة المتأخرة .

وبجانب ذلك ، تتصف الطفولة المتأخرة (سن ١١ - ١٢ سنة) بالانزاع الحسي الحركي الذي يتميز بمعالم معينة من النضوج - كالرشاقة ، والقوة والحيوية ، وهادفية الحركة والقدرة على التحكم فيها ، والانسيابية وسهولة انتقال الحركة وتنوعها من الجذع الى الذراعين والقدمين ، وسرعة تعلم المهارات الحركية . ولذلك فكثيرا ما يجري تشبيه اتساق الاستجابات الحسية الحركية في هذه المرحلة العمرية « برشاقة القط » . وتنطوى حقائق النمو هذه على مغزى تربوي عظيم : فنظرا لأن هذه المرحلة هي فترة « كمون نسبي » من الناحية الفسيولوجية ، أي تكون عمليات الهدم والبناء في الجسم أكثر هدوءا ، وتجرى بمعدل أقل اذا قورنت بمعدل النمو في المرحلة التالية (المراهقة) ، فانها تعتبر المرحلة الحساسة من النمو للتعلم الحركة المنظم ، والفترة المثلى للتمكن من الألعاب الرياضية الحركية .

ويتضح الخط النمائي للعب الاطفال اذا أخذنا بعض أنواع من لعبهم ونرى كيف تنمو في حياة الطفولة . فبناء المكعبات ، مثلا ، يسير في أربع مراحل محددة من النمو (جونسون ، ١٩٣٣) : فالمرحلة الأولى عبارة عن مجرد تناول للمكعبات وحملها وتكويهما في مجموعات غير منظمة . وفي المرحلة الثانية يبدأ الطفل في تكوين صفوف وأعمدة من هذه المكعبات ، وفي المرحلة

(*) (ارجع الى الفصل الثاني من كتاب : د . بيرد : جان بياجيه وسيكولوجية نمو الاطفال . (ترجمة : فيولا البيلوى) . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٦ .)

الثالثة تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج من هذه المكعبات وتتضح بعض الطرق التي يتبعها في بنائه للمكعبات . أما في **المرحلة الرابعة** فيقوم ببناء تكوينات حقيقية تعبر عن معان متكاملة ويستطيع إعادة البناء وتجويده . أما الرسم والنشاط التعبيري فيختلط كذلك نموذجاً للنمو (بل ، ١٩٥٢) : فهو يبدأ بـ « الشخبطة » أو « الخربشة » في حوالى العامين الأولين من عمره ، وينمو كصورة معبرة على أرضية ملائمة في حوالى سن الثامنة أو التاسعة . وهكذا يمكن أن نميز في كل أشكال اللعب نسقا نمائيا developmental course لتطور نمو نشاط الطفل من مرحلة لأخرى .

٢ - تتناقض أنشطة اللعب « كما » مع تطور نمو الطفل :

يقضى الاطفال الصغار معظم أوقات يقظتهم في اللعب ، لدرجة أنهم يلعبون وهم يأكلون أو يستحمون ، أو حتى في لحظات ما قبل النوم وفي الفراش . ويتفق هذا مع طبيعة النمو في هذه المرحلة ، حيث انها مرحلة نشاط حركي ، وتتم عمليات الهدم والبناء فيها بمعدل أسرع ، ناهيك عن أن هذه الفترة تمثل بدايات تعرف الطفل على العالم المحيط به واكتشافه لذاته داخله .

في سنوات ما قبل المدرسة (الحضانه ورياض الاطفال) تتضمن أنشطة اللعب الالعاب التمثيلية ، واللعب بالمكعبات والماء والرمل والطين ، واستخدام مواد الرسم والتلوين بالأصابع ، والموسيقى والرقص الايقاعي (هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢) . وفي هذا السن يكون لعب الاطفال ابداعيا ، تمثيليا ، تكراريا ، تخيليا ، وتخليقيا (ريسى ، ١٩٥٤ ، تورانس ، ١٩٦٢ ، ليتون ، ١٩٧١) .

أما في مرحلة المدرسة الابتدائية فيهم الاطفال باللعب الذي يتضمن نشاطا جسيما ، فيمارسون شيئا أو يذهبون الى أماكن خارج المنزل والمدرسة أكثر من اهتمامهم بالالعاب ذات النمط العقلي أو الجمالي . وفي هذه الفترة يركز بعض الاطفال على القراءة أو الموسيقى في لعبهم (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) . تبين بعض الدراسات (ليهمان وويتى ، ١٩٢٧) أن الاطفال في سن الثامنة يلعبون بأنشطة مختلفة بمتوسط ٤.١١ في الاسبوع ، في حين يبلغ هذا المعدل ١٧.٧١ لدى الشباب في حوالى الاثني عشر وعشرين عاما من العمر .

ويتناقض مقدار أنشطة اللعب الاجتماعي ، بما فيه اللعب مع الاطفال الآخرين ، مع العمر . ففي حوالى سن السابعة والنصف يبلغ متوسط هذه الالعاب ٢٧ ، بينما يصل هذا المعدل الى ٢١ في سن الحادية عشرة والنصف ، والى ١٣ في سن السادسة عشرة والنصف (وتى ، ١٩٣١) .

ويمكن أن نعزو التناقض الكمي في أنشطة اللعب عند الاطفال الى عوامل عدة : في مقدمتها نضال مقدار الوقت المتاح للعب ، بسبب الواجبات الجديدة المفروضة عليه ، وبسبب الوقت الذي يقضيه في المدرسة وما يتبعه من التزامات خارج المدرسة . والنتيجة أن الطفل عليه أن ينتقى من بين الأنشطة المختلفة للعب تلك التي تستثير اهتماماته أكثر وتبعث في نفسه البهجة . ويتضح ذلك أكثر حينما يصل الطفل الى مرحلة المراهقة ويصير وقت فراغه محدودا

بشكل متزايد . فالطفل كلما كبر يجد انه مطالب بالاقبال من الوقت الكثير الذى يقضيه فى اللعب وفاء لمسئوليائه المختلفة ، ومسايرة للضغوط الاسرية والمدرسية والاجتماعية ، كما يدرك أن عليه أن يحسن التنسيق بين عمله ولعبه . وهذا جانب ايجابي ينبغي تنميته فى طفلنا ، حتى يستطيع أن يستمتع بلعبه حينما يلعب ، ويرضى عن عمله حينما يعمل . ومن عوامل التناقص الكمى لنشاط اللعب أيضا ، تزايد وعي الاطفال بميولهم وقدراتهم ، وتزايد مدى الانتباه وتركيز الطاقة العقلية لديهم ، مما يمكنهم بالتالى من التركيز على نمط واحد من نشاط اللعب لفترة طويلة والاستمتاع به ، وينقلنا هذا الى خاصية « كيف » فى لعب الاطفال .

٣ - تزايد أنشطة اللعب « كيف » مع تطور نمو الطفل :

يتنقل الاطفال فى نشاطهم ، بسبب نقص قدرتهم على تركيز الانتباه ، من لعبة لآخرى أو من نشاط معين الى نشاط آخر . لذلك يجب أن يكون فى متناولهم عدد كبير من مواد اللعب حتى يظل اهتمامهم قويا . وفى مقدور الطفل فى سن العامين ، على سبيل المثال ، أن يركز انتباهه فى نشاط لعب معين لمدة سبع دقائق فى المتوسط تقريبا ، فى حين يزداد معدل الانتباه الى حوالى ١٢٦ دقيقة لدى الطفل فى الخامسة من العمر (فان اليستون ، ١٩٣٢) . كذلك ، كلما كبر الطفل ، ازداد مقدار الوقت الذى يقضيه فى نشاط واحد (بريد جس ، ١٩٢٩) . ولكن اذا كان اللعب ومواده مثيرا لاهتمام الاطفال ، فان الاطفال فى سن ما قبل المدرسة سوف يثابرون على هذا النوع من اللعب حتى ولو كان ذلك صعبا عليهم (ويلسون ، ١٩٥٥) .

فاذا كان الطفل فى المراحل الاولى للنمو ينشغل بالالعاب كثيرة تستغرق معظم وقته ، فانه مع تطور نمو قدراته واهتماماته ومعارفه وخبراته يأخذ فى « انتقاء » العاب معينة من بين هذا الحشد الهائل من الالعاب ، وقد تصل عملية الانتقاء من الناحية الكمية الى لعبة واحدة أو نشاط واحد ، لكنه اذا صار يجيد هذا النمط الواحد من نشاط اللعب وتمكن من مهاراته وتوحد معه انفعاليا ونظم له وقتا أكبر بدلا من تشتيت طاقاته واهتماماته على كل مايقع فى مجاله الحسى المباشر . أى أن هذا التحول من « الكم » الى « كيف » فى نشاط اللعب عند الطفل دليل على تغيرات كيفية فى بنية الشخصية على طريق « التمكن » من نفسه بيئته . فاذا أخذنا اللعب الاجتماعى مثلا ، نجد الطفل فى المراحل الاولى يلعب مع اطفال كثيرين ، حتى ولو كان لايعرفهم من قبل ، وهو يلعب معهم حينما ، و « يتعارك » معهم أحيانا أخرى ، ليتصالح وياهم فى غضون فترة قليلة من ناحية ثالثة . ولكن من مظاهر النضج الاجتماعى أن « يصطفى » الطفل ، كلما كبر ، مجموعة معينة من أصدقائه ، يتوحد معها ويعيش نشاطها ، ويسعى لأن يحظى بمكانه داخلها ، ويرتبط بهابرابط المعية والانتماء . ويتضح هذا بصفة خاصة فى ظاهرة « جماعة الشلة » فى مرحلة المراهقة .

ومن مظاهر « التحول الكيفى » فى نشاط اللعب عند الاطفال ، أن النشاط الجسمى المبدول فى اللعب يأخذ فى التناقص كلما كبر الطفل ، بينما يزداد الميل الى أنشطة اللعب ذات الطابع العقلى المعرفى . فالمراهق ، مثلا ، يبذل طاقة أقل من الناحية الجسمية فى لعبه ، بينما نجد الطفل ، وخاصة فى مرحلة ما قبل المدرسة ، دائب الحركة والنشاط الجسميين . وبينما نجد الاطفال فى

الأربع سنوات الأولى من المدرسة الابتدائية يفضلون الألعاب الرياضية النشطة ولا يهتمون كثيرا بالألعاب التي يقضى فيها الفرد معظم وقته جالسا كما هو في سنوات المراهقة (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) ، فانه بدءا من الطفولة المتأخرة والمراهقة المبكرة يسيطر على لعب الأطفال أشكال معينة ، مثل مشاهدة التلفزيون والافلام السينمائية والاستماع للموسيقى والقراءة واجادة ألعاب رياضية معينة (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) .

هذا التحول الكيفي يسير بدوره هكذا مع التغيرات الكيفية في عملية النمو العقلي المعرفي ، الذي يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية في مرحلة المهد حتى يصل في مرحلة المراهقة غالبا الى المستويات التجريدية للذكاء الانساني .

٤ - اللعب في الطفولة نشاط تلقائي :

يتسم لعب الأطفال ، عند الصغار خاصة ، بالتلقائية واللاشكالية . فالطفل يكون على سجيته حينما يلعب ، ويبدو بذاته وبأصالته ، بدون ما اصطناع ، وبدون ما مسيطرة لضغوط اجتماعية .

الطفل الصغير يلعب حينما يرغب ، بالكيفية التي يريد بها غالبا ، وبأى مواد اللعب ووسائله ، بصرف النظر عن اعتبارات الزمان والمكان ، وبصرف النظر عما لديه من لعب ثمينة أو كثيرة . ففى أحيان كثيرة نجد الطفل سعيدا وهو يلعب بأشياء تخص والديه أو أخوته أو ببعض ادوات المنزل ، أكثر مما يسعد بالعبه الخاصة . والطفل الصغير لا يكتثر لأن يلعب بملابس خاصة ، فالوقوف يستوى عنده اذا أراد أن يلعب ، سواء بأحسن ملابسه أو بملابس اللعب ، وهو أيضا لا يبدي اهتماما كثيرا بما قد تخصصه له الأسرة من مكان أو حجرة للعب ، ولا يراعى مواعيد معينة للعبه .

ولكن اللعب يأخذ في أن يصير بالتدريج أكثر شكلية ، وفي أن يختفى الكثير من تلقائية اللعب في مرحلة المراهقة . ففي هذه المرحلة يزدهر المراهق بارتدائه للزى المميز لبعض الألعاب ، ويشعر بحاجته الضرورية الى أجهزة وأدوات خاصة للعب كمضارب التنس مثلا ، والى أماكن معينة يلعب فيها كالملاعب والنوادي والساحات التي يشترك فيها . وهو لا يلعب بغير هدف ، بل يخضع نشاطه لنظام معين - فهو يتفق على مواعيد محددة ليلتقى برفاقه ، ويلعب في وقت محدد ، وهو يلتزم بدوره في اللعب ويسعى الى تحقيق أعلى مستويات الأداء فيه .

هذا الاتجاه نحو الشكلية في اللعب يزداد كل عام مع تطور نمو الطفل ، وتكون النتيجة ان يصير اللعب في المراهقة شيئا جدا ، وليس بذلك النمط اللاشكلى العرضى من النشاط الذي يتهجج به الطفل الصغير .

اهمية اللعب في حياة الاطفال :

الطفل في لعبه لا يكون طفلا فحسب ، ولكنه يلعب أيضا دور طفولته ، فيعيشها من خلال اللعب الذي ينضوي فيه ، ويتوحد مع عناصره وأدواته ، ويستجيب لرموزه ومعانيه . ومع أن

الكبار يتقبلون اللعب كجانب أساسي من حياة الأطفال ، إلا أن هذا التقبل ربما لا ينطوي على ادراك واع لأهمية اللعب في حياة الأطفال ولقيمة الدور الذي يحققه في نمو الطفل وبناء شخصيته.

فاللعب بالنسبة للطفل حقيقة يعيشها بواقعه وبخياله . وهو نشاط تلقائي أكثر إثارة لاهتمامه مما يحيط به . في اللعب يعيش الطفل، فتظل آثار خبراته فيه حية متصلة أكثر من آثار الحياة الواقعية التي لم يستطع بعد أن يدخل فيها ويستوعبها لصعوبة ظاهراتها وعلاقاتها . في اللعب يعيش الطفل خبرة نموه، ومن اللعب يحمل معه ركائز نموه للمراحل التالية

وانطلاقه في تطور عملية النمو .

وفي الواقع أن أبرز قيمة اللعب في حياة الأطفال كان موضع اهتمام الكثير من علماء النفس والتربية ، في أمريكا والغرب والشرق . فعلى سبيل المثال ، إذا كان عالم النفس الألماني الأصل « كارل بيولر » (١٩٣٠) يؤكد على أهمية اللعب في النمو العقلي للطفل، فإن عالم التربية الروسي « ماكارينكو » (أعمال مختارة ، ١٩٥١ ص ٣٧٣) يؤكد على التأثير البالغ للعب في تشكيل شخصية الطفل : « فاللعب في حياة الأطفال يحمل نفس الأهمية التي ينطوي عليها العمل في حياة الكبار . فكيفما يكون الطفل في اللعب ، فانه سوف يكون كذلك الى حد كبير في عمله عندما يكبر . لذلك تنشأ تربية الشخصية قبل كل شيء في اللعب . بل ان كل تاريخ الفرد كشخصية و كإنسان يعمل، ربما نتصوره في نمو اللعب وفي الانتقال التدريجي من هذا الشكل الطفلي للنشاط الى العمل . ومن ثم فان تربية الطفل كشخصية للمستقبل ينبغي أن تقوم لا على استبعاد اللعب من حياة الأطفال ، وإنما على حسن تنظيمه ، بحيث يؤدي الى تكوين الخصائص البنائية للطفل في نموه » .

.. وإذا كان اللعب بهذه القيمة البالغة في حياة الأطفال ، فما هي أبعاد هذه الأهمية ؟ وما هي الجوانب من شخصية الطفل التي يباشر فيها اللعب تأثيره بالدرجة الاولى ؟ تلك تساؤلات عامة نتبين اجابتها فيما يلي ، استنادا الى تحليل نتائج بحوث ودراسات شتى شهدها هذا الميدان.

(١) اللعب قيمة بنائية

(اللعب نمو)

يتضمن اللعب بالنسبة للطفل ، وخاصة في سنوات ما قبل المدرسة ، بدرجة كبيرة تلك المثيرات الباعثة على تكوين قدراته وخصائص شخصيته ، بحيث ان المثيرات التربوية التي توفرها المدرسة في المرحلة التالية هي امتداد لمثيرات ما قبل المدرسة وتطویر لها تلبية لمطالب وحاجات نمو الطفل المتغيرة من مرحلة لأخرى.

من الطبيعي اذن أن تنسحب نواتج مثيرات النمو ، المرتبطة بنشاط اللعب الذي « ينضوى فيه الطفل » ، على بنية الشخصية برمتها .. وأن تنعكس « تغذياتها الراجعة » على مكوناتها الجسمية الفسيولوجية ، والاجتماعية والانفعالية ، والعقلية المعرفية .. وعلى التمايز التدريجي لهويته ولاسلوبه في الحياة الذي يعكس « ذاته » التي بدأت « تتمايز » وسط المثيرات المتباينة للحياة والوجود بأبعادهما المادية والانسانية .

* فمن الناحية الجسمية الفسيولوجية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا ضروريا

إذا كان للطفل أن ينمي عضلاته على نحو سليم، ويدرب كل أعضاء جسمه بشكل فعال . ويستخدم نشاط اللعب أيضا كمتنفس للطاقة الزائدة surplus energy outlet التي إذا احتسبت تجعل الطفل متوترا ، عصبيا ، غير مستقر ، (ميليتشامب ، ١٩٥٣) . وفي دراسة عن تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي للأطفال في سن ما قبل المدرسة ، وتوصل «زاباروجيتس» (١٩٤٨) الى أن اللعب حينما يخضع للتنظيم الملائم ، فإنه يخلق شروطا مواتية لنمو وتحسين الأشكال المختلفة للنشاط الحركي عند الطفل. وفي تحليله لأسباب وطبيعة تأثير اللعب على نمو النشاط الحركي عند الطفل ، يبين أنه حتى وإن كان الطفل يستوعب المهارات الحركية المعقدة ، ليس في اللعب وإنما عن طريق التعلم المباشرة ، فإن اللعب ، بصفة خاصة يوفر تلك الشروط الملائمة التي تهين الطفل لتحسين هذه المهارات فيما بعد . والسبب في ذلك أنه في اللعب تتحول الحركة من كونها وسيطا لتحقيق نتائج معينة الى كونها أيضا غاية في حد ذاتها لفاعلية الطفل ، وتصير لذلك موضوعا لوعيه . وباتخاذ الطفل لنفسه دورا محددا ، فإنه ينزع بوعي الى أن يأتي بحركات مميزة لشخصيات معينة تصدر عنها مثل هذه الحركات . لكل هذا يعتبر نمو النشاط الحركي في اللعب مقدمة للممارسات الجسمية الواعية لدى الأطفال في سنوات المدرسة .

وإذا كانت قيمة اللعب من الناحية الجسمية الفسيولوجية تتجلى في « فاعلية البدن » وفي « حكمة توظيفه » ، فإن الطفل في سياق اللعب يبدأ في أن تتكون لديه اتجاهات معينة نحو كيانه الجسمي النامي ، وكيفية استخدامه لامكانياته الجسمية ، وسعيه الى تعلم مهارات حركية معينة ، وغير ذلك مما يعرف بمفهوم الذات الجسمية physical-self concept وبالإضافة الى ذلك ، فإن المدخل الجسمي حركي لتربية الأطفال في سنوات ما قبل المدرسة، خاصة وأنه لا يعود بالفائدة على المكونات الجسمية من بنية الشخصية فحسب ، ولكن أيضا على « الفاعلية النفسية » psych active ness بصفة عامة : فاعلية الانتباه والادراك والتخيل والتفكير والذاكرة والارادة والضبط الذاتي وغير ذلك من مظاهر تطور نمو عمليات النشاط النفسي في الطفل .

* وفيما يتعلق بالنواحي العقلية المعرفية في بنية الشخصية : يباشر اللعب دورا كبيرا

في نمو النشاط العقلي المعرفي ، وفي نمو الوظائف العقلية العليا - كالادراك والتفكير والذاكرة والكلام ... الخ عند الطفل ، بدءا من أبسط الوظائف الى أكثرها تعقيدا .

فاللعب يساعد الطفل على أن « يترك » العالم الذي يعيش فيه ، وعلى أن « يتحكم فيه » ويتمكن منه « ميليتشامب ، (١٩٥٣) . فالطفل الصغير من خلال أنشطة اللعب المختلفة يتعرف على الأشكال والألوان والأحجام ، ويقف على ما يميز الأشياء المحيطة به من خصائص وما يجمع

(١) د . د . بيد : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢) هذه البحوث قد تضمنتها بعض أعداد من مجلة « تربية الطفل » (Child education) في عام ١٩٥٨ خاصة .

بينها من علاقات ، وما تحققه من وظائف وتحمله من أهمية . وهو بذلك تنمو لديه محركات التمييز بين موضوعات العالم المحيط به (التعلم التمييزي) . وكلما تقدم الطفل في السن ، فانه ينمي الكثير من المهارات في سياق ممارسته للالعاب ولانشطة معينة . ولاشك أن الالعاب التي يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من اشكال اللعب الذي يميز مرحلة الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعارف جمّة عن العالم الذي يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لا يستطيع الحصول عليها من الكتب المدرسية وحدها . ومن شأن القراءة والرحلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية والافلام السينمائية أن توسع من الافاق المعرفية للطفل ، بالإضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور . وفي اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراته ، بما من بناء مفهوم أوضح عن ذاته (أكسلين ، ١٩٥١) .

ويبرز من وحي نظرية « جان بياجيه » في نمو الاطفال وما استثارته من دراسات وبحوث وفيرة ، أن مدى القدرات بين الاطفال في سن الخامسة وقبل التحاقهم بالمدرسة يكون هائلا بالفعل ، أما الاطفال الذين يأتون من بيوت فقير ذلم تمكنهم ظروفهم من الالتحاق بدار للحضانة او بمركز للعب الاطفال فانهم يبدون بمستوى منخفض في هذه القدرات (١) .

وقد تكرست سلسلة من البحوث العلمية في بريطانيا على استخدام أنشطة اللعب في « تقريب مبادئ العلم الى الاطفال » (٢) ، وتوظيف هذه الأنشطة لإبراز أهمية هذا المدخل اللعبي في توسيع آفاقهم المعرفية وفي التمكن من مهارات اكتسابها وتعلمها . في إحدى هذه الدراسات التي أجريت على عدد من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية في بريطانيا ، يقرر « م . بيرى » (١٩٥٨) أنه قد جرى الاهتمام فقط بالميل التقليدي للأطفال الصغار نحو الحيوانات المنزلية والبرية والطيور والنبات والاشخاص البارزين في البيئة ، الا أنه ينبغي ان نطرح الآن مشكلة نمو اهتمام الاطفال المتزايد بالعلم : فهم يستثيرهم الكثير من مظاهر العلم والتكنولوجيا في عالمنا المعاصر - من وسائل مواصلات ، كالتائرات وسفن الفضاء وارتياحه والسفن البحرية ، ومن تركيبات في الاجهزة ، ومن سير للعلماء وقصص عن الاختراعات ، الخ . وقد اتضح من دراسته انه من خلال اهتمام الاطفال من سن ٤ - ٧ سنوات باللعب بالسفن وبنائها ونظام العمل فيها ، فقد صارت حصيلتهم اللغوية أكثر غنى ، وكلامهم أكثر امتلاء بالمضمون وفي مثابة قاموا بعمل سجل للسفينة دونوا فيه ملاحظاتهم على حالة الجو والبحر . وفي نشاط لعب آخر قاموا ببناء منزل ، انتقلوا فيه أيضا الى الاهتمام بالالات الحديثة - فلبناء المنزل عملوا أوناشا بسيطة ووضعوا لها رافعات من البكر والخيط . ، وعن طريق جريان الخيط نقلوا مواد البناء من قطع طوب ومونة . وفي تجارب بعض المدارس في هذا الدراسات أكدوا على قيمة استخدام الماء وما يرتبط به من أشياء ووظائف (عوامات وأطواق ، آنية ، ومراكب مصنوعة من المطاط - ، وسفن مصنوعة من الخشب ذات آلات محرك) . وبمساعدة هذه الالعاب استطاع الاطفال ادراك الكثير عن صناعة السفن : لماذا تظل السفينة طافية على الماء ؟ ولماذا لا تفرق ؟ كيف نرفع السفينة الغارقة ؟ ما علاقة سير المركب باتجاه ؟ . الخ . وقد كانت النتائج التي خرجت بها هذه الدراسات واضحة في هدفها ومضمونها التربوي - فالالعاب التي تستثير الاهتمام بالعلم

لدى الاطفال تستحق عناية بالغة في عالمنا اليوم ، حيث يحرك الاطفال شغفا متاججا بما يحيط بهم من منجزات العلم والتكنولوجيا .

ويؤكد الكثير من الدراسات والبحوث المعاصرة على اهمية تنظيم انشطة اللعب على اساس مبادئ التعلم القائم على حل المشكلات في تنمية الابتكار عند الاطفال (توارنس ، ١٩٧٠) كما تؤكد هذه الدراسات والبحوث ايضا على ان ذلك المعين الخصب الهائل من خيال الاطفال ، الذي يتجلى في الكثير من أشكال لعبهم ، وخاصة فيما يعرف باللعب الاليهامي ، يمكن توظيفه في تدريب الاطفال على تعلم السلوك الابتكاري (دافيز وهوتمان ، ١٩٦٨) .

❖ وفيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والانفعالية في بنية الشخصية ، يؤدي اللعب دورا بناء في نضج الطفل اجتماعيا واتزانه انفعاليا . فبدون اللعب ، وخاصة اللعب مع الاطفال الآخرين وليس مع الكبار ، يصبح الطفل انانيا ، مسيطرا ، ضيق الافق ، غير محبوب . ولكن الطفل يتعلم من لعبه مع الآخرين ان يشاركهم ويقاسمهم خبرات اللعب وادواره والتزاماته ، وأن يتعاون معهم ، وأن يتدرب على مهارات الأخذ والعطاء ، وأن يكتسب مكانة مقبولة وسط جماعة رفاقه . فاذا كان الطفل في بداية حياته متمركزا حول ذاته ، فان انخراطه في أنشطة اللعب الجماعي خاصة يجعله يتخفف بالتدريج من نزعة التمرکز حول الذات ، فيرتبط أكثر بالجماعة ويتبادل فيها الادوار الملائمة .

والحقيقة انه اذا كان على الطفل ان يتعلم السلوك الاجتماعي المقبول من خلال اتصالاته وروابطه بالاطفال الآخرين في المدرسة ، فان الفصل المدرسي بنظامه التقليدي ، أو اللعب الخاضع لاشراف المدرسة لا يتيح الا فرصة ضئيلة للتعلم الاجتماعي ، اذا قورن باللعب الحر خارج المدرسة . فهذا اللعب الحر يعطى الطفل متنفسا للرغبة في عقد اتصالات اجتماعية نادرا ما تلقى اشباعا في المنزل ، الا اذا كان هناك اطفال آخرون كثيرون من نفس عمر الطفل تقريبا ، وكذلك في المدرسة حيث القيود الكثيرة المفروضة على التفاعل الاجتماعي الحر .

وفي داخل الاسرة ، من ناحية أخرى ، يساعد اللعب الخيالي أو الاليهامي على تخفيف العداوات بين الاخوة الاكبر والأصغر . ومن خلال اللعب مع الاطفال الآخرين ، يتعلم الطفل كيف يعقد علاقات اجتماعية مع الغرباء ويوسع من دائرة اتصالاته بالآخرين ، وكيف يواجه ويحل المشكلات التي تجلبها مثل تلك العلاقات (اكسلين ، ١٩٥١) . ومن خلال الالعاب التعاونية ، يتعلم الطفل مهارات اجتماعية مرغوبة كالأخذ والعطاء المتبادلين ، والعطاء أكثر من الأخذ في بعض الاحيان ، وأن يتعاون مع الآخرين ، وكيف يتبادل معهم المسؤوليات والالتزامات (كورنيليوس ، ١٩٤٩) . وهو يتعلم أيضا أن بالخسارة أو الهزيمة في بعض الاحيان مثلما يقتبط بالكسب والفوز (دي بوا ، ١٩٥٢) . وفي اللعب يمارس الطفل ادوارا مختلفة كثيرة ، يتعلم منها الادوار التي تعطيه رضا أكثر ، وفي نفس الوقت تمكنه هذه الادوار من اقامة علاقات مشبعة مع الآخرين (جيسيلد ، ١٩٥٤) .

والواقع ان الكثير من تكوين النظام الاخلاقي المعنوي للشخصية يستمد أصوله من الانشطة والممارسات السلوكية التي يعيشها الطفل في سنواته الأولى . فمنذ فترة مبكرة من حياة الاطفال ، يقوم الكبار بتوجيههم الى معايير السلوك ، ويطلبون منهم الالتزام بها . ويتعلم

ما تعتبره الجماعة صواباً أو خطأ في المنزل أو المدرسة ، ولكن تدعيم تقبل المعايير الأخلاقية لا يكون جامداً في جماعة اللعب . فالطفل يعرف أنه ينبغي أن يكون نزيهاً ، أميناً ، موضع ثقة ، لاعباً حسناً وخاسراً حسناً ، وقادراً على ضبط النفس ، إذا كان عضواً مقبولاً من جماعة اللعب .

ويستوعب الطفل معايير السلوك الاجتماعي من خلال الاختلاط المباشر مع غيره من الأطفال والكبار ، ويكتسب بالتدريج المقدرة على التنظيم الواعي لسلوكه وفقاً للمعايير المرغوبة لهذا السلوك . فمعايير السلوك الاجتماعي تتجسد بدرجة كبيرة في الدور الذي يقوم به الطفل في اللعب ويتوحد معه ، وبالتالي تنتقل المعايير من مؤثرات خارجية إلى معايير لذاته هو . فالدور يمثل في هذه الحالة حلقة وسيطة بين الطفل وقواعد السلوك .

ويستند مضمون القواعد الأخلاقية المعنوية للسلوك في اللعب ليس فقط على علاقات الطفل نفسه بالأشخاص المحيطين به ، بقدر ما يستند أيضاً على العلاقات المتبادلة بين هؤلاء الأشخاص ، وخاصة في نظامهم العملي والاجتماعي ، فورا هذه العلاقات تكمن معايير معينة يبدأ الطفل في أن يدركها خلال لعبه ، وأن يعيشها ويمارسها لتصبح جزءاً من ذاته . وفي ذلك يؤكد « كارل روجرز » . في الفصل الحادي عشر من كتابه عام (١٩٥١) أنه في بعض الظروف يشعر الفرد بموضوعات أو أحداث توجد خارجه لتكون جزءاً من ذاته ، وخاصة إذا كان الفرد يدركها على أنها تحمل أهمية ومعنى بالنسبة له ، أو إذا كان يحدث لديه « انضواء للأنفس » ego-involvement في هذه المواقف .

ولنا أن نعتبر في اللعب أيضاً ، مجالاً هاماً لنمو عملية « الإدراك الاجتماعي » social perception ، حيث أن « القدرة على الإحساس بشعور الآخرين empathic ability تنمو وتتطور من خلال العلاقات الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل في السنوات الأولى من حياته » (سعد عبد الرحمن ، ١٩٧١ - ١٩٧٧ ، ص ٣٨١) وفي أنشطة اللعب التي يعيشها الطفل يقف بدرجة كبيرة على « التشابه الحقيقي » actual similarity حيث تؤثر صورة الذات عند الفرد على تكوين مفهومه عن ذات الفرد الآخر ، وعلى « التشابه المدرك » perceived similarity الذي يدركه الفرد بين صورة ذاته وبين مفهومه عن ذات الآخرين (سعد عبد الرحمن ، ٧١ - ١٩٧٧ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١) .

فإذا كان الطفل في اللعب يجرب ويختبر قدراته بدون ما التزام بمسؤولية كاملة حيال أفعاله (جيرسيلد ، ١٩٥٤) ، وإذا كان يتعلم في اللعب أن يميز بين الواقع والخيال ، فإنه في اللعب ، وفي سنوات الطفولة الأولى خاصة ، يظهر الشكل الأولي للإحساس بالذات لدى الطفل وفي علاقتها بموضوعات العالم المحيطة به ، فيبدأ في أن يكون صورة عن ذاته وإدراكها على نحو متميز عن ذات الآخرين أو الموضوعات الموجودة في الوسط المحيط به . وهذا المفهوم الأولي من الذات self-concept يأخذ في النمو والتطور بتزايد خبرات الطفل في الأنشطة التي يعيشها .

(٢) للعب قيمة تربوية(اللعب تعلم)

اللعب - شكل رئيسي لنشاط الطفل ، فيه يجرى بدرجة كبيرة نمو الذاكرة والتفكير والادراك والتخيل والكلام والانفعالات والارادة والخصال الخلقية . ولكن لا ينبغي ان نفهم من ذلك ان نمو هذه العمليات النفسية وخصائص الشخصية يحدث تلقائيا لدى الطفل بمجرد انه يلعب فحسب . فلقد سار في هذا الشأن وجهة نظر تذهب الى ان الطفل الصغير يتعلم بوحى من خبرته الخاصة ، وانه بنفسه يتكشف هذا العالم . ولا شك ان الطفل يستوعب الكثير من طريق المحاكاة المباشرة للأشخاص المحيطين به : فهذه الطريقة أساسا يستوعب اللغة والكثير من خبرات الحياة . وهذه الخبرة التى يكتسبها الطفل بطريقة تلقائية واستقلالية ذات قيمة تربوية عظيمة : فهي تنمى فيه حب الاستطلاع والشغف ، والفاعلية ، والتزود بالطباعات عديدة عن العالم المحيط به ، والثراء الحسى ، الخ .

ولكن مبالغتنا ، من ناحية أخرى ، في تقدير قيمة هذه الخبرات القائمة في معظمها على مبادئ التعلم بالمحاولة والخطأ ، انما ينطوى على خطأ كبير . فهذه الخبرات ليست دائما مربية ، وليست في كل الاحوال بنائية ، بل كثيرا ماتجلب في ثناياها انطباعات وتصورات خاطئة يؤدى ترسيبها وتراكمها الى الانحراف بالخط النمائى للطفل ، فتسير عملية النمو في اتجاه سلبي ، قد يؤدى الى اختلال في التكوين النفسى للطفل .

فاللعب في حد ذاته لا ينطوى بدرجة كبيرة على قيمة تربوية ، ولكنه يكتسب هذه القيمة اذا ما امكن تنظيمه وتوجيهه تربويا . فلا يمكن ان نترك عملية نمو الاطفال للصدفة أو للخبرة العرضية ، فالتربية العفوية أو الفلسفة الترسلية Laissez-faire التى ذهب اليها « روسو » لاتضمن تحقيق القيمة البنائية للعب التى تكلمنا عنها ، وانما يتحقق النمو السليم للطفل بتأثير تربية واعية ، تضع في الاعتبار خصائص نمو الطفل ومقومات تشكيل شخصيته في سياق نشاط تربوى منظم هادف .

يتضح ذلك من نتائج سلسلة من الدراسات التجريبية أجريت على اطفال من سن ٥ - ٨ سنوات في عدد كبير من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية في انجلترا (جاردنر ، ١٩٤٢ - ١٩٤٨ ، ١٩٥٦) ، بلغت ١٨ مدرسة ابتدائية وروضة اطفال : منها ٦ مدارس تجريبية تقوم على استخدام نشاط اللعب كأساس وكطريقة للتعليم ، وكان يتراوح وقت هذا النشاط ما بين ساعة الى ساعة ونصف يوميا ، و ١٢ مدرسة تؤلف المجموعة الضابطة التى لم يكن فيها تقريبا توظيف للعب كنشاط للتعليم .

ولقد كشفت نتائج مجموعة المدارس التجريبية عن مستويات متقدمة للنمو في كافة جوانب بنية شخصية الطفل ، مقارنة بالمستويات الاقل التى ظهرت لدى المجموعة الضابطة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - نمو مهارة جمع المواد بحرص ودأب ، اكى يجعل منها شيئا تعبيريا يثير اهتمامه وشغفه ،

(٢) الرسم الحر بالاقلام والتعبير الحر عما يراوده من أفكار في رسومه ، (٣) نمو مهارة الاجابة على الاسئلة المنظمة الموجهة اليهم ، وتكوين الجمل المفيدة ، والتعبير الحر المباشر عن أفكارهم (٤) نمو القدرة على عقد علاقات قائمة على الصداقة والود مع غيرهم من الاطفال أو الكبار ، وحتى مع من لا يعرفونهم ، (٥) سلوك اجتماعي ناضج في علاقاتهم مع الاطفال الآخرين ، (٦) التمكن من مهارات الكتابة بسرعة وبنظافة وباتقان ، (٧) القدرة على توجيه الانتباه الى مشكلات أو انشطة يختارونها ، (٨) القدرة على تركيز الانتباه على العمل الذي يطلب الاطفال أنفسهم أن يقوموا به ، والذي قد لا يستثير اهتمامهم بشكل مباشر في اللحظة الراهنة ، (٩) القدرة على توزيع انتباههم من نشاط لآخر وفقا لمتطلبات الموقف ، (١٠) اكتساب مهارات جسمية حركية والافادة من تدريبات الالعاب الرياضية ، (١١) الانتظام في انجاز الاعمال والواجبات المطلوبة منهم ، (١٢) زيادة الحصيلة اللغوية والقدرة على التعبير عن موضوعات معينة .

وقد قامت « جاردنر » بتتبع هؤلاء الاطفال في بعض سنوات تعليمهم التالية ، ووجدت أن اطفال المجموعة التجريبية كانوا متقدمين في النظام والاستقلالية والنضج الاجتماعي ، وفي التمكن من بعض المهارات ، كالتعبير بالكتابة أو بالفن مثل الرسم الموسيقى ، وكانت النتيجة أن حصيلتهم اللغوية والمعرفية عالية ، وتحصيلهم الدراسي مرتفع ، وميولهم المعرفية متعددة وعميقة ، وغير ذلك من مظاهر تقدم النمو .

وقد اهتمت دراسات أخرى في إنجلترا (مانسيل وإيلفر ، ١٩٥٨) بالالعاب التمثيلية المسرحية للاطفال من سن ٥ - ١٠ سنوات ، وهي متنوعة من حيث المضمون أو الشكل . فبعض الالعاب تستخدم العرائس لعرض مسرحيات فكاهية يشترك فيها الاطفال بأدوار مختلفة ، وبعضها يقوم على ألعاب « الاسرة » و « المنزل » يعيش فيها الاطفال بأدوارهم أحيانا معينة . وكان الاطفال يثابون على اشتراكهم في الاعداد والتنظيم الجيدين للعرض . وتوضح ملاحظات هذين الباحثين « أن تشجيع هذه الالعاب ، مثل « علاء الدين والمصباح السحري » ، على أساس من اشتراك الاطفال في الاعداد والتنظيم الجيدين يستثير اهتمامهم بطريقة بناءة . أما بدون الاعداد والتنظيم للعبهم فكان من المستحيل أن يأتى الاطفال بأفكار أصيلة لحكاياتهم ومسرحياتهم ، ولا أن يعيشوا جو المسرحية أو القصة » .

وتولى الدراسات التربوية والنفسية في روسيا للعب الاطفال ، واستخدامه كمدخل تربوي لتعليمهم ، اهتماما كبيرا . ونسوق مثالا من بعض هذه الدراسات : قامت « جوكوفسكايا » (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) بسلسلة من التجارب كانت تهدف منها الى أن الاطفال يعكسون الظواهر والاحداث والشخصيات في لعبهم وبصورة خلافة . قدمت الباحثة للاطفال قصة عن طفل نشط محب للاستطلاع وطائر طيب نشط في عمله ايضا . وكان الهدف أن يتبني الطفل في لعبه دور الطفل البطل في القصة ، وأن يعكس مضمون القصة في لعبه . وقد اتضح أن الاطفال من سن ٥ - ٦ سنوات (وبلغ عددهم ٩٠ طفلا) استطاع ٦٦ منهم أن ينقلوا مضمون القصة الى لعبهم ، ويثرونه بخبرتهم الشخصية ، وأن ١٥ من الاطفال استطاعوا أن ينقلوا الى حد ما مضمون القصة في لعبهم ، في حين أن ٢٩ من الاطفال لم يستخدموا اطلاقا مضمون القصة في لعبهم .

وفي المرحلة الثانية من هذه التجارب كانت تهدف الى اختبار اثر الاستشارة التربوية على تغيير العملية التي يعكس بها الاطفال مضمون القصة . ومن أساليب الاستشارة التربوية هذه : اعادة قراءة فقرات من نصوص القصة تكون ذات جاذبية أكثر بالنسبة للعب ، عمل محادثات مع الاطفال للوقوف على دوافع سلوك أبطال القصة . وقد أوضحت النتائج انه اذا كان ٥٠٪ من الاطفال في المرحلة الاولى من هذه التجارب لم يعكسوا مضمون القصة في لعبهم ، فانه بتأثير التنظيم والتوجيه التربويين لهذا النشاط من اللعب استطاع غالبية الاطفال أن يعكسوا ، بطرق مختلفة ، مضمون القصة ، ويلعبوا ادوارها في لعبهم ، ويعبروا عنها في انتاجهم . وتبين نتائج هذه الدراسات أيضا ان الذاكرة تثري وتزداد سعتها وتكون فعالة اذا ما تجسد لعب الطفل في أنشطة حية تستثير اهتمامه . وبالإضافة الى ذلك ، فان تقمص الطفل لشخصيات مرغوبة في القصة من ناحية ، وممارسته لادوارها وسلوكها من ناحية أخرى ، قد أديا الى تغيرات بنائية في شخصية الطفل اجتماعيا وعاطفيا ، فقد صاروا أكثر صداقة وتعاوناً وضبطاً للذات ، الخ . وهكذا ، اذا كانت نزعة الطفل الى اللعب تعبر عن حاجة أصيلة ، الا أن اللعب يصير وسيطا تربويا وخبرة مربية اذا ما خضع لاهداف تربوية محددة ، وتحقق في اطار خبرات تربوية منظمة . في هذه الحالة يصير اللعب مدخلا وظيفيا لتعلم فعال للاطفال .

٣ - اللعب قيمة كينيتكية

(اللعب علاج)

ليس النمو في كل الحالات خبرة باعثة على الارتياح في نفوس الاطفال ، فالنمو ينطوي على تغيرات دينامية عديدة ، في داخل الطفل وخارجه ، في علاقته بنفسه ومع الوسط المحيط به . وقد تتضمن هذه التغيرات وتأثير الضغوط والتوقعات الاجتماعية خبرات سلبية ، وهي ليست بقليلة ، قد يعاني منها الطفل ، ويتوتر بشأنها ، ويضطرع حيالها .

وتلعب اتجاهات الكبار ، وخاصة الوالدين والمعلمين ، وأساليبهما في تربية الناشئة ، دورا كبيرا في تكوين المخاوف في حياة الاطفال ، وفي دفعهم الى مواقف باعثة على التوتر والصراع . فقد يفرط الاباء في القسوة او التدليل او التذبذب في تعاملهم مع الابناء ، وقد لا يكونون عادلين بين الابناء بسبب ترتيب ميلاد الطفل (كأن يفرقوا الابن الأكبر أو الأصغر بالعطف) او بسبب جنس الطفل (كمحاباة الطفل الولد) . وقد تؤدي أحداث معينة في الاسرة الى تكدر انفعالي في حياة الطفل ، مثل ميلاد طفل جديد ، او حدوث تصدع في الكيان الاسري ونظام حياته بالوفاة أو الطلاق ، او بسبب عدم الوفاق بين الزوجين . وقد يمر الطفل بخبرات غير سارة خارج نطاق أسرته ، في المدرسة او مع رفاقه . وقد يلقي احباطا في بعض المواقف حينما ترتطم أهدافه ببعض الصعوبات التي تعوقه عن تحقيقها .

تلك بعض عوامل النمو من المنظور السلبي . ولعلنا لانجانب الصواب اذا قررنا أن ما يترتب عليها من خبرات سلبية كثيرا ما يقع بشكل أو بآخر في سياق عملية تطور نمو الاطفال . لذا ينبغي علينا كأباء ومربين أن نكون على وعي بالمصاحبات السلبية لهذه العملية ، وبكيفية تشخيصها وتدبر

علاجها ، وبأن نمي في الطفل من ناحية أخرى قدرة عالية على « تحمل الصعاب » و « مواجهة المشكلات » ، لأن الحياة الانسانية زاخرة بالصعاب والمشكلات .

الطفل بحاجة اذن الى « التخفف » من المخاوف والتوترات التى تخلقها الضغوط المفروضة عليه من بيئته، والاساليب غير الرشيدة في تربية الأبناء . ومن الطرق الفعالة للعلاج النفسي في هذا المجال ومع الاطفال خاصة ما يعرف بطريقة « العلاج باللعب » أو « اللعب العلاجي » . play therapy . هذه القيمة العلاجية للعب قد تبينت من دراسات وبحوث عديدة :

فاللعب يساعد الطفل على التعبير عن انفعالاته (ميليتشامب ، ١٩٥٣) . ويستخدم اللعب الخيالى كمخرج للقلق والتوتر (سايموندس ، ١٩٤٦ ، آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) . والكثير من الحاجات والرغبات التى لا يتحقق لها الاشباع في حياة الطفل اليومية يمكن أن تلقى اشباعا في اللعب ، وبالتالي تقل الاحباطات التى يخبرها الطفل في المواقف المختلفة . وفي خلال اللعب ، يتمكن الطفل غالبا من تكوين وتنفيذ خطط تساعد على حل مشكلاته التى تحمل أهمية كبيرة بالنسبة له في حياته الخاصة (روجرسون ، ١٩٣٩ ، أكسلين ، ١٩٤٧ ، ل.ب. ميرفي ، ١٩٤٧ ، ميتشيل وماسون ، ١٩٤٨ ، فرانك وهارتلى ، ١٩٥١ ، هارتلى ، ١٩٥٢ ، هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤ ، وغيرهم كثير) .

ان الطفل في انضوائه في نشاط اللعب وتوحيده مع أدواره يقوم بتحقيق عملية علاجية هامة وهى « تفرغ » رغباته المكبوتة ونزعاته العدوانية ومخاوفه وتوتراته واتجاهاته السلبية، و « نقلها » من داخله ، الى اخراجها من دفينته تكوينه النفسي ، الى الخارج ، الى اللعبة او ادوار اللعب . فنراه أحيانا ينهر دميته بعنف، او يعاتبها بلهجة درامية مؤثرة ، وربما يحطمها بلا هوادة .

في هذه العملية العلاجية يحدث هكذا « تصريف » ventilation للتراكبات السلبية في حياة الطفل النفسية ، و « ازاحتها » عنه ، فلا تتدعم فيه أو تتأصل بداخله .

وتعتبر اساليب اللعب بالأدوار والتمثيلات الاجتماعية (السوسيو دراما) ذات فعالية في ترشيد العلاقات بين جماعات الاطفال والتلاميذ، وفي افصاحهم عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما يدعون أنها تنسب لغيرهم ، وفي الوعي بانفسهم (شيسلو وفوكس ، ١٩٦٦) . ويؤدي اشتراك الاطفال في المسرحيات النفسية الى تحسين تفكيرهم مع انفسهم ومع الآخرين (روسينثال ، ١٩٥٢) .

ولا تعنى القيمة الكلينيكية للعب أنها مجرد طريقة للعلاج ، ولكنها أيضا مدخل للتشخيص وطريقة لدراسة شخصية الطفل ومعرفة عالم الطفولة (ل.ب. ميرفي ، ١٩٥٦) والعلاج الناجح : ففي اللعب يكون الطفل على سجيته ، وتتكشف تلقائيا رغباته واتجاهاته ، ويتبين سلوكه على طبيعته : فما هو طفل يعنف دميته لأنها « لا تسمع كلام ماما » ويردد الكثير من الاوامر والنواهي التى تمطرها به أمه ، يكشف عن أسلوب « ضاغط » للتربية . وهنا يمكن تبين

« مصدر العلة » في بعض اضطرابات الطفل الانفعالية كالعدوان او الكذب مثلا . وفي اللعب وادواره يتضح للعيان خصائص مميزة لبعض الاطفال كالطفل العصبى او الطفل المنطوى او الطفل العدوانى او الطفل المسيطر او الطفل المدلل ، وغير ذلك من نماذج الاطفال الذين يعكسون بدرجة كبيرة أساليب خاطئة في تنشئتهم .

(٤) للعاب الصغار قيمة أيضا بالنسبة للكبار

واذا كان اللعاب يحمل تلك الاهمية البالغة بالنسبة للصغار ، فانه أيضا ذو قيمة عظيمة بالنسبة للكبار .

« تعرفونهم من لعبهم » ، ذلك مبدا أساسى يمكن ان يفيد منه الكبار فى فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز . فمن خلال لعب الطفل يكتشف الكبار الكثير من الاشياء عنه ، لا يستطيعون التوصل اليها بآية طريقة أخرى لما يتصف به لعب الاطفال من خصائص مميزة كما ذكرنا من قبل . فاللعاب بالدمى يزود الكبار بمعلومات عن بيئة الطفل والاتجاهات التى كان هو موضوعا لها ، والأساليب التى تربي بها ، وتأثير هذه الخبرات المبكرة عليه ، وخاصة المترتبة على اتجاهات والديه نحوه (وينستيت ، ١٩٥١) . ويتعلم الكبار كيف يعقد الطفل علاقاته مع الاطفال الآخرين ، ويقفون الى حد كبير عن مفهومه عن نفسه ، وذلك من ملاحظة لعبه مع غيره من الاطفال (اكسلين ، ١٩٤٧ ، ١٩٥١) . وقد ثبت أن الرسوم التلقائية او الرسوم المعبرة من موضوعات انسانية تكشف بجلاء عن توافقات الطفل مع الناس ، وعن ادراكه لذاته فى علاقته بالآخرين (باش ، ١٩٤٥ ، ماكوفر ، ١٩٤٩ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

ومن أنشطة اللعب يكتشف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكاريتهم منذ سن مبكرة ، وبالتالي يمكن رعاية هذه الامكانات وتمهدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الاولى ، فلا يحدث « فاقد فى الابتكار » مع تطور نمو الطفل (تورانس ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥) .

ويعرف الكبار انفسهم أيضا من خلال لعب الاطفال - فيمكننا أن نشبه لعب الاطفال بأشكاله المختلفة كمرآة تعكس خصائص سلوك الطفل ومكونات شخصيته كمترببات ناتجة عن أساليب الكبار ، وخاصة الوالدين ، فى تربية الابناء وعن الممارسات الوالدية فى الأسرة وما يخلقونه من جو اجتماعى نفسى فى نظام الحياة الأسرية . فالطفل السوي ، وفى مقابلة الطفل المشكل ، دالة بدرجة كبيرة لحياة الكبار مع الاطفال ، ولأسلوبهم فى تنشئتهم لهم وتوجيه نموهم . هنا قد يستطيع الآباء خاصة والكبار عامة أن يعيدوا النظر فى انفسهم من خلال تبصرهم باتجاهاتهم نحو ابنائهم ، فيسعون الى ترشيد هذه الاتجاهات والممارسات الوالدية ، أو الى التخفيف من « وطأة » الضغط على الطفل . فقد يكتشف الوالدان ، مثلا ، وجود انفعالات سلبية لدى ابنائهم كالغيرة أو العدوان نحو أحد اخوتهم ، وذلك بسبب عدم العدالة فى المعاملة ، أو بسبب عدم وعي الوالدين بسلوكهما الذى قد يؤدي الى مثل هذه السلبيات فى حياة الاطفال النفسية بل ان ما قد يكتشف من دلائل تنذر بالعصف بالنمو السوى لطفلهم ، ربما تجعل الآباء يعيدون النظر وبشكل جذرى فى فلسفتهم فى الحياة وفى أسلوبهم فيها .

وكم يتعلم الآباء من الأبناء !! وما اعظم هذا التعلم !! اليس في حياة الطفولة وسلوك الأبناء توجيه للوالدين وترشيد لأسلوب حياتهما ؟ اليس في تربية الآباء للأبناء إعادة تربية للآباء ؟

في لعب الأبناء ، ان شئنا ، علاج للآباء - فكم هو محبب الى نفس الطفل أن يجد والديه في بعض الاحيان يشاركانه لعبه ولهوه ؟ وفي مشاركة الآباء للأبناء لعبهم تقريب بين عالم الكبار وعالم الصغار ، وتقليل للهوة بين هذين العالمين ، وزيادة للفهم المتبادل بينهما . وفي مشاركتهم اطفالهم لعبهم ، يخبر الآباء « تجديد النفس » ، اذ يقتربون من الطفولة . . من البراءة والنقاء . . وفي هذا « علاج نفسى غير مباشر » للوالدين وللکبار . . و « تصاف » مع النفس حينما تقترب من صفاء الطفولة حيث يدركون « أصالة » النفس الانسانية كما تتجلى في طفولتها ، ويقفون على ما قد تكون قد انتهت اليه حياتهم في الرشد من تحريف لهذه الأصالة بتأثير عوامل الضغط والصراع في البيئة .

ولعل هذا يدعونا الى أن نتبصر وجهة نظر العالم الأمريكى ا . ماسلو (١٩٥٤ - ١٩٧٠ ، ص ٢٢٣) التى تؤكد على أن الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة هى « الإبداع » بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو الجوهر المتأصل في الطفل منذ الميلاد بحكم كونه انسانا . لكنه قد يفقد هذا الجوهر بتأثير عوامل ثقافية غير مواتية قد يخضع لها في تطور نموه من مرحلة لأخرى ، ومع ذلك ، فهو قابل ايضا لاستعادة هذا الجوهر اذا ما خضع لمنبهات ثقافية ملائمة .



انواع اللعب عند الاطفال

انشطة اللعب في الطفولة متنوعة - في شكلها ، ومضمونها ، وطريقتها . ويتوقف هذا التنوع على مستويات وخصائص نمو الاطفال في الاعمار المختلفة ، استجابة لمطالب النمو واحتياجات الطفولة في كل مرحلة من مراحل النمو . ويعكس هذا التنوع ايضا الظروف البيئية والثقافية والاجتماعية في الوسط المحيط بالطفل . ويمكننا تصنيف اشكال او نماذج اللعب عند الاطفال الى الفئات التالية :

(١) الالعاب التلقائية

وهي تتمثل في الاشكال الاولى للعب ، حيث يبدو نشاط الطفل حرا تلقائيا . ويتصف هذا النموذج من نشاط اللعب بغياب القواعد والمبادئ المنظمة للعب ، لذا يكون في معظمه لعبا انفراديا وليس اجتماعيا . في هذا النشاط يلعب الطفل كلما رغب في اللعب ، ويتوقف عنه حينما لا يبقى مهتما به .

وهذا النوع من اللعب يكون في معظمه استقصائيا ، استكشافيا ، فيه يخبر الطفل بهجة عارمة من استثارة أعضاء الحس لديه ، وبالتالي يخبر احساسات مختلفة في البداية يكون معظم لعبه بأطرافه ، وفي حوالى سن الثلاثة شهور ينمو التحكم في اليدين بدرجة كافية تمكنه من اللعب بالدمى او بأية أشياء أخرى تكون في متناوله . وهو يأخذ في تكشف هذه اللعب

والاشياء المختلفة الموجودة في مجاله الحسى المباشر بواسطة المص والجذب والتلويح بها . ويتضمن اللعب التلقائى الحر استخدام الدمى، وان كانت غير ضرورية في هذه المرحلة .

وينزع الطفل في هذه المرحلة الاستقصائية للعب الى التدمير ، بسبب نقص الاتزان الحسى الحركي لديه . فهو يجذب الدمى او الاشياء بعنف ، وقد يلقي بها بعيدا . وعند نهاية العام الثانى تقريبا من عمر الطفل ، يتحول اهتمامه الى اشكال أكثر تقدما وتعقيدا ، وان كان يعود من وقت لآخر الى هذا المستوى من اللعب . الا انه مع تطور نموه يصير هذا الشكل من اللعب اقل تلبية لحاجاته النامية ، وبالتالي يتخلى عنها بالتدريج لكي يفسح المجال أمام أشكال أخرى .

(٢) الألعاب التمثيلية (اللعب بالادوار)

يتمثل هذا النوع من نشاط اللعب في تقمص الطفل لشخصيات الكبار او الاشخاص الآخرين كما تتضح من انماط سلوكهم واساليبهم المميزة في الحياة ، التى يدركها الطفل عيانا وينفعل بها وجدانيا . في هذا اللعب يعكس الطفل نماذج الحياة الانسانية والمادية ، المحيطة به ، وينمى مضمونا للعب . أى أن هذا النموذج من اللعب ينشأ استجابة لانطباعات انفعالية قوية يتأثر فيها بنماذج من الحياة في الوسط المحيط به .

وتنطوى الألعاب التمثيلية في أصلها على الكثير من الخيال عند الاطفال . وفي هذا يكمن المغزى الابداعى لهذه الألعاب ، التى يطلق عليها « الألعاب الابداعية » . ويتفق هذا مع مايطرحه « تورانس » (١٩٦١) من تصورات ونتائج لدراساته في ميدان الابتكار ، خاصة من المدخل التربوى الذى يتبناه لتنمية الابتكار عند الاطفال: فالكثير مما يتعلمه الاطفال في سن ما قبل المدرسة يقوم على الخيال والتخمين والتساؤلات والاستفسارات والتنقيب والاستكشاف ، وهو مايعكسه في ادوار اللعب التى يعيشها بالخيال غالبا وبالواقع أحيانا .

من اللعب الابهامى الى التمثيل الواقعى :

« اللعب الابهامى » make believe play أو « لعب التوهم » game of illusion - شكل شائع للعب في الطفولة المبكرة ، فيه يتعامل الطفل - من خلال اللفظ أو السلوك الصريح - مع المواد أو المواقف كما لو انها تحمل خصائص أكثر مما تصف به في الواقع، فيه يعمل الطفل مع « أى خيط كما لو أنه يخصه ذاته » ويضفى الحياة (الانيمية animism) على الاشياء المختلفة التى يلعب بها ، كأن تكون العصا حصانا مثلا . (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) .

يبدأ تمثيل الشخصيات dramatic impersonation لدى الاطفال مبكرا في حوالى سن العام تقريبا ، رغم ان الفترة العادية لظهور هذا الشكل من اللعب تقع بين سن العام والنصف الى العامين من عمر الطفل (جير سيلد ، ١٩٥٤) . ويتعلم الاطفال كثيرا في لعبهم الابهامى من الاطفال الاكبر سنا ، وخاصة الاخوة . كما يؤدى وجود الطفل وسط مجموعة من الاطفال متباينة في اعمارها الى تعلم سلوك خيالى أكثر مما لو كان الطفل يعيش وسط مجموعة متجانسة من حيث السن والجنس ، لان الاطفال الاصغر سنا يتعلمون بالمحاكاة من الاطفال الاكبر سنا في المجموعة (ماركى ، ١٩٣٥) .

هذا اللعب التمثيلي الخيالي يحقق وظائف كثيرة في حياة الطفل : منها تنمية قدرة الطفل على تجاوز حدوده الواقعية ، وعلى أن يذهب الى ما وراء القيود التي يفرضها الواقع ، وتنمية القدرة على تحقيق رغباته بطريقة تعويضية ، والقدرة على تخليص نفسه من الضيق والسخط والغضب ، وعلى استبعاد أو مغالبة الظروف التي تزعجه أو تخذله في حياته الواقعية (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وقد لوحظ أنه بقدر ما يخبر الطفل احباطات قوية كثيرة ، يكون انضواؤه في لعب ايهامى . لذا كثيرا ما يأتى الطفل السيء التكيف بالعباب ايهامية أكثر من الطفل المتكيف (سيموندس ، ١٩٤٦) . وفي هذا تبين ملاحظات بعض الباحثين (آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) أن الأطفال الذين يبدون بمستويات عالية من القلق ، يقضون وقتا أكبر في اللعب الايهامى . فالطفل في اللعب - كما تبين دراسات « بيلر » (١٩٥٢) - يدعى أن يكون هناك شخص يحبه ويعجب به ويرغب في أن يضاهيه ، ويخلق مواقف يحاول فيها أن يكون بصورة أفضل تلقى « استحسان » الكبار وخاصة الوالدين .

ويتبع اللعب الايهامى نسقا نمائيا محددا : فقد لاحظ « ماركي » (١٩٣٥) أن الأطفال قبل سن ثلاث سنوات قد اظهروا اهتماما مسيطر بالاشكال التالية من اللعب الايهامى : (أ) اضمفاء صفات شخصية على الأشياء personification كالتكلم مع الدمى أو الأشياء غير الحية ، أو كالألعاب التي تتضمن مخلوقات يتخيلها الطفل مثل « العفريت » أو « البع » ، (ب) الاستخدام الايهامى للمواد make-believe use of materials ، كالتسمية التخيلية للأشياء مثل تسميته للعصا حصانا ، أو كالسلوك التخيلي الصريح البسيط مثل تناوله كوبا فارغا لكي يشرب منه ، (ج) المواقف الايهامية make-believe situations ، التي تتضمن استخداما معتادا للمواد كبنائهم لمنزل . وفي معظم الحالات يرتبط لعبهم بالمواد الموجودة امامهم في مجالهم الحسى العياني المباشر . وبعد سن الثلاث سنوات ، يصير الاستخدام الايهامى للمواد هو أكثر الأنشطة التخيلية المميزة للعب في هذه الفترة . وكلما تطور نمو الطفل ، يزداد استخدامه للمواد بطرق أكثر تعقيدا ، كان يستخدم الرمل في بناء نفق بدلا من مجرد حفره بجاروف . وبالإضافة الى ذلك ، يأخذ الطفل في الاشتراك في لعب يتضمن المواقف الايهامية ، والأنشطة التركيبية من مواد خام ، والألعاب التمثيلية الأخرى .

ويأخذ اللعب الايهامى اشكالا مختلفة : فهذا النوع من اللعب مرآة للثقافة السائدة في مجتمع الأطفال ، من حيث أنه يعكس بالتمثيل الاحداث الجارية في حياتهم اليومية . وكل شيء يسمعه الطفل أو يراه يكرره بالمحاكاة في لعبه (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) . ولا يعبر اللعب بالمحاكاة عن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل فحسب ، وإنما يعكس أيضا روح العصر الذى ينمو فيه الطفل . فالأطفال في ظروف الحرب العالمية الثانية ، مثلا ، كانوا يلعبون بأشياء تخيلية تتضمن الجنود والدبابات والمدافع والطائرات ، وغير ذلك من الأنشطة التي ترتبط بالحرب ومواده ومواقفه (جارسون ، ١٩٥٢) . وفي عالمنا المعاصر ، كثيرا ما يستخدم الأطفال في لعبهم نماذج تعبر عن مركبات الفضاء وارتياده ، وعن الكثير من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة

ويمكن أن نحدد المظاهر التالية كاشكال للعب التخيلي الايهامى (ميرفى ، ١٩٣٧) : (١) الموضوعات المنزلية ، كبناء منزل ، تأثيث منزل ، الطبخ ، تناول الطعام ، عمل حفلة شاي ، رعاية

الاطفال الصغار ، أو أن يعملوا كآباء وأمّهات ، أو كعريس وعروسة ، (٢) البيع والشراء - (٣) .
الانشطة المتصلة بالمواصلات ، مثل ركوب سيارة أو قطار ، أو أن يكون الطفل مهندسا ، أو بحار ،
في سفينة ، أو طيارا يحلق بالطائرة (٤) توقيع العقاب ، كان يلعب رجل شرطة يوقع العقاب
على المخالفين ، (٥) اشعال الحرائق واللعب كرجال اطفاء ، (٦) القتل والموت ، (٧) لعب
ادوار اشخاص خياليين مثل بابا نويل أو سندريلا ، أو غير ذلك مما هو شائع في بيئة الطفل من
شخصيات خرافية . ويمثل « اللعب منزلا » نشاطا مرغوبا لدى الاطفال في سن ما قبل
المدرسة ، يتضمن غالبا أنشطة معقدة مثل الجلوس الى المائدة بنظام ، استدعاء الطبيب
الريض ، أو ايواء الدمية الى الفراش (بارتن ١٩٣٣) . ويميل الاطفال الاكبر سنا الى تمثيل
القصص التي يسمعونها أو يقرأون عنها ، أو يشاهدونها في التلفزيون ، فبدلا من أن يلعبوا
ادوار الشخصيات المعتادة في الحياة اليومية ، فانهم يقومون بأدوار الجان أو الهنود الحمر أو
طرزان أو « كاوبوى » ، ... الخ .

وينزع الطفل الى تمثيل هذه الادوار بدقة تبعث على الدهشة ، فحتى نبرة الصوت
يستطيع أن يحاكيها بالضبط . ولكن الطفل ، من ناحية أخرى ، كثيرا ما يضيف الى هذه
الادوار خلقا وابداعا من عنده ، فتأتى الادوار بمناذج جديدة تعكس خبرات الطفل ورغبانه .
وكلما اخذ الطفل في النمو ، يصير بالتدريج بجانب ذلك اكثر اهتماما بالتفاصيل التي يعكسها
في تمثيل الادوار ، واكثر ارتباطا بالواقع الذي يعبر عنه .

بذلك لا تقتصر الألعاب التمثيلية على نماذج الألعاب الخيالية الإيهامية فحسب ، ولكنها
تشمل ايضا ، ومع تطور نمو الطفل ، ألعاب تمثيلية واقعية ، تتضح في النشاط المنظم
للتمثيل في المدارس ، وفيما يقوم به الاطفال من روايات . ولعل الصحة التربوية التي تنادى
بضرورة العمل على « مسرحية المناهج الدراسية » تنشأ الافادة من المضمون النفسي للعب بالادوار
وتوظيفه في استيعاب أفضل للمواد الدراسية يرجى منه نمو للطفل ككل .

ورغم أن التطور الطبيعي للألعاب التمثيلية يبدو أنها تتجه باستمرار نحو الارتباط بالواقع
والتعبير عنه ، إلا أننا كمربين ينبغي ألا نجعلها « واقعا محضا فحسب » فتصير جافة غير
مشوقة ، بل علينا أن نشجع فيها ايضا ذاتية الطفل وما تأتي به مواهبه من خلق وابداع
متفردين . بهذا يتلاقى الخيال مع الواقع في نشاط خصب حي .

(٣) الألعاب التركيبية

يعتبر الاهتمام بالتركيب أو البناء construction جانبا هاما من لعب الاطفال . هذا
الشكل من اللعب كثيرا ما يكون حتى سن الخامسة أو السادسة موزعا للصدفة . فالطفل
يضع الاشياء بجوار بعضها juxtaposition بدون خطة مسبقة ، وإذا حدث بالصدفة أن
صارت هذه الاشياء تمثل نموذجا مألوفاً فانه يبتهج لما حققه . ومن السادسة تقريبا يلجأ
الاطفال الى استخدام المواد بطريقة محددة وملائمة في البناء والتشييد . ولا يكون لعب
الطفل ابداعيا إذا كان واقعيا للغاية أو خياليا مفرطا في خياله . ومع تطور النمو ، تنمو قدرة
الطفل على التمييز بين الواقع والخيال . ثم يصبح للعب اقل إيهامية وأكثر بناءية . وفي ذلك
يختلف الاطفال بشكل واضح في قدرتهم على البناء والتركيب (م . فرنون ، ١٩٤٨) .

ويأخذ اللعب التركيبى البنائى constructive play اشكالا مختلفة ، فالنماذج الاولى من هذا اللعب تتألف من عمل عجينة من الطين ، جبال أو أنفاق من الرمل ، واللعب بالمكعبات والخرز والمقصات والطين الصلصال والالوان والطباشير واقلام الشمع ومواد القص واللصق ، الخ . يستخدم الطفل هذه المواد والادوات لعمل اشياء لها معنى محدد ، ويمكن ان يتعرف عليها بهذا المعنى . فى بناء المكعبات ، مثلا ، يعطى الاطفال ، بعد العام الثانى تقريبا ، أسماء لما يكونونه من نماذج مثل منزل أو قارب ، الخ . ويكون بناء المكعبات بعد العام الثالث ، متسقا مع اللعب التمثيلى (جوانيللا ، ١٩٣٤) .

ويعتبر اللعب التركيبى من المظاهر المميزة لنشاط اللعب فى مرحلة الطفولة المتأخرة (١٠ - ١٢ سنة) ، ويتضح فى بناء الخيم والاعصاب المنزلية والاكوخ ، وعمل نماذج من الطين الصلصال وتشبيد السدود والخزانات . يأخذ هذا اللعب عند الاولاد بصفة عامة شكل العمل المتعدد الخشن ويتحقق ارتباطا بلعبهم خارج المنزل ، أما فى حالة البنات فىأخذ اللعب التركيبى شكلا رقيقا محددا يتضح فى عمل دمي من الورق أو عمل ملابس لها ، وفى الرسوم والتلوين ، وعمل نماذج من الصلصال . وبالنسبة لبناء المكعبات ، تميل البنات الى تشكيل مناظر أكثر هدوءا للحياة اليومية وخاصة تلك التى تدور حول المنزل أو المدرسة ، أما فى حالة الاولاد فيكون بناءؤهم للمكعبات أكثر تنوعا فى طرقة ويركزون أكثر على المناظر خارج المنزل (اريكسون ، ١٩٥١) . اذن فى هذا السن ، فان هذه الالعب ينبغى أن تعتبر وبسبب ميل الاطفال الى الالعب التشبيد والبناء احد أوجه النشاط فى المعسكرات التى يقوم بها الاطفال فى هذا السن .

ومن الالعب التركيبية الأنشائية جمع الاشياء ، وهو نشاط يتضح لدى الاطفال منذ سن الثالثة ، حينما يبدون رغبة فى أن يقوموا بجمع أشياء تستثير اهتمامهم فى موقف معين . هذه الاشياء غالبا ما تكون فى مرحلة الطفولة المبكرة بغير ذات قيمة . فحالما يجمعونها ، فانهم قد ينسونها أو يعطونها اهتماما قليلا . وقد يضعونها فى جيوبهم أو فى مكان معين بحجرة اللعب ثم يطويها النسيان . ولكن منذ سن السادسة حتى المراهقة يملك الاطفال ميل قوى الى القيام بنشاط جمع الاشياء والواقع أن هذا النشاط محبب للغاية لدى الاولاد فى هذه السنوات ، رغم أن البنات يجمعن أشياء أكثر من البنين (دروست ، ١٩٣٢) . وينزع الاطفال الأكبر سنا الى حفظ الاشياء المتجمعة فى أماكن خاصة حتى لا تتلف أو تضيع ، كالبدروم أو القبو أو الصناديق أو السلال أو المكاتب وغير ذلك . ويصير الاطفال مع العمر أكثر انتقائية فى اختيارهم للاشياء ، فيجمعون أشياء قليلة ذات جاذبية أكبر . ويميل الاولاد فى كل الاعمار الى جمع اشياء متعددة مختلفة أكثر من البنات (هوايتلى ، ١٩٢٩) .

والواقع أن الآباء والمعلمين ينبغى أن يعملوا على توجيه نشاط جمع الاشياء كنموذج من الالعب التركيبية البنائية ، كنشاط تربوى ينتقل فيه الطفل من مجرد نزع الى الجمع والاقتناء ، الى معالجة الاشياء على أساس من التعرف على خصائصها وإدارة مناقشات وتسؤلات عن طبيعة ما يجمعونه من مواد ، واستكمال جمع أشياء تنتمى الى نفس فئتها . وفى هذا النشاط المنظم الهادف يقوم الطفل بعمليات عقلية ، كالفرز والتصنيف وعمل

المعارض أو حتى المتاحف لما قاموا بجمعه ، وعمل رسوم وقصص عنها ، وغير ذلك من تعدد الأنشطة البنائية .

وقد وفرت التكنولوجيا المعاصرة تأسيسا على الاهتمام بلعب الاطفال ، الكثير من الالعاب التركيبية ، وتبأرى المصانع والمؤسسات في ذلك : مثل نماذج الاشياء التي تقوم على الفك والتركيب ، وبناء قطع وأشكال بنماذج وطرق مختلفة ، كبناء منزل أو مستشفى أو مدرسة ، وتصميم أشكال معبرة من مواد متعددة في الحجم واللون ، ونماذج السيارات والقطارات والسفن والآلات وتركيبها الداخلى وكيفية تشغيلها . وتجرى صناعة ادوات اللعب هذه من مواد مختلفة كالمعادن أو البلاستيك أو الخشب أو الجلد ، الخ .

في كل هذه الاشكال المختلفة ، يتصف اللعب التركيبى بخاصية اساسية وهى أن عالم الظاهرات المحيطة بنا يعكس الطفل في نواتج مادية ، مثل تشكيل آلة من اجزاء مختلفة ، وعمل مبنى ، أو رسوم تعبيرية . وينطوى الكثير من الالعاب التركيبية على استثارة لقدرات الطفل العقلية والمعرفية ، وعلى تكوين مهارات حركية لدية ، كما يمكن ربط هذا النوع من اللعب بأشكال اللعب المختلفة .

(٤) الالعاب الفنية

رغم ان الأنشطة التعبيرية كالرسم والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى والرقص والفناء والاشغال اليدوية تدخل غالبا في نطاق الالعاب التركيبية ، الا اننا قد رأينا أن نجعلها فئة متميزة تعرف بالالعاب الفنية التي تختلف في جوهرها عن الالعاب التركيبية . فهى نشاط تعبيرى فنى جمالى ينبع أكثر من الوجدان والتذوق الجمالى والاحساسات الفنية ، بينما يعتمد التركيب أكثر على شحذ الطاقات العقلية المعرفية لدى الطفل ، وسوف تقتصر فيما يلى على مثال من الالعاب الفنية .

رسوم الاطفال :

وهى أحد الأنشطة الأكثر تعبيرا عن التألق الابداعى عند الاطفال فالطفل الصغير ، وإن كان لا يستطيع الرسم حقيقة بسبب نقص اتزان العضلى ، الا أنه يحظى ببهجة عارمة من « الخربشة » أو « الشخبطة » scribbling التي يعملها بقلم أو باصبع من الطباشير ، ويعبر بها عن حركات فجأة وبلا هدف غالبا . ويعنى الرسم بالنسبة للطفل ، وسيلة للتعبير أكثر منها وسيلة لتكوين صور وأشكال جمالية . ويعتبر الناتج النهائي أقل أهمية بكثير من تكوين هذا الناتج . وكلما صار ادراك الطفل أكثر قدرة على التمييز ، فإن ثقته في قدرته على الرسم تأخذ في التناقص (جيزل وتومسون ، ١٩٣٤) .

والرسم تعبير عما يتجلى في عقل الطفل لحظة هذا النشاط . وتكون رسومة الاولى « رمزية » ، وليست بنسخ مباشرة للاشياء . وهو يرسم الاشياء كما تجود بها ذاكرته ، ولكنه لا يهتم بالمنظور أو النسب أو العلاقات . وهو يحشد من التفاصيل ما يثير اهتماماته ، كأن

يضع الاضرار على السترة بينما يغفل مكونات ضرورية مثل جسم الرجل . وكلما صار الطفل أكثر نضجا ، يقوم من ناحية برسم « كروكي » للأشياء من ذاكرته ، ومن ملاحظاته المباشرة لها من ناحية أخرى . ويحاول الطفل ، منذ سن السادسة تقريبا ، أن يستنسخ ما يراه في رسومه ويبدأ في النظر إليها بدقة واضعا في الاعتبار الحجم والمنظور وصحة التفاصيل . وحينما يصل الطفل الى سن الثماني سنوات تقريبا ، يكون الرسم المنظوري قد نما لديه جيدا (ليروى ، ١٩٥١) . وبعد هذا السن ، يتناقض ، بل ويندرفي الغالب ما يعرف بشفافية الرسم transparency

، الذي يبدو فيه رسم الطفل لشيء أول شخص كما لو أننا نراه في صورة بالأشعة (ليروى ، ١٩٥٠) . الا انه سرعان ما تختفى أصالة الطفل في التعبير بالرسم ، عدا حالات الاطفال الموهوبين (كابي ، ١٩٤٧) . ويبدأ الاطفال الصغار اهتماما باللون أكثر مما يفعل الاطفال الأكبر سنا الذين يهتمون بالشكل . ويستخدم الطفل الصغير اصابع الطباشير او الالوان الشمع اساسا في رسمه ، بينما يميل الطفل الأكبر الى الرسم بالقلم .

وتدخر ألعاب الاطفال بالكثير من نماذج الأنشطة الإبداعية التي تتمثل في استخدام اقلام الالوان والطباشير ، التي تسير بنفس الخط النمائي الذي يأخذه نمو رسوم الاطفال . في سن العامين يبدأ الطفل في تجربة اقلام التلوين ، وفي الثالثة يمكنه ان يتحكم في استخدامها ، وفي الرابعة يدخل الخيال في أنشطته ، وفي الخامسة يبدأ في أن يكون واعيا بذاته في عمله (جيزل وآخرون ، ١٩٤٠) . ويأتي استخدام الطفل للالوان المائية بعد استخدامه لاقلام التلوين بفترة قصيرة . والرسم بالالوان المائية شكل شائع للتعبير عن الذات ، ويبتهج الطفل كثيرا من تغطيته لصفحات الورق بالوان زاهية ، يختارها ويؤلف بينها بدون اشراف او تدخل من الكبار . ويسعد الاطفال كثير بالرسم والتلوين بالاصابع .

واعتبارا من سن السادسة تقريبا ، يتمثل التعبير الأكبر في الرسم في العمل على اثنان رسم « الارضية » التي يجسد عليها موضوعات رسمه (بل ، ١٩٥٢) . يتضح هذا في حالة استكمال الطفل لرسوم ناقصة او رسمه لموضوع كامل . فالرسم الناقص لرجل ، مثلا ، يمكن ان يعجل باضافة اجزاء الرسم ، ولكنه لا يفسد النظام الذي تبدو به الاجزاء . وفي الرسم الحر تبدو العينان في الرأس اولا ، ويميلان الى الظهور في استكمال الرسوم قبل اية تفاصيل أخرى ، حتى ولو كان المطلوب هو استكمال الذراعين او القدمين وليس العينين (آمز ، ١٩٤٥) .

وتأخذ رسوم الاطفال للاشكال البسيطة ، كالدوائر والمربعات والمثلثات ، خطا نمائيا مشابها ، كما يتبين من ملاحظات « جيزل وآمز » (١٩٤٦) . وحينما يكون تصميم الرسم صعبا على الطفل الصغير اذا أراد أن يستنسخه ، فانه يميل الى تبسيط الرسم وفقا لمبادئ معينة : كان يستبدل تصميمًا له معنى بتصميم يختفى منه المعنى ، وأن يوحد و « يفلق » التصميم ، وأن يدخل الائتلاف او التماثل او النسب المألوفة حينما لا توجد في التصميم . وهناك ميل الى تقصير المستطيل ، والى تربيع أى شيء له زوايا ، والى استبدال الدائرة بأى تصميم يقترب من الاستدارة ، والى توسيع الزوايا والى التبسيط ككل عن طريق الغاء التفاصيل . « فاليل هنا - كما تقرر » هيلدريث « (١٩٤٤) من ملاحظاتها - موجه نحو استجابة أكثر

اعتيادية وبدائية ، تتمخض عن اقتصاد عقلى mental economy وعن جهد اقل « وسمّل الطفل الى التعبير عن رسومه في « كليات » ، حتى حينما ينقصها الكثير من الاجزاء (هبلدريث ، ١٩٤٤) . وتأخذ رسوم الاطفال الصغار شكلامبعثرا على الورقة بطريقة عشوائية ، ولكنه يميل ، كلما اخذ في النمو ، الى تجميع الرسوم المنفصلة في وحدات كلية (بارنهارت ، ١٩٤٢) .

ولما كان الطفل يرسم اساسا من وحى الانطباعات والاثار المخزونة في الذاكرة ومما تجود به سعة ذاكرته وفاعليتها ، فان رسومه عادة ماتكون غير دقيقة وغير مكتملة . ويتضح هذا في النقص الملحوظ في النسب كما نراه في رسمهم للاشخاص حيث يبدو الرأس اكبر غالبا من الجذع ، كما يكون جامدا وغير معبر .

ويتبع الطفل نموذجا نمطيا في رسمه لكل الانسان ولكن بأجسام وبارجل اربع كالحيوانات . فغالبا مايرسم الحيوانات برؤوس كراس الانسان ولكن بأجسام وبارجل اربع كالحيوانات . ومن مميزات رسوم الاطفال الصغار الشفافية ، فتبدو الحجرات مثلا من خلال الجدران . ولكن في حوالي السادسة أو السابعة من عمر الطفل تصير رسوم الاطفال عبارة عن تراكيب تتضمن علاقة بين الأجزاء المختلفة (جود انف وهاريس ، ١٩٥٠ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠) . وحينما يرسم الاطفال بطريقة تلقائية ، فمن غير المعتاد لديهم أن يرسموا أى شيء غريب أو شاذ ، رغم أن الكثير من رسومهم قد تبدو بالنسبة للكبار ، « كاريكاتورية » (جيزل ، ١٩٢٨) .

ويعبر الاطفال في رسومهم عن موضوعات مختلفة ، تخضع للتغير من سن لآخر . فالاطفال الصغار يعبرون عادة عن أشياء وأشخاص ومنازل وحيوانات مألوفة ، ويتضح الشكل الانساني اكثر في الرسوم . وتلخر رسومهم أيضا بالمنازل والاشجار ، بينما تقل الحيوانات في رسومهم . ويحب الاطفال الالوان في رسومهم ، رغم استخدامهم لها بطريقة غير ملائمة . ومعظم رسومهم نمطية ، والزخرفة غير متسقة ، والنسب غير متوازنة .

ومع تطور نمو الاطفال ، يصيرون أكثر تركيزا على رسوم الآلات والتصميمات وتقل الرسوم ذات الشكل الانساني . ويتزايد الاهتمام برسوم الحيوانات والمنازل والازهار والاشجار (هورلوك وتومسون ، ١٩٣٤ ، هيوز وستوكديل ، ١٩٤٠ ، الكيش ، ١٩٥٢) . وكثيرا ما يلجأ الاطفال الأكبر سنا الى رسم مناظر هزلية تعبر عن موضوعات ومواقف مختلفة (ويتى ، ١٩٤١ ، ١٩٤١) .

وتتضح الفروق بين الجنسين في رسوم الاطفال منذ فترة مبكرة . فالاولاد يرسمون الاشكال الانسانية أقل من البنات ، ولكنهم أفضل من البنات في مراعاة النسب الجسمية . وتميل البنات أكثر الى زخرفة رسومهن المعبرة عن اشكال انسانية . ويميل الاطفال أكثر بين سن الخامسة والحادية عشرة ، الى رسم الاشخاص من نفس جنسهم . ولكن من الحادية او الثانية عشرة ، تبدأ البنات في رسم اشكال تعبر أكثر عن الجنس الآخر . ومع ذلك ، فان الوعي بالفروق الجنسية يتضح في خصائص تعبيرية مثل الشعر والملابس وتعبيرات الوجه منذ حوالي السادسة من عمر الطفل . ويتضح في رسوم البنات الميل الى رسم الاشخاص بوجوه مكتملة أكثر غالبا مما يفعل الاولاد الذين يرسمون صورا جانبية للوجه (بروفيل) . وتزخر رسوم

الاولاد بالطائرات والدبابات ومناظر المعارك ، بينما تندر هذه في رسوم البنات . ويميل الاولاد الى رسم الآلات اكثر من البنات (جود انف ١٩٢٦ ، ويسدر ونولر ، ١٩٥٠ ، جولر ، ١٩٥٢) .

ويعكس الاطفال ، الذين ينتمون الى أسر ذات مستويات اجتماعية اقتصادية عالية ، في رسومهم تفاصيل اكثر من الاطفال الذين من نفس عمرهم ولكن من مستويات أقل (ويندو ونولر ، ١٩٥٠) . كذلك يؤثر مستوى ذكاء الطفل على نوعية رسومه وعلى الموضوع الذى يعبر عنه (جود انف ، ١٩٢٦ ، آمز ، ١٩٤٥) . لذا يستخدم الرسم كطريقة لقياس ذكاء الطفل . « اختبار رسم الرجل لجود انف » .

(٥) الالعاب الترويحية والرياضية

يعيش الاطفال أنشطة اخرى من الالعاب الترويحية والبدنية ، يسعدون لها اكثر . وتنعكس بايجابية تامة على كافة جوانب شخصيتهم . فمنذ النصف الثاني من العام الاول من حياة الطفل ، يبدأ في الانجذاب الى بعض الالعاب البسيطة التى يشار اليها غالبا على انها « العاب الام » mother games ، لأن الطفل يلعبها غالبا مع الام .

وتخبر الطفولة انتقال نماذج من الالعاب من جيل لآخر كميّات ثقافي مثل « لعبة الاستغماية » و « السوق » و « التعلب فات » وغير ذلك من الالعاب التى تتواتر تقريبا عبر الاجيال . ونجد الطفل ، بعد ان يتعلم المشي ، يحظى بسعادة كبيرة حينما يختبئ عن أنظار الآخرين لكى يرى ما اذا كانوا يعثرون عليه ، وكثيرا ما تصدر عنه صيحات الفرح وتتعالى ضحكاته .

وفي سنوات ما قبل المدرسة ، يصبح الطفل اكثر اهتماما باللعب مع الجيران فيما يعرف بالعب الجيرة neighbourhood games وهى نمط من الالعاب تكون فيه جماعة اللعب غير محددة ، حيث يمكن أن يشترك فى اللعب اى عدد من الاطفال . وفى هذا اللعب قد يقوم طفل واحد بتنظيم اللعبة ويدعو الآخرين الى اللعب معه ، كما قد يجرى تنظيمها بواسطة طفل أكبر أو شخص راشد . فى هذه الالعاب يقلد الاطفال بعضهم بعضا ويتبعون أوامر وتعليمات محددة من القائد الذى يتصدر اللعبة .

والالعاب فى هذا السن بسيطة ومختصرة وقليلة العوائد ، وكثيرا ما تنشأ توا لدى الطفل وفى الموقف نفسه . وغالبا ما تخضع هذه الالعاب للتعديل كلما مضى الاطفال فى اللعبة (ريسى ، ١٩٥٤) . ومن أمثلة هذه الالعاب « الاستغماية » والاختباء والمطاردة ، وقد يستخدم الاطفال أدوات للعب ، مثل أدوات المطبخ أو حجرة نوم أو صالون أو مواصلات ، فى تنظيم هذه الالعاب .

وفى حوالى سن الخامسة ، يقوم الطفل بالعب لكى يختبر بها مهاراته ، كالسير على الحواجز الموجودة فى الشوارع وعلى رصيف مكسر والقفز من أماكن عالية ، أو يحجل على قدم واحدة ، أو الوثب ونط الحبل ، أو التقاط الكرات برشاقة ، الخ . وهذه الالعاب تقوم على تنظيم اجتماعى أقل من العاب الجيرة ، لأنها فردية أكثر منها جماعية ، ولأن عنصر التنافس

فيها ذو أهمية قليلة نسبياً . ويعتمد نمط الألعاب هذه بدرجة كبيرة على مستوى النمو الحركى والعقلى لدى الطفل (جيرسيلد، ١٩٥٤) .

وفي سنوات ما قبل المراهقة ، تصير الألعاب غالباً تنافسية في مضمونها : فيتخلّى الأطفال عن الألعاب الفردية ، وتتحول ألعاب الجيرة إلى ألعاب الفريق أو الألعاب الثنائية ، والان يصير اهتمام الطفل متمركزاً حول المهارة والتفوق . والمعروف أن الطفل في البداية يكون فردياً ، قليل التعاون في لعبه ، لأنه يبتغى السيطرة على اللعب بدلاً من تحديد جهوده في إطار دوره . إلا أنه يتعلم بالتدريج التعاون مع الآخرين المشتركين في اللعب ويتبادل أدوار اللعب معهم ، ونتيجة لذلك فإنه يحظى بغبطة أكبر ، لأنه عضو فعال في فريقه ويتعاون مع أعضائه ويخضع لقواعده .

وليست الألعاب الترويحية والرياضية باعثة على البهجة في نفس الطفل فحسب، ولكنها أيضاً ذات قيمة بالغة كوسيط للتطبيع الاجتماعى له . فمن هذه الألعاب ، ومن غيرها أيضاً ، يتعلم كيف يسلك وينسجم مع الأطفال الآخرين، وكيف يتعاون في الأنشطة المختلفة ، وكيف يلعب دور القائد أحياناً والتابع في مواقف أخرى ، وكيف يقدر نفسه ويقيم قدراته بطريقة واقعية عن طريق مقارنة نفسه بزملائه المشتركين معه في اللعب . وفي ذلك يؤكد « دى بوا » (١٩٥٢ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١) على قيمة هذه الأنشطة في تنشئة الطفل وفقاً لمعايير الصحة النفسية السليمة :

« فهذه الأنشطة تتحدى الطفل لكى ينمى مهارة ، أو يكون عادة ، وفي سياقها يستشار بالنصر ويبدل جهداً أكبر . وحينما لا يشترك الناس في صباهم في ألعاب رياضية ، فإنهم يحصلون على تقديرات منخفضة وفقاً لمقاييس التكيف الاجتماعى والانفعالى الناجحين . فمثل هؤلاء الأشخاص كثيراً ما يترغمون الشغب ويشيرون المتاعب ، لأنهم لم تكن لديهم الفرصة لأن يتعلموا كيف يكسبون بتواضع ، أو يخسرون بشرف وبروح طيبة ، أو يتحملون التعب الجسمى في سبيل تحقيق الهدف . وباختصار، فإن أشخاصاً كهؤلاء لا يحظون بميزة تعلم نظام الروح الرياضية الطيبة ، وهى لازمة للغاية لحياة سعيدة عند الكبار » .

والواقع أن ما تحققه الألعاب الرياضية من فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والاتزان الحركى والفاعلية الجسمية لا يقتصر على مظاهر النمو الجسمى السليم فقط، وإنما ينعكس كذلك على تنشيط الأداء العقلى كما يتضح من نتائج اختبارات الذكاء ، وعلى العمل الأكاديمي كما يتضح من نتائج اختبارات التحصيل المدرسية ، بل وعلى الشخصية ككل متكامل .

فقد بينت بعض الدراسات (أبزنيثى ، ١٩٣٦ ، بايلى ، ١٩٤٠) وجود علاقة ايجابية بين ارتفاع الذكاء والنمو الجسمى الأفضل لدى الأطفال منذ الطفولة المبكرة وحتى نهاية المراهقة، بسبب عوامل رعايتهم كالتغذية وممارسة الألعاب الرياضية . ومن ناحية أخرى ، كشفت بعض الدراسات (جونز ، ١٩٥٤) عن علاقة عكسية بين نقص النمو الجسمى والتحصيل الدراسى، أى ارتباط قلة الفاعلية الجسمية بانخفاض مستوى تحصيل الطفل دراسياً . ومع ذلك ،

فإن نتائج الدراسات في هذا الميدان ، وإن كانت لها دلالتها عملا بالقول المأثور « العقل السليم في الجسم السليم » ، فإنها لازالت غير قاطعة ، وقد تكون متضاربة أحيانا ، وغير دالة في أحيان أخرى .

(٦) الألعاب الثقافية

للطفولة ثقافتها . . تعبر عن حاجة أصيلة في الأطفال وهي « الحاجة الى الاستطلاع » (برلاين ، ١٩٦٥ ، كما تبدو في النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم ، والى ادراك العلاقات فيه ، والى الرغبة في المعرفة . وتعكس ثقافة الأطفال ، من ناحية أخرى ، أسلوب حياة الجماعة كما يتضح في النواتج المادية والعملية والرمزية التي يهيئها الكبار لعالم الصغار : وفي فلسفة وأساليب تنشئة الكبار للصغار .

ومن الأساليب الفعالة في تثقيف الطفل ما يعرف بالألعاب الثقافية ، حيث يكتسب الطفل أساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير لاهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة . ورغم أن الطفل يكتسب زادا معرفيا من الأشكال والنماذج المختلفة للعب ، إلا أنه يمكن أن نحدد أساليب معينة للألعاب الثقافية كالقراءة ، وبرامج الأطفال بالاذاعة والتلفزيون ، وسينما ومسرح الأطفال . وسوف نقصر الآن على القراءة كنموذج من الألعاب الثقافية .

القراءة عند الأطفال :

من الخطأ الاعتقاد بأن القراءة عند الأطفال تبدأ مع تعليمهم للقراءة والكتابة وتمكنهم النسبي منها ، فللقراءة أصولها التطورية التي تنمو مع الطفل .

فمنذ العام الأول نجد أن الطفل الرضيع يجب أن يسمع غناء الكبار حيث يفتبط للاصوات الإيقاعية المصاحبة لترديد الأم لكلمات أو أغان حانية تغريه بالنوم ، وحيث يبتهج لما في دور الحضانة من ألوان الإيقاع التي يجرى غناؤها أو تسميعها بصوت غنائي . وفي حوالى العامين ، يحب الطفل أن ينظر الى الكتب المصورة التي تحوى صورا كبيرة مطبوعة بألوان زاهية للناس والحيوانات ولاشياء منزلية مألوفة ، الخ . وهم يستمتعون ، حينما ينظرون الى الصور ، بأن تحكى لهم قصصا بسيطة عن هذه الصور . وحتى إذا لم يستطع الطفل فهم الكلمات ، فإنه يستمتع بانسياب الاصوات ، وبما يحدثه القارئ من تغيرات في مقام الصوت ، وبتعبيرات وجهه . وبالإضافة الى ذلك ، تعتبر القراءة للطفل الصغير خبرة سارة ، وخاصة إذا كان جالسا على « حجر » أمه أو شخص عزيز عليه (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وتنطوى الخبرات القرائية المبكرة على تأثير واضح على نمو الميول القرائية لدى الطفل فيما بعد . فهى تؤثر ليس فقط على كمية ما يقرأ ولكن أيضا على نوعية ما يقرأه (جيتس ، ١٩٤٩ ، رسل ، ١٩٤٩ ، افرون ، ١٩٥٣) .

لذلك يمكن ، والى حد كبير ، تبين الميول القرائية عند الأطفال منذ مرحلة مبكرة . فالكتب المصورة والقصص التي يقرأها الكبار للطفل والتي يعرفها غالبا عن ظهر قلب ، غالبا ما تجذب الأطفال خلال سنوات الطفولة المبكرة . ويحب الطفل في هذا السن أن تكون كتبه صغيرة حتى يستطيع أن يمسكها بسهولة وإن تحوى صورا جذابة وقصصا قصيرة . ولما كان الطفل لا يفهم

دائما معنى الكلمات التي يسمعونها من قراءة القصص له ، فانه يسعد بالانصات لهذه القصص في عبارات مقفاة او في ايقاع منغم (جاريسون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وغالبا ما يميل الاطفال الصغار الى القصص الواقعية . ولكن بقدر ما تكثر حقائق الحياة امام الطفل الصغير ، يزداد عدم ميله للخيال في القصص . ولا تبتجأ الام نحو الخيال تأثير هام على الطفل . فالام التي تشعر ان الخيال غير ضروري او انه يشجع على الهروب من الواقع ، تؤثر في تفضيل الطفل للواقعية في قصصه . ومع ذلك ، فان معظم الاطفال الصغار يستمتعون بالخيال في القصص ، ويميلون الى « التوحد » مع شخصيات القصص التي يسمعونها (ولفنشتاين ، ١٩٤٦) .

والطفل الصغير ليس حرا في انتقاء ما يريد ان يقرأه له الكبار . فالكبار في حياته ، من آباء او مدرسين في دور الحضانة ورياض الاطفال يزودونه بكتب عليه ان يختار منها القصص التي يجب سماعها . لذا يفضل معظم الصغار قصصا تدور حول اشخاص وحيوانات مالوفة في حياتهم اليومية . ويميلون ايضا الى القصص الكلاسيكية مثل (سندريلا) و « على بابا والاربعون حرامى » والقصص العصرية مثل القصص التي تدور حول الفضاء ورواده ، والقصص الفكاهية والدرامية . وتتألف الشخصيات المحببة اليهم في هذه القصص من الحيوانات والاولاد والبنات ، مع الاهتمام الضئيل بالكبار والاطفال الرضع والجان . ويتحدد ميلهم الى تلك الشخصيات المحببة بما يتصفون به من خصائص مؤثرة او من مرح وفكاهة . ويميلون ايضا في سنوات ما قبل المدرسة ، بسبب ما يتصفون به من « احيائية » animism (أى اضعاء الحياة على الاشياء) ، الى القصص التي تدور حول حيوانات تسلك كالكائنات الحية الانسانية (ويلسون ، ١٩٤٣ ، وتى وآخرون ، ١٩٤٦ ، فرييدسون ، ١٩٥٣) .

والاطفال الاكبر سنا ، كالصغار ايضا ، محكومون الى حد ما فيما يستطيعون قراءته بما يسره لهم الوسط المحيط بهم : في البداية يتحدد نطاق قراءاتهم بالكتب التي يمداهم الوالدان بها . وبعد فترة ، قد يستعيرون الكتب من اصدقائهم او من المدرسة او المكتبة العامة . ومع ذلك ، فان الطفل يخضع لضغوط ثقافية معينة تؤثر في تكوين اهتماماته بالقراءة . فهو يتعلم ان يقرأ ما يقترحه الكبار عليه وما يعتبر ملائما لجنسه (تشايلد وآخرون ، ١٩٤٦ ، سيوارد وهاريس ، ١٩٥١ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتأثر الى حد كبير مقدار ما يقرأه ونوعية قراءاته بالقيم والاهتمامات السائدة في طبقت الاجتماعية . وبالمستوى الثقافي للأسرة (وارنر ولونت ، ١٩٤١ ، براون ، ١٩٥٤) .

ومع تطور النمو ، تخضع تدوقات الطفل في القراءة للتغير . فهو يطلق على ما لا يحبه بانه « طفلى » ، وسبب ذلك ، ان ما كان يستثير في الماضي لم يعد يشد انتباهه الان . وبتأثير نموه العقلى وازدياد خبراته المدرسية ، يصبح اكثر واقعية ، ويعتبر أى شىء يتعلق بالخيال على انه « زيف » او « دجل » (فرييدسون ، ١٩٥٣) .

ولا يستطيع الكبار دائما التنبؤ بميول وتفضيلات الاطفال في القراءة وانتقاء الكتب ، فتفضيل الطفل للواقعية او الخيالية يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كان قد تعلم حب الخيال في الطفولة المبكرة ، وعلى اتجاهات والديه في هذا الشأن . وقد يجلب شكل الكتاب وما فيه

من صور ورسوم ايضاحية بعض الاطفال اكثر من غيرهم ، كما ان ما يجذب اليه الاطفال يكون غالبا مختلفا عما يجذب اليه الكبار . كما ان القدرة القرائية لدى الطفل سوف تحدد ما الذي سوف يحبه ويفضله . فالاطفال الذين يلاقون صعوبات في القراءة يفضلون كتب ذات مستوى اقل مما يميل اليه الاطفال المتفوقون في قدرتهم القرائية . ويؤدي الاهتمام الزائد بالوصف وبحشد الكتاب بالكثير مما هو غريب على الطفل الى جعل الكتاب غير مألوف لديه ، رغم تقدير الكبار لمثل هذا الاتجاه في اعداد كتب الاطفال (ويليامز ، ١٩٣٩ ، رانكن ، ١٩٤٤) .

وتكشف الدراسات الخاصة بالميل القرائي لدى الاطفال في سنوات المدرسة عن تفضيلات معينة لانماط من الكتب في اعمار مختلفة ، فمما يحصل عليه الطفل الاكبر من متعة القراءة يرجع غالبا الى اشباع روح المغامرة التي تكون قوية لديه في هذا السن . واذا ادخلنا الطفل في عالم خيالي نخلقه له بواسطة الكتاب ، فانه يتخيل نفسه وكأنه يقوم بعمل الاشياء التي يحب ان يعملها ولا يكون قادرا على الاتيان بها في حياته اليومية . وفي حوالى السادسة او السابعة ، تتركز اهتمامات الطفل بالقراءة حول قصص عن الطبيعة والرياح والطيور والاشجار والزهور . وفي هذا السن يبدأ الاهتمام بحكايات تتعلق بالجان او الشخصيات الخرافية ، ولكنها ينبغي ان تكون قصيرة وبسيطة وفي شكل حوار غالبا .

وتصبح الحكايات المتعلقة بالجان او الشخصيات الخرافية fairy tales اكثر الوان القراءة تفضيلا لدى الاطفال . فالعنصر الخيالي في هذه القصص يكون له جاذبية اكبر في نفس الطفل في هذا السن . ويتزايد اهتمام الطفل في هذه الفترة ايضا بالقصص التي تدور حول أجزاء اخرى من العالم ومن حياة الشعوب ، وخاصة اذا كانت تتمركز حول الاطفال .

وفي نهاية مرحلة الطفولة الوسطى ومع بدايات الطفولة المتأخرة (اى في حوالى التاسعة او العاشرة من عمر الطفل) يأخذ الاهتمام بمثل هذه الحكايات في الانطفاء . ويمر ذلك الى تلك الحقيقة بان ما يتلقاه الطفل في المدرسة من تعلم وتدريب يجعل من الصعب عليه ان يعتقد في مثل هذه العناصر الخرافية التي تتضمنها هذه القصص . ويصدق هذا خاصة على الاولاد الذين تنتقل اهتماماتهم القرائية الى القصص التي تدور حول حياة الاولاد ، مثل الكنايات والجوالة . ويميلون ايضا الى قصص المغامر والكوميديا والرمز وقصص الاشباح . وفي نهاية الطفولة تبرز الرغبة الملحة في القراءة التي يصير لها الان مكانة عالية بين اكثر أنشطة اللعب التي يميل اليها الطفل . وينطبق هذا على البنات بصورة خاصة . بل انه لمن المألوف تماما عند الاولاد والبنات في هذا السن ان يقرأوا في كل شهر كتابا او كتابين من اجل الاستمتاع .

اما في مرحلة المراهقة ، فان الاهتمامات والميول القرائية لدى المراهقين تصبح اكثر صقلا وتبلورا واكثر امتناعا من الناحية العقلية . ويرجع هذا التغير الى نمو قدرتهم على التفكير التجريدي ، والى ازدياد خبراتهم ومعارفهم بالتعلم المدرسي . في هذه المرحلة يكون الاطفال اكثر نضجا في نظرهم الى الامور ، وبالتالي في ميولهم القرائية . فبينما يهتم الاولاد غالبا بموضوعات تتعلق بالعلم والاختراع ، تهتم البنات بالمشئون المنزلية والحياة المدرسية . وفي المراهقة يصل الولع

بالقراءة الى ذروته . وترجع هذه الظاهرة الى نزعة المراهقين الى الانعزال بسبب ما تخبره هذه المرحلة من تغيرات جذرية في داخل المراهق وخارجه ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات قد تجعله مهموما ومشغولا ، وبالتالي يلجأ الى الانهماك في القراءة هروبا من مشكلاته أو صراعاته في هذا السن . كذلك ترجع هذه الظاهرة الى الطفرة في نموه العقلي والمعرفي ، والى تفرغ نشاطه العقلي وتمايز قدراته الخاصة .

ولما كانت المراهقة مرحلة تسيطر فيها نزعة قوية الى التعلق بالابطال وعبادة البطولة ، فان الكتب التي تزخر بالابطال التاريخيين والخرافيين، مثل سير العظماء ، تلقى هوى في نفوس المراهقين . ويهتم الاولاد في هذا السن بالاختراعات والمغامرة ، بينما تهتم البنات اكثر بالكتب المتعلقة بالمنزل والحياة في المدرسة والجامعة والقصص المكتوبة عن الاولاد والكتب المتعلقة بالطبيعة والكتب الدينية . ومع تعاقب سنوات المراهقة ، تأخذ ميولهم القرائية في التعلق والتأصل (تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، وتي وآخرون ، ١٩٦٦ ، لينيس ، ١٩٥١ ، جاريسون ، ١٩٥٢ ، فريديسن ، ١٩٥٣) .

والواقع ان عادات الالفة بالكتاب والاستئناس للقراءة ، ومهارات البحث والتنقيب عن المعرفة . تمثل أحد القومات الاساسية التي تقوم عليها فاعلية النشاط العقلي المعرفي . لذلك ينبغي ان تتكون هذه العادات والمهارات منذ الطفولة ، وان تتأصل عند الاطفال مع انتقالهم من مرحلة لآخرى من مراحل تطور نموهم .



العوامل المؤثرة في لعب الاطفال

لعب الاطفال ، كما يتضح من التحليل السابق ، يأخذ أشكالا ونماذج مختلفة ، فلا يلعب كل الاطفال بنمط واحد من النشاط ، ولا يلعب كل طفل في كل وقت بشكل أو نموذج بعينه . واذا كانت اهتمامات الاطفال باللعب تأخذ خطا نمائيا معينا ، الا ان لعب الاطفال هكذا لا يعد نشاطا يجري بصورة مطلقة ، ولكنه يخضع للكثير من التباين والمغايرة الذي يعزى الى واحد أو اكثر من العوامل التالية :

الحالة الجسمية :

من المعروف ان الاطفال الاصحاء بدنيا يلعبون اكثر من الاطفال معتلى الصحة ، ويبدلون جهدا ونشاطا اكبر توظيفا لما لديهم من طاقة . ويتضح من ملاحظات المعلمين في المدرسة الابتدائية والمشرفين على دور الحضانة ورياض الاطفال ان الاطفال ناقصي التغذية والرعاية الصحية اقل لعبا واقل اهتماما وعناية باللعب والدمى التي تعطى لهم .

ويلعب مستوى النمو الحسي - الحركي في سن معينة دورا هاما في تحديد مدى نشاط اللعب عند الطفل . فمثلا ، حينما لا يكون الطفل قادرا على قذف الكرة والتقاطها ، فلن يستطيع مشاركة اقرانه في الكثير من ألعاب الكرة . ويؤدي نقص التناسق الحركي الى اعاقا الطفل

عن ممارسة الألعاب التي تقوم على التقطيع والتركيب والرسم والزخرفة والعزف على الآلات الموسيقية .

وقد تبين من بعض الدراسات التي قامت على استخدام مواد من اللعب ، كنماذج لعربات القطار والدراجات (جونز ، ١٩٣٩) ، أن لعب الطفل يتوقف بدرجة كبيرة على مستوى الاتساق العصبى العضلى الذى وصل اليه الطفل : ففي سن ٢١ شهرا ، على سبيل المثال ، يستطيع جذب ودفع الدمى ، وفى سن ٢٤ شهرا يستطيع جذبها ودفعها بتحكم وتوجيه ، وفى سن ٢٩ شهرا يستطيع تسييرها لحوالى سبعة ونصف قدم ، وفى سن الثلاث سنوات يستطيع تسييرها بمهارة ولا يستطيع الطفل أن يمسك القلم باتساق ويستخدمه فى الكتابة باتقان قبل سن السادسة تقريبا ، لأن عضلاته الدقيقة وتأزر الآليات العصبية العضلية اللازمة للكتابة لم تنضج بعد بدرجة كافية .

المستوى العقلى :

يتأثر لعب الطفل منذ المهد بمستوى ذكائه . فالأطفال النابهون أكثر لعبا وأكثر نشاطا فى لعبهم من الأطفال الأقل ذكاء ، كما يكشف لعبهم عن فراهة وإبداع أكبر . ومنذ العام الثانى ، تبدو الفروق واضحة بين هؤلاء الأطفال فى نشاط لعبهم . فالطفل الأكثر ذكاء ينتقل بسرعة من اللعب الحصى الى اللعب القائم على المحاكاة ، ويبرز عنصر الخيال جليا فى لعبه . ولا يتضح هذا التطور فى لعب الأطفال الأقل ذكاء ، حيث يأخذ لعبهم مع انقضاء الشهور والسنوات شكلا « نمطيا » لا يتضح فيه مظهر أساسى للتغير ، فيتخلفون عن أقرانهم من نفس السن فى مدى نشاط لعبهم وأنواعه وأساليب ممارساتهم فى اللعب . ومع مرور الوقت ، تأخذ هذه الفجوة بين لعب الأطفال الأذكاء والأقل ذكاء فى الازدياد ، وفقا للمستويات العقلية المختلفة . ومن ناحية أخرى ، حينما يختلف لعب الطفل كثيرا عن لعب الأطفال الآخرين من نفس السن ، فإن ذكاء الأطفال يأخذ فى الانخفاض كثيرا (هولينجوارث ، ١٩٢٦) .

وفيما يتعلق باختيار مواد اللعب ، يبدى الأطفال العاديون أو ذوو المستويات الأعلى فى الذكاء تفضيلا لمواد اللعب التي تعتمد كثيرا على النشاط التركيبى البنائى بدرجة أكبر من الأطفال ضعاف العقول . كما يبدى الأطفال العاديون والأذكاء ثباتا أكبر فى طول فترة اهتمامهم بمواد اللعب التي يختارونها (هورن وفيليس ، ١٩٤٢) .

وتبين بعض الدراسات (ما يورى ، ١٩٥٢) أن الأطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء عالية فى سنوات ما قبل المدرسة قد أظهروا اهتماما واضحا بالأجهزة والمواد التي تستخدم فى الألعاب التمثيلية والأنشطة الابتكارية ، مثل الصلصال والمقصات والرسم والزخرفة والألعاب التركيبية . وكان اهتمامهم بالكتب لاجل الحصول على المعرفة والاستمتاع والانسحاب من الجماعة .

وكما تقدم الأطفال فى السن ، تصبح هذه الفروق فى اللعب بين الأطفال المرتفعى الذكاء والمنخفضى الذكاء أكثر وضوحا . فالأطفال النابهون يبدون اهتماما بمجموعة كبيرة من أنشطة اللعب ، ويقضون فيه وقتا أكبر (ليهمان ووتى ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ،

(١٩٣٣) . وهم أكثر ميلا الى الالعب الفردية منها الى الالعب الجماعية ، ويقضون وقتا اكبر في القراءة ، ويكون اشتراكهم في الالعب التي تتضمن نشاطا جسميا قويا اقل من الاطفال ذوى الذكاء المتوسط . كما يميل الاطفال النابهون قليلا الى الالعب الرياضية ، وكثيرا الى الالعب العقلية (تيرمان ، ١٩٢٥ ، ليهمازووتى ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ، ١٩٣٣) . ويستمتع الاطفال النابهون بجمع الاشياء ولديهم هوايات اكثر من الاطفال الآخرين (بوينتون ، ١٩٤١) .

ويمكن ملاحظة عامل الذكاء في لعب الاطفال في القراءة خاصة . فالاهتمام المبكر بالقراءة والقدرة على القراءة يتضحان عند الاطفال الذين يحصلون على نسب ذكاء عالية . ويقضى الاطفال مرتفعو الذكاء في كل سن وقتا اكبر في القراءة ، ولديهم مدى اوسع من الاهتمامات القرائية . كذلك يختلف نوع القراءة التي يفضلونها ، فالاطفال الموهوبون يستمتعون بقراءة القواميس والاطالس والموسوعات والعلم والتاريخ والسير والاسفار والشعر والادب . ولا يميلون الى الحكايات الخرافية ، لكن يفضلون الروايات البوليسية على قصص المغامرات العنيفة . والقصص الخيالية العاطفية اقل جاذبية للاطفال الموهوبين ، وان كان الاهتمام بالروايات العاطفية (الرومانتيكية) يتكون لديهم قبل سن العاشرة (تيرمان ، ١٩٢٥ ، هولنجوارث ، ١٩٢٦ ، تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، ما يورى ، ١٩٥٢) .

الجنس (بنين - بنات) :

يلعب جنس الطفل دورا كبيرا في نشاط لعبه . الا ان الفروق بين الجنسين لا تتضح في السنوات الاولى من حياة الاطفال . بل انه اذا توفرت بيئة واحدة والعب واحدة ، فمن تتضح اية فروق دالة بين الجنسين قبل مرحلة المراهقة . ولكن ، لما كان الاطفال يعيشون في بيئات واوساط ثقافية متباينة تختف فيه الالعب والدمى باختلاف الجنسين ، فان الفروق بين الجنسين في اللعب تبدأ في الظهور مع دس مبكرة . ويصبح الاطفال واعين منذ سن مبكرة بأنه توجد أنواع معينة من اللعب ملائمة للاولاد وأخرى للبنات . وتلعب الاتجاهات الوالدية وانتقاء أدوات اللعب ووجود أمثلة من زملائهم في اللعب ووجود اطفال اكبر سنا دورا حاسما في تدعيم المؤثرات الثقافية بين الجنسين (كون ، ١٩٥١) .

وبصفة عامة ، تفضل البنات اللعب بالدمى والالعب المتعلقة بالمواد المنزلية والخز والمكعبات ، بينما يفضل الاولاد القطارات العربات والدبابات والطائرات والسفن والاحصنة والمسدسات ، الخ . ويلعب الاولاد بعنف اكثر من البنات ويفضلون الالعب ككرة القدم والبلى ، بينما تحب البنات الالعب مثل النط بالجبل والالعب الاختفا وان يلعبن منزلا او مدرسة (بنجامين ، ١٩٣٢ ، كون ، ١٩٥١ ، هونزيك ، ١٩٥١ ، ما يورى ، ١٩٥٢) . وحتى حينما يلعب الاولاد والبنات بنفس مواد اللعب ، فان ما يتوصل اليه الاولاد من تكوينات وتشبيكات يختلف عما تحققه البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . وتبدو الفروق بين الجنسين واضحة في تفضيلاتهم فيما يتعلق بالقراءة وبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام . ويبدى الاولاد في كل الاعمار مدى من اهتمامات

اللعب اكبر من البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . والواقع أن الكثير من هذه الفروق يعزى الى المؤثرات الثقافية ، والى توقعات الادوار من كل من الجنسين .

العوامل البيئية :

يتأثر الاطفال في لعبهم بعامل المكان . فمعظمهم يلعب ، خاصة في السنوات الاولى ، مع الاطفال الذين يجاوزونهم في المسكن . وبعد فترة يلعبون في الشوارع أو الساحات أو الاماكن الخالية القريبة من مسكنهم ، وقلة منهم تلعب في النوادي والملاعب والحدائق (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) . لذلك يكون للبيئة التي يعيشون فيها تأثير واضح على الكيفية التي سيلعبون بها وعلى نوعية الالعب التي سيشترون فيها . وإذا لم يتيسر امامهم اماكن ملائمة للعب قريبة من منازلهم أو بعض مواد اللعب التي يستخدمونها في لعبهم ، فانهم سوف يقضون الكثير من وقتهم الحر في « التسكع » hanging around ، وربما يقومون بالعباب غير منظمة أو بمجرد ملاحظة الاطفال الآخرين أو الكبار ، أو يصبحون مصدرا للازعاج (ريفر ، ١٩٣١) .

وتوضح بعض الدراسات (مثل دراسات ليهمان ، ١٩٢٦ ، مير وميري ، ١٩٥٠) أن أطفال البيئات الفقيرة يلعبون أقل من البيئات الاغنى . وقد يعزى هذا جزئيا الى الاختلاف في الحالة الصحية ، ولكن يعزى بدرجة كبيرة الى أن البيئات الفقيرة بها لعب أقل ووقت أقل ومكان اضيق للعب من البيئات ذات الامكانيات الاقتصادية الاعلى . ورغم أن الاطفال في البيئات الفقيرة يحظون بصحبة أكبر في اللعب ، إلا أن هذا العامل وحده لا يكفي للتعويض عن العوامل الاخرى التي ذكرناها . وفي المناطق الريفية والصحراوية ، بسبب انزالتها الجغرافي ، تقل الالعب لصعوبة تنظيم جماعات من الاطفال ، كما تقل أدوات ووقت اللعب لأن الاطفال كثيرا ما يساعدون الوالدين في الحقل أو الرعى أو الاعمال المنزلية .

وتؤثر الظروف البيئية في نوعية اللعب . فالمناخ وتعايقه بين فصول السنة يؤثر في نشاط اللعب عند الاطفال (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) : ففي الشتاء في المناطق المعتدلة يخرج الاطفال للعب في الحدائق والمتنزهات ، بينما يستمتعون في المناطق الباردة بالتزحلق على الجليد واللعب بالثلج . وفي المناطق شديدة الحرارة صيفا يتحدد نطاق لعب الاطفال بالاماكن المغلقة ، وفي المناطق المعتدلة الحرارة صيفا يهرع الاطفال الى شواطئ البحر وحمامات السباحة . وهناك ألعاب تتعلق بفصول معينة من السنة كأن تعتبر كرة القدم والهوكي ألعابا شتوية اساسا ، والسباحة ألعابا صيفية بصفة عامة .

والاطفال في المناطق الساحلية قد تنمو لديهم اهتمامات باللعب وبمواده تختلف عن الاطفال في المناطق الداخلية أو الصحراوية . والاطفال في البيئات الصناعية قد يهتمون بالعباب معينة تختلف عن البيئات الريفية ، وهكذا من عوامل التعدد والتنوع البيئيين .

العوامل الاجتماعية والثقافية :

يتأثر لعب الاطفال بثقافة المجتمع . . أي بأسلوبه في الحياة ، وبما يتواتر فيه من عادات وقيم وتقاليد . وتتوارث أجيال الاطفال عن الاجيال السابقة بعض الالعب التي تشيع في المجتمع ،

كتوارث لعبة « التحطيب » في صعيد مصر مثلاً. ومع ذلك فإن ثمة ألعاباً متشابهة تتوارثها الاجيال المختلفة في معظم دول العالم ، مثل ألعاب الاختفاء و « الاستغماية » و « عسكر وحرامية » ونط الحبل والقفز وكرة القدم وغيرها. ويكشف (تقرير الأمم المتحدة ، ١٩٥٣) عن ألعاب تقليدية نجدها تتكرر بين الاطفال في كثير من الشعوب . فقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن لعبة « عكاز الأعمى » توجد في الكثير من الدول الأوروبية ؛ ولعبة الاختفاء توجد لدى الاطفال في كثير من البلدان الآسيوية والعربية والأوروبية . وربما توضح الألعاب التقليدية المتوارثة لدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية أقل ، في حين أن الاطفال من المستويات الأعلى يستطيعون اقتناء الكثير من الألعاب العصرية ويلعبون في أماكن مخصصة كالنوادي أو ساحات المنزل .

وتلعب الخلفية الاجتماعية الاقتصادية دوراً كبيراً في لعب الاطفال. فالمستوى الاجتماعي الاقتصادي يؤثر في أنشطة اللعب من الناحية الكمية والكيفية على حد سواء (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) . وإذا كانت هذه الفروق لا تتضح خلال سنوات الطفولة الأولى ، إلا أنها تبرز كلما تقدم الاطفال في السن (مير وميرى ، ١٩٥٠) . ويبدو الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصادية أعلى تفضيلاً لأنشطة اللعب التي تتكلف بعض المال كالتنس مثلاً ، بينما يشترك الاطفال من المستويات الأقل في أنشطة ضئيلة التكاليف كالألعاب كرة القدم ونط الحبل والاختفاء والاستغماية (بوينتون ووانج ، ١٩٤٤) . بل إن الوقت المخصص للعب يتأثر بالطبقة الاجتماعية . فقد أوضح « فوكس » (١٩٣٤) أن الوقت المتاح أمام الاطفال من الأسرة الفقيرة أقل من الاطفال ذوي المستوى الأعلى ، وذلك بسبب ضرورة مشاركتهم الأسرة في بعض واجباتها وأعبائها الاقتصادية . ومن ناحية أخرى ، قد يقضى هؤلاء معظم وقتهم في لعب غير موجه وغير مدعم من أسرهم .

وتؤثر الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الطفل في نوع الكتب التي يقرأها ، وفي الأفلام التي يراها ، وفي أنواع النوادي التي قد ينتمي اليها (فولبردنغ ، ١٩٤٨) . فالاطفال الذين ينتمون الى أسر ميسورة مادياً وثقافياً يشتركون في ألعاب ذات صبغة حضارية أكبر ، كالوسيقى والفن والأنشطة المنطقية مثل الرحلات والمعسكرات (جرامر ، ١٩٥٠) . وهم يقضون في هذه الأنشطة وقتاً أكبر وبشكل أكثر نظاماً ، بينما ينفق الاطفال ذوو المستويات الأقل وقتاً كبيراً في مجرد مشاهدة برامج التلفزيون ، أو في اللعب خارج المنزل ولعظم اليوم (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) .

بل إن فلسفة المجتمع وایدولوجيته تؤثران الى حد كبير في لعب الاطفال بنماذج وأشكاله واساليبه المختلفة . فبرامج الاذاعة والتلفزيون والأفلام السينمائية وكتب الاطفال وانتاج مواد اللعب المختلفة ، تخضع بشكل أو بآخر للتوجيه القومي لهذه الأنشطة وللغاية المنشودة منها .

نظرة الكبار للعب الاطفال :

ولعب الاطفال ، كأي جانب آخر من حياة الطفولة ، يتأثر بدرجة ادراك الكبار ، وخاصة الوالدين ، لهذا النشاط ولاهميته ولأساليبه . فلعب الاطفال يتحدد كثيرا بالاتجاهات الوالدية نحو أساليب تربية وتنشئة الاطفال . وهذه الاتجاهات بدورها تتحدد بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للوالدين من ناحية وبتكوينهما النفسي من ناحية أخرى .

توافر امكانيات اللعب :

وفي ضوء الكثير من العوامل السابقة ، تؤثر نوعية اللعب ومواده وامكانياته المتاحة الى حد كبير في نشاط اللعب وفي مباشرته لدوره الهام في بناء الاطفال . فاذا زدنا الطفل بالعب معينة ، فانه سوف يستخدمها ، وبالتالي فان نشاط لعبه سوف يتأثر بها . فاذا كانت امكانيات اللعب المتاحة ذات نماذج تركيبية بنائية ، مثل المكعبات والرمال والاجهزة التي يقوم الطفل بفكها وتركيبها ، فان اللعب بطبيعة الحال سوف يأخذ هذا الطابع التركيبي البنائي ، ويكون موجها اكثر للجانب العقلي من شخصية الطفل . أما اذا وفرنا العبا مثل الاجهزة المنزلية أو الدمى ، فان هذا يؤكد على نموذج اللعب الاليهامي .

والحقيقة التي تؤكدتها دراسات عدة (مثل دراسات مير وميري ، ١٩٥٠ ، ريسى ، ١٩٥٤) ان الكبار ينبغي عليهم أن يزودوا الطفل بالعب تتضمن نماذج وأشكالا كثيرة ، لأن نشاط الطفل في اللعب ينسحب الى كافة جوانب شخصيته - الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، ولأن لعب الطفل ابداعي ، خلاق ، تمثيلي ، تقليدي ، تخيلي ، ولأن الطفل سرعان ما ينتقل من لعبة الى غيرها .

ومن ناحية أخرى ، تؤدي المبالغة في تزويد الطفل بمواد اللعب وامكانياته الى نتيجة عكسية اقرب الى ما قد يترتب على حرمان الطفل منها . فالاختيار الجيد لمقدار محدد من مواد اللعب يشجع على أن يكون لعب الطفل اكثر غنى بالمصادر resourcefulness واكثر اجتماعية مما لو ازدحم بمواد كثيرة للغاية (جونسون ، ١٩٣٥) . ومن المصادر التي ينبغي تزويد الطفل بها في لعبه ، تلك المواد التي يقوم الطفل بعملها في المنزل ومن أشياء بسيطة ، وأيضا استغلال مصادر البيئة وتوظيفها في أنواع ومواد حية للعب قد لا تيسر بالمواد والوسائل الجاهزة للعب الاطفال (ليونارد ، ١٩٥٢) .

ولعل ما عرضنا له في الصفحات السابقة ، يكشف عن جانب أساسي من النشاط الذي يعيشه الاطفال ويعيشون فيه طفولتهم ، وفيه يدركون انفسهم والعالم المحيط بهم ، ومنه يتعلمون معارف ومهارات وخبرات جمة ، وفيه تتفتح امكاناتهم ، وتنمو شخصياتهم . ولكن اللعب ، لكي لا يكون مجرد لهو واستهلاك للطاقة ، ولكي يحقق الغاية البنائية المنشودة منه ، ينبغي أن يوجه ليصير نشاطا تربويا منظما هادفا .

المراجع

- (١) آمال احمد صادق : دراسة عاملية للإبتكار الموسيقي . الكتاب السنوى في التربية وعلم النفس ، المجلد الرابع . القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ .
- (٢) د . بيرد : جان بياجية وسيكولوجية نمو الاطفال . (ترجمة : فيولا البيلوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .
- (٣) ف . سيفيرين : علم النفس الانسانى . (ترجمة : طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا البيلوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .
- (٤) سعد عبد الرحمن : السلوك الانسانى . الكويت : مكتبة الفلاح ، ٧١ - ١٩٧٧ .
- (٥) سوزان ايزكس : الحضانه . (ترجمة : سميه فهمى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ط ٣ .
- (٦) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ، جزآن . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .
- (٧) رمزية الغريب : العلاقات الانسانية في حياة الطفل الصغير ومشكلاته اليرمية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .
- (٨) فيولا البيلوى : دراسة لبعض الخصائص العقلية - المعرفية والانفعالية كاستجابة لعوامل الاستثارة لدى الاطفال في مرحلة المهد . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية . القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .
- (٩) فيولا البيلوى : دور الشغالات في حياة الاطفال النفسية . ندوة العمل مع الاطفال بجامعة عين شمس ، القاهرة ، فبراير ١٩٧٨ .

- 10— Adernethy, E.M. Relationships between mental and physical growth. Monogr. Soc. Res. Child Developm., 1, No. 7, 1936.
- 11— Amen, E.W. and N. Renison. A study of the relationship between play patterns and anxiety in young children. Genet. Psychol. Monogr., 50, 3-41
- 12— Ames, L.B. Free drawing and completion drawing : a comparative study of preschool children. J. Genet. Psychol., 66, 161 - 165, 1945.
- 13— Ames, L.B. Development of interpersonal smiling responses in the preschool years. J. Genet. Psychol., 74, 273 - 291, 1949.
- 14— Axline, V. M. Play therapy. Boston : Houghton Mifflin, 1947.
- 15— Axline, V.M. Observing children at play. Teach. Coll. Rec., 52, 358 - 363, 1951.

- 16— Bailey, S. Aggression in infancy and early childhood. *Cath. educ. Rev.*, 44, 421 - 429.
- 17— Barnhart, E.N. Developmental stages in compositional construction on children's drawings. *J. exp. Educ.*, 11, 156-184, 1942.
- 18— Bach, G.R. Young Children's play fantasies. *Psychol. Monogr.*, 59, No. 2, 1945.
- 19— Bell, J.E. Perceptual development and the drawings of children. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 22, 386-393, 1952.
- 20— Benjamin, H. Age and sex differences in the toy preferences of young children. *J. Genet. Psychol.*, 41, 417-429, 1932.
- 21— Berlyne, D.E. *Structure and direction in thinking*. New York Wiley, 1965.
- 22— Boynton, P.L. The relationship between children's tested intelligence and their hobby participation. *J. Genet. Psychol.*, 58, 353-362, 1941.
- 23— Boynton, P.L. and F.A. Ford. The relationship between play and intelligence. *J. appl. Psychol.*, 17, 294-301, 1933.
- 24— Boynton, P.L. and J.D. Wang. Relation of the play interests of children to their economic status. *J. Genet. Psychol.*, 64, 129-138, 1964.
- 25— Bridges, K.M. The occupational interests and attention of four-year-old children. *J. Genet. Psychol.*, 36, 551-570, 1929.
- 26— Brown, F.J. *Educational sociology*. New York : Prentice-Hall, 1954.
- 27— Buhler, K. *The mental development of the child*. New York : Harcourt, Brace, 1930.
- 28— Cappe, J. Les manifestations artistiques chez l'enfant. *Nouv. Rev. Pedagog.*, 3, 89-93, 1947.
- 29— Child, I.L., et al., Children's textbooks and personality development. *Psychol. Monogr.*, 60, No. 3, 1946.
- 30— Cramer, M.W. Leisure-time activities of economically privileged children. *Social. sec. Res.*, 34, 444-450, 1950.
- 31— Conn, J.H. Factors influencing development of sexual attitudes and awareness in children. *Amer. J. Dis. Child.*, 58, 738-745, 1939.
- 32— Conn, J.H. Children's awareness of sex differences. II. Play attitudes and game preferences. *J. Child Psychol.*, 2, 82-99, 1951.
- 33— Cornelius, R. Games minus competition. *Child H. Educ.*, 26, 77-79, 1949.
- 34— Davis, G.A. and S.W. Houtman. *Thinking creatively : A guide to training imagination*. Madison, Wisc. : Wisconsin Research and development centre for Cognitive Learning, 1968.

- 35— Du Bois, F.S. The security of discipline. *Ment. Hyg.*, N.Y., 36, 353-372, 1952.
- 36— Ephron, B.K. *Emotional difficulties in reading*. New York : Julian Press, 1953.
- 37— Elkish, F. Significant relationships between the human figure and the machine in the drawings of doys. *Amer. J. Orthopsychiat.*, 22, 79-85, 1952.
- 38— Frank, L. K. and R.E. Hartley. Play and personality formation in preschool groups. *Personality*, 1, 149-161, 1951.
- 39— Erikson, E.H. Sex differences in the play configurations of preadolescents. *Amer J. Orthopsychiat.*, 21, 667-692, 1951.
- 40— Gardner, D.E. *Testing results in the infant school*. London : Methuen, 1942-48.
- 41— Garden, D.E. *The education of young children*. London : Methuen, 1956.
- 42— Garrison, K.C. *Growth and development*. New Yori : Longmans, 1951.
- 43— Gesel, A. *Infancy and human growth*. New York : Macmillan, 1928.
- 44— Gesell, A. and L.B. Ames. The development of directionality in drawing. *J. Genet. Psychol.*, 68, 45-61, 1946.
- 45— Gesell, A. et al. *The first five years of life*. New York : Harper, 1940.
- 46— Gesell, A. and H. Thompson. *Infant behavior, its genesis and growth*. New York : McGraw-Hill, 1934.
- 47— Goodenough, F.L. *Measurement of intelligence by drawings*. Yonkers, N.Y., : World, 1926.
- 48— Goodenough, F.L. and D.B. Harris. *Studies in the psychology of children's drawings*. II. 1928-1949. *Psychol. Bull.*, 47, 369-433, 1950.
- 49— Guanella, F.M. Block building activities of young children. *Arch. Psychol.*, N.Y., No. 174, 1934.
- 50— Hartley, R.E., *Growing through play : experiences of Teddy and Bud*. New York : Columdia Univ. Press, 1952.
- 51— Hartley, R.E., L.K. Frank, and R.M. Goldenson. *Understanding children's play*. New York : Columdia Nniv. Press, 1952.
- 52— Hildreth, G. The simplification tendency in reproducing designs. *J. Genet. Psychol.*, 64, 329-333, 1944.
- 53— Hollingworth, L.S. *Gifted children, their nature; and nurture*. New York : Macmillan, 1926.

- 54— Honzik, M. P. Sex differences in the occurrence of materials in the play constructions of preadolescents. *Child Developm.*, 22, 15-35, 1951.
- 55— Horne, B. M. and C.C. Philles. A comparative study of the spontaneous play activities of normal and mentally defective children. *J. Genet. Psychol.*, 61, 33-46, 1942.
- 56— Hughes, M.A., and L. Stockdale. The young child and graphic expression. *Childhood Educ.*, 16, 307-314., 1940.
- 57— Hurlock, E.B. and J.L. Thomson. Children's drawings : an experimental study of perception. *Child Developm.*, 5, 127-138, 1934.
- 58— Jersild, A.T. *Child Psychology*. New York : Prentice-Hall, 1954.
- 59— Jersild, A.T. and R.J. Tasch. *Children's interests and what they suggest for education* New York : Teachers College Bureau of Pud., 1949.
- 60— Johnson, H.M. *The art of block building*. New York : Day, 1933.
- 61— Johnson, M.W. The effect on behavior of variation in the amount of play equipment. *Child Developm.*, 6, 56-68, 1935.
- 62— Jolles, I. A Study of the validity of some hypotheses for the qualitative interpretation of the HTP for children of elementary school age. I. Sexual identification. *J. Chin. Psychol.*, 8, 113-118, 1952.
- 63— Joukovskaia, P.I. *Educating child in play*. (in Russia) Moscow : Academy Press, 1963.
- 64— Lehman, H.C. A comparison of the play activities of town and country children. *J. Genet. Psychol.*, 33, 455-476, 1926.
- 65— Lehman, H.C. and P.A. Witty. Periodicity and play behavior. *J. educ. Psychol.*, 18, 115-118, 1927.
- 66— Lehman, H.C. and P.A. Witty. *The Psychology of play activities*. New York : A.S. Barnes, 1827 a.
- 67— Lehman, H.C. and P.A. Witty. A study of play in relation to intelligence. *J. appl. Psychol.*, 12, 369-397, 1928.
- 68— Leonard, A Toys for toddlers. *Today's Health*, December, 42-43, 60, 1952.
- 69— Leroy, A. Representation of perspective in the drawings of children *Enfance*, 4, 286-307, 1951.
- 70— Lytton, Hugh. *Creativity and education*. London : Routledge & Kegan Paul, 1971.
- 71— Mac Donald, M.A. C.Mc Gurie, and R.J. Havighurst. Leisure activities and the socio-economic status of children. *Amer. J. Sociol.*, 54, *Amer. J. Sociol.*, 54, 505-519, 1949.

- 72— Machover, K. **Personality projection in the drawing of the human figure.** Springfield : Charles C. Thomas, 1949.
- 73— Markey, F.V. Imaginative behavior of preschool children. **Child Developm., Monogr.,** No. 18, 1935.
- 74— Mansell, T.M. and T.H. Elfer. The growth of a play. **Child Educ.,** 35, No. 2, 1958.
- 75— Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970)
- 76— Maybury, M.W. Selection of materials by nursery school children of superior mental intelligence. **J. educ. Res.,** 46, 17-31, 1952.
- 77— Merry, F.K. and R.V. Merry. **The first two decades of life.** New York : Harper, 1950/.
- 78— Millichamp, D.A. Another look at play. **Bull. Inst. Child Stud.,** Toronto, 15, No. 4, 1-13, 1953.
- 79— Mitchell, E.D., and B.S. Mason. **The theory of play.** New York : A.S. Barnes, 1948.
- 80— Murphy, L.B. **Social behavior and child personality.** New York : Columbia Univ. Press, 1937.
- 81— Murphy, L.B. **Play therapy : The inner dynamics of childhood.** New York : Houghton Mifflin, 1947.
- 82— Murphy, L.B. **Personality in young children.** New York : Basic Books, 1956.
- 83— Parten, M.B. Social play among preschool children. **J. abnorm, soc. Psychol.,** 28, 136-147, 1933.
- 84— Perry, M. young child's approach to science. **Child Educ.,** No. 8 - 9, vol. 35, 1958.
- 85— Peller, L.E. Models of children's play. **Ment. Hyg., N. Y.,** 36, 66-83, 1952.
- 86— Rankin, M. **Children's interests in library books of fiction.** New York : Teachers College Bureau of Pub., 1944.
- 87— Reece, L.H. The play needs of children aged 6 to 12. **Marriage Fam. Living,** 16, 131-134, 1954.
- 88— Reeves, W.R. Report of Committee on street play. **J. educ. Sociol.,** 4, 607-618, 1931.
- 89— Rogers, C.R. **Client - centered therapy.** Boston, 1951.
- 90— Rogerson, C.H. **Play therapy in childhood.** London : Oxford Univ. Press, 1939.
- 91— Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **J. Child Psychiat.,** 2, 302-329, 1952.

- 92— Russel, D.H. *Children learn to read*. Boston : Ginn, 1949.
- 93— Seward, B., and D.B. Harris. The reading ease, human interest value, and thematic content of st. Nicholas Magazine. *J. educ. Psychol.*, 42, 153-165, 1951.
- 94— Symonds, P.M. *The dynamics of human adjustment*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1946.
- 95— Sullenger, T.E., et al. The leisure time activities of elementary school children. *J. educ. Res.*, 46, 551-554, 1953.
- 96— Terman, L.M. *Genetic studies of genius*. Stanford : Stanford Univ. Press, 3 Vols, 1925, 1930.
- 97— Terman, L.M., and M. Lima. *Children's reading*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1927.
- 98— Torrance, E. P. Are the gifted being challenged to think and learn creatively : : An address presented to the Sacramento State College Association for Gifted children, Sacramento, California, 1961.
- 99— Torrance, E. P. *Guiding creative talent*. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962.
- 100— Torrance, E.P., and R. Storm. *Mental health and achievement*. New York : Wiley, 1965.
- 101— Torrance, E.P. *Encouraging creativity in the classroom*. Dubuque, Iowa : William C. Brown, 1970.
- 102— Tsaparojets. *Psychology and education of play at preschoolers*. (in Russian). Moscow : Prosfishania, 1966.
- 103— United Nations Report. Games of childhood same around world. *New York Times*, May 24, 1953.
- 104— Van Alstyne, D. *Play behavior and choice of play materials of preschool children*. Chicago : Univ. Chicago Press 1932.
- 105— Vernon, M.D. The development of imaginative construction in children. *Brit. J. Psychol.*, 39, 102-111, 1948.
- 106— Volberding, E. Out-of-school behavior of eleven-year-olds. *Elem. Sch. J.*, 48, 432-441, 1948.
- 107— Warner, W.L., and P.S. Lunt. *The social life of a modern community*. New Haven : Yale Univ. Press, 1941.
- 108— Whitley, M.T. Children's interest in collecting. *J. educ. Psychol.*, 20, 249-261, 1929.
- 109— Weider, A., and P.A. Noller. Objective studies of children's drawings of the human figure. I. Sex awareness and socioeconomic level. *J. clin. Psychol.*, 6, 319-325, 1950.

- 110— Williams, A.M. Children's choices in science books. **Child Developm. Monogr.**, No. 27, 1939.
- 111— Wilson, F.T. Stories that are liked by young children. **J. Genet. Psychol.**, 63, 55-69, 1943.
- 112— Wilson, L.A. The influence of a child purpose upon the perseverance of young children. **J. exp. Educ.**, 23, 353-358, 1955.
- 113— Winstet, B. The use of a controlled play situation in determining certain effects of maternal attitudes on children. **Child Developm.**, 22, 299-311, 1951.
- 114— Witty, P.A. A study of deviates in versatility and sociability of play interests. **Teach. Coll. Contr. Educ.**, No. 470, 1931.
- 115— Witty, P.A. Children's interest in reading the comics. **J. exp. Educ.**, 10, 100-104, 1941.
- 116— Witty, P.A. Reading the comics - a comparative study. **J. exp. Educ.**, 10, 105-109, 1941 a.
- 117— Witty P.A., A. Coomer, and D. Mc Bean. Children's Choices of favorite books : a study conducted in ten elementary schools. **J. educ.** 37, 266-278, 1946.
- 118— Wolfenstein, M. The impact of a child's story on mothers and children. **Monogr. Sec. Res. Child Developm.**, 11, No. 1, 1946.
- 119— Yates, A.J. Behavior therapy. New York : Wiley, 1970.



طلعت منصور *

تنشيط نمو الأطفال

(تناول جديد لبعض قضايا النمو الانساني)

مقدمة :

النمو ، في جوهره ، عملية تغير وتوجيه للتغير (هوبت ، ١٩٦٩) .

فالكائن الحي الانساني ، منذ لحظة الاخصاب حتى الموت ، يخضع لعمليات من التغير المستمر . وهو بذلك ليس في حالة استاتيكية ساكنة أبداً ، بل ينمو في حركة دينامية خلال المراحل المتعاقبة التي يمر بها ، نموها يتضمن كيانها ككل مركب : من النواحي الجسمية - التشريحية ، والعقلية - المعرفية ، والانفعالية والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص

* دكتور طلعت منصور بقسم الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، ومعار حالياً بقسم علم النفس بكلية الآداب والتربية جامعة الكويت . اسهم ببحوث منشورة في بعض المؤتمرات الدولية الاخيرة لعلم النفس (المؤتمر الدولي العشرين لعلم النفس بطوكيو - أغسطس ١٩٧٢ ، والمؤتمر الدولي الخامس للتوجيه التربوي والمهني بكوبك بكندا - أغسطس ١٩٧٣) ، وفي بعض المؤتمرات المحلية (المؤتمر الخامس والاربعين للثقافة العلمية بالقاهرة - ابريل ١٩٧٥) والمؤتمرات العربية (الندوة الدولية العربية لخبراء التعلم الذاتي ، جامعة الدول العربية - ١٩٧٧ ، والمؤتمر الفكري الثاني للتربويين العرب ببغداد - ١٩٧٨) . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والجمع المصري للثقافة العلمية والجمعية الامريكية لتقديم العلوم .

التي تميزه كشخصية متفردة . ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وان كانت بمعدل أقل سرعة حتى التدهور الذي يخبره الكيان الانساني في حالات الشيخوخة وما مولد الطفل الاحداث واحدا في سلسلة متتابعة من التغيرات ، وليس بداية هذه التغيرات .

وربما لا يكون الفرد دائما واعيا بهذه التغيرات التي تحدث باستمرار ، ففي السنوات المبكرة من الحياة ، حينما تكون التغيرات سريعة في معدلها ، يكون الانتباه موجه الى التغيرات بسبب التوافقات المستمرة التي على الطفل ان يقوم بها حيال هذه التغيرات . كما ان هذه التغيرات تكون مرغوبة من الفرد ، لانها تدل على انه «آخذ في النمو» . وهذا يتناقض تماما مع اتجاه الفرد نحو التغيرات في مرحلة الرشد ، حيث يمثل كل تغير اعلانا له للعالم المحيط به انه «آخذ في التقدم في السن» .

فالنمو عملية ارتقائية متتابعة موصولة الحلقات من التغيرات التي تكشف عن امكانات الطفل وتبرزها وتوسعها والنمو ، على هذا النحو ، عملية تفتح مركب للخصائص والامكانات العديدة التي تؤلف معا ، **وحدتها الوظيفية المتكاملة** ، مانسيه بالشخصية . ويتحقق هذا **التفتح الموجه** عن طريق العلاقة الدينامية بين الطفل والبيئة ، بين المحددات الداخلية والمؤثرات الخارجية . ويقصد بالمحددات الداخلية كل الشروط التي تجعل منا اعضاء في الجنس البشري من ناحية وشخصيات متفردة من ناحية أخرى ، فنحن نولد مزودين بتاريخ سابق من الوراثة ، مهياين لان تكون لنا بنية معينة ، ولانتمتع بمقدرات او امكانات خاصة .

ولكن هذه الشروط الداخلية (الاستعدادات الطبيعية ، الخصائص التشريحية - المورفولوجية وخاصة الجهاز العصبي المركزي) لا تظهر ولا تتحقق قدريا ولا تفتح تلقائيا Automatic Unfolding ، وانما تظهر وتتحقق من خلال تحريك واستثارة المنبهات المتوفرة في البيئة (الفيزيكية ، التاريخية ، الاجتماعية ، الثقافية ، النفسية) . فكل هذه المقدرات او الامكانات الكامنة قد تظهر او لا تظهر ، او قد تتحقق بمستوى أو بآخر ، وفقا لعوامل استثارة النمو التي يوفرها الوسط الذي يعيشه الطفل . اي ان التفاعل الوظيفي الموصول بين الطفل والبيئة وتوجيه هذا التفاعل هو وحده الذي يهيئ التغيرات العديدة والمركبة التي تميز النمو وتحققه .

وفي ذلك يقرر « أندرسون » (١٩٥٧) :

« ما طبيعة الاشياء المتعلقة بالشخص الذي ندرسه من الميلاد حتى النضج ؟ تكشف الملاحظات المختلفة ، وحتى أكثرها اصطناعا ، عن نظام مركب Complex System للغاية يتحرك قدما مع الوقت عن طريق النمو في التركيب والحجم ، هذا النظام يتلقى الكثير من الاستثارة من العالم الخارجي ويستجيب لها بطرق كثيرة ومختلفة .

وكما ينمو يعتقد اتصالات ذات مدى أوسع من الاشياء والاشخاص ، وتزايد قدرته على حل المشكلات ، وبينها الكثير من العادات والمهارات ، ويرتقي في المعرفة وضبط الذات . انه مركب متعدد الجوانب Complex manifold من خصائص وامكانات كثيرة تؤلف معا الشكل الكلي او الصورة الكلية لما نسميه بالكائن الحي الانساني »

ولا يقتصر تطور نمو الطفل على الزيادة في الحجم والنسب ، ولكنه ينطوي على تغيرات كمية وكمية ، وعلى اختفاء معالم قديمة واكتساب معالم جديدة ، وعلى تعديل أنماط أكثر بدائية لتصبح أكثر انزانا وتعقيدا وحضارية . والنمو ، على هذا النحو ، يتألف من سلسلة من التغيرات التقدمية الارتقائية ذات نمط منظم ، مترابط ، تهدف الى تحقيق النضج . ويشير مصطلح « ارتقائي » أو « تقدمي » Progressive الى ان التغيرات تكون موجبة ، تؤدي الى الانطلاق بالنمو قدما الى الامام ولا تعود به الى الوراء « أما المصطلحان « منظم » Orderly « ومتربط » Coherent فيؤكدان على ان النمو ليس عملية عرضية ، وانما هناك علاقة محددة بين كل مرحلة من مراحل النمو والمرحلة التي تلحقها في التتابع النمائي .

يقول « ايريك ايريكسون » (١٩٦٩) :

« اذا أردنا ان نفهم النمو علينا ان نتذكر مبدأ الخلق الجبرئومي ، Epigenetic Principle الذي يشتق من نمو الكائنات الحية في الرحم . يقرر هذا المبدأ بان لا شيء ينمو خطة للبناء Ground Plan وانه انطلاقا من هذه الخطة تظهر الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقته الخاص الذي يبرز ويسيطر فيه ، حتى تظهر كل الاجزاء لتشكيل كلا توظيفيا . وعند الميلاد يترك الطفل التبادل الكيميائي مع الرحم لينقل الى نظام التبادل الاجتماعي مع مجتمعه ، حيث تواجهه مقدراته Capacities المتزايدة بالتدرج فرص وحدود ثقافته . والنمو ، كما يقرر ، « جيزل » (١٩٥٢) أكثر من مفهوم . وهو يمكن ملاحظته وتقييمه ، وحتى قيامه الى حد ما ، في ثلاثة مظاهر أساسية : (١) المظاهر التشريحية Anatomical (ب) المظاهر الفسيولوجية Physiologic (ج) المظاهر السلوكية Behavioral وتؤلف الجوانب السلوكية مع ذلك المؤثر الاساسي للوضع التطوري - النمائي Developmental Status وللامكانات النمائية للطفل Developmental potentials.

ويتمخض النمو عن خصائص جديدة وقدرات جديدة ووظائف جديدة تتوفر للطفل ، اعتمادا على ما تحقق من تطور نمائي لهذه الخصائص والقدرات والوظائف في مراحل سابقة ، لان كل تغير يستند الى ما سبقه من تغيرات ويؤثر بدوره على ما سيعقبه من تغيرات « والنمو يمثل بذلك انتقالا من مراحل ادنى الى مراحل ارقى من النشاط والوظيفة ، استنادا الى « منجزات النمو » Growth Achievements في مسار العملية النمائية .

موضوع علم النفس التطوري - النمائي اذن هو الدراسة العلمية لمظاهر التغير التي يخبرها الطفل النامي ، وعوامل هذا التغير ومحركاته ومثيراته ومعطياته ، بهدف تفسيره والتنبؤ به وضبطه وتوجيهه ، بما يحقق التطور الاحسن لنموه ، والتفتح الامثل لامكاناته التطورية النمائية . ويقوم تصورنا لدراسات النمو وقضاياها على فلسفة معينة ، وتتلخص في العبارة التالية : « النمو موضوع للدراسة ومنهج للبحث » (طلعت منصور ، ١٩٧٥) . ولقد عرضنا في عجلة لموضوع علم نفس النمو ، بقى ان نعرض لتصورنا للنمو كمنهج للبحث السيكولوجي .

ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية لا تتوفر للطفل في شكل عطاء موروث Hereditary Endowment يعطي « مرة لا تكرر » Once for all ، وانما تنمو في النشاط وارتباطه به ، أي وفقا لاستثارة امكانات النمو بالمنبهات الثقافية الملائمة . وبقدر ما يخضع

النشاط ذاته وبالتالي مقومات استثارة النمو للتغير في سياق التطور الثقافي للإنسانية ، فان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية ينبغي ان تتغير . واذا لم يكن الامر كذلك ، فكيف نفسر استيعاب الدماغ الانساني لكل المنجزات الثقافية المعاصرة (من انفجار معرفي ، وتكنولوجيا راقية ، الخ) ؟

فالخصائص والعمليات النفسية (كال تفكير والتذكر والادراك والانتباه وغير ذلك) والقدرات العقلية قابلة للتغير والارتقاء المتواصلين ، وخاصة في المراحل التكوينية . ومن ثم ليس هناك من اساس لان نفترض ثباتها لدى الاطفال في المراحل العمرية المختلفة ، وانما قابليتها المستمرة للتغيرية والارتقائية .

هذا الاتجاه في تناول قضايا النمو يفترض بقوة كذلك ان كل طفل يتمتع بالقدرة على اداء مناشط معينة ، وان مهمتنا كسيكولوجيين ان نحدد أي الامكانيات يمتلكها الطفل بالفعل ، واي القدرات ينبغي ان تنمي فيه ، وكيف تنمو .

وفي هذا الصدد يمكن أن نشير الى بعض المنجزات العلمية في تاريخ الفكر السيكلوجي - وتحمل دلالة بالغة الاهمية في تغيير تصورنا للطفل النامي ، ونقصد بها ما حققه « جان بياجيه » من منجزات ودفعات نظرية ومنهجية ، فتحت سبلا وآفاقا جديدة أمام علم النفس عامة ودراسات النمو خاصة .

يبرز « أ. كلاباريد » ذلك ببراعة في تقديمه للطبعة الفرنسية لكتاب بياجيه : « في نفس الوقت الذي جعلوا فيه التفكير عند الاطفال مشكلة كمية ، تناولوا بياجيه كمسألة كيفية » . ففي الوقت الذي تناول فيه علم النفس التقليدي التفكير عند الاطفال من منظور سلبي يسجل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو الحياة العقلية عند الاطفال على اساس مقارنتها بتفكير الكبار ، حاول بياجيه ان يكشف من الخصائص الكيفية لتفكير الاطفال من منظور ايجابي . فما كان يسترعى اهتمام الباحثين من قبل هو : « ما الذي لا يوجد عند الطفل » ؟ ما الذي ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وبالتالي حددوا خصائص التفكير عند الطفل هكذا : الطفل تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الاحكام والاستنتاج المنطقي وغير ذلك . ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث مسارا آخر يدور حول « ما الذي يوجد بالفعل عند الطفل ؟ وبماذا يتصف تفكيره من خصائص وصفات مميزة ؟ »

وفي الحقيقة ان ما قام به بياجيه يعتبر جادا وجديدا في تاريخ الفكر السيكلوجي افاد فيه من آراء « روسو » بأن الطفل ليس اطلاقا بالشخص الراشد الصغير Miniature Adult وبأن عقله ليس بعقل الراشد على نطاق صغير . وتكمن وراء هذه الحقيقة التي أيدها بياجيه بالاثبات التجريبي ، فكرة بسيطة في جوهرها فكرة التطور التي اضاءت كل أعمال بياجيه الفذة (فيجوتسكي ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥ - ٨٦) .

وهكذا تكون مهمة علم النفس « العلمي » و « الانساني » اعظم واسمى من مجرد التوصيف او القياس الكمي لـ « الوضع الراهن » Status Quo الذي وصل اليه مستوى نمو الخصائص

والعمليات النفسية والقدرات العقلية لدى الطفل. وعلم نفس النمو مطالب بذلك بان يتبنى تصورا
تفاؤليا في تناول الظواهر النمائية وامكانية نموها وانمائها ، وان يصطنع طرقا مناسبة للنماء ليصبح
الاطفال في طورهم « مكتملي الانسانية » Fully Human

النمو ، اذن ، كمنهج للبحث السيكولوجي يفترض تتبع مسار نمو الظاهرة النفسية ،
وصيرورتها ، وامكانات دفعها الى المستوى الامثل . وهو يتطلب منا الكشف عن الابعاد الكمية
والكيفية للتغيرات التي تطرأ عليها ارتباطا بمتغيرات تكشف خصائص هذه الظاهرة
وتكوينها وتوظيفها في سياق النشاط الذي توفره للطفل النامي وعوامل استثارة امكانات نموه ،
ووفقا لهذا المنهج لا نضع في الاعتبار « الناتج Product فحسب ، ولكن ايضا العملية Process
ذاتها ، لا نهتم بمنجزات النمو فحسب ، ولكن ايضا بالمسار والسياق النمائي للظاهرة النفسية .

في داخل هذا الاطار تبرز بعض القضايا الحاسمة :

.. الى اى حد تعتبر امكانات الطفل ثابتة أم متغيرة .. ؟

.. ما هي القوى الدافعة لمسار العملية النمائية ..) ما الذي يحدد خصائص النشاط النفسى
للطفل في مرحلة معينة من مراحل النمو ؟

.. ما دور النشاط في تفتح وتوظيف امكانات الطفل الكامنة .. ؟

.. ما العلاقة بين النمو والتعلم .. ؟

امكانات الطفل بين الثبات والتغير (صيرورة النماء) :

في صيف عام ١٩٧٠ زار آرثر جنسن Arthur Jensen أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا
بريطانيا ليمقد ندوتين في كامبردج : احدهما نظمتهما « هيئة أبحاث المنح » Brain Research
Association والاخرى « جمعية كامبردج للمسؤولية الاجتماعية في العلم » . Cambridge Society
for Social Responsibility in Science ولقد دعى جنسن خاصة لايضاح ومناقشة نظريته
التي طفق يبشر بها عن طبيعة الذكاء الانساني وتوزعه ، تلك النظرية التي أثارت موجة عارمة من
السخط والغضب في الولايات المتحدة ، امتدت بدورها الى بريطانيا .

تلخص نظرية جنسن ، كما عرضها في بعض أعماله (١٩٦٦ ، ١٩٦٧) ، في أن الملونين
بالولايات المتحدة ، بسبب ما جلبوا عليه من عطاء خلقي ، أقل ذكاء من البيض ، وكذلك الفئات
والطبقات الدنيا التي تنتمي الى الانسان الابيض أقل ذكاء من الانسان الابيض الذي ينتمي الى
الطبقة الوسطى والارستقراطية ، فالانخفاض في المستوى العقلي مرتبط بالتكوين الوراثي المنحط
Inferior Genstic Make-up

ويقرر جنسن أن ما توصل اليه من بيئة ، وهي مشتقة من نتائج اختبارات الذكاء والقياس
النفسى ، يؤكد بشكل قاطع ان كلا من الفروق السلالية والطبقية تقوم على امكانات موروثية ،
وبالتالى فهي « ثابتة » ، « مستقرة » تستعصى على التغير بواسطة السياسات الاجتماعية
والتربوية .

واتجاه « جنسن » الجديد هو في جوهره تكرار للاتجاهات القديمة والمعيبة المشتقة من اختبارات الذكاء الجماعية ، وخاصة الاتجاه الذي يذهب الى أن الوراثة تحدد مستوى الذكاء . ويقرر ، وهو يتفق مع « سيريل بيرت » ، أن ٨٠٪ على الأقل من التباين في الذكاء يرجع الى الوراثة و ٣٠٪ الى العوامل البيئية .

وعلى ذلك يحدد جنسن نمطين او مستويين للذكاء : المستوى الاول يتفق مع القدرة على « التعلم الترابطي » Associative learning ، أى على التعلم الآلى البسيط ، قوة الاسترجاع ، وغير ذلك ، أما المستوى الثانى فيتفق مع القدرة على ادراك المفاهيم ، حل المشكلات ، أى باختصار على التفكير وتناول مواد التفكير بفاعلية . ويسلم بأن هذين المستويين ، كنتيجة للعوامل الخلقية ، يتوزعان بطريقة متميزة بين الناس « كدالة للطبقة الاجتماعية » . ونتيجة لذلك ، واتفاقا مع هذا التصور ، ينبغى أن تتمايز التربية . فبالنسبة للمستويات الدنيا يكون التعليم الملائم قائما على التعلم الترابطي ، الآلى (حيث يكون : المدخل = المخرج . Input = Output) ، فى حين ينبغى تخطيط التعليم بالنسبة للطبقتين الوسطى والارستقراطية القادرتين وحدهما على التفكير التصوري Conceptual Thinking (التفكير بالمفاهيم) لكى يبنى وينمى هذه القدرة الراقية .

وليس هنا مجال لاستعراض نظرية « جنسن » بالتفصيل ، ولكن ما نود الإشارة اليه تلك الموجة من التعاطف عليها . من هذا ، على سبيل المثال ، ما نشره سنو C.P. Snow في المجلة الاسبوعية المعروفة بـ « العالم الجديد » (New Scientist, May 1, 1969) منددا بـ « عاصفة الاحتجاج والتجريح » التى أثارها نظرية جنسن . ويعتمد « سنو » فى بعض دفاعه عن هذه النظرية على « بعض » البيانات المتعلقة « بالانجاز العقلى والفنى لدى اليهود » الذى يعزبه الى معطيات وراثية .

واتجاهات عنصرية « فاشية » هذه شأنها ليست بغريبة على تاريخ الفكر السيكولوجى . فلا يغيب عن ذهننا « علم النفس النازى » الذى تركز على تبرير نظرية « المانيا فوق الجميع » ، والنظريات والدراسات التى خرج بها بعض العلماء الانجليز (١) فى أوج الامبراطورية البريطانية لتبرير أوضاع عالمية امبريالية يقوم فيها الرجل الابيض بمهمة السيادة على الاجناس الاقل وتدبير أمورها لمعجزها ، بما يعرف بعبء الرجل الابيض White man's burden

وهذا الاتجاه العلمى ، او الذى يأخذ بالعلمية الشكلية ، يشيع بصفة خاصة ويجد له تربة خصبة لدى السيكولوجيين الاسرائيليين ، نذكر منهم على سبيل المثال ، السيكولوجى « أمير » بجامعة « بارايلان » الذى حاول فى دراسة قدمها أمام « المؤتمر الدولى العشرين لعلم

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

— H. L. Gordon. The brain capacity of East Africans. Eugen Rev. 25:223, 1934.

— R.A. Oliver. Intelligence of European and African schoolboys in KENYA. A. Afr. J. 9:160, 1932.

النفس» (طوكيو ١٩٧٢) ان يبين، بمنطق فاشى كاذب ، ان الشباب الشرقى (العربى والايرانى) اقل فى وظائفه العقلية من الشباب الاسرائيلي (٢).

وما تخرج به مثل هذه الدراسات من بيانات لا يصمد أمام الحقائق العلمية الرصينة ، بل تتهاوى وتتلشى مع نور العلم والانسانية . ويكاد يستقر الفكر السيكولوجي المعاصر على ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية فى تشكلها لدى الطفل هي انعكاس للواقع الثقافى بدرجة كبيرة . وتمثل مقدرة الكائن الحى الانسانى على الانعكاس كخاصية لنظامه الرافى ، كما يتضح فيما يقوم به المخ من وظائف وأوجدتها ظروف الحياة ذاتها ، وهياتها الخبرة الاجتماعية . ويلعب الانعكاس دورا هاما للغاية فى العمليات الحياتية لانه يهىء الفرد للانتظام Orientation مع موضوعات البيئة وظاهراتها، وتمكينه من ضبط وتوجيه سلوكه ذاته .

فالانعكاس ، من وجهة النظر التطورية النمائية ، يكون فى البداية نشاطا خارج الطفل مرتبطا بموضوعات الوسط المحيط ويصير فيما بعد وبالتدريج نشاطا عقليا ، داخليا ، ذاتيا . الا ان المقدرة على الانعكاس لا تفقد ابدا علاقتها بالمصدر الاصلى ، بالاداءات العملية الخارجية التي يرتبط بها ارتباطا متبادلا ، وتؤلف وحدة مع هذا النشاط الثقافى بدرجة او باخرى . وفى نفس الوقت يتم بناء النشاط النفسى الداخلى بطريقة اشبه الى حد كبير بالنشاط الخارجى . وتتطلب منا هذه القضايا وقفة لاعادة تناول الكثير من التصورات التقليدية عن نفس عملية النمو العقلى للطفل فى ضوء مبادئ ثلاثة للنمو :

١ - النمو العقلى للطفل كعملية استيعاب للخبرة الانسانية المعاشة

يتميز النمو العقلى للطفل ، كيفيا ، عن النمو النوعى لسلوك الحيوان . تتحدد هذه الافضلية أولا وقبل كل شىء فى غياب عملية استيعاب او تمثيل الخبرة لدى الحيوانات ، تلك العملية التي تتجمع بواسطة الانسانية على مدار التاريخ الاجتماعى .

يمكن ان نميز لدى الحيوانات خبرة ذات نمطين : خبرة متجمعة بالتطور النوعى ومتشعبة وراثيا ، وخبرة فردية مكتسبة حياتيا . ويتفق مع هذين النمطين من الخبرة ميكانزمات للسلوك ذات نمطين ايضا : الاولى - تلك الميكانزمات الوراثية التي تكون اما جاهزة للاداء تماما منذ لحظة الميلاد ، او تنضج بالتدريج فى عملية النمو النوعى . وتكوين هذه الميكانزمات يتم وفقا للقوانين العامة للتطور البيولوجى ويمثل عملية بطيئة كرد فعل للتغيرات البطيئة فى الوسط البيئى . هذه الميكانزمات تحتل المكانة الاكبر فى عمليات التكيف، اما النمط الثانى من ميكانزمات السلوك لدى الحيوانات ، فهي ميكانزمات اكتساب الخبرة الفردية . وتتحدد خاصيتها الاساسية بأنه فيها تثبت وراثيا فحسب إمكانية تكوين السلوك الذى من شأنه ان يحقق التكيف الفردى ، وفى نفس الوقت تثبت السلوك ذاته فى ميكانزمات الخبرة الوراثية .

Y. Amir. Inter - and intra - ethnic comparisons of intellectual functions in (٢) Israeli and Middle Eastern populations. Abstract Guide of the XXth International Congress of Psychology, Tokyo, 1972.

وهنا ينبغي ان تؤكد ان هذين النمطين من الخبرة وميكانزمات السلوك مرتبطان ببعضهما ارتباطا متبادلا ليس فطريا فحسب ، ولكن ايضا وظيفيا . فظهور السلوك الوراثي لدى الحيوانات لا ينمزل اطلاقا من الخبرة الفردية ، ومن ناحية اخرى يتكون دائما السلوك الفردي على اساس السلوك الوراثي ، النوعي .

اي ان الوظيفة الاساسية التي تحققها ميكانزمات تكوين الخبرة الفردية لدى الحيوانات تتمثل في تكيف السلوك النوعي للعناصر المتغيرة بالوسط البيئي . ومن هنا يمكن تصور التطور النوعي للحيوانات على انه تجمع للخبرة الفردية تستخدم في تحقيق نشاطها الفريزي في ظروف خارجية دينامية معقدة .

وبالنسبة للانسان ، يختلف الموقف تماما . فاختلافا عن الحيوان ، يتمتع الانسان بخبرة من نوع معين - الخبرة التاريخية ، الاجتماعية المستوعبة . والسؤال : ماذا عن هذه الخبرة المميزة للانسان بشكل فريد .. ؟

في مسار التاريخ الانساني ، تجمعت منجزات هائلة وعظيمة ، هي ايضا منجزات النمو العقلي للانسان ، تناقلها من جيل الى جيل . وتجسدت هذه المنجزات بجلاء ، من الالة اليدوية البدائية الى العقول الالكترونية ووسائط ارياد الفضاء ، في اللغة ، في العلم ، في الفن ، في الانتاج ، في نظم العلاقات الاجتماعية ، وفي غير ذلك من مظاهر الوجود الانساني . وفي هذه المنجزات ، من ناحية اخرى ، تتجسد الخبرة التاريخية للانسانية ، وايضا القدرات العقلية للانسان التي تشكلت في هذه الخبرة .

وهكذا ، خلافا للتطور النوعي للحيوان الذي تبدت منجزاته في شكل تغير للتنظيم البيولوجي ، تدعمت منجزات التطور التاريخي للانسان في كل ما أبدعته عقليته وعبقريته من انتاج ، وفي تلك الظواهر المثالية (اللغة ، العلم) التي عاشها الانسان .

وامة عملية اخرى اكثر تعقيدا واهمية - عملية استيعاب او تمثل تلك المنجزات المتجسدة في عمله وانتاجه ورموزه . الطفل مندميلاده محاط بعالم من الموضوعات والعلاقات - فهذه مواد للمعيشة ، وادوات بسيطة ، وهذه لغة وما ينعكس فيها من تصورات ومفاهيم وافكار . وحتى مع الظواهر الطبيعية يلتقى الانسان بظروف اوجدتها عقلية الانسان - فهذه ملابس تقيه البرد ، وتلك مواصلات تيسر انتقاله . ويمكن القول بان الطفل يبدأ نموه النفسى في عالم انساني .

ولكن .. ، الا يتم نمو الطفل كعملية تكيف لهذا العالم ؟

الاجابة بالنفسى .. فخلافا لوجهة النظر الشائعة ، لا يمر مفهوم التكيف عن ركيزة جوهرية للنمو النفسى للطفل ، الطفل لا يتكيف مع عالم الموضوعات والظواهر المحيطة به ، ولكن يجعله عالما ذاته ، اى يستوعبه ويتمثله .

ونسوق لذلك أبسط مثال : يلتقى الطفل ، في الوسط المحيط به ، بحقيقة وجود اللغة التي تعكس تراثا انسانيا حيا متجمعا على مر العصور التاريخية . ويحيل الطفل ، في عملية نموه ، هذه اللغة الخارجية الى لغة لذاته . وهذا يعنى أنه تتكون لديه تلك الوظائف والقدرات الانسانية المتميزة ، كالقدرة على فهم الكلام والقدرة على التكلم ، وتلك الوظائف كالسماع والتلفظ الكلاميان . وهنا تؤلف الخصائص البيولوجية الوراثية للطفل فحسب شروطا لازمة لامكان تكوين هذه القدرات والوظائف . فلكي يتكون لدى الطفل ، على سبيل المثال ، السماع الكلامي ، ينبغي ان يتمتع بطبيعة الحال بأعضاء السمع والاعضاء التي تسهم في التلفظ . لكن وجود الاصوات الكلامية في الوسط المحيط بالطفل يفسر لماذا يتكون لديه السماع الكلامي .

ان علاقة الطفل بالعالم المحيط تتوسط بعلاقته بالناس ، حيث ينخرط معهم في عشرة كلامية وعملية . ولناخذ لذلك مثالا من حياة الطفولة : كيف تعلم الطفل الامساك بالملعقة . . ؟ لم ير الطفل أبدا ذلك الشيء البسيط ، وعندما يعطيه الوالدان هذه الاداة في يده ، ماذا سيفعل بها . . ؟ سوف يتناولها بيديه ويحركها ويلوح بها في حركات عشوائية ، ويخبط بها ، ويحاول أن يأخذها في فمه ، وغير ذلك من حركات غير منتظمة . ويقول آخر ، الملعقة تتبدى بالنسبة له ليس من ناحية وسائل استخدامها التي تعارف عليها المجتمع ، ولكن من ناحية خصائصها المادية الطبيعية ، غير المتميزة . والآن في مواقف متكررة تقوم الام باستخدام الملعقة كوسيلة لطعام طفلها ، وبعد ذلك تعطيه الملعقة في يده ، ويحاول مستقلا أن يأكل بها . في البداية تخضع حركات الطفل للوسيلة الطبيعية « أخذ ما تتناوله يده في فمه » . وفي هذه الحالة لا تحتفظ الملعقة في يده بالوضع الافقى اللازم ، والنتيجة تساقط الطعام على المائدة . لكن الام لا تقف ساكنة : فهي تساعد الطفل ، وتتدخل في أداءه ، وتتكون لدى الطفل ، في هذا الاداء « المشترك » الناشئ على هذا « المشترك » الناشئ على هذا النحو ، خبرة استخدام الملعقة والآن يجيد الطفل استخدام الملعقة كأداة انسانية أو كموضوع انساني .

الخصائص والقدرات الانسانية تتكون ، اذن ، في عملية استيعاب وتمثل الطفل لمنجزات الحضارة الانسانية في مسارها من جيل لآخر .

٢ - نمو الوظائف والقدرات العقلية كعملية تكوين لمنظومات مخية وظيفية (٣)

الموقف العلمي الذي يقرر أن القدرات والوظائف العقلية لا تتكون في شكل وراثية بيولوجية ،

-
- A.R. Luria. *Higher cortical functions in man*. New York ; Basic Books, 1966. (٢)
 - A.R. Luria *Human brain and psychological processes*. New York ; Harper & Row, 1966.
 - E.D. Homskaya. *Brain and activation*. Moscow Univ. Press, 1972.
 - K.H. Bribram. *Neocortical Functions in behavior*. In H.F. Harlow & C.N. Woolsey (Eds.) *Biological bases of behavior*. Univ. Wisconsin Press, 1958.
 - K.H. Bribram. *A review of theory in Physiological Psychology*. *Annual Review - of Psychology*, 11, 1960.
 - D.O. Hebb. *The Organization of behavior*. New York : Wiley, 1949.
 - D.O. Hebb *Intelligence, brain functions and the theory of mind*. „Brain”, 82, 1959.
 - I.P. Pavlov. *Abrief outline of the higher nervous activity*. In C. Murchison (Ed.) *Psychologies of 1930*. Workester, Mass. : Clark Univ. Press, pp. 207-220, 1930.

ولكن في سياق مكتسبات حيائية وفي عملية استيعاب منجزات الحضارة الانسانية بانتاجها وادائها ورموزها ، يضع امامنا قضية بالغة التعقيد ، تبدو متناقضة ، عن الاساس الفسيولوجي - التشريحي لهذه الوظائف والقدرات .

يتلخص حل هذه المفارقة في انه في نفس الوقت مع تكوين العمليات النفسية العليا لدى الطفل تتشكل الاعضاء الوظيفية للمخ التي تمثل اساسا جسمى ديناميا لنشاط هذه العمليات ، وهذه الاعضاء المخية عبارة عن تجمعات او منظومات انعكاسية ثابتة ، تستخدم لانجاز أعمال محددة . وبالرغم من اننا نجد امكانية التكوين الحيائي لهذه المنظومات المخية الوظيفية لدى الحيوان ، الا انها لدى الطفل تصير ركيزة لتحقيق تكوينات جديدة . Neoformations في نموه النفسي ، كما ان تكوين هذه المنظومات يصير هو القانون الحاسم للعملية التطورية النمائية .

وتسمح نتائج الدراسات المختلفة في علم النفس الفسيولوجي ، والعصبى ، والمقارن ، ان نحدد خصائص هذه الاعضاء المخية الوظيفية الناشئة حياتيا :

اولا : حينما تتكون تلك الاعضاء ، فانها تقوم بوظيفتها كعضو واحد . لذا يمكن ان تكتسب العمليات النفسية المرتبطة بها خاصية الاداءات المباشرة التي تعبر عن قدرة معينة ، مثل القدرة على الراك المباشر للعلاقات المكانية او الكمية او المنطقية .

ثانيا : بالرغم من ان المنظومات الوظيفية تتشكل من طريق تكوين روابط انعكاسية شرطية ، لكنها لا تنطفئ كما تنطفئ الافعال المنعكسة الشرطية . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، ان القدرة على التصور البصرى للاشكال المدركة باللمس تتكون حياتيا . ولذا تختفى تماما لدى الاطفال المكفوفين منذ الميلاد ، بينما تظل هذه القدرة لعشرات السنين لدى الاطفال الذين فقدوا الابصار ان تكونت لديهم بالفعل هذه القدرة ، بالرغم من عدم امكن توفر اى تدعيم للروابط اللمسية البصرية لديهم .

ثالثا : المنظومات المخية الوظيفية قابلة لاعادة البناء ، فبعض مكوناتها يمكن ان تستبدل بغيرها ، وعند ذلك تبقى المنظومة الوظيفية ككل مركب . اى ان هذه المنظومات تكشف عن قدرة فائقة على التعويض .

والسؤال : كيف تتكون هذه الاعضاء المخية الوظيفية ؟

الطفل لا يولد بأعضاء مخية جاهزة للعمل على تحقيق الوظائف والعمليات النفسية الراقية (تفكير ، تذكر ، ادراك ، انتباه ، تخيل ، كلام ، انفعالات ، حركة ...) ، ولكن هذه الاعضاء وما يرتبط بها من وظائف وعمليات في وحدة وظيفية حية تنمو « حياتيا » في سياق عملية استيعاب وتمثل الخبرة الاجتماعية المتجمعة . وهذه المنظومات تتكون وفقا للميكانيزم العام لتكوين العلاقات الشرطية ، ولكن على نحو يختلف عن تكوين السلاسل العادية للافعال المنعكسة الشرطية .

وفي هذا تكشف البيئة السيكونيورولوجية ان الوراثة تزود الطفل الوليد بكافة الطاقات

والاجهزة والاعضاء اللازمة التي تهيئه للتفاعل مع البيئة والاستجابة للمثيرات المختلفة المتوفرة في الوسط المحيط به . وليست عملية الولادة الا بداية لنشاط مرحلي معقد مستمر : تأثير واستجابة ، استعداد وتفتح ، حيث تقوم علاقة وظيفية متبادلة ، تفاعل موصول ، بين الاورجانزم ، والبيئة يكمن وراء تطور نمو الطفل .

٣ - النمو العقلي للطفل كعملية تكوين لاداءات عقلية

ينخرط الطفل منذ فترة مبكرة من حياته في اختلاط كلامي مع المحيطين به ؛ يلتقى بكلمات ، ويبدأ في فهم معناها واستخدامها بفاعلية في كلامه . ويمثل تعلم الكلام واستيعاب اللغة الشرط الحاسم لنموه العقلي ، لان مضمون الخبرة الاجتماعية - التاريخية للناس يستقر ويتوطد ليس فحسب في شكل الاشياء المادية ؛ فهذا المضمون يعمم وينعكس في شكل كلامي ، لفظي . وفي هذا الشكل خاصة يتبدى امام الطفل ثراء المعارف المتجمعة بواسطة الانسانية ، والمفاهيم المتعلقة بالعالم المحيط به (٤) .

امام الطفل ، اذن ، مهمة استيعاب هذه المعارف والمفاهيم . ولكن لكي يتم ذلك ينبغي ان تتكون لديه تلك العمليات المعرفية الملائمة .

والسؤال : كيف تتكون العمليات العقلية - المعرفية ؟

هنا ، ينبغي ان نتصدى لرفض موقفين علميين :

اولا : وجهة النظر التي تذهب الى ان الطفل يتمتع بوظائف عقلية او بعمليات معرفية « وراثية » ، وان الظواهر الخارجية المؤثرة عليها تستدعيها الى الحياة فحسب .

ثانيا : التسليم بان العمليات العقلية تتكون لدى الطفل تحت تأثير خبرته الفردية الشخصية ، وبان الطفل في عملية التعلم يخضع لتأثيرات يتمخض عن تكرارها وتدعيمها تشكل علاقات او ارتباطات شرطية جديدة ، وبان نشاطه العقلي لا يخرج عن كونه مجرد استرجاع بسيط لهذه العلاقات او الارتباطات .

تصورات كهذه لا تستقيم مع الحقائق ، الا يتطلب هذا المسار تكوين عمليات عقلية لدى الطفل ، وفقا لهذين الموقفين ، سندنا من خبرة هائلة ووقتا كبيرا للغاية . وفي الحقيقة ان تكوين العمليات العقلية لدى الطفل يعتمد على خبرة فردية ليست بضخمة نسبيا ، ويتم نسبيا على نحو سريع جدا .

تفسير ذلك ، ان الطفل يستوعب الخبرة في شكلها المفهم Generalized بالفعل . ومع ذلك لا يمكن ان تقدم اية خبرة الى الطفل في شكل جاهز الصنع . يمكننا ان نعلم الطفل ، مثلا ، تلك الارتباطات مثل $5 + 3 = 8$ او $6 - 2 = 4$ وغير ذلك من امثلة مشابهة . ولكن هذا لا يؤدي بالطفل على الاطلاق الى ان يتقن العمليات الحسابية الملائمة او مفهوم العدد . لذا لا يبدأ تعلم الحساب

بهذا ، وانما بالتكوين الفعال لعمليات ذات موضوعات أو أشياء خارجية - بما يتفق معها من تحويل وعد . ثم تتحول هذه العمليات الخارجية بالتدرج الى عمليات كلامية (العد بصوت مسموع) ، وتبلور وتختزل ، وتكتسب في النهاية خاصية العمليات الداخلية (العد في العقل) التي تتوافر بطريقة آلية في شكل أفعال ارتباطية بسيطة . الا انه يكمن وراءها الآن تلك الاداءات المعممة مع مفهوم الكميات التي بنيناها لدى الطفل في البداية . ولذلك يمكن دائما ان تتوسع هذه الاداءات وان يستخرجها (في شكل استجابات خارجية) من جديد .

ومن ثم ، تتطلب ايجادة الطفل للمفاهيم والتعليمات والمعارف أن تتكون لديه العمليات العقلية الملائمة . ولكي يتحقق ذلك ، فان هذه العمليات ينبغي أن تبنى لديه بطريقة فعالة : في البداية تظهر في شكل اداءات خارجية يشكلها الكبار في الطفل ، ثم تتحول الى عمليات عقلية داخلية .

يتضح مما تقدم ان بناء الشخصية وتكوين الذكاء والقدرات العقلية وتشكل الوظائف المعرفية لدى الاطفال هو انعكاس للواقع الثقافي بدرجة كبيرة ، وان خصائص الشخصية والمستويات العقلية - المعرفية لا تتوفر للطفل منذ ميلاده في شكل معطيات وراثية ، او في شكل خصائص ومقدرات قدرية جاهزة الصنع « تعطى مسرة لا تتكرر » Once for All و « لا تتغير » .

فيقدر ما يخضع الواقع الثقافي ذاته للتغير في عملية التطور التاريخي للانسانية ، فان القدرات والخصائص التي يمتلكها الفرد ينبغي ان تتغير . ففي كل مرحلة من التغير التاريخي يواجه الانسان بمتطلبات جديدة تتغير بتأثيرها قدرات الفرد وخصائصه . ولكن هذا لا يستبعد اطلاقا دور الاستعدادات الطبيعية (الخصائص الفطرية ، والمكونات التشريحية - المورفولوجية للجهاز العصبي) التي يستند عليها - الى حد ما - نمو القدرات . « فالقدرات لا تتمركز كميزة في مخ الفرد . وانما يتضمن المخ في ذاته كميزة ليس هذه او تلك من القدرات ، ولكن بحسب القدرة على تكوين هذه القدرات » (٥) .

الا ان الاستعدادات الطبيعية ذاتها تمثل شروطا لازمة لنمو القدرات فحسب ، ولكنها لا تحتم ولا تحدد التحقيق الفعلي القدرى لهذه الاستعدادات . فالنشاط الذي يقوم به الطفل في الوسط المحيط به يكمن وراء نمو استعداداته الطبيعية وامكاناته الكامنة .

يقول آخر ، النمو ليس عملية تفتح ذاتي Automatic Unfolding فليس بالضرورة ان تتحقق الاستعدادات الطبيعية في واقع الطفل ، واذا تحققت فقد تتحقق بمستوى او بآخر .

الاستعدادات الطبيعية ، اذن ، تفتح في السياق الثقافي الذي يتفاعل معه الطفل ، تتكون وتأخذ خصائصها ومستوياتها وفقا له .

(٥) A.N. Leontiev. The significance of the concept of reflection for scientific psychology. Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, 1966.

القوى الدافعة لمسار العملية النمائية

في سياق عملية النمو وبتأثير ظروف حياتية محددة يعيشها الطفل ، يتغير الموقع الذي يحتله الطفل في نظام العلاقات الانسانية . يتضح ذلك من تبين هذه الحركة الارتقائية في مسارها من مرحلة لاخرى .

طفولة ما قبل المدرسة - تلك الفترة المبكرة من الحياة التي يتفتح فيها امام الطفل عالم الواقع الانساني المحيط به . والطفل في نشاطه، وخاصة في نشاط لعبه الذي يتجاوز الآن الحدود الضيقة للتناول البسيط للاشياء المحيطة وللاختلاط بطريقة مباشرة مع الاشخاص المحيطين، ينخرط في عالم أكثر رحابة ، مستوعبا اياه في شكل ادائي . فهو يستوعب العالم المادي كعالم للموضوعات الانسانية ، فيه تنطبع الاداءات الانسانية المرتبطة بهذا العالم ، وتكون صور حسية - حركية وعقلية يسترجعها في مواقف مختلفة . الطفل « يسوق السيارة » ، و« يصوب المدفع » ، بالرغم من انه لا يستطيع حقيقة ان ينطلق بالسيارة او يطلق النار من المدفع . فحاجات الطفل الحياتية الاساسية تلقى الاشباع بواسطة الكبار بدون ما علاقة بانتاجية نشاطه .

ويخبر الطفل علاقته بالاشخاص المحيطين به بطريقة مباشرة ، فهو ينبغي ان يحتسب المطالب التي يفرضها الكبار المحيطين على سلوكه ، والتي تحدد بدورها علاقاته الوطيدة معهم . وبهذه العلاقات لا ترتبط نجاحاته واخفاقاته فحسب، وانما يكمن فيها ايضا لذته وامله ، وبالتالي فهي تتمتع بقوة الدافع .

في هذه المرحلة العمرية يتوزع عالم الاشخاص المحيطين بالطفل ، وبالنسبة له ، الى دائرتين : الاولى - وتتضمن الاشخاص القريبين (الاب ، الام او من يحل محلها) من الطفل ، وتؤدي علاقاته بهم الى تحديد علاقاته بكل ما يحيط به . وتتضمن الدائرة الاخرى ، وهي اكثر اتساعا ، كل الاشخاص الآخرين الذين تتوسط علاقاته بهم بتلك العلاقات التي تشكل في جماعة الدائرة الاولى ، جماعة الاسرة ذات العلاقات الوطيدة الدافئة .

ويمثل التحاق الطفل بالمدرسة حدثا سيكولوجيا بالغ الاهمية في تاريخ حياة الطفل ، فكل نظام علاقاته الحياتية يخضع لاعادة البناء والتنظيم . وتبرز الآن مهمة المجتمع كفرض واجب ، وليس فقط مهمة الوالدين أو المعلم . ويؤدي تحقيق هذا المطلب الى تحديد موقع الطفل في الحياة ، وظيفته ودوره الاجتماعيين ، وبالتالي ما تنطوي عليه حياته من مضمون في المستقبل برمته .

هل يعي الطفل ذلك ؟ طبعي ، ان يكون على وعي باهمية هذا الحدث (الالتحاق بالمدرسة)، هذا ايضا قبل التعلم الشكلي . فحينما يجلس الطفل على دروسه ، قد يشعر بنفسه انه مشغول بعمل عظيم حقيقة. ويمنع الكبار الاطفال الصغار في الاسرة من احداث ازعاج لطفل المدرسة ، وحتى قد يضحي الكبار بأعمالهم الخاصة لكي يتوفر الطفل على دروسه . ويختلف هذا تماما عما كان يقوم به من لعب ونشاط من قبل . فموقع نشاط الطفل ذاته في حياة الكبار المحيطين به قد صار موقعا آخر .

ففى هذه المرحلة يمكن ان نشترى اولاً للطفل لعبة ، ولكن من المستحيل أن نشترى له كتاباً وكراسة وقلماً . لذا يطلب الطفل ان نشترى له كتاباً او قصة او مجلة أكثر مما يطلب شراء لعبة . مثل هذه المطالب تحمل مغزى مختلفاً ليس بالنسبة للوالدين فحسب ، ولكن أيضاً بالنسبة للطفل ذاته .

وفى هذه المرحلة الارتقائية تفقد علاقات الطفل الوثيقة دورها المسيطر السابق لتمتد الى دائرة أكثر اتساعاً لاختلاطه وعشرته ، فهذه العلاقات ذاتها تتحدد الآن - بالعلاقات الأخذة فى الاتساع . وكيفما كانت ، على سبيل المثال ، العلاقات الأسرية الوثيقة التي يشعر بها الطفل طيبة ، فلا بد من أن يؤدي حصوله على درجة منخفضة فى أعماله المدرسية أو عدم استحسان المعلم له الى تعكير صفو هذه العلاقات . ويختلف هذا تماماً عما كان من قبل ، فى سن ما قبل المدرسة . وهنا كما لو أن المدرسة تبلور فى ذاتها علاقات جديدة ، شكلاً جديداً للاتصال والمعايشة ينخرط فيه الطفل ، معنى جديداً لتحقيق ذاته .

ويصبح فى مقدور الطفل الا يفضب المعلم بسلوكه : فلا يحدث صوتاً فى الدرج ، ولا يتحدث مع زميله اثناء الدرس ، ولا يلقي بالقاذورات على الأرض ، ولا يحدث شغباً مع الآخرين ، أو ضرراً لهم وغير ذلك مما قد ينعكس فى الدرجات التي يحصل عليها . والدرجة المنخفضة لا تمنح من صفحة كراسته ، وإنما تقف بجوارها الدرجة العالية الجديدة ، وليس بدلاً منها .

وبهذا يتحقق الانتقال الى المرحلة التالية من نمو الحياة والوعي لدى الطفل . يرتبط هذا الانتقال لدى المراهق بانضوائه فى أشكال ملائمة من الحياة الاجتماعية (المشاركة فى بعض المهام الاجتماعية التي لا تحمل طابعاً طفلياً ، الاضطلاع بأدوار هامة فى التنظيمات الطلابية ، ومشروعات ومعيسكرات الخدمة ، تبلور مضمونا جديداً للعمل الجماعي ، الى غير ذلك) . وبذلك يتغير الموقع الحقيقي الذي يحتله الطفل فى الحياة اليومية للكبار المحيطين به ، فى حياة أسرته . الآن تضعه قواه الجسمية ومعارفه ومهاراته فى بعض الحالات على قدم المساواة مع الكبار ، بل وحتى قد يشعر بالتفوق والافضلية : فقد يعترفون بما له من همة وما يقوم به من رعاية ومساعدة للأسرة ، وقد يكون هو العضو الأقوى فيها والناساطق بلسان حالها فيما تمر به الأسرة من أحداث .

ومن ناحية الوعي يتصف هذا الانتقال بنمو الروح النقدية لدى المراهق بازاء المتطلبات والمسؤوليات والتصرفات والخصال الشخصية للكبار ، وبانبثاق ميول نظرية أصيلة . وتظهر عند المراهق الحاجة الى ان يعرف ليس الواقع المحيط به فحسب ولكن أيضاً ما هو معرف عن هذا الواقع . وفى هذه الفترة يتهىء المراهق للعمل المهني ، بل وقد يمارس نشاطاً انتاجياً يحقق فيه ذاته . وهنا يحتل المراهق موقعا جديداً ، وتكتسب حياته مضمونا جديداً ، وهذا يعني أنه صار يدرك كل العالم بمنظور جديد .

الا أن تغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الاجتماعية خلال المسار النمائي لا يحدد فى ذاته ، بطبيعة الحال ، تطور نمو الطفل ، وإنما يعين الطور النمائي القائم والمتاح بالفعل فحسب . لكن ما يحدد ، بطريقة مباشرة ، نمو النشاط النفسي لدى الطفل - هو حياته

ذاتها ، نمو العمليات الحقيقية لهذه الحياة ، بمعنى آخر ، نمو نشاط الطفل ، الخارجي والداخلي . وعلاوة على ذلك ، يرتبط نموه بدوره بالشروط الحياتية المتاحة وبمدى ما يتوفر من « مقومات استثارة النمو » .

ومن هنا ، ينبغي في دراسة تطور نمو الحياة النفسية لدى الطفل ان ننطلق من تحليل نمو نشاطه كما يتشكل في شروط ومواقف ملموسة من حياته . وبهذا المدخل وحده يمكن تفسير دور الشروط الخارجية لحياة الطفل ، وكذلك استعداداته الطبيعية التي يتمتع بها . وبهذا المدخل فحسب ، الذي ينطلق من تحليل مضمون نشاطه النامي ، يمكن ان نفهم بحق الدور الهائل للتربية التي تباشر تأثيرها على نشاط الطفل بصفة خاصة ، وعلى علاقته بالواقع ، ومن ثم على بناء حياته النفسية ووعيه .

ولا يتشكل النشاط بطريقة آلية انطلاقاً من أشكال منعزلة من النشاط . تمثل بعض أشكاله في مرحلة معينة أشكالاً مسيطرة وتحمل معنى كبيراً بالنسبة لاضطراب نمو الشخصية ، في حين تحمل الأشكال الأخرى معنى أقل . بعضها يلعب دوراً رئيسياً في النمو والأخرى ثانوياً . ومن ثم ينبغي ان نقرر ارتباط تطور نمو الطفل ليس بالنشاط بصفة عامة ، ولكن بالنشاط المسيطر .

لذا يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل النمو النفسي تتميز بعلاقة محدودة ، مسيطرة في مرحلة معينة ، للطفل مع الواقع ، بنمط محدد مسيطر لنشاطه . ومن أبرز دلائل ارتفاعية الطفل من مرحلة لأخرى ، تغير النمط المسيطر للنشاط ، وتغير العلاقة المسيطرة لدى الطفل مع الواقع .

والسؤال : ماذا نعني بالنمط المسيطر للنشاط ؟

لا يتمثل النشاط المسيطر أبداً في دلائل كمية خالصة . النشاط المسيطر - ليس ببساطة نشاطاً تقابله أكثر في مرحلة بعينها من مراحل النمو ، يعطيه الطفل وقتاً أكبر . لكن ما نعينه بالنشاط المسيطر ، ذلك النشاط الذي يتصف بالدلائل الثلاث التالية :

أولاً : هو ذلك النشاط الذي تظهر على شاكلته وتتمايز في داخله أشكال جديدة أخرى من النشاط . من هذا ، على سبيل المثال ، ان التعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يتضح قبلاً في طفولة ما قبل المدرسة ، يظهر أولاً في اللعب ، اى يظهر في النشاط المسيطر في هذه المرحلة من مراحل النمو . فالطفل يبدأ التعلم وهو يلعب .

ثانياً : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط ، الذي تتكون فيه عمليات نفسية محددة ويعاد بناؤها . من هذا ، على سبيل المثال ، في اللعب تتكون عمليات التخيل النشط ، وفي الدراسة عمليات التفكير التجريدي . لكن هذا لا يعني ان تكوين وإعادة بناء كل العمليات النفسية يتم داخل النشاط المسيطر فحسب . فبعض العمليات النفسية تتكون ويعاد بناؤها ليس بطريقة مباشرة في النشاط المسيطر ذاته ، ولكن أيضاً في أشكال أخرى من النشاط ترتبط

به من الناحية التطورية . فمثلا ، عمليات تجريد وتعميم اللون تتكون في سن قبل المدرسة ، ليس في اللعب ذاته ، ولكن في الرسم واستخدام الألوان وغير ذلك ، أي في تلك الأشكال من النشاط التي ترتبط في أصلها بنشاط اللعب فحسب .

ثالثا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط الذي يرتبط به ما يلاحظ في فترة معينة من النمو من تغيرات نفسية أساسية في شخصية الطفل . فالطفل في سن ما قبل المدرسة ، على سبيل المثال ، يستوعب في اللعب خاصة الوظائف الاجتماعية والمعايير الملائمة للسلوك الانساني (« ماذا يفعل العامل في المصنع ، والفلاح في الحقل » ، « ماذا يفعل الجندي ، وغير ذلك ») ، وهذا يمثل ركيزة هائلة لبناء شخصيته .

وهكذا ، يكون النشاط المسيطر - هو ذلك النشاط الذي يضمن نموه تحقيق تلك التغيرات الهائلة في العمليات النفسية ، وفي خصائص شخصية الطفل في مرحلة بعينها من مراحل النمو .

ولا تتميز مراحل النمو ، رغم ذلك ، بمضمون محدد للنشاط المسيطر لدى الطفل فحسب ، ولكن أيضا بتتابع زمني محدد ، أي بعلاقة محددة بعمر الأطفال . ومع ذلك ، لا يمثل مضمون المراحل ولا تتابعها في الزمن شيئا يعطي لا يتكرر ولا يتغير .

فكل جيل جديد ، وكل فرد ينتمي الى هذا الجيل ، تنهيا أمامه شروط معينة للحياة ، وبالتالي مضمون معين لنشاطه . لذا ، فبالرغم من تحديدنا لمرحلة معلومة في نمو الحياة النفسية لدى الطفل ، إلا أن مضمون المراحل لا ينفصل أبدا عن الشروط التاريخية والثقافية الحية ، التي ينساب فيها نمو الطفل . وينسحب تأثير هذه الشروط سواء على مضمون هذه المرحلة أو تلك من مراحل النمو ، أو على كل مسار عملية النمو النفسي برمتها . فبالرغم من أن مراحل النمو تتوزع بشكل محدد في تتابع الزمن ، ولكن حدودها العمرية ترتبط بمضمونها الذي يتحدد بدوره بتلك الشروط التاريخية - الثقافية التي تتم فيها العملية النمائية ، وهكذا لا يحدد عمر الطفل مضمون مرحلة النمو ، ولكن ترتبط الحدود العمرية ذاتها بمضمونها وتتغير مع تغير الشروط الاجتماعية - التاريخية . ويبدأ الطفل ، في سياق النمو ، في أن يعي بأن الموقع السابق الذي كان يحتله في عالم العلاقات الانسانية المحيط به كما لو أنه لا يتفق مع إمكاناته ، ويسعى الى تغييره . وبالتالي ينشأ تناقض صريح بين نموذج حياة الطفل وإمكاناته الفعلية . ومن ثم يخضع نشاطه لاعادة البناء ، وبالتالي تتحقق الانتقالية الى مرحلة جديدة من نمو حياته النفسية .

ونسوق مثلا لذلك عن تطور نمو الطفل في سن ما قبل المدرسة . في البداية يشترك الطفل عن طيب خاطر في حياة الجماعة بدار الحضانة ، يشارك الأطفال الآخرين لعبهم ، ويعرض رسومه ، ويقص الحكايات ويردد الاناشيد ، ويحكي عن الاحداث التي صادفته في تجولاته . وكثيرا ما يستجيب له الكبار بابتسامة راضية وباستحسان يعضد ما يقوم به . وبعد فترة من النمو ، تتسع معارف الطفل ، وتزداد مهاراته ، وتنمو قواه ، وبالتالي يفقد النشاط في دار الحضانة مغزاه السابق بالنسبة له . حقيقة يحاول ان يجد في حياة دار الحضانة مضمونا جديدا ؛ فهو يبدأ في

ان تكون له مجموعات من الاطفال تعيش حياتها وما قد يشبع فيها من خصوصيات واسرار ، وهي ليست ابدا بحياة ما قبل المدرسة ؛ لقد صار الشارع والفناء وجماعة الاطفال الاكبر سنا اكثر اجتذابا له . وقد تؤدي هذه التغيرات الى احداث خلل في انتظام عملية النمو . وهذا ما يسمى بأزمة العلم السادس من النمو .

وعادة ما ترتبط ازمات النمو - أزمة العلم الثالث ، أزمة العلم السادس ، أزمة المراهقة ، أزمة الشباب - بانتقالة الطفل من مرحلة لآخرى . وهي تكشف بشكل صارخ عن وجود ضرورة داخلية لهذه الانتقالات من مرحلة لآخرى ، ولكن هل هذه الازمات حتمية الوقوع في نمو الطفل ؟

في الحقيقة لا تمثل ازمات النمو ابدا احداثا حتمية في مسار العملية النمائية . فالذي لا مفر منه ليس الازمات ، ولكن التحولات والنقلات الكيفية في النمو . وعلى العكس ، والازمة دليل على انتقالة لم تتحقق في وقتها المواتي . الازمات قد لا تقع اطلاقا ، اذا ما تواتر النمو النفسي للطفل بطريقة غير عفوية ، وتحقق كعملية احسن ادارتها وتوجيهها - بالتربية رشيدة التوجيه .

ويجب تحول النمط المسيطر لنشاط الطفل وانتقاله من مرحلة نمائية لآخرى ، في الحالات السوية ، على الحاجة الداخلية الناشئة ، ويعني هذا بدوره ان الطفل يضع التعليم امام مهام ومطالب جديدة تتفق مع امكاناته المتغيرة ووعيه الجديد .

نمو الطفل في النشاط :

الشخصية تتشكل في النشاط . فكل السمات والقدرات والاهداف واليول والمطامح والانماط السلوكية تتكون في الاشكال المختلفة للنشاط التي ينخرط فيها الطفل ، تلك الاشكال التي تؤلف حياة الشخصية ووجودها الاجتماعي . ففي النشاط خاصة تتكشف اهدافه ودوافعه ، نزاعه ورغباته ، وخصائص شخصيته واسلوبها في مواجهة المواقف وحل المشكلات .

فارتباطا بما يفعله الطفل (مضمون نشاطه) ، وكيف يعمل (طرق النشاط) ، وتنظيم وشروط هذا النشاط وبما يستدعيه هذا النشاط لدى الطفل من علاقات واتجاهات ، تتكون لديه ميول وقدرات وخصال معينة ، وتدعم معارفه وخبراته .

خلال النشاط الذي يتحقق بالشخصية وبالاشتراك مع الاشخاص الآخرين ، يعرف الطفل ذاته ، يتكون وعيه في النشاط الذي يشترك فيه مع الاطفال الآخرين ، يعرف ذاته في الآخر ، يفهم الآخرين ونفسه ، ويوجه ذاته ويقيم تصرفاته وافعاله ، ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر انه يمكن اعادة اللام عن قوائيم النمو النفسي ودينامياته بدراسة الاشكال المختلفة لنشاط الاطفال في كل الانتقالات النمائية .

اللعب : نشاط ينطوي على اشكال مختلفة : الالعاب الحركية ، الالعاب التعليمية ، الالعاب التمثيلية ، الالعاب التركيبية . ويحتل اللعب بالادوار ، او الالعاب الابداعية ، ان صح هذا التعبير ، مكانة هامة في نمو الاطفال من سن ٢ - ٧ سنوات . ويمثل هذا النمط من اللعب النشاط المسيطر في طفولة ما قبل المدرسة خاصة وفي المرحلة الابتدائية عامة . واللعب بالادوار ينشأ

ويوجد في ارتباط مع الانواع الاخرى من الممارسات الطفولية ، وخاصة مع ملاحظات الحياة المحيطة به والاستماع الى القصص والحكايات والاحاديث مع الكبار .

واللعب في الطفولة وسيط تربوي يعمل بدرجة هائلة على تشكيل الطفل في هذه المرحلة التكوينية الحاسمة من النمو الانساني . ولا يرجع مصدر هذه الاهمية الى أن الطفل يقضى جل وقته في اللعب الذي يستثير اهتمامه والى أنه قليلا ما ينفغمس في النشاط العملي للكبار ، وانما الى أن اللعب يتمخض عن تغيرات كيفية في التكوين النفسي للطفل ، وفيه تكمن اسس النشاط الدراسي الذي سيكون نشاطا مسيطرًا على حياته في سنوات المدرسة .

فلا يمكن أن يتم اشباع نزعة الطفل الى الحياة المشتركة مع الكبار على اساس من العمل المشترك ، ولكن يبدأ الطفل في اشباع هذه الحاجة في سياق اللعب ، حيث لا يمارس الحياة العملية فحسب ، وانما يتسرب ايضا اتجاهات معينة نحو الذات وفي علاقتها بالآخرين ، متخذًا لنفسه ادوار الكبار . لذا يصير الموقع الخاص الذي يحتله الطفل في المجتمع ركيزة لنشأة اللعب بالادوار كشكل متميز من نشاط الطفل يدخل به الى عالم الكبار . في اللعب تتفتح أمام الطفل ابعاد العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل بين الناس ، ويبدأ في أن يتفطن الى أن الاسهام في أى نشاط يتطلب من الشخص الوفاء بالتزامات محددة والتمتع نظير ذلك بحقوق معينة ، وهو ما يعكسه ايضا في نشاط لعبه . ويتعلم الطفل من اللعب الجمعي « الضبط الذاتي » - Self - Control و « التنظيم الذاتي » - Self - regulation ، خضوعا للجماعة وتنسيقا لسلوكه مع الادوار المتبادلة فيها .

واللعب ايضا مدخل اساسي لنمو الطفل عقليا ومعرفيا ، وليس لنموه اجتماعيا وانفعاليا فقط . ففي اللعب يبدأ الطفل في التعرف على الاشياء وفرزها وتصنيفها ، وبالتالي في تعلم مفاهيمها والتعميم بينها على اساس لفظي لغوي . وهنا يلعب نشاط اللعب دورا كبيرا في نمو الكلام لدى الطفل وفي التعبير الرمزي وفي تكوين مهارات الاتصال الكلامي .

واذا كان الطفل يتغير ارتقائيا في اللعب ، فان مضمون اللعب ذاته يخضع لتغيرات كيفية مع تطور العملية النمائية . فالمضمون الاساسي للعب الطفل في العامين الاولين حركات جسمية حسية غير منظمة ، فلا يدرك الطفل مثلا خطورة تناول بعض المواد او الادوات التي تستثير شغفه . وفي حوالى العام الثالث يمارس الطفل بمواد اللعب تلك الاداءات التي يأتياها الكبار مع المواد الحقيقية ، فالطفل مثلا يقوم بمسح المنضدة او تنظيف الارض او الاحذية او تقطيع الخبز او اطعام العروسة ، الخ . فهو يسترجع الاداءات الواقعية ، كما يلاحظها في دنيا الكبار ، في العابه وموادها وادوارها ويمارسها في نشاطه بصورة خيالية ورمزية . وفي الفترة من سن أربع الى سبع سنوات ، يأخذ لعب الطفل في أن يخضع تدريجيا بدرجة كبيرة لاعتبارات الواقع الموضوعي ، فتصير مساييرة القواعد والاجراءات التنظيمية هي المضمون الاساسي لنشاط لعبه ، وبالتالي يبدأ لعب الطفل في أن يصبح بشكل أكثر نظامية وهادفة ، ويأخذ في التخفيف التدريجي من نزعته الى التمرکز حول الذات وفي التوحد المتزايد مع الجماعة ، ومن ثم في تكوين صورة أكثر واقعية عن الذات النامية .

العمل : يحتل العمل في نمو الطفل مكانة بالغة الاهمية . لكن الدور الذى يلعبه هنا في حياة الطفل يختلف عن الدور الذى لعبه في تطور المجتمع الانسانى . فالطفل يشب في عالم جاهز الصنع ، عالم العمل وادواته ونواتجه . وهو يتعلم على ايدى الكبار ، العاملين أنفسهم . وتمثل ادائهم بالنسبة للطفل نموذجا للتقليد ، اما ما يباشره الكبار من اوامر ونواهي وضبط وتوجيه وتفسير ومساعدة فانه يحرر الاطفال من الكثير من المحاولات عديمة الجدوى ويجنبهم الاخطاء الفادحة التى وقعت فيها الاجيال السابقة .

يؤكد تحليل الاشكال المختلفة لنشاط العمل لدى الاطفال ، خصائصه وتغيره في المراحل العمرية المختلفة ، ان العمل ينطوى على امكانات تربوية وتعليمية هائلة في عملية النمو . فنظام الاداءات العملية يمثل مضمون نشاط العمل ، تلك الاداءات التي توجه نحو تحقيق هدف ينشده الطفل . ويحمل هذا الهدف دائما قيمة اجتماعية محددة .

والحاجة الى العمل - احد الحاجات الحياتية المتعاضدة لدى الانسان المعاصر. فنشاط العمل يشبع في الطفل حاجة أصلية الى الممارسات السديدة الفعالة . وبقدر ما يكون نتاج النشاط ملموسا وواقعيا ، يصير في حد ذاته هدفا يسعى اليه الطفل . وتتقوى جاذبية العمل بما يعمل في الطفل من مشاعر السرور المرتبطة بالنشاط المشترك مع الكبار والاطفال الآخرين .

الا ان الاتجاه الناضج نحو العمل والنزعة الى انجاز هدف مفيد اجتماعيا لا يصير على التو دافعا محركا لنشاط العمل لدى الاطفال . فالاطفال الصغار ، بقيامهم بمهام عملية منفردة توكل اليهم ، توجههم اليها في البداية دوافع ضيقة تتسم بالمركزية حول الذات . يعملون لكي يستجلبوا استحسان الوالدين والكبار . وبالتدرج تأخذ دوافع العمل في التغير لدى الاطفال . بالنسبة لطفل الثالثة من العمر تكون عملية العمل ذاتها اكثر اجتذابا واستثارة . واذ يقوم الطفل بالاداءات المطلوبة بالاشتراك مع الكبار وينجز ما هو مطلوب منه ، يشعر بنفسه كشخص « كبير » . فهو باهتمام يضع الملاعق على المائدة ، ويناول بعض الادوات مع الام . ولا يختلف هذا العمل كثيرا عن اللعب ، ولكن دوافعه مختلفة . فكلما تطور نمو الطفل ، تكتسب نتائج العمل أهمية كبيرة ، أى الفائدة التي يمكن أن يجلبها ما يقوم به من مهام عملية واعية .

تأخذ دوافع العمل لدى اطفال السادسة والسابعة والثامنة من العمر في ان تكتسب أكثر وأكثر مغزى اجتماعيا واضحا . الاطفال يشتركون معا في العمل لكي تنهى المدرسة جيدا لاستقبال الآباء في حفل مدرسى . وينغمس الاطفال بهمة ، في تنظيف المدرسة او في مباراة رياضية مثلا ، لكي تفوز مدرستهم بالمكانة الاولى .

ويستمدى الوصول الى نتيجة حقيقية للعمل لدى الطفل شعورا بالترقى الانفعالى . وينشأ هذا الشعور لان الاطفال :

أ - يرون أن قواهم وطاقاتهم لا تذهب هباء .

ب - يبدؤون في معرفة قواهم (« هذا ما يستطيع عمله ») .

ج - يبدأون في الاحساس بلذة العمل الجماعي ، وتأخذ عملية العمل ذاتها في اجتذابهم .
د - يشجعون بتقدير واستحسان الكبار ، ومن شأن الانفعالات الايجابية في عملية العمل ان تؤدي الى نمو حب العمل لدى الاطفال والى الثقة في قواهم .

يقول ابو علم النفس العربى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى :

« لقد شاهدت بنفسى الاشخاص الذين طالعوا واكتفوا بالمطالعة وهضموا ما طالعوه ، شاهدتهم انهم يظنون في عقولهم كالأطفال الى ان يمارسوا الواقع ممارسة فعلية ، فرايتهم ينضجون ويكتمل نموهم ، لا في عملهم فحسب ولكن في شخصياتهم ، ولنا أسوة فيما قاله لنا الاستاذ الغزالى حيث نصحننا بأن نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم » (٦) .

بالعمل تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية المعنوية لدى الاطفال . العمل يؤدي الى نمو وتحسين العمليات النفسية ، وخاصة دقة الادراك والقدرة على الملاحظة وتنظيم الاداءات . ويمثل اتساق حركة العينين والذراعين في العمل (الاتساق الحسى - حركى) وانتظام حركة الاصابع مؤشرا أساسيا على تهيؤ الطفل للعمل المدرسى ، للدراسة ، للكتابة والخط ، للرسم ، لاعمال الورش بالمدرسة وغير ذلك . والاطفال ، بتوجيههم لاداءاتهم نحو انجاز هدف واضح ، يتدربون على الانتباهية ، على التركيز الانتقائي للانتباه الذى يصير اكثر ثباتا وارادية ، اى يكتسب خاصية التوجيه والادارة الواعيين .

ويتطلب العمل من الطفل استخداما متعدد الجوانب لخبرته . فلكى يقوم الاطفال بالعمل عن طيب خاطر ، ينبغى ان يتهيأ لهم فهم مغزى العمل في حياة الناس وأهميته للمجتمع . ينبغى اثراء تصورات الاطفال عن : اين وكيف ولماذا يعمل الناس باختلاف تخصصاتهم ، وان نحكى لهم عن ادوات ووسائل وآلات ومواد العمل التى يعملون بها ، وان نبصرهم بالفائدة الاجتماعية للعمل كما تقوم به جماعات مهنية كاملة (عمال نسيج ، عمال نفط ، مزارعون ، خبازون ، صيادون وغير ذلك من جماعات العمل) ، وأن نوقفهم على مدى السرور الذى قد يبعثه العمل وفيما تكمن صعوبة عمل الطبيب والعامل والمعلم والسائق والمهندس وغير ذلك . واذ نبرز للأطفال تلك العلاقات المتبادلة بين العاملين يحمل نشاط العمل مغزى تربويا تعليميا هائلا بالنسبة للأطفال . فعلى سبيل المثال :

« السائق يقود الاتوبيس ، عمله هام بالنسبة للجميع : وفي الاتوبيس حشد من الناس ، فهذا رجل ذاهب الى عمله وذلك الى الطبيب ، وثالث الى كليته ، هؤلاء ذاهبون لزيارة بعض الاصدقاء ، وآخرون الى المتحف او حديقة الحيوان ، او الى محل لبيع الملابس ، وغيرهم ذاهب الى محطة السكة الحديدية . لكن السائق نفسه يعتمد باستمرار على ما يقوم به الآخرون من أعمال . فهو يرتدى ملابس يدها العمال في مصنع النسيج والترزى يفصلها له . وهذه الملابس مصنوعة من القطن الذى يزرعه الفلاح في الحقل او من الصوف الذى نحصل عليه من

(٦) دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

تربية الاغنام . واذا مرض السائق يتوجه الى الطبيب للعلاج ، والى الصيدلى لشراء الادوية ، اولاده يذهبون الى المدرسة ، حيث يعمل المعلم . فكل انسان يستخدم عمل الآخرين ، ولا يمكن ان يعيش انسان وحده او يعمل لنفسه فحسب » .

وللعمل قيمة كبيرة فى نمو المهارات اليدوية والقدرات العقلية ، فالطفل بتقليده للكبار وبتنفيذه لتعليماتهم ، يستطيع ان يستخدم مايتوفر له من ادوات مثل ادوات المائدة وادوات المدرسة واستخدامها . الا ان الطفل ينبغى ان يتعلم ليس استخدام هذه الادوات استخداما آليا فحسب ، وانما ايضا اتقان بعض المهارات العقلية . فينبغى ان يتعلم كيف ينتقى الادوات والوسائل والمواد الملائمة لعمل وهدف معينين ، ان يتمكن من تحديد أى الاداءات يأتى بها وفى أى تتابع ينبغى تحقيقه .

ويتضمن نشاط العمل أربعة عناصر أساسية :

- ١ - استخدام المعلومات .
- ٢ - الوعى بالهدف .
- ٣ - تدبر اداءات العمل .
- ٤ - مراجعة وتقييم نتائج العمل .
- ٥ - الانجاز العملى للاداءات المطلوبة .

وهذه العناصر اللازمة لتحقيق نشاط العمل تتطلب من الطفل القيام بعمليات عقلية . لذا فان فاعلية الطفل فى العمل (ليس فقط الفاعلية الجسمية ، ولكن أيضا العقلية) تؤدي الى تفتح امكانات نمو التفكير والتخيل لدى الطفل . ولا ينفصل نمو التفكير عن تكوين الميول المعرفية لدى الاطفال .

والعمل ، بجانب ذلك ، مجال لتنمية الارادة لدى الاطفال ، فالطفل يتدبر مواقف العمل ، يخطط لتحقيق الاهداف ، يحاول التغلب على الصعوبات والمعوقات . وفيه تنمو اتجاهات الزمالة والصداقة وتبادل الادوار ، وغير ذلك من معالم النمو الاجتماعى والعاطفى للطفل .

وهكذا ، ينطوى العمل المنظم تربويا على امكانات هائلة للنمو المتعدد الجوانب للطفل ، حركاته واحساساته ، ذاكرته وتخيله ، الملاحظة والانتباه والتفكير ، وفى نشاط العمل تنهيا امكانات كبيرة لنمو الغرضية فى السلوك والمثابرة والارادة والمشاعر الانسانية الراقية والخصال الخلقية السامية ، كالحب والوفاء والمودة والتضحية وغير ذلك . وتستلزم عملية البناء البشرى هذه من المعلم مواءمة تجسيدها فى الممارسات التربوية اليومية . وفيما يلى نعرض للمتطلبات الاساسية اللازمة لتنظيم نشاط العمل لدى الاطفال .

١ - ينبغى ان يتفق العمل ، كأي نشاط ، مع القدرات العقلية والجسمية للاطفال . فعملية النشاط ذاتها تجتذب طفل الثانية والثالثة من العمر ، فلا يتيسر للاطفال الصغار انجاز عمل

وفقا لهدف مقترح ، وحتى هدف قريب . اما طفل الخامسة والسادسة ، فيستطيع ان يرنو الى المستقبل ، فتشده اليه اهداف ودوافع معينة ، وان كانت غير كافية . ويستطيع الاطفال الاكبر سنا ان يذهبوا الى تحقيق اهداف بعيدة اكثر تعقيدا ، يتطلب تحقيقها اسهام مجموعة كاملة من الاطفال وتنظيم للدوار والاداءات المختلفة .

٢ - لكي يؤدي العمل المنظم تربويا الى اشباع الاطفال ، ينبغي ان يتضح امامهم ليس الهدف (أى النتائج النهائي للعمل) فحسب ، ولكن أيضا القيمة الاجتماعية لهذا العمل .

٣ - لكي تتكون لدى الاطفال اتجاهات ايجابية نحو العمل من الضروري ان نفرس فيهم قيمة تقدير كل عمل نافع ، من ذلك مثلا تقدير العمل اليدوى والاعمال الشاقة التي لا غنى عنها لحياة الناس .

٤ - لكي يخبر الطفل شعورا بالرضا من نشاطه في العمل ، ينبغي ان يكون قادرا على العمل ، أى يتقن نظاما من الخبرات والمهارات التي يستطيع استخدامها بنجاح في مواقف متعددة يحقق فيها ذاته .

النشاط الدراسى : كلما تطور نمو الطفل أخذ نشاط آخر - النشاط الدراسى - في احتلال مكانة متزايدة في حياته ويلعب دورا أكبر في نموه .

وترتبط الدراسة ارتباطا وثيقا بالعمل ، لان أى عمل يستلزم دراسة ، فالدراسة تسبق العمل ، ولكن الدراسة ذاتها عمل فريد ونشاط سواء من جانب الطفل او المعلم .

يمثل استيعاب الاطفال لنظام محدد من المعرفة مضمون النشاط الدراسى . وتؤلف هذه المعارف الخبرة المتجمعة من أجيال عديدة عاشت في بلاد العالم المختلفة وفي فترات تاريخية متعددة . ويتلقى كل جيل جديد من الاسلاف معلومات متجمعة في شكل جاهز ، وهو مطالب باستيعاب واقتان هذه المعلومات وطرائق استخدامها ، ذلك هو هدف ودافع النشاط الدراسى .

ويمكن ان نحدد خصائص النشاط الدراسى على النحو التالى :

١ - تنظيم النشاط الدراسى لدى الاطفال مهمة المعلم ، ارتباطا بمتطلبات المجتمع كما تحددها البرامج الدراسية . ويتعين فى البرامج أن تسمى بفاعلية الى توظيف ذلك المحتوى الذي ينبغي تحقيقه فى كل مرحلة من مراحل نموهم ، حيث يتحدد فى البرنامج مستوى وحجم المعلومات والخبرات والمهارات التي على الاطفال اكتسابها .

٢ - يمثل استيعاب الطفل للمعلومات مضمون النشاط الدراسى ، وباستيعاب الاطفال للمعلومات وتطبيقها فى أشكال مختلفة لنشاطهم ، يتقن الاطفال خبرات معينة ومهارات عقلية ، أى يتقنون طرائق مختلفة للاداء .

٣ - الفاعلية العقلية دالة لفاعلية الطفل فى النشاط الدراسى . وبالرغم من ان اداءات الاطفال تعتمد بدرجة كبيرة على اداءاتهم الجسمية (عد أشياء فى متناول يديه ، الكتابة) ، فان هذه

الاشكال من الاداءات تحمل طابعا مساعدا . وكلما تكونت اداءات عقلية ، يخضع معظمها لعملية استدخال ، (٧) ويتحول من مضمون النشاط الى طرائقه . فتعلم كتابة الحروف ، على سبيل المثال ، في بداية العام الاول من الحياة التعليمية النظامية يمثل المضمون الاساسي لدروس اللغة القومية ، في حين يصير في نهاية هذا العام الدراسي وسيطا لانجاز مجموعة من الانشطة والممارسات .

والمعلم يوجه فاعلية التلاميذ للاستماع الى الشرح ، وفهم النصوص المقررة ، واقتان مواد الرياضيات والنحو . ويتطلب النشاط الدراسي المنظم فاعلية في التفكير ، التحليل ، والتعميم ، ومقارنة الجديد بالقديم ، والاستنتاج ، تجسيد القواعد والعمليات المعروفة بطريقة حسية لكي تضمن فهم المادة الدراسية . ويسر هذا ايضا عمل الذاكرة .

ودور الذاكرة في النشاط الدراسي بالغ القيمة . ففي دور الحضانة يعتمد المعلم الى اثناء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عن الحيوانات والنباتات ، عن المدينة وظواهرات الحياة الاجتماعية ، اطفال الرابعة والخامسة من العمر يحفظون الاناشيد والاشعار ، يحكون عن أمهم ، يرسمون وفقا لتصوراتهم ، يسترجعون ما يرونه في الحياة من أشياء وموضوعات : الناس ، التزام ، البقرة ، الشجرة ، بل ويسترجعون احداثا كاملة فيما بعد : شجرة عيد الميلاد ، على شاطئ البحر وغير ذلك . وبالتحاق الاطفال بالمدرسة يستوعبون مجموعة من المفاهيم المتخصصة : النحوية (اصوات ، حروف المبتدأ ، الاسم) الحسابية (المجموع ، ناقص ، يساوي ، الجمع ، الضرب) ، والمفاهيم المتعلقة بالطبيعة والحياة الاجتماعية . وهذه المفاهيم بدورها تؤدي الى مزيد من ترشيد واثراء الحياة العقلية للاطفال .

والنشاط الدراسي المنظم جيدا يشري خيال الاطفال ويصقله ، والمعلم اذ يقدم للاطفال صورا من حياة الناس في الوطن العربي وبلاد العالم المختلفة ، ينمي الخيال الابتكاري لديهم بما يحكيه ويقراه ويقدمه من مادة حية تؤدي الى تكوين صور حية عن حركة التطور والتقدم وتصورها ومستلزماتها .

وفي النشاط الدراسي تأخذ كل العمليات النفسية طابعا اراديا . وبالرغم من انه يتشكل في اللعب التفكير والخيال ، وتتكون الظروف لاثراء الذاكرة ، فان في العمل الدراسي يتم كل النشاط النفسي (نشاط التفكير والذاكرة والادراك والخيال والحركة وغير ذلك) في اطار نشاط انضباطي ملتزم منظم . فالطفل في مرحلة المدرسة لا بد وان يوجه ذاته لكي يدرك المادة الدراسية سواء في الفصل او في المنزل ، وان يركز انتباهه ويشغل تفكيره ويستعيد ذكرياته عن قصد لاستيعاب نص او لحل مسألة أوللتعبير عن انطباعات وتخييلات في لوحة فنية .

فالدراسة ذاتها تصير منذ البداية عملا جادا ، مسئوليا ملتزما . لذا يستلزم النشاط الدراسي من الاطفال فاعلية ارادية ، وتماسكا ، وانضباطا ذاتيا ، الاطفال ينصتون باهتمام

(٧) « الاستدخال » Interiorization يطلق على عملية الانتقال من الاداء الواقعي الخارجي الى

اداء مثالي داخلي ... عملية تحول ما هو خارجي موضوعي الى داخلي ذاتي .

وتركيز لكل ما يشرحه ويعرضه المعلم ، ولما يكلفه بهم من واجبات ومهام عليهم ان يضطلعوا بها كما طلبها منهم . وهم مطالبون باستمرار ان يتحكموا في نزواتهم : ان ينتظروا في صفوف أمام المعلم في الفناء ، ان يتوجهوا لفصولهم في نظام ، الا يحدثوا ضوضاء في فترات الفسحة ، ان تكون احاديثهم مهذبة وعلاقاتهم طيبة كل هذا يتم في اطار من الضبط والتوجيه الذاتيين .

يقول آخر ، في النشاط الدراسي تتكون الانتظامية والاستقلالية والالتزامية كأنماط سلوكية لدى الاطفال ، أي الخصال الارادية .

٤ - النشاط الدراسي ، كشكل من أشكال العمل الجماعي لدى الاطفال ، يفتح أمام المعلم امكانيات هائلة لتكوين سمات الروح الجماعية ، والزمالة والصداقة والتعاون والتواد والمسؤولية المتبادلة بين الاطفال في المدرسة .

٥ - النشاط الدراسي ، كأي نشاط يعيشه الاطفال ، يتغير مع تغير عمر الاطفال . بالتحاق الاطفال بالمدرسة يتغير النشاط الدراسي ليس من حيث المضمون وطرق التنظيم فحسب ، ولكن ايضا من حيث المعنى الذي يحتله في حياة الاطفال . فهو يصير النشاط المسيطر الذي يوجه ليس كل نظام حياة الطفل فحسب ، ولكن ايضا سلوكه ووضعه في الاسرة وموقعه الاجتماعي الحيائي .

بتغير مضمون وأشكال النشاط الدراسي تتغير أشكال المساعدة التي يقدمها المعلم . الاطفال في سن ما قبل المدرسة محتاجون الى تبين كل ادوات وطرائق العمل : كيف يمسكون المعلقة والشوكة والسكين ، كيف يكون قصة من وحي صورة ، كيف يميزون بين الرقم ٢ ، ٦ مثلا . اما الاطفال في سن المدرسة ، فهم بحاجة الى مساعدة من نوع آخر : ينبغي استشارة فاعليتهم العقلية ، تعليمهم كيف ينتقون القواعد والعناصر اللازمة لحل المشكلة ، كيف يراجعون ويصححون وينقدون ما توصلوا اليه من حلول ، كيف يستوعبون أفضل المعلومات الجديدة ، كيف يحصلون على المعرفة بأنفسهم ، وهكذا .

النشاط الحيائي : ينخرط الاطفال في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة في علاقات وممارسات مع غيرهم من الأشخاص ، يقلدونهم ، ويتعلمون منهم ، ويتوحدون مع حالات انفعالية مختلفة ، ويأتون بأنماط سلوكية تحقق لهم توافقا مع الجماعة وتجذب استحسان أعضائها . لذا ينبغي ان نضع في الاعتبار دور النشاط الحيائي في نمو الطفل ، الذي تتكون فيه الظروف الملائمة لتكوين عادات ملائمة : عادات صحية ، عادات الاستخدام الواعي للأشياء الموجودة في البيئة المحيطة ورعاية الصالح العام والممتلكات العامة في الشارع والحدائق والمواصلات ، المعاشرة الحضارية مع الكبار والاقربان والاصغر سنا ، وعادات الاتباع لنظام محدد .

الطفل في مجالات النشاط الحياتية وغيره من أشكال النشاط يتعلم حسن توزيع وقته لما ينبغي ان ينجزه في ممارساته اليومية (النوم ، الدروس ، التجول ، اللعب ، الطعام ، النظافة ..) . ومراعاة هذا النظام يضمن ليس توازنا محددا للحياة الفسيولوجية اللاورجانزم (في وقت

محدد يقبل الطفل على تناول الطعام والنوم، والعمل، والراحة (فحسب، ولكن أيضا تكوين عادات مفيدة (يعد دروسه في وقتها المناسب، النزعة الى النظام والدقة، ومراعاة الوقت وقيمه، الوعي الصحي) . وهذه العادات والممارسات تنطوي على معنى مباشر لتكوين السمات الراقية في الخلف او الطابع، مثل التنظيمية والانضباطية والالتزامية والاستقلالية .

وغرس قواعد السلوك في الاطفال يحمل اهمية كبيرة في توجيه فاعلية الطفل في المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة . وهذه القواعد السلوكية يمكن ان تنضوي في ثلاث مجموعات : « ينبغي » ، « ممنوع » ، « ممكن » ، وبقدرا تقدم هذه المتطلبات الى كل الاطفال في المجموعة او في الفصل المدرسي او في الاسرة، وبقدر ما تقدم بعطف وحزم وحكمة، وبقدر موالاة تنفيذها، تتكون عادات السلوك الحضاري . وتصير القواعد السلوكية المتجسدة في هذه العادات، بالنسبة للطفل، محكا أساسيا لتقييم سلوك الآخرين وسلوكه ذاته .

يلاحظ ان الاطفال كثيرا ما تصدر عنهم شكايات من بعضهم الآخر . وتعني الشكايات اللجوء الى احد الوالدين او الكبار او المعلم طلبا للمساعدة : « هشام اخذ كرسي » ، « زينب أوقعتني على الارض » ، « كريمة لم تجعلني أشتري معها الخضار » ، وغير ذلك من الامثلة . وهناك صورة أخرى من الشكايات ، حينما ينقل الطفل الى المعلم او الوالدين حدثا لم يمسه شخصا : « سميرة كسرت الزهرية » ، « جمال لم يفصل يديه قبل الاكل » ، .. الخ . والطفل بهذه الشكايات ، التي هي من قبيل « الاعلان » ، كما لو كان يعمد الى مراجعة فعالية واهمية تلك القواعد ، وينتظر من المعلم او الوالد تأييدا وتأكيدا على ضرورتها والالتزام بها . ولا شك ان الشكايات تختفي بسرعة مع المعلم الواعي والوالد الحكيم ، وبالتالي يتعلم الاطفال حسن العشرة والسلوك .

لذا ينبغي ان يعرف الاطفال بدقة تامة : ما الذي ينبغي ان يعملونه ، وبأي نظام ، وكيف يعدون دروسهم ، كيف يسلكون حينما يخرجون لرحلة أو نزهة أو حينما يتواجدون في الشارع أو في حديقة أو في محل . ومن الاهمية بمكان مواصلة توجيه وضبط سلوك الاطفال ، وإيقافهم بوعي على ما يصدر منهم : « حسنا كنت منتظما لانك ... » (ويذكر للطفل ما قام به من تصرفات تستحق الاستحسان) ، أو العكس من ذلك حينما يخرج الطفل عن قواعد النظام والسلوك السليم . ومن شأن هذه الموالاة لقواعد السلوك ان تضمن تحقيق نتائج مرغوبة :

- ١ - تتكشف القواعد وتصير بالنسبة للاطفال « علامات واضحة » لسلوكهم .
 - ٢ - يستخدمها المعلم كوسيط لتوجيه سلوك الاطفال .
 - ٣ - تصير المتطلبات محكات لتقييم سلوك الطفل أولا بواسطة المعلم ، ثم تصير اساسا لاتجاهات الطفل نحو تصرفات زملائه ، وفي النهاية نحو أفعاله ذاتها .
- فنظام حياة الطفل في المدرسة ، العمل الدراسي في الفصل ، متطلبات عمل الواجب

المنزلي ، ضرورة مراعاة قواعد النظافة والمظهر الحضاري للأطفال ، العناية بالادوات المدرسية ، احضار ملابس التربية الرياضية في ايام محددة ، وكراسات للرسم او الموسيقى ، وهكذا - كل هذه قواعد تستلزم مواءمة دقيقة ومستمرة في التوجيه والتنفيذ .

ويلعب التقليد والمحاكاة دورا هائلا في المعاشرة الحياتية المعيشية . الطفل يقلد الكبار « بنسخة طبق الاصل » تقريبا ، وخاصة القريين منه : الوالد ، الام ، المعلم . الطفل يسترجع في البداية بطريقة لا ارادية ثم بعد ذلك عن قصد ، نبرة صوت المعلم او الاب ولهجته واسلوبه في التكلم ، كلماته المحببة ، ايماءاته وحركاته المميزة ، مسلكه في المعاملة والاقبال على الآخرين ، وغير ذلك كثير ، ومما يحمل أهمية الخصائص السلوكية المرغوبة ؛ رعاية الفير ، والتوادم ، واحترام المسنين والمقعدين ، والحضارية في التعامل والعمل .

ومما يكون له قيمة تهذيبية عظيمة : اسلوب الحياة (منظم ، هادئ او عاصف ، مضطرب) الذي يعيشه الكبار ، مظهر اللبس الذي يبدون به ، مراعاة النظام في المنزل او في الفصل والمدرسة ، اسلوب التكلم والحديث ، والضحك والدعابة ، التشاؤمية او التفاؤلية ، التصرف بازاء الافراح والاتراح ، وغير ذلك من دقائق الحياة والوجود . فتتلمذ الحياة اليومية للطفل واثرها مضمونها واسلوبها يشكل في الطفل نظاما كاملا من العادات والالتزامات نحو الوسط الذي يعيش فيه .

ومن المعروف ان الجهاز العصبي للطفل مرن للغاية ، في حين ان الوسط المحيط به دائم التغير . لذا تتطلب العادات المتكونة ضبطا وممارسة مستمرتين ، والا تعرضت للانطفاء والتحلل . ومن الامور التربوية ذات الدلالة البالغة في هذا الصدد الاتساق بين اسلوبي المنزل والمدرسة ، وهذا من شأنه ان ييسر ويعمق تكوين نظام من العادات والقيم الراقية الراسخة .



وهكذا ، يكشف تحليل الاشكال الاساسية للنشاط وظروف الحياة اليومية للأطفال ان اى نشاط منظم يتضمن امكانات هائلة للنمو المتوازن ، المتعدد الجوانب للأطفال . ووعى المربي بهذه الامكانات والاستخدام الامثل لها من طريق تنظيم حياة الطفل ونشاطه في الاسرة وفي جماعات الاطفال والمرافق المدرسية يمثل شرطا حاسما لادارة وتوجيه نمو الطفل . وهنا ينبغي ان يكون المعلم ، كما يقرر عالم التربية « ١ . ماكارينكو » ، قبل كل شيء منظما لحياة الاطفال .

بالتعلم ينشط النمو الانساني :

يدخر علم النفس بالعديد من الدراسات التجريبية حول قضية العلاقة بين النمو والتعلم ، والوزن النوعي لكل من التضج والتعلم في النمو ، تلك مشكلة ليست بالسهلة اليسيرة ، خاصة وانها قد درست من زوايا مختلفة ، واستنادا الى طرق عديدة ، كما انها تنطوي على مغزى هائل بالنسبة لقضية تنشيط نمو الاطفال ، والاسراع به . ويمكن تصنيف أهم

الدراسات والطرق التي استخدمتها في تفهم حقيقة العلاقة بين النمو والتعلم على النحو التالي :

١ - دراسات طريقة العزل Method of Isolation

طبقت هذه الطريقة خاصة على الحيوانات، ويستند المبدأ الاساسي لهذه الطريقة على عزل الفرد الصغير عن الاعضاء الاكبر من نفس النوع، لتحديد ما اذا كانت سمات معينة للسلوك مميزة لهذا النوع سوف تظهر بدون ما ان تخبر فرصة للتعلم من جانب الحيوان ، أما الدراسات على الانسان فقد كانت قليلة للغاية بسبب الصعوبات العملية والاعتبارات الانسانية (دينيس ، ١٩٣٧ ؛ ١٩٣٨) .

٢ - الدراسات التي استخدمت طريقة ضبط التوائم المتحدة Method of Co-twin Control

يعتبر (جيزل توسون ، ١٩٣٩ ؛ أول من استخدم هذه الطريقة لدراسة الاهمية النسبية للنضج والتعلم في نمو الطفل . في هذه الطريقة تستخدم التوائم المتحدة كمفحوصين : يعطي احد التوائم تدريبا في تعلم وظائف مختلفة ، بينما لا يلقى التوأم الآخر أي تدريب ، وبعد فترة تقارن نتائج التدريب لتحديد مدى فاعلية التدريب (هيلجارد ، ١٩٣٢ ، ماكجرو ، ١٩٣٩ ، توسون ، ١٩٤٣ . وبالرغم مما تتميز به هذه الطريقة من دقة وضبط علميين ، الا انها مشوبة بصعوبات عملية من حيث تطبيقها وخاصة بعد السنوات الاولى من الطفولة .

٣ - الدراسات التي استخدمت طريقة المجموعات المتزاوجة Matched-Group Method

وفيها يستخدم الباحثون مجموعتين متماثلتين على أساس المزاوجة بينهما في السمات المتعلقة بما : رن دراسته من انماط سلوكية . وهذه الطريقة اشبه بالطريقة السابقة، حيث تدرس الاثر النسبي للنضج والتعلم عن طريق تدريب احدي المجموعتين ، في حين تترك المجموعة الاخرى وشأنها بدون أن تتلقى أي تدريب (جيتس وتيلور ، ١٩٢٩ ، جيرسيلد ، ١٩٣٢ ؛ ويلز وآرثر ، ١٩٣٩) .

٤ - الدراسة التطورية لمجموعات كبيرة ، The Genetic Study of Large Groups

تقوم هذه الطريقة على استخدام مجموعات عديدة من الاطفال كمفحوصين للوقوف على ما اذا كان نموذج النمو يظهر بصرف النظر عن الاختلافات في البيئة . واذا ابدى الاطفال من بيئات مختلفة، والذي تعرضوا لفرص مختلفة من التعلم ، سلوكا يشابه في اساسياته (بالرغم من اختلافه في تفاصيل ضيقة) ، فمن الواضح أن هذا السلوك ليس بمتعلم . وهنا اعتبروا أن السلوك ينبغي أن يعزى الى التفتح الطبيعي للسمات المتوفرة كامكانات كامنة أو الى النضج (تيرمان ، ١٩٢٥ ؛ ١٩٤٧ ؛ شيرلي ، ١٩٣١) .

تؤكد نتائج الدراسات التي عولت على هذه الطرق أهمية التفاعل بين النضج والتعلم في عملية النمو . يعنى النضج Maturation نمو أو تفتح الخصائص الكامنة في الفرد المرتبطة بمعطيات

ورائية .. بتنظيم يعتمد على مؤثرات موجودة في البيئة الداخلية للخلايا ومستقلة عن تأثير البيئة الخارجية والظروف الحياتية . وبذلك « يمكن تعريف النضج - كما يقول جيزل (١٩٥٢) - بأنه مجموع آثار الجينات (الموروثات) التي تعمل في دورة حياتية محدودة ذاتيا . وهنا يكمن مفتاح هام للفردية التكوينية للفرد Constitutional Individuality والنضج يزود الفرد بالاساسيات اللازمة للتعلم ، ولكن بدون ممارسة وتدريب لا يتم النمو من خلال النضج وحده . يشير « دينيس » (١٩٤١) : « النضج في حد ذاته ولداته نادرا ما ينتج مظاهر نمائية جديدة ، ولكن نضج البنى Structures حينما يصاحب بنشاط موجة ذاتية Self-Directed activity يؤدي الى استجابات طفلية جديد » .

وبالنسبة للوظائف النوعية Phylogentic Functions ، او الوظائف العامة في الجنس البشرى مثل الحبو والزحف والجلوس والوقوف ، يكون التدريب ذات فائدة ضئيلة . أما بالنسبة للوظائف المميزة للطفل الفرد Ontogenetic Functions ، مثل السباحة او قيادة الدراجة او السيارة ، والترحلق على الجليد ، يكون التدريب ضروريا ؛ فبدونه لا يتم النمو (ماكجرو ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٠) .

يقول (جيزل ، ١٩٥٢) :

« ليس ثمة ضرورة لان نقيم حدا فاصلا جامدا بين عوامل النضج والبيئة . فالعطاء الجسمي والبيئة الثقافية في تفاعل متبادل .. وهناك دلائل قوية من وجود اساس متين للنمو محكوم بالتكوين المورفولوجي الوراثي الدينامي Inherent dynamic morphology الذي يفرضه خليط من الوراثة المرتبطة بالجنس البشرى وبالعائلة . ولهذا السبب يميل الطفل ذو الاصل المعين في حضارة معينة الى ان ياتي مستويا في مستويات متقدمة من سمات للنضج تميز الجماعة بدرجة اكبر او اقل وتمثل ذاته الكونية constitutional self .

واذا كان النمو متوقفا على كلا النضج والتعليم ، فانه بالتالى يتصف بالتنوع والتغاير ولكن اذا اعتبر النمو متوقفا على النضج وحده ، كما هو الحال لدى الكثير من الانواع الحيوانية ، لن يكون هناك تفرد في النمو . ومن ناحية اخرى ، بالرغم من ان هناك تجانسا وانتظاما للنمو بين الكائنات الحية الانسانية ، هناك ايضا تغاير « غير عادي في النموذج النمائي » (ويشيك ، ١٩٥٠) . فكل طفل - كما يقرر جيزل ١٩٥٢ - نموذج فريد للنمو يعبر عن نفسه ، من حيث التطور النمائي الفردي للطفل ، في خصائصه السلوكية . فالمسار الكلى لهذا التطور محدود بالمحددات الداخلية للنضج » .

وهكذا ، كما يقرر البعض ، يفرض النضج ، الذى يتوقف على المعطيات الوراثية للفرد ، حدودا لا يستطيع النمو ان يتجاوزها . يقول « جيزل » (١٩٤٩) :

« تتوقف كل القابلية للتعلم educability على المقدرات الفطرية للنمو . هذا النمو الداخلى هو هبة الطبيعة ، وهو يمكن ان يوجه ، ولكن لا يمكن ان يخلق : ولا ان يتجاوز بالوسائط التربوية » .

ومن ناحية اخرى ، تتوقف فاعلية التعلم على النضج ، فلا يستطيع الطفل ان يتعلم الا اذا

كان مستعدا للتعلم ، فينبغى ان يتوفر النمو الجسمى والعقلى اللازم قبل ان نسمى لبناء مهارات وقدرات جديدة على هذه الدعامات .

يطلق (بلوم ، ١٩٥٢) على ذلك مصطلح « الاستعداد النمائي »

Developmental Readiness ويحدده على النحو التالى :

« الاستعداد النمائي هو حالة التهيؤ لدى الفرد فيما يتعلق بمجال أو أكثر من التوظيف . ويبدو الاستعداد النمائي ، وهو مرادف للنضوج ، متأثرا أساسا بقوانين أو مبادئ تميل الى أن تكون من جانب الطبيعة أكثر من أن تعتمد على عوامل التربية والرعاية التى يتلقاها الطفل . لذا يمكن اعتبار حالة الاستعداد أو التهيؤ على أنها تحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية التى تدفعه نحو النمو . . والعامل الذى ينبغى أن يوضح بالضرورة فى الاعتبار ، مع ذلك ، هو التوقيت ، مع الاعتراف بأن التعلم سواء فى المجال الدهنى أو الاجتماعى أو الحركى يتحقق على نحو أفضل حينما يكون مانقده للطفل من الناحية التربوية موفوتا بحالة الاستعداد أو النضج لدى الطفل » .

اما (روبرت هافيجهرست ، ١٩٥٣) فيطلق على هذا مصطلح « اللحظة المواتية للتعليم »

Teachable moment

« حينما ينضج الجسم ، ويتطلبه المجتمع ، وتكون الذات مستعدة لانجاز عمل معين ، فان اللحظة المواتية للتعليم تكون قد أتت . لذا تضيق جهود التعليم سدى اذا جاءت فى فترة مبكرة قبل الاوان ، فى حين أنها تأتى بنتائج مجزية حينما تأتى فى اللحظة المواتية للتعليم ، حينما ينبغى ان يتم تعلم مهارة أو اداء معين » .

ووفقا لهذا ، اذا كان للتعليم والتعلم ان يتحققا بفاعلية ينبغى ان يرتبطا بمستويات النضج لدى الطفل . ومع ذلك ، غالبا ما لا يتم ذلك لسببين :

اولا - ان السن الذى يتم فيه نضج الوظائف العقلية والجسمية المختلفة غير محدد كلية . فبسبب التباينات الفردية ، يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل حقيقة ، اقرار أى سن معين نوقن بأنه ينطبق على كل الافراد .

ثانيا : هناك تصورات خاطئة اقترت نموذجا لتربية الطفل وتعليمه . ففى حالة القراءة ، على سبيل المثال ، افترض للاجيال ان كل الاطفال مستعدون لتعلم القراءة حينما يدخلون المدرسة ، فى حين ان بعض الاطفال حقيقة مستعدون لذلك قبل دخولهم المدرسة وآخرين فى غير ما استعداد لذلك بدرجات متفاوتة من الوقت بعد دخولهم المدرسة . وغالبا ما يتجه المربون الى سوء التقدير والاقلال من قدرات الطفل ، ومن ثم يرجئون تعليم المواد « الصعبة » (وكسلر ، ١٩٥٠)

والسؤال : كيف يمكن ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ؟

هناك ثلاث محكات تستخدم بصفة عامة لايضاح حالة الاستعداد عند الطفل :

(١) ميل الطفل الى التعلم .

(٢) كيف سيبقى ميله مستمرا الى فترة طويلة من الوقت .

(٣) أى تقدم يمكن ان يحرزه بالممارسة .

وحيثما يأخذ ميل الطفل الى التلاشى بسرعة او حينما لا يبدى تحسنا ملحوظا ، بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا ان نتساءل ونتشكك فى استعدادة للتعلم .

• • •

تلك ما تواتر من دراسات ونتائج وبيانات تقليدية حول قضية التعلم والنمو ، والعلاقة بين النضج والتعلم فى النمو . لكن ذلك لا يعنى أن الفكر السيكولوجى قد استقر على تلك التصورات النظرية وما وصلت اليه الدراسات فى هذا الصدد من نتائج ، وأنه صار ينهج على دربها بحكم القصور الدائى .

وقضية كهذه ليست بالبساطة التى قد يتصورها البعض ، لان تناولها بالحل يعنى الى أى حد نتيح للناشئة الفرص الملائمة لكى يتحقق لها التفتح الامثل لامكاناتها الكامنة ارتباطا بمنجزات العصر الهائلة ، بالانفجار المعرفى ، بالثورة العلمية التكنولوجية الفريدة ؟ كيف يمكن تنشيط المسار النمائى للطفل ؟ كيف يمكن استثارة امكانات التطور النمائى لدى الناشئة بما يضمن عدم ضياع او الاقلال من طاقاتهم الكامنة الاصلية ويضمن تحقيق كامل انسانياتهم وفرديتهم ؟

ليس بمستغرب اذن ان تحتل هذه القضية مكانة كبيرة فى أعمال ومناقشات المؤتمرات الدولية لعلم النفس ليشترك فيها الثقافات فى الميدان فى العالم أملا فى الوصول الى حلول اكثر رصانة وقبولا .

خصص « المؤتمر الدولى الثامن عشر لعلم النفس » ، الذى نظمه « الاتحاد الدولى لعلم النفس العلمى International Union of Scientific psychology بموسكو فى اغسطس ١٩٦٦ ندوة Symposium بعنوان « التعلم كعامل فى النمو العقلى » Learning as factor in mental development

تكرست لتناول هذه القضية الحاسمة ، تصدرها وادار مناقشاتها ١٢ عالما من بلاد مختلفة (امريكا ، روسيا ، رومانيا ، بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، النرويج ، هولندا ، المانيا الغربية) برئاسة « جيروم برونر » (امريكا) و « مينشينسكايا » (روسيا) (*) ، وبالرغم من أن هناك ندوات اخرى تناولت هذه القضية أيضا ، مثل : ندوة « تكوين المفاهيم والاداء الداخلى Concept Formation and inner action برئاسة « برونر » (امريكا) وجاليرين (روسيا) و « انهيلدر (سويسرا) وندوة الدراسات الطويلة في نمو الاطفال » Longitudinal studies in child development برئاسة « ر. زازو » R. Zazzo (فرنسا) ، وندوة « الدراسات الحضارية المقارنة في النمو العقلى Cross-Cultural Studies in Mental Development. برئاسة « تاجفيل » H. Tajfel (بريطانيا) و « كلينبرج » O. Kleineberg (فرنسا) .

* J.S. Bruner (USA). Learning and development.

— G.S. Kostyuk & N.A. Menchinskaya USSR). Interoductory remarks : „Learning and mental development”

— N.F. Taylsina (USSR). The theory of stage by stage formation of mental actions and the problem of development of thinking.

— R. Ojeman (USA). Guided learning and the concept of experience.

— P. Lenard (Hungary). Developing of production thinking in school-lessons.

— E. Fleszner (Poland). An attempt to develop the ability of abstracting in the courses of teaching.

— A. Roshka (Roumania). Development of flexibility and creativity of thinking.

— G.A. Kohnstamm (Holland). Teaching thought operations and developmental psychology : two different attitudes (with special attention to the position of Jean Piaget).

— J. Smedslund (Norway). Children's experiences and the acquisition of logical structures.

— I. Linhart (Crechoslovakis). Learning and mental development.

— H. Aebli (FRG). Does „Egocentrism” as described by Piaget reflecte a stage of cognitive development or is it „situationally determined”?

— B. Inhelder (Switzerland). Development and learning.

وبالرغم من أن الأعمال المقدمة والمناقشات المحترمة ، باختلاف اتجاهاتها ومدارسها ، قد انطلقت من احساس عام بالمشكلة ، الا انها قد سارت في دروب ومسالك متعددة ، ووصلت بالتالى الى نتائج متباينة . لذا يمكن ان تعدد محاولاتنا لتصنيف الاتجاهات الاساسية التى سادت هذه الندوات ارتباطا بالمحك الذى يمكن ان نأخذه كأساس للتصنيف .

يتحدد المحك الاساسى ، الذى يحمل أهمية أكبر ، بالسؤال التالى : « كيف يمكن تقييم دور التعلم فى النمو ؟ هل يعطى للتعلم الأهمية المسيطرة أم يفترض أنه يستخدم بطريقة تلقائية فحسب (أى بدون ما ارتباط بمؤثرات خارجية ، ولكن فقط بتأثير القوانين الداخلية) ما يظهر من بنى Structures النشاط العقلى ؟ وفقا لهذا المحك ، انقسم علماء النفس الى معسكرين :

أولا : يمثل المعسكر الاول اتجاه مدرسة جنيف (بياجية ، انهيلدر ، وآخرون) . يذهب هذا الاتجاه الى تقييد دور التعلم ، معتبرا ان التعلم « يخضع لقوانين النمو » . يعتبر بياجية (٨) النمو على أنه « تتابع للأشكال المختلفة من السلوك ، وخاصة للانتقال من أشكال معينة للنشاط النفسى الى أشكال أخرى » .

ومن المعروف ان مدرسة بياجية تقر ثلاث مراحل أساسية للنمو العقلى : المرحلة الحسية الحركية Sensory-motor (التفكير الذى يعتمد على الإدراك والاداء بتناول الأشياء) ، مرحلة العمليات العقلية الحسية Concrete operations ، ومرحلة التفكير التجريدى . ويتمثل الشرط الجوهرى لافراد هذه المراحل فى وجود تغيرات كيفية محددة فى عملية النمو ، خلافا للتحسن التدريجى غير المنقطع .

وتتميز المراحل ذاتها ، وفقا لبياجية ، بخصائص محددة :

١ - هذه المراحل ينبغى ان تظهر فى مسار النمو فى نسق دائم غير متغير .

٢ - متغير ، تدخل البنى Structures (أشكال النشاط المعرفى) المميزة للمراحل المبكرة ، فى أشكال النشاط المميزة للمراحل التالية .

٣ - ينبغى ان تؤلف الخصائص الكيفية ، التى تحدد المرحلة الحالية من النمو ، نظاما ثابتا هادفا .

وفى ما يتعلق بالعمر ، الذى تميزه هذه اوتلك من مراحل النمو ، يتخذ بياجية الحيطة ضد الربط المفرط للمرحلة النمائية بالعمر ، ويقرر ان ما توصل اليه من حقائق يقدم فى أحسن

(٨) J. Piaget. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feed-back regulatory mechanisms. Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, 1966.

الحالات تقيما تقريبا لذلك العمر المتوسط Average age الذى يحقق فيه الطفل هذه او تلك من المراحل . وهكذا فان العمر ، الذى تظهر فيه كل مرحلة نمائية ، يمكن ان يتغير بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين التعلم والنمو العقلى ، يقول بياجيه بصدد دراسته السابقة عن تكوين المفاهيم الرياضية : « من الخطا الفادح ان تعتقد ان الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرة فى التعلم . وعلى العكس من ذلك ، ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة ، تلقائية . واذا حاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقة قائمة على اللفظية ، فالفهم الحقيقى يتأتى مع نموه العقلى فحسب » .

وهكذا ، تعتبر المراحل الثلاث السابقة ، وفقا لبياجيه ، مراحل للنمو الفردى للنشاط العقلى ، تعكس الميكانيزمات الداخلية للنمو . وقد تركزت نظرية بياجيه لاثبات الدور المسيطر لهذه الميكانيزمات الداخلية التلقائية غير المرتبطة بالتعلم (٩) . فالتعليم ، كتعلم من الخارج ، يعطى الطفل مضمون ما يستوعبه فقط ، اما طريقة الحل من الخارج - بواسطة المعلم ، او شخص كبير - فلا تنتقل اليه . فالطفل ذاته ينبغى ان يبنى الطريقة ويجدها على أساس تلك الاشكال من النشاط التي يتقنها بالفعل . لذا لا تقوم تجارب بياجيه على تعليم الطفل طرق الاداء ، ولا ينظمونها ، وانما يوفرون الشروط المادية فحسب ، شكل توجيه التعليمات ، وتتابع تقديم المسائل او المشكلات . وهنا ينزعون الى ابعاد الاطفال المشتركين فى التجربة عن اى تعلم يتعلق بما يمثل موضوع البحث .

وقد انعكست وجهة النظر هذه على الدراسة التي قدمتها « انهيلدر » زميلة بياجيه امام المؤتمر المذكور . وهى تؤكد ان « التعلم خاضع لقوانين النمو ، وليس العكس » . وتقرر اعتمادا على بحث اتقان العمليات Operations انه « بالرغم من الايقاع الفردى للنمو لدى كل طفل ، يظل نسق تتابع المراحل والمراحل الفرعية ثابتا ولا يخضع لمغايرات جوهرية » . وفى أكثر من موضع تؤكد هذا الموقف : ... « بأى درجة يرتبط التعلم بمستوى وميكانيزمات النمو ؟ وهل توجد قوانين للتطور ، اشبه ببعض القوانين فى علم الاجنة ، تفسر السرعة النسبية للتعليم ؟ » .

تقرر انهيلدر ، بتوصيفها لنتائج الاجابة على هذا السؤال انطلاقا من بحث طبقت فيه عناصر للتعلم ، ان هذه النتائج يمكن ان تتباين بدرجة هائلة ارتباطا بمستوى الاطفال الذى انطلق منه البحث . لذا استندت الباحثة الى اختبارات خاصة لاقرار هذا « المستوى المنطلق » Initial Level : فى اى مرحلة او مرحلة فرعية يوجد الطفل .

فى هذا البحث تصدت انهيلدر لدراسة : كيف يصل الاطفال الى فهم الحجم والى مفهوم بقاء الحجم ؟ استخدمت فى تجاربها جهازا يتألف من ثلاثة آنية شفافة . فى بعض التجارب كانت

(٩) مزيد من التفصيل فى نقد نظرية بياجيه فى هذا الصدد ، انظر : ل . فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : د . طلعت منصور) ، مكتبة الانجلو العربية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

تستخدم أزواجاً من الأنية متشابهة في الشكل ، وفي تجارب أخرى كانت الأنية مختلفة - الاناء « ب » أوسع من الاناء « ب ١ » ، وفي تجارب غيرها العكس . وبمساعدة صنادير معينة يستطيع الاطفال تنظيم مقدار السائل المناسب من اناء الى آخر .

تنوه انهيلدر ، بصدد تناولها لنتائج التجارب ، الى انه لم يستطع اى طفل ، يقع بالفعل في مستوى ما قبل العمليات Preoperations (اى ما قبل التفكير التجريدى) ، ان يتوصل الى فهم العمليات المنطقية الملائمة لمفهوم البقاء الاولى للكميات الفيزيائية (الوزن ، الحجم وغير ذلك) . لقد كان اطفال هذا المستوى يحكمون على تساوى وعدم تساوى كمية السائل في الأنية على اساس فقط مستوى السائل في الأنية ، ولم يستطيعوا ان يفهموا انه في حالة الاحجام المختلفة للأنية يمكن ان تكون هناك علاقة متبادلة عكسية بين حجم وارتفاع مستوى السائل ، اى لم يتقنوا بعد ما هو عكس العملية (التناول العكسى للاشياء reversibility) .

« لقد كان الموقف مختلفاً تماماً مع الاطفال ، فيه تحدد وضع الانطلاق Initial position لديهم بمستوى وسيط يؤهل الى مستوى العمليات . لقد ظل ٢٣٪ من الاطفال فقط بدون ان يدعوا الى التعلم ، في حين استفاد ٧٧٪ من الاطفال بدرجات مختلفة من تلك التدريبات (بهدف اكتساب مفاهيم بقاء الكميات) التى تلائم بالفعل مستوى العمليات .. »

« الا انه - كما تقرر انهيلدر بعد ذلك - اذا قارنا بدقة التعليل ، الذى اكتسبه الاطفال اناء التعلم ، بالاستدلالات التى جرت خلال العملية التلقائية الطويلة ، نرى ان هذه الاستدلالات العقلية لا تتفق تماماً » . فالاطفال ، الذين خضعوا للتعلم في هذه التجارب ، لم يستطيعوا كلية اتقان العلاقة العكسية للعمليات ، الميزة لمرحلة العمليات الشكلية (التجريدية) . وقد اتضح ذلك في هذه التجارب من ان الاطفال يلقون بعد صعوبات في فهم ما هو أساسى تماماً (الاناء المرتفع والضيق قد يتساوى مع الاناء الواسع والمنخفض) .

وفي ختام دراستها تناول انهيلدر الانتقالات من مرحلة الى مرحلة ، وتكلم عن المبدأ الاساسى في نظرية النمو عند بياجيه - مبدأ تتابع المراحل . فالاطفال ، الذين بدأوا بمستوى ما قبل العمليات لم يستطيعوا كلية تعلم العمليات المنطقية او ان يحققوا مستوى وسيطاً ، اما الاطفال الذين كانوا في المستوى الوسيط ، فقد اقتربوا من مستوى العمليات ، في حين ان الاطفال الذين بدأوا بهذا المستوى أبدوا تقدماً سريعاً في نمو العمليات الشكلية المنطقية .

ثانياً : خلافاً لاتجاه مدرسة جنيف ، يقر أصحاب الاتجاه الثانى (وهم كثيرون) بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ويعتبرون ان التعلم يوسع من امكانات النمو ، وقد يسرع به ، ويؤثر تأثيراً بالغاً ليس فحسب على تتابع المراحل في تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

تقوم هذه البحوث على دراسة النمو في ظروف وشروط ومواقف متغيرة للتعلم . وهنا يعتمد علماء النفس من أصحاب هذا الاتجاه الى تنوع هذه الشروط بهدف استيضاح كيف ان طبيعة النمو العقلي للطفل تتغير في هذه الحالات .

وينتمي اصحاب هذا الاتجاه الى بلاد مختلفة (امريكا ، روسيا بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، النرويج ، هولندا المانيا الغربية وغيرها) . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه يعترفون بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، ولكنهم ينقسمون بدورهم الى مجموعات فرعية ارتباطا يتباين فهم محكات النمو . ويتحدد التباين بين هذه المجموعات الفرعية اساسا بالاجابة على السؤال التالي : ما هو المنحى الذي يختارونه لبحث مشكلة التعلم والنمو ؟

يقيم بعض العلماء بحوثهم في هذا الصدد على اساس اجراء التجارب مع التلاميذ والمادة الدراسية . ويعتمدون الى تغيير محتوى التعلم وطرقه ، بهدف تنشيط التدريس بأساليب مختلفة ، وتعليم الاطفال عادات التفكير وغير ذلك . ويعترفون بأن التعلم بطرق مختلفة يساعد على النمو ويدفعه ، ويقوده ارتباطا بالكيفية التي بني بها التعلم . وحول هذا المنحى ، الذي ينشد رفع زيادة تأثير التعليم على النمو العقلي ، تكرست بحوث ومناقشات عديدة .

يعرض « ج . كوسنيول » لاتجاهات ونتائج بحوث (معهد علم النفس بكييف بأوكرانيا) ويقرر أن الاطفال في سن ما قبل المدرسة يحققون ، في شروط التعلم المبينة بطريقة خاصة ، مسنوبات أعلى بكثير مما هو معروف في تمييز دلائل الاشياء كاللون والشكل والحجم . وسرعان ما ينتقلون من تجميع الاشياء وفقا لاي دليل واحد الى تقسيمها لمجموعات وفقا لعدة دلائل ، من تشكيلها الادراكي Perceptual configuration الى تصنيف قائم على المفاهيم . وفي مواقف التعلم التي تتطلب تنظيما للاشياء وفقا لطولها (أي ترتيبها في سلاسل) نجح الاطفال في سن ما قبل المدرسة في اتقان هذه العملية . واستطاع الاطفال في سن ٥ - ٦ سنوات اكتساب مهارة الانتظام وفقا لكل الدلائل الاساسية لسلسلة من الاشياء ، ومنها الانتظام في نسبية حجم كل عنصر في المجموعة او السلسلة (هذا عنصر أكبر من العنصر السابق وفي نفس الوقت أصغر من العنصر التالي) . ومن الاهمية بمكان ، كما يشير كوسنيوك ، تعميم هذه المهارة ، وإبراز دليل على ذلك انتقالها الى تنظيم العناصر في نماذج مختلفة modalities أخرى (الضوء ، الصوت) ويستطيع الاطفال في سن ٦ - ٧ سنوات اتقان البنية المنطقية للعملية ، أي اتقان عملية ترتيب الاشياء وفقا لمبدأ التزايد والتناقص . وفي شروط أخرى للتعلم يتكون لدى الاطفال في سن ٥ - ٦ سنوات بنجاح مفهوم العدد ، حيث ينجرد الكم عن الدلائل الأخرى للاشياء ، وخاصة عن تشكيلها المكاني . وتأثير تعلم من نوع خاص يتقدم الاطفال بدرجة أسرع في نمو القدرة على تضمين فئات فرعية subclasses للاشياء في فئاتها classes في نمو القدرة على استخدام التعميمات المتكونة لديهم في استنتاجاتهم الاستدلالية عن خصائص الاشياء وعلاقاتها . . . في نمو السعي الى اثبات حقيقة استنتاجاتهم .

اما التجارب التي اجريت على الاطفال في المدرسة الابتدائية ، فقد اثبتت امكانية تحقيق مستويات أعلى بكثير (مما هو معروف) لاستيعاب المعلومات والنمو العقلي (نمو الادراك) ، والملاحظة ، والذاكرة ، والتفكير ، والكلام ، والتخيل) . ففي شروط جديدة للتعلم خضع التفكير لدى الاطفال لتطور نمائي هائل : فالانتقالية من التفكير الحسي الى التجريدي قد تمت بدرجة أسرع ؛ وهم في ذلك قد تكونت لديهم الاداءات العقلية اللازمة لاستيعاب المفاهيم العلمية (المقارنة ، التجريد ، التعميم ، التصنيف وغير ذلك) . ويستطيع الاطفال اتقان المهارات المعممة

في حل المسائل الحسابية (باستخدام رموز من الحروف) ، والامكانية الهائلة على نقلها الى أنماط مختلفة من هذه المسائل .

يقول « كوستيوك » :

« يتحدد التأثير النامي للتعلم المدرسي بمضمونه وطرقه . فالبناء التركيبي للمضمون ، واستخلاص المفاهيم الاساسية فيه ونظمها ومايرتبط بها من عمليات ، يخلق امكانات ملائمة هائلة لاستيعابها الكامل لدى التلاميذ مع المادة الدراسية ، وبماهي خصائص وعلاقات الاشياء التي يعرفونها بواسطة هذه الاداءات (الادراكية ، التذكرية ، التفكيرية ، العملية وغيرها) . . فضل التعلم في نمو التلاميذ يتعاضد ، اذا كان يعلمهم نفس عمليات الاستيعاب .

« فالتعلم - كما يقول كوستيوك - لا يسرع فحسب من انتقالات الاطفال من المستويات الأدنى من بنية النشاط العقلي الى المستويات الأرقى . فهو يمثل شرطا ضروريا لتكوين هذه البنى . وهنا لا تتأني البنى الجديدة ببساطة من الخارج ، ولكنها تتشكل في عملية التعلم من البنى المتكونة في مراحل مبكرة . وتعمل الاشتتارة الخارجية في هذه العملية دائما من خلال الفاعلية الداخلية للتلاميذ » .

وفي دراسة « فليزير » (بولندا) عن « محاولة انماء القدرة على التجريد في سياق التدريس » ، يبين كيف ان التنظيم الانمائي للعملية التعليمية يقوم بتأثير فعال على نمو التفكير التجريدي . في هذه الدراسة استخدم احدى اشكال التجريد : التجريد في عملية استخدام المعلومات ، حينما يتطلب من التلاميذ التعرف على مبدأ معروف لديهم (او قانون ، او تركيب) في ظروف جديدة محددة للمسألة او المشكلة . اجريت هذه التجربة النفسية - التربوية مع تلاميذ صفين دراسيين متناظرين في سن من ١٤ - ١٥/٢ سنة . وقام بتعليم الهندسة معلم واحد في كلا الفصلين ، ولكن في الفصل التجريبي استخدم على نطاق واسع ما يسمى بحل المسائل ببيانات زائدة ، وهو ما لا يستخدم عادة في الممارسات المدرسية . وهنا يكون من الضروري بالنسبة للتلاميذ ، لكي يتمكنوا من حل هذا النوع من المسائل بنجاح ان يتجردوا من العناصر الزائدة غير اللازمة في حل المسألة . وقد ايدت الاربع سلاسل من التجارب (اجريت السلسلة الاولى في بداية التعلم ، وسلسلتان في سياقة ، والرابعة في نهاية العام الدراسي) الفرض الذي تبناه الباحث عن تأثير شكل معين من التعلم على نمو التفكير التجريدي : فقد تفوق الفصل التجريبي وفقا لكل المحكات على الفصل الضابط . وبدت منجزات تلاميذ الفصل التجريبي ومستويات نموهم العقلي - المعرفي اقرب الى مستويات التلاميذ في سن ١٦ - ١٧ سنة . كما اوضحت هذه البحوث انتقال القدرة المتكونة على التجريد (الى مواد قريبة من الهندسة كالحساب وغيره) . ومن ناحية اخرى تؤيد هذه البحوث الفرض الذي يذهب الى أن تحسين القدرة على التجريد تنعكس بايجابية على العمليات العقلية الاخرى وخاصة على عمليات التحليل والتركيب Analysis-Synthesis Operations

وقد توفرت بحوث « اوچيمان » (امريكا) و « كونستام » (هولندا) و « سميدسلوند » (النرويج) و « آيلى » (المانيا الغربية) على تبين تأثير التعلم على النمو . وهنـى بحوث

معملية تناولت أساسا مفاهيم مدرسة جنيف في هذا الصدد . وتذهب هذه البحوث الى ان التمرکز حول الذات *Egocentrism* ، وهو مفهوم أساسى فى نظرية بياجيه ويعنى تقييم الوسط المحيط بالطفل من وجهة نظره الذاتية فحسب ، ليس بمفهوم صحيح ، وينبغى استبداله بمفهوم آخر هو « اللاتمرکزية » *Decenterism* ، ويعنى المقدرة على تبني وجهة نظر الآخرين ، ومن هذا الموقع يأخذ الطفل في تقييم الوسط المحيط به . وفى هذا الصدد تلعب « المؤثرات الاجتماعية دورا هائلا » (سميد سلوند) ويظهر التمرکز حول الذات فى مواقف معينة ، حيث لا يستطيع الطفل ان يستعلم عما يقدم له من مسائل - اى يحدد ما هو غريب عليه - وبالتالي يحدد بدلا من ذلك موقفه ذاتيا . اى حيث تنعدم مواقف المؤثرات الخارجية ، يظهر التمرکز حول الذات ، وهنا « يتحدد التمرکز حول الذات موقفا » (آيلى) .

ويتضح من هذا العرض ان أصحاب المعسكر الاول (معسكر جنيف : بياجيه أساسا) أقرب الى « التشاؤمية » فى النظر الى امكانات التطور النمائي لدى الناشئة ، فى حين ان ممثلى الاتجاه الآخر (وهو الاغلب فى معظم دول العالم) يؤمن ، بالتجربة ، باننا نستطيع ان ندفع هذه الامكانات الى آفاق لا يتوقعها أحد اذا أحسنّا توفير الشروط الملائمة للتعليم والتعلم .

بقول آخر : تمثل « قضية الاسراع بالنمو » الفلسفة التى تدور حولها وتنطلق منها دراسات النمو ، أو ان شئنا « دراسات الانماء » . ومع ذلك ، فلا زالت جد قليلة قياسا الى أهميتها المتعاظمة فى عالم اليوم .

• • •

الخلاصة :

يؤكد التصور العلمى الانسانى فى تناول قضايا علم نفس النمو على ان الوظائف العقلية العليا والخصائص النفسية توجد وتعمل هكذا فى حركة ، فى نمو ، فى صيرورة . واذا كانت لا تبدى بصفة عامة كقدر او كم غير متغير ، واذا كانت لا تتوفر بالتالى كمزايا تعطى « مرة لا تتكرر » وبالتالي « لا تتغير » - فليس ثمة أساس لان نفترض ثباتها ونمطيتها لدى الاطفال فى المراحل التى يختطها مسارهم النمائي .

ومن هنا نرى ان علم نفس النمو ، خاصة فى مجتمعاتنا العربية النامية ، مطالب بأن يتبنى تصورا ومفاهيم وممارسات جديدة تتناول ليس النمو بطبيعته ومبادئه وعوامله ومظاهره فقط ، ولكن بدرجة اكبر - وارتباطا بتطور الفكر السيكولوجى المعاصر ، خاصة فى علم النفس العلمى والانسانى - مقومات استثارة النمو ، تنشيط امكانات النمو ، تحقيق التفتح الامثل والتوظيف الامثل لهذه الامكانات

ومن ثم ، ينبغى ان تنطلق دراسات النمو من « فلسفة انمائية » (*) « انماء الذكاء والقدرات » ، « انماء الانضباط السلوكي » ، « انماء الخلق » ، « انماء الشخصية » ، وهكذا من منجزات العملية النمائية .

(*) يمكن الرجوع فى ذلك الى دراسة للمؤلف يتضمنها الرجوع التالى : د . طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية (دراسات جديدة فى علم النفس - ٢) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

المراجع

أولا : باللغة العربية

- ١ - د . د . فان دالن : مناهج البحث في التربية وعلم النفس . (ترجمة نبيل نوفل ، سليمان الغضرى ، طلعت منصور - تحت اشراف دكتور سيد شمان) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٢ - دكتور فؤاد أبو حطب : القدرات العقلية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
- ٣ - ل.س. فيجوتسكي : التفكير واللغة . (ترجمة : دكتور طلعت منصور) مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٤ - دكتور طلعت منصور : دراسة ارتباطية لتطور نمو فاعلية التذكر لدى الاطفال والراشقين . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٥ - دكتور طلعت منصور : الطفولة بين الحرمان والاشباع الثقافى . المؤتمر الاول لثقافة الطفل ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ .
- ٦ - دكتور طلعت منصور : التربية وتنمية الابتكارية عند الاطفال . ندوة العمل مع الاطفال - جامعة عين شمس ، القاهرة ، مارس ١٩٧٨ .
- ٧ - دكتور طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .
- ٨ - دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى في مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .
- ٩ - دكتور محمد الهادى عفيفى ، دكتور محمد احمد الصنام : الصحة الثقافية « صحيفة التربية ، العدد الرابع مايو ١٩٦١ .
- ١٠ - دكتور محمد عماد الدين اسماعيل ، دكتور نجيب اسكندر ابراهيم ، دكتور رشدى فام منصور : قيمنا الاجتماعية واثرها في تكوين الشخصية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثانيا - باللغة الافرنجية :

- 11— Anderson, J.R. Dynamics of development; System in process. In D.B. Harris (Ed.), The concept of development. Minneapolis, Univ. Minnesota Press, 1957.
- 12— Berelson, B. & Steiner. Human behavior : An inventory of scientific findings. New York, New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1964.
- 13— Blum L.H. Pediatric practice and the science of child development Nerv. Child, 1952, 9, 233-241.
- 14— Bossard, J.H. & Carter, W.T. The sociology of child development. New York, Harper & Bros., 1960.

- 15— Bribram, K.H. Neocortical functions in behavior. In H.F. Harlow & C. W. Woolsey (Eds.), **Biological bases of behavior**. Univ. Wisconsin Press, 1958.
- 16— Dennis, W. A biography of baby-biographies. **Child Developm.**, 1937, 7, 71-73.
- 17— Dennis, W. & Dennis, M.G. Infant development under conditions of restricted practice and a minimum of social stimulation : a preliminary report. **J. Genet. Psychol.**, 1938, 53, 49-157.
- 18— Dennis, W. Infant development under conditions of restricted practice and minimum social stimulation. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1941, 23, 143-189.
- 19— Erikson, E.H. Growth and crises of the healthy personality. In Hung-Min Chiang & A. Maslow Eds), **The healthy personality**, New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.
- 20— Gates, G.S.& Taylor, G.A. An experimental study of the nature of improvement resulting from practice in a motor function. **J. Educ. Psychol.**, 1962, 27, 226-236.
- 21— Gesell, A. & Thompson. Learning and growth in identical twins : an experimental study by the method of cotwin control. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1929, 6, 1-123.
- 22— Gesell, A. Growth potentials of the human infant. **Sci. Mon.**, N.Y., 1949, 68, 252-256.
- 23— Gessel, A. Developmental pediatrics. **Nerv. Child.**, 1952, 9, 252-57.
- 24— Havinghurst, R.J. **Human development and education**. New York, Longmans, 1953.
- 25— Hebb, D.O. **The organization of behavior**. New York, Wiley, 1949.
- 26— Hilgard, J.R. Learning and maturation in preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 1932, 41, 36-56.
- 27— Horney, K. **The neurotic personality of our time**. New York, 1939.
- 28— Jensen, A.R. Individual differences in concept learning, Ch. 9 in H.J. Klausmeier & C.W. Harris(Eds.), **Analyses of concept learning** New York and London: Academic Press, 1966.
- 29— Jensen, A.R. Varieties of individual differences in learning, Ch. G. in **Learning and individual differences** (Ed. R.M. Gané). Columbia, Ohio : Merrill, 1967.
- 30— Jersild, A.T. Training and growth in the development of children. **Child Developm. Monogr**, 1932, 10, 1-73.
- 31— Kluckhohn, C. **Mirror for man**. New York, Mc Graw-Hill, 1949.

- 32— Luria, A.R. **Higher cortical functions in man.** New York, Basic Books, 1966.
- 33— Luria, A.R. **Human brain and psychological processes.** New York, Harper & Row, 1966.
- 34— Mc Graw, M.S. **Growth : a study of Johnny and Timmy.** New York : Appleton Cent. Grofts., 1935.
- 35— Mc Graw, M. B. Later development of children specially trained during infancy. **Child Deve- lopm.**, 1939, 10, 1-19.
- 36— Mc Graw, M.B. Neural maturation as exemplified in achievement of bladder control. **J. Pediat.** 1940, 16, 580-590.
- 37— Mead, M. **Sex and temperament in three primitive societies.** New York, Morrow, 1935.
- 38— Parker, S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.
- 39— Piaget, J. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feedback regulatory mechanisms. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology, Moscow, 1966.**
- 40— Shirely, M.M. **The first two years.** Mineapolis : Univ. Minnesota Press, 1931, vol. 1.
- 41— Szasz, T. **The myth of mental illness.** N.Y., Harper & Row Pub., 1961.
- 42— Terman, L.M. **Genetic studies of genius,** Stanford : Stanford Univ. Press, 1925, 1926, 1930, 3 vols.
- 43— Terman, L.M. & Oden, M.H. **The gifted child grows up.** Stanford, 1947.
- 44— Thompson, H. The modifiability of play behavior with special reference to attentional character- istics. **J. Genet. Psychol.**, 1943, 62, 62, 165-188.
- 45— Wechsler, D. Intellectual development and Psychological maturity. **Child Developm.** 1950, 21, 45-50.
- 46— Wells, J. & Arthur, G. Effect of foster-home placement on the intelligence ratings of children of feeble-minded parents. **Ment. Hyg. N.V.**, 1939, 23, 277-285.
- 47— Wishik, S.M. The importance of „timing” in child health supervision. **Child Developm.**, 1950, 21, 51-60.
- 48— White, R.W. Adult growth and emotional maturity. In Hung-Min Chiang & A. Maslow (Eds.), **The Healthy Personality,** New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

جان جاك روسو والعقد الاجتماعي

محمود أبوزيد

مقدمة :

وبين اللحظات الاولى لمولده عام ١٧١٢ وتلك اللحظات الاخيرة التي جاد فيها بأنفابه ، امتدت حياة روسو ليضيف بفكره وبشعوره الثوري الفياض ما اثرى الفكر الاوروبي عامة ، وربما بشكل قل أن يكون له مثيل حتى من بين الشوامخ الذين أنجبهم القرن الثامن عشر من امثال فولتير Voltaire ومونتسكيو Montesquieu ودالمبير D'Alembert

قرنان من الزمان مرا حتى اليوم على وفاة جان جاك روسو J. - J. Rousseau ، وان شئت الدقة فقد مات الفيلسوف الفرنسي العظيم في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ (*). وكان موته بعد أيام من الذكرى السادسة والستين لمولده ، وقبل سنوات قليلة فحسب من الثورة الفرنسية التي اعتبر ملهمها .

كتب هذا المقال في يوليو/ ١٩٧٨ - التحرير .

ضمنها نظريته في العقد ، ثم نتلمس **ثالثا** بعض مظاهر الاتفاق أو الاختلاف بينه وبين صاحبيه هوبز ولوك ، وذلك تمهيدا لكي نتمكن **رابعا** من رؤية مدى أصالة فكر روسو بما قد يتيح لنا تقديم فكرة تقويما شاملا ، تبين من خلالها جدارة هذا الفكر الفيلسوف بالشهرة الفائقة التي تمتع بها واستمرت قرنين من الزمان بعد وفاته .



هناك قاعدة أساسية يتفق عليها الجميع مؤداها أن أعمال المفكرين وليست حياتهم الشخصية هي ما يوجه الانتباه اليهم ويجعلهم أحياء في عقول الناس حتى بعد مرور قرون عديدة على وفاتهم . ومع ذلك فإن جان جاك روسو يعتبر في رأي الكثيرين استثناء ملحوظا لهذه القاعدة ، حيث نجد ما يشبه الإجماع على أن شخصيته تمثل منعطفًا من أخطر المنعطفات التي ولجتها العقلية الغربية وارتبط بذلك طابع الحياة المثيرة التي عاشها هذا المفكر الفيلسوف ، وجعلت منه إنسانا مضطرب الروح زائد الحساسية ، وهما صفتان انعكستا بوضوح في كتاباته ، لدرجة أننا نجده أحيانا متحاملا قاسيا على المجتمع بكل ما فيه من تقاليد على ما يظهر في « رسالة عن منشأ عدم المساواة بين الناس Discourse on the Origin of Inequality وأحيانا أخرى مجدا لشأن المجتمع ومعلما لمكانة الجماعة على ما نجد في كتابه « العقد الاجتماعي » على وجه التحديد .

ومع أنه يسهل ملاحظة ذلك في أماكن كثيرة من كتاباته ، إلا أن الطابع المميز لشخصية روسو يظهر كأوضح ما يكون فيما سجله هو نفسه في « الاعترافات » بالدات ، خاصة وهو يصف الكيفية التي جاء بها إلى الوجود ، فيقول « كنت ثمرة عودة أمي إلى أبي بعد

وجعلوا منه - حقا - ما يعرف بعصر **العقل** أو عصر التنوير كما يقولون . ويكفي روسو أنه قدر له أن يكون ثالث أشهر ثلاثة مفكرين ارتبطت أسمائهم بنظرية العقد الاجتماعي Social Contract ، ونعني بهؤلاء توماس هوبز Hobbes وجون لوك Locke في إنجلترا ، ثم مفكرنا الفيلسوف في فرنسا . فنتيجة لكفائاتهم سادت نظرية العقد الاجتماعي التفكير السياسي في القرن الثامن عشر ، ونجحت في أن تؤثر تأثيرا بالغا في كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، بل وفي أن يكون لها دور مباشر لا في تطوير النظم الديمقراطية بهذه الدول فحسب ، ولكن أيضا فيما تفجر من ثورات غيرت كثيرا من وجه الأحداث .. بعدما انزلوا بفلسفاتهم السلطة من السماء إلى الأرض ، وأحلوا العلاقات المدنية محل العلاقات الطبيعية ، فاتاحوا بذلك للفرد مكانة ممتازة في عملية تطور المجتمع ، باعتبار أن **الفرد هو الوحدة التي ينبني عليها العقد** . وفي ذلك كله كان روسو بصفة خاصة أبرز دعاة هذه النظرية وأوسعهم صيتا وأبعدهم أثرا في تاريخ الفكر السياسي (١) بما أثارته كتاباته من مظاهر المساندة والتأييد وكذلك موجات الانتقاد والتجريح .. والواقع أنه بين هذه المساندة القوية من ناحية ، والانتقاد العنيف من ناحية ثانية تبدو وعظمة روسو كمفكر تتميز أفكاره بجدة وطرافة أصيلتين .

وعموما فإنه لكي نفهم فلسفة جان جاك روسو فهما شاملا ، فيجب أن نلقى بالضوء أولا على ظروف النشأة والتكوين وما كان لهذه الظروف من تأثيرات تدخلت في تحديد أفكاره وآرائه ، ثم نحاول ثانيا أن نتعرف على أصول فلسفته السياسية والاجتماعية وانعكاسات ذلك في مواقفه وتصوراتهِ التي

أكثر من وظيفة فشل فيها جميعها . وحتى عندما تعرف في عام ١٧٥٤ على الفتاة التي اقترن اسمه بها الى أن فرق بينهما الموت وهي تيريز ليفاسير ، وانجبت له عدة أبناء كان يودعهم الواحد بعد الآخر في ملجأ اللقطاء متدرما في ذلك بمختلف الاسباب والمعاذير .

ومن الناحية الثانية كان لهذه الصورة وجهها الآخر مثل الرومانتيكية تماما . فما أن أخذ روسو يشرع قلمه ، حتى بدأت كتاباته تلفت الانظار ، وأخذ يحتل موضع القمة بين عمالقة المفكرين والفلاسفة الذين ساندوا الاعتقاد في الديمقراطية الحديثة ، وآمنوا بقدراتها اللامحدودة في تنمية الافراد وتطويرهم . والواقع ان ذلك ايضا قد عكس احد المفارقات الغريبة التي تمتلىء بها حياته . فالى جانب ايمانه الراسخ بطبيعة الطبيعة البشرية وتقائها فقد كان يؤمن كذلك بمساوئ المجتمع الانساني وشروبه ، ومن هنا فقد كان عليه ان يقدم انتقادا عنيفا للنظم السياسية والاجتماعية ، ذلك على اعتبار ان هذه النظم هي التي انجرفت بالبشرية ومنعت الناس من ان يعيشوا كما أرادت لهم الطبيعة . (٤) ومن ثم فلم يكن غريبا أن يتبلور كل هذا فيقدم لنا مؤلف « اميل Emile » و « هيلويز الجديدة La Nouvelle Heloise » كتابه الفد « العقد الاجتماعي » الذي توج به دفاعه المجيد عن حقوق الانسان ونضاله المتصل ضد الديكتاتورية لا في قلب فرنسا وحدها ولكن في كل مكان في العالم . . . فانهم

انفصال فرق بينهما وقتا . . . وبعد عشرة أشهر ولدت أنا . . . ضعيفا . . . مريضا . . . وكلفت أمي حياتها . أما مولدى فقد كان أول خطوات حظي العاثر الشقى » . (٢) . ثم بعد ذلك وهو يحاول تحديد الغرض من كتابته لهذه الاعترافات فيقول « وهدفى هنا هو أن أقدم الى الناس انسانا يعيش كل طبيعته بصدق وهذا الانسان هو أنا . . . أنا وليس احدا آخر غيرى . حقا اننى أعرف الكثيرين من الناس ، ولكنى لم أخلق مثل أى منهم لدرجة أننى أكاد اعتقد أنه لا يوجد انسان آخر يشبهني . . . وإذا لم أكن أفضلهم فأنا على الأقل أختلف عنهم » (٣) .

ولو شئنا ان نستخلص بعض الخصائص من تحليل هذه السطور لكان أبرزها في رأيي خاصيتين رئيسيتين هما اللتان تميزان حياة روسو الى حد بعيد . فمن الواضح - وهذا من ناحية - ان روسو كان رومانتيكيا مغرقا في الرومانتيكية كما كان حساسا بالغ الحساسية . والواقع ان حياته الخاصة ذاتها كانت مرآة صادقة لهذه الروح بكل ما يعتلج فيها من غموض ومتناقضات واضطراب . ويؤكد ذلك ان يده امتدت الى السرقة ومع ذلك لم يتورع ان يلقي بالتهمة على فتاة بائسة ، وهجر صديقا له كان يعانى شدة المرض لا لشيء الا انه شعر بثقل عبء من رعايته وتمريضه ، كما عاش فترات من حياته على كدح من كن يقعن في حبه من النساء ، وعمل في

Rousseau, J. J., ; *Euvres Complète*, 13 Vols. Hachatte, 1911.

(٢)

Les Confessions, Vol. III. p.1.

Ibid, p. 5.

(٣)

Lillie, W; *Introduction to Ethics*, Methuen & Co., Ltd., London, 1948. pp. 57-58.

(٤)

(٥) نشر « العقد الاجتماعي » في عام ١٧٦٢ تحت عنوان طويل هو :

Du Contract Social ou Principes du Droit Politique

وهو يتضمن : كتب اساسية هالج روسو في اولها الميثاق الجماعي وفي الثاني حقوق السيادة وحدودها ، اما الكتاب الثالث فقد عرض فيه للحكومة واشكالها المختلفة بينما خصص الكتاب الرابع لمعالجة بعض الجوانب الهامة في الحكومة . ويعد كتاب « العقد الاجتماعي » اهم اثره السياسية كما يتميز من دون آثاره كلها بأسلوبه الفلسفى الجرد .

بسبب أفكاره ووجهته إليه أبشع التهم ، وبدأت حكومة فرنسا وحكومة جينيف-تضطهده وتطاردانه من مدينة الى أخرى ، كما أحرقت كتبه ومؤلفاته ، فلجأ الى إنجلترا في عام ١٧٦٦ حيث نزل لفترة ضيفا على صديقه دافيد هيوم ليركه بعد نزاع نشب بينهما ، ولم يسمح له بالعودة الى وطنه فرنسا الا في أخريات أيامه حيث مات عجوزا محطما في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ كما قلنا .

ومن الطريف حقا ان تشير وفاة روسو الكثير من الروايات والاقاصيص التي تمتلىء بالظن وبالشكوك . فما ان ذاع خبر وفاته حتى قيل انه مات منتحرا برصاص مسدسه ، كما ردد البعض انه قتل بيد احدى عشيقاته . وعلى الرغم من ان الكشف على جثته بعد ذلك في عام ١٨٦٧ قد أثبت عدم صحة ذلك ورجح انه مات نتيجة تسمم في الدم نتج عن مرضه المزمن بالمرارة ، فقد شاء قدره ان ينسج في مفارقة أخرى لا تقل غرابة عن المفارقات التي اتسمت بها حياته ، فقد أصدرت حكومة La Convention قرارها في عام ١٨٩٤ بنقل رفاته من جزيرة الحور التي كان قد دفن فيها الى البانثيون حيث رقدت هناك رقدتها الأخيرة ... الى جانب فولتير عدوه اللدود .

ولسنا نريد في الوقت الحالي ان نبحث في مدى الاتساق أو عدم الاتساق الذي تعكسه هذه الظروف في حياة روسو . ولكن من المهم على أي الأحوال ان نشير الى ان هناك من العوامل ما يمكن ان يعتبر مسئولا عن طبيعة الحياة التي عاشها وبالتالي تشكيل فكره وآرائه . ولعل اول هذه العوامل ان جان جاك روسو لم يتلق في حياته تعليما نظاميا ، لان طبيعة تكوينه الذهني والنفسي لم تمكنه من احتمال ما يفرضه هذا النوع من التعليم من قيود . وتؤكد الكتابات الكثيرة التي ألفت عن حياة روسو ان ثقافته كانت مزيجاً غريبا من القراءات والمطالعات التي كان أبوه

بضعها في طريقة ويدفعه اليها . فقد قرأ روسو وهو لم يزل في السادسة بلوتارك والكثير من القصص وكتب الادب والروايات . وفي الفترة ما بين عامي ١٧٣٨ - ١٧٤٠ نجده يلتهم بنهم زائد كل ما يقع تحت يديه من أعمال الأدباء والفلاسفة والمفكرين ، فقرأ لايروبير وموتانس وبوسويه ولوك وفولتير ، وقد تأثر بصفة خاصة بهذين الأخيرين ، الامر الذي ظل لاصقا به في كل فترات حياته الفكرية . وعلى الرغم من ان معرفته بالقدماء كانت ضئيلة نسبيا ولا تتجاوز بعض كتابات تاسيت وسينكا وبعض آراء أفلاطون وأرسطو ، فان المؤكد ان معرفته الوثيقة بعد ذلك لكوندياك وماريفو وديدرو قد ساعدته كثيرا في بلورة فكره وتكوينه كمفكر اجتماعي وسياسي ، وكفيلسوف طبقت شهرته الافاق . وان كان من المهم مع ذلك الاعتراف بأن شخصيته الذاتية كانت موجودة دائما وتفرض نفسها بشكل واضح ايا كانت ضخامة وقوة المصادر التي التقى بها واثرت في تفكيره .

لم يكن من قبيل المصادفة ان يسمى روسو كتابه الضخم في السياسة «العقد الاجتماعي» ، فقد كان من الطبيعي ان يتحرك فكره في الاتجاه العام للتطورات التي سيطرت على الفكر السياسي آنذاك ، والتي اعتبرت العلاقة بين الافراد الاحرار هي الاساس الوحيد السليم للتنظيم السياسي .

وعلى الرغم من ان القول بالعقد كان قد عكس من قبل عبقرية هوبز ، وارتبط ايضا بنظرية لوك ، على اعتبار ان العقد كان محور فلسفتيهما ، الا انه من الصعب ان تتصور تماما كيف أمكن لعقل روسو ان ينتهي بفلسفته الى نتائج اختلفت تماما عما انتهى اليه هذان ، خاصة جون لوك الذي قلنا ان روسو قد تأثر بكتابات لوك الى حد ملحوظ ، مع ان نقطة البدء كانت متماثلة عند الفيلسوفين . . . ومنع أننا لسنا هنا في معرض المقارنة - تفصيلا بين

تخضع لها كل ماعداها . وهو وضع كان خليقا على أي الاحوال بأن يدفع لوك الى الاصرار على ضرورة موافقة الرعايا وقبولهم .

وقبل أن تمضي قدما في متابعة تحليل مسألة القبول هذه التي شغلت فكر لوك ، فمن المهم أن نتضح في الذهن تماما النظرة العامة التي عالج لوك المسألة كلها من خلالها . فالقبول كان يمثل بالنسبة اليه أساس الدولة ، بل وما يجعلها شرعية وأخلاقية وعادلة .

وما من شك في أن أحدا لا يستطيع أن يختلف في ذلك . ولكن المتمعن في موقف لوك (٦) سوف يلحظ على الفور أن تحليله للمسألة لم يكن كافيا تماما . ونتيجة لذلك فهو لم يستطع أن يرى شيئين بذاتهما ، هما أولا عدم كفاية القبول طالما أن أفعال السيادة لا تكتسب شرعيتها الا اذا كان هذا القبول تاما وشاملا ودائما . وثانيا أن نسبة كبيرة من الديمقراطيات في مقدورها بالفعل أن تمارس شتى أنواع الضغوط ضد الاقليات تماما مثلما بقدر شخص واحد أن يمارس هذه الضغوط ضد شعب بأكمله . وبمعنى آخر فإن ما نريد أن نقوله هو أن لوك قد فشل في ادراك تلك الحقيقة البسيطة وهي أن الاتفاق أو القبول قد يمثل في الدولة الديمقراطية مشكلة أساسية مثلما هو الحال في أكبر الدول اتصافا بالديكتاتورية وأشدّها ممارسة للقهر والطفيان .

والواقع أن روسو نجح في ادراك هذه المشكلة بوضوح . ومن هنا فقد كانت محاولة حلها شغله الشاغل في العقد الاجتماعي . ولكن اذا كان بمقدورنا أن نقول من الآن أن هذه المحاولة لم تكن ناجحة تماما ، فإنها لمفارقة عجيبية ان تنطوي كذلك على نظرة استطاع غيره من المفكرين الذين جاءوا بعده أن يلدهبوا

الاثنين ، فمن الجدير بالذكر أن فلسفة كل منهما كانت انعكاسا في آخر الأمر لطبيعة كل منهما وتكوينه العقلي ، خاصة من حيث ان فلسفة روسو كانت تفتقر الى الوضوح الذي ميز كتابات لوك ، بالإضافة الى أنها كانت مبهمة الى حد بعيد وملبئة بالفموض والمتناقضات . والواقع أنه اذا كان لنا أن نقول بوجه عام ان « المقالة الثانية في الحكومة المدنية » كانت انعكاسا لبساطة حياة لوك وتقدميته ، فإنه بالقياس نفسه يمكن القول ان « العقد الاجتماعي » كان انعكاسا لاتجاهات روسو واهتماماته المعقدة . ويرجع هذا الى أن عقلية لوك كانت أكثر وضوحا ومنطقا من عقلية روسو ، بل وأيضا لأن روسو حاول أن يقطع في بضعة مسائل شائكة تضمنتها فلسفة لوك دون أن يدرك هو نفسه ذلك بوضوح كاف . وفي مقدمة هذه المسائل مسألة القبول على فيها من تشابك زائد وتعقيدات .

ان المسألة الاساسية التي شغلت اذهان الفلاسفة السياسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتمثل في تأكيد سلطة الحاكم وسيادته ، وهي المسألة التي ظهرت بدرجة واحدة عند كل من هوبز وبودان . ومع أن هذه المسألة - أقصد السلطة السيادية أو ذات السيادة - كانت قد استقرت تماما الى جانب دعمها وتقويتها واطلاقها بما يعنى القضاء على كل مظهر من مظاهر الحرية الفردية ومراقبة المحكوم للحاكم وكل مظهر من مظاهر مسئولية الحاكم أمام المحكومين ، الا أن جون لوك وغيره من الفلاسفة كانوا قد بدأوا يدركون حقيقة أن الخطر لايزال ماثلا ، ولم يكن هذا بسبب أن السيادة لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، وانما لأن الحكام كانوا - على العكس من ذلك - أقوياء بما لا يقاس ، وينظر اليهم على أنهم ذاتية منفصلة مميزة

ومع هذا فمن الانصاف لروسو أن نعترف بأن ثمة تغيرا حقيقيا قد حدث على يديه في مسألة القبول هذه ، ذلك أنه كان يشعر دائما بضرورة تقويم الحل الذي ساقه لوك للمسألة ، حتى وإن كان الأمر قد تأدى به الى تصور « الإرادة العامة » الذي قاده بدوره الى تصور العلاقة بين الافراد بطريقة اوضحت مذهبا في الحياة يناقض مباشرة تلك النزعة الفردية التي طالما ميزت كتاباته الاولى .

واذا كان من السهل على قارئ روسو أن يلمس في كتبه ، باستثناء كتب العقد الاجتماعي ، تعلقه الشديد بالطبيعة ورغبته الجامعة في التخلص من قيود المجتمع ، فإنه سوف يلحظ على الفور أيضا ، أن العقد الاجتماعي ذاته ، يؤدي الى جماعة مطلقة يثن فيها الفرد تحت نير سيادتها ، لأنه يحاول في ذلك الكتاب أن يشيد مجتمعا متماسكا تسود الجماعة فيه وتعلو على الفرد . وبذلك نجد أن روسو الذي طالما أكد عدم شرعية الجماعة وكذب دعواها الدائمة في مطالبة الفرد بالتضحية من أجلها ، هو نفسه الذي ينتهي في « العقد » الى مجتمع حبكت أطرافه وتمكنت سيادته ، ويروج لبدأ ان الافراد يدينون للجماعة ، وذلك الى حد أن يقول بأنه ما من حق للافراد الا حقها (٧) .

• • •

إذا اعتبرنا العبارة الشهيرة التي قدم بها جان جاك روسو كتابه « العقد الاجتماعي » لقد ولد الانسان حرا ولكنه مكبل بالاغلال في كل مكان . . كيف حدث ذلك ؟ لست أدري ! « وضح لنا مدى التغير الذي طرأ على معنى هذه العبارة التي تضمنتها الطبعة الاولى من

بها الى موقف يختلف كلية عن الاساس الذي التقينا به سواء عنده هو نفسه أو عند لوك . ونعني بذلك أن تكون فكرة القبول هذه وسيلة للانتقال الى تصور الدولة الشمولية كما سيتضح لنا فيما بعد . وهو تصور لم يكن روسو يعتقد بحال في امكان الوصول اليه أو حتى تخريجه من موقفه .

على أن هذه النظرة حتى الى المدى الذي قطعه روسو تشير الى حدوث تحول راديكالي يبعد عن التصور الذي بدأ منه لوك . ولو أمعن المرء النظر في هذا التحول لتمكن من تفسير الاختلاف الذي يلمسه قارئ روسو بين بعض كتاباته المبكرة مثل رسالته في نشأة عدم المساواة ، وبين العقد الاجتماعي وهو الاختلاف الذي ركز عليه الكثيرون ممن كتبوا عن روسو لدرجة أنهم أكدوا وجوده كذلك بين الطبعة الاولى « للعقد الاجتماعي » والطبعات المتأخرة ، حيث اتفقت تلك الطبعة ومعها مقالاته على وصف حالة الطبيعة بأنها ظرف خيالي ، فتجاوزت بذلك تفاعلية لوك ، وخاصة عندما أكدت الصورة المثالية التي رسمها روسو للطبيعة البشرية وهو ينظر الى الانسان الاجتماعي على أنه ملاك هابط .

وأيا ما كانت وجهات النظر التي سبقت لتبرير هذا التحول ودوافعه ، فإن من الواضح أن روسو في تلك الفترة المتأخرة من حياته العقلية لم يكن مجرد المصلح الاجتماعي الذي يرفع صوته ضد مساوئ المجتمع الذي يعيش فيه وينادي بالتخلص من قيوده والعودة الى الطبيعة ، ولكنه ذلك المفكر الناضج الذي يكرس نفسه لمهمة تبرير الدولة ومنظمتها المختلفة . وإن كان هذا لا يمنع من القول أن نجاحه لم يكن تاما أو كاملا لأنه ظل مرتبطا بموقفه الاصلى الذي كان كثيرا ما يكتفى فيه بوصف أي موقف عملي بأنه سيء وشرير .

(٧) يمكن الوقوف على تفاصيل أكثر لمنهج روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » في العديد من الكتب والدراسات .

ارجع بمصلة خاصة الى :

Felix Ponteil ; La Pensee Politique Depuis Montésquieu, Sirey, Paris. 1960.

وعلى الرغم من أن ذلك كله يبدو صحيحا في جملته ، فإنه يثير مع ذلك تساؤلا عن الكيفية التي تم بها هذا التحول في موقفه .

إن الشيء الغريب أن روسو ، على الرغم من أنه قد تساءل في جملته الافتتاحية عن كيفية حدوث ذلك التحول من مرحلة الحرية إلى الحالة التي وصفها بأن الإنسان أصبح فيها مكبلا بالانحلال ، إلا أنه تجاهل الإجابة على ذلك ، وحاول أن يجيب على تساؤل آخر بصدد الأسباب التي دفعت إلى حدوث التحول وبالتالي مدى شرعيته . ونراه يقول في ذلك « أن الأقوى لا تصل قوته أبدا إلى الدرجة التي يصبح بها سيدا على الدوام إلا إذا تحولت هذه القوة إلى حق Right تصبح الطاعة معها واجبا Duty . ولكن من الناحية الثانية ، حيث أنه لم تعد للإنسان ما سلطة حقيقية على غيره . . . ومادامت القوة لا ترتب حقا ما . . . فإنه لا يتبقى غير الاتفاقات

Conventions

أساسا لكل سلطة مشروعة Legitimate Authority بين الناس . . . ومنذ البدء فقد سعى الناس إلى شكل من أشكال التجمع يحمي شخص ومتاع كل عضو فيه ويدافع عنه بقوته المشتركة ويتحد فيه كل واحد بالكل فلا يطيع إلا نفسه . . . ومن ثم يبقى حرا مثلما كان من قبل . . . (٨) .

هكذا يقرر روسو أن العقد قد حقق كل هذا . ولكنه لا يكتفى بذلك وإنما يعود فيقرر ثانية أن كل فرد في هذا التجمع قد نزل عن شخصيته وحقوقه للجماعة ، وكان ذلك هو السبيل لإيجاد تلك الهيئة المعنوية والجماعية التي يعتبر الشعب أعضائها مجتمعين ، ولكنهم مواطنون ومساهمون في السلطة العامة إذا ما كانوا متفرقين .

العقد الاجتماعي ليصبح معناها متسقا مع موقفه العام الذي تبناه متأخرا .

إن أول ما يطرا على الذهن هو أن كلمات روسو في الطبعة الأولى لم تكن تحمل من المعاني أكثر من أن الإنسان يجب أن يكون حرا فهذه أفضل صور المعيشة بالنسبة إليه . وذلك في الواقع تعبير صريح عن الاتجاه العقلي الذي أطلق عليه **البداية الرومانتيكية أو الحنين إلى حياة الطبيعة** وبساطة العيش الأولى التي كانت سائدة في العصر الذهبي Golden Age والتي فصلتنا عنها الحياة المعقدة التي أصبحنا نحياها في العصر الحديث .

على أننا إذا أردنا أن نقرب بين هذا المعنى وبين وجهة النظر التي قلنا أن روسو قد اعتنقها في الطبقات المتأخرة من العقد الاجتماعي ، فسوف يظهر أن القول بأن الإنسان قد ولد حرا ولكنه مكبل بالآغلال في كل مكان يبدو وكأنه بمثابة تأكيد لمعنيين ، أو بالأصح حقيقتين اثنتين هما :

أولا : أن الإنسان يجب أن يكون حرا ومستقلا .

ثانيا : أن الإنسان نادرا ما يكون هكذا في الحياة الواقعية ،

وإذا اعتبرنا ذلك فينبغي أن ندرك أن الحرية التي يتحدث عنها روسو قد أصبحت شيئا أكثر من مجرد الفراغ أو السلوك الفردي المتحرر من كل قيد ، ذلك لأن ما يبدو من قول روسو ، أنه يهدف إلى نوع من المشاركة في حياة أكثر انساها يسهم فيها جميع الأعضاء بقيامهم بوظائفهم في توافق وانسجام يحفظ استمرارها ودوامها .

ومن الواضح أن ذلك يمثل خروجاً على روحه الفردي يكاد يذهب إلى حد التناقض .

القديم للانسان وعلاقاته بالآخرين ودون أن يغير ذلك شيئا من حقيقة أن المحاولة الجديدة قد تطلبت ، مثلها مثل الموقف السابق تماما ، تقديم التبرير الشرعى لممارسة القوة والسلطان . أن القوة في رأى روسو « هى القوة الطبيعية وما الاستسلام لها سوى نوع من الخضوع .. أو أمر من أمور الضرورة لا الإرادة الذى يستحيل أن تكون نتائجه اخلاقية .. فبأى معنى من المعانى اذن يمكن أن يصير هذا واجبا أخلاقيا ؟ » (٩)

ولا شك فى أن روسو هنا كان أمام واحدة من أكثر متناقضاته الفكرية غرابة . وليس لهذا التناقض الا تعليل واحد هو أن المشكلة لم تكن صيانة الحرية الفردية على ما كان يظهر فى كتاباته الاولى ، بقدر ما أصبحت خيانة الحرية الاجتماعية . أضف الى ذلك ضرورة الاعتراف بالتنظيم الاجتماعى وبالسلطة القائمة . وإذا كان تاريخ الفكر السياسى قد حفل بأسماء الكثيرين ممن عارضوا شرعية ممارسة السلطة دون سند من الاتفاق ، ونذكر هنا جروثيوس على سبيل المثال الذى أكد أن الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة القائمة عليهم وقصد بذلك واقعة العبودية Slavery بالذات ، فذلك بالضبط هو مالم يقبله روسو ورفضه رفضا قاطعا ، ذلك لان التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية ، وهذا أمر لا يتمشى مع طبيعة الانسان باعتبار أن كلمة حق وكلمة عبودية متناقضتان ، وكل منهما مانعة للآخرى .

وبصرف النظر عماثيره هذه القضية من جدل ونقاش فإن الذى يعيننا هو روح المنطق الذى قاد روسو فى بحثه عن تفسير آخر للسلطة يتفق ووجهة نظره فى الاتفاق العام .

ولو أمعنا النظر فى الموقف لوجدنا أن هناك ناحيتين يربط روسو بينهما ربطا موضوعيا :

والملاحظة التى ينبغى أن نلتفت اليها هنا قبل أن نستطرد فى توضيح متضمنات موقف روسو ، هى أن تصويره لفرد حر يشارك فى الإرادة العامة على ما عكست جملته الافتتاحية يبدو أمرا متناقضا تناقضا صريحا والقول بالعقد على ما يظهر فى كتاباته المتأخرة . ذلك أن العقد يقوم هنا - مثلما عند لوك - على أساس وجهة نظر فى الطبيعة البشرية اعتبرت الانسان مستقلا وتلقائيا تماما . وقد يكون صحيحا أن العقد يمثل هدفا مطلوبا فى ذاته باعتبار أنه يجمع الناس معا بدلا من أن يعيشوا كوحيدات مستقلة متفرقة ، ولكن الصعوبة هنا هى فى مقارنة تصور الطبيعة البشرية الذى ارتبطت به فكرة روسو فى الإرادة العامة ، بالزعم القائل بأن الناس كانوا فى الاصل مستقلين بعضهم عن بعض . وحتى اذا نحن رجعنا الى مفكر مثل أرسطو لوجدنا أن النظرية العضوية قد تضمنت اعترافا صريحا بأن الناس قد تعاونوا دائما ، وأنهم قد اعتمدوا بعضهم على البعض ، لأنهم كانوا ينشدون بالاجماع وسيلة تتكامل بها شخصياتهم .

لقد قلنا من قبل أن روسو كان متأثرا تأثرا ملحوظا بجون لوك . ولكن الذى يبدو لنا هنا هو أن اصطلاح الإرادة العامة يظهر معارضا لعقد لوك . وصحيح أن هناك خصائص ذاتية مميزة لهذا التصور الجديد الذى يسوقه روسو وللتصور القديم للعقد عند لوك ، وأن كلا من التصورين قد أكد على ضرورة التبرير الاخلاقى لوجود الدولة وشرعية ممارستها للقهر والالزام كما حاول كل منهما بالتالى إبراز هذا التبرير حتى انتهى الامر بلوك الى تقرير أهمية قبول الافراد وموافقتهم الحرة الكاملة . ولكن الصحيح أيضا هو أن كافة الصعوبات التى انطوت المسألة عليها ، قد دفعت بروسو الى أن يطور مفهوم الإرادة العامة فى خط مغاير مما يترتب عليه حدوث تحول فى التصور

يتعلق بحالته ، سوف يطالب أيضا بأن يصبح حكما في كل الحالات ، ومن ثم تستمر حالة الطبيعة ويصبح الاتحاد اما عديم الجدوى أو مؤديا الى الطغيان .. وعلى الفور فانه بدلا من الشخصية الخاصة المتفردة لكل طرف متعاقد .. ينتج من هذه العملية الاتحادية هيئة ، أو كيان معنوي وجماعي قوامه عدد من الاعضاء بقدر ما في المجتمع من أصوات. (١١)

العلاقة اذن ، التي رأى روسو وجوب قيامها بين الناس ، ليست مجرد تحالف لا يتغير حال انضمام المرء اليه أو تحالف دائم السلطة والنفوذ باعتبار انه لا يتغير ، ولكنها على الأرجح علاقة مشاركة دائمة تتصف بالحرية وبالتلقائية والمبادرة ، كما انها تتطلع باستمرار تجاه شيء نموذجي يصبح بمثابة الخير الحقيقي للمجتمع كله . ويقدم روسو تأكيدا لهذا المعنى في أكثر من مكان فهو يقول « ان التحول من مرحلة الطبيعة الى المرحلة التميدنية يخلق تغيرا ملحوظا ومميزا في الانسان ، انه يحل في تصرفاته حكم العدالة (العقل) بدلا من حكم الغريزة .. كما يكسب افعاله شخصية اخلاقية كانت تفتقر اليها بمعنى ان الشهوات تفسح الطريق لأول مرة امام الحق ، كما يفسح الدافع الطبيعي البحث الطريق الى صوت الواجب ... اما الانسان الذي لم يكن يرى من قبل سوى مصلحته الشخصية ، فسوف يجد من الضروري أن يستشير العقل وفق مبادئ جديدة ، وقد كان من قبل لا يستمع إلا لصوت نزعاته ورغباته ... واذا نحن وضعنا هذه الكلمات في صيغة أبسط نسبيا استطعنا ان نقول ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعي هي حريته الطبيعية وحقه المطلق في الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه ... أما ما يكسبه من العقد الاجتماعي

الاولى انه لا يعترف بالسلطة النابعة من القسر والارهاب . والثانية انه اعتبر القبول امرا ضروريا لتبرير السلطة وممارستها لوظائفها .

ومع ذلك فينبغي ان نذكر ان هذا القبول كان له معنى خاصا بالنسبة اليه ، فهو ليس امرا مطلقا يرجع الى القبول الاصلي ، ولكنه بالاحرى قبول يتضمنه الارادة العامة التي تعبر عنه باستمرار . ولعل ذلك هو ما قصد اليه عندما أكد « انه مادام اى انسان ليس له سلطة طبيعية على اى انسان آخر .. وما دامت القوة لا ترتب حقاً ما .. فانه لا ينبغي غير القبول او الاتفاق العام أساسا لكل سلطة مشروعة تقوم بين الناس (١٠) .

وهكذا فاننا نجد انفسنا وجها لوجه امام النظام الاخلاقي الذي يقول به ، فما هي اذن خصائص هذا النظام وما هي مقوماته الاساسية ؟ الواقع ان روسو نفسه قد عبر عن ذلك تعبيرا صريحا فقال « اننا لو فهمنا عبارات العقد فهما سليما لوجدنا انها تشير الى شيء واحد هو التحالف الشامل للمجتمع بأسره .. ان هذا التحالف يستتبعه في المحل الاول ان تصبح الظروف واحدة بالنسبة الى الكل حيث ان كل فرد قد وهب نفسه كلية ... ثم انه لما كانت الظروف متساوية ، فلن تكون هناك مصلحة لاي فرد في أن يغيرها بالنسبة الى الآخرين ... بل ان هذا التحالف أو الاتحاد لما كان قد تم بدون اكراه أو ضغط ، فهو أقرب الى الكمال ، وبالتالي فلن يكون هناك مطالب أو امتيازات خاصة لاية جماعة دون اخرى ، لانه اذا بقيت مثل هذه المطالب او الامتيازات كانت النتيجة أن كل فرد وقد أصبح في هذه الحالة الحكم الوحيد فيما

Ibid, I. I. (24)

Ibid, I. 6 (33-34)

(١٠)

(١١)

(وانظر في ذلك ايضا مقال الدكتور يحيى الجمل « الحرية في المذاهب السياسية المختلفة » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الرابع - يناير فبراير - مارس ، ١٩٧١ ، ص ١٤٥ وما بعدها .

فهى حريته المدنية وحقه فى ملكية كل ما يملك
وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه
بالمعنى الحقيقى ... » (١٢)

• • •

هذه النقطة الأخيرة تساعد الى حد كبير فى
توضيح بعض الخصائص الاساسية التى تميز
تفكير جان جاك روسو . **وأول هذه الخصائص**
هى أن روسو يميز تمييزا واضحا بين الحرية
الطبيعية التى تتعين حدودها بواسطة الافراد
انفسهم وبين الحرية المدنية التى تحددها الارادة
العامة . فالحرية الطبيعية التى يفقدها
الانسان ليست سوى حرية زائفة بل هى اسم
آخر للعبودية ، ذلك أن خضوع الانسان
لنواذره وشهواته لا يعدو أن يكون ضربا من
العبودية . بينما الحرية الحقيقية هى التى
تقوم فى طاعة القانون الذى نصنعه بانفسنا
ونشارك فى تقريره .

أما الخاصية الثانية فتتمثل فى التميز بين
الملكية باعتبارها نتيجة للسيطرة والقوة
وباعتبارها نتيجة للحق ومرتبة عليه . ومع
أن القضية هنا لا تزال تحمل طابع جون
لوك بشكل ملموس حتى فى الاسلوب التسي
صيفت فيه (١٣) ، فليس من السهل أن ننكر
أن روسو قد تبني وجهة نظر مختلفة
اختلافا عميقا عما نجده عند لوك .

فالواضح أن القضية تشوبها النغمة النفعية
وفى ذلك يبدو روسو متأثرا بلوك من حيث أن
كلا منهما قد مال الى إبراز المزايا والفوائد
التي تنتج عن العقد ولكن الواضح أيضا - أن
روسو قد عاد فحاول انكار ذلك كله ، أو
على الأقل التخفيف من وطأته . ويظهر ذلك
عندما ركز على وصف العقد الاجتماعى بأنه

مشاركة فى الارادة العامة التى وصفها بأنها
تتجه دائما الى الخير الاجتماعى . وعلى هذا
النحو فهو يجعل الانسان كائنا ذكيا يتصرف
فى ضوء من الدراسة والتخطيط على العكس
من الحيوان الذى يندفع اندفاعا اعمى
ولا تقوده سوى شهواته ونزعاته . أو بتعبير
آخر ، يمكن القول بأن العقد الاجتماعى عند
روسو هو بالذات ما يجعل الانسان نوعا من
المخلوقات التى تأخذ فى اعتبارها لانفعها
الخاص فحسب ولكن نفع الآخرين كذلك .
بل انه لا يجعل الانسان مخلوقا عاقلا فحسب
ولكن مخلوقا اخلاقيا بالدرجة الاولى . وهذه
نقطة يختلف فيها روسو عن لوك اختلافا واضحا
من حيث أن الأخير قد اعتبر الانسان اخلاقيا
بالعقل حتى قبل أن يوجد العقد كأساس
للدولة . وربما كان ذلك هو السبب الذى
جعله ينشئ العقد الذى لا يقدم له سوى
الحماية والضمان لبعض الاشياء كالملكية
الخاصة على سبيل المثال .

**ولعل العامل الحاسم فى هذه الاختلافات
جميعها هو تلك الفائدة التى يحققها العقد
للانسان باعتبار أنه يتيح الفرصة له لأن يظهر
شخصيته ويطورها .**

ومع أن هذا الموقف يبدو أقرب الى هوبز
منه الى لوك ، إلا أنه يتضمن بدوره اختلافا
جوهريا : فعلى حين كانت نظرة روسو الى
الطبيعة البشرية كما اتضحت فى العقد الاجتماعى
تتصور انسان ما قبل العقد كحيوان يستخدم
قوته لى يحافظ على حياته ، فإن العقد
باعتباره مشاركة فى الارادة العامة هو ما يقظ
طبيعة الانسان بشكل عميق وحوله الى كائن
أخلاقي يعرف قانونا آخر غير قانون الغاب .
فكان الانسان اذن ، اذ يمثل للقانون

Ibid, I, 8 (36-37) II, 4 (46)

(١٢)

(١٣) راجع كتاب « الحكومة المدنية » لجون لوك ، الترجمة العربية . سلسلة « اخترنا لك » ، العدد ٨١ وبخاصة
الفصل الخامس الذى يتناول قضية الملكية .

كونه مفيد اذ لا يستهدف شيئاً سوى النفع العام .

والواقع اننا نلتقى هنا بكافة الخصائص التى يقررها روسو للسيادة . ولعل فى مقدمة هذه الخصائص ان السيادة مطلقة وغير محدودة . ومع ان هذا الوصف للسيادة يجعل روسو يقترب كثيراً من هوبز الا ان هناك فارقاً جوهرياً يقوم بينهما . فمن الواضح ان السلطة عند روسو لا تقوم على عقد سيكولوجي او تاريخي مثلما الحال بالنسبة الى هوبز ، ولكن على القبول العام بمعنى روح الاتفاق الحر المرهون برضا الافراد عن ممارسة القوة من كل الجماعة التى يعتبر العضو جزءاً فيها . اما فيما يتعلق بالبرر الذى يسوقه لمنح الحاكم مثل هذه السلطة المطلقة فهو ان الشعب قد سبق وعبر عن قبوله لها ورضائه عنها .

ولكن لما كانت السيادة مطلقة وبلا حدود، فيلزم ايضا ان تكون كلية وشاملة . وقد صاغ روسو هذا المبدأ ، أو هذه الخاصية الثانية بوضوح اذ يقول « ولما كانت السيادة هي ممارسة لارادة العامة فلا يمكن من ثم الا ان تكون شاملة ... ومن الناحية الاخرى فانه لما كانت السيادة كائناً جمعياً كذلك ، فيتحتّم الا تمثل الا بذاتها فحسب ... ان السلطة يمكن تحويلها transfer او نقلها ولكن الارادة ليست كذلك ... ولأجل السبب نفسه الذى اعتبرت السيادة شاملة فانه يستحيل تجزئتها ايضا ... ان الارادة اما ان تكون عامة او ان تكون غير عامة ، بمعنى اما ان تكون ارادة الشعب بأكمله او ارادة جزء منه ... وفى الحالة الاولى تصبح الارادة التى يعبر عنها من قبل السيادة قانوناً، أما فى الحالة الثانية فلا تعدو

يظل مستقلاً ومتمتعاً بذاتيته وبحريته لان القانون هو فى النهاية من صنع الافراد المتعاقدين أنفسهم ، ومن ثم تكفل لهم نصيبهم فى السلطة والسيادة . زد على ذلك انه لما كانت الارادة العامة تتمتع بالقدرة الصائبة دائماً ، فيكون ذلك ضماناً لتحقيق المساواة الشرعية أمام القانون وبصرف النظر عن عدم التكافؤ الطبيعى بين الناس فى القوة او المقدرة أو الذكاء ، وكله مما يمثل عند روسو خطوة واسعة الى الامام فى طريق التطور البشرى ارتقى بها الانسان من حالة الفطرة الى الحالة المدنية وكان العقد الاجتماعى هو وسيلتها الوحيدة .

اذا كان ذلك هو ما انتهى اليه روسو فيما يتعلق بتصور الارادة العامة ، فينبغى ان نرى الكيفية التى استخدم بها هذا التصور لكى يتم بناء نظريته السياسية .

ولعل القضية الحاسمة التى تساعد على ذلك هى ما انطوت عليه كلماته التى تقول بأن الارادة العامة هى الاسمى « فكل فعل تقوم به السيادة ... أى كل فعل للارادة العامة انما يرتبط بالتساوى بمصلحة المواطنين ويهدف اليه . » (١٤) فما هو اذن فعل السيادة بالضبط ؟

لقد لخص روسو فى « العقد الاجتماعى » تعريفه للسيادة فذكر انها ممارسة الارادة العامة او افعال ارادة المجموع . ووصف هذه الافعال بأنها ليست اتفاقاً بين الاسمى والادنى، ولكنها بالاحرى ارتباط بين الجسم ككل وبين كل عضو من أعضائه . كما قرر أيضاً ان هذا الارتباط هو ارتباط عادل لانه يقوم على العقد ومن ثم فلا يمكن تجنبه او التهرب منه ، لان الكل يعترف به ويرضى عنه بالاضافة الى

ان تكون ارادة متخصصة ، او في عمل من اعمال الحكم او وسيلة من وسائل تطبيق الاوامر التي يصدرها الشعب صاحب الحق في صنع القوانين » (١٥) .

ويقود ذلك بشكل طبيعي الى الخاصية الثالثة التي تتمتع بها السيادة . فعند روسو ان الحاكم هو اصل القانون ومصدره بمعنى ان القانون لا يكون صحيحا الا اذا صدر عن الارادة العامة اي منيحا من الشعب ومنصبا في الوقت نفسه على الصالح العام .

وفي وسع المرء ان يلمح هنا تفرقة أساسية . فالقرارات التي تأتي عن غير هذا الطريق مثل تلك التي قد تصدرها هيئة ما او مصلحة او ما الى ذلك من المؤسسات والتنظيمات لا تمثل قانونا او عملا من اعمال السيادة ، وانما هي عمل او وسيلة فحسب من وسائل الحكم والادارة . كما انها في أعلى حالاتها لا تعدو ان تكون اعلانا او قرارا من القرارات . وهذه مسألة تعكس المدى الذي تقترب به افكار روسو فيما يتعلق بالقانون من الافكار الحديثة الخاصة بالقانون الدستوري الذي ينظم طرائق اداء الادارة لوظائفها .

على ان هذه النظرة للسيادة باعتبارها مقدسة ولا تقبل التصرف يترتب عليها أمر خطير . فاتساقا مع هذه الخصائص التي

عرضناها يبدو روسو منطقيا مع نفسه عندما اعتقد ان السيادة لا بد وان تكون مثالية وواقعية في آن واحد معا . فاذا اضعنا الى ذلك اعتقاده الراسخ ان « القانون لا يصدر الا عن ارادة مجموع الشعب اي الارادة العامة ، وانه ميز في ذلك بين هذه الارادة وارادة المجتمع من حيث انهما لا تتطابقان ابدا ، فيكون من الطبيعي اذن ان ينتهي الى الموقف الذي انتهى اليه وهو تفصيله للديمقراطية المباشرة التي اعتبرها افضل اشكال الحكم قاطبة (١٦) .

وتتضح لنا هنا في تفكير روسو حقيقة أساسية . فهذا التمجيد للديمقراطية المباشرة يدل في نظرنا على أمر له دلالة وهو ان روسو كان يضرر سوء ظن بالفا بالنظام النيابي . وصحيح انه كان يشك كثيرا في وجود الديمقراطية المباشرة او حتى في امكان وجودها بالمرّة ، ولكن الصحيح أيضا انه لم يحاول ابدا ان يخفي عدم رضائه على النظام النيابي الذي كان يعتبره دليلا على الفساد السياسي وابعده ما يكون عن الكمال الديمقراطي ، وذلك لدرجة ان اعتبره سلبا تاما للديمقراطية . (١٧) ففي اعتقاده ان المجلس النيابي الذي يعين أعضاؤه بالانتخاب فينظر لهم على أنهم ممثلين للأمة صاحبة السيادة لا يمثل صاحب السيادة في شيء . لانه نزولا على الخاصية الثالثة بان السيادة لا يجوز التصرف فيها ، فان نواب الشعب لا يستطيعون أن يكونوا ممثلين يحق له ، لانهم ليسوا اكثر من نواب فحسب .

Ibid, II, I. (49) and II, 2 (40-41)

(١٥)

(١٦) يصنف الكتاب عادة الديمقراطية في نوعين : الاول الديمقراطية المباشرة او المحضة ، والثاني الديمقراطية النيابية او التمثيلية . ولكن الديمقراطية المباشرة نظاما للحكم يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه عن طريق الاجتماع في جمعيات عمومية او اجتماع عام مثلما كان الحال في المدن الافريقية . ولا يتحقق هذا النظام الا في الجماعات السياسية الصغيرة باعتبار ان تحقيقه امر مستحيل في الدولة الحديثة المترامية الاطراف . اما الديمقراطية النيابية او التمثيلية كما يطلق عليها عادة فهي النظام السياسي الذي تصاغ فيه ارادة الدولة ويعبر عنها بواسطة وكالة هيئة صغيرة نسبيا من الاشخاص المنتخبين ليكونوا ممثلين للشعب . (انظر في ذلك

Ford, J. H ; Representative Government, 1934. p. 3.

وانظر ايضا : محمده بدوى . فلسفتنا السياسية الثورية . منشاة المعارف . ١٩٦٤ . صفحة ١٢٤ وما بعدها .

G, Peter ; The Dilemma of Democratic Socialism, E. Bernstein's Challenge (١٧) to Marx, Columbia University Press N. Y. 1954. P. 247.

كونها وكيلًا بين الشعب باعتباره صاحب السيادة ، وبين الشعب باعتباره موضوعاً أو رعية . أى أنها أداة اتصال أو هي العضو الذى يعبر به الشعب صاحب السيادة عن ارادته ويصنع بواسطته التغيرات التى يريدها فى العالم الخارجى أو بتعبير روسو نفسه هي جسم أو وكيل لتأمين الاتصالات الحيوية الدائمة .. انها المسئولة عن تنفيذ القوانين وتأمين الحرية السياسية والمدنية .. وهكذا فان الحكومة أو الادارة العليا ، كما اود أن اعبر عنها ، هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية ، سواء تحمل مسئوليتها الحاكم نفسه أو نائبة ، فرداً كان أو جماعة .. (٢٠) وهو تحديد ساعده على أى الاحوال فى تصنيف أشكال الحكومة كما رآها. وفى رأيه ان الحكومات أيا كان تنوع أشكالها فيمكن ادراجها تحت ثلاثة أنواع : هي أولاً حكومة يضطلع فيها الشعب أو الغالبية العظمى من الشعب بأعباء الحكم ، بمعنى أن يصبح المواطنون أو غالبيتهم حكاماً يتولون المناصب والوظائف العامة التى تقوم الحكومة بها وهي ما اطلق عليه الحكومة الديمقراطية. وثانياً الحكومة الارستقراطية حيث تكون شئون الحكم فى أيدي عدد قليل من المواطنين الذين يصلون الى السلطة عن طريق الانتخاب أو طريق التمييز اما فى الثروة أو النفوذ أو المولد . وثالثاً فقد تتركز الحكومة - أو عملية الحكم بمعنى أدق - فى يد حاكم واحد يعتبر الامر الناهى والمرجع الوحيد فى توزيع كل السلطات والمسئوليات على الآخرين وهذه هي الحكومة الملكية .

ومع ذلك فينبغي أن نشير الى أن روسو لم يتردد فى توكيد أن الفيصل الأخير فى شرعية

وليس من شك فى أنه يرجع لروسو جانب كبير من الفضل فى انتباه كثير من الفلاسفة والمفكرين الى هذه الناحية . فعلى الرغم من أن الحياة الدستورية قد أصبحت اليوم تقليداً عميق الجذور ، فلم يمنع ذلك - حقاً - بعض المفكرين من أمثال لاسكى Laski وولاس Wallace وج. د. ه. كول G. D. H. Cole وغيرهم من أن يظهروا عدم ثقتهم بالاساس الذى تنبنى عليه الديمقراطية النيابية (١٨) باعتبار أن هذا الاساس يشوبه الكثير جداً من النقص الذى يجعل الديمقراطية - على الأقل فى مفهومها الغربى الحديث - عاجزة حقيقة وعملاً عن حل قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بمعنى أدق قضية التناقض بين السلطة والحرية (١٩) .

• • •

إذا كنا قد وصلنا الى هذا المدى فى اختبار آراء روسو فانه يبقى لكى نفهم طبيعة نظريته فى الاجتماع السياسى أن نرى عن كثب مفهومه للحكومة والصفات التى يخلعها عليها. وأول ما يلزم أن نؤكد عليه بهذا الصدد هو أن دولة روسو هي من غير شك دولة الشعب باعتبار أنه وضع السيادة فى يد الكل . وإذا اخذنا عنه ذلك فى الاعتبار فلا بد أن يستتبعه بالضرورة أن يكون صاحب السيادة شيئاً والحكومة شيئاً آخر .

ولقد كان هذا التمييز بمثابة الركيزة التى بنى عليها روسو تصوره للحكومة . وإذا أردنا أن نوضح ذلك بطريقة أسهل لا يمكن القول بأن الحكومة بالنسبة الى روسو ليست أكثر من

(١٨) انظر مقالنا من « جراهام ولاس » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الثانى ، يوليو - أغسطس -

سبتمبر ، ١٩٧٧ ص ٢٢٥ - ٢٥٥ .

(١٩) Laski, H; Liberty in the Modern State, New Edition, George Allen & Unwin, Ltd., London, 1948.

Contract Social, III. I. (64-65)

(٢٠)

الحكومة او عدم شرعيتها انما يقوم في الطريقة ذاتها التي تجيء بها كأن تكون منتخبة او غير منتخبة . وغنى عن البيان أن أسوأ أنواع الحكومة ما كان وراثيا لأن صفة الشرعية تنتفى تماما من مثل هذا النوع .

وهكذا أدان روسو كل أنظمة الحكم التي كانت قائمة في أيامه ودمغها بالخديعة والزيف وعدم الشرعية . وكان قوله بالعقد بمثابة الدعوة او الطريق للخلاص . والحقيقة أن مظاهر الجيرة التي تضمنتها فلسفته وأيضا الروح الفياض الذي عبر به عن أفكاره كانت كلها عوامل ساعدت على أن تجد هذه الآراء صدى في العقول وفي القلوب . وعلى الرغم من كل العنت الذي لقيه في حياته فلم يمنع ذلك أبدا أن مثلت أفكاره عالما جديدا يتطلع اليه الذي يسعون الى حياة أفضل ، وأن تظل نظريته في العقد محتفظة بشبابها وبنفوذها وقتا طويلا بعد وفاته ، حتى أن كثيرا من الدول خاصة الولايات المتحدة استلهمت بعض جوانبها وبعض روحها وهي تخطط لسياساتها . كما اعتبرت النظرية كذلك الروح المحرك للثورة الفرنسية التي تفتت بشعارات الحرية والاخاء والمساواة .

ولكننا نلاحظ ، من جهة أخرى ، أن نظرية روسو لم تسلم مع ذلك - مثل أى عمل آخر عملاق - في أى وقت من الاوقات من النقد والهجوم والتجريح .

ولعل أول ما يطرأ على الذهن ونحن نحاول الحديث في هذا هو ما وجه الى الاساس السيكلوجى نفسه الذي بنى عليه روسو نظريته . ومن المسلم به أن القول بصحة نظرية ما او بعدم صحتها لا يعدو أن يكون في آخر الامر مسألة نسبية محضة ويعتمد الى أبعد حد على ما اذا كانت نظرة المفكر الى الطبيعة البشرية صائبة .

ولسنا نقصد بذلك الى القول بأن كل ما ذهب اليه روسو في الطبيعة البشرية كان خاطئا أو غير صحيح ، وانما نحن نعتقد فحسب أن روسو لم يستطع بوضوح أن يضع الانسان في مكانه الصحيح لا من حيث ما أثبتته في الطبيعة البشرية ، ولكن فيما أنكره بالنسبة اليها وذلك عندما أكد تأكيدا زائدا على طهارة الانسان وطيبته ونقاؤه . فهنا لم يفعل روسو في الحقيقة سوى ما فعله مفكر آخر مثل هوبز عندما أعطى صورة للطبيعة البشرية أقل ما توصف به أنها صورة مقبته ، وكان ذلك عندما رأى الانسان مخلوقا شريرا وفاسدا . واذا كانت نظرة هوبز هذه قد جانبها الصواب الى حد بعيد لانها تجاهلت غرائز التعاطف والاجتماع وغيرها من الميول الفطرية التي تدفع الانسان الى المشاركة والحوار ، فانه يمكننا بالقياس نفسه أن نقول أن روسو قد وقع في الخطأ ذاته وانما من الناحية المقابلة عندما عجز عن أن يرى في الانسان الا أنه مخلوق طيب متجاهلا ما يعمل في أعماقه من غرائز حب الذات ومجموعة الميول والدوافع المتعلقة بنزعات الكفاح والعدوان وما اليها . .

غير أن روسو اضاف من غير شك عناصر جديدة لنظرية العقد . ولا جدال في أن تصور الارادة العامة كان أهم هذه الاضافات جميعها ليس لكونه التصور المحورى في نظريته فحسب ، ولكن أيضا لانه التصور الأكثر أصالة والأكثر إثارة في كل ما افاد به النظرية السياسية بوجه عام .

ان ماهية العقد الاجتماعى تتمثل في أنه ما يحدد الواجبات المتقابلة وما يقوم بين الافراد من صلات ونظم وعلاقات تتضمن في جوهرها فكرة العدالة . ولكن هل صحيح أن العقد قادر على انجاز ذلك وتحقيقه وبالتالي حفظ الكيان السياسى وحمايته ؟

ومن الواضح أن هناك صعوبة حقيقية أمام هذا التساؤل لأنه يمس مسأ مباشرا كل جوانب

الانسان هذه الحرية الضائعة . . فالى أى مدى يمكن لذلك أن يكون صحيحا وصادقا ؟

لا شك انه على الرغم من كل ما يمكن ان يقال عن تقديس روسو الرائع للحرية ، فان وصفه للسيادة فى الشعب فى كل الظروف انما يتجه بالدولة لان تصبح دولة شمولية تطفى على الكيان الفردى وتخنقه (٢١) ، وقد يبدو هذا القول غريبا ، ومع ذلك فالحقيقة هى أن روسو عندما قال بحق السيادة فى قوة السلطة كان يهرب من المشكلة كلها ، وذلك لسبب بسيط هو أن الاعلاء من شأن الإرادة العامة لا يعنى سوى القول بأنها القوة النهائية ، أى أنه قد اظهر بذلك جانبا وأيده على حساب الجانب الآخر . ومن المسلم به تماما أنه حيثما كانت الإرادة هى الإرادة الحاكمة فان النتيجة المنطقية لذلك لابد وأن تكون القوة ، بمعنى أن اصطدام الإرادات لا يمكن حله فى الواقع الا بانتصار الإرادة الأقوى مما يجعل أى مذهب فى الإرادة ينتهى الى مذهب فى القوة .

ومن جهة أخرى ، فقد يكون من الصعب التسليم تماما بإمكانية ربط هذه الإرادة العامة بالدولة الكبرى والكيانات العظيمة . ويرجع ذلك الى أنه كلما كانت الدولة أكبر كان دوام الإرادة العامة واستمرارها واستقرارها أقل ، حتى ليصبح من المشكوك فيه القول بما اذا كانت مثل هذه الإرادة موجودة بالفعل فى الدول الكبرى الحديثة . وذلك بالإضافة الى أنه كلما كبرت الدولة واتسع نطاقها ظهرت صعوبة إقامة علاقات عضوية تربط الأجزاء بعضها ببعض والأجزاء بالكل ، مما يشكك بالتالى فيما اذا كان يربط بينهم جميعا أى نفع أو خير عام .

وقد يمكن القول فى ذلك أن روسو قد بنى فكرته عن الديمقراطية متأثرا بفكرة المدينة الدولة عند أرسطو خاصة عندما اصر الأخير

المشكلة الاجتماعية . ومع ذلك فهناك حقيقة أساسية يجب الالتفات اليها ، وهى أن مفهوم العقد وإن كان قد قام كحجة لحماية الفرد والوجود الفردى ضد المجتمع ، فمن الممكن استغلاله فى الوقت نفسه ، وربما بالقوة ذاتها لخدمة الفأية المضادة . واذا نحن ربطنا ذلك بفكرة العدالة تبدت لنا المشكلة فى كيفية التوفيق اذن بين آثار مبدأ الجماعة الذى يدمى العقد أنه يعبر عنها ، وبين مبدأ الحكم الصالح الذى يتضمنه مصطلح 'العدالة بما ينتج أكبر قدر من الخير العام' .



وباستعراض المواقف المختلفة لفلاسفة العقد من هذه القضية نجدها متميزة بشكل ملحوظ .

فعلى حين آمن البعض بالسلطة المطلقة بكل ما يترتب عليها من انتفاء كامل لحقوق الأفراد ، فقد عارض البعض الآخر ذلك بكل قوة ووقف ضد أى تسلط أو تدخل على أية صورة من الصور ، بينما اكتفى آخرون باتخاذ موقف وسط فسلموا بإمكانية وجود ازدواجية فى الإرادة دون أن يعرض ذلك الخير العام للخطر ، بمعنى أنهم تركوا فى المجتمع مجالا لكل من حرية الأفراد وإراداتهم الحرة من ناحية ولفاعلية الدولة وتدخلها من أجل تحقيق الخير من ناحية ثانية . وفى الوقت الذى نجد هوبز يدافع عن السلطة المطلقة بكل ما يتضمنه ذلك من اهدار للحرية ، ولوك ينادى بالسلطة المقيدة تاركا بذلك مكانا للحرية فى المجتمع الإنسانى ، نرى روسو يمشى فى نص الحرية الفطرية التى اضعفتها الملكية الخاصة وما يرتبط بها من نظم وعلاقات ، ويتصور أنه بدعوته الى عقد يوجد بين الحكام والمحكومين واقامة نوع من الإرادة العامة يودع لديها كل الحقوق انما يعيد الى

العامة . ومن هنا فقد يبدو منطقيا ذلك الموقف الذى أصر فيه على استبعاد الدولة العظيمة من حسابه وان يجعل الدولة صغيرة الحجم لدرجة تكفى لاقامة ديمقراطيته المباشرة ، وان يمكن هذا التصور مما لا يستطيع أحد أن يأخذ به الآن على أى الاحوال .

• • •

ومهما يكن من أمر فمن الضرورى ان ننتبه تماما الى هذه الصعوبات جميعها التى تحيط بفهمنا للارادة العامة عند روسو لكى نكون أقدر على انصافه . وإيا ما كانت درجة الاتفاق أو الاختلاف فى الرأى فمن الواجب كذلك ان نقتررب من فكره دون ان نكون متأثرين بأى تدخل أو خلط ميتافيزيقى . أو بتعبير آخر نريد ان نقول ان مدخلنا للدراسة فكر جان جاك روسو ينبغى أن يكون من خلال تلك النظرة التى شارك بها جون لوك والقائلة بأن الدولة أيا كانت طبيعة تصورها لأصلها ونشأتها انما توجد لأجل أن تجعل الحياة شيئا طيبا وممكنا لكل البشر الذين يعيشون فى ظلها .

على أن الدولة الصغيرة هي الاقدر على الوفاء بمتطلبات أعضائها واحتياجاتهم ، (٢٢) بل قد نستطيع الذهاب أبعد من ذلك فنقول ان روسو كان لابد متأثرا بمدينةته الاولى ومسقط رأسه جنيف مما انعكس فى تفكيره وجعله يرتبط سواء شعوريا أولا شعوريا بتصوير الدولة الصغيرة التى لم تتسع حدودها بعد .

ولكن هل يكون معنى ذلك أن المشكلة سوف تحل فور ازالة هذا التحديد لحجم الدولة ؟

ان الارجح فى رأبي هو أن المشكلة ستظل قائمة ، لانه سيتعين علينا فى هذه الحالة ان نتساءل : وكيف يمكن اذن لهذا التصور ان يخدم كأساس للتنظيم السياسي الديمقراطي؟ أو بتعبير آخر ألا يصبح ضروريا من ثم العثور على شكل آخر من أشكال التمثيل الديمقراطي ينبغى على تصور آخر غير تصور الارادة العامة ؟

ان انصاف روسو يقتضينا ان نقرر انه لم يعتقد فى وجود أساس آخر للديمقراطية وانه لم يفكر فى امكانية مقارنة التمثيل بوجود الارادة

★ ★ ★

(٢٢) ذهب أرسطو صراحة الى أن الدولة خلق طبيعى اسبق فى الظهور من الفرد والعائلة باعتبار ان الكل اسبق بالضرورة من الجزء ، ومن هنا دحض أرسطو المذهب السفسطائى القائل بأن نظم المجتمع نتيجة للعرف والاتفاقات كما حاول أرسطو منذ البداية ان يوضح مفهوم الدولة على أساس ان هذا يساعد فى فهم العلاقة سواء بينها وبين افرادها أو بين الدول وبعض ، وفى هذا فقد أكد ان الجماعة التى يصل عدد افرادها الى مائة الف نسمة لا تمثل دولة ، ملتها فى ذلك الجماعة التى لا يزيد عدد افرادها على عشرة آلاف - فالقيام الدولة عند أرسطو يجب ان يكون مرليا ككل بعين واحدة . ولقد استخدم أرسطو تأكيد ذلك على أساس من العقائلى التى يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية . وواضح هنا على أية حال انه كان يؤمن بضرورة صغر حجم الدولة لتكون اقدر على الوفاء بغاياتها واغراضها .

* في ذكرى روسو

بقلم : موريس كراستون
ترجمة : بدرية محمد احمد

كثير من التناقضات في كتاباته ، ولكنه كان يشعر بأنه لم يكن في الاستطاعة التعبير عما كان يريد ان يقوله طبقا لقواعد العرض الواضح الصريح التي كان يتبعها فولتير Voltaire وغيره من فلاسفة عصر الاستنارة .

خلال المائتي عام التي انقضت على وفاة روسو ، أو بالأحرى خلال الـ ٢٢٧ عاما التي مضت منذ نشر مقاله الاول ، خلال كل تلك الاعوام ثار كثير من الخلاف الحاد بين القراء حول ما كان يقصده روسو من كتاباته .
والواقع ان روسو نفسه اعترف بوجود

* نشر هذا المقال في الاصل في عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة Encounter تحت عنوان Remembering Reus ; A Bicentennial Essay seau ; ومؤلف المقال هو الاستاذ موريس كراستون مدير معهد الجامعة الاوروبية European University Institute في فلورنسا ، وكان يشغل منصب استاذ علم السياسة في مدرسته لندن للاقتصاد London School of Economics في الفترة بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٨ . ومن اهم مؤلفات الاستاذ كراستون Rousseau's Social Contract وقد ترجمت الترجمة الاستاذ الدكتور احمد ابو زيد (Penguin, 1976) ; Politics and Ethics (1972) and the Mask of Politics (Allen Lane, 1973)

وقد كان لروسو اتجاهات ومواقف معقدة ازاء ما كان يعتبره قضايا معقدة ومتشابكة ، وربما كان اشد هذه القضايا والمشكلات تعقيدا ، حسب رايه ، المشكلات السياسية .

ويعتبر موقف روسو من المشكلات السياسية في وطنه الأصلي « جمهورية جينيف » احد الالغاز المحيرة .

فعلى الرغم من انه هرب من المدينة وهو في سن السادسة عشرة وانه لم يعد اليها بعد ذلك لأكثر من ايام معدودة في كل مرة ، فانه كان يصف نفسه دائما بكثير من الفخر والاعتزاز بانه « مواطن من جينيف » دون ان يأخذ في الاعتبار انه اسقط حقه في هذه المواطنة حين اعتنق الكاثوليكية في تورينو . وقد كان نموذج الدولة المدينة المتمثلة في جينيف بهيمن على تفكيره في موضوع السياسة ، ومع ذلك فلم يكن لديه سوى القليل الذي يذكره عن سياسة جينيف ، سواء في كتاباته المنشورة او غير المنشورة .

وفي عام ١٧٣٧ تفجر الصراع الحزبي في جينيف حتى كاد يصل الى حد الحرب الاهلية ولقد كان روسو الذي كان يناهز الخامسة والعشرين من العمر حينذاك موجودا في جينيف وشاهد بنفسه تلك الاحداث ، ولكن القريب في الامر هو ان استجابته لذلك الصراع كان الحياد المطلق ، وكان سبب النزاع هو الصراع الطويل بين الحكومة (التي كانت تسيطر عليها العائلات النبيلة) وبين المعارضة الشعبية التي كانت تسعى لاثبات حقوق المواطنين في مواجهة الامتيازات التي كانت تتمتع بها العائلات الكبيرة ، وقد كان المتوقع من روسو (الذي طالما عبر بقوة وصراحة عن آرائه الجمهورية) ان يقف بصلابه الى جانب الشعب ولكن ذلك لم يحدث على الاطلاق .

ففي الرسائل التي كتبها في ذلك الوقت لم يعبر الا عن شعوره بعدم الرضا عن الفوضى

المدنية التي ادت الى منعه من جمع ايراد ارث له . بل وحين عاد بذكرته الى تلك الاحداث بعد ذلك باربعين سنة حين كان يكتب « الاعترافات Confessions » لم يتكلم الا عن رؤيته لصديقيه صاحب المكتبة جاك باريبو Jacques- Barillot وابنه جاك فرانسو باريبو - Jacques Françoise

Barillot وهما يخرجان من نفس المنزل ليحاربا في جبهتين متضادتين ، الاب يحارب للحكومة والابن مع الثوار . « وقد ترك هذا المنظر المفزع انطبعا سيئا للغاية في نفسي بحيث اقسمت الا اشترك ابدا في اية حرب اهلية » .

ثم عقد روسو بعد ذلك في الفصل الذي يتكلم فيه عن الانتخابات في كتابه « العقد الاجتماعي » مقارنة بين جينيف وفينسيا ليخرج منها بانه لم يكن ثمة اختلافات كثيرة بين الجمهوريتين .

ويقول في ذلك « من الخطا ان نعتبر حكومة فينسيا ارسنقراطية حقيقية ، فعلى الرغم من عدم اشتراك الشعب في الحكومة ، فان النبلاء الفينيسيين يؤلفون هم انفسهم شعبا ، ان اعداد اكيرة من اتباع الكنيسة البرنابية الفقراء لم يكونوا يرقون ابدا الى مناصب الحكم ، بينما لم يكن « نبلهم » يتضمن شيئا اكثر من لقب « الفخامة » الاجوف الى جانب حق حضور اجتماعات المجلس الاعظم .

ولكن لما كان عدد اعضاء ذلك « المجلس الاعظم » يماثل عدد « المجلس العام » في جينيف فان اعضاءه الموقرين لم يكونوا يتمتعون باية امتيازات اكثر مما يتمتع به مواطنونا العاديون ، ولهذا فعلى الرغم من التفاوت الواضح بين حجم كل من الجمهوريتين فان نواب جينيف يماثلون تماما نبلاء فينسيا ، كما ان مواطنينا يقابلون السكان الحضريين هناك ، وفلاحونا هم يعينهم عمال الاراضي عندهم ، وباختصار فانه باستثناء فارق الحجم فان حكومة فينسيا

النبلاء حتى يستمتع بمبادئ ومثل الحكم الجمهوري التي كان المفروض ان جمهورية جينييف تشارك روما القديمة فيها وأن يصبح مواطنًا بطلا وقد بلغ تعليم الصبي روسو مداه عندما درس على أيدي والده كتابات بلوتارك Plutarch عن حياة الأبطال ، ويقول لنا عن ذلك في اعترافاته «لقد أصبحت انتمى لروما قبل ان ابلغ الثانية عشرة» . والواقع ان قراءاته في آمال بلوتارك كانت قد توقفت وهو في سن العاشرة حين اضطر ابوه لترك جينييف بعد ان تحدى شخصا اعلى منه في المرتبة الاجتماعية ، ودعاه الى المبارزة ، ولذلك فلم يكتف بالالتجاء الى السيف كما يفعل « السيد المهذب » بل انه استخدمه ببراعة ومهارة حين قيل له بانه لا يتنى الى فئة « السادة المهذبن » . وترتب على نفى ايزاك روسو من جينييف وخروجه بالتالى من حياة ابنه ان اصبح جان جاك روسو مسئولاً مع خاله الكولونيل برنار Bernard حيث تربى مع ابن خاله ابراهام Abraham تحت رعاية راعي كنيسة كالفانى في قرية خارج اسوار المدينة .

ومضت الامور على ما يرام حتى حان موعد تحديد مستقبلهما ، وتقرر ان يكون ابراهام ضابطاً بالجيش كوالدة ، بينما ارسل جان جاك روسو الى حي سان جرفيه البرولتيارى ليتدرب على الحفر مع عامل شرس الطباع « كان ابراهام يعيش في الاحياء الراقية اما انا فلم اعد اكثر من ولد بائس يتمرن في سان جرفيه ، وبذلك لم تعد هناك اى مساواة بيننا رغم مولدنا ، اصبح استمرار علاقتنا امراً يحط من قدره » . (pléiad, vol 1, p. 42)



وكما حدث لوالده فقد غدرت به الدنيا ، وكما حدث لوالده ايضا لم يعد يحتمل الوضع ، فهرب هو الآخر من جينييف ، وكان المخرج

ليست اكثر ارستقراطية من حكومتنا من اية وجهة . والفرق الوحيد هو انه لا يوجد عندنا رئيس للدولة يتولى منصبه مدى الحياة ، وبالتالي فاننا لا نحتاج لنفس طريقة الانتخاب الجماعي The Social Contract, Penguin 1968, هذه الفقرة هي التى اطلق عليها فولتير Voltaire عبارة « الكذبة المنفضة fausseté révoltante بل انه يمكن ان تخيل مدى السخط الذى اثاره هذا الكلام في نفوس اهالى جينييف ذوى الكبرياء . فاذا كان فولتير دهش لما قاله روسو من ان فينسيا لم تكن اكثر ارستقراطية من جينييف فلا شك انهم دهشوا لما قاله من ان جينييف لم تكن اقل ارستقراطية من فينسيا .

وقد يكون من الخير ان نتذكر هنا ان ذكريات روسو عن النظام الاجتماعى في جينييف لم تكن بالسعيدة .



ولقد ولد روسو لعائلة لها جذورها البرجوازية العميقة وقد وصفها هو بان « اسلوب سلوكها كان يميزها عن سلوك العامة » ولكن والده الذى كان قد تزوج بمن تعلوه في الطبقة الاجتماعية اخذ يتدهور بسرعة، وانتقل بالفعل من المنطقة العالية في جينييف « حيث تقطن عائلات الطبقة الراقية » الى دائرة ابرشية سانت جرفيه St. gervais المنخفضة والتي تسكنها الطبقات العاملة .

اما جده دانييل روسو Daniel Rousseau فكان سياسياً مشاغبا وكان يؤيد المعارضة الشعبية ضد احتكار النبلاء للحكم ، والظاهر انه كان يشعر بالارتياح بين جماعات الحرفيين الراديكاليين، وذلك يعكس ابيه اسحاق روسو Isaac Rousseau الذى كان يعتبر نفسه ارستقراطياً سلبت منه حقوقه . ولكنه بدلا من ان ينضم الى الراديكاليين في تبرمهم من ظلم الحكومة عكف على تنشئة ابنه كاحد

المرأة التي احسنت له ومدت اليه رعايتها بحيث اصبحت أماله بالتبني ، وهي البارونة دى وارين *Baronne de Warens*

وصحيح ان مدام دى وارين لم تكن تشغل مركزا مرموقا في الارستقراطية الأوروبية ، فاللقب الذي تحمله كان حماها قد اشتراه لزوجها مع ضيعته في فود *Conton de vaud* وقت زواجهما ، ولكن اللقب سقط عنها حين باع زوجها الضيعة بعد ان هجرته وحطمتها ماديا ، ولم يعد يطلق على نفسه لقب البارون ، الا ان التظاهر بانها بارونة كان امرا هاما بالنسبة للدور الذي كانت تلعبه في دوقية سافوى باعتبارها سويسرية مرتدة تساعد في تحول الآخرين الى الكاثوليكية بتعضيد مالى من ملك ساردينيا وأسقف انيس .

وقد كان لمدام دى وارين سمعة سيئة ، اذ كانت امرأة مغامرة بغير شك ، كما ان اخلاقياتها الجنسية كانت تتعارض مع وقار الطبقة الوسطى . ومع ذلك فقد كانت سيدة كريمة جدا وعلى درجة عالية من الثقافة . لقد علمت روسو والواقع انها هي التي زودته بالتكوين العقلى الذى ساعده على ان يصبح الكاتب الذى نعرفه . ولكنها مع ذلك لم تسهم كثيرا في اعداده السياسى ، اذ كان تصورهما للسياسة محدودا للغاية ، ولم تكن السياسية بالنسبة لها اكثر من مجموعة من المؤامرات ، ومن هنا فقد عملت على كسب المزيد من ثقة ملك سردينيا عن طريق الانغماس في عمليات التجسس ، وعلى اى حال فخلال المدة التى عاشها مع مدام دى وارين في سافوى ، تلك الدوقية التى اصبحت مجرد مقاطعة من مملكة سردينيا يحكمها البيروقراطيون والنظار الايطاليون ، كان روسو بعيدا كل البعد عن اى شيء يمكن أن يطلق عليه كلمة سياسة .

وعلى اى حال فحين بلغ روسو السابعة والعشرين انتقل ليقضى عاما في مكان اكثر

الوحيد أمامه هو ان يغير مذهبه الدينى ، وقد فعل ذلك في دوقية سافوى على حدود جنيف ، حيث كانت الحركة المضادة للإصلاح الدينى لا تزال نشطة على ايدى المبشرين الكاثوليك الذين كانوا يبحثون عن الشبان الهارين من سويسرا الكالفانية ، ليعملوا على تحويلهم الى الكاثوليكية .

وكانت سافوى لا تزال مجتمعا اقطاعيا ، ولقد لجأ روسو الى الطبقة الارستقراطية هناك ، فذهب في اول الامر الى اسقف كونفنيون *Confinon* (على ما يذكر هو نفسه لنا) لانه كان يعرف انه يحمل دماء نبيلة .

وثناء تنقلاته بين كونفيتون وانيس *Annecy* كان روسو يقترب من اسوار قصور الاقطاعيين وهو يحلم بإمكان تكوين صداقات مع صاحب وصاحبة القصر والزواج من ابنتهما ، ويقول روسو انه لم يشعر بأى ميل جنسى نحو فتيات الطبقات الدنيا ، ولم يكن يعجبه الا اللائى يرتدين الملابس الانيقة ويصفقن شعرهن بعناية ويمتلكن بشرات رقيقة ، ولقد اساء وصف جميع الفتيات العاملات بل اللائى تعرض لهن في «الاعترافات» وحتى بنات الطبقة الوسطى ايضا لم يحركن فيه اى مشاعر او عواطف طيبة ، وانما كانت احلامه تدور دائما حول فتيات الطبقة العليا ولذا فقد كان من الغريب ان ينتهي به الامر الى ان يعيش مع عشيقه أمية تعمل في احدى المفاصل .

ومع ذلك فلم يضع بحثه عن المجتمع الارستقراطى في سافوى وبيدمون هباء ، ففي تورينو استخدمه كونت جوفون *Comte de Juvon* في قصره كتابع ، ثم اتخذه ابن الكونت سكرتيرا له ، وبدأ يعلمه كيف يتدوق الادب .

وعندما عاد الى سافوى استقر به المقام مع

يكون عضوا في الهيئة التي تحكم تلك الجمهورية، ثم يتطرق الى اشياء أخرى كثيرة مثل قوام « لقد تعلمت احترام النبالة اللامعة » وانه ليس ثمة خير في مجتمع يتضائل فيه عدم المساواة بين مختلف المستويات « ولكنه يضيف بعاطفة مشبوبة خليقة بالتقدير بأنه « بينما ينظر بتواضع الى هؤلاء الذين يعلونه في المرتبة أو نبل المولد فانه يأمل على الاقل في أن يتساوى معهم في الفضيلة » .

وبالطبع فليس هناك من يلتزم بالصدق والامانة عند كتابة الشعر ، ولكن هذه الايات تعطينا فكرة عما كان يشعر به اثناء فترة اقامته المبكرة بفرنسا مصادقا نبلاء ليون . وفي باريس التقى بالنظرية السياسية لجماعة الموسوعيين « ومن المؤكد ان جميع هؤلاء الموسوعيين لم يكونوا يعتنقون نفس الآراء السياسية ، وان كانت النظرية الاساسية التي تميزهم جميعا هي تلك التي عبر عنها فوليتير بطريقة معتدلة ، بينما عبر عنها بارون هولباخ d. holbach في كثير جدا من التطرف ، وهي نظرية الاستبداد المستنير ، وقد تأثر الموسوعيون كثيرا ببيكون Bacon (صحيح أنهم تكلموا كثيرا عن لوك ، ولكن بطلهم الحقيقي لم يكن لوك ودعوته الى النظام الدستوري التحرر ، وان كان بطلهم هوبيكون بخطئه الجذرية للقضاء على الدين والفلسفة التقليدية واستبدال حكم العلم والتكنولوجيا بهما بقصد تحسين حياة الانسان على الارض ، كان العلم يعتبر هو مخلص البشرية ، وكانت خطه ببيكون هي أن يجعل جيمس الاول حاكما مستبدا يسخر قواه المطلقة للحكم بأسلوب علمي حسب ارشادات ببيكون نفسه ، وكانت هذه هي « البضاعة » التي حاول فولتير وهو لباخ ود يدور بيعها للملوك الآخرين ، مثل فريدريك الثاني في بروسيا ، وكاترين

اثارة للفكر ، وهو مدينة ليون في فرنسا ، وهناك ساعده الحظ في ان ينخرط مباشرة في حركة التنوير الفرنسي

The French Enlightenment

فقد اصبح المعلم الخصوصي لعائلة مسيودي ما بلي M. de Mably الذي كان له اخان هما ابية دي كونديال Abbé de condillac الفيلسوف الشهير ، الذي كان يعتبر من اتباع فلسفة لوك Lock وآبيه دي ما بلي Abbé de Mably احد رواد النظرية الاشتراكية . وعندما ذهب الى باريس بحثا عن المال والشهرة وهو في الثلاثين من عمره اصبح صديقا حميما لدنيس ديدرو Denis Diderot ناشر الانسيكلوبيديا Encyclopédie .



وقد تحدد تفكير روسو في السياسة بعد ذلك في نطاق نوعين من المؤثرات هما خبرته في الحياة في إحدى الممالك الكبيرة ، واصطدامه بالآراء السياسية لفلسفة التنوير ، وان كان ينبغي ان نتذكر انه كان قد درس أيضا في مكتبه مدام دي وارين اعمال كثير من الفلاسفة السياسيين من أمثال هوبز Hobbes و لوك Locke ويوفندورف Pufendorf و بيرلا مكي Burlamaqui ولكنه ادرك اتجاهاته « الجمهورية » ، وشعر بكيانه كأحد مواطني جنيف ، وبغرفته عن عالم الملوك والأمراء اثناء اقامته في بيت مسيو ما بلي في ليون .

وقد عبر عن هذا كله في قصيدة كتبها لاحد اصدقائه في ليون وهو الجراح باريسو Pairsot وفيها (Pléiade, Vol, pp1136-44) يصف نفسه بأنه ولد حرا وانه بفضل مولده كمواطن في جنيف ، له الحق في ان يشارك في السلطة العليا ، وان

الدبلوماسية ، وأنه يمارس مهنة ارسقراطية في خدمة أعظم ملك في أوروبا ، ولكن لم تكن هذه هي نظرة السفير إليه ، اذ كان يعتبره « كاتب » خاص له لا يعلو مركزه الا قليلا عن مركز الوصيف .

ولم يكن « صاحب السعادة » بالرجل السهل الهين ، ولذا كان يتملكه الفيط حين كان روسو يتصرف كما لو كان زميلا له بالسلك الدبلوماسي ، كأن يمد جسمه بعظمة على مقاعد السفارة او يطلب ان يوضع قارب (جندول) السفارة تحت طلبه . ولقد تبادل الرجلان الكلمات اللاذعة ، وقبل ان يمر عام كان روسو قد طرد من عمله بطريقة مهينة للغاية ، ولكنه كان على اى حال قد امضى من الوقت ما يكفى لمعرفة كيف كانت فينيسيا تحكم ، وليبدأ في تأليف كتابه عن « النظم السياسية » وهو الكتاب الذى ادى الى نشر كتاب « العقد الاجتماعى » فضلا عن توفير الوقت له للتعرف على الاوبرا الايطالية وتذوقها . ومن ناحية أخرى ، فان حظ روسو تبدل تماما بمجرد عودته الى باريس ، فقد وجد وظيفة طيبة كسكرتير عند عائلة اقضى واسع الثراء يدعى دوبان Dupin عاش معهم في اجمل قصور فرنسا على الاطلاق وهو قصر شينو نصو Chenononceaux وقام بنشر عدة اعمال عن الموسيقى ، كما الف بعض الاوبرات والباليهات ، وكتب عددا من المسرحيات ، بل انه قام باعداد احد اعمال فولتير للمسرح . والواقع انه كان يسير فعلا في طريقه لتحقيق المجد والثراء اللذين كان يأمل فيهما بوصفه احد مفكرى عصر التنوير ، وأنه يعيش في كنف المجتمع الباريسي البورجوازي الثرى الذى فتح له ذراعيه .

العظيمة في روسيا . ولم يصادف يكون اى نجاح في انجلترا حيث كان الناس يتمتعون بعقلية سياسية متمسكة بحقوقها المدنية وبالقانون والبرلمان ، لدرجة يستحيل معها التحول الى اى نظام استبدادى . اما في فرنسا حيث لم تكن هناك هيئات انتخابية ولا حريات فقد كان لمبدأ الاستبداد المستنير خاصة جاذبيته الشديدة بالنسبة للعقلية البورجوازية ، وقد كانت سياسة الاستبداد المستنير في نظر فولتير على اية حال تتفق انفاقا تاما مع مصالح البورجوازية ، كما انه كان يعتبر الكنيسة وطبقة النبلاء اكبر اعدائه .



عندما وصل روسو لباريس اول مرة عام ١٧٤٢ يحده الامل في كسب الشهرة والثروة ، وكان في الثلاثين من عمره ، وقع هو وصديقه ديدرو في هذا الفيضان من ايدولوجية التنوير والتطلعات البورجوازية ، التى لم يلبث ان ابتعد عنها ورفضها كجزء مما اسماه « بالاصلاح » ثم بمرحلة هامة جدا في تكوينه السياسى ، وذلك حين عمل لمدة سنة بين سن الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين سكرتيرا للسفير الفرنسى في فينيسيا الكونت دى مونتاجى Comte de Montaiqu ومع انها لم تكن تجربه سعيدة باى حال الا انها كانت مقيدة للغاية .

وقد كان السفير الفرنسى ضابطا كبيرا متقاعدا ، ولكن لم تكن له اى مؤهلات او قدرات دبلوماسية ، وكان روسو يتصف بالكفاءة وسرعة الخاطر والدكاء ، كما كان يجيد اللغة الايطالية ، ولذا القيت عليه اعباء سكرتارية السفارة ، وذلك في فترة كان يتطلع فيها الى النجاح ويسعى الى المجد والثراء .

اشترى روسو لنفسه ملابس باريسية انيقة ، وتخلل نفسه احد رجال السلك

لم يجعل الانسان اكثر سعادة ولا اكثر شرفا . فالفضيلة ، حسب رايه ، لا توجد في المجتمعات البسيطة حيث يعيش الناس حياة البساطة البعيدة عن التعقيد ، بينما افسدت الثقافات الاكثر تعقدا حياة الانسان ، فكلما زاد التعقيد زاد الفساد ، وقد استعان روسو بأراء افلاطون ليعضد قضيته او لم يكن افلاطون هو القائل بأن المعرفة العلمية ليست معرفة على الاطلاق ، وانه هو الذي نفى الشعراء والفنانين من الجمهورية الفاضلة؟

وكانت كل هذه الحجج في نظر ديدرو - وهو رجل مرح ومتسامح - مجرد متناقضات مسلية ، ولا ينبغي اخذها بجدية تامة ، ولكن كان من الواضح ان اى شخص يأخذ هذه الامور مأخذ الجد لم يكن يستطيع ان يستمر في نفس الوضع الذي وضع روسو نفسه فيه كأحد مثقفي حركة التنوير من ناحية ، وكباحث عن المجد والشهرة من الناحية الاخرى . ولذا لم يكن ثمة مناص من حدوث تغيير جذري في حياته ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة ديجون وذيوع افكاره بين الناس . وكانت اول خطوة اتخذها هي الاقلاع عن طموحه في تكوين ثروة ، وترك الوظيفة التي كان يشغلها في مكتب صديقه الثرى دوبان دى فرانكوى Dupin de Francueil وهي وظيفة كانت ستضمن له انتفاخ جيوبه بالمال . ولا بد أن روسو كتب اثناء هذه الفترة واحدا من اقل مقالاته شهرة ، واكثرها امتاعا وهي « مقال عن الثروات Discours sur les richesses » .

وتوجد هذه المقالة ضمن مخطوطات روسو في المكتبة العامة بنيوشاتل Neuchâtel في سويسرا ، حيث قام بجمع اجزاها أحد امناء المكتبة السابقين ويدعى فليكس بوفيه

وحين بلغ روسو السابعة والثلاثين اعتراه ذلك « الالهام » الشهير الذي جعله يغير اسلوب حياته تماما، فكل من قرا « الاعترافات » لابد وأن يتذكر القصة التي سردها عن زيارته لديدرو في فانسيه Vincennes حيث كان ديدرو مسجوناً آنذاك واكتشافه اثناء الطريق اعلاناً عن جائزة تمنح في ديجون Dijon لمن يكتب مقالا حول اذا ما كان احياء العلوم والفنون قد اسهم في تحسين اخلاقيات الانسان ، وادراك روسو بسرعة ان هذا التقدم قد ادى على العكس من ذلك الى افساد هذه الاخلاقيات . ولم يكن روسو يستطيع عند هذا الحد ان يسيطر على نفسه ، فضلا عن ان يواصل السير فجلس تحت شجرة واخذ في البكاء .

وكانت النتيجة كتابة « مقال » عن الموضوع نال عليه جائزة ديجون التي اكسبته شهرته الخالدة . وقد شجعه ديدرو على دخول المنافسة ، ولكن المقال كان هجوما مدعما بالاسانيد على كل ما كان ديدرو يؤمن به ، وعلى كل ما كانت « الموسوعة » تهدف الى نشره والارتقاء به . ولم يخرج ما قاله روسو في هذا المقال عما كان غيره قد قالوه من قبل ، ولكن ليس بمثل بلاغته ، وذلك فضلا عن تزمته ورجعية آرائهم بينما كان هو أحد أعضاء جماعة « الانسكلوبيديين » ومن أهم الذين اسهموا في ذلك العمل الذي اشرف ديدرو عليه .



كان شيئا ملحوظا ان يهاجم أحد الراديكاليين افكار بيكون ، اذ ذهب روسو الى ان العلم سيؤدي الى دمار الانسانية ، وليس الى انقاذها . وان التقدم ما هو الا مجرد وهم ، أو أن تطور الثقافة الحديثة

Félix Bovet مع الذى قام بنشرها عام ١٨٥٣ مع حذف بعض العبارات عن طريق صاحب مكتبة صغيرة فى باريس ، ولكن لم يعد طبعها بعد ذلك حتى فى الطبقات التى تدعى أنها تضم أعمال روسو الكاملة ، أما المقال فهو حديث موجه لشخص يدعى كريسوفيل Chrysophyle (وهو روسو نفسه بدون شك) ويقوم على محاولة اقناعه بالتنازل عن مشروعاته لتكوين ثروة ، ونعلم من المقال ، ان كريسوفيل هذا يرغب فى أن يصبح غنيا لتكون لديه الوسيلة للعمل على ما فيه خير العالم ، أى أنه سيستخدم ثروته لتخفيف آلام أخوته فى البشرية الذين كانوا أقل منه حظا فى الحياة ، ويدعى الكاتب ان هذا المشروع هو من المشروعات التى لا يمكن تحقيقها بحال ، أولا لان الانسان الفقير سيجمع ثروته عن طريق ادخار كل ملهم يحصل عليه ، وهو ما ينمى فيه صفة البخل ، وهذا معناه انه لكي يستعد للمستقبل البعيد ، حيث يعطى بغير حساب ، فانه يتعين عليه أن يكون غليظ القلب ولا يسمح بالجود والعطاء . وحين يقترب فجر هذا المستقبل البعيد ، ويصبح هذا الشخص ثريا ، فانه لن ينظر للعالم من منظور الرجل الفقير .

فالانسان الفقير يدرك شرور الفقر لانه فقير ، ولكن حين يصبح غنيا فلن يكون هناك ما يجعله يشعر بهذه الشرور والمتاعب . ثم ما هي الوسائل التى سوف يتمكن بها من تكوين تلك الثروة ؟ فقد يمكن للرجل الفقير أن يكون امينا ، كما يمكن للشخص الذى ولد غنيا أن يكون امينا ، ولكن من الصعب جدا أن يظل المرء امينا اذا كرس حياته لجمع الثروات ، لان اسهل الطرق للحصول على الربح هي فى العادة أقلها اعتمادا على الاخلاقيات وعليه توصيل روسو الى ان فكرة ان يصبح

المرء ثريا ليعمل الخير هي فكرة مستحيلة ، لان الجهود التى سيبذل فى تكوين الثروة سيحرم الشخص من الرغبة فى الاحسان ، بمجرد اكتسابه القوة الكافية لفعل ذلك .

ومن المهم ان نلاحظ ان هذا المقال ليس هجوما على الثروة الموروثة ، ولا على قيم الارستقراطية ، بقدر ما هو هجوم على البورجوازية الطموحة ، التى تميل الى الاستيلاء على كل شئ وعلى الناس الذين صاحبهم روسو فى سنوات حياته الاولى فى باريس من أمثال عائلات دوبان وبوبليشير Poplinères وبالطبع على مفكرى البورجوازية الاغنياء ، أمثال هولباخ وفولتير والذى يدعونا الى الاعتقاد بأن روسو كان يوجه المقال لنفسه هو ، انه كان حتى ذلك الحين يعتبر محاولات لجمع المال على أنها وسيلة تهدف فقط الى تقديم المساعدة المالية للسيدة التى رعته من قبل ، وهى مساعدة السيدة الفاضلة مدام دي وارين ، وذلك فى سنوات مرضها وحاجتها ، فلم يكن روسو يرغب قط فى جمع المال لنفسه .

ويذكر لنا روسو فى الاعترافات انه فى فبراير ١٧٥١ « نبذت الى الابد كل افكارى عن الثراء والتقدم فى العالم » Pléiade, Vol. 1, P. 362 « ولكن مما يدعو للسخرية انه بمجرد ان نبذ تلك الافكار عن جمع الثروة اكتسب شهرة واسعة ، ولم يكن هذا بسبب كتابته لمقال الفنون والعلوم الذى نال عليه الجائزة ، بقدر ما ترجع الى كتابته فى الموسيقى او بالاحرى الى قيامه بالدور الرئيسى فى الجدل الذى ثار حول الموسيقى ، والذى الهب باريس فى أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر 1750 وكان غريمه هوجان فيليب رامو Jean- Philippe Rameau .



الموسيقى ، ولما كان رامو لا يعرف أصول اللبابة فانه لم يكن يتردد في أن يعلن هذا الرأي بصراحة .

الا ان رامو وجد في روسو خصما اكثر عنادا مما كان يتوقع ، فعندما اشتبك الاثنان في ذلك الجدل حول الموسيقى كان يبدو لاول وهلة انهما غير متكافئين ، على اعتبار أن رامو كان عالما بارزا بينما كان روسو هاويا علم نفسه الموسيقى بنفسه ولكن النزاع لم يكن موسيقيا فحسب بل كان ايضا ايدولوجيا ، ولذا فقد استطاع روسو أن يصمد بكفاءة أمام رامو ، واذا كان هناك فائز فقد كان هو روسو بالتأكيد .

بل وحتى في مجال الموسيقى فقد اثبت روسو انه منافس حقيقي لرامو فعندما عرضت أوبرا روسو «عراف القرية» *le Devin du village* في فونتينيلو Fontainebleau في اكتوبر ١٧٥٢ رغم كل محاولات رامو لاسقاطها لقيت كثيرا من الحظوه والمكانة لدى الملك والبلاط، ثم اصبحت فيما بعد ذات شعبية جارفة في اوبرا باريس . الا أن العمل الذي ثبت اقدام روسو كمنافس رئيسي لرامو في تلك المساجلة الموسيقية في الخمسينات من القرن الثامن عشر كان مقال بعنوان « خطاب عن الموسيقى الفرنسية » *Lettre sur la musique française* الذي ظهر في عام ١٧٥٣ ، وقد اثارت هذه المساجلة الموسيقية ، التي كانت تسمى احيانا « معركة المهرجين » *La querelle des Bouffons* لانها كانت بين عملاقين يمثلان مدرستين مختلفتين للاوبرا .

والواقع ان روسو يزعم في (الاعترافات) وبكثير من الجراءة ان ذلك النزاع حول الموسيقى ساعد على تحويل اذهان الناس عن الازمة الدستورية الناشبة بين الحكومة الملكية

ولد رامو في ديجون Dijon عام ١٦٨٣ وبهذا كان اكبر من روسو بنحو ثلاثين عاما . وبعد أن درس الموسيقى في ايطاليا وتنقل في عدة مناصب كعازف ارغن في الكنيسة في مناطق مختلفة من فرنسا حتى بلغ التاسعة والثلاثين ثم استقر في باريس ولحق اسمه مع مؤلفه عن « دراسة في تناسق الالحن » وقد جذب هذا الكتاب اهتمام عائلة بولينير Poplinière وهم من أغنى رعاة الفنون من البورجوازيين ، وقد ساعدت هذه الرعاية رامو على أن يكرس كل وقته للتأليف . وكان رامو رجلا يثير الضجر والنفور ، ولكن عبقريته كانت من النوع الذي يفرض الاحترام على الجميع ، فقد كان مؤلفا موسيقيا عظيما وناجحا ، وقد كتب نحو ست اوبرات عرضت كلها في باريس في بحر اثني عشر شهرا (١٧٤٨ - ١٧٤٩) الى ان نجحت مدام دوبو مبادور Madame de Pompadour (التي كانت تكرمه) في قصر اخراج اوبراته على اثنتين في السنة . ولا تزال اعمال رامو تعرض بالطبع حتى الآن وتثير كثيرا من المتعة ، وفضلا عن ذلك فقد كان رامو عازفا وعالما موسيقيا ، وقد وضعته كتاباته عن الهارموني والجوانب الاخرى من النظرية الموسيقية على رأس المتخصصين في هذا العلم في أوروبا ، اذ كان على درجة من التعليم والمهارة الفنية أعلى من جميع علماء الموسيقى في عصره .

والواقع ان روسو نفسه اشار اشارات قوية جدا الى اعمال رامو في المقالات التي كتبها عن الموضوعات الموسيقية «للموسوعة» تماما مثلما اعتمد على الاعمال المنشورة لهذا الاستاذ الفرنسي العظيم ، في محاولة التعليم أصول النظرية الموسيقية . بيد أن الاحترام بينهما لم يكن متبادلا ، اذ كان رامو يعتبر روسو مشعوذا دجالا وجاهلا بأصول

وبرلمان باريس ، وبالتالي منع نشوب ثورة .

وقد ظهر رامو في هذا النزاع مدافعا ومؤازرا للأوبرا الفرنسية ، بينما وقف روسو في صف الأوبرا الإيطالية ، ولم تكن الأوبرا الفرنسية فرنسية فحسب ، وإنما كانت أوبرا ملكية وأكاديمية وعقلية وعلى درجة عالية من الرقي ، ويرجع ذلك التقدير إلى تأثيرها بالتقليد الديكارتي عن سمو الرياضيات والتنظيم العقلاني ، كما أنها كانت تعكس قيم النزعة الكلاسيكية الفرنسية في القرن ١٧ ، كما كان التناسق هو أهم عنصر في تكوينها الصعب المعتقد . كما كانت بالإضافة باهتمامها باظهار المثاليات البوربونية تهتم بإبراز المثل البوربونية من المجد ، وهي المثل التي تتمثل في اظهار عظمة الملوك كما لو كانوا آلهة ، فكانت الكائنات العليا تصور على المسرح فتستقبلها الموسيقى الرائعة التي تخاطب العقول السامية ، أو التي كانت تثير بضربات الطبول والنحاسات الاحاسيس العسكرية ، باختصار كانت الأوبرا الفرنسية تخاطب الاذن بنفس الطريقة التي يخاطب بها قصر فرساي العين . وعلى اية حال فإننا نتكلم هنا عن عام ١٧٥٢ عندما كان أسلوب فرساي الفخم قد بدأ يفقد سيطرته على مشاعر الفرنسيين وقد كان رامو نفسه مجددا مبدعا ، وقد أضفى حياة جديدة على الأوبرا الفرنسية خلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، وذلك عن طريق ادخال قدر كبير من الرشاقة (والحبكة) على مؤلفاته وازيادة عناصر الرقص التي كانت تنقص الأوبرا الفرنسية قبل ذلك ، وبصفة عامة عن طريق نقل الموسيقى الفرنسية من القرن ١٧ الى ١٨ . وحين اتم هذا كله أصبح المدافع المتحمس الاول عن التقاليد الموسيقية التي طورها بمثل هذا النجاح .

ولقد ساعد تصدى روسو للدفاع عن الأوبرا الإيطالية ضد الأوبرا الفرنسية على ان يكتسب درجة من الدراية بالموسيقى الإيطالية لم تكن تتوفر لمعظم الفرنسيين ، وذلك لانه كان قد سمعها وهو مازال صبيا في السابعة عشرة من عمره ، اثناء تجوله في تورينو حين كان ملك سردينيا يشجع على عزف روائع الموسيقى الإيطالية كوسيلة لتجميل عاصمة ملكة ، وفتح ابواب كثير من الحفلات أمام الجميع وحين كان روسو يعمل بالسفارة الفرنسية في فينيسيا كان له حق الدخول بالمجان لمعظم دور الأوبرا ، وكان هناك في ذلك الوقت اثنتا عشرة دارا للأوبرا في فينيسيا ، مقابل واحدة فقط في باريس .



ولكن كيف كانت الأوبرا الإيطالية تختلف عن الفرنسية ؟

أولا : وقبل كل شيء بينما كانت الأوبرا الفرنسية تكشف عن درجة عالية من السمو والفخامة كانت الأوبرا الإيطالية ذات طابع شعبي واضح ، إذ كانت موسيقاها حاملة وبسيطة ، يمكن لأي شخص ان يتغنى بنغماتها ، بل الواقع ان الناس كانوا يتغنون بها بالفعل في كثير من الاماكن مثل فينيسيا ونابولي ، كما كانت موضوعاتها متواضعة ومألوفة . فالاشخاص الذين كانوا يظهرون على المسرح كانوا افرادا عاديين اكثر منهم آلهة . مثال ذلك أوبرا « السيدة الخادمة La serva padrona لبيرو جوليبي Pergolesi التي اعددها روسو بنفسه للنشر في باريس .

فقد عرضت أولا في نابولي عام ١٧٣٢ في الوقت الذي لم يكبد مسرح باريس يالف

أن التوزيع الموسيقى يجب أن يتنوع حسب ما تعبر عنه ، وبهذا فهو يدافع عن الحرية الرومانسية في الفن ضد الاصرار العقلاني على وجود قواعد جامده . ومن ناحية اخرى فبينما كان رامو يزعم أن « الهارموني » هو العنصر المركزي في الموسيقى ، وانه يعكس مبادئ التناغم والتناسق في الطبيعة ذاتها كان روسو يؤكد أن الميلوديا Melody هي ما يهم في الموسيقى ، بينما لا يعدو الهارموني أن يكون تكويننا مصطنعا ، بل وايضا «مخيفا» من صنع ذهن المؤلف نفسه .

وهنا تواجهنا فكرتان مختلفتان عن الطبيعة، فعندما كان رامو يتكلم عن الطبيعة فقد كان يفكر في الطبيعة كما تبدو في الفيزياء النيوتونية وايضا الفيزياء الديكارتية : أي تناسق العوالم والنظام الثابت للكون ، اما الطبيعة ، بالنسبة لروسو ، فهي ما نراه في الحقول والغابات من شدة الطيور وغناء الفلاحين ، فهي الطبيعة من حيث هي تقابل الثقافة أكثر مما هي الطبيعة (كما يراها رامو) التي هي أعظم نتاج لله ، وكما يفهمها العقل الفلسفي ، فإراء روسو وحججه كانت موجهة في المحل الأول ضد العقلانية الديكارتية ، كما كان يعتنقها رامو ، وإذا كنا نتكلم عن هذه المواجهة على أنها ايديولوجية أكثر منها فلسفية فإن ذلك راجع الى أن العقلانية الديكارتية كانت في تلك الفترة في التاريخ الفرنسي تأخذ شكلا ايديولوجيا كنسق للقيم للثقافة ، يستخدم في تدعيم سلطة الكنيسة والتنظيم الجامد للنظم الملكية ، والتدرج الطبقي في المجتمع .

وكان الموسوعيون الآخرون منهمكين في مهاجمة العقلانية الديكارتية لأغراض أخرى ، مستعنيين في ذلك ببعض الأفكار الفلسفية المستمدة أساسا من الفلسفة التجريبية

تجديدات وابداعات رامو . وتدور هذه الاوبرا الرقيقة على شخص اعزب من نابولي يقع نتيجة للخداع في حب خادمتها ، ولكن الامر ينتهي نهاية سعيدة بالزواج منها . والمغزى من هذه القصة هو أن الخادمة ، ليست أقل من سيدتها في شيء ، ولكن الامر يحتاج من الرجل أن يفتح عينيه .

هذه الرسالة التي تدعو للمساواة ، والتي تحملها أوبرا بيرجوليزي ، أثارت الفرع بين الاوساط المحافظة في باريس . والواقع أن طرفي النزاع في « معركة المهرجين » اتخذوا موقفهما منذ البداية على أسس ايديولوجية متميزة ، بحيث نجد الفريق الذي كان يدافع عن الاوبرا الايطالية كان يضم معظم العناصر الليبرالية والتقدمية، ومن بينهم «الموسوعيون» وكان هؤلاء جميعا على استعداد لان يتقبلوا كل ما هو جديد ، وأكثر ديمقراطية ، وكل ما من شأنه أن يساعد على الابتعاد عن المتأفيريكا الديكارتية، وعن تقديس البوربونيه لفكرة المجد ، التي يدافع عنها المحافظون .

ومما يدعو للسخرية ان يبدو روسو رئيسا للصف في جماعة التقدميين ، في نفس اللحظة من حياته التي كان مقالته عن الفنون والعلوم يعلن رفضه ونبذه لكل الفلسفة التقدمية . ولكن يجب أن نتذكر أنه بينما كان روسو يعارض رامو على أسس ايديولوجية ، وكذلك على أسس موسيقية بحتة ، فإنه لم يكن يصدر في ذلك من موقف « ليبرالي » بل من موقف رومانسي ، ولا بد لنا بذلك من أن نأخذ في الاعتبار ما كان روسو يقوله بالفعل وليس ما نعتقد أنه كان يقوله .

وكان رامو يجادل حسب الاسلوب الديكارتى بأن هناك قواعد ثابتة يمكن تطبيقها على كل التعبيرات الموسيقية ، بينما كان روسو يرى

البريطانية . فهجوم فولتير واصدقائه على ديكاوت كان هجوما سياسيا يكاد يكون سافرا . وقد تدخلوا في « معركة المهرجين » لمجرد مهاجمة ركن آخر من أركان الثقافة الديكارتية ، ليس بسبب عقلانياتها ولكن بسبب تزعمها المحافظة ، وكانوا يكتبون كأحرار ليبرالين على العكس من روسو . ولا سبيل الى ان نخطيء في ادراك ذلك لو اننا القينا نظرة على احد المنشورات التي أسهمت في ذلك الصراع الفكري ، وقد كتبها المحرر المشارك للموسوعة وهو دالمبير D'Alémbert بعنوان De la liberté de la musique « عن حرية الموسيقى » وفيها يقول : « ان الحرية في الموسيقى تعني حرية الشعور ، وحرية الشعور تعني حرية التفكير ، وحرية التفكير تعني حرية الفعل ، وحرية الفعل تعني دمار الامم ، واذا أردنا أن نحافظ على المملكة فيجب علينا أن نحافظ على الاوبرا على ما هي عليه ، كما ينبغي علينا أن نضع قيودا على الترخيص بالفناء اذا أردنا أن نتجنب وضع القيود على الترخيص بالكلام (D. launay, ed.,)

La querelles des Bouffons, genève, 1973, vol. III, pp. 2216-7)

لقد كان المتكلم هنا هو دالمبير وليس روسو . فلقد كان الفليسوفان يقفان على نفس الجانب في « معركة المهرجين » ولكنهما كانا هناك لأسباب مختلفة . لقد كان الاثنان يدركان البعد السياسي للمعركة . ويكتب روسو في « الاعترافات » : « لقد انتهى بي الامر الى أن أرى أن كل شيء مرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا ، وأنا مهتما حاولنا فلن تكون أية أمة شيئا أكثر مما يصنعه نظام حكومتها » (Pléiade. vol. I. p. 404)

• • •

ولكن ماهي بالضبط وجهة النظر السياسية

التي يريد روسو ابرازها ؟ من المهم ان نقارن هنا نص الاوبرا التي حققت له كل هذا النجاح في باريس سنة ١٧٥٢ وهي اوبرا « عراف القرية » باوبرا بيرجوليزي « السيدة الخادمة » ففي اوبرا بروسو نجد راعية الغنم كوليت collette حزينة لان خطيبها كولان Colin هرب مع سيدة ارستقراطية فتلجأ كوليت الى عراف القرية فيشير عليها بالطريقة التي تكفل لها عودة حبيبها . وتتبع نصيحته ويعود الراعي الى حبيبته الراحلة في آخر الامر ليعيشا في هناء . فهذه قصة تختلف تماما عن « السيدة الخادمة » التي تظهر الخادمة على أنها العروس التي تناسب سيدها ، فالقضية الاساسية في اوبرا روسو هي أن المرء يجد الحب بين من هم على شاكلته ، وأنه من الخطأ ان يحاول المرء تجاوز حدود طبقته فهل يستغرب اذن أن نجد ان « عراف القرية » أصبحت إحدى الاوبرات المفضلة لدى الملك ومدام دي يومبادور ذلك ان الملك لم يكن يستمتع كثيرا بسماع الموسيقى بينما كانت مدام دي يومبادور تكره موسيقى رومانو لانها كانت رفيعة المستوى للغاية ، ومن هنا كان أسلوب روسو (التطريبي) أقرب الى نفسيهما .

وقد نجم عن ذلك موقف آخر غريب اذ كان المحافظون يريدون اوبرا تقليدية لانها هي « الاصوب » بينما كان الملك واصفياؤه يفضلون الاوبرا italiamte المتأثرة بالطابع الايطالي الجديد لانها أكثر امتاعا .

ولم يكن موقف روسو اقل تناقضا ، فهو يقدم في « عراف القرية » موسيقى ليبرالية ان صحت هذه التسمية - مع « نص » محافظ واستطاع بذلك العمل أن « يغزو » جمهورا « لم يكن من المستطاع اقناعه عن طريق الحجج

دى يوفلير Bonfflers التى وقع في حبها بطبيعة الحال . فهل كان من التناقض واللامنطقى ان يجد السعادة والرضى بين العائلات النبيلة العريقة بعد ان ادار ظهره للبورجوازية وللملك ؟ لا اظن ذلك .

ولروسو شهرة بانه بنى الديمقراطية والمساواة، ولكنه كان يفضل عليها الارستقراطية، وان لم يكن هذا واضحا للعيان في معظم الاحيان . وتقوم شهرته كأحد الدعاة للمساواة على مقاله (الثانى) عن « أصول عدم المساواة » ولكنه يفتتح ذلك العمل باهداء الى جمهورية جنيف يتضمن هذه الجملة الطريفة interesting

« لما كان من حسن حظى ان اولد بينكم لم يكن ثمة مفر حين افكر في المساواة التى اوجدتها الطبيعة بين البشر، وفي عدم المساواة التى اقاموها هم انفسهم فيما بينهم ، من ان الاحظ كيف تمتزج الاثنتان معا بطريقة رائعة في هذه الدولة ، وترتبطان بطريقة تقربهما من القانون الطبيعى قربا شديدا ، بحيث يفيد منهما المجتمع اكبر فائدة مما يؤدى الى المحافظة على النظام العام والى سعادة الافراد (Pléiade, vol. III. p. III)

وثمة ميل طبيعى لتجاهل هذه المقدمة واعتبارها مجرد اطناب لا معنى له ، لانها كتبت اثناء المحاولات المستمرة التى كان يقوم بها روسو في صيف ١٧٥٤ كى يسمح له بالعودة الى الكنيسة الكالفينية الراسخة في جنيف ، ويسترد بالتالى حقوقه كمواطن في تلك الجمهورية . ومن العسير ان نقبل ان روسو كان يؤمن حقا في كمال النظم السياسية والاجتماعية في جنيف ، خاصة . وانه هو نفسه قد قاسى الامرين منها . الا ان هذه العبارة التى اقتبسناها تكفى لتوضيح آرائه عن

والجدل ، ولكن هذا الفوز الذى لم يكن يرغب فيه سبب له كثيرا من الحرج ، لان روسو لم يمل الى الملوك ، كما لم يكن يرغب في أن يصبح من « موسيقى البلاط » وان يكون في خدمة الاستبداد الملكى .

ولقد جلبت له موسيقاه الشهرة ، ولكنها لم تكن نوع الشهرة الذى يتمناه . فقد رفض فرصة كسب المزيد من الشهرة تحت رعاية الملك ، مثلما رفض قبل ذلك بنحو عام فرصة كسب الثروة تحت رعاية احدى العائلات البورجوازية . واضطر مرة اخرى لان يتخذ قرارا جذريا فلم يكتف برفض قبول (معاش) من الملك عن كتابه الموسيقى كلية ، ورغم هذا فقد كان ما كتبه عن الموسيقى كافيا لان يدفع الموسيقى الاوروبية نحو قنوات جديدة ، فبعد روسو اخذت الموسيقى اسلوب مونتسارت Mozart والذى تعد مقطوعته نسخة Bastien and Bastienne

معدلة من عراف القرية ، ثم يأتى بعد ذلك كل ما نعرفه عن الموسيقى الرومانسية ، ولقد تبين ان رامو كان نهاية لطراز معين من مؤلفى الاوبرا ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان روسو كان بداية لطراز جديد ، لانه كان مدينا بالكثير لبيرجوليزى ولغيره من المصادر الإيطالية ، ومع ذلك فقد كان تأثيره حاسما في اعادة التركيب الموسيقى .

ولقد تخلى روسو عن التأليف الموسيقى وعن باريس في وقت واحد ، وكرس كل وقته بعد ذلك للكتابة بينما كان يحيا وحيدا في مونت مورنيس Montmorency ولكنه لم يكن وحيدا بالفعل فاذا كان قد هجر مجتمع الاصدقاء الاغنياء (آل دويين وال بولنير) فانه وجد اصدقاء جددا في مارشال دوق لوكسمبورج وكونتيسة اوديتو houdetot وكونتيسة

عائلات معينة بالذات ويصغها بانها « أسوأ الحكومات » .

ويذهب روسو في جدله الى أن الارستقراطية الانتخابية تستمد قوتها ليس من طريقة الانتخاب وإنما من الاعتقاد بان الذين ينتخبون هم الحكماء الاتقياء ، وأنهم سوف يظلون كذلك وهذا هو ما يجعل من الصعب تحقيق ذلك في الواقع .

ولعل الصعوبة التي يؤكد بها روسو هنا هي أن هؤلاء الحكماء المنتخبين سوف يتصرفون في سلوكهم وافعالهم عن ارادتهم هم وليس عن الإرادة العامة ، ومن هنا يعدل روسو على رايه في أن الارستقراطية الانتخابية هي أفضل الحكومات ، بان يقول أن ذلك لا يصدق إلا إذا احترم الحكام الارستقراطيون حرية وسيادة الشعب ، ولكن من سوء الحظ أن جميع الحكام يطأون باقدامهم حرية شعوبهم وسيادتها أن عاجلا أو آجلا .



وهذا يمثل تناقضا آخر في نظرية روسو السياسية ، فهو لا يؤمن بإمكانية تطبيق ما يدعو اليه ، ففيما يتعلق بالشعب فانه يريد أن يحكموا انفسهم بانفسهم ويقوموا بسن القوانين الاساسية الخاصة بدولتهم ، لان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن لهم حريتهم ، مع خضوعهم للحكم ، أو بقول آخر هي الطريقة الوحيدة التي تتيح لهم أن يحكموا انفسهم . ولكن بما أن روسو يؤمن بان الأشخاص العاديين لا يملكون من الذكاء والحكمة ما يمكنهم من وضع قوانين مناسبة فهم يحتاجون بالضرورة لمن يتولى عملية التشريع ووضع القوانين لهم ، على ما كان

المساواة ، فقد كان ينكر مظاهر عدم المساواة التي تسود معظم أنحاء العالم ، ولكنه لم يكن يرغب في أن تحل المساواة المطلقة محلها ولذا كان يبحث عن ذلك المزيج الصحيح من « المساواة الطبيعية واللامساواة الوضعية » ، أي ذلك التدرج الذي يقترب من القانون الطبيعي قريبا شديدا . وكانت هذه الصيغة في نظر روسو تعنى المثال الافلاطوني القديم ، الذي يقضى بان يحتل كل شخص المكان الذي يجب أن يكون فيه ، وهذه هي الارستقراطية بآدق معانيها حيث قد نبذ الديمقراطية بغير مناقشة ، ففي الكتاب الثالث من « العقد الاجتماعي » يقول : « إذا كانت هناك أمة من الالهة فانها كانت تحكم نفسها حكما ديمقراطيا ، وهذه حكومة أكثر كمالا من أن تصلح للبشر » .

وفي الفصل التالي يدعي روسو أن الارستقراطية هي أفضل الحكومات ، موضحا أنه إنما يستعمل كلمة « ارستقراطية » بمعنى ضيق محدود . ويميز روسو بين ثلاثة أنواع من الارستقراطية ، يسمى الأولى بالارستقراطية « الطبيعية » ويضرب لها مثلا بالمجتمعات البدائية ، حيث يدعن الصغار للسلطة الأبوية التي يمثلها رؤساء العائلات كما هو الحال عند الهنود الحمر ، ولكنه لا يقصر وجود (الارستقراطية الطبيعية) على المجتمعات البدائية دون غيرها ، ولكنه يقول أنها « تناسب فقط هذه المجتمعات » ثم يتكلم روسو ثانيا عن الارستقراطية « الانتخابية » أو « الارستقراطية بالمعنى الصحيح للكلمة » وبينما يذهب الى أن هذه هي أفضل الحكومات الممكنة فانه يعلن بصراحة أنها « مثال » يصعب تحقيقه في عالمنا الواقعي . واما النوع الثالث فهو الارستقراطية الوراثية أو المتوارثة التي تقوم على تراكم الثروة في أيدي

الملايين البورجوازين في صالونات باريس ،
ومن السهل علينا ان نفهم سبب ذلك .

فالفرنسيون النبلاء الذين ينحدرون من
عائلات قديمة مثل دون لو كسمبورج كان
يمكنهم ان ينظروا خلفهم الى فرنسا كما كانت
قبل ان يدخل اسرة البوربون Bourbon
الملكية الاستبدادية ، وقبل ان يدمر ريشليو
Richelieu قصورهم الحصينة . فقد
كانوا يذكرون فرنسا الاقطاعية حين كان الملك
النبيل سيدا لاتباعه ، وحين كان لا يدين
الا بقليل من الولاء للملك . وبالطبع فان دون
لو كسمبورج وامثاله كانوا اصغر من ان تكون
لديهم ذكريات عن تلك الايام . ولكن مخيلتهم
التاريخية كانت تركز على معلومات اكيدة ،
وتصاحبها مشاعر قوية بالنفور والاستياء من
الملكية المطلقة ، والازدراء لاقاربهم من النبلاء
الذين سمحوا لانفسهم بان يصبحوا من رجال
الحاشية في قصر فرساي ، وللبورجوازين
الذين تملكوا الكثير جدا من ثروات الامة .

وكانت مواقفهم في الحياة ضربا من
الرومانسية ، فقد كانوا يعرفون ان القاب
الارستقراطية التي يحملونها هي القاب
جوفاء ، لانها تمنحهم بعض المزايا ، ولكن بغير
قوة او سلطة .

كانوا يحتلون مكانة اجتماعية عالية، ولكنهم
كانوا اقل اهمية في المجالات السياسية حتى
من الموظفين والكتبة الذين يخدمون الملك .
فحين عرف دون لو كسمبورج مثلا ان صديقه
ورببته روسو قد كان عرضه لالقاء القبض
عليه لم يملك اكثر من ان يساعده على
الهرب من باب خلفي في حديقة القصر، ويروده
بعربة تعود به الى سويسرا .

كان يفعل Solon او ليكوجوس Lycurgus
والاغلب ان يتمكن هذا المقنن من التغرير بالعامه
الاغبياء ويوهمهم بأنه تلقى تلك القوانين من
السماء .

وهذا معناه في نهاية الامر ان قيام نظام
يضمن السيادة الحقيقية للشعب امر معقد
ويستحيل تحقيقه، واما فيما يتعلق بالحكومة
الارستقراطية الحكيمة المنزهة من الاغراض،
وان كان يؤمن في الوقت ذاته بعدم امكان
احتفاظ اى حكومة بهذه الصفات لمدة طويلة،
وعلى ذلك فان الارستقراطية المنتخبة محكوم
عليها بالفشل في اخر الامر . ان حكم العامة
انما يولد في حالات الفوضى وعدم الاستقرار
بينما حكم الارستقراطية ينحدر الى مهاوى
الاستبداد والطفيان . ويتفق روسو مع
ارسطو في ان الانسان حيوان سياسى ، وان
طبيعة الانسان لا تحقق ذاتها الا من حيث
كونه مواطنا ، ولكن الله لم يعط الناس جميعا
ما يكفى من العقل او النقاء الخلقى ما يساعدهم
على ادراك امكانياتهم وقدراتهم كمواطنين ، كما
ان الحضارة الحديثة ، افسدت الناس بدلا
من ان تصالح احوالهم كما قد تفعل الحضارات
البسيطة . واما فيما يختص بالانسان الصالح
حقا - وقد كان روسو يعتقد في نفسه انه
انسان صالح حقاً - سوف يجد نفسه مرغما
وسط كل هذا الفساد الذى يشيع في العالم
الحديث لان يصبح ناسكا لاشيء الا لانه
يعجز عن تحقيق طبيعته كمواطن . وكان
روسو يعتبر حياته في مونت ميرنسى
Montmorency حياة راهب ، وان كان
هذا بالطبع لا يخلو من مبالغه ، فقد كان
يقضي كثيرا من الوقت مع جيرانه من ذوى
المكانة الاجتماعية العالية ، وكان يشعر معهم
بارتياع اكثر مما كان يشعر به مع جماعة
الموسوعيين المثقفين المتقدمين ، او مع اصحاب

توحى به اعمال روسو ، وان كان لم يذكرها صراحة ، لان من الصعب ذكر هذه الاشياء ، لقد ساعدته نشأته في جينيف على تكوين رؤية من المجتمع المثالى يعيش فيه القانون مع الحرية جنباً الى جنب . ولكن الصدمات التى تلقاها في جينيف ثم في غير جينيف قد علمته ان تلك الرؤية كانت رؤية فحسب ، وان الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هى العيش في عالم من صنع الخيال وترك عالم الحقيقة الواقع لمن يمكنهم الاستمتاع به ، مثل ذلك الصديق الذى اصبح عدوه الاكبر الماكر العنيف الجذاب الذى لا يحاسب نفسه على شىء : فولتير .

كان للدوق وامثاله من نبلاء السيف احلامهم عن فرنسا « لا وجود لها » حيث كانت مثاليات الفروسية تقضى بالا يقود الشعب ويحميه الا اشخاص من اصحاب الخلق الرفيع . وقد وجدت احلامهم صدى لها عند روسو في احلامه عن قيام عالم لا يتولى مناصب الحكم والمسئولية فيه الا افضل الرجال ، ولقد كانوا يعرفون ان عالمهم قد مات وراح الى الابد ، كما كان هو يعرف ان عالمه لن يستمر في الوجود لمدة طويلة اذا جاء على الاطلاق .

لقد سيطر عليهم جميعاً نوع من العجز المظلم الحزين ، وهذا عنصر آخر من الرومانسية

★ ★ ★

ادب الرحلات والمغامرات

- ١ -

باستثناء قصص (الف ليلة وليلة) ومغامرات السندباد ، وبضعة قليلة من الكتب في ادبنا القديم ، يستطيع المرء أن يزعم ، وهو آمن ، أن ادب الرحلات والمغامرات لا يحظى بحقه من الاهتمام في ادبنا العربي المعاصر ، كما هو الحال في آداب الأمم الأخرى . ومثل ذلك ادب السيرة ، والسيرة الذاتية بخاصة . ثمة شعور غامض لدى القارئ العربي والكاتب العربي ، أن الحديث عن الذات ينطوي على شيء من التفاخر ، وهو ما يتنكر له الدين ، وتحيد عنه قوانين الأخلاق الموضوعية عبر العصور . فليكون هم الكاتب العرب الذين استطاعوا أن يخرجوا للناس كتاباً في الادب يتجاوز الحديث عن الذات بصورة مباشرة ، ويخرج عن ذلك بالحديث عن العصر والاحداث ، وعن الآخرين ممن تركوا اثراً في نفس الكاتب واعطوا صورة للعصر . من السهل علينا نحن العرب أن نتحدث عن الآخرين ، وقد نتحدث عن أمور لا يحسن التحدث عنها ، ولكننا ندرجها في باب السيرة ، واخبار الأمم والملوك ، زاعمين أن في ذلك صورة العصر ووصف الزمان واهله .

وقد يشمخ فوق ذلك كله كاتب معاصر دون سواه هو الدكتور طه حسين . ففي كتاب (الايام) نجد سيرة ذاتية عن حياة الكاتب نفسه ، ولكن الحديث دائما عن « الفتى الضريس » تجنباً للحديث عن الذات ، وجريا على عادة الحديث عن « الغير » حتى ولو كان هذا « الغير » هو « الانا » .

أما في كتابة سيرة الآخرين ، فلا اكاد اجد كاتباً عربياً ، في القديم والحديث من ادبنا ، يكتب كتاباً في السيرة الا عن ملك أو أمير أو سلطان أو طاغية أو كاتب مشهور جداً أو مكروه جداً . وهو في كل ذلك ، يبالغ في المدح والقدح ، ويستعمل الصفات بأفعال التفضيل ، صيغة وبناء . وان هو اصطنع الموضوعية تجده يغوص في تفصيلات الحسب والنسب والتاريخ .. والجغرافيا ان شئت ، وتكون الحصيلة صورة للعصر مهزوزة في احسن الاحوال . من يستطيع ان يقبل على انه صحيح وواقع كل الذي نقرأ عن هارون الرشيد مثلاً ، وعن قصور البرامكة ، وعن مبادئ الخلفاء في الشرق والغرب ؟ كيف تسنى لخلفاء المسلمين ان يفتحوا البلاد وينشروا الدين وقيموا حفلات وأعراسا متواصلة بين الحرب والحرب ؟ بل ماهي نسبة ما حدث فعلاً مما نقرأ عن تاريخ العرب في الاندلس من المهرجانات ورخاء العيش الى جانب كل الحروب وكل الحملات منهم وعليهم ؟ كم من هذا حدث على الطبيعة وكم منه من نسج خيال الشعراء والكتاب ؟ ولكن التراث مقدس ويجب الا يصاب بمكروه ، حتى ولو كانت هذه الاصابة من باب الغربة والتصفية ، وليذهب الزبد جفاء ويمكنك في الارض ما ينفع الناس .

ولم تكن الحال افضل من ذلك بكثير في الآداب الأوروبية حتى بواكير القرن التاسع عشر . وقد نستثنى في الادب الانجليزي مثلاً (سيرة دكتور جونسن) التي كتبها في اواخر القرن الثامن عشر صديقه ومراقبه (بوزويل) . فهذا كتاب ضخيم يعده الباحثون مرجعاً جوهرياً عن الشاعر الناقد الاكبر في ادب القرن الثامن عشر الانجليزي ، قد لا يفوقه سوى (سيرة الشعراء) الضخمة التي كتبها جونسن نفسه عن عدد من شعراء لغته ، ما كان لنا ان نعرف عنهم الكثير لولا ما فعل « دكتاتور » الادب الانجليزي في القرن الثامن عشر .

وقد ازدهرت كتابة السير وأخبار المغامرات في الادب الانجليزي، والفرنسي ، في القرن التاسع عشر بخاصة ، ذلك القرن الذي كان يقدس حياة البيت ، ويحترم الثقافة وسعة الاطلاع ، فيحتال على ليالي الشتاء الطويلة بجلوسات طويلة الى جانب المواقد في صحبة « كتاب » هو في الغالب « رواية » باجزاء ثلاثة . وهكذا ازدهر أدب (تشارلز ديكنز) ومن تبعه من كتاب الرواية . وفي عصر كانت فيه القراءة فضيلة وبخاصة في العهد الفكتوري (١٨٣٧ - ١٩٠١) تجد الكثير من الصور الشخصية لسيدات ذلك العصر تؤكد على وجود « الكتاب » في يد السيدة الانيقة ، الى جانب المروحة . وكان من عادات العصر الفكتوري ان يجمع الاب ، أو الام ، اولاد الاسرة حول مواقد الشتاء ، ليستمعوا الى « قراءة » من كتاب فيه المتعة والفائدة . كل ذلك طبعا كان ممكن قبل ان يدخل البيوت الراديو أو التلفزيون .

في هذه الكتب الثلاثة التي اقدمها للقارئ العربي ثمة خيط يجمعها معا ، وهو انها كتب سيرة ، ومغامرة ، ورحلات ، فيها جميعاً متعة من نوع أو آخر . وهي ثلاثتها كتب تصور الشخص ، والعصر ، والزمان ، والمكان ، من خلال تصوير اشخاص آخرين يجمعهم جامع مع .

موضوع الكتاب أو مع كاتبه . في بعض هذه الكتب اشارات أو تفسيرات قد تكون مفاجئة للقارئ الذي لديه سابق معرفة بموضوع الكتاب من مصادر أخرى . وفي بعضها تصحيح لأفكار سابقة عن الكاتب أو العصر . ولأن هذه الكتب الثلاثة قد نشرت عام ١٩٧٧ (واحد منها نشر أول مرة عام ١٩٤٣ ، ولكن إعادة النشر تتضمن قبول الناشر بصحة ما جاء فيه وبقاء المتعة أو الأهمية على ما كانت عليها عند أول نشر) فانها تشكل أهمية في نظري ، لأنها إلى جانب حدائتها وطراوتها ، تحمل القارئ على إعادة النظر في بعض آرائه عن العصر أو الكاتب بما تنقل من صور حية ، ممتعة ، مثيرة في كثير من الأحيان .

الكتاب الأول (كونن دويل : حياته وفنه) يتحدث عن كاتب انجليزي (١٨٥٩ - ١٩٣٠) يعرفه قراء العربية ، وكثير من قراء الانجليزية ، على أنه مؤلف مغامرات شرلوك هومز (دون سواها . وهذا يمكن تبريره إلى حد كبير ، فهذه المغامرات قد شغلت قراء الانجليزية على جانبي الأطلسي قرابة نصف قرن من الزمان ، واحسب انها ما تزال تثير تعجب الكبار والصغار على حد سواء . ولكن ثمة ما يثير ويعجب في حياة سر آرثر كونن دويل إلى جانب مغامرات شرلوك هومز ورفيقه دكتور واتسن . لقد قيل في المجالات النقدية أن شخصيات دويل تأتي في الشهرة بعد شخصيات شكسبير مباشرة ، وأن مغامرات هومزمع الدكتور واتسن تذكر القارئ بمغامرات (دون كيخوته) وتابعه (سانتشو بانزا) على اختلاف طبيعة المغامرات في الحالين ، ولكن ثمة في حياة دويل وسيرته من المتعة ما يفوق ما نجده في حياة سرفانتس عبقرى اسبانيا ومعاصر شكسبير .

والكتاب الثاني (رديارد كبلنج وسيرته العجيبة : حياته وآثاره) يتحدث عن حياة أديب انجليزي آخر (١٨٦٥ - ١٩٣٦) يعرفه قراء العربية على أنه « شاعر الامبراطورية » البريطانية وداعية الاستعمار . ولكن مؤلف الكتاب يقدم لنا في ضوء آخر هذا الأدب المخضرم ، الذي عاش نصف سنواته السبعين في القرن التاسع عشر والعصر الفكتوري ، وعاش النصف الثاني في القرن العشرين الذي ابتداء بحرب البوير في جنوب افريقيا (اللفظ « بوير » بضم الباء ومد الواو الساكنة ، وهي كلمة هولندية تعني « فلاح ») اذ تمرد الفلاحون الهولنديون الذين استوطنوا جنوب افريقيا على سلطة الامبراطورية البريطانية في ١٨٩٩ وكانت الحرب التي ما زالت تستمر في جنوب افريقيا بعد ان تطورت واستشرت في شعاب شتى . يرى الكاتب هذه المشاعر « الامبراطورية » لدى كبلنج على انها مفالة في « الوطنية » وانها ترفض « الاستعمار » و « الامبريالية » بالمعنى المعاصر . ويظهر الكاتب هذا الأديب على أنه كان ينتقد بشدة موقف السياسة البريطانية من الهند والمستعمرات ، كما أنه كان يخاصم السياسة الاميركية في بواكير القرن العشرين ، اضافة الى أنه كان يحذر بلاده والعالم أيضا من خطر ظهور القوة الألمانية على شكل « قومية نازية » اعتدائية ، وبخاصة عندما وصل هتلر إلى زعامة الحزب النازي عام ١٩٣٣ . توفي كبلنج عام ١٩٣٦ قبل ان يدرك الحرب الأوروبية الثانية عام ١٩٣٩ ، مما جعل الكثير من الانجليز يدرك ان في نبوءات كبلنج ما كان يبررها ، فرفع ذلك من سمعته كأديب ، رغم ان آراءه السياسية لم تكن من النضج والوضوح بما يجعله في عداد السياسيين ، فضلا عن ادباء السياسة .

اما الكتاب الثالث (كان الاهالي كرماء ... فاقمنا الليلة) فهو لصحفي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٠٩ وما زال يكتب وهو في السبعين . لا احسب ان (نويل باربر) مؤلف هذا الكتاب يحمل مشاعر حبيبة تجاه العرب ، ولكن يحسن بنا نحن العرب ان نقرأ للصديق الكريم (فقلت لها ان الكرام قليل) كما نقرأ للعدو اللئيم (قالت ايهم ؟ فهم كثر) . في هذا الكتاب لا اجد سوى « نهشة » سريعة من الكاتب لعربي في شمال افريقيا « طعنه من الخلف طبعاً » يوم كان العشرات بل المئات من الفرنسيين يقتلون اثناء حرب التحرير في شمال افريقيا العربية ، كما يضيف الكاتب في تبرير خجول . وما عدا ذلك ، فان الكتاب يطفح بمغامرات غريبة واقاصيص طريفة حدثت جميعها في الاربعين السنة الاخيرة ، وما يزال ابطالها على قيد الحياة في الغالب ، ومن غاب منهم عن الحياة فهو ما يزال ماثلاً في ذاكرة الجيل المعاصر من القراء . هذا رجل بدأ مغامراته قبل سن الخامسة ، يوم اخذه الالمان اسير حرب عام ١٩١٤ مع جميع ركاب السفينة الدانمركية المتجهة الى بريطانيا . في السادسة عشرة نشر اول مقالة وما زال يكتب عن مغامراته بين القطبين ، في اميركا خلال الحرب الثانية ، في جزر البحار الجنوبية الدافئة ، سنغافورة والهند والشرف الاقصى ، في مجاهل افريقيا ، فضلاً عن البلاد الاوروبية وما خبر من الحياة في باريس عند نهاية الحرب العالمية الثانية . هنا نقرأ كتاباً أشبه بشريط سينمائي يمتد على مدى الكرة الارضية خلال اربعين عاماً . وترى عشرات من المشاهير يتحركون أمامك وتسمعهم يتكلمون .. أناس مثل تشرشل ، مارلين ديتريش ، علي خان ، ريتا هيوارت ، الدالاي لاما ، الملك حسين ، دوق ونذرور ، اناسيس ، بيكاسو ، مونتغمري سنغمان رى ، ايان سميث ، وقائمة طويلة من رجال السياسة والحرب والفن . كل ذلك بأسلوب غاية في الفكاهة ، واذا بدا عليه شيء من الجد عرفت ان مفاجأة تنتظر ، ولا تلبث ان تواجهك حكاية او حادثة او طرفة لم تكن تتوقعها في الغالب .

في الوقت الذي يكون فيه الكتابان الاولان من كتب سيرة الادباء بالدرجة الاولى فانهما لا يخلوان من القيمة الاكاديمية ، لانهما في الاساس يناقشان « الرجل وآثاره الادبية » ، بمعنى ان الكتائين الاولين يتطلبان من القارئ احياناً يقظة ومعرفة اساسية باعمال المؤلف الى جانب ذلك نلمس خصائص اسلوب الكاتب ، وهو اديب معروف في الحالين . لذلك نجد تأنقاً في الاسلوب لا تغيب عنه الرصانة والجدية . اما في كتاب (نويل باربر) فاننا امام مراسل صحفي يمتاح البحور ويجوب البلاد ويكتب على عجل ، ولكن اسلوبه في غاية الطرافة والطراوة ، أعلى منزلة من التقرير الصحفي ، ويكاد يضارع اسلوب الاديب الذي نلمسه في الكتائين الاولين .

ويجمع الكتب الثلاثة كذلك ولع خاص بالفن ، والرسم بخاصة . ففي حالة دويل نجد والده وجده من الرسامين ، وكان والد كبلنج مدرس الرسم والفن الزخرفي في مدرسة الفن بمدينة بومباي بالهند . اما نويل باربر ، فعلاوة على معرفته الواسعة برسامي المونمارتر والحى اللاتيني بباريس فقد كان هو يرسم كذلك . وثمة ظاهرة اخرى تجمع الكتب الثلاثة وهي ان الكتاب الثلاثة بدأوا حياتهم في العمل الصحفي ، وازدهرت كتاباتهم في صحف بلادهم وصحف بلاد اخرى حيث نشرت اهم اعمالهم اللاحقة . واذا كان اعتلال الصحة قد اقمع نويل باربر عن التطواف في أرجاء العالم فانه ما زال يكتب عن العالم الذي عرف .

١ - هيسكت بيرسن : كونن دويل ، حياته وفنه ، لندن ١٩٧٧

عندما نشر بيرسن هذا الكتاب عام ١٩٤٣ كتب مقدمته الكاتب المعروف جراهام جرين يعبر فيها عن اعجابه بالكتاب وبأسلوب كاتب السيرة . تقول المقدمة ان ابرز ما في اسلوب الكتاب ان بيرسن يحمل القارئ على الوقوف في صف المؤلف موضوع الكتاب على حساب كاتب السيرة نفسه ، وتلك صفة لا نجدها الا عند مشاهير كتاب السيرة ، وعلى راسهم دكتور صاموئيل جونسن . وربما كان في ذهن جرين (سيرة الشعراء) الذي سبق ذكره في هذا العرض . وأرى ان جرين لا يحيد عن الحق في هذا القول . فانت تجد كاتب السيرة لا يتنازل عن حقه في ابداء رأى او نقد لا يكون « في صالح » دويل نفسه ، ولكنه يفعل ذلك بأسلوب يجعلك تنحيز الى جانب دويل وتلتبس من كلام الكاتب بما يساند رأيك . وفي هذا ما يزيد متعة القراءة ويجعلك اقرب الى شخصية المؤلف واعماله ، ويحدو بك ان تقرأ او تعيد قراءة ما سبق لك ان خبرته من مؤلفات دويل . ولعمري ذلك احسن نجاح يحققه كاتب سيرة : ان يحملك على الاهتمام بموضوع سيرته .

لقد زاد ما كتبه بيرسن اليوم على عشرة كتب في ادب السيرة ، منها كتاب عن سيرة شكسبير وآخر عن برنارد شو وثالث عن اوسكار وايلد . ولعل افضل صفة في هذا الكتاب ان اسلوبه يجرى « طبيعيا » دون حماس او تشنج . فهو يسوق الاحداث والتواريخ في هدوء العارف المحيط بما يكتب عنه . وعلى صفحة العنوان تقرأ عبارة بسيطة قالها كونن دويل بعد ان بلغ من الشهرة مبلغا اوصله لقب « سير » . يقول دويل « انا الرجل الذي في الشارع » بمعنى انه ابعد ما يكون عن اوصاف افعال التفضيل التي تقاسي منها اغلب الكتابات العربية بشكل او بآخر . . فنحن قوم اذا راينا عشقنا ... بالطيف . واذكرهنا ... بالطيف ، ايضا .

يقع هذا الكتاب في ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتوزعها اثنا عشر فصلا ، تزينها اربع عشرة صورة للمؤلف في مراحل شتى من حياته ، وبينها صور لبعض الشخصيات الادبية ممن عرف

الفصل الاول هو فصل الحسب والنسب وسنوات الطفولة وايام الدراسة . ولكنك هنا لا تجد الا ما يعين على تحديد المهاد والنشأة الاولى . فتجد ان هذا « الرجل الذي في الشارع » لم يكن يختلف عن الالوف من امثاله الا في كونه يمتلك موهبة عرف كيف يسير بها في درب هو غير الدرب الذي يختطه الاهل في الغالب ، او المدرسة ، او مطالب المجتمع مما تعارف الناس عليه . كان يمكن ان « ينخرط » دويل في سلك الكنيسة بحكم نشأته الفقيرة التي تحمله على دراسة لا تكلف الاسرة مالا . وكان يمكن ان يصبح دويل طبيبا مثل الالوف الذين تخرجوا في جامعة ادنبرة العريقة في دراسة الطب . ولكن الموهبة الادبية والقدرة على الكتابة و « نسج الاقاصيص » جعلت من ذلك الفتى اعظم كاتب مغامرات (واعتذر عن افعال التفضيل هذه) عرفته الانجليزية .

يرجع نسب ارثر كونن دويل الى اصول ايرلندية ، مثل برنارد شو واوسكار وايلد . فقد نرح جده لآبيه من دبلن الى لندن عام ١٨١٥ ، واشتغل بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وخلف اربعة اولاد عمل جميعهم في الرسم . كان اصغرهم ، والد آرثر ، موظفا حكوميا يعالج الرسم ولا يربح

أكثر من ٥٠ باون في العام ، اضافة الى دخله من الوظيفة الذي لم يزد على ٢٤٠ سنويا . ولد آثر في أدنبره باسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذي نشر فيه بالانجليزية كتابين تركا ابلغ الاثر في ثقافة العصر وتفكير الجيل وهما كتاب دارون : (اصل الانواع) وترجمة فتزجيرالد (رباعيات عمر الخيام) . وسنرى ان الكتاب الاول حمل الكثير من الناشئة والشباب في انجلترا على الابتعاد عن الدين وما تعلم الكنيسة والكتب المقدسة ، دون الوقوع في الالحاد غالبا ، بل باتخاذ ما دعي بالمذهب « العلماني » اي اعتناق العلم مذهبا يخاطب العقل ، وعدم التنكّر للدين الذي يخاطب الروح ، وكان دويل الى جانب جذوره الايرلندية ونشأته الاسكتلندية انجليزيا بالاخيار . يقول الكاتب ان دويل قد جمع بذلك ما في الطبع الايرلندي من فروسية وشهامة وحماس ، وما في الطبع الاسكتلندي من عزة واحتمال ، وما في الطبع الانجليزي من عناد وروح فكاهة . في السابعة من عمره ذهب الفتى الى المدرسة ، وكان عنيدا مقاتلا مما جعله يحتمل عقوبات المعلمين الذين كانوا « يضربون بالمطاط الهندي تسع ضربات على كل كف حتى لا يطبق الفتى ان يفتح الباب لدى خروجه بعد اخذ العقوبة » . وفي المدرسة اظهر ميلا شديدا الى قراءة كتب الادب ، مما جعل لجنة المكتبة تتخذ قرارا « بعدم تجديد اعادة اكثر من ثلاثة كتب في اليوم الواحد » وفي تلك السن المبكرة اظهر الفتى ميلا شديدا آخر نحو الشعر ، فحفظ قصيدة طويلة من نظم (ماكولي) بقى قادرا على « تلاوتها غيبا وهو في الخمسين من العمر » . وفي التاسعة دخل المدرسة الاعدادية فكره الاغريقية ونفر من اللاتينية والتربية اليسوعية والحياة الصعبة في اسلوب الطعام ، وحتى في اثناء اللعب . ولكنه يذكّر باعتراؤه في الرابعة من عمره جلس الى الكاتب الكبير (تاكري) مؤلف رواية (معرض الخيلاء) وان الكاتب الشهير (جورج ميريدث) كان من اصحابه . وفي السادسة عشرة أنهى الفتى أكثر دراسته الثانوية بتفوق وقضى سنته الاخيرة في النمسا برعاية الاءاء اليسوعيين . ورغم أنه لم يقد كثيرا من تلك السنة لكنه استطاع زيارة عمه في باريس في طريق العودة الى انجلترا ، وكان يسير على مقربة من قوس النصر وليس في جيبه غير قرشين . وعندما غادر المدرسة الثانوية ودعه مدرسته المشرف بقوله : « دويل ، انك لن تصلح لشيء » ! .

الفصل الثاني بعنوان : « أعمال متفرقة » يتحدث عن دخول الفتى آرثر كلية الطب بجامعة أدنبره عام ١٨٧٦ بتشجيع من الوالدة المدبرة ، التي رفضت لابن الاسرة الفقيرة ان يعمل امعلا دون قابلياته الفكرية ، في سبيل كسب العيش لاسرة تتكاثر عددا برعاية أب « هائم بين غيوم الفن » لا يكسب اكثر من مرتبه من الوظيفة بكثير . وكان ان دخل آرثر كلية الطب . ولكن دراسة « النبات والكيمياء والتشريح والفلسفة » لم تمنعه عن التهام أعمال تاكري ، ميريدث ، واشنطن أرفنج ، آديسون سويفت وغيرهم من المشاهير . كان كل كتاب يشتريه يعنى التضحية بشمن وجبة غداء . لقد شغله (ماكولي) الذي « يعرف كل شيء » كما شغله ادجار آلن بو الذي « يعالج كل شيء » . وكان من بين اساتذة الطب في أدنبره اثنان ممن ظهروا في قصص دويل ومغامراته : الاول « دكتور بل » الذي ظهر في شخصية (شرلوك هولمز) نفسه ، والثاني « البروفسور رذر فورد » الذي ظهر في شخصية (تشالنجر) وكان ثمة غيرهم ممن ظهروا في شخصيات المفامرات امثال « موريارتي » و « ماراكوت » . في الجامعة تطور تفكير دويل باتجاه اليقين الجديد الذي اشاعه كتاب دارون ، فوجد في العلمانية مهربا من تزمّت اليسوعيين

الذين اربعة قول احدثهم بأن « من كان خارج كنيسة روما فنصيبه اللعنة الابدية » . وبعد سنتين من الدراسة الجامعية فكر دويل بالالتحاق بالجيش ، وكانت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ فرصة لذلك . ولكن تطوعه في الخدمة الطبية في تلك الحرب لم يدم طويلا ، فعاد الى لندن يواجه الفقر . وما لبث ان حصل على وظيفة لمدة اربعة اشهر بدلا عن طبيب ريفي ، حصل لقاء ذلك على ٢ باون في الشهر فأحسن بانفراج كبير . وفي ضواحي مدينة برمنجهام ، اثناء العمل بدلا عن الطبيب ، بدأ يكتب أولى قصصه ، وقد شجعه صديق آنس فيه براعة في كتابة الرسائل . ولما عرض قصته الاولى على مجلة معاصرة ادهشه ان يتلقى مكافأة قدرها ثلاثة جنيهات ، اى اكثر من مرة ونصف مرتبه الشهري كبديل طبيب . ولكن هذا التحسن الطفيف في الوضع المادى قابله سوء في صحة والده ، واضطراره الى التخلي عن العمل ، ولم ينقل الموقف ما كانت تساهم فيه شقيقاته الثلاث من مرتباتهن . وفي اوائل ١٨٨٠ عرض عليه ان يكون طبيب سفينة صيد لقاء ٢١٠ باون شهريا اضافة الى ٣ شلنات عن كل طن من زيت الحيتان التي تصطادها السفينة . كانت الحياة قاسية في البحار الشمالية ولكن دويل عاد وفي جيوبه « خمسون قطعة ذهب ادخلت السعادة الى قلبه وهى تفتش عنها في ملابس الطبيب العائد من سفينة صيد الحوت » . وفي سنته الاخيرة في الجامعة تعرف دويل على « جورج بكن » الشاب العجيب الدهن الخصب الخيال ، الذى لا ينفك يأتى بالاختراع تلو الاختراع ، يدافع عنها في لغة سيالة عجيبة ، الهبت خيال دويل وتركت اثارها في مغامراته . وفي ١٨٨١ تخرج دويل طبيا وحصل على وظيفة في سفينة اخرى تنجيه نحو الاقاليم الدائنة في غرب افريقيا هذه المرة بدل الطب الشمالي . كان مرتبه كطبيب متخرج ١٢ باونا هذه المرة . ويبدو من المقارنات الحسابية ودراسة نفقات المعيشة التي يذكرها هذا الكتاب ان الاجور والاسعار هذه الايام تعادل مشرين ضعفا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بدأ دويل يكسب أولى نقوده ، وبذلك تكون الاثنا عشر باونا تعادل ٢٤٠ باونا هذه الايام ، وهو مبلغ غير قليل بالنسبة لفتى كان يصارع الفقر حتى تخرج طبيا برغم الصعاب . ولكن رحلة القطب ورحلة غرب افريقيا لم تترك عليه اثرا مفيدا في تطوره الادبى والدهنى . انه يذكر ان « مقالات مكولي » كانت ترافقه في الرحلتين ، ويذكر باعتزاز ان فرنسيا كان يصارع الحمى في رحلة غرب افريقيا اعطاه كتابا فرنسيا بعنوان « الجو » . كان هذان الكتابان امتع ما يذكره دويل عن الرحلتين ، هذا الى جانب « المغامرة » بمعناها العام مما رافقه في الحالين .

الفصل الثالث يدور حول صديقه « دكتور بد » . كان والد « بد » طبيا عريقا في مدينة برستول ، واليها جاء ليفتح عيادة بعد تخرجه . ويبدو ان هذا الصديق المغامر لم يفلح في اجتذاب المرضى . « لا احد يثق بك في مدينة يعرفك الجميع فيها يوم كنت طفلا تسرق الفاكهة من اشجار الجيران » وكانت النتيجة ان « بد » اصبح على حافة الافلاس وصار يحلم بمخترعات تعود عليه بشروات طائلة . وكان ان تسلم دويل برقية من صديقه بد يدعو فيه للحضور فورا الى برستول ، وفي محطة القطار وجد دويل صديقه العاصف في انتظاره ، وبدأ من رصيف المحطة يشرحه تفصيلات اختراع جديد من دروع الحديد التي يحملها الجندي فلا ينفذ منها الرصاص ، ويبيع ذلك الاختراع الى الحكومة ليربح منه الملايين . كان بد يتدفق بالتفصيلات ، ودويل يصفى اليه ويكتنز في ذهنه افكارا سوف تظهر في خلق شخصيات مغامراته في قصص

المستقبل . وفي الختام لم يقتنع دويل بتصرفات صديقه وقفل راجعا الى برمنجهام حيث كان يعمل مع طبيب . وما لبث ان تسلم برقية ثانية من بد ، وقد انتقل الى بليموث وفتح عيادة صار يكسب منها الكثير بانواع الحيل والالاغيب في مدينة لا يعرفه فيها احد . استطاع بد ان يقنع دويل بترك برمنجهام والالتحاق به في بليموث ليساعده في عيادته التي كان يكسب منها اكثر من ٣٠ باون يوميا (٦٠٠ باون هذه الايام ؟) . واقتنع دويل ولحق بصاحبه . ولكن وجد بد انه قد اعلن عن الكشف مجانا ، ولكن على المريض ان يشتري منه الدواء الذي كانت زوجته تعده بلا انقطاع . لم يكسب دويل اكثر من باونات قليلة لفترة طويلة ، ولكنه انقطع الى الكتابة . كان بد يسعى معاملة المرضى ويتعالى عليهم ، « لان احترام المريض لا يدفعه الى احترام الطبيب » كان بد يريد « ان تنتشر الامراض وتعم الوبئة ليزداد ربح الطبيب » . مرة كان بد يسير على شاطئ البحر فوجد فتى يصطاد السمك فرفسه في قفاه فسقط الفتى في البحر . وما كان من بد الا ان قفز وراءه وانتشله من الماء ، وخلق بذلك مشهدا مسرحيا امام جمهور ليستطلع ما حدث ، فكسب الدكتور بد شهرة المنقذ الانساني في تلك المدينة التي جاء « ليكنس ما فيها من نقود » .

ولكن دويل لم يستطع الانسجام مع هذه الاحايل ، فما لبث ان انفصل عن صاحبه ، مسجلا فشله كطبيب محتال ، ولكنه بدأ يشق طريقه في كتابة القصص وعالم التأليف ، فترك بليموث وفيها صاحبه الدكتور بد .

يتحدث الفصل الرابع عن « دكتور دويل » الذي جاء ليفتح عيادة في « ساوتسي » من احوال مدينة بورتسموث ، وكان ذلك في تموز/يوليو ١٨٨٢ . كانت البداية في غاية الصعوبة ، بين البحث عن منزل يقيم فيه عيادته ، ولم يكن في يده من النقود ما يجعل البداية سهلة . ولكنه افلح في ذلك بتقدير شديد على نفسه . كان ينام على سرير حديد وهو يرتدى معطفه وتحت رأسه كتاب « مبادئ الطب » . كان اول زواره كاهن المدينة ، يريد ان يكسبه للكنيسة ، فانقلب مدعورا من طبيب يعتقد ان « المسيح بشر فان مثلنا » . وكان ثاني زواره موظف من شركة الغاز يطالب بمبلغ لم يدفعه المستأجر السابق . ولم تكن ذكرى عمله مع صديقه بد مما يدخل السرور على نفسه في تلك الوحدة والفقر . فقد اكتشف دويل ان بد وزوجته كانا يفتشان ملابس دويل ويقرآن رسائل والدته ، التي لم تكن راضية عن تلك الشراكة بين ابنها وبد المحتال . وفي اواخر الثمانينات توفي بد ولم يترك لزوجته من المال ما يقيم الاود ، فانطبق عليه المثل العراقي السائر « الذي يعيش بالحيلة يموت بالفقر » . كان على دويل ان يواجه الحياة وليس في جيبه اكثر من باون واحد . فسارع بالكتابة الى محرر مجلة « مجتمع لندن » حيث سبق ان نشرت بعض قصصه غفلا من الاسم ، وعرض قصة جديدة ، راجيا المحرر ان يرسل له دفعة على الحساب . ولما وصلت « العشرة باون » ارتفعت معنويات الطبيب المؤلف ، لان المبلغ ضمن ايجار العيادة للشهر الثلاثة القادمة . ولما اشتهر اسم دويل سارع محرر المجلة الى نشر قصصه تحت اسم المحرر نفسه ، فافسد بذلك « معروفه » السابق بارسال الباونات العشرة . مرة كل يومين او ثلاثة كان الدكتور دويل يستقبل مريضا لا يستطيع دفع اكثر من شلن ونصف . وبعد اسابيع وصل اخوه الاصغر ليقم معه في بورتسموث ، فكان خير عون للطبيب في تنظيف الدار ، رغم انه كان

يقتسم كسرة الخبز اليابس مع اخيه الطبيب . مرات عديدة اضطر دويل ان يرهن ساعته لقاء بعض المال يعبر به ازمة من الازمات الكثيرة . كل هذا لم يجعله يحاول بعض احاييل دكتور بد ، فقد كانت اخلاق دويل من معدن اخر . ولماوصلته رسالة توصية من عمه مدير متحف دبلن الى مطران المدينة الكاثوليكي رفض دويل استخدام تلك الرسالة لتحسين مدخوله في العمل فمزق الرسالة ولم يذكرها لاحد . ومرة رمى القدر في طريقه صاحب دكان اغذية مصابا بالصرع ، استطاع دويل ان يخفف من نوبته ، وكانت النتيجة ان دويل حصل على مصدر من الزبدة والخضار واللحم كلما أصيب الرجل بنوبة . وعندما يتعافى يعود دويل الى الخبز اليابس . ولكن العمل ما لبث ان تحسن قليلا ، فصار دويل يخرج الى نوادي المدينة ويساهم في النشاطات الرياضية مما اكسبه الكثير من المصارف . ولكن دخله من العيادة لم يصل ارقاما كبيرة قط . فبين ١٨٨٢ - ١٨٩٠ لم يستطع ان يتدرج الى اكثر من ٣٠٠ باون في السنة . ولكن القدر هذه المرة ارسل اليه فتاة تزوج منها ، كان لها دخل سنوي بحدود ١٠ باون . وفي عام ١٨٨٥ ، عاد اخوه الى يوركشاير وحصل دويل على دكتوراه الطب ، وتزوج ليبدأ حياة على شيء من الراحة المادية .

« اثناء الانتظار » هو عنوان الفصل الخامس . كان على دكتور دويل ان ينتظر طويلا بين زيارة مريض وآخر ، وما كان له ان يضيع وقته في الانتظار سدى . كان مشغولا « يحولك الحكايات » ويكسب من نشرها اكثر مما يكسب من عيادة الطب . فبين ١٨٧٨ - ٨٣ نشر عددا من القصص الغريبة التي استهوت الصغار والاحداث على نطاق واسع . كانت الحكاية تعود عليه بثلاث او اربع جنيهات ، وفي عام ١٨٨٣ نشرت له مجلة « كورنهل » حكاية لقاء ٢٩ جنيها (اكثر من ثلاثين باونا ، وهو مبلغ محترم في تلك الايام) . اثار تلك الحكاية اهتماما بالدكتور دويل ، عندما ظهرت في مجلة اسسها الروائي الكبير (تاكرى) . قالت صحيفة مسائية تصدر في لندن ان الحكاية « تجعل تاكرى يتقلب في قبره » . ولكن آراء نقدية اخرى قالت ان اسلوب دويل يذكر القراء بأسلوب روبرت لويس ستيفنسون . ولكن القصص اللاحقة لم تنل نفس الاهتمام ، فكان محرر « كورنهل » يرفض خمس قصص من كل ست . ولكن دويل لم يفقد حماسه فاندفع في كتابة « رواية جون سمث » التي ضاعت في البريد بين ناشر وآخر . ولم يؤثر ذلك في دويل ، لانه بعد فترة من الزمن الحقها برواية اخرى بعنوان « شركة جردلستون » . كانت الرواية الاولى سيرة ذاتية ، وكانت الثانية ملأى باوصاف محيطه وجامعته والناس الذين عرفهم . ومرة اخرى لم يفلح دويل في اقناع احد الناشرين بهذه الرواية ، ولم يفقد الامل ، فراح يقرأ كثيرا من قصص المغامرات ويدرس شخصيات الامريكي ادجار آلن بو ، مطورا بعض تلك الشخصيات لتناسب الدكتور بل في جامعة ادنبرة ، فكان اول ظهور لشخصية (شرلوك هومز) في روايته التي انجزها عام ١٨٨٦ بعنوان « دراسة بالاحمر » . ولم تفلح هذه الرواية على الفور ، اذ لم يدفع بها اي ناشر اكثر من ٢٥ باون فصدرت في السنة اللاحقة . وكان عليه ان يفيد من الانتظار فراح يقرأ في شغف تاريخ الحركة البيوريتانية (فرقة المتطهرين من القرن السابع عشر) اضافة الى (مقالات ماكولي) فاستغرقه ذلك سنة من

القراءة وخمسة أشهر حتى كتب رواية (ميخا كلارك) فانجزها في أوائل عام ١٨٨٨ . في هذا الوقت بدأت قصة شرلوك هومز تشتهر ، ولكن ذلك لم يساعد في ضمان ناشر لروايته الجديدة ، لأن « أغلب شخصياتها تعود الى القرن التاسع عشر دون القرن السابع عشر » . وفي هذا الوقت ارتفع دخل دويل من الكتابة الى ٥٠ باون سنوياً، وبدأ الحظ يتسم له ، اذ افلح ناشر امريكي تهريب نسخة من (دراسة بالاحمر) ونشرها في امريكا فحازت رواجاً كبيراً ، فجاء ناشر امريكي اخر الى لندن يبحث عن مؤلفين بريطانيين ، وكان أن دعي دويل الى عشاء مع عدد من الادباء الايرلنديين بينهم اوسكار وايلد . كان وايلد قد قرأ (ميخا كلارك) وتحمس لها ، مما شجع دويل وكانت حصيلة ذلك العشاء الأدبي أن اتفق وايلد مع الناشر الامريكي على كتابة (صورة دوريان جراي) كما اتفق دويل على كتابة (علامة الاربعة) حيث ظهر فيها شرلوك هومز للمرة الثانية . وبعد أن ظهر اهتمام النقاد برواية (ميخا كلارك) وتحمس دويل وقضى سنتين في كتابة رواية تاريخية جديدة بعنوان (الفرقة البيضاء) قرأها أكثر من مئة مجلد بالانجليزية والفرنسية عن تاريخ الملك ادوارد الثالث « اعظم الحقب في التاريخ الانجليزي ... لان تلك الفترة شهدت ملوك فرنسا واسكتلندا في سجون لندن » . كان دويل شديد الإعجاب بالمعرفة الموسوعية لدى ماركول ، فراح يقلد أسلوبه في كثرة التفاصيل وغزارة المعلومات في رواية (الفرقة البيضاء) . وربما كان ذلك أكبر ما يؤخذ على الرواية كما يؤخذ على روايته الأخرى (سرنابجل) . هنا يحار المرء وهو يقرأ ان كان الكتاب تاريخاً ام رواية تاريخية . والفرق ان على الروائي ان يمزج الحقائق بشيء من الخيال كي يخلق روح العصر فيلمس القارئ مظاهر الحياة فيه ، وذلك ما لم يفلح دويل في بلوغه في رواياته التاريخية . ولكن دويل كان شديد الاعتزاز برواياته التاريخية ، ولم يكن ينظر نفس النظرة الى القصص والمغامرات التي « يحكوها » في سهولة ويسر . ولكن الواقع اثبت ان تلك القصص هي التي خلدت ، رغم ان الفنان لم ينفق عليها من الجهد ما انفق على رواياته التاريخية . واذا كان يحسب تلك القصص دون براعته الفنية ، فقد كان جلبرت وسليمان من نفس السراى حول الاوبرات التي خلدت اسميهما وطبعت العصر بطابعهما . في قصصه ومغامراته كان دويل يعبر عن ضمير العصر ويعكس رغبة القارئ العادي . فقد كان من « اوساط الناس » وهو الذي يقول عن نفسه انا « الرجل الذي في الشارع » . لقد كان العصر يتفجر بحثاً عن المغامرة وعن كل ما يبعده عن القوالب الفكتورية في « السلوك المحترم » فكان دويل يكتب لمثل هذا الجمهور بين ١٨٨٥ - ٩٠ . ومثل غالبية الناس في فترة « نهاية العصر » ممن لم يكتمل تطورهم الروحي ، كان دويل شديد الولع بالروحانيات والتنويم المغناطيسي وما يقع خارج حدود الخبرة المألوفة ، فاستهوى البوذية زمناً وكتب عن ذلك بعض القصص التي ظهرت في اواسط التسعينات . وكان دويل طيلة حياته مولعاً بالمغامرة ، فبلغه في عام ١٨٩٠ ان (الدكتور كوخ) في برلين اعلن عن طريقة لمعالجة مرض السل ، فقرر ان يزور برلين ويقابل الرجل ، وهكذا فعل ، ولكنه لم يفلح في المقابلة . وفي الطريق تعرف على طبيب ناجح في لندن اقترح عليه دراسة طب العيون في النمسا لمدة ستة اشهر ليعود ويفتح ميادة في لندن بدل الإقامة في الاقاليم .

واستهوته الفكرة ، فشد الرحال الى فينا في اول العام ١٨٩١ ولكنه برم بالدراسة في اول ثلاثة اشهر فعاد الى لندن ، وفتح عيادة لطب العيون ، واثناء الانتظار ، كان يشغل وقته بكتابة القصص .

الفصل السادس ينور عن «شرلوك هومز» هذه المغامرات اشغلت قراء الانجليزية في اواخر القرن الماضى اكثر مما اشغلتهم قصص ديكنز في اوائل القرن . كان الكاتب الشهير ج.ك. تشيستر تون يرى لو ان ديكنز قيض له كتابه مغامرات هومز لجعل كل شخصية في شغافية هومز نفسه . ولكن كاتب هذه السيرة يرى ان ذلك كان سيفسد القصص جميعا ، لان دويل كان يقدم شخصيات بارعة اخرى ولكنها تزيد من تالىق شخصية هومز الاساسية . وفي الوقت الحاضر نجد تسعين بالمئة من القراء يعرفون ثلاث شخصيات ادبية شهيرة الى جانب هومز ، اثنتان منها من صنع شكسبير وهما روميو ، رمز الحب ، وشارلوك رمز الجشع ، والشخصية الثالثة هي روبنسن كروزو رمز المغامرة . اما الشخصية الرابعة الشهيرة لدى القراء فهي شخصية هومز ، رمز الروح الرياضية المغامرة . ويضاف الى ذلك ان شخصية هومز وتصرفاته تصور حياة لندن في اواخر القرن الماضى وبخاصة شارع بيكر . وقد تكون تفصيلات الحياة وشارع بيكر غير دقيقة تماما ولكن القارئ لا يلتفت الى ذلك تجاه المتعة التي يقدمها للخيال شخص هومز الذي يريد ان يتقمصه كل انسان ، تماما مثل شخصية هاملت ، او مثل دون كيخوته الذي يدافع عن المظلومين ويقف وحده تجاه قوى الظلام ، ومعه تابعه سانتشو بانزا ، كما يفعل هومز ومعه تابعه دكتور واتسن . وليس غريبا ان يكون دويل قد افاد من قراءاته الواسعة سواء في ادب فولتير او في قصص بو ، او في بناء شخصياته على نماذج عرفها في الحياة العامة . ولكن طابع شخصيات المغامرات يبقى متفوقا على ذلك جميعا ، ويختلف عنها قدر ما تختلف شخصية دكتور واتسن عن شخصية دويل نفسه . في عيادة طب العيون في حي معروف بلندن كان ثمة « غرفة فحص وغرفة انتظار » ، يخبرنا دويل : « في غرفة الفحص كنت انتظر ، وفي غرفة الانتظار لم يكن ثمة من ينتظر » . ولكن الوقت كان يستخدم في كتابة القصص ، وراح دخله يتزايد حتى بلغ ٤٥ باونا للقصّة الواحدة في عام ١٨٩١ ، ولم تكن تستغرق كتابة الواحدة اكثر من اسبوع واحد . وفي نهاية عام ١٨٩٣ وضع حدا لحياة ذلك المخبر البوليسى ، بعد ان احس انه قد كتب عنه ما فيه الكفاية ، ولم يفكر باعادته الى الحياة قبل مرور سنوات عديدة . وبالفعل ، في ختام عام ١٩٠٣ بدأ دويل سلسلة جديدة من مغامرات هومز . واذا اصبح متحررا من عائلة الفقر صارت قصصه اكثر نضجا وادق هندسة ، كما يشير في مذكراته وكما يعرف من قرأ تلك القصص . وكانت القصّة الستون هي الاخيرة في مغامرات شارلوك هومز ، وقد نشرت في مجلة (ستراند) في نيسان / ابريل ١٩٢٧ ختم بها دويل فترة طويلة من الزمن في امتاع القارئ « بأخذه بعيدا عن متاعب الحياة ، الامر الذي لا يتم الا عن طريق الخيال » .

يتحدث الفصل السابع عن « الاصدقاء والشهرة » . كان من يزور دكتور دويل في منزله يدعش لمرأى رجل رياضى متواضع ودود سرعان ما ينسجم في اية جماعة . ولم يكن يشبه قط

صورة الفنان في اواخر القرن الماضي ، رجل عليه سيماء التخنت والخفر ، وهو ما سخر منه اوسكار وايلد . كان دويل بحق « الرجل الذي في الشوارع » كما قال عن نفسه ، و « الرجل الذي كتب كتباً جيدة ولكن لا يبدو عليه انه قد سمع بشيء اسمه كتاب » كما قال عنه انتوني هوب مؤلف رواية (سجين زندا) الذي اشتهر في تسعينات القرن الماضي . عرف دويل عدداً من مشاهير عصره من الكتاب امثال جيروم ك. جيروم ، روبرت لويس ستيفنسن الذي توفي قبل ان يكمل روايته الاخيرة (سانت ايفز) وطلب الورثة من دويل ان يكملها ولكنه « لم يجد في نفسه الكفاءة » . وقد طلب الكاتب جرانت آلن في وصيته ان يطلب من دويل اكمال اخر فصلين من روايته (هيلدا ويد) . وكان دويل يعتز بصداقة ميريدث ، اشهر كاتب في اواخر القرن الماضي كما جمعت صداقة مع توماس هاردي . وفي اثناء ذلك كله كان دويل يكتب باستمرار حتى بلغ دخله من القصة الواحدة ١٥٠ باوناً ، فجمع في عام ١٨٩١ اكثر من ١٥٠٠ باون . وفي عام ١٨٩٤ طلب اليه القيام برحلة في اميركا لتقديم قراءات من قصصه فذهب بصحبة زوجته واخيه وحقق نجاحاً كبيراً ، وعاد الى لندن وقد حصل من جولته الف باون ، وقام بزيارات عديدة ابرزها زيارة رديارد كبلنج الذي كان يقيم في فيرمونت . والجير بالذكر ان دويل كان هو اول من ادخل لعبة الجولف الى اميركا ولم تكن معروفة هناك حتى ذلك الوقت .

في الفصل الثامن نجد مؤلف هومز يقتبس من « مذكرات بارون ده ماربو » عن ايام نابليون ، ويصنع منها (مغامرات البريجادير جيرارد) وهي قصة تطفح بالخيال والمغامرات صنعها الكاتب على النقيض من رواياته التاريخية السابقة . كان نجاح هذه المغامرات الجديدة بعد الفراغ من مغامرات هومز ، وبعد عودته من رحلته الاميركية . وكان اهم سبب في نجاح تلك القصص ان القارئ الانجليزي يتساهل في قبول الفرنسي يقوم بدور البطل اذا كان ذلك البطل مبعثاً للضحك ، وهو ما فعله دويل معتمداً على الاصل الفرنسي ، محاذراً ان يبدو على تلك القصص علائم البحث والتقصي والجهد التاريخي .

(رجل النشاط) هو موضوع الفصل التاسع: اضافة الى ادخال لعبة الجولف الى اميركا ، كان دكتور دويل اول من ادخل رياضة التزحلق على الجليد الى سويسرا . كان ذلك في اوائل ١٨٩٥ ، وبشطحة من شطحات خياله الخصب استطاع تحويل استعمال الزلاقات في القطب الشمالي وجرينلند الى زلاقات تربط بالقدمين وتستعمل للرياضة في ثلوج سويسرا . ولكن احداً لم يعترف له بالفضل مادياً او معنوياً . وبعد ان انجز مغامرات جيرارد عام ١٨٩٥ بدأ دويل في كتابة (رودني ستون) اول رواية تدور حول الملائكة . لم يكن غير دويل من يمتلك الجرأة على التحدث عن الملائكة كفن ، فاستطاع اقناع مجلة (ستراند) بنشرها على حلقات استهوت القراء بما فيها من تفصيلات ومغامرات . وفي اواخر عام ١٨٩٥ سافر دويل الى مصر لتفيد زوجته العلية من الشمس والمناخ الدافئ ، فاقاما في فندق مينهاوس قرب الاهرامات . كان اول ما سمع في مصر ان مغامرات شرلوك هومز قد ترجمت الى العربية وفرضت كتاباً مقرراً في مدارس الشرطة

بمصر . وفي اوائل عام ١٨٩٦ قام برحلة الى اعالي النيل حتى وادي حلفا ثم قام برحلة الى البحيرات المالحة في عربة مزركشة كانت قد جهزت لاستقبال نابوليون الثالث الذي كان ينتظر لافتتاح قناة السويس . في ١٨٩٧ كان دويل قد عاد الى انجلترا ليقوم في دار شيدها في (سري) . في ذلك الوقت كان دويل مهتم بالدموية للسلام ونبذ الحروب فساهم في دعوة قيصر روسيا لاقامة مؤتمر سلام في لاهاز . وفي اوائل ١٨٩٩ حضر اجتماعا لهذا الغرض وحضر معه جاره برنارد شو، الذي بدا كأنه يساند الحرب اول الامر ولكنه اعلن عن مساندته مؤتمر السلام . ولكن دويل ما لبث ان نبذ الدعوة الى السلام عندما اصبحت بريطانيا تحت تهديد رجال (كروجر) في جنوب افريقيا وتطوع للخدمة الطبية في حرب البور ، وابتعد الى جنوب افريقيا في شباط / فبراير ١٩٠٠ ، ليشهد فظائع الحرب ، ويشهد خمسة الاف من الجنود يتسممون بعد ان شربوا من مياه الابار هناك . وبعد ان عاد الى انجلترا دفعه حماسه الوطني الى كتابة كراس يشرح فيه موقف بريطانيا امام الراي العالمي وجند لذلك تبرعات و مترجمين الى عدد من اللغات الاوربية . وجاءت نتيجة انتشار ذلك الكراس باثر طيب على سمعة بريطانيا في اوربا واميركا ، فكرمته الدولة بمنحه لقب فارس ، واصبح (سر آرثر كونن دويل) عام ١٩٠٢ .

غري الباخرة « تايتانك » هو موضوع الفصل العاشر : شأن الكثير من الناس كان دويل يحس برغبة شديدة للقيام بعمل يفيد الآخرين ، ومثل اغلب الحالات يتضح انه كان من الافضل ترك مثل تلك المحاولات . كانت اولى محاولات دويل لكي يحسن من احوال أبناء جلدته هو ان يخوض غمار السياسة ، فرشح نفسه للبرلمان في « الانتخابات الخاكية » عام ١٩٠٠ ولم يحالفه التوفيق . وحاول ثانية عام ١٩٠٥ وانتهى الى نفس النتيجة ، فوصل الى قناة ان السياسة لا تأتيه منقادة اليه تجر اذيالها فلا هي تصلح حتما له ولا هو يصلح حتما لها . واذا كان دويل لا يصلح للسياسة فيظهر انه كان يصلح للرئاسة . فقد اسس وترأس « نادي الرماية » الذي اصبحت مثلا في الاقاليم التي صارت تقلده فظهرت اهمية فعاليات تلك النوادي عندما قامت الحزب العظمى . ودعا الى حفر نفق تحت القنال الانجليزي يربط انجلترا بفرنسا ، وظهرت اهمية خيالاته الهومزية عندما قامت الحرب العظمى كذلك . والجدير بالذكر ان مشروع نفق القنال الانجليزي كان يتصدر الاخبار البريطانية قبل بضعة اعوام (ولا ادري ما تم بشأنه اليوم) . ثم ترأس رابطة الكشف في منطقته كما ترأس « اتحاد اصلاح قانون الطلاق » . وشرع يدافع عن الكونفو في كتاب حمل الحكومة البلجيكية على اصلاح سياستها في تلك المستعمرة الافريقية . ثم تولى حملة للدفاع عن عاملات اوتيل متروبول في مدينة برايتن بجنوب انجلترا واستعاد لهن حقوقهن . كثير هم الناس الذين يتجردون للدفاع عن قيم معنوية ويستشهدون في سبيل عقيدة أو رأي . ولكن دويل كان يدافع عن امور ملموسة واشخاص بعينهم . مرة تولى الدفاع عن محكوم بتهمة باطلة ووقف في وجه البوليس والادعاء العام وكسب الدعوى . ومرة وقف يدافع عن كاهن في كنيسة . وكانت اشهر حادثة دفاع تجرد لها دويل هي مأساة السفينة

« تاييتانك » التي غرقت في أول رحلة لها من ساوثهامبتن في ١٠/٤/١٩١٢ وكان على ظهرها ٢٢٠١ من الركاب . فبعد أربعة أيام من الإبحار اصطدمت السفينة بجبل من الثلج الطافي وغرق حوالي ثلثي الركاب . وتجردت الصحافة تنهال باللائمة على قبطان الباخرة ، وكان أشهر المهاجمين برناردشو . ولكن دويل تجرد للدفاع عن القبطان قائلا انه كان يؤدي واجبه وينفذ التعليمات على ادق وجه . وكانت مناقشة حامية على طرفي الاطلسي ، دخل فيها المنطق والقانون وكثير من العواطف والتفصيلات الفنية . وكانت مقارعة شهيرة بين دويل وبرناردشو كسب فيها منطق الاخير ولفته اللاذعة . ولكن عواطف الجماهير برغم الفاجعة كانت مع دويل ، حتى قيل « ان ٩٩٪ من الناس يفضلون ان يكونوا على خطأ مع دويل على ان يكونوا على صواب مع شو » .

« الرجل الذي في الشارع » هو عنوان الفصل الحادي عشر . في هذا الفصل يستعرض كاتب السيرة الاسباب التي جعلت سر آرثر كونن دويل محبوبا من جميع الناس الذين عرفوه او قرأوا قصصه ورواياته . كان دويل ، كما سبق القول ، رمز الروح الرياضية المغامرة التي يتعشقها الفرد الانجليزي العادي . وكانت شخصيات قصصه تمثل هذه الروح بالدرجة الاولى ، وهذا سر نجاح قصصه ، وهو كذلك سر نجاح اي كاتب يعطي القارئ ما يريد به في الحياة . فقد كان دويل يرغب في تجربة كل شيء في الحياة . ففي عصر البالون حاول دويل ان يهبط بالمظلة من البالون ، حبا بالمغامرة ، مثلما سبق له ان تسلق الاهرامات وتحدث عن مراقبة الآخرين وهم يعانون مخاطر الصعود والانزلاق . ولكنه في مغامرة البالون اقتنع بالصعود الى ارتفاع ستة آلاف قدم فوق « القصر البلوري » في قلب لندن . كان يعارض الرماية من اجل الصيد والقنص ، ولكنه لا يمانع في صيد السمك « لان السمك من ذوات الدم البارد ، ولا يحسن بالالم الذي يحسه الارنب البري او الغزال » . كانت قصص دويل تشبع رغبة « الشخص العادي » في البحث عن المغامرة والفموض والدهشة . ولكنه احيانا كان يخلط بين الخيال والتصور . فالتصور يعتمد المثيرات كما يفعل « الكاري في طعام غير شهى » . ولكن الخيال يعالج امور الحياة اليومية ولا ينزلق نحو التافه المبذول ، وهو ما نجده في « خيال » شكسبير ولا نجده في « تصور » ديكنز . كان اعجابه « بتصورات » بو قد جعل من بعض قصصه ما يفوق قصص بو في اثاره الرعب احيانا ، فيعطي القارئ « صدمة جسدية » بدل ان يعطيه « رعشة فكرية » وكان اعجابه بقصص الفرنسي موياسان في نفس الطبيعة ، ولكن ولع الفرنسي بالجنس يقابله ولع الانجليزي بالرياضة . ومن امثلة الطبيعة الانجليزية « في ادب دويل هنما الولع الانجليزي بتقليل اهمية الذات واعطاء الانجاز الشخصي اقل مما يستحق من التقدير . وهنا تذكرنا هذه الصفة في ادب دويل بصفة مشابهة لدى اول واهم شاعر انجليزي : جفري تشوسر ، الذي كان لا يفغل عن التقليل من قيمة « حكايات كانتر برى » وهي الحكايات التي تطفح بالمتعة والبراعة . كان دويل يقول : « اذا كنا نحن اصحاب الحكايات لا نتمتع بمقول عظيمة

نبوسعنا في الاقل ان تقدم ما يريح عقول الآخرين الذين يقومون باعمال اكثر اهمية مما تقوم به نحن . كان في مقدور دويل ان يتحدث عن كل شيء من الرياضة الى الادب الى الحرب الى التعذيب الى السياسة الى العلوم الى القتل كل ذلك بما يظهر اهتماما متساويا في جميع المسائل . وقد جرب دويل حتى المسرح والسينما منذ بداية الافلام الصامتة . لقد شكلت العديد من قصصه اسسا لمسرحيات وافلام نجحت بدرجات متفاوتة ، وكان كريما مع المخرجين والمنتجين ، بحيث ان احدهم ادعى انه يخسرني انتاج مسرحيات تستند الى قصص دويل ، وبلغت خسارة المؤلف من جراء ذلك اكثر من ثمانية آلاف باون . ولكن ذلك المنتج المحتال انتهى الى الانتحار ، فاستحصل دويل ما خسر عند تصفية الحساب . وفي عام ١٩١٢ طفق خيال دويل فكتب رواية (العالم المفقود) التي تتحدث عن عالم في اعالي الامازون يعج بالثنائين والمخلوقات العجيبة ، مما دعا جامعة بنسلفانيا بأميركا ان تجند حملة الى اعالي نهر الامازون للبحث عن ذلك العالم المفقود ! كانت شعبية دويل قد عبرت من اميركا الى كندا ، فقبل دعوة لزيارة كندا مع زوجته وكانت الحفاوة به تليق بالملك . ولما عاد الى انجلترا نشبت الحرب العظمى ، فراح يملأ الصحف البريطانية بمقترحات لوقاية الجنود ، منها دروع الحديد التي بدرها في ذهنه صديقه دكتور بد في اول عهده بالطب . وجدد دعواته لبناء نفق تحت القنال الانجليزي ، واضطر البحرية الى اتخاذ اطواق المطاط والقوارب المحصنة التي انقذت حياة الكثير من البحارة في الحرب العظمى . ولكن جميع اقتراحاته ، مثل ادخال التزحلق على الجليد في سويسرا ، لم تجد من يعترف بها او يشكره عليها .

« الوجه الاخير » هو الفصل الثاني عشر والاخير في هذه السيرة . في الحقبة الاخيرة من حياة دويل ، بدأ يميل نحو الروحانيات . وقد كان ذلك تطورا طبيعيا في ذهن رجل لا يستطيع التخلص عن يقين يملأ عليه روحه . ففي شبابه نفر من المذهب اليسوعي والتفسيرات الكنسية ، وشغفه مذهب دارون واليقين المادي الذي يؤمن بالاشياء الملموسة . لقد قضى دويل حياته يدرس ويبحث ويطلع على كل زاوية من زوايا المعرفة ، كان آخرها الشغف بالارواح والعالم الآخر . لقد كانت بعض نتائج تلك الاستقصاءات تظهر في قصص المغامرة التي كان يحكو . وكانت الاشباح بعض مكونات قصصه . وكان دويل الى ذلك يؤمن بوجود عالم بعد الموت ، ولكن ايمانه يأتية عن طريق مادي منطقي . « فاذا لم تكن ثمة حياة بعد الموت ، فلماذا يسعى الانسان الى اصلاح نفسه ؟ » هذا هو اليقين الذي كان يشغل دويل ، وراح يجمع حوله الاتباع ، كما يفعل كل صاحب يقين . وبدأ اصحابه الكثيرون يلاحظون هذا التطور في شخصيته في آخريات ايامه ، وبخاصة بعد الحرب العظمى . فقد كان يشعر ان عليه واجبا يؤذيه في نشر هذه الآراء . مرة كان عليه ان يحاضر عن الموضوع في توتنجهام ، وكان ابنه كنجسلي يحضر ، فرفض ان يؤجل المحاضرة قائلا ان الجمهور قد تعلم ان يثق به ، وهو لا يريد ان يخيب املهم ، ولا امل ابنه المحضر في ان يكون الاب امينا على مواعيده مخلصا « للقضية » . كان يضحي بكل شيء في سبيل « القضية » .

ففي اسفاره الكثيرة مع اسرته في يارة استراليا عام ١٩٢٠ ، واميركا عام ١٩٢٢ ، وثانية عام ١٩٢٣ ، وفي زيارة جنوب افريقيا عام ١٩٢٨ ، كان يجمع دخله من محاضراته ، وبعد ان يستقطع نفقات السفر والاقامة ، كان يتبرع بالباقي من اجل « القضية » . وبرغم ذلك كله لم يفقد ما لديه من روح الدعاية . مرة كان يزور لوس انجليس في ضيافة « رجلي » ملك الملك « اللبان » فقال : « اذا علكت فينوس بدت مبتدلة ، واذا علكت شكسبير بدا من الاجلاف ... ليس من عادة اقل احتراماً من الملك . فقد يشرب الرجل خمرا ويبدو ملكا بين الملوك ، وقد يدخن فيبدو جذابا ، ولكن الرجل الذي يملك ينقلب حيوانا في الحال ، والاسوأ من ذلك ان المرأة تنقلب الى بقرة بالتمام والكمال » .

ولكن شعبية دويل بدأت تضمحل منذ بدأ في مزاوله الروحانيات . ومع ذلك فقد ظهرت آخر رواياته العجيبة عام ١٩٢٩ بعنوان (اعماق ماراكوت) هنا يتحدث دويل عن احفاد حضارة منقرضة يعيشون في اعماق المحيط الاطلسي . ولكن الكتاب صورة عن انجلترا في عشرينيات هذا القرن : « لم يعد ثمة حياة اسرة هادئة ، ولا عناية بالذهن ، وليس غير شعب قلق ضحل ، يتراكم خلف اللدائل فلا يدركها ... لقد نشأت طبقة مفترطة الفنى لا تحفل بغير اشباع الرغبات الحسية ، تقابلها طبقة مفترطة الفقر تسمى لتلبية مطالب السادة ، مهما تكن تلك المطالب شريرة » .

كان دويل في آخر ايامه يعلن برمه بشخصيات هومز وقصص المغامرات مفضلا عليها رواياته : (رودني ستون) و (اللاجئون) و (الفرقلة البيضاء) و (سرنابل) . ولكن الايام اظهرت ان القارئ الذي يلتفت الى هذه الروايات التاريخية يقابله مائة قارئ مشغوف بقصص هومز وجيرارد ، تلك القصص التي لا ينافس دويل فيها من الكتاب احد .

توفي دويل في ٧/٧/١٩٣٠ . وقبل وفاته بشماني عشرة سنة ، كان قد كتب ابياتا من الشعر يقول فيها :

اكون قد بلغت ما سعت اليه لو قدرت ان اعطي ساعة من البهجة
للفتى الذي نصه رجل والرجل الذي نصفه فتى .

- ٢ -

انجوس ولسن : رديارد كبلنج وسيرته العجيبة لندن ، ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب اديب انجليزى « نصف جنوب افريقى » كما يقول عن نفسه . وقد نشر الى جانب هذا الكتاب خمسة عشر كتابا آخر في الرواية والسيرة والدراسة الادبية . والكتاب ضخيم ، يقع في ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ، تتوزعها سبعة فصول ، تزينها ٨٥ صورة وتخطيطا ، تتناول حياة كبلنج في مراحل شتى . لقد اعتمد الكاتب اسلوب

الدراسة الادبية الرصينة ، التي تستند الى الكثير من المراجع والمقابلات والاحاديث مع من عرفوا كبلنج في مناسبات عدة . يتتبع الكاتب سيرة الرجل منذ أن ولد في مدينة بمباى بالهند في ١٨٦٥/١٢/٣٠ حتى وفاته في فندق براون في لندن في ١٩٣٦/١/١٧ ، قبل يوم من ذكرى زواجه ، وهو في طريقه الى مدينة (كان) بجنوب فرنسا . ولأن الكتاب يتناول الرجل في « حياته وآثاره » فاننا نجده يمتلىء بتفصيلات دقيقة ، قد يكون من المتعب ملاحظتها ، ولكنها تشكل من الصورة الظلال والاعمق والابعاد ، وتعود على القارئ دوما بنوع من المتعة ، وقد تثير كثيرا من القصص والاشعار التي ألفها كبلنج ، كما أنها - وهذا مهم - تفسر الكثير من مواقف كبلنج ، سواء في الحياة العامة ، أو في مواقفه السياسية التي لا يسهل على المرء أن يخرج بصورة واضحة عنها دائما . ولكن التفصيلات والدقائق تفيد القارئ أحيانا ازاء موقف سياسى بعينه ، يتضح لدى اطالة النظرائه لم يكن سوى رد فعل شخصي في غالب الاحيان ، لا يستند الى وضوح فكر أو فلسفة سياسية بعينها .

ويبدو ان الكاتب يريد أن يؤكد الناحية الفنية في أعمال كبلنج ، مشيرا في مناسبات عدة ان من الخطأ محاولة قراءة افكار الفنان في أعماله الفنية . وكان الكاتب يريد أن يقول لنا أن عامة الناس لا يعرفون من كبلنج سوى أنه شاعر الامبراطورية ، وأنه كان يعنى بالسياسة بالدرجة الاولى ، وأنه كان يريد أن يرى بريطانيا امبراطورية لا تغيب الشمس عن ارجائها . ويوحى الكاتب ان في ذلك كله مبالغة لا مبرر لها ، وان كبلنج اديب وشاعر وفنان ، يحب وطنه ويحب أوطان الآخرين كذلك ، طالما ليس في نية الآخرين شن عدوان على وطنه أو على من يحب . ولكنه يحتفظ بكراهية خاصة للألمان والروس ، لم يسلم منها الاميركان ، رغم انه تزوج باميركية وعاش اكثر من أربع سنوات في مدينة فيرمونت . ومن أجل ذلك كله يصف الكاتب سيرة كبلنج بانها « عجيبة » و« أكاد أقول » غريبة » لان القارئ لا يخرج من الكتاب برأى واضح للرجل في السياسة ، أو بموقف بعينه من حزب أو حكومة . فقد يكون مع صاحب رأى بعينه تارة ، ولا يلبث ان ينقلب على الرأى وصاحبه اذا بدا أنه ضد « بريطانيا » .

يحمل الفصل الاول عنوان « الفردوس والسقوط » ويتحدث الكاتب عن مدينة بومباى على أنها فردوس كبلنج الذى سقط عنه عندما عاده والده الى انجلترا وهو في السادسة من عمره ، ليقيم ست سنوات بعيدا عن الوالدين ، وعن الفردوس . يتصدر الفصل بعض أبيات من قصيدة نظمها كبلنج بعنوان « الى مدينة بومباى » عام ١٨٩٤ ، يقول فيها ان بومباى بالنسبة اليه « أم المدائن جميعا ... ولدت عند بابها ، بين النخيل والبحر ، حيث العالم والمراكب في انتظار » . محبة الهند ومحبة الاطفال يشكلان الاساس في كل ما كتب كبلنج من قصص وشعر . وقد بقى ذلك طابعه المميز طيلة حياته . فقد كان يجالس الاطفال ويصفي اليهم ويراقب تصرفاتهم ويتعلم منهم الكثير . ومن طبيعة الطفل ان « المكان » لديه يكبر حتى يصبح هو العالم . وهكذا كان شعور كبلنج نحو بومباى : فقد كبرت المدينة في عينه حتى

أصبحت الهند برمتها ، ثم أصبحت العالم اجمع . فهذا الحس بالمكان ، بألوانه وأصواته ، هو الذى جعل قصصه عن الهند من أدوع ماكتبه كاتب عن « مكان » ولا يضارعه فيها الا ما كتبه (بيير لوتى) الفرنسي عن الشرق الاقصى .

ينحدر كبلنج من سلالة تعتنق فى الدين مذهب « أصحاب الطريقة Methodist » ولكنه كان علمانيا ، مثل غالبية أبناء جيله - من الأدباء ، لا يؤمن بما تعارف عليه الآخرون من التفسيرات الكنسية للدين . ولكن صفة « الوعظ » لدى أصحاب الطريقة تركت ميسمها فى أدبه ، فتجد شعورا يجرى فى تضاميف ما كتب من شعور وقصص ، ان الرجل يريد أن يقول لك شيئا بعينه ، ويكاد يشير بأصبعه أو يرفع صوته ليقول ذلك . وكان يعارض أصحاب الطريقة لانهم يعارضون الجندية والحرب ، وكان كبلنج مع الاثنين بحكم دراسته فى مدرسة (ويستوارد هو) التى تخرج فيها قبل التحاقه بالعمل الصحفى فى الهند . وكان فى طبع كبلنج كثير من الاطراق الحزين والقلق النفسى ، يفسر هذا النزوع الى الهرب من الطرق المألوفة والخروج الى العالم الاوسع وكثرة التجوال . عمل والد كبلنج فى الفن الزخرفى والنحت فى لندن ثم حصل على وظيفة لتدريس ذلك الفن فى (مدرسة الفن) فى بمباى ، التى تعنى بتدريب الاحداث على الفنون المفيدة فى البناء ، فأصاب الوالد وزوجته سمعة طيبة فى الهند كانت خير عون لابنهما عندما جاء الى لاهور ليعمل كمراسل صحفى وهو فى السادسة عشرة من العمر . عندما بلغ (رديارد) السادسة من العمر وشقيقته (تريكس) ثلاث سنوات ، اضطر الوالدان الى العودة بهما الى انجلترا وأيداهما لدى ضابط بحرى متقاعد فى مدينة (ساوئسى) . لاسباب مادية بحتة ، ولخوف الوالدين من الامراض التى كانت تتسبب فى نسبة عالية من وفيات الاطفال فى تلك الايام . اقام الصبي (رديارد) ست سنوات لم تكن سعيدة بحال ، وهو بعيد عن والديه ، فى رعاية عجوز غريب ، فظهرت لدى الصبي بوادر اضطرابات عصبية وضعف فى البصر ، مما اضطر الوالدين الى نقل الفتى الى مدرسة تعد الفتيان للخدمة البحرية ، ولم يكن الفتى سعيدا فيها قط . ولكنه فى هذه الفترة كان يقيم مع شقيقته لدى زوج خالته الفنان (برن جونز) الذى كان يعنى بالرسوم الساخرة ، مما جعل رديارد يهتم بهذا الفن كما تظهر قصصه الاولى وكثير من رسائله . وفى الثالثة عشرة اظهر رديارد كذلك ميلا الى السخرية مما ظهر فى شعره المبكر . واصابه الارق فى تلك السن المبكرة كذلك ، مما جعله يسير فى الليالى ، وهى عادة لحقته فى أيام عمله فى الهند بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الارق مما أنهك صحته ، ولكن الارق كان يغذى خيال ديستوفسكى وديكنز من قبله فى تأليف القصص والحكايات . فى عام ١٨٩٤ ألقى رديارد خطبة فى توديع أحد مدرسيه قال فيها ان « كل ما يريده المدرس والمدرسة هو صناعة الرجال الذين يصنعون الامبراطوريات ويحافظون عليها » . وبذلك اثبت كبلنج على نفسه صورة « الامبريالية » قبل ان يبلغ الثلاثين . وبسبب من اعتلال الصحة وعدم وجوده فى مدرسة مناسبة ، لم يستطع كبلنج دخول

كمبريدج او اكسفورد مثل بعض اقاربه واصدقائه ، وقد ترك ذلك في نفسه شعورا بالغيرة ، انعكست في الصورة الهائلة التي يرسمها في قصصه لرجل اكسفورد مثل (جلال الدين ماکنتوش) في بعض قصصه الهندية . ولكن جامعة اكسفورد كرمته عام ١٩٠٧ بمنحه شهادة فخرية ، الى جانب مارك توين الساخر الاميركي ، فكانت تلك من اسعد اللقاءات في حياته . بقيت ذكريات المدرسة ماثلة في ذهن كبلنج ، خلال اقامته في اميركا بعد زواجه ، فكان يكتب عددا من القصص تستند شخصياتها الى عدد ممن عرف في ايام دراسته . أما شعره فهو يعكس اهتماما بالغا بالمكان وتفصيلاته ، وكان الشعر أهم ما كتب في ايام الدراسة في (ويستوارد هو) شخصية المدير (كوم برايس) صديق والده اذ قضى الفتى مع مدير المدرسة اول اجازاته ، مما جعله يحس بشيء من السعادة لتغير جو المدرسة اثناء الاجازة . ثم وصل والده من الهند واصطحب الفتى الى باريس ، فكانت تلك الزيارة اول ما ألهم حماس كبلنج لكل ما هو فرنسي ، كما يبدو في الكثير من قصصه واشعاره وزياراته لتلك البلاد . وفي ربيع ١٨٨٢ كان كبلنج في احدى الاجازات المدرسية فتعرف على محرر (المجلة العسكرية والمدنية) الذي توسم في الفتى قابليات ادبية جمة ، فرأى ان يسرع في تمرينه على العمل الصحفي تحت اشرافه ، بناء على توصية من المدير (كوم برايس) . وهكذا كان على الفتى ان يذهب الى (لاهور) ليعمل في (المجلة) ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد في ايلول/سبتمبر ١٨٨٢ . كان الفتى يفضل البقاء في لندن ومحيطها الادبي ، ولكنه كذلك كان يريد الابتعاد عن انجلترا ، فبقي موزع المشاعر ، واختار الذهاب الى حيث والديه ، لبدء حياة من الادب الصحفي ويشق طريقه نحو الشهرة .

« عودة الى الفردوس للعمل » هو عنوان الفصل الثاني ، حيث يستعرض الكاتب السنوات السبع من حياة كبلنج في الهند بين ١٨٨٢ - ٨٩ . كان هذا الشاب الضعيف البصر المصاب بالارق يدمو (لاهور) « مدينة الليل المرعب » وأحيانا « مدينة الموت » . فقد كان يسير الليالي ساعات بطولها ، يراقب ويسمع ويكتب عن خبرته قصصا وتقارير صحفية عن « بوابة دلهي » ومقاهي الحشيش التي يديرها صينيون يتاجرون بالمخدرات والرعب ... عن المآذن والجوامع التي بناها سلاطين وفاتحون ، عن البشر المكدب على قارعة الطريق بين الفقر والامراض ، عن الالوان الصارخة والموسيقى الصاخبة برغم كل ما حول البشر المعذبين في تلك الارض . يجد المراقب المدقق في مدينة لندن ملامح في قصص ديكنز ، ويجد في باريس ملامح في قصص بلزاك واميل زولا ، ويجد في ليننغراد ملامح في قصص ديستوفسكي ، ولكن مدينة لاهور لم يبق فيها ما يكتبه الآخرون ، لان كبلنج قد كتب كل شيء وخبر كل شيء في المدينة ، وأودع تلك الخبرة في « قصصه الهندية » وفي « كتاب الادغال » . وكان في ذلك كله يعبر عن محبة عميقة للهند وأهلها ، ولا ينظر باحترام الى موقف « اليوراسيويين » وهم الانجليز المقيمون في الهند ، لان اقامتهم كانت تتميز بنظرة متعالية نحو « الاهالي » ولكن كبلنج كان يرفض « الروح السياحية » لأولئك

الأوربيين في الهند . كان يقول : يجب ان تكون الهند حياتك جميعا أو لا شيء غير ذلك . وقد خبر كبلنج حياة الهند في المدن المجاورة لمدينة لاهور وكذلك المدن البعيدة عنها مثل (سيملا) و (الله آباد) (مدراس) التي مر بها عاجلا في رحلة بين سيلان ولاهور . كانت هذه الملاحظات والانطباعات تشكل « هند الخيال » في ذهن كبلنج ، الهند التي كتب عنها أجمل قصصه وأشعاره . أما « هند الواقع » التي عرفها بين أواخر عامة السادس عشر وأواسط عامه الثالث والعشرين فتبدأ في وصوله بومباي ، مسقط رأسه ، في آخر تشرين الاول / اكتوبر ١٨٨٢ ، حيث استقل القطار الى لاهور فوجد والديه مع محرر (المجلة العسكرية والمدنية) ستيفن ويلر ، الذي سبق أن قابله في لندن . كان محيط الوالدين والأصدقاء في لاهور محدودا ، وكان دخل الادب لا يشجع على التوسع في العلاقات الاجتماعية . ورغم ذلك فقد كان الوالدان على صلة طيبة باثنين من كبار المحررين في المجلة ، الى جانب محرر جريدة (الرائد) شقيقة (المجلة) في مدينة (الله اباد) . وكان وصول رديارد ليعمل في تلك السن المبكرة ويكسب دخلا اضافيا مما انعش حياة الوالدين في لاهور ، وشجع على استقدام شقيقة رديارد (تريكس) من انجلترا بعد وصول رديارد بسنوات قليلة . وقد تحسن الوضع الاجتماعي للوالدين حتى أصبحا من أصدقاء نائب الملكة في الهند .

راح الفتى رديارد يعمل بحماس في المجلة ، ولما مرض المحرر تولى الصحفى الشاب تحرير المجلة وإدارة العاملين فيها ولما يبلغ السابعة عشرة . وكان أهم عمل صحفى هو ترجمة الصحف الروسية الصادرة بالفرنسية عن المناوشات على حدود الافغان ، وكانت معرفته بالفرنسية خير عون له في هذا المجال ، مما أعطى المجلة طابعا مميزا في لاهور . كان يبحث دائما عن المغامرة ، وقد شهد مرة أحداثا في أعالي البنجاب تتميز بالقسوة والربح ، نجدها في تضاعيف قصصه اللاحقة عن حروب جنوب افريقيا أو الحرب العظمى . ولأنه كان يفضل مراقبة الأحداث على الطبيعة فإنه لم يكن يرتاد (نادى لاهور) برغم الأحاديث التي كانت تدور فيه عن حياة الانجليز في الهند . كان يفضل المشي ليلا بعد تعب المجلة نهارا ليشهد حياة الليل في تلك المدينة الخرافية . ولا يستطيع احد أن يجزم كم من حياة الليل خبر الفتى وفي الواقع ، ولكن الأكثر قبولا أنه كان يستخدم تلك الوقائع ليحولها في خياله قصصا مثل « دون امتيازات رجال الدين » وهى القصة التي تتحدث عن مغامرات (هولدن) و (أميرة) . وفي عام ١٨٨٦ بدأ كبلنج يكتب قصصا لصحيفة (الرائد) جمع ٣٩ منها بعنوان (حكايات بسيطة من التلال) . ومهما يكن رأى النقاد في تلك القصص الهندية المبكرة فإن « نسبة عالية من قراء تلك الصحف قد نجحوا في امتحانات المسابقة بما يفوق قراء المجلات الانجليزية في لندن في تلك الايام » .

وفي خريف ١٨٨٧ انتقل كبلنج لتحرير الملحق الاسبوعى لصحيفة (الرائد) فنشر فيها الكثير من القصص التي اشتهر بها خارج الهند ، رغم ان أغلب تلك القصص كانت دون مستوى الجودة ، سوى واحدة بعنوان « كوميديا عرضية » وفي عام ١٨٨٩ صار بوسع الشاب رديارد أن

يقف على قدميه في عالم الكتابة دون مساعدة الغير، فأقام في (الله آباد) وهنا تعرف على أستاذ في الزراعة وصل الى الهند مع زوجته الاميركية : البروفسور هل . كانت صداقة كبلنج مع هذه الاسرة الجديدة متنفسا له من القوانين المفروضة من الانجليز على حياة الهنود ، وقد سبق للصحفي الشاب ان اشتبك في مناقشة حول اسلوب التعليم المفروض على الهند من أناس يحسبون أنفسهم أعلى منزلة في مجال الحضارة . وفي هذا الوقت بدأت المجالات الادبية في لندن تلفت النظر الى اعمال كبلنج ، مما جعل رحلته الى انجلترا مع أسرة هل ممتعة جدا ، اذ بدأت من كلكتا الى بورما الى سنغافورة الى اليابان ثم الى سان فرانسيسكو حيث وصلوها في آذار/مارس ١٨٨٩ ومنها بعد اقامة قصيرة في أميركا ، الى لندن . ولم يعد كبلنج الى زيارة الهند سوى زيارة قصيرة لوالديه في لاهور عام ١٨٩١ . وعندما أقام في لندن بعد هذه السفرة الطويلة والابتعاد عن الهند راح يعبر عن اشمئزازه من الحياة في لندن من خلال قصص نشرها على لسان شخصيات هندية خيالية . بقيت محبة الهند تطفئ على قصص كبلنج حتى عند زيارته جنوب افريقيا ، حيث كان يكتب قصصه عن تلك البلاد ، ولكن شخصياته كانت هندية في الاساس . في عام ١٩٠٥ رفض كبلنج ان يرافق (امير ويلز) في زيارته للهند ، كما رفض ان يقيم مع (اللورد كرز) نائب الملك في الهند عام ١٩٠٧ قائلا انه لا يريد ان يرى الهند وقد تغيرت عما كان يعرف في أيامه الاولى وفي شبابه في العمل الصحفي . وهذا الجانب من معرفة الهند في أدب كبلنج يجب أن يبقى الاساس في تقويم انجازاته في الشعر والقصة اضافة الى رائعته : رواية (كيم) . ففي تلك الاعمال المبكرة نجد التفرد الذي يميز أسلوب كبلنج في نظره الى البلاد واهلها ، وهذه هي الصفة التي تجعله مختلفا عن غيره من الكتاب . ففي تلك القصص يجمع عالم الطبيعة مع عالم الحيوان الى جانب العالم البشري . وثمة جانب « وعظي » في تلك القصص حول « القانون » يحمل الى القارئ احتراماً لاسلوب الحياة في الهند الى جانب اسلوب الحياة الأوروبية وينتهي الى القول ان عقيدة الغرب حول اهتمامات الانسان سوف تسود في النهاية ، وبخاصة في الازمات . بدأ كبلنج يفكر في كتابة (كيم) في أول عهده بالحياة الزوجية عندما اقام في فيرمونت ، ثم اكمل الرواية عند والديه ، مستغرقا في ذلك اطول وقت قضاه في انجاز أي كتاب . في هذه الرواية نلمس محبة كبلنج للمغامرة والتجربة وفي تقليد عبارات الناس مفرداتهم . وفي هذه الرواية نجد ملامح من « الوعظية » في الفن ، ولكن عالم « كيم » لا يختلف عن العالم المألوف بخيره وشره .

« معرض الخيلاء » هو عنوان الفصل الثالث ، الذي يتحدث عن زيارته الاولى لاميركا

عام ١٨٨٩ ، حيث أحب البلاد ولكنه لم يحب الناس فيها ، وكأنه لم يقدر له ان يحب من البلاد والناس الا الهند الهنود . كذلك كان حاله في لندن حيث لم يكن يحب الانجليز الذين عرفهم في المحيط الادبي في لندن ، ولا هو كان معجبا بالملكة فكتوريا نفسها « امبراطورة الهند » وقد ظهرت كراهيته لخيلاء بعض البشر يوم غرقت الباخرة « تايتانك » فوجد في غرقها نموذجا رهزيا

لما يمكن ان تؤديه خيلاء الانسان وثقته الزائدة بنفسه . كان عليه خلال رحلته الطويلة من الهند الى لندن عن طريق الشرق الاقصى واميركا ان يرسل صحيفة « الرائد » ويوافيها بمقالات عن مشاهداته . ولانه كان قد ترك قلبه في الهند ، فقد كان عليه خلال الرحلة « ان يدافع عن الهند ضد ما لا يقل عن ثلاثة ارباع سكان العالم » . في الرابعة والعشرين من عمره بدأ يتشكل في ذهنه « الحلم الامبراطوري » عندما مر بسنغافورة في أول مراحل تلك الرحلة الطويلة . صار يقول ان المناخ الاستوائي لا يصلح لاقامة الانجليز فترات طويلة ، لذا يتوجب على المستعمرات ان تبقى معتمدة على الحكومة المركزية في لندن ، والانطلقت في سبيل حريتها . وفي هذا الشعور كان كبلنج دائم الخوف من « العدو الخارجي » وهذا هو الاساس في مشاعره « الامبراطورية » . وعندما وصل لندن قادما من اميركا ، كان على وشك ان يتم خطبته لكارولين ، شقيقة السيدة هل ، بعد ان زار اهلها في بنسلفانيا ، وكانت هي في طريق العودة مع شقيقها الى (الله اباد) وهنا صار كبلنج وحيدا في لندن ، وصار له جماعتان في الهند يحن اليهما ، والده واسرة هل . ولكنه اقتحم الحياة الادبية في لندن وكسب الرهان ، برغم ان سلاحه التحضيري لم يكن سوى تحضير تلميذ مدرسة وسط عاصمة تعج بالجامعيين وكبار الكتاب . وكاد ان يكسب الى ذلك عداوة وغيره بعض المشاهير . وفي اواخر القرن كان كبلنج قد عرف في الاوساط الادبية وكأنه ليس اكثر من صورة للحلم « الامبراطوري » . ولكن لما زاد جمهور قرائه ، اصبح ادب كبلنج اوسع من ذلك الحلم ومن تلك الآراء السياسية الضبابية : لقد أصبح افضل من نقل صورة صادقة عن الهند والهنود ، وكان ذلك هو الجديد في المحيط الادبي في اواخر القرن الماضي في انجلترا .

بعد اقامة سنتين في لندن ، تزوج كبلنج من كارولين في ١٨/١/١٨٩٢ ، وفي الشهر اللاحق ابهر العروسان الى اميركا . جاء كبلنج الى اميركا بمشاعر مختلطة ، منها ما كان قد جمعه من قراءاته لمشاهير الكتاب الاميركان في شبابه ، ومنها ما جمعه من زيارته الاولى لاميركا بعد ترك الهند عام ١٨٨٩ . كان كبلنج قد خلف في اميركا سمعة اديب لاذع العبارة في نقد الاميركان ، اكثر مما وصف به ديكنز والسيدة ترولوب (والداتوني ترولوب ، التي كتبت تسعين رواية) قبل ذلك بنصف قرن . وكانت شهرته الادبية قد سبقته الى اميركا قبل وصولها هذه المرة ، وذلك من تهريب ما نشر من مقالاته عن الرحلة الاولى في مجلات الهند وبخاصة صحيفة (الرائد) . هذه المرة كان كبلنج يأمل ان تستطيع اميركا بمعاونة بريطانيا القيام بتنظيم العالم بما لدى الدولتين من قدرات فائقة وتضحيات . ولكن هذا الحلم كان خطوة أخرى نحو فشل التحقيق عندما بدأت الدولتان ، وبخاصة بعد الحرب العظمى ، تصطرعان على نفوذ مستقل لكل منهما . ويبدو هذا الشعور بالفشل في كتابات كبلنج منذ ذلك التاريخ حتى اخريات ايامه . ونراه ينحاز نحو اليمين المتطرف في السياسية على أمل ان برامج اليمين ستحقق له احلامه . ولكن كتاباته اللاحقة أثبتت انه كان فنانا بالدرجة الاولى ، اما في السياسة فقد كان رومانسيا حالما .

في أميركا عرف كبلنج « أرضا بلا أسوار » فيها من الحرية ما لا يوجد في العالم القديم . ولكنه لم يكن معجبا بأخلاق الأميركيين أنفسهم وعاداتهم الشخصية مثل التفاخر ، البصاق ، وقاحة موظفي الجمارك والفنادق ، تدخل الصحفيين في ما لا يعنيهم من شؤون الآخرين ، فساد السياسة ... وهي مسائل سبق أن لاحظها ديكنز قبله بنصف قرن ، ولعل أكثر ما أغضب كبلنج عدم احترام الناشرين في أميركا لحقوق المؤلف .

يستعرض الفصل الرابع موقف كبلنج من حرب البور وما سبقها ورافقها من الأوضاع السياسية في بريطانيا ، حيث نجد صورة أخرى لفكر الفنان في آرائه السياسية الرومانسية ، وفلوائه الوطنية التي لم تتبلور في رأي سياسي متزن ، يمكن تحديد ملامحه وآثاره في التطبيق . فقد عاد كبلنج من أميركا ليقوم في فندق براون بلندن ، ملتقى الأثرياء الأميركيين ومشاهير المحيط الأدبي في لندن . وهنا يبدو موقف كبلنج من إنجلترا وقد تغير بعد إقامته الأميركية . فقد بدأ يساهم في جميع المناسبات والمواسم الأدبية في العاصمة وكأنه يريد الانسجام مع هذا المحيط ويحس بالعائدية إليه ، وليس من فنان لا يريد حسا بالارتباط بمكان بعينه ومجتمع بعينه . كان عام ١٨٩٧ عام الاحتفال بالذكرى الستين لتتويج الملكة فكتوريا ، وقد جلب له هذا العام اعترافا من جامعة أكسفورد ، تنامي حتى منحه الجامعة شهادة فخرية بعد عشر سنوات ، وفي عام ١٩٠٨ منحه كمبردج شهادة مماثلة . وفي عام الاحتفال قبله (نادي اثنايوم) عضوا بارزا ، وهذا اعتراف من الوسط الأدبي بتميزه وشهرته . وفي هذا الوقت تعرف على (سيسيل رودس) و (ألفريد ملنز) أهم شخصيتين في « السياسة الامبراطورية » . وفي هذا الوقت بدأت آراؤه السياسية في التطور بشكل مضطرب ، فنشر في (التايمز) قصيدة بعنوان « انحسار » ينعي فيها على بريطانيا تقاعسها عن القيام بدورها في العالم بنشر النظام والحضارة . وبعد ذلك بسنة ، نشر في (التايمز) كذلك قصيدته التي اشتهر بها أكثر من سواها في آرائه « الامبراطورية » وهي بعنوان « عبء الرجل الأبيض » ففي عام ١٨٩٨ كانت أميركا ما تزال أملا يراوده في الوقوف مع بريطانيا في تحمل عبء الرجل الأبيض لنشر الحضارة . ولما قامت الحرب في تلك السنة بين أميركا وإسبانيا حول كوبا ، وجد كبلنج في هذه الحرب مناسبة لاجتماع البلدين بترائهما الانجلو سكسوني لوضع حد لاستعمارية إسبانيا وآرائها السياسية التجارية العتيقة . كانت قصيدة « عبء الرجل الأبيض » تمثل الجانب الإيجابي للدور المنتظر من أميركا في تعضيد بريطانيا ، مثلما كانت قصيدة « انحسار » تمثل الجانب السلبي في موقف بريطانيا من مسؤولية التمدين والتحضير . وكان كبلنج في الحالين مدفوعا بخوف من عدو مشترك للحضارة الانجلو سكسونية ، فراح يدعو الى « سلام بريطاني » منظم ، أو « سلام انجلو سكسوني » أو في « سلام فرانكو - بريطاني » . كانت مشاعر كبلنج ومخاوفه بين ١٨٩٧ - ١٩٠١ تردد أصداء مماثلة عند عامة الناس في بريطانيا ، ومن هنا جاءت شهرته كداعية للسروح « الامبراطورية » في مقارعة « الاستعمار » القديم . وفي عام ١٨٩٨ كذلك قام كبلنج برحلة بحرية في القنال الإنجليزي جعلته على مقربة من ضباط

البحرية البريطانية وقوت من آرائه حول دور البحرية في نشر آرائه عن دور بريطانيا في العالم . وفي هذا الوقت كان كبلنج ما يزال على مخاوفه من « العدو الخارجي » المتمثل في القوة البحرية الألمانية وفي « الدب الروسي » برغم آراء ثلاثة من زعماء سياسة اليمين بإمكان الوصول الى تفاهم مع ذلك « العدو » . ولما قامت المظاهرات في بريطانيا تطالب بزيادة القوة البحرية (رغم معارضة تشرشل) وجد كبلنج في ذلك مصداقاً لمخاوفه على المستوى الشعبي . وكان ثمة « عدو » آخر أمام بريطانيا يتمثل بالفلاحين الهولنديين في جنوب افريقيا بزعماء « كروجر » وهنا بدأ اهتمام كبلنج بجنوب افريقيا في الفترة ١٨٩٨ - ١٩٠٨ . فقد أعلن كبلنج صراحة أن « البور في اقليم الرانسفال قد يتمردون على السلطة البريطانية في جنوب افريقيا ، مدفوعين بعون من احدى القوى الاوروبية، عند ذلك يجب القضاء عليهم » . كان تشيمبرلن ورودس وملر قادة اليمين في معالجة الوضع في جنوب افريقيا ، ولكن كبلنج كان يراهم جميعاً مقصرين في النهوض باعباء الرجل الابيض . لقد شهد كبلنج جانباً من حرب البور ، وعمل بجهد كمراسل صحفي ، وخرج بعدد من القصص عن ذلك الجنوب الافريقي ، ولكنها باطالها ومحيطها تبدو نسخة أخرى عن تجربته الهندية . لم تكن تلك القصص من المستوى الجيد ، غير أنها كانت تفصح عن مشاعره السياسية . كانت تمتلئ بالكراهية والحقد ، لا على « أعداء » بريطانيا الظاهرين ، بل على أعدائها غير المعلن عنهم : المحايدون ، الاجانب الذين ساندوا البور ، فلاحى الدولة الحرة في الرانسفال ، والمثقفين الامريكان الذين وقفوا الى جانب (كروجر) برغم ولائهم الظاهر لبريطانيا . وكان حصيلة ذلك ذلك قصتان نشرهما في (التايمز) لدى عودته الى لندن من جنوب افريقيا في نيسان/ابريل ١٩٠٠ ، وليس فيهما من القيمة الادبية قدراً فيهما من الهجوم السياسى على « خونة الدولة الحرة » وخونة (الكاب) . وفي ١٩٠١ استدعى ملر الى لندن فترك ادارة (الكاب) وفي ١٩٠٢ توفي رودس فجأة ، فخسر كبلنج اثنين من أبطاله في الحلم « الامبراطورى » في « جنوب افريقيا انجلو سكسونية » . وبدأت آراؤه السياسية في هذا المجال تضمحل تدريجياً مع الايام . وفي ١٩٠٣ بدأت أحاديثه وقصصه تفصح أن بريطانيا كانت تخوض معركة خاسرة في جنوب افريقيا . رغم انه لم يستطع الاعتراف بذلك علناً . وراح يهاجم سياسة اليمين ويتهم « الطبقات العليا » في بريطانيا في سياسة الجنوب الافريقي ، ويدعو الى سياسة تخطو من « النظرة الطبقية » . وفي ١٩٠٣ لم يبق أمام كبلنج في حلمه « الامبراطورى » سوى (جوزف تشيمبرلن) الذى ذهب في زيارة الى (الكاب) فراح كبلنج يكتب المقالات التي تقول ان رئيس الوزراء البريطاني وقع في حبال (جروجر) وزعماء البور . وفي ١٩٠٩ قام (اتحاد جنوب افريقيا) وكان كبلنج في ذلك التاريخ قد نسي أو كاد ينسى كل علاقة له بجنوب افريقيا ، وشغلته احداث اوربا ، فراح « يبحث عن وطن جديد ليحبه » وجاء هذا الوطن في شكل فرنسا . وعندما نشر قصصه عن التجربة الافريقية ، كانت قصصاً يقصد بها « أن تقرأ بصوت مسموع ... للاطفال » تمتلئ بأحاديث وصور عن ادغال افريقيا وحيواناتها ، وفي ذهنه دوما خبرته الهندية .

« الحماسة وسوء الحكم » : انجلترا بين ١١٠٢ - ١١١٤ « هو ما يقدمه لنا في الفصل الخامس . ففي آذار/مارس/١٩٠٥ كتب كبلنج من جنوب افريقيا الى صديقه مسز هل ، أخت زوجته ، قائلا ان قصصه الافريقية التي ظهرت قبل ذلك بسنة بعنوان (مشاغل واكتشافات) كان المفروض فيها أن تظهر تحت عنوان احدى القصص « جيش الحكم » وتكون بمثابة كراسة سياسية . ولكن تبرير فشل تلك القصص البحرية لم ترتفع الى مستوى الجودة ، يستثنى من ذلك قصتان : « لاسلكي » و « هم » اضافة الى قصة واحدة ممتازة بعنوان : « تحت سدة الطاحون » . في هذه القصة تعبير عن خوف كبلنج وخيبة أمله عن فشل انجلترا في مهمتها التحضيرية التمدينية واخفاؤها في الاستعداد للمستقبل . والقصة في اطارها هجوم سياسي على حكومة المحافظين عام ١٩٠٢ . ومع مجيء حكومة الاحرار عام ١٩٠٦ زادت مخاوف كبلنج على مستقبل بريطانيا بما انطوت عليه سياسة تلك الحكومة من « غوغائية وفوضى وفساد تحت اسم « الاشتراكية » وفي عام ١٩٠٨ نشر كبلنج قصة تنطوي على هجوم سياسي على حكومة الاحرار بعنوان « الخلية الام » . ليس في القصتين من القيم الادبية مما يجعلها موضوعا يرجع اليه ، لأن الهجاء السياسي في الادب موقوف بزمان ومكان ، حتى هجاء شاعرين كبيرين من وزن درايدن وبايرن . ولا يمكن مقارنة الهجاء السياسي عند كبلنج بكتابات جورج اورويل مثلا ، فضلا عن جونالين سويغت في (رحلات جليفر) . ولكن اشعاره السياسية امتدت بين ١٩٠٢ - ١٩١٢ ، تبني قضية الجنود العائدين من جنوب افريقيا ، وترسم لهم مستقبلا وحلولا على شكل : الامبراطورية ، الهجرة ، الاستيطان في استراليا . في هذه الفترة راح كبلنج يجاهر بعدائه السياسي لنقابات العمال والاشتراكيين وعشاق الديمقراطية والطبقات التجارية ، قائلا ان ذلك كله لن يصمد عندما يداهمنا « العدو » . كانت السياسة الداخلية أبرز نقاط الضعف في حكومات اليمين المتطرف ، الذين كانوا يرون بناء الامبراطورية متصلا بالتغيير الاجتماعي في الداخل ، وهو ما يدكرنا بأراء ديكنز ورسكن وتنسون من الادباء في وجوب اخماد التمرد في جمايكا . وذلك التغيير يحتاج الى معرفة دقيقة باوضاع المستعمرات وأوضاع بريطانيا ، مما لم يكن في مقدور أى سياسي او فئة حاكمة في تلك الايام ، رغم ان الحديث عنه كان بمقدورهم جميعا ، ولكنهم كانوا يقصرون لدى التطبيق ، بما في ذلك كبلنج نفسه . واذا كانت قصة « جيش الحلم » التي اراد لها كبلنج ان تكون عنوان هجائه السياسي ، ليست سوى دعاوة سياسية محكومة بظروفها الآنية ، فان اهميتها للناقد الادبي تكمن في انها بداية الاضمحلال في قواه القصصية . اما هجومه على حكومة الاحرار في قصة « الخلية الام » فهي تقول ان أعداء الامبراطورية الجدد هي افكار « التقدم ، الفردية المتحررة ، مذهب السلام ، العالمية ، المساواة ... و امثال ذلك مما يحول بين الامبراطورية وبين مواجهة الخطر الالمانى المتعظم ضد رسالة التمدنين » . ومن أجل بلوغ تلك الرسالة ، وجد ان اسلوب التطوع للجيش كان قليل الفائدة وكان من الضروري لذلك اتخاذ اسلوب « الخدمة الوطنية » الالزامي . ولكن ذلك لم توافق عليه حكومة الاحرار ، ولما قامت الحرب العظمى وجد كبلنج نفسه يلقي الخطب في الحث على التجنيد الالزامي . وفي عام ١٩٠٧ ذهب كبلنج في زيارة

رسمية الى كندا مجدداً أمله أن هذا الجزء من «الدمنيون» البريطاني قد ينعش آمال الامبراطورية بعد أن خاب أمله في اميركا . نشر كبلنج قصيدة في تحية كندا ، التي قدمت معاملة تفضيلية أمام البضائع البريطانية ، داعياً تلك البلاد «سيدة الثلوج» التي سوف تكون أول من يلبي نداء الحرب، وداعياً بقية أعضاء «الدمنيون» أن يتبعوا مثال كندا . في كندا كان استقباله فخماً ، وراح يفدق في المديح في خطبه ، معلنان في وسع بريطانيا «السماح لخمسة ملايين» أن يهاجروا الى كندا من بين الاسر العاملة في الوطن الام .

في الفصل السادس نجد صورة عن أوضاع كبلنج الصحية ، وشيئاً عن تاريخ حياته قبيل الحرب العظمى، ففي أيلول/سبتمبر ١٩٠٢ انتقل كبلنج والأسرة من الساحل الجنوبي في إنجلترا الى منطقة الشمال الشرقي منها ، في قرية صغيرة وفرت له ما يشبه العزلة عن العالم الخارجي ، ليتفرغ للكتابة ويتعد عن صخب الحياة والسواح على الساحل الجنوبي من البلاد . وفي «برواش» كان يتغير نحو الأفضل ، لان القرية كانت تقع في وسط مناظر طبيعية متنوعة كان وضعه الصحي في أشد الحاجة إليها . وفي عام ١٩٠٤ نشر قصة بعنوان «هم» يرى فيها الكثير من النقاد تعبيراً عن ألمه لوفاة ابنته جوزفين في نيويورك وكانت لم تبلغ الرابعة . وفي هذه القصة نجد حبه الغريب للأطفال ، في عبارات قد يجد فيها بعض المولعين بعلم النفس مجالا خصباً للتحليل وتفسير «سوداويته» وآلامه النفسية . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن «في نفس الحال» ١٩١١ ، وعن «الكلب هيرفي» ١٩١٤ . في القصتين ثمة عناصر مشتركة : ففيها معاً تصوير ملموس لشعور باليأس يوشك أن يقع . وفيهما معاً نصل الى سبب عصابي في مرض الشخصيات في القصة . ولكنهم في النهاية يظهرون في تمام العافية . وهكذا يكون المحيط النفسي العصابي مفروضاً من الخارج وقد أقحم على القصة التي تخلو من صراع داخلي مثل هذه الصفات في قصصه الأخيرة جعل الكثير من النقاد والمعجبين بأدب كبلنج يعتقدون أن أعماله المتأخرة بدأت تظهر الاضطرابات النفسية في شخصية الكاتب ، تلك الاضطرابات التي بدأت مبكرة ، في السنوات الست التي قضاها في إنجلترا بعيداً عن أبويه في بومباي ، عندما كان في السادسة من عمره . وفي خلال اقامته في اميركا ، وفي العقد الاول من هذا القرن ، ظهرت على كبلنج علامات الضعف العصبي أكثر من مرة . ولا شك أن الارهاق والعمل المتواصل في الكتابة والمحاضرات والمناقشات السياسية كان لها جميعاً أثر في ذلك . كانت زوجته كرى (كارولين) موضوع بحث لدى الكثير من النقاد . كم من التأثير كان لها في شخصية الكاتب ؟ الى أي حد كان لها يد في كتابة أو نشر بعض القصص ؟ كم كان مقدار فهمها لعمل الكاتب وأدبه ؟ في هذا المجال لا يبدو أن كاري كان لها تأثير ايجابي على إنتاج الكاتب ، ولكنها كانت «سيدة البيت» تحسن ادارته وتلاحق الحسابات والزيارات والواجبات الاجتماعية . ويسبب من براعتها في ادارة الامور المالية أصبح كبلنج على جانب من الثراء الكبير عند اعتلال صحة الزوج والارهاق العصبي الذي أصابه إبان الحرب العظمى .

الفصل السابع والاخير في هذا الكتاب يدور حول الحرب العظمى وما بعدها . في أثناء تلك

الحرب نشر كبلنج ثلاث قصص ، ولم يكن نشيظاً أثناء الحرب بشكل خاص . فاضافة الى اعتلال صحته ، كان لوفاة ابنه جون في السنة الثانية من الحرب أبلغ الأثر في نفسه . لقد صارت قصصه بعد الحرب تهتم بالآثار العصبية والنفسية التي خلفتها الحرب على الجنود . وكان الذي شغله بعد مقتل ابنه عملاق كيران : الاول كتاب (الحرس الايرلندي زمن الحرب) الذي اتعبه كثيراً ولم ينجزه الا عام ١٩٢٣ . والعمل الثاني البحث عن قبور قتلى الحرب في أوروبا وفي تركيا وفلسطين والعراق ، وهو العمل الذي امتد به الى اواسط العشرينات . فبعد زيارة مواقع القتال في شمال أوروبا الغربية نشر قصة بعنوان « البستاني » في عام ١٩٢٦ تعبر عن مشاعره تجاه ابنه القتيل . وقد قيل ان أعظم نقص يؤخذ على أعمال كبلنج هو غياب الحب في قصصه ، باستثناء (كيم) . والملاحظ أن ثمة تجرعات كبيرة من الكراهية في أعماله وبخاصة في أوائل القرن وبعد الحرب . ورغم ان بعض تلك القصص عليها مسحة من الرحمة والتعاطف ، ولكن ذلك من نصيب الكاره لا المكروه . فقد كان ينظر الى الحرب على انها ضرورة لوقف العدوان ، وكان يرى أن أحسن وقود للحرب هو الكراهية للعدو . وقد وجد كبلنج في الحرب العظمى مناسبة لتجديد كراهيته للامان ، ذلك الشعور الذي بدالديه في اواسط التسعينات . لقد بلغت كراهية الالمان لديه حد العنصرية . ففي ايار/مايو/١٩١٦ كتب في (الديلي اكسبرس) يقول : « علينا أن ندخل شيئاً في عقولنا الكثيفة : وهو انه حالما يجد الالمان مجالا يزدهر فيه فان ذلك يعنى موت البشر المتحضرين ، تماما مثل الجرائم في أى مرض . . . موت دنىء أو خسارة للبشرية . . . الالمان يفتوئيد أو طاعون . . . وان شئت : الوباء الالمانى » . وفي آخر رسالة كتبها كبلنج الى صديقه جيمس بارى في كندا في ١٩٣٦/١/٤ أى قبل وفاته بأسبوعين ، قال ان المانيا « اشبه بمخلوق مدجج بالسلاح يقف وسط حركة المرور ويقلق كل شيء . لقد سبق لالمانيا منذ خمس أو ست سنوات ان فسرت السبب وراء تسليحها . كما فعلت لست أو سبع سنوات قبل الحرب . وفي هذا المجال أرى ان المانيا قد احترمت أقوالها » . وفي عام ١٩٣٥ ألقى كبلنج محاضرة أمام (جمعية القديس جورج) حذر فيها من تصاعد القوة النازية ، ودعا فيها للتهيؤ للحرب ، وقد أثبتت الاحداث صدق ما ذهب اليه .

وبعد الحرب العظمى لا نجد أثراً كبيراً لتلك الاحداث في كتابات كبلنج . أما « الامبريالية » فقد أصبحت مزيجاً من الحماس البلاغى وملاحقة المصالح الاقتصادية . وان كبلنج قد بدأ يشيخ ، ويجد قليلاً من الامل في التفاهم مع العالم الجديد . فقد رأى أن الحرب جمعت بين أعضاء « الدمينون » طالما كانت الحرب قائمة ، وبعدها بدأت اطماع الفردية في الظهور ، وبخاصة في السياسة الاميركية مما أثار حنق كبلنج وأثار موقفه القديم من الاميركان . ولكن السبب الاول في ابتعاد كبلنج عن السياسة في الحقبة الاخيرة من حياته هو انهيار صحته ، مما جعله أكثر انطواء على نفسه . ولكنه بين ١٩٢٠ حتى وفاته كان يكثر من الاسفار ، تسرية وتسلية . فقد دفعته الرياح الى الجزائر والبرازيل وجمايكا وتشيكوسلافيا وبولجيا واسبانيا . وفي أوائل كانون الثانى يناير/

١٩٣٦ زاد عليه المرض وهو في فندق براون بلندن ، ونقل الى مستشفى (مدلسكس) حيث توفي في ١٧/١/١٩٣٦ ، واحرق جثمانه وادعى « زاوية الشعراء » على مقربة من تشارلز ديكنز في ويستمنستر ابي .

(٣)

نوئيل بابر : كان الاهالي كرماء .. فاقمنا الليلة - لندن ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب صحفي حتى العظم ، انجليزي حتى النخاع ، يعشق المغامرة ويجب الحياة بشتى صنوفها واحوالها ، يحب الناس جميعا يسخر من كل الناس مبتدئا بنفسه - كأي انجليزي عريق - ولا يعرف معنى كلمة مستحيل ، ولا يقبل كلمة صعب . وهو يعرف على استعداد ليعمل كل شيء ، ويستمتع الى كل شيء ، ويقابل أي انسان في أي مكان بحثا عن المغامرة والطرافة والغربة .. وقد يخيل للقارئ سيرة نوئيل بابر ان الغرائب والعجائب والطرائف هي التي تبحث عنه ، وليس هو الذي يبحث عنها . وقد يخيل للقارئ ان الرجل يبالغ في ما يقول ويحكى ، وقد ، وقد .. الخ ولكن يبقى شيء واحد واضح ، وهو ان الكتاب سلسلة متواصلة الحلقات من القفشات ، والصدف العجيبة . ليس في الكتاب عقد ولا مشاكل ، ولا بداية ولا نهاية ، ولا توارين متشابكة ، ولا مسائل تحتاج الى تفسير ، ولا ظواهر تحتاج الى توضيح ... من أول كلمة في المقدمة الى اخر كلمة في الكتاب تحس ان الرجل امامك يحدثك ولا يكتب لك شيئا لتقرأه .. يحدثك : فلفته لغة الحديث لا لغة الكتابة ، وتكاد « تسمع » حديث باربر ونبرات صوته الخبيثة وحركات وجهه المعبرة وهو يروى لك طرفة او يسرد لك حكاية وقعت له . ومن أجل ذلك لا أحسب أن ترجمة هذا الكتاب الى لغة غير الانجليزية يمكن تحتفظ للكتاب بنفس النكهة مثلا . لان النقل سيذهب بحلاوة لغة الحديث . ولا أحسب أن عرض مثل هذا الكتاب يحتاج الى تحليل أو تعليق . فهذا كتاب أشبه بمعزوفة موسيقية جميلة كل ما يستطيع المرء فعله هو أن يعيد عزف تلك الموسيقى ليسمعها من جديد . ولا أحسبني قادرا على أكثر من تلخيص ، واعادة رواية ما في هذا الكتاب ، لمصلحة القارئ العربي الذي لا يستطيع قراءته في الاصل الانجليزي أو لمصلحة القارئ الذي لا يستطيع الحصول على الكتاب ، رغم أنني لا أجد سبباً لذلك . فالكتاب حديث وقد صدر عام ١٩٧٧ ، وأحسب ان من يقدر أن يحصل عليه لن يلومني على اقتراحي ، اذ سيجد القارئ ساعات من المتعة ليس في وسع كثير منا أن يفرط بها هذه الايام .. لسبب أو لآخر . هناضحك « متحضر » لا يستند الى نكات سمجة ، بل فكاهة سلسلة تدور حول عشرات من الشخصيات التي عرفها الكثير من القراء العرب ، من مجرد الثقافة العامة والاطلاع على ما في الدنيا من اخبار منذ عشية الحرب العالمية الثانية الى اليوم . هناصحفي يروى ما حدث له في حياته الصحفية خلال الاربعين السنة الاخيرة ، وهذه سيرة ذاتية تصور عناد الانسان ان هو أراد النجاح في مسعاه رغم الصعاب ، وهذه قصة انسان يضحك من كل شيء ، ولا يستسلم لاي عارض ، بل يواصل مسعاه ولو بعد كبرة ، ويضحك ، دائما يضحك .

يقع هذا الكتاب في ٢١٨ صفحة من القطع المتوسط ، وهى تسعة عشر فصلا . وهو الكتاب السادس والعشرون من قلم الكاتب ، من بينها ثلاثة كتب بالاشتراك مع غيره . كتب نويل باربر في التاريخ المعاصر ، والسيرة ، والأسفار ، والسياسة والحرب . وهذا آخر كتبه أنجزه بين ١٩٧٥ - ٧٧ . فمنذ أن كان باربر في التاسعة من العمر كتب كتابا في ثلاثين صفحة كان يطلب أصدقاء والدته بفلس واحد لقاء قرائته ، وما زال يكتب منذ ذلك التاريخ ، ويكسب الوف الأضعاف عما كسب من كتابه الأول ذى الثلاثين صفحة . وفى الرابعة من عمره نشبت الحرب العظمى ، وكان فى الدانمرك مع والديه ، وكانت مغامرته الأولى أن الألمان طاردوا الباخرة التى أقلتهم الى بريطانيا واحتجزوها ثلاثة أشهر . ومنذ ذلك التاريخ لم ينقطع نويل باربر عن المقامرة . فهذا إذن كاتب مغامر منذ « نعومة أظفاره » واليوم وهو فى السبعين لا أحسب أن أظفاره بقيت ناعمة ، ولكنه ما زال « يتكلم » بروح شاب فى العشرين .

عنوان الفصل الأول : « الربيع فى باريس » يذكرنا باغنية (دوريس داى) وهى فاتحة جميلة لسيرة ذاتية تبدأ بقوله : - « ليس هذا الكتاب عن لعبة التنس ، ولكن ... » ثم يبدأ الشلال اللغظي ولا تعرف أين ينتهي . الصدفة وحدها ساقته الكاتب الى مونت كالويششهد لعبة تنس تغيب عنها أحد اللاعبين فحل هو محله بالصدفة ، ويبدأ صداقة مع (لورد رودمير) فى أواسط الأربعينات فى لعبة ربحتها مع صديقه الجديد . يقدم الكاتب نفسه وأسرته فى جملتين ويقفز الى ذكر رحلاته فى أرجاء العالم ، ثم يعود بخفة الى الحديث عن أسرته . عند نهاية الحرب عمل باربر محررا لجريدة (ديلي ميل) فى باريس وهو فى الخامسة والثلاثين . وفى الثالثة والأربعين أصبح مراسلا صحفيا فى البلاد الأجنبية ، وفى حدود الخمسين صار يكتب الكتب ليعيش ... أحسن عيشة . وتبدأ الذاكرة تتطافر ، عن أحداث طفولته وشبابه وكهولته ، وليس من رابط منطقى يجمع بين ذكر حادثة وأخرى . ليس غير التذكر ... يبدأ بقوله كيف أنسى يوم كذا أو كذا ، ويسرد لك حادثة لا تدري لماذا يسردها ، ولكنها دائما حادثة طريفة . مرة كنت أزور بيكاسو ... هكذا يبدأ باربر ... فجاءت امرأة تجادله حول مبلغ كبير طلبه لقاء تخطيط ساذج فقال لها « يا سيدتى » ذلك التخطيط استغرقنى نصف ساعة - وخمسين سنة - لكى أنجزه . ثم يعود الى مونت كارلو و « الصدفة » التى دفعته للعب الروليت بعد اختيار الرقم ٩ لأنه ولد فى ٩/٩/١٩٠٩ . وبالصدفة كذلك يضع مبلغ السبعين جنيهها التى فى جيبه ويربح ألفا وخمسمائة دفعة واحدة يكتسبها وكأنه مقامر عريق . والحياة فى باريس عام ١٩٤٥ تثير الحنين لدى الكثير ممن عرفوها أو قرأوا عنها . هنا مراسلون فى كل صحف الدنيا ، يعيشون عيش الكفاف وهم سعداء لمجرد وجودهم فى باريس . كانت وجبة الطعام تكلف ٢٠ - ٣٠ باون تلك الايام ، وهى ليست مشكلة اذا استطعت أن تجد كرسيًا غير مشغول فى أحد المطاعم . وفى ذلك الوقت كانت الأحداث تتسارع فى نهاية الحرب عندما كان ترومن « يلعب » القنبلة الذرية استعدادا لالتقاءها على هيروشيما . وكان ديجول قد عاد الى فرنسا ولكن الأميركان تقاعسوا فى الاعتراف بتلك

الحقيقة ، مما أثار نقمة ديغول والفرنسيين على أميركا . وكان ذلك العام كذلك عام انتقام ديغول من « الخونة » الفرنسيين في جماعة (بيتان) .

في الفصل الثاني يقول باربر أن « احسن الاشياء في الحياة تأتي مجانا » وهو يتحدث عن غلاء أسعار المطاعم والطعام في باريس في صيفه ١٩٤٠ . ولكن باربر استطاع أن يقنع صاحب أشهر مطعم في باريس (مكسيم) أن يقدم له ولضيوفه ما يعادل ربع مليون فرانك من الطعام شهريا مقابل أن يعلن عن المطعم في جريدة (الديلي ميل) التي يحررها في باريس نويل باربر . وكان باربر بذلك قد ربح مرتين : مرة بالحصول على تلك الكميات الضخمة من الطعام ومرة بالاعلان في جريدته التي لا يعلن فيها أحد ، لأنها تصدر بالانجليزية في باريس ولا يقرأها سوى القوات البريطانية والأميركية ، وهؤلاء لا يأكلون عند (مكسيم) . ولكن الاعلان ذاته كسب اعلانات أخرى لأنه اعلان عن (مكسيم) .

في ذلك الوقت الذي كان من الصعب فيه اخراج النقود من مكاتب الديلي ميل في لندن كان على باربر أن يصدر الجريدة في باريس بالحد الأدنى من النفقات سواء على الموظفين او على المساهمين في الكتابة . وقد استطاع باربر أن يستكتب عددا من المشاهير الذين كان يعجبهم أن تظهر اسماءهم في جريدة قد مسها سحر باربر ، ولو بأقل المكافآت عن مقالاتهم ، ازاء هذه الصعوبات المادية كان ثمة مفارقات عجيبة كان أغلب المحررين العاملين في الديلي ميل اليمينية يعملون كذلك في (الامانيكية) اليسارية على الجهة المقابلة من الشارع ، في سبيل دخل اضافي . مرة فوجيء المحرر بزاثر فرنسي عندأول بداية العمل في الجريدة ، وكان الزائر مختصا « بالتدليك » . كان المحرر السابق يستخدمه ليعوض عن قلة التمرين الحركي بسبب الجلوس وراء المكتب ساعات طويلة . ولم يكن بوسع المحرر باربر دفع هذه النفقات الجديدة ولكنه لم يشأ أن يخيب أمل المسكين ، الذي كان « يدلك » للسيدات كذلك في بيوتهن ، ومرة قال لباربر اثناء أداء الواجب : « انقلبي الى الجهة الاخرى يا سيدتي ! »

استطاع باربر أن يحصل على مواد لجريدته من وكالات الاخبار دون مقابل لان وكالات الاخبار العاملة في باريس بعد الحرب كانت تحتاج نفسها الى الدعاوة وليس أفضل دعاوة من جريدة انجليزية في باريس تقرأ في جميع السفارات ودوائر الحكومة . واذا كان (مكسيم) يفخر بالمشاهير الذين زاروا المطعم اثناء الحرب فقد استطاع باربر أن يجلب له مشاهير آخرين « ضيوفا » على باربر هذه المرة ، ويكسب الاثنان : باربر ومطعم مكسيم .

عنوان الفصل الثالث « وردة بين الاشواك » هو قلب متعمد من باربر لما يجب أن يكون « شوكة بين الورود » التي هي قائمة طويلة من المشاهير الذين عرفهم باربر في باريس في سنوات ما بعد الحرب ، ولكنه يدعوهم بالاشواك وهو الوردة بينهم . من أول هؤلاء المشاهير (دو قوندزور) الذي كان ملك بريطانيا عام ١٩٣٦ وتنازل عن العرش

لانه أصر على الزواج من أميركية ، فتولى الملك بعده جورج السادس من ١٩٣٦ - ١٩٥٢ . كان دوق وندسور قد أعلن عن نشر مذكراته ، فتخاطفها الصحف البريطانية لقاء مبالغ ضخمة . ولم يكن بمقدور باربر أن يدفع لينشر تلك المذكرات في باريس ، ولكنه استطاع أن يفعل ذلك لقاء مبلغ زهيد ، لأن الدوق كان يرحب بنشر مذكراته ليقرأها أصدقاؤه الكثيرون في باريس ، وهكذا توطدت الصداقة مع باربر ، الذي يقدم لنا صورة من قريب عن حياة « ملك سابق » يقيم في باريس ، وليس لديه ما يفعله سوى زيارة المتاحف ومحلات العاديات ، وينظر في مفكرته ليرى ما يجب أن يفعله بعد ذلك .

و « الشوكة » الثانية التي عرفها « الوردة » باربر في باريس اسمها (آغا خان) والد (علي خان) العاشق الأكبر الزواج . كان باربر قد ساعد في نشر سيرة حياة آغا خان فتوطدت العلاقة . ولأن جميع المشاهير كانوا يمرون بباريس بعد الحرب فقد مر « مشهور » آخر هو شقيق باربر (انتوني) العائد من الأسر في ألمانيا ، والذي أصبح فيما بعد وزير المالية البريطاني . ذهب الشقيقان إلى ناد ليلي كان « يراعى ظروف النقص في الأقمشة في تلك الأيام فكان أن وزعت ستة أثواب على اثنتي عشرة من فتيات النادي بحيث يستر بعضهن الجزء الأعلى من الجسم والبعض يسترن الجزء الأسفل » .

ثم جاء تشرشل إلى باريس في زيارة خاصة وحضر باربر دعوة غداء مع تشرشل وطلب منه في آخرها مقابلة لجريدته حول آرائه عن مستقبل أوروبا . واستأذن تشرشل من زوجة السفير البريطاني في باريس أن ينسحب إلى غرفة نومه « ليناقدش مع باربر مستقبل أوروبا » . وفي الغرفة استلقى عجوز بريطانيا على السرير طالباً من باربر أن يساعده في نزع حذائه . وبعد أن فعل ذلك باربر قال تشرشل « كان من دواعي سروري التعرف عليك في هذه المقابلة ، مع السلامة » .

وتوالى الزوار المشاهير على باريس ولكل واحد منهم قصة مع باربر : مسز هرست زوجة امبراطور الصحافة الأميركية ، المغنى الأميركي بنج كروسبى ، إيان فلمنج مؤلف جيمز بوند . وفي زيارات باربر إلى جنوب فرنسا كان يلتقى بمشاهير آخرين ويحدثنا عنهم أحاديث : بيكاسو ، سومرست موم ، أرسطو طاليس ، أوناسيس ، ليدى تشرشل ، ماريا كالاس . كان موم ناقماً على بريطانيا لأنها لم تمنحه وسام الاستحقاق وهو أشهر أديب بريطاني ، وفي مقابلة مع باربر نجد صورة للعجوز الغاضب في منغاه الاختيارى وكان يفسر (وسام الاستحقاق) بعبارة (مستوى الاخلاق) .

الفصل الرابع يتحدث عن « عزلة الكاتب » وهو سيرة ذاتية تختصر سنواته السابقة والاحداث التي انتهت به إلى الإقامة في باريس مع نهاية الحرب ليكون محرر الديلي ميل . عندما كان

في السادسة عشرة ، كان نويل يقيم مع أسرته في (دوناستر) وكان ينتظر منه أن يحصل على وظيفة دائمة . ولكن نويل كان يريد أن يصبح كاتباً ، ليهرب من الارتباط بالوظيفة . وكانت أولى مقالاته الصحفية وصفاً لفعالية شباب الكشافة بخمسمائة كلمة نشرتها الصحيفة المحلية في دونكاستر ، فألهمت حماس الفتى ليستمر . ولكن المحرر أراد استغلال الفتى في كتابة عمود كل أسبوع ، ولو قدر له النجاح لحصل نويل على مكافأة رمزية في عيد الميلاد . ولكن الوالد لم يعجبه ذلك وفضل لابنه العمل في شركة الحلويات التي يديرها ، لأن « الدخل مضمون رغم قلته » . لم يكن نويل يعرف أحداً من الكتاب في ذلك الوقت ليشجعه في مساعيه ، لذلك ثقلت عليه العزلة . وفي أوائل الثلاثينات كان يكسب حوالى ألف باون سنوياً من مبيعات الحلويات ، بينما لم تكن الكتابة تدرك عليه شيئاً ذا بال . ولكن مساعيه للعمل في الصحافة نجحت بالحصول على وظيفة في جريدة (يوركشاير بوست) في مدينة ليدز وهو في السادسة والعشرين من العمر ، عام ١٩٣٥ . في ذلك الوقت كان نويل قد كتب تسعة عشر كتاباً رفضها الناشر جميعاً ، واثناء عمله في الجريدة خطر له أن يكتب عن خبرته في التقارير الصحفية ، وكان أن باع كتابه الأول هذا لقاء عشرين باون في أوائل عام ١٩٣٦ . ثم انتقل إلى جريدة الديلي اكسبريس في مانجستر وكله ثقة في مواصلة كتابة الكتب . وهنا تدخلت روح المغامرة بحثاً عن مواد للكتابة ، فقرر الإبحار من ليفربول على ظهر باخرة اتجهت إلى المكسيك ومنها على ظهر باخرة أخرى متجهة نحو سنغافورة حيث وصلها في بداية عام ١٩٣٨ ، ليعلم ساعة وصوله أن محرر جريدة (ملابا تريبيون) كان على وشك السفر في اجازة ، وكان لا بد من بديل ، فتوظف نويل في الحال وبقي في سنغافورة سنة ونصف ، تزوج خلالها من (هيلين) وهي فتاة انجليزية مغامرة جاءت لتعمل في تلك البلاد . ومع نشوب الحرب الثانية اضطر نويل إلى ترك البلاد ، فقفّل راجعاً مع زوجته إلى لندن عن طريق هونج كونج ، شنغهاي ، بكين ، ثم استقل قطار سيبيريا الذي استغرق ٢١ يوماً للوصول إلى موسكو . وفي ثاني أسبوع من وصوله لندن اشتغل في الديلي اكسبريس ثانية ، ثم انتقل إلى الديلي ميل في أوائل ١٩٤٠ ، وعمل في الإذاعة البريطانية ونشر كتابين . كل ذلك في ظروف الحرب الصعبة . ولما كان إخواه قد تطوعوا في الحرب ، فقد أراد نويل كذلك أن يتطوع في القوة الجوية . وكانت المغامرة في الفحص الطبى ، الذي طلب منه (نموذج ادرار) ولكنه لم يستطع تقديم نموذج وهو يقف في صف طويل من المتطوعين . ولحه العريف ، فهمس في أذنه : « لعب يدك بكم قرش ، وأنا أضع في قنينتك نصف ادرار الرجل الواقف أمامك » ونجحت الحيلة ، والتحق بالقوة الجوية وما لبث أن أرسلوه بمهمة سرية إلى أميركا استغرقت حتى أوائل عام ١٩٤٥ ، وعاد إلى بريطانيا في قافلة بحرية أفرق الألمان منها خمس بواخر . ولما وصل لندن كان ينتظر أن يعود إلى السلاح الجوى باعتباره ضابط احتياط . ولكن الديلي ميل كانت تبحث عن مراسل خارجي ، فذهب إلى فحص الاحتياط واستطاع ثانية أن يقدم رشوة للعريف ، عشرة باونات هذه المرة ، « سقطت منه عن غير قصد » . وظهر أن انجلترا كانت « ما تزال تثق بالباون الاسترليني » . فتأجل طلب نويل للسلاح الجوى ، وسافر إلى باريس بعد ثلاثة أيام ليحرر النسخة الأوروبية من الديلي ميل .

في الفصل الخامس يتحدث باربر عن « الجنس والرجل والاعزب » . هنا يخبرنا باربر بكل صراحة وطرافة عن مغامراته مع النساء منذ أن كان في الثامنة عشرة من عمره يقضى اجازة في كوبنهاجن ، في انتظار والده . وفي الفندق تعلقت به سيدة فرنسية كانت تنتظر وصول زوجها هي الاخرى ، وكان ذلك في عام ١٩٢٧ ، وباربر ما يزال في أول الشباب . وفي عام ١٩٣٨ يروى باربر مغامرة عجيبة أخرى مع (سلطان جوهور) في سنغافورة ، الذي كان يعيش في (قصر النعيم) ويأكل في صحاف من ذهب . اجتمع باربر مع السلطان في مناسبة ، واراد السلطان أن يشكر باربر على معروف قدمه اليه . وعند انتهاء العشاء « صفق السلطان قدخل سرب من الصبايا الاسيويات ، وكان على ضيف الشرف باربر أن يختار اثنتين منهما لقضاء الليلة في « قصر النعيم » ليتبعه الآخرون ، فيأخذ الواحد منهم « حصتين » لتلك الليلة » . ويستغرق باربر في وصف ذلك المحيط الخرافي الذي لا وجود له خارج حدود (ألف ليلة وليلة) الا في سايفون كما يصفها باربر في السنوات التي سبقت الحرب الثانية . وفي سايفون كان باربر في وسط يمعج بنساء اللذة ، اكثر من سنغافورة وقصر سلطان جوهور . هناك كان بوسع المرء أن « يشتري زوجة » لسنة او اثنتين ، وهو ما كان يفعله الاوربيون العاملون في سايفون ، حتى ولو كانوا متزوجين في بلادهم . يقدم لنا باربر وصفا أخذا لمدينة سايفون التي تجد فيها ملامح كثيرة من باريس في طراز البناء والسيارات وتصرفات الاوروبيين ، وهم فرنسيون في الغالب .

وفي الفصل السادس « الحقيقة العارية » يقدم لنا باربر وصفا لا يقل « قبحا » من حياة الفجور في سنغافورة وسايغون . المكان هذه المرة باريس عام ١٩٤٥ ، في ناد ليلى تديره المغنية السحايقية (سوزى سوليدر) . كان باربر يرتاد هذا النادي لانه يشكل مصدرا للقصص المغرية عن باريس بعد الحرب لكثرة الشخصيات البارزة التي كانت ترتاده . ثم دعت (سوزى) الى اجازة آخر الاسبوع الى دارها الريفية في ضواحي باريس مع عدد من العاملات في نادياها للتمتع « بحمام شمس » وكان هو الرجل الوحيد . وعلى نفس الوتيرة يروى باربر كيف حضر مرة الحفلة السنوية لنادي « رابطة الشمس والهواء الوطنية البريطانية » في عام ١٩٤١ ، وهو في الحقيقة أحد « نوادي العراة » في بريطانيا . لقد ذهب هناك كمراسل صحفي بعدما شاعت الشائعات عما يدور في ذلك النادي والبلاد في أخطر سنوات الحرب .

في الفصل السابع يتحدث باربر عن « فن مضغ الكلمات » ويروى مغامراته في الكتابة للصحف الاميركية بحثا عن مدخول اضافي . حاول باربر لسنة كاملة ولكنه لم يجد من يشتري مقالاته ، فآمن بقول برنارد شو « ان العالم القديم والجديد تفرقهما لغة مشتركة » . اذ يبدو أن باربر كان يكتب لغة لا تجد من يستسيغها في اميركا ، رغم انها لغة انجليزية . وخطرت له فكرة « باريسية » وهي أن يجمع عددا من « صفات » الشراب في باريس وفي البلاد التي زارها ويصنع منها كتابا بعنوان « شربت في طريقي حول العالم » استطاع باربر أن يستشير اهتمام جميع اصحاب المطاعم التي عرفها في جولاته ، اذ كان يوجه اليه رسالة بتوقيع « المحرر » فعلت فيهم فعل السحر لان

في ذلك دعوة للمطاعم دون مقابل، فكانوا يرسلون أوراق المطاعم الرسمية وعليها وصفة الشراب ، فراح باربر يجمعها ويقدم لها تقديمًا قصيرا . ثم ارسل الكتاب الى مجلة (ترو) في نيويورك التي سارعت بإرسال ألف دولار ، وهو أعلى مكافأة حصل عليها صحفى حتى تلك الايام .

وأعقب ذلك ضربة حظ ثانية . فقد التقى باربر صدفة بصديق قديم مع ابن عم له وقد تزوج حديثا من اميركية تملك وكالة انباء . وكانت الوكالة تطلب مراسلين في باريس ممن يستطيعون كتابة عمود أسبوعي عن أى شيء فيه نكهة باريسية . وسرعان ما اتفق باربر مع أصحاب الوكالة وقدم أول مقالة نالت الاعجاب . واستمر باربر يرسل تلك الوكالة كل أسبوع ، ضامنا مرتبا شهريا استمر أكثر من ثلاثين سنة حتى صدر هذا الكتاب .

« شيء ذو قيمة » هو عنوان الفصل الثامن الذى يتحدث فيه باربر عن رفقة الرسامين في مونمارتر والحي اللاتيني في باريس في أواخر الأربعينات . هنا يذكر باربر عددا كبيرا من الرسامين الذين عرفهم في تلك الايام ، وكان باربر نفسه يمارس الرسم ، « فكان يذهب بصحبة احد البوهيميين في الحي اللاتيني او مونمارتر ليلبدأ الرسم « في السادسة صباحا » وبعد ذلك يذهب الى عمله في الجريدة . ومن غرائب طباع اولئك الفنانين ما يروييه باربر عن « سفارتز » الذى كان يعطي لوحاته لباعة الخضار واللحوم مقابل ما يحصل منهم من طعام . كان بعضهم يقدم لوحاته الى صاحب حانوت يبيع مواد الرسم من زيت واللوان ومواد أولية ، وبذلك يأخذ الفنان تلك المواد بيد ويرسم بها ليقدم النتيجة باليد الاخرى . وهكذا الحياة البوهيمية والا فلا ! ومثال آخر من تلك الحياة يسوقه باربر عن الرسام (اتريللو) الذى كان لا يصحو من الخمر الا ليزيد في الشراب ، ولا يتوقف عن رسم مشاهد الثلج والشتاء في باريس . ومرة قرر (اتريللو) ان يتمتع بجائزة في جنوب فرنسا حيث المناخ الدافئ والشمس المشرقة . . وراح يرسم هناك ثلاثة اشهر دون توقف وأرسل لوحاته في رزمة كبيرة الى باريس . ولما فتح الصندوق وجدوا أن كل واحدة من لوحات الساحل اللأزوردي الدافئ كانت تصور مناظر الثلج في مونمارتر .

كان باربر على صلة مع بيكاسو في هذه الفترة كذلك ، ويروي عنه هذه الحادثة : كان لدى بيكاسو شاب يساعده في صنع الخزف ، وكان بيكاسو يشجع هذا الفتى الفقير . فلما تزوج الشاب استأجر دارا متواضعة جدرانها من طين . وفكر بيكاسو في اهداء العروسين هدية مناسبة . وما كان منه الا ان ذهب الى الدارالطين وطلّى جدرانها باللوان عجيبة ورسم على كل حائط صورة لا تقدر بثمن . واسقط في يد العروسين . فلم يكن بالامكان « بيع » تلك الرسوم الجدارية وتقرر غلق الدار واعتباره من « املاك الدولة » لان خبراء المتاحف لم يجدوا وسيلة « لاقتلاع » الصور من الجدران ونقلها الى مكان آخر .

وفي تلك الايام كانت باريس تمتلئ بالفنانين من بلاد العالم اجمع . وقد تعرف باربر على

رسامة من روسيا البيضاء كان لها شأن في عالم الرسم واسمها (كوفتشاروفا) تقيم مع زميلها (لاريونوف) الرسام . كان الاثنان يعيشان عيشة الكفاف في شقة ضيقة تشرف على نهر السين . وكان بارير يزورهما مرة فمرة يعرف ان ممثلا من متحف (جورجنهيم) الاميركي قد جاء ليشتري لوحة من الفنانة الروسية ، ودفع لها مبلغا ضخما . ولكن الفنانة كانت تعرف ان بارير قد أعجب بتلك اللوحة ، وكا بارير يقدم لها لرفيقها مبالغ من المال على سبيل « القرضة الحسنة » . وكانت الفنانة لا تريد بيع اللوحة وتريد قهر أشهر وأغنى متحف في العالم . فقررت في الاخير ان « تعطي » اللوحة الى الصديق بارير وتنتصر على المتحف الاميركي .

« تدخل تيتينا » عنوان الفصل التاسع ، الذي يتحدث فيه بارير من فراقه عن زوجته الاولى (هيلين) التي تزوج منها في سنغافورة عام ١٩٣٨ وبقيت تعيش في لندن اثناء اقامته في باريس يعيش حياة العزاب . كان الفراق ضروريا لكليهما ، وصعبا على بارير ، الذي لم يكن يستطيع اصطحابها معه في باريس في حياة الصحفي القلقة واسفاره الكثيرة . وفي عام ١٩٥٣ توقفت الديلي ميلى الباريسية عن الصدور وتفرق اعضاء التحرير وكان على بارير ان يبحث عن عمل جديد . وما لبث ان اقنع مكتب لندن بالبقاء في باريس ليكتب لهم مرتين في الاسبوع . وفي هذه الاثناء عرضت عليه الخطوط الجوية البريطانية رحلة مجانية الى جزر الهند الغربية وعرض عليه احد الاثرياء من معارفه الاقامة في منزله في جامايكا ، وهنا ارض جديدة للمغامرة وموضوعات جديدة للكتابة . وما لبث ان تلقى برقيه من الجريدة تطلب منه التوجه الى « هوندوراس البريطانية للكتابة عن الوضع السياسي والانتخابات المقبلة » وهكذا بدأ بارير عمله الجديد كمراسل خارجي واصاب نجاحا كبيرا ، دفع به في مهمة اخرى الى غواتيمالا . وجاءته برقية ثالثة للتوجه الى باريس في انتظار السفر الى الشرق الاقصى . وفي باريس تعرف على (تيتينا) .

كان التعرف خاطفا ، بدأ بنظرة وابتسامة وسلام . كانت ارملة شابة ومعهما ابنها في سن السادسة عشرة ، وقد توفي زوجها في الحرب : ايطالية - رومانية ، فقرر الزواج منها كانت على وشك السفر الى نيويورك لتستقر في اميركا . وبعد ايام ودعها الى الباخرة ، ثم اشترى بطاقة سفر الى نيويورك وثلاث بطاقات عودة من نيويورك الى باريس . وعلى رصيف ميناء نيويورك كان بارير ينتظر تيتينا ، وما لبث ان عاد بها زوجة الى باريس .

« السيدات اولاً » هو حديث عن الزواج والزوجات الذين عرفهم بارير ، وهو موضوع الفصل العاشر . كانت اول خسارة في مغامرة الزواج ان بارير خسر خادمه الاسيوي ، الذي لا يطيق ان يشاركه سلطان البيت احد ، حتى ولا زوجة مخدومه ، فتلاشى من الوجود بشكل غامض . وكان من معارف بارير مستشار السفارة البريطانية بباريس ، ثري في الثمانين من العمر ، ولكنه يمشق الحسنات . فكان يقيم كل يوم غداء فاخرا تحضره كثيرات من حسان باريس ، واختار واحدة لتكون وريثته . ولكنها اصببت بمرض عضال وتوفيت قبله . اما علي

خان ابن آغا خان الكبير فكان له مع النساء قصص وحكايات . شهد بارير زواج علي من ريتا هيورات . وفي ليلة العرس طلب علي من بارير ان يوصل ريتا الى الدار بسيارته ! وخرجت ريتا من حياة علي خان لتدخل أخرى من قريبات زوجة بارير ، وتمكث قليلا لتخرج هي الأخرى . وهذه المفامرات في أمر ألم باير كثيرا ، لان « علي فتى طيب جدا » .

يتحدث الفصل الحادي عشر عن « الحياة الزوجية » كان أول ما فعلته تيتينا ان رمت جميع الاثاث في بيت بارير من الشرفة الى الشارع ، لانها اشترت غيره للحياة الزوجية الجديدة . لم يكن منظر فراش في وسط شارع على ضفة نهر السين شيئا مألوفا في باريس . ولكن زوجة بارير فعلت ذلك . وفي أول يوم من الحياة الزوجية اكتشف الزوجان أن بارير وزوج تيتينا السابق قد ولدا بنفس اليوم وان تيتينا وزوجة بارير السابقة قد ولدتا بنفس اليوم كذلك (هل سيقوم هذا الزواج الجديد الى نهاية غير سعيدة كالزواج السابق ؟ وقرر الزوجان شراء دار في سويسرا والاقامة بعيدا عن صخب باريس . وما لبثا ان اكتشفا ان صاحب مكتب العقار في مدينة (رول) السويسرية هو مدير البنك ومدير شركة الكهرباء ومدير شركة الماء كذلك . وعندما انتهت التصليلات في البيت الجديد جاءت الحسابات مضطربة حول مصروف الكهرباء ، ولدى الاستفسار تبين ان (مسيو بيتر) مدير شركة الكهرباء قد اخطأ في الحساب الذي أرسله الى (مسيو بيتر) مدير البنك . . . وعندما ولدت للزوجين الجديدين أول طفلة اضطرا لاستقدام فتاة دانماركية للإشراف على الطفلة . وجاءت الدانمركية في كامل البزة الرسمية ونياشين الخدمة الممتازة ، وبدأت الطفلة تنام نوما عميقا يصل الى عشرين ساعة كل يوم ، مما أبهج الوالدين فلقبها « بلقب الفتنة النائمة » وبعد فترة وجيزة اكتشفت الام ان المربية الدانمركية تحتفظ في حقيبتها « بحبوب منومة » كل واحدة مقسمة الى أربعة أقسام متساوية ، فظهر سر النوم العميق عند الطفلة ، كما ظهر اين كانت تختفي ملائق الفضة من الدار ، يوما بعد يوم .

« الاماكن العجيبة » عنوان الفصل الثاني عشر . كان العمل الصحفي يحمل نويل بارير الى اغرب الاماكن . مرة ذهب الى ادغال السودان في مهمة صحفية وكاد أن يضل الطريق مع صحفي آخر . وفجأة لمح بارير على البعد رجلا بلون الفحم ، وجسمه العاري الفارع يستند الى رمح . كان الرجل يشكل خطرا على الاثنين على ما يبدو . وتقدم زميل بارير في حركة بطولية من الزنجي الفارع المخيف وخاطبه بالانجليزية بلهجة متعالية يسأل عن مدرسة زراعية في المنطقة . وما كان من الزنجي الا أن أجاب بلهجة انجليزية سليمة ، دون أن يفارق انحناءته : « تقصد المدرسة الزراعية ؟ روعة من الروائع . بعد القرية بثلاثة أميال الى الشمال . هل أنتم من اهل الصحافة ؟ هه ! لقد قابلت امثالكما عندما كنت في كمبردج . . . » وتبين ان الرجل قد درس الزراعة في جامعة كمبردج ، وكان زعيم قبيلته ، وقد عاد ليضع معرفته موضع التطبيق ، بعد ان نزع ملابسه . . . الانجليزية ، وعاد الى سابق طبيعته السليمة .

وفي أحداث المجر عام ١٩٥٦ كان بارير هناك أيضا ، يساعد المجريين ، ويغطي أنباء القتال . ولما اكتشف امره اطلق عليه النار جندي روسي فأصابه في رأسه وادخل المستشفى لعلاج ٥٢ جرحا في رأسه . وكان بقاءه في المستشفى مجلبة للخطر ، فهرب بملابس النوم الى الحدود النمساوية . ثم اخذه العمل الصحفي الى هونولولو « وصادف » وجود ممثلة متقاعد من هوليوود تستلقي تحت شمس الشواطئ . و « صادف » ان تلك الممثلة كانت تسكن الى جوار اسرة بارير في مدينة (هل) بشمال انجلترا أعالم صغير !

ي في الفصل الثالث عشر يتحدث بارير عن « الطبقة الحاكمة » . وهنا نسمع قصصا عن دوق وندزور ، الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، ماوتسي تونغ ، الرئيس سنغمان رى ، مونتغمري وايان سمث . وربما كانت أمتع قصة هنا عن الملك حسين . كان بارير قد قابل الملك حسين في مناسبات عديدة ، وخطر له ان يتعاون مع الملك في كتابة سيرته . فوافق الملك وجاء بارير وزوجته والطفلة (سيمونيتا) للاقامة في عمان والعمل على كتابة السيرة . هنا يبدي بارير اعجابه الكبير بالملك حسين ودماثة اخلاقه وتواضعه وكرمه . ويروى انه جلس مع الملك مرة للمناقشة حول الفصل السادس من السيرة ، وبخاصة الصفحتين ١٤ ، ١٥ . وفاجاه الملك بزيارة في منتصف النهار ورأى ان يأخذ الاوراق معه ليفكر فيها . وخاف بارير على النسخة الوحيدة ان تضيع . ولما ارتفع الملك حسين بطائرته الهيلوكبتر ، رأى بارير غمامة بيضاء تخرج من الطائرة : الفصل السادس يتطير في الهواء . وسرعان ما خف الشرطة لجمع تلك الاوراق المتطيرة حول التلال المحيطة بعمان ، وجمعوا اوراق الفصل السادس عدا ورقتين : الصفحتين ١٥ ، ١٦ اياهما !

في الفصل الرابع عشر نقرا عن ثلاثة من « الاماكن البعيدة » التي زارها بارير . ففي ١٩٥٧ ذهب في مهمة صحفية الى القطب الجنوبي ، فوصله في ٣١/١١/١٩٥٧ وكان اول بريطاني يصل تلك البقعة من العالم بعد الكابتن سكوت ، وهنا نجد وصفا عجيبا للقطب الجنوبي تكاد تحس بالانجماد يسري في اوصالك وانت تقرأه . وبعد القطب الجنوبي تسلم بارير امرا بالتوجه الى البحار الجنوبية الدافئة ، الى جزيرة تقع على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب من تاهيتي ، ليقابل رجلا من نيوزيلندا قضى في تلك الجزيرة خمس سنوات وحيدا ، وهو على عتبة الستين من العمر ، كان هذا الرجل (توم نيل) مهندساً في سفينة اثناء الحرب الثانية وقد مر بتلك الجزيرة ، وقرر في أخريات عمره ان يعيش هناك « سعيدا » مثل روبنسن كروزو . كانت اول جملة سمعها بارير من نيل عندما قابله : « ماذا جرى لذلك الفتى المصور ؟ هل تزوج الاميرة مار جريت ؟ » والكان البعيد الثالث الذي زاره بارير يدعى اقليم (هونزا) في شمال باكستان ، في منطقة جبلية معزولة عن العالم « المتمدن » يعيش فيها ١٨ ألف نسمة . سمع بارير بهذا المكان من طريق صديقه علي خان في باريس ، عندما جاء زعيم (هونزا) بالاسماعيلي ليقابله

علي خان . وعندما ذهب بارير الى (هونزا) وجد الناس في أعلى درجات الصحة لانهم لا يعرفون السيارات ولا السلاح ويعيشون على اطعمة شتى مشتقة من الشمس ، الى جانب اللبن . اما الماء فهو ينزل من أعالي الجبال بعد ذوبان الثلوج ويجرف معه من الاملاح المعدنية ما يقاوم كل مرض . ليس في ذلك الاقليم تقود ولا تجارة ولا اتصال بالعالم الخارجي . . . والكل في غنابة السعادة .

في الفصل الخامس عشر « الغداء جاهز » يتحدث بارير عن اختفائه في منطقة بالملايو مع بعض المحاربين الذين اقتطعوا فخذ أحد « الاعداء » وصنعوا منها « ستيك » قدموه لغذاء بارير فوجده لحما لذيذا لا يختلف عما يقدم في كثير من مطاعم العالم ! وسمعت السنداي اكسبرس بالخبر فنشرت عنوانا عريضا يقول (شقيق وزير المالية من اكلة لحوم البشر) .

وفي باريس اجتمع بارير مع احد الجنرالات الفرنسيين الخبراء في شؤون جنوب شرق آسيا وطلب منه مقابلة ، فاجاب الجنرال : « لا بأس ، ما رأيك في العشاء معا مساء السبت القادم (في سايفون طبعا ! » وكانت سايفون على بعد ٧١٣ ميلا من باريس ، واليوم الاربعاء ، فطار بارير الى سايفون بعد ان اتفق مع جريدة نيويورك تايمز على نشر المقال . وبعد عشاء السبت مباشرة طار بارير عائدا الى باريس ومعه مقال ممتاز ملء بالتوقعات عن حرب فيتنام . ودفعت الجريدة الاميركية ألف دولار مكافأة للصحفي بارير .

الفصل السادس عشر عنوانه : « توقف طبيعى » يروي فيه بارير كيف اضطر الى التوقف عن العمل الصحفي لمدة ستة اشهر ، بسبب « طبيعى » كان مبعثه حادث اصطدام مروع وقع له وهو يسوق سيارته على الرقيرا الفرنسية ، في يوم عاصف ممطر ، فدهمته من الخلف سيارة فرنسية فيها أربعة رجال ، كانت تنطلق بسرعة في ظروف الطرق الصعبة . عندما افاق بارير من الصدمة وجد نفسه في سيارة مهشمة ، وعلى جانبي الطريق سيارة ستروين شطرت شطرين وفيها أربعة قتلى ، كل اثنين على جانب من الرصيف . كان بارير يبدأ عطلة ستة اسابيع من عمله الصحفي ، واتفق ان يقابل زوجته وأولاده في نيس ، وكانت مفاجأة الاصطدام . واذ استطاع الاتصال بمكتب الديلى ميل في باريس ، نقل على الفور فوجد نفسه في مستشفى يحيطه أربعة اطباء فرنسيين ، وبدأت خياطة جروح الراس ، تاركين الفخذ اليسرى على التوائها . ثم التفتتوا الى جرح بسيط في المرفق ، رفضوا وضع شريط لاصق عليه لأن ذلك « غير جميل » والرجل ذوالستين عاما مكسر العظام والمفاصل . وبدأ الاطباء يختصمون حول عدد الغرزات الضرورية لذلك الجرح ولكن اسنان بارير كانت تتدلى من فمه . ثم انتقل الاطباء الى الركبة اليمنى التى كان فيها جرح أبسط مما أصاب بارير مرة اثناء لعب كرة القدم . ولكن الغرزات واجبة ، طالما أن بارير رياضى يلبس (الشورت) الذى يظهر الركبة . .

اذن يجب الا يظهر على الركبة تشويه . ولكن ماذا عن الذراع الملتوية ، والاصابع المتخدرة والقدم الموضوعة والفخذ الشمال ؟ الجمال اولا ، حتى على حساب الكسور في العظام .
انتظر دقيقة ! وغاب الاطباء وجاء غيرهم للفحوص الشعاعية ، فظهر ان الفخذ الشمال مكسورة في خمسة مواضع ، وتبدو اقصر من الفخذ الثانية بخمسة سنتيمات .. ولكن الناحية الجمالية تأتي اولا عند الطبيب الفرنسي ! .

ودخلت الزوجة فجأة ، فحاول الاطباء منعها . كان طبيبان يتناقشان عن موعد العملية الضرورية فصاح احدهم بصاحبه : « مستحيل ، الخميس عندي موعد للصيد »
وذلك يعنى أن باربر يجب أن ينتظر . متى ؟ بعد غد . يؤسفنى يا سيدتى أن أقول من الضروري بتر الساق (وصعقت الزوجة وكضت الى اقرب تلفون لتتصل بباريس ويرتب امر نقل باربر بطائرة خاصة الى لندن وهو مجبر من الرأس الى القدم . وفى الطريق من مطار لندن الى المستشفى طلب باربر من السائق أن يتوقف عند أول مشرب لتناول قدح من الجعة الانجليزية) كان رأى الطبيب الانجليزى أكثر تطمينيا ، على أن يصبر باربر على الإقامة فى المستشفى أربعة اشهر . وكان الانقطاع الطبيعى عن العمل الصحفى وبعد سنة من الحادث عاد باربر الى فرنسا ليشترك فى مسابقة بالتنس . وكان لطف الله ، وعزيمة المريض أقوى من رأى الجراحين ونظرياتهم الجمالية . وكان القدر الذى جعل الزوجة تتأخريوما آخر فى باريس ، لتحضر الى المستشفى وتغير خطط الجراحين فى مستشفى باريس . وبرغم كل ما حدث يقول باربر انه لم يشمر بخوف قط ، بل كان أول خاطر له يقول « يا خسارة ، ضاعت الاجازة » .

فى الفصل السابع عشر « نصيحة من جندى عفيف » حول أسلوب الكاتب وشروط النجاح . يرى باربر أن من الضروري للكاتب الناشئ أن يعرض اعماله على خبير فى الكتابة ، شريطة أن يصارحه الرأى حول نوعية المعروض . وهنا كذلك يروى لنا باربر حادثة نادرة من كتاب له حصل على مديح مفرط من كاتبة شهيرة كانت صديقة له ، ولكن نفس الكتاب حصل على رأى مناقض تماما من « وكيل أدبى » له خبرة بعالم النشر وشروط النجاح . فى غالب الاحيان لا يكون مديح الصديق على صواب .

فى الفصل الثامن عشر « بلاد النجاة المفقودة » حينين الصحفى القديم الى جميع البلاد التى زارها وعمل فيها قبل أن يقعده المرض وتتقدم به السن . وفى تلك السن المتأخرة قام باربر بزيارة تاهيتى ، وقابل توم نيل ذلك الروبسون كروزو المعاصر ، وكتب ثلاثة كتب عن خبرته فى الشرق الاقصى وزار سنغافورة بعد غياب أكثر من ثلاثين سنة ، وزار الدالاي لاما فى منغاه فى شمال غربى الهند ، بعد أن اضطر لانتظاره كى يفرغ من طقسوسه الدينية التى تستغرق ثمانى ساعات . وبالرغم من منزلته الدينية الكبيرة كان الدالاي لاما نموذجامن التواضع . فقد ذكر باربر عرضا اثناء المقابلة

ان ساعة يده غير دقيقة فطلب الدالاي لاما ان يفحصها لعله يستطيع اصلاحها . ولكنها ساعة رولكس ذهب « هدية من الملك حسين » . وقبل ان يكمل باربر جملته بدأ الدالاي لاما يفك الساعة الرولكس ، فاصلاحها ، ولم يضطرب سيرها منذ ذلك اليوم .

الفصل التاسع عشر والآخر في هذا الكتاب عنوانه « البقية تأتي ... » وكان باربر وهو يشارف السبعين يعدنا بقصص واحاديث جديدة لم يخبرنا عنها بعد . يعود للحديث عن أسرته ، وعن تقلبات الزمان بهم ، واطرف خبر في ذلك ان والدته قد توفيت وكان والده في الثانية والستين ، فتزوج بعد ذلك بسنوات ، وقبل أن يتوفى في الرابعة والسبعين من عمره انجب طفلة ، كان نوئيل اكبر منها بأربعين سنة فقط . وعندما التحق بالقوة الجوية كان يصطحبها في بعض الاحيان ويسيران معا في شوارع المدينة . مرة سمع أحد المارة يقول : « هذا المعجوز القلن ، مع هذه الطفلة ؟ » فاجابه على الفور : « كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام امام اختي ؟ » .



الكتابة العربية عنصراً زخرفياً

* محمد مصطفى

بعد الشقة بين البلاد التي صنعت فيها
والعصور المختلفة التي ترجع إليها .

ويختص الفن الإسلامي وحده ، دون غيره
من الفنون باستعمال الكتابة العربية كعنصر
زخرفي ، لما تتميز به حروف الكتابة من جمال
ورشاقة ومرونة ، وقابلية على التشكيل
والتصنيف .

ومثال على ذلك مجموعة من ست بلاطات
من الخزف (شكل ١) من صناعة آسيا
الصغرى في القرن ١١ هـ (١٧ م) ، عليها

في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة ، كان
هناك تفاهم روحي بين الشعوب الإسلامية في
جميع الأنحاء ، وكان العلماء والفنانون ينتقلون
من بلد إلى آخر من بلاد الدولة الإسلامية ،
التي كانت تمتد من الهند وبلاد ما وراء النهر
في أواسط آسيا ، حتى المحيط الأطلسي .
وكانت اللغة العربية لغة العلم والحضارة ،
يتحدث ويكتب بها العلماء في جميع البلاد .

كما ساعد تنقل الفنانين على انتشار فن
إسلامي ، له طابع خاص ، يتميز به التحف
الفنية ، فجعلنا نشعر لأول وهلة أنها تنتمي إلى
وحدة فنية واحدة ، تربط بينها بالرغم من

* كتب الاستاذ محمد مصطفى هذا البحث بالإنجليزية ، وترجمه محمد عبد العزيز إلى العربية .

ونلاحظ انه يوجد في كنوز الكنائس الاوروبية وكاتدرائياتها ، كثير من التحف الاسلامية المهداة من اصحابها المتدينين ، كانت تستعمل في الاغراض الكنسية ، والطقوس الدينية ، كأوعية للعشاء او لحفظ الماء أو الدم المقدس ، بالرغم مما عليها من كتابات عربية اسلامية .

وفي كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) يوجد رداء كهنوتي من الحرير (شكل ٢) تزخره أشرطة من كتابات دعائية ، لأحد سلاطين المماليك ، من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وحالك هذا الرداء لم يتعرف على الحروف العربية ، فجعلها مقلوبة في الجانب الايسر وصحيحة الوضع في الجانب الايمن . وكذلك القساوسة الذين لبسوا هذه الادرية كانوا يعتبرون أشرطة الكتابات العربية ، كتصميم زخرفي بحث .

« كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) » .



وظل العرب يحكمون في صقلية اكثر من قرنين من الزمان ، وكان تأثيرهم في الفنون واضحا ، في فن العمارة او في الفنون الزخرفية . ومن الصناعات التي اشتهرت بها صقلية ، صناعة نسج الحرير خصوصا في عصر النورمانديين الذين جاءوا الى الحكم في القرن ٥ هـ (١١ م) ، فأسسوا مصانع حكومية للنسيج (طراز) ، كما فعل معاصروهم من الفاطميين في مصر ، واستمروا في استعمال عناصر زخرفية عربية من بينها أشرطة من الكتابات العربية .

وفي متحف الكنوز بمدينة فينا عبادة ثمينة ، هي عبادة التتويج (شكل ٣) يزخرها رسم سبع ينقض على جمل ، وعلى حافة هذه العبادة شريط من كتابة عربية ، يقرأ منها أن العبادة صنعت في مدينة بالرمو

كتابة عربية لشعار يقرأ : « لا شرف أعلى من الاسلام » . وقد رأى الفنان في كتابتها أن تظهر في انسجام وتناسق ورشاقة ، كما زخرف الارضية خلف الكتابة بفروع نباتية دقيقة مزهرة ومورقة ، وهادئة الالوان ، ليزيد من جمال الكتابة ومن الغرض الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٧ - ٦٧ x ٤٣ سم » .



والتحف المنشورة هنا محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، او في مجموعات أخرى سوف نذكرها الى جانب كل تحفة على حدة . وكثير من هذه التحف لم يسبق نشره ، وتشر هنا لأول مرة ، وجميع الصور المنشورة هنا من تصوير محمد مصطفى كاتب هذا البحث .



ونجد في سجلات التحف المحفوظة في خزائن القصور والكنائس القديمة في أوروبا ، أمثلة متنوعة الاشكال ، من صناعة مصر أو غيرها من الاقطار الاسلامية الاخرى ، من بينها تحف من الزجاج والبللور الصخري والخزف والديباج والسجاد ، وزاد في جمال وسحر هذه التحف حروف الكتابة العربية التي اندمجت في الزخارف ، وكونت معها وحدة واحدة .

وقد وصلت هذه التحف الى أوروبا عن طريق التجارة ، أو تبادل الهدايا ، أو كانت مما احضره معهم الحجاج ، والرحالة ، وقناصل الدول وسفراؤها ، أو غيرهم من عشاق الفن من الاوروبيين ، الذين استهواهم ما في هذه التحف من خيال رائع ، وجاذبية ساحرة وانسجام ، فكانوا يحفظونها في قصورهم ، او يودعونها لدورا في خزائن الكنائس .

كاروتو ، في القرن ٩ هـ (١٥ م) وهى تمثل صورة السيدة اليزابيث جونزاجو دوقة أوربينو (شكل ٥) ، وعلى رقبة الرداء الذى تلبسه زخرفة تشبه الكتابة العربية ، والرسم يمثل حروفا من شبه الكتابة العربية التى نراها فى اطارات البسط والسجاجيد الشرقية .

« قصر بيتي فى مدينة فلورنسا »



والواقع أن تجويد الخط العربى والدقة والكمال فى الكتابة ، ميدان واسع من ميادين الفنون الاسلامية ، اشتهر فيه كثيرون من الخطاطين ، تطالع اخبارهم فيما كتبه لهم المؤرخون فى كتب التراجم وكتب التاريخ ، بينما لم يصلنا سوى قدر ضئيل من تراجم الفنانين الآخرين الذين شاركوا فى انتاج التحف الاسلامية الرائعة .

ومن الطبيعى أن تكون الكتابة العربية ملائمة للاستعمال فى الأغراض الزخرفية ، ولا يوجد فى أية لغة أخرى كتابة تصلح للاستعمال أو تكون لها مرونة ما للكتابة العربية فى تشكيل العناصر الزخرفية . وتزودنا كتب الادب والفنون بأنواع وأساليب الكتابة العربية وتطورها على مدى العصور فى البلاد الاسلامية المختلفة . واسلوب الكتابة له أهمية كبرى فى تحقيق تواريخ صناعة التحف أو انشاء العماير .



وليس هذا مجال الحديث عن طرز وأساليب الكتابة العربية أو عن تراجم مشاهير الخطاطين ، ولكننى اقتصر هنا على استعراض الكتابة العربية واستعمالها على التحف الفنية كمعصر زخرفى فى مصر ، وفى القسم الشرقى من العالم الإسلامى .

بصقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ، للملك النورمندى روجر الثانى . وتدل هذه الحقيقة والتفاصيل ، على أن التقاليد الفنية الاسلامية - بما فى ذلك الكتابة العربية ، كانت ما زالت تستعمل فى ذلك العصر فى صقلية . وبعد تتويج الملك هنرى السادس فى مدينة بالرمو ، أخذ معه عند عودته الى فينا هذه العبادة وأودعها بين أدوات التتويج ، فى ممتلكات أسرة هاسبورج .



وكان للعلاقات التجارية مع المدن الإيطالية دور رئيسى ، فيما يتعلق بالتبادل الفنى بين أوروبا والبلاد الاسلامية . وصك تجار البندقية دنائير من الذهب ، عليها كتابات عربية ، لاستعمالها فى التجارة مع البلاد الاسلامية ، وظلت هذه الدنانير شائعة الاستعمال ، حتى القرن ٧ هـ (١٣ م) حين اعترض البابا على ذلك .



واستعمل الكثيرون من مصورى عصر النهضة فى أوروبا حروف الكتابة العربية لأغراض زخرفية . وعلى سبيل المثال ، فانهم عندما كانوا يريدون تصوير السيدة العذراء أو السيدات النبيلات فى ملابس الحفلات الرسمية ، والاعياد التقليدية ، كانوا يزخرفون اطرافها بحروف من شبه كتابة عربية .

وفى معرض أوفيتري بمدينة فلورنسا لوحة تمثل تتويج السيدة العذراء رسمها المصور فراليبوليى ، وترى فى صورة مكبرة لبعض تفاصيل هذه اللوحة (شكل ٤) ملائكة يرفعون شريطا عليه كتابة عربية .

« معرض أوفيتري ، بمدينة فلورنسا » .

ويوجد أيضا بمدينة فلورنسا ، فى قصر بيتتى لوحة من عمل المصور فرانيسكو

غير أننا نذكر هنا نوعين رئيسيين من الكتابة العربية ، شاع استعمالهما في جميع البلاد الإسلامية ، هما : الخط الكوفي ، والخط النسخي .

بقى الخط الكوفي يستعمل في الكتابات التاريخية على العمائر ، والتحف الفنية ، حتى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وينسب الخط الكوفي الى مدينة الكوفة ، وهي مركز ثقافي له شهرة في الحضارة الإسلامية بالعراق ، حيث يحتمل ان يكون هذا النوع من الخط العربي قد استحدث واستعمل أولا ، وتظهر الكتابة الكوفية في أول أمرها على التحف القديمة في أسلوب بسيط ولكنه قوى ، دون نقط أو علامات تشكيل .

واستعمل الخط الكوفي منذ القرن ٢ هـ (٨ م) في مصر والعراق وسوريا وبلاد فارس ، وظل يستعمل مدى القرون الخمسة الأولى للهجرة في الكتابات على العمائر وكتابة المصاحف ، كما نراه على صفحة من مصحف مكتوب على الرق (شكل ٦) محفوظ في دار الكتب بمدينة جوة في ألمانيا . وقد كتب هذا المصحف في مصر في القرن ٢ هـ (٨ م) بخط كوفي بسيط ، دون أية نقط أو علامات ضبط .

« دار الكتب بمدينة جوة في ألمانيا » .

● ● ●

ونلاحظ في القرن ٣ هـ (٩ م) تطورا في الخط الكوفي جعله يبدو في أسلوب زخرفي بحت . وفي حوالي القرن ٥ هـ (١١ م) كثر التشابك والتضفير ، وزخرفة الأرضية بأوراق وسيقان وفروع نباتية ، في أسلوب يعرف بالكوفي المزهر ، فاستغل الفنانون هنا جميع الامكانيات الزخرفية للخط الكوفي القديم ، وسرعان ما انتشر هذا التنوع الزخرفي للخط الكوفي وشاع في جميع البلاد الإسلامية .

ومثال طيب لهذا النوع من الخط الكوفي المزهر نراه في لوح من الرخام (شكل ٧) عليه كتابة بارزة بالحفر ، ترجع الى القرن ٥ هـ (١١ م) . وينبثق من حروف الكتابة فروع مورقة على شكل زخارف عربية .

« متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٤٣ - ١٨٠ x ٣٢٥ سم » .

وعلى قنينة عطر من البللور الصخري (شكل ٨) نرى ان زخرفتها الوحيدة تتألف من عبارات دعائية لصاحبها ، بالخط الكوفي المزهر ، محفورة على بدن القنينة . وهذه القنينة من صناعة مصر في القرن ٥ هـ (١١ م) .

« متحف الفن الإسلامي ، رقم السجل ١٥٤٤٦ ارتفاع ٨ سم ، قطر ٣٢ سم » .

ومن انتاج مصر أيضا محراب صغير متنقل من الخشب (شكل ٩) للاستعمال في المنزل ، أو أثناء السفر من القرن ٥ هـ (١١ م) . وعلى جانبي المحراب شكل عمودين وعليه كتابة كوفية مزهرة منقوشة بالحفر في الخشب .

« متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٥٢ ارتفاع ٢٤ سم عرض ١٣ سم » .

وفي (شكل ١٠) نرى ورقة من مصحف كتب في العراق ، ويرجع تاريخه الى حوالي القرن ٦ هـ (١٢ م) . وقد تمعد الخطاط أن يكتب المتن على أرضية من فروع وسيقان وأوراق نباتية ، ليزيد من جمال الكتابة التي تمتاز بالانسجام وحسن التوزيع .

« متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩٩٩ - ٣٣٧ سم x ٢٤ سم » .

وتوجد تحف من الخزف من صناعة بلاد ما وراء النهر ، من بداية القرن ٤ هـ (١٠ م) ، وتزخرف هذه التحف كتابات عربية بالأسلوب الكوفي . ومن هذا العصر صحن من صناعة

الكتابة العربية عنصر زخرفي

والكوب من الخزف الإيراني من نوع مينائي ، متعدد الألوان (شكل ١٥) من القرن ٧ هـ (١٣ م) ، يزخرف بدنه حيوانات خرافية تخطو بعضها خلف بعض . وعلى حافة الكوب كتابة دعائية بالخط الكوفي ، نراها باللون الاسود على الحافة من الداخل ، وباللون الابيض على أرضية زرقاء غامقة على الحافة من الخارج ، ليزيد الانطباع الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي رقم السجل ٣٦٠٠ ارتفاع ١١ سم قطر الفوهة ١١ سم » .

وفي خلال القرن ٥ هـ (١١ م) ، قل استعمال الخط الكوفي في كتابة المخطوطات والمصاحف . غير أن استعمال الخط الكوفي استمر بعد ذلك لمدة طويلة لكتابة عناوين السور في المصاحف بطريقة زخرفية ، كما نرى في صفحة العنوان (شكل ١٦) من مصحف كتب للسلطان الاشرف شعبان ، في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف الزخارف من عناصر هندسية على شكل وردة تملأها زخارف عربية . وفي أعلى الصفحة وأسفلها عنوان مكتوب بحروف كوفية زخرفية .

« دار الكتب المصرية ، بالقاهرة » .



ومن أمثلة الخط النسخي حشوة صغيرة من الرخام (شكل ١٧) ترجع الى عصر المماليك في مصر ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) كتب عليها البسملة بخط نسخي بارز بالحفر على أرضية ثقل بروزا ، وتتألف من فروع نباتية مورقة ، تلف في رشاقة وأناقة . والكتابة والزخارف على الارضية ، كلها منحوتة في أعماق ومستويات مختلفة ، ليزيد ذلك من قوة تأثير وجمال التكوين الزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٢٣٣٠ ٢٧×١١ سم » .

سمرقند (شكل ١١) ، عليه بوسطه اسم الفنان « أحمد » تحيط به كتابة عربية بالخط الكوفي البسيط . وهذا دليل يثبت الى أي مدى كان استعمال الكتابة العربية ، كعنصر زخرفي في هذا العصر المبكر .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٨٩ قطر ١٩ سم » .

والى القرن ٦ هـ (١٢ م) يرجع صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ١٢) من صناعة مصر ، تزخرفه على الحافة كتابة بالخط الكوفي الرشيق ، بوسطه زخرفة عربية من أوراق نخيلية محددة بالابيض على أرضية مدهونة بالبريق المعدني . وعلى هذا الصحن من الخلف توقيع الخزاف المشهور « مسلم » .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٩٥٨ قطر ٢٥ سم » .

ويزخرف هذا الشريط من الحرير (شكل ١٣) من صناعة إيران في القرن ٦ هـ (١٢ م) كتابة بالخط الكوفي المزهر . ونرى توريقات من نوع الزخارف العربية تنبثق حروف الكتابة أرضية من زخارف نباتية ، وهذا مثال آخر لتطور الكتابة الكوفية نحو الاسلوب الزخرفي البحت .

« موسوعة الفنون الإيرانية لوحة ٩٩٧ العرض ١٨٣ سم » .

وفي متحف فرير جاليري ، بمدينة واشنطن ، شمعدان من النحاس مكفت بالفضة (شكل ١٤) ، من صناعة الموصل في القرن ٦ هـ (١٢ م) ، وفي أعلاه وأسفله شريطان البارز من أشكال سباع جالسة بينهما منطقة عريضة يحدها شريطان رفيعان تزخرفهما كتابة عربية بالخط الكوفي .

« متحف فرير جاليري بمدينة واشنطن ارتفاع ٤٥ سم قطر القاعدة ٥٢ سم » .

وفي بداية الامر ، كانت الكتابات بالخط النسخي تكتب على التحف الفنية بخط بسيط ، كما نرى في قطعة من نسيج حرير (شكل ١٨) من صناعة مصر في اواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) عليها عناصر زخرفية منسوجة . وفي الوسط شريط عريض به جامات تضم كل منها بطة أو أزنا ويحد هذا الشريط العريض من أعلا وأسفل آخران ضيقان بكل منهما كتابة بالخط النسخي البسيط .

« متحف الفن الاسلامي رقم السجل ١٤٧٩٩
ارتفاع ٢١٥ سم قطر ٢٤ سم » .

ومن صناعة الموصل أيضا شمعدان من النحاس المكثت بالفضة (شكل ١٩) من أوائل القرن ٧ هـ (١٣ م) ويخرف هذا الشمعدان شريطان رفيعان بهما كتابة دعائية بالخط النسخي ، ويحدهما من أعلى وأسفل شريطان عريضان ، عليهما صور سبع بارزة . ويعلو جدار الشمعدان تماثيل طيور صغيرة ، تبدو وكأنها شرفات . ويشبه هذا الشمعدان شمعدان آخر محفوظ في متحف فريز جاليري بمدينة واشنطن ، نشرناه هنا فيما سبق (شكل ١٤) ويرجع تاريخه الى النصف الثاني من القرن ٦ هـ (١٢ م) ، ولذلك كانت الكتابات عليه بالخط الكوفي ، ونلاحظ ان الشمعدان في (شكل ١٩) الذي يرجع تاريخه الى حوالي خمسين سنة بعد ذلك ، تزخرفه كتابات مكتوبة بالخط النسخي وليس الكوفي ، بينما بقيت الاشرطة الزخرفية الاخرى كما هي واحدة في الشمعدانيين .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢٤
ارتفاع ٣٣ سم قطر القاعدة ٣٩ سم » .

وعلى قنديل من الزجاج الموه بالميلا المتعددة الالوان (شكل ٢٠) من صناعة مصر في عصر المماليك ، في اواخر القرن ٧ هـ (١٣ م) شريط من كتابة الخط النسخي باسم الامير

الطنبغا تتخلله جامات بكل منها رنك هذا الامير ويتألف من سبع على بقعة مربعة . وشارة السبع نراها في رنك السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، مما يجعلنا نرجح أن الامير الطنبغا هو أحد امراء هذا السلطان .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٨٠٢٨
ارتفاع ٢١٥ سم قطر ١٨ سم » .

والمشكاة من الزجاج الموه بالميلا المتعددة الالوان (شكل ٢١) ، عليها شريطان عريضان من كتابات بالخط النسخي ، أحدهما على الرقبة لاية النور بالميلا الزرقاء ، والاخر على البدن لكتابة دعائية بالميلا البيضاء ، باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والكتابات على أرضه من فروع نباتية بيضاء ملتفة بأوراق زخرفية حمراء . وهذه المشكاة مثر عليها في مسجد بناءه الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٣١٣
ارتفاع ٢١٥ سم قطر ٢٤ سم » .



وسورة الفاتحة في (شكل ٢٢) في مصحف السلطان الاشرف شعبان ، الذي ذكرناه فيما سبق ، نرى على هذه الصفحة نص السورة مكتوبا بالخط النسخي الجميل بينما كتب العنوان في أعلى وأسفل الصفحة في شكل حشوة مستطيلة ، وبالخط الكوفي الزخرفي . وكما ذكرنا فان هذا المصحف كتب للاشرف شعبان في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) .

« دار الكتب المصرية بالقاهرة » .

والكوكب من الخزف (شكل ٢٣) من صناعة مصر في عصر المماليك ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نجد أن زخرفته الوحيدة عبارة عن كتابة دعائية بالخط النسخي بحروف طويلة مرتفعة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٢٩٢
ارتفاع ٢٧٧ سم »

وبالخط الكوفي وبالخط النسخي أيضا نرى كتابات على محراب من بلاطات الخزف من صناعة قاشان (شكل ٢٧) وعليه تاريخ سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ، وتوقيع الحسن بن عرب شاه وتتألف الزخارف من عناصر زخرفية عربية وأشرطة من كتابات كوفية أو نسخية.

« متحف الفن الاسلامي ، من متاحف الدولة في برلين
ارتفاع ٢٨٤ سم »

ومثال آخر نراه في سطح كرسي من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٨) ، في وسطه اسم « محمد » بالخط النسخي تحيط به كتابة دعائية بالخط الكوفي الزخرفي باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقابه. وتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخي ، وتتخللها في الاركان رسوم بط طائر ، ورسوم البط الطائر نراها على عدد التحف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويظهر أنها كانت ترمز اليه . وعلى هذا الكرسي توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادي ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٩
ارتفاع ٨١ سم قطر ٣٠ سم »

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٢٩) على قاعدتها من الداخل كتابة دعائية بالخط النسخي باسم السلطان المملوكي المنصور محمد بن قلاوون ، الذي حكم مصر حوالي السنتين في النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفي الزخرفي ذات حروف أطرافها مجدولة ومناسقة ، ويحيط بالكتابة زخارف نباتية دقيقة من وردات وزهرات لوتس صينية .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٥٥٩١
ارتفاع ١٣ سم قطر الفوهة ١٠ سم »

ومن عصر المماليك ، في مصر أيضا من القرن ٨ هـ (١٤ م) ، سلطانية من الخزف (شكل ٢٤) في وسطها رسم زهرة اللوتس على شكل رنك ، يحيط بها شريط عريض به كتابة دعائية بالخط النسخي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٧٤٢
ارتفاع ١٢٥ سم قطر ٢٤ سم »



وأحيانا نجد هذين النوعين أساسيين في الكتابة العربية : الكوفي والنسخي مجتمعين على تحفة واحدة امعانا في زيادة التفسير الزخرفي .

ومثال لذلك تركيبة من الخشب وجدت في القبر للمشهد الحسيني في القاهرة يقلب انها صنعت في عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) وعلى الجزء الذي يظهر في (شكل ٢٥) نرى ثلاثة أشرطة ، عليها كتابات قرآنية ، الاوسط منها عريض وبالخط الكوفي المزهر ، ويحده من اعلاه وأسفله شريطان بالخط النسخي . والكتابات في الاشرطة الثلاثة محفورة باثقان ودقة على ارضية من فروع نباتية مورقة تلف برشاقة وتناسق في أعماق ومستويات متعددة ، وقد استعمل الفنان كلا النوعين بمهارة ودقة ليزيد من جمال الزخارف .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٢٥ »

كما نجد هذين النوعين من الكتابة : الكوفي والنسخي مجتمعين في ابريق من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٦) وهو من صناعة ايران في القرن ٦ هـ (١٢ م) تزخره اشرطة بها كتابات دعائية بالخط الكوفي أو بالخط النسخي ، وعلى الرقبة بالبارز أشكال سباع.

الشمعدان على الحجرة النبوية الشريفة في
سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .

متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم
السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٤٨٥ سم قطر القاعدة
٥٧ سم .

« متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢
ارتفاع ٤٨٥ سم قطر القاعدة ٥٧ سم » .

● ● ●

ومرة أخرى يسبح الفنان فى أفق الخيال،
ويجعل حروف الكتابة تنتهى بصور أشخاص
فى مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم
بدلاً من نقط الحروف رؤوس حيوانات
وطيور .

ومثال لهذا الأسلوب الفنى ، نراه على
رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة
والذهب (شكل ٣٢) ، تزخرف الشريط
العريض منه كتابة دعائية من هذا النوع ،
وعلى القسم العلوى من هذه التحفة سطر
كتابة نسخية باسم السلطان العادل كتبها
المنصورى الذى تولى الحكم فى مصر لفترة
قصيرة فى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣
ارتفاع ١٤ سم قطر ٨٥ سم » .

● ● ●

واخذ الفنانون ، فى جميع البلاد الاسلامية
الكتابة العربية ببراعة فائقة كوسيلة للربط بين
الوحدات الزخرفية ، أو بملء مناطق
وجامات بكلمات ، أو بأبيات من الشعر .

وعلى قطعة من النسيج (شكل ٣٣) من
صناعة مصر فى القرن ٢ هـ (٨٠ م) ، نرى
عليها العناصر الزخرفية مرسومة بخطوط
هندسية ، تمثل وحدة زخرفية تتألف من
فارسين على الجياد فى استغفل كل منهما

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٤٤٦١
طول ٣٢ سم عرض ٩ سم ارتفاع ٨ سم » .

● ● ●

وفى خلال القرن ٧ هـ (١٣ م) تطور الخط
العربى فى ايران ، واصبحت الحروف تنساب
الى اليسار والى اليمين وسمى « خط
التعليق » . وفى القرن ٩ هـ (١٥ م) ازداد
التنميق والتعديل فى « خط التعليق » الى أن
وصل الفنانون والخطاطون الى اصول خط
« النستعليق » . وهذا أسلوب رشيق
لحروف فيها استدارة ، تجمع بين ملامح
خط النسخ وخط التعليق .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٣٠)
من صناعة ايران فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ،
نرى عليها أشرطة بها من كتابات بالاسلوب
الايرانى للخط النسخى وهذه القطعة محفوظة
فى فيرونا ، فى ايطاليا .

● ● ●

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٩٩٦ » ، « فيرونا،
ايطاليا عرض ٨٥٩ سم » .

وأحيانا لم يكتب الفنانون باستخدام أساليب
الكتابة العربية فى أشكالها البسيطة ، بل
حاولوا ان يتفننوا فى اللعب فى أشكال الحروف
المفردة ، وذلك برسمها فى أشكال تنتهى
برسوم مجدولة ، كما رأينا على غطاء المقلمة فى
(شكل ٢٩) .

وهذا هو الحال فى كتابة نراها على بدن
شمعدان من النحاس (شكل ٣١) عليه كتابة
دعائية باسم السلطان الاشرف قايتباى وتنتهى
حروفها الطويلة بأشكال مجدولة تشبه
المقصات .

وعلى حافة هذا الشمعدان شريط ضيق
فيه سطر من كتابة نسخية ، يقرأ منها ان
السلطان الاشرف قايتباى قد أوقف هذا

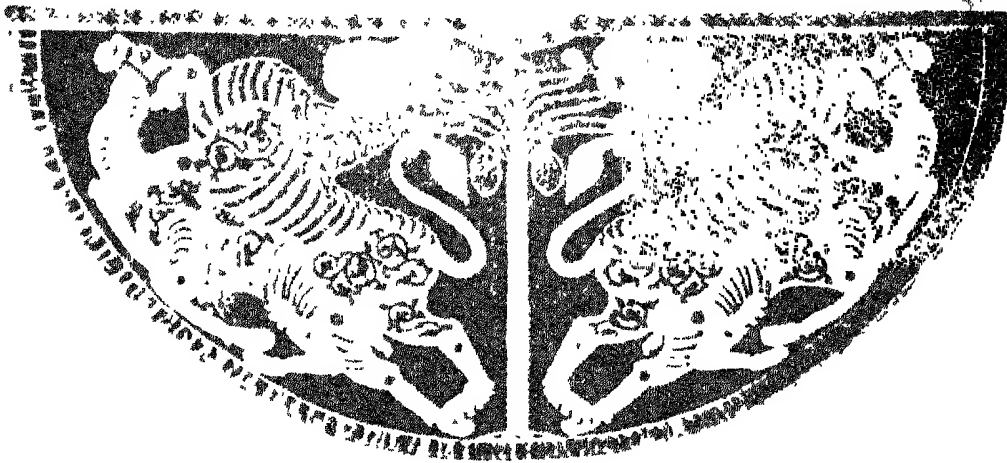
الكتابة العربية عنصر وخرق



(شكل ١) مجموعة من ست بلاطات من الخزف ، آسيا الصغرى ، القرن ١١ هـ (١٧)



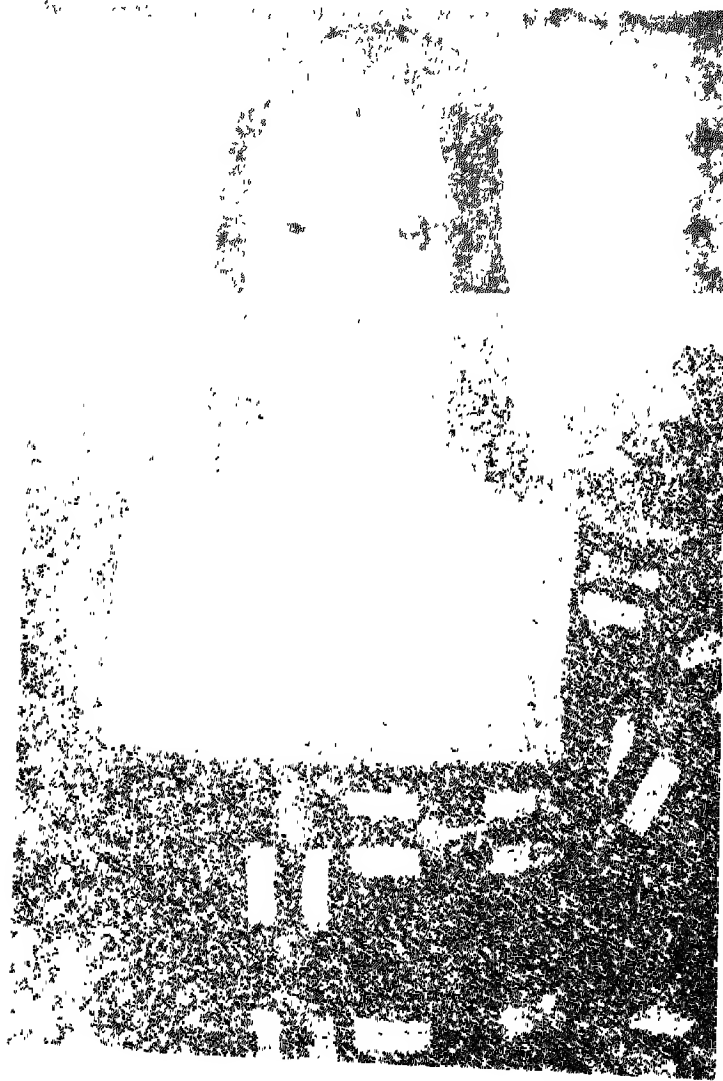
(شكل ٢) طراحة من الحرير محفوظة في كنيسة مريم العذراء بمدينة دانيج ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



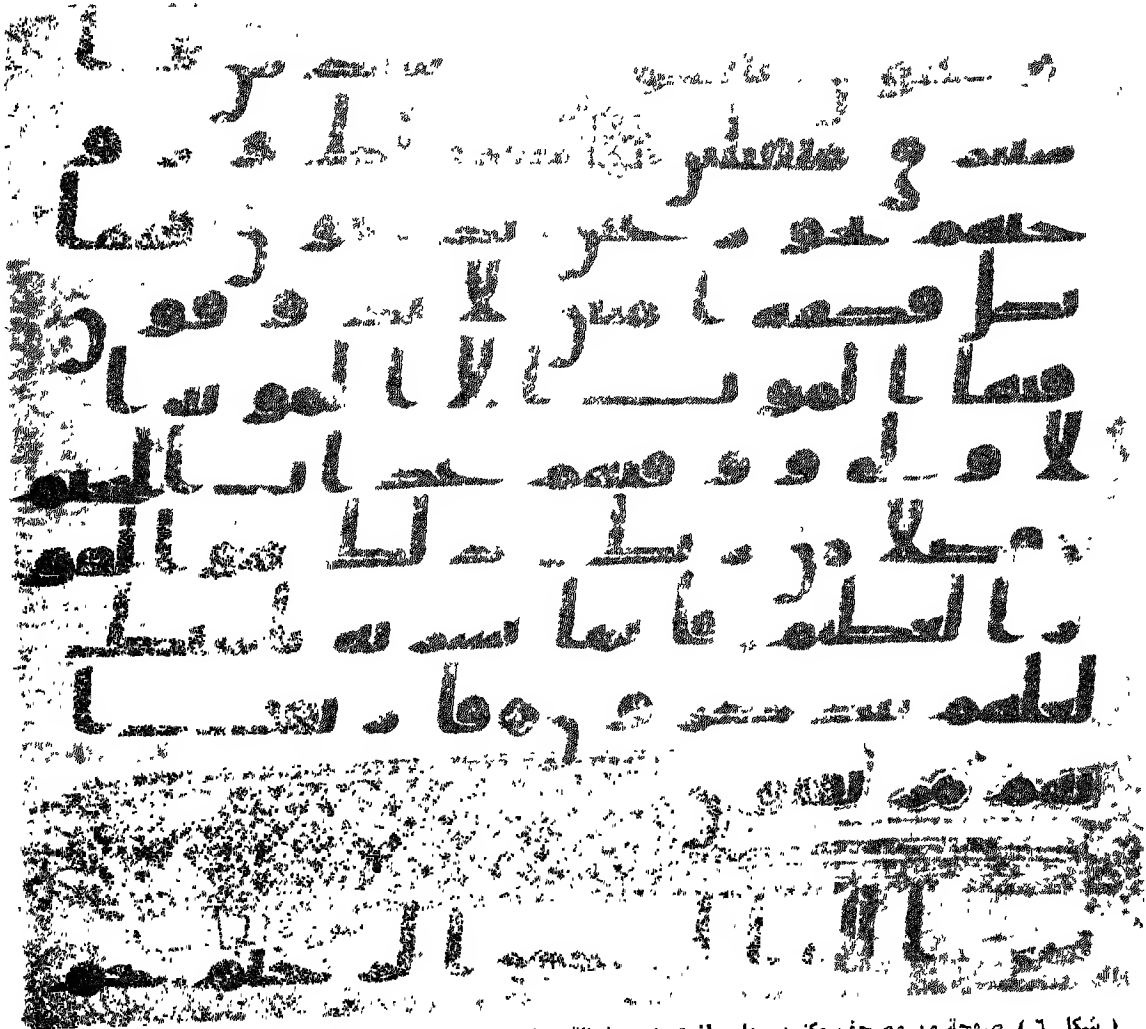
(شكل ٣) عبادة التنوبج ، محفوظة في متحف مدينة فينا ، صومالية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٢)



(شكل ٤) صورة تنوبج العذراء للمصور فراليو ليببي ، محفوظة في متحف مدينة فلورنسا
إيطاليا ، سنة ١٤٠٦ - ١٤٦٩



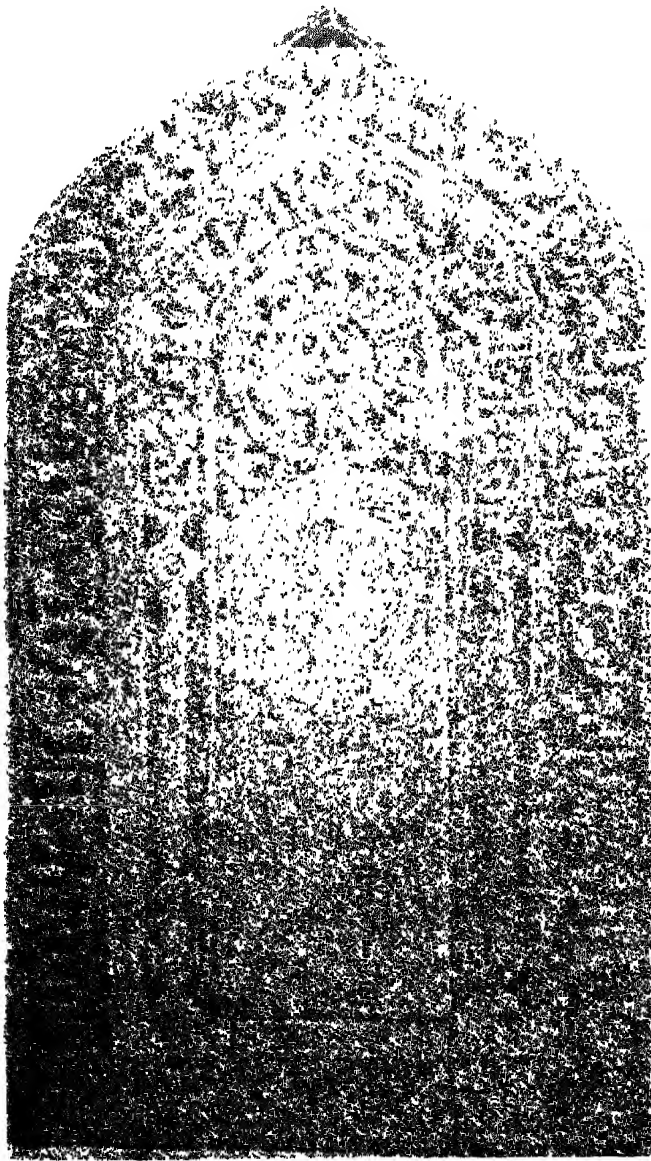
(شكل ٥) صورة السيده الزاوية ، بونزايجر ، رسمه المصور
أوربيجو ، للمصور فرانسيسكو كارو ، عرّك في القصر
بمدينة فلورنسا ، إيطاليا ، سنة ١٢٧٨ ، ١٥٤٥



(شكل ٦) صفحة من مصحف مكتوب على الرق ، محفوظة بدار الكتب في مدينة جونا . مصر ، القرن ٢ هـ (٨)



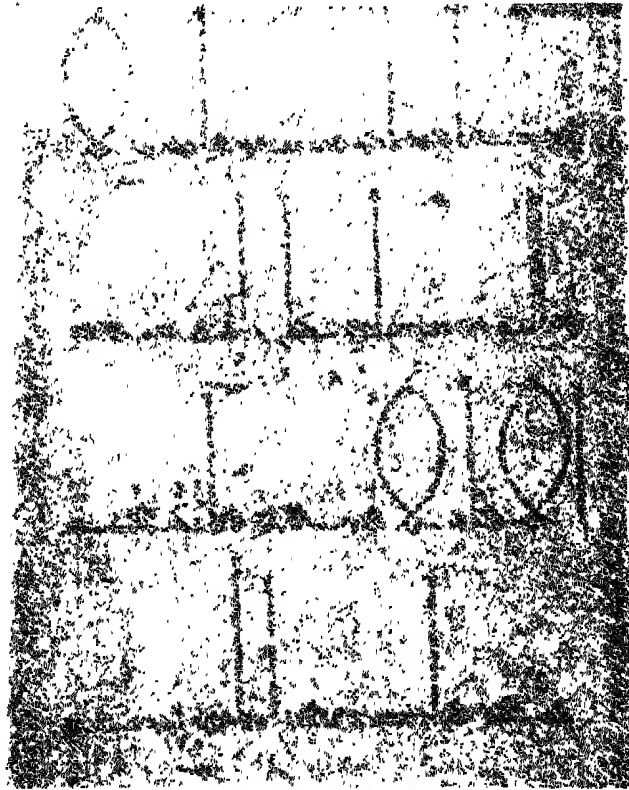
(شكل ٧) لوح من الرخام . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٩) محراب صغير متنقل من الخشب . مصر ،
القرن ٥ هـ (١١)

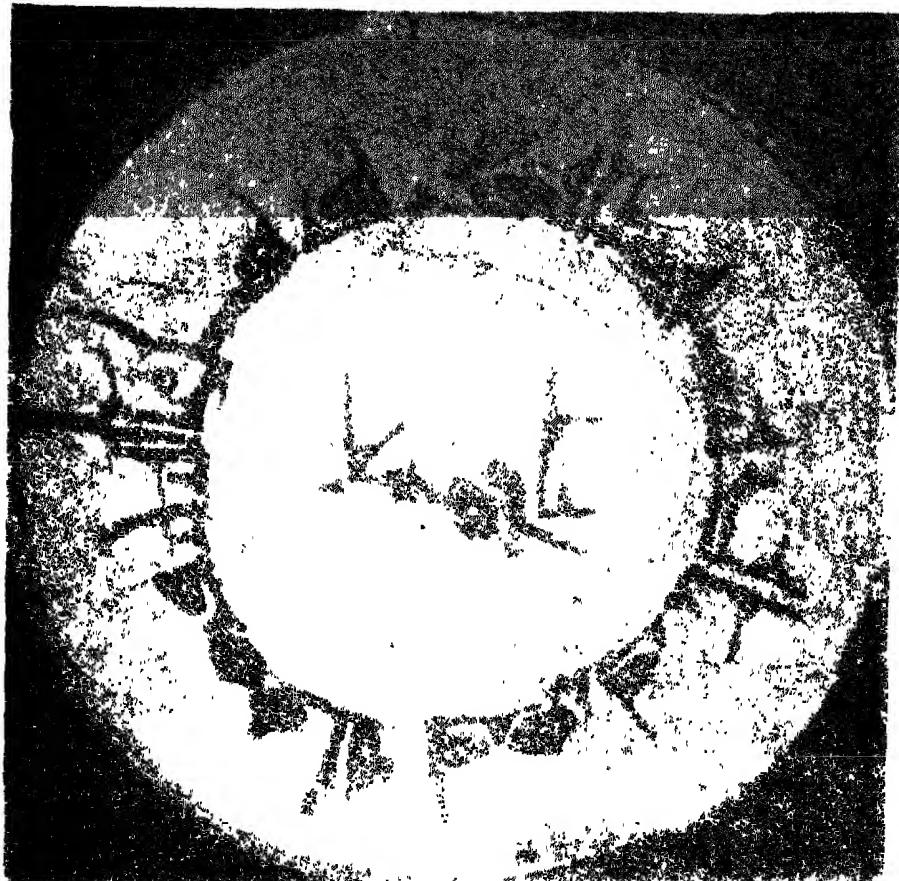


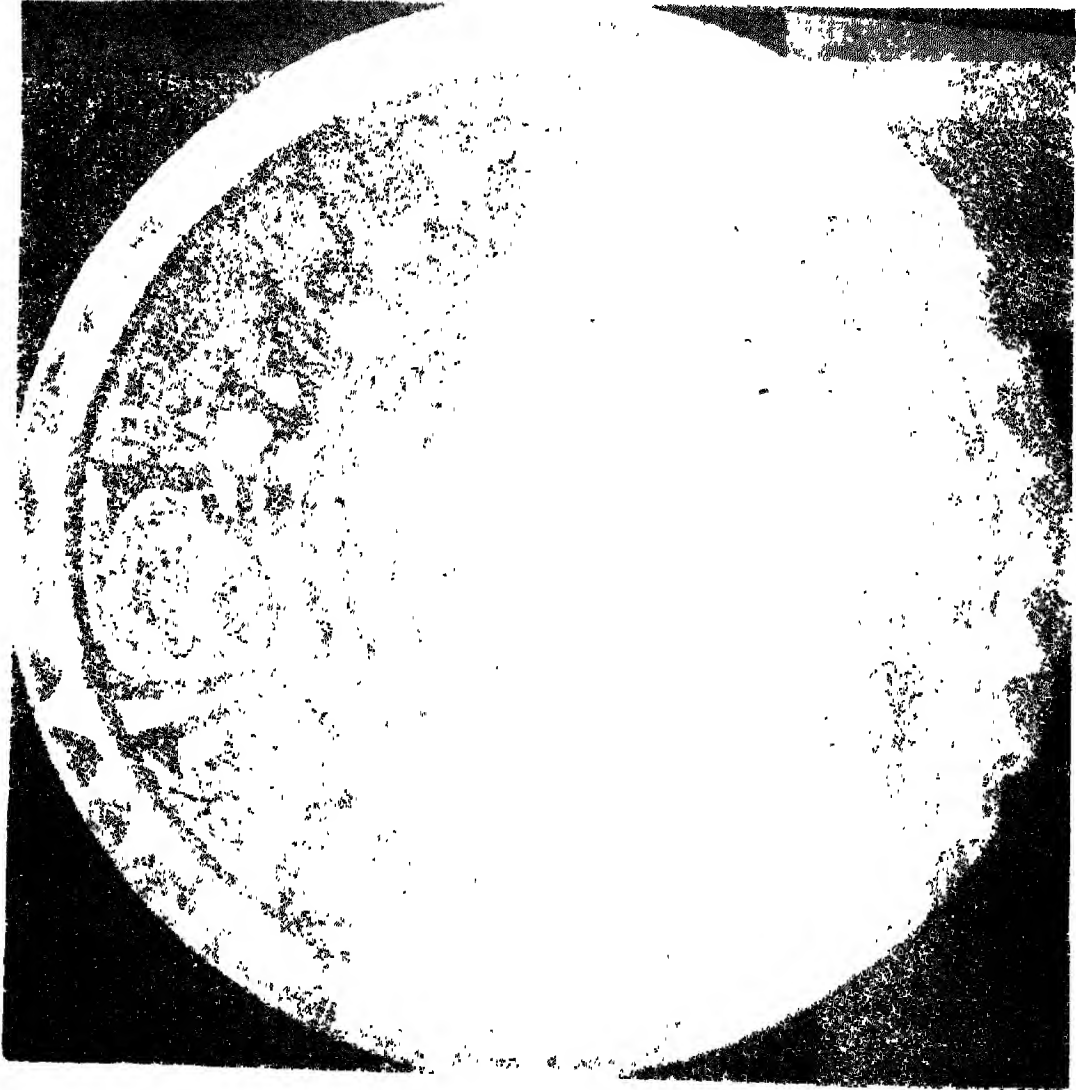
(شكل ٨) قنينة من البلور الصندري .
مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



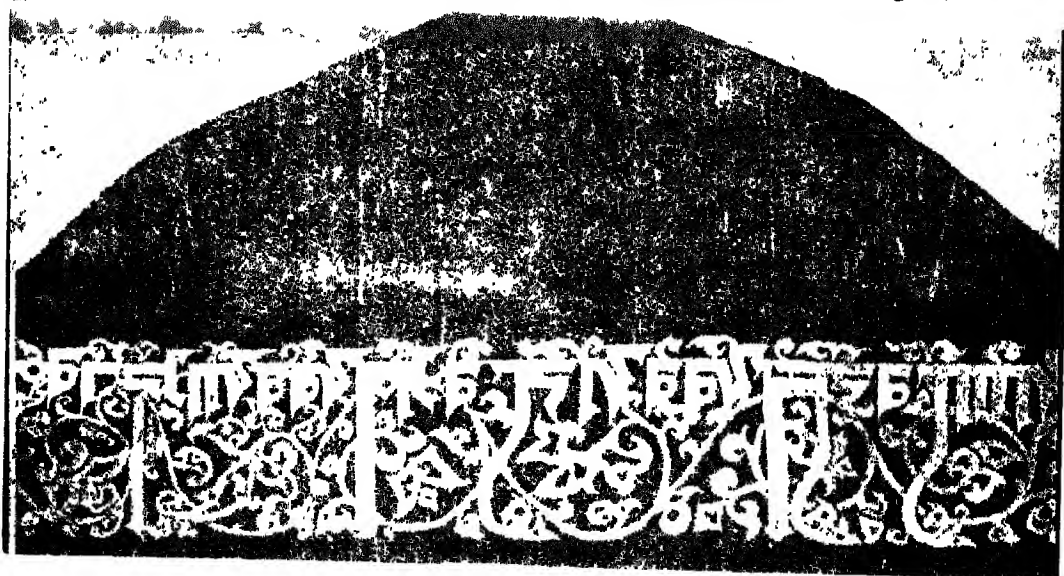
(شكل ١٠) ورملة من مصحف
القرآن ، القرن ٧/٦ هـ .
(١٣/١٢) .

(الشكل ١١) صحن من
الفضة ، إيران ، القرن ١٥ هـ
(١٠)

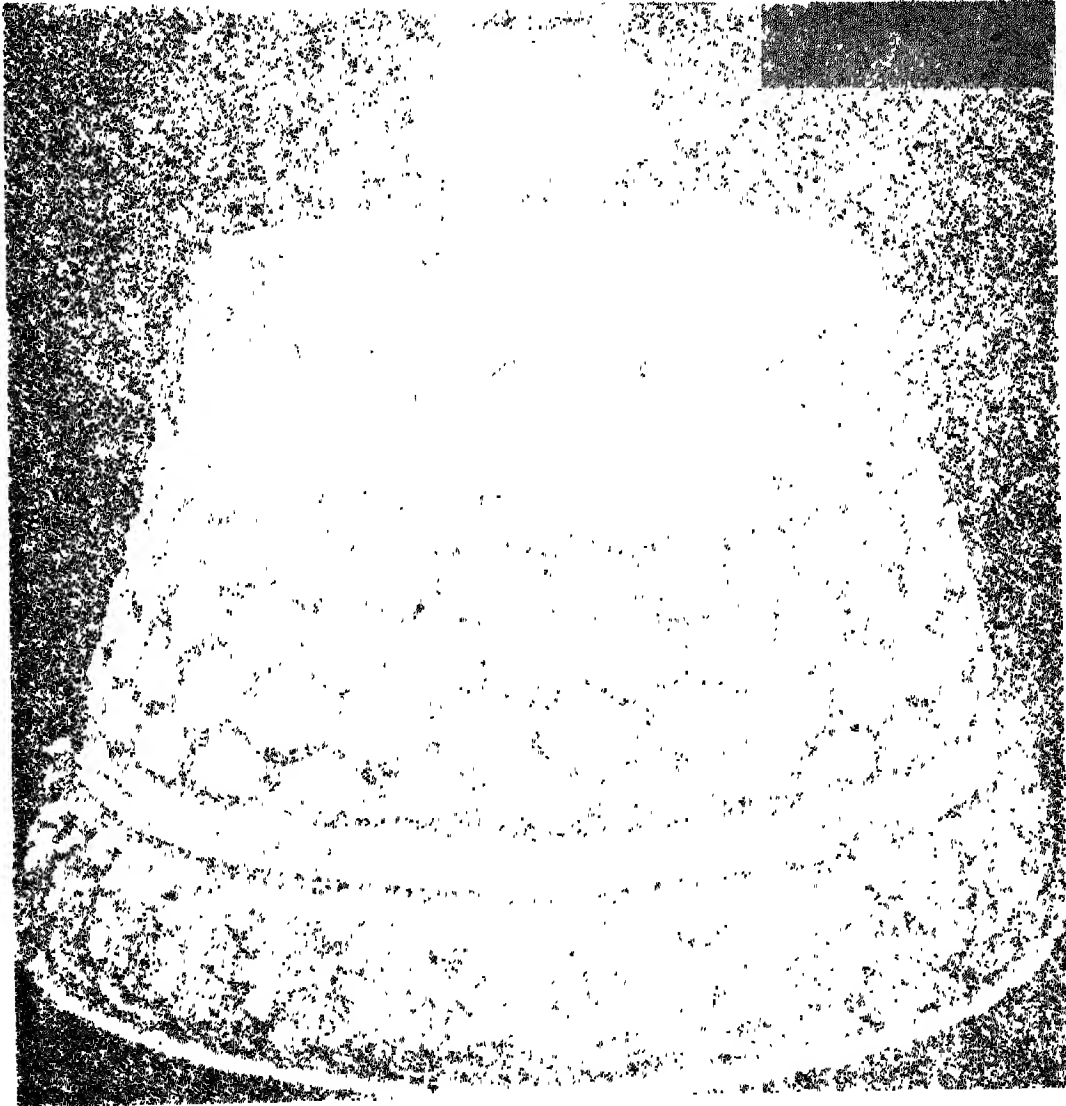




(شكل ١٢) صحن من الخزف ذو البريق المعدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



(شكل ١٣) شريك من الحرير ، سابقا في متجوزة مرود . ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



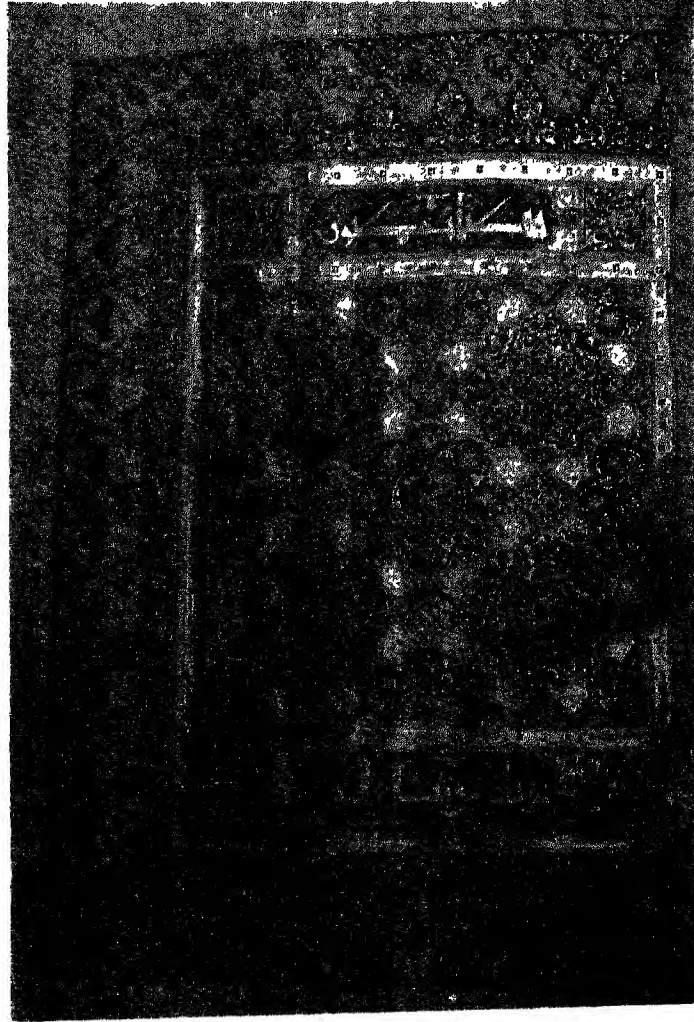
(شكل ١٤) شمعان من النحاس المكفت بالفصه ، محفوظ في متحف فرير جاليري
بمدينة واشنطن ، ايران ، النصف الثاني من القرن ٦ هـ (١٢) .

٩٠٥

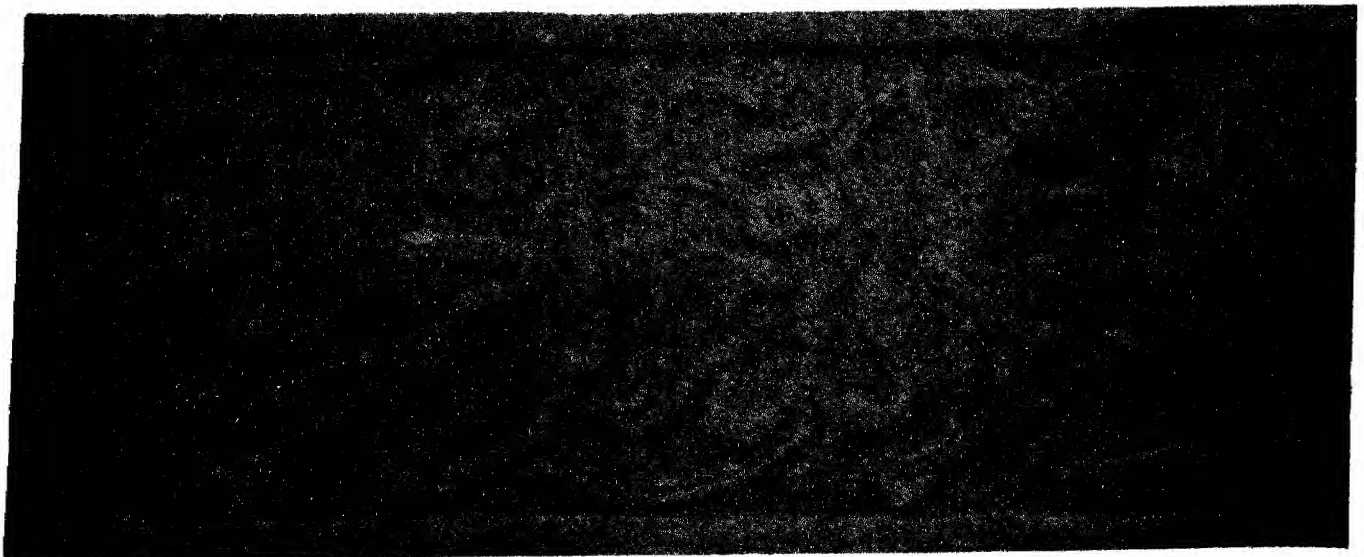
الكتابة العربية منصر وخرني



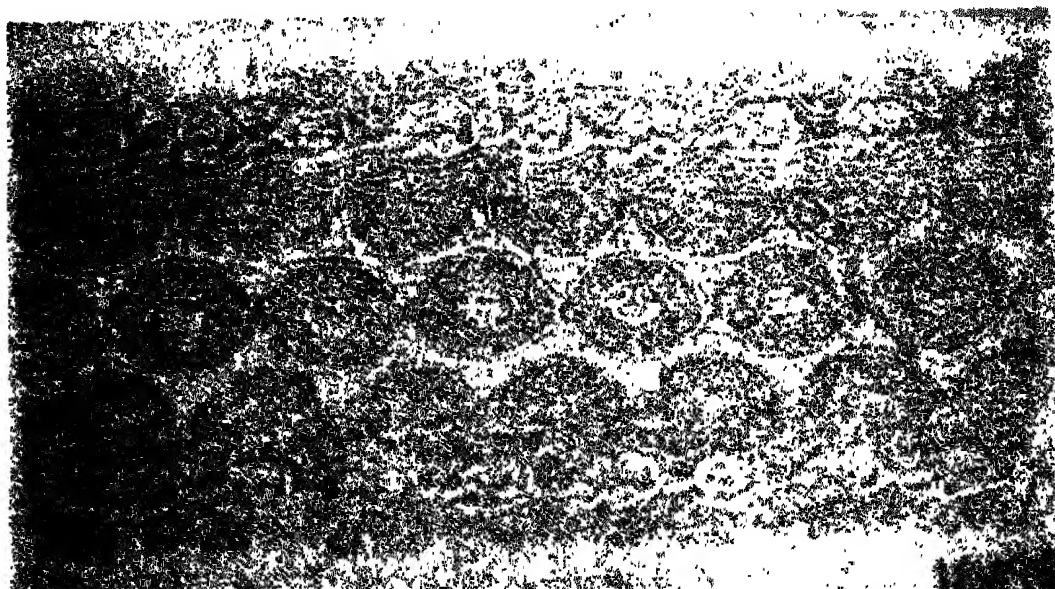
٠ (١١) هـ ٨ ق ١٢١٢ ، إيران ، مئسرة زكوة بن الحارث بن زكوة (١٠١٠ ق ١٢١٢)



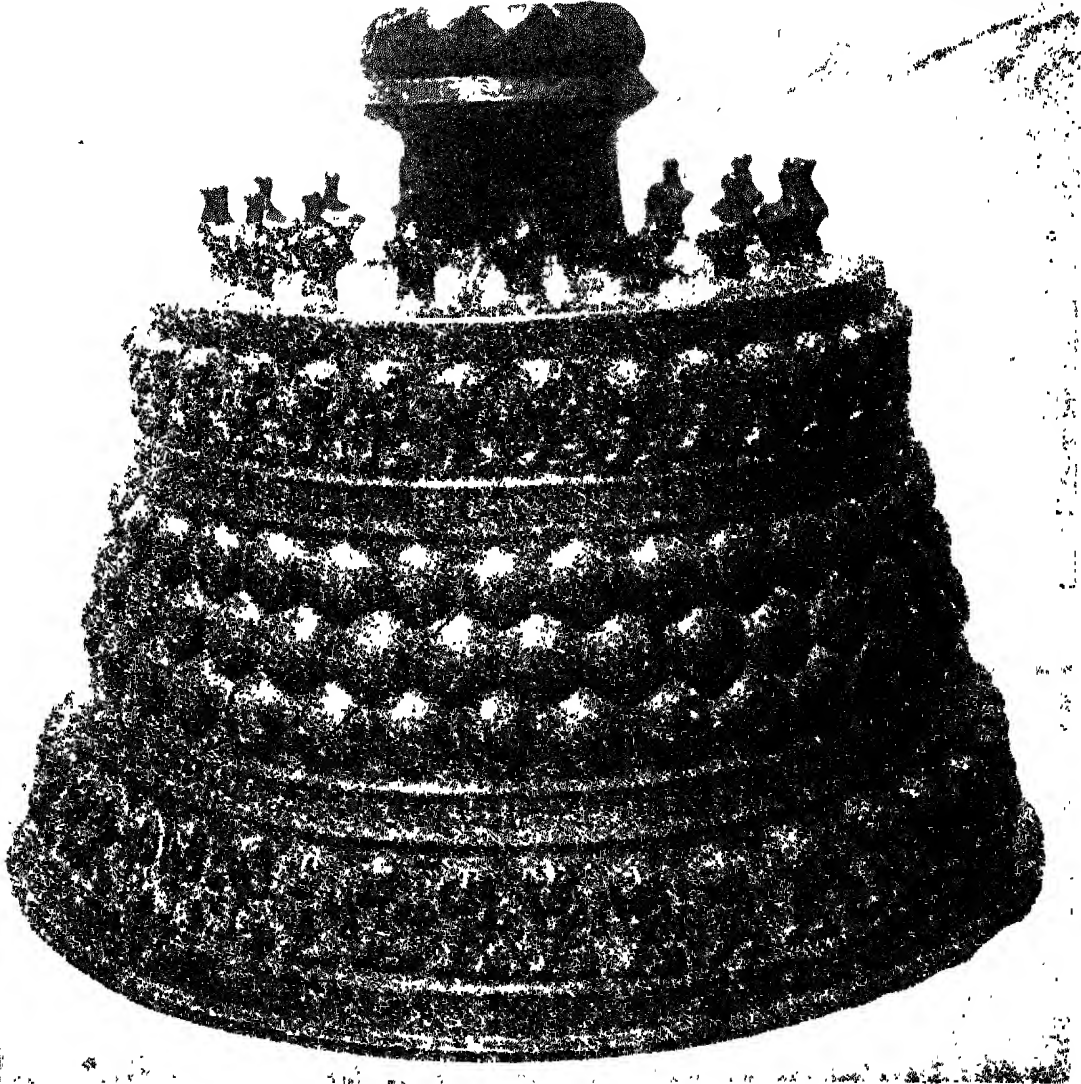
(شكل ١٦) صفحة في بداية مصحف السلطان الاشرف
شعبان ، محفوظ بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة .
مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



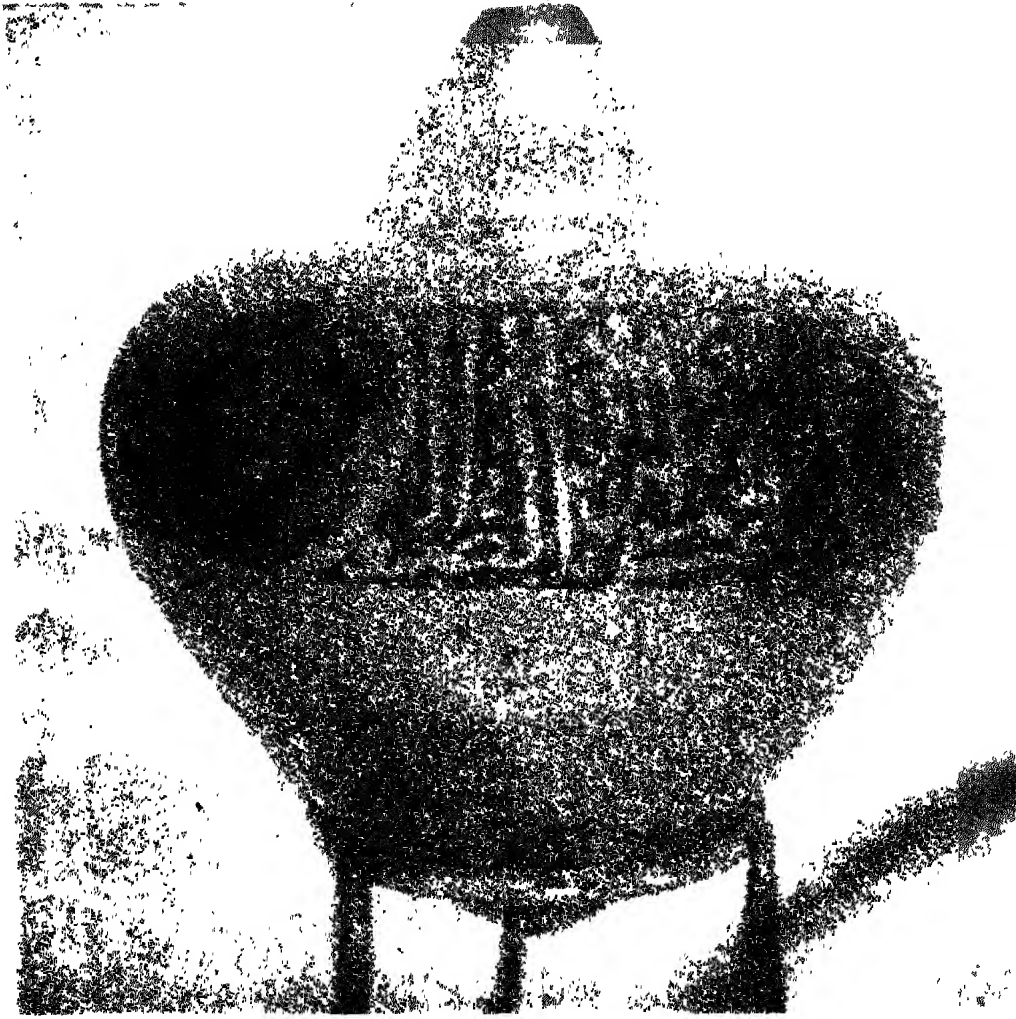
(شكل ١٧) حُسُوة من الرخام . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



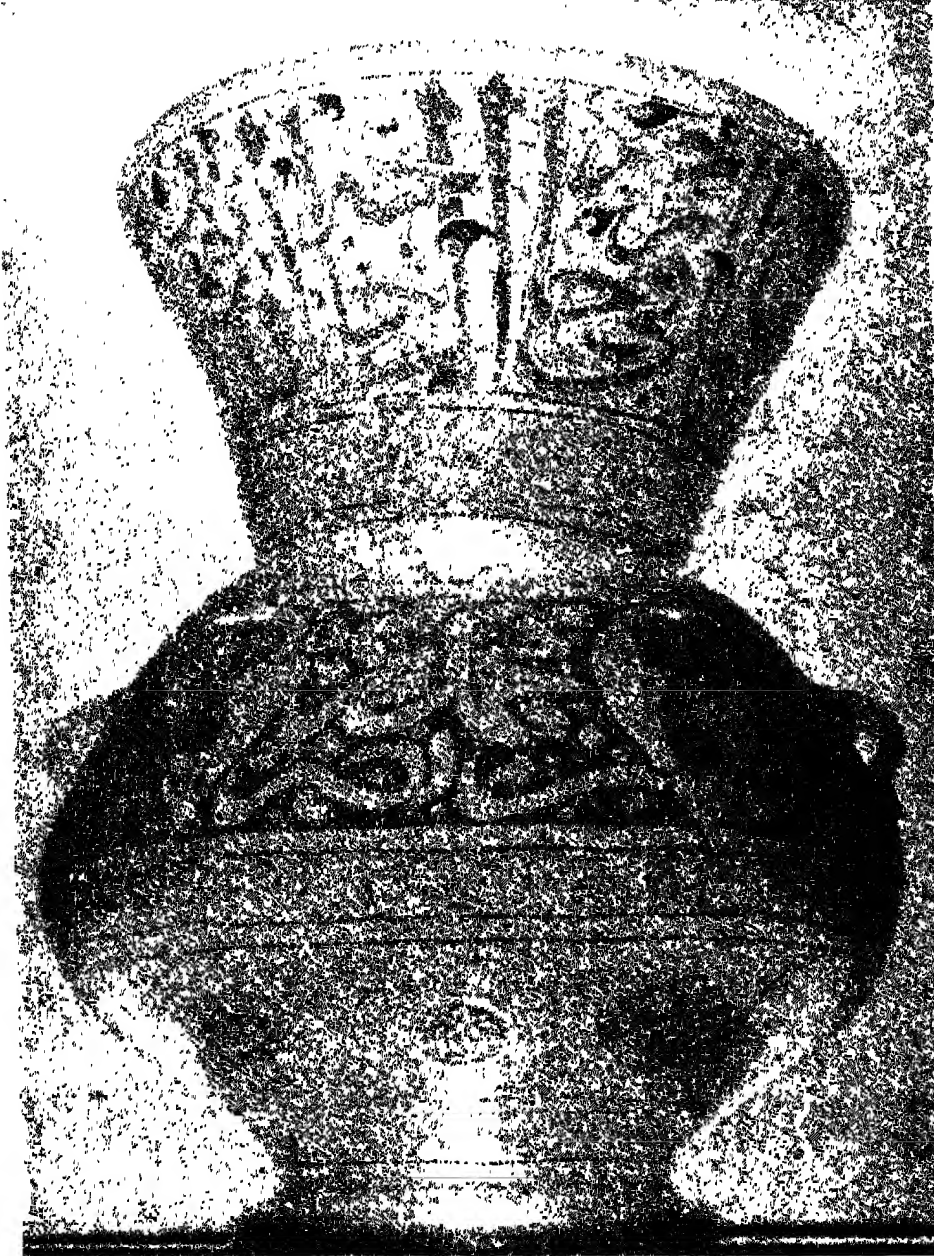
(شكل ١٨) شريط من الحرير . مصر ، القرن ٧/٦ هـ (١٣/١٢)



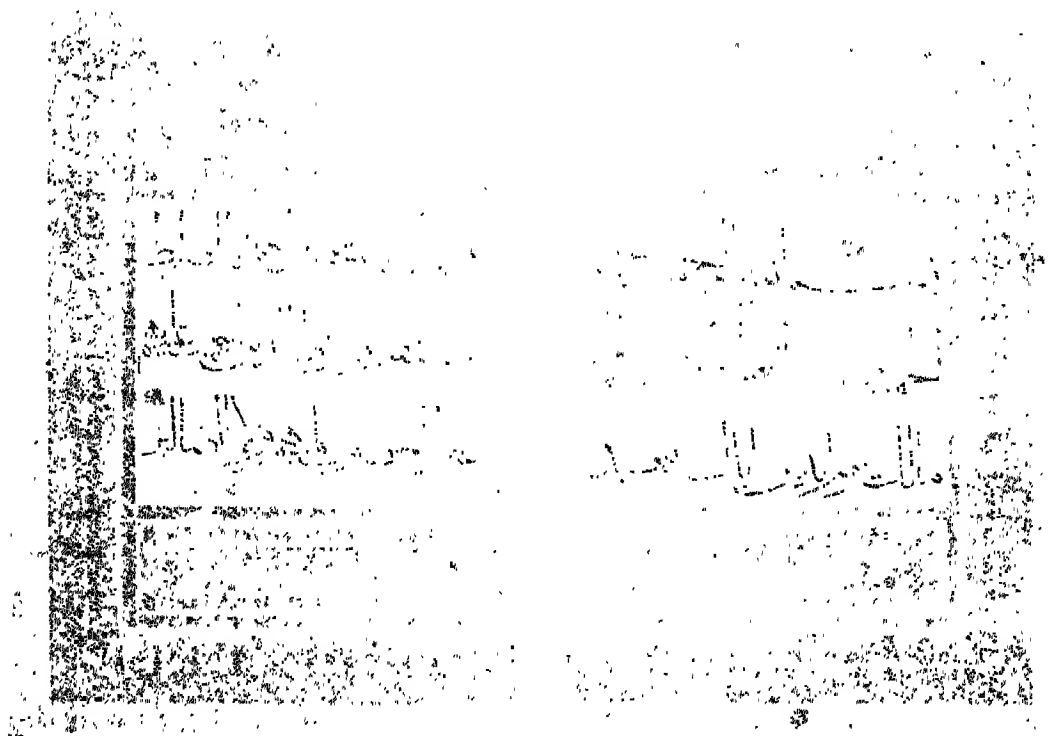
(شكل ١٩) شمعان من النحاس المكفت بالفضة . الموصل، أوائل القرن ٧ هـ (١٢)



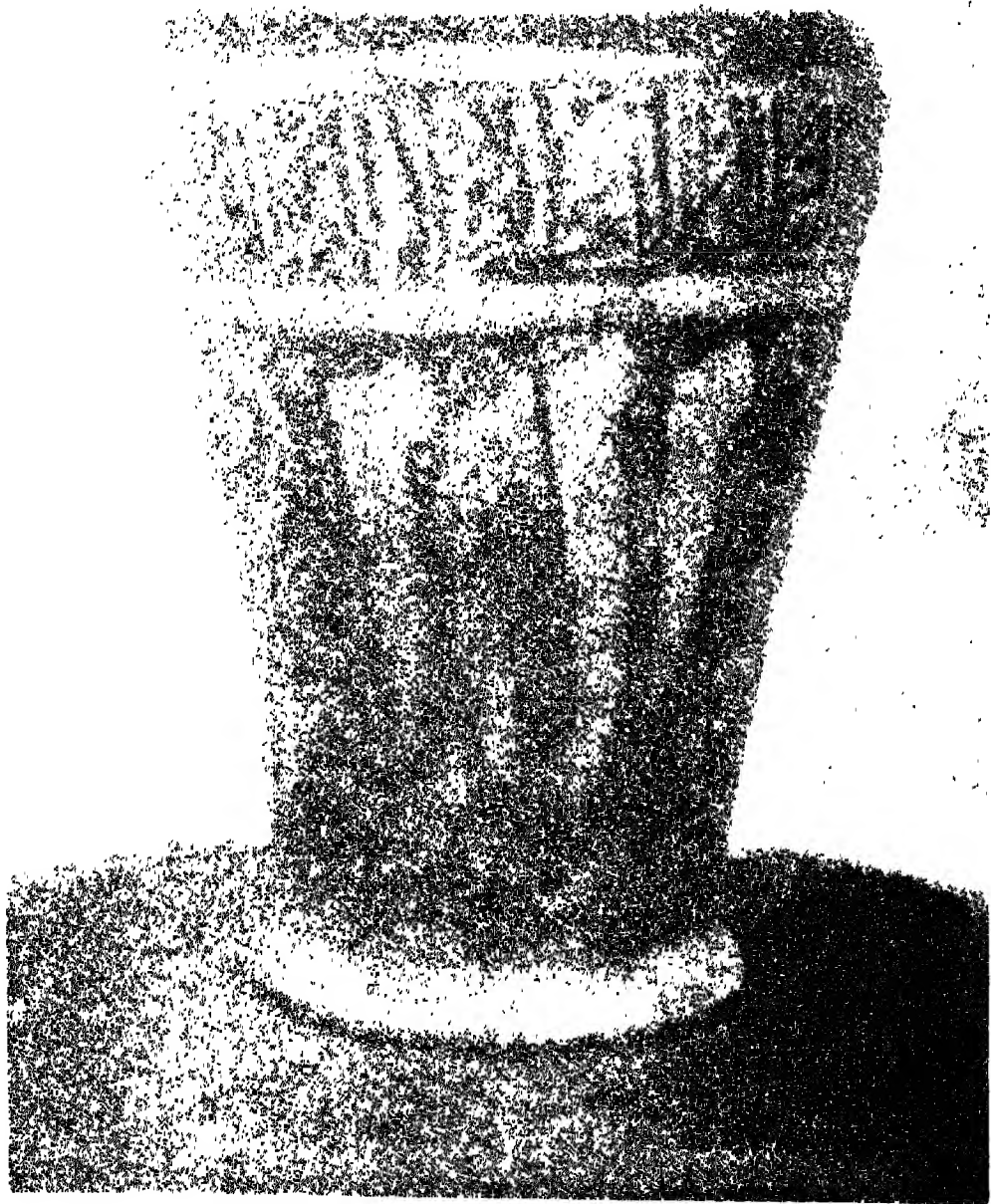
(شكل ٢٠) قندبل من الزجاج الموه بالينا للامير الطنيفا . مصر ، أواخر القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ٢١) مشكاة من الزجاج المموه بالبينا ، للسلطان الناصر محمد بن قلاوون . مصر ، من مسجد بم بناؤه في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨)



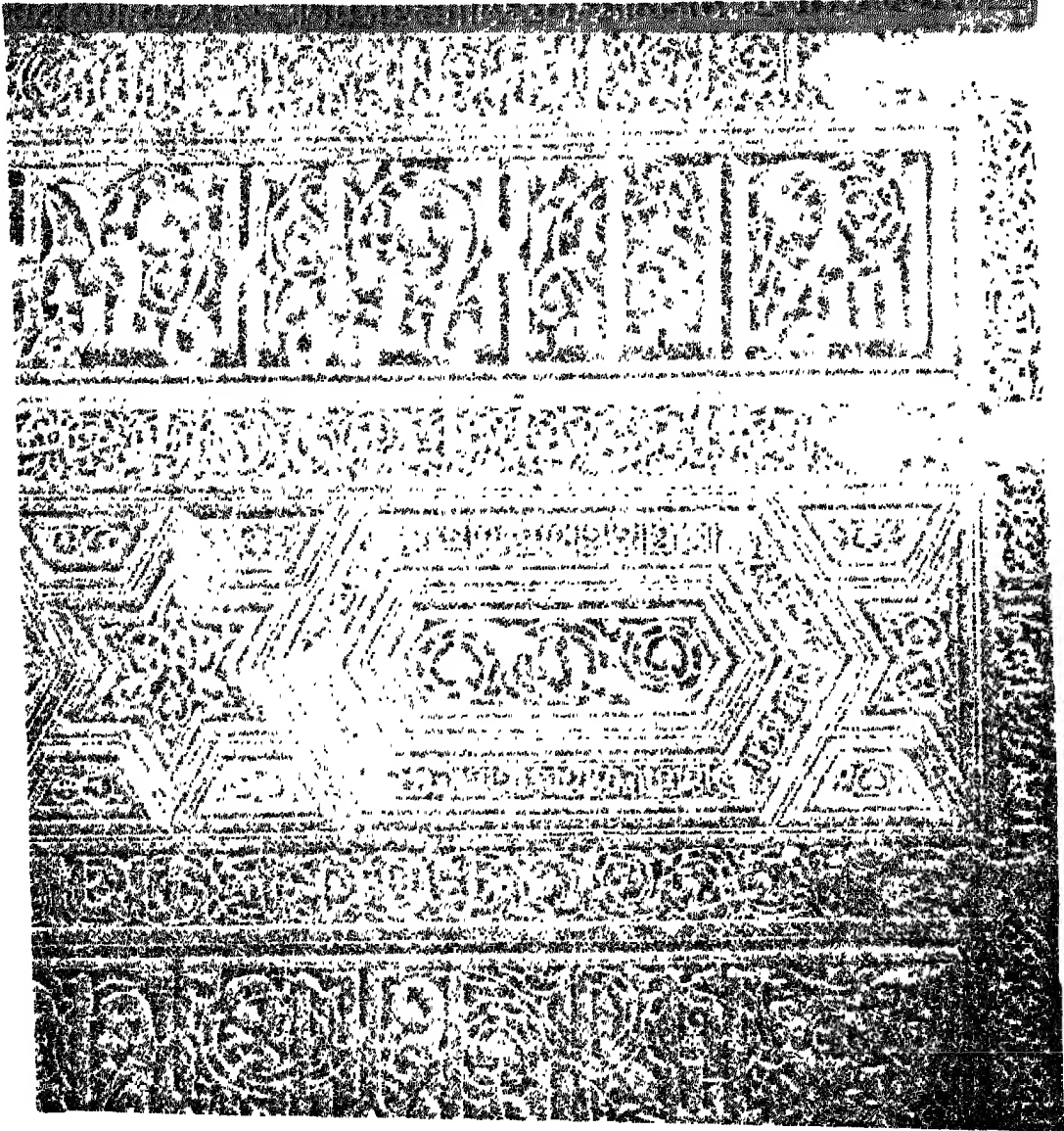
(شكل ٢٣) صفحة سورة الفاتحة، في مصحف السلطان الأشرف شعبان ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٣) كوب من الخزف الملوحي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



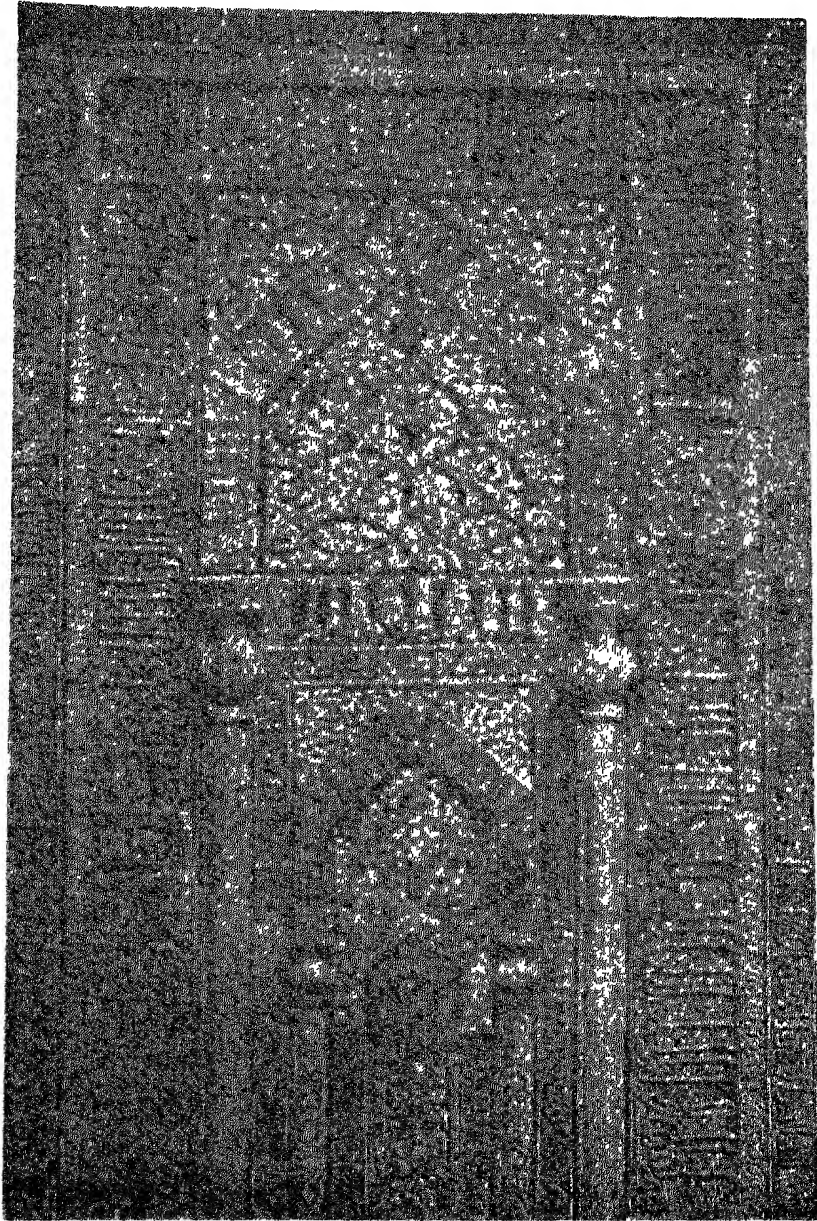
(شكل ٢٤) سلطانية من الفخار المظلي الماوي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٢٥) تركيبة من الخشب من مسجد الامام الحسين بالقاهرة . مصر ، اواخر القرن ٦ هـ (١٢) .



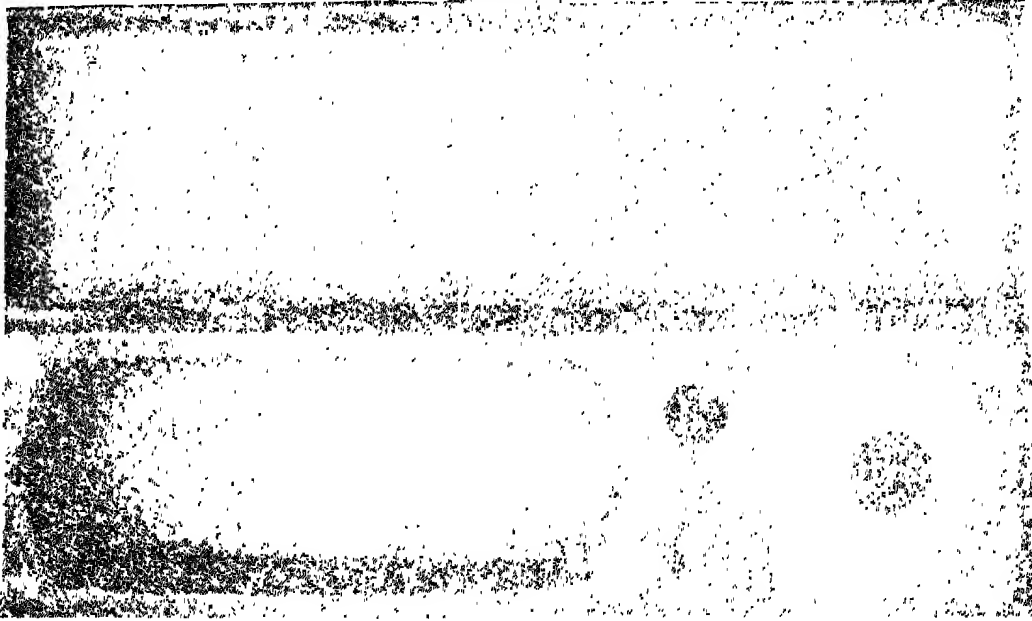
(شكل ٢٦) إبريق من النحاس مكفت بالفضة ، إيران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



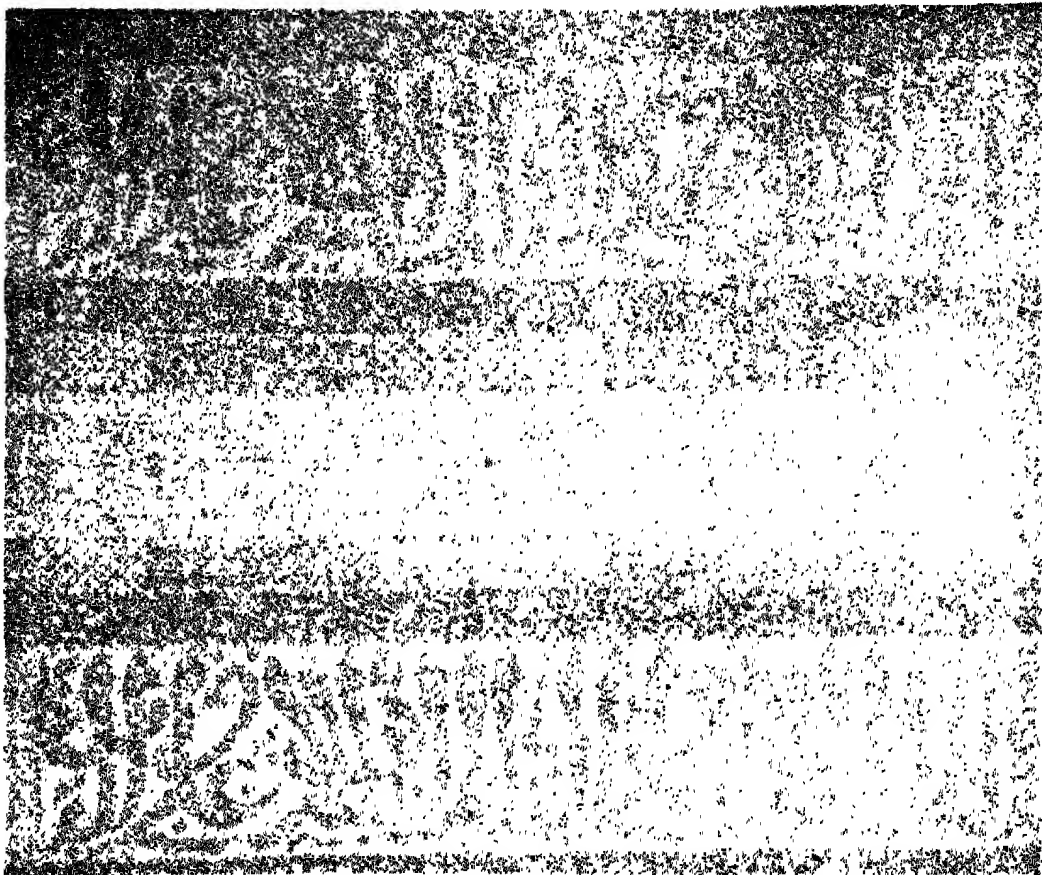
(شكل ٢٧) محراب من الخزف ذي البريق المعدني ، محفوظ بمتحف الدولة ، في برلين .
 ايران ، مؤرخ في شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦)



(شكل ٢٨) سطح كرسي من النحاس المكث بالفضة ، عليه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وتوقيع الفنان محمد بن سنقر . مصر مسرذخ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .



(شكل ٢٩) مقلعة من النحاس المكثت بالفضة والذهب ، عليها اسم السلطان المنصور محمد . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



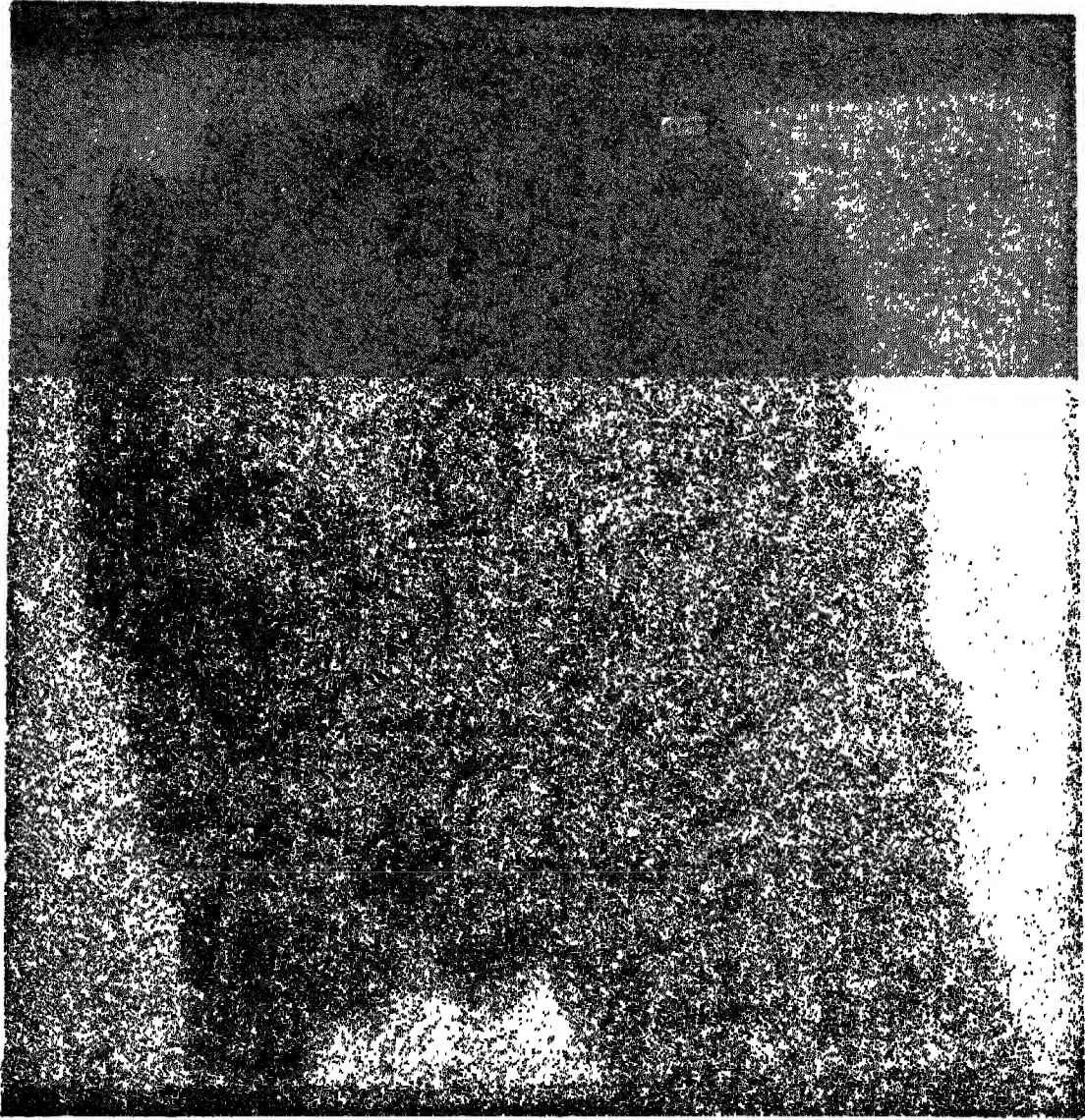
(شكل ٣٠) نسيج من الحرير بخيوط مذهب ، محفوظ في قصر فيثيو ، بمدينة فيرونا . ايران ، القرن ٨ هـ (١٤) .



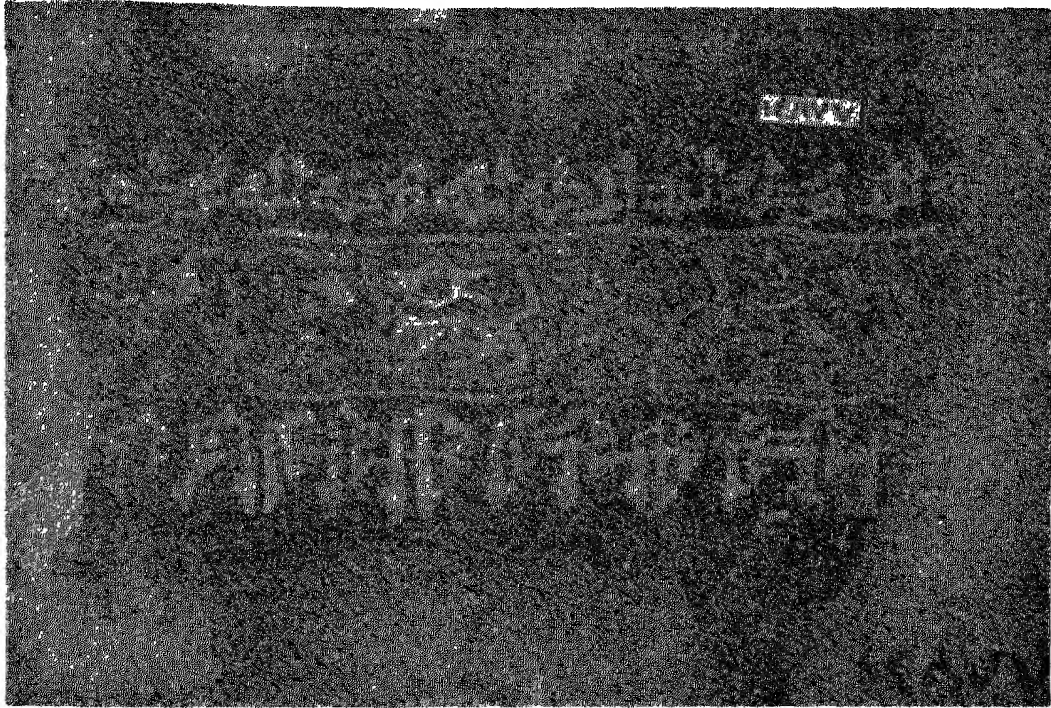
(شكل ٣١) شمعدان من النحاس ، عليه اسم السلطان الاشرف فابتبای . مصر ، مؤرخ
في شهر رمضان سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .



(شكل ٣٢) رقية شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها اسم السلطان
كتيغا المنصوري، مصر، قبل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤)



(شكل ٣٣) قطعة من النسيج بزخارف منسوجة. مصر ، القرن ٢ هـ (٨) .



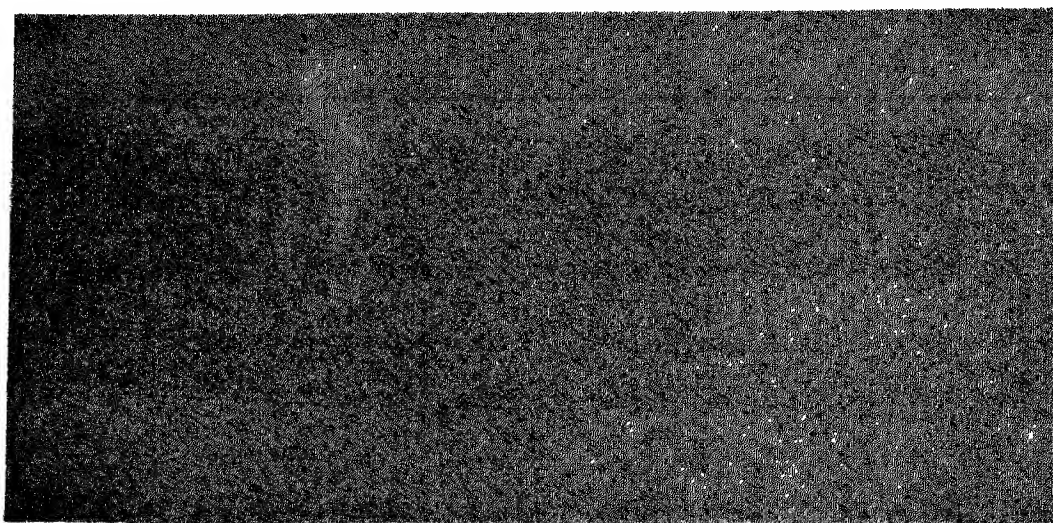
(شكل ٣٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



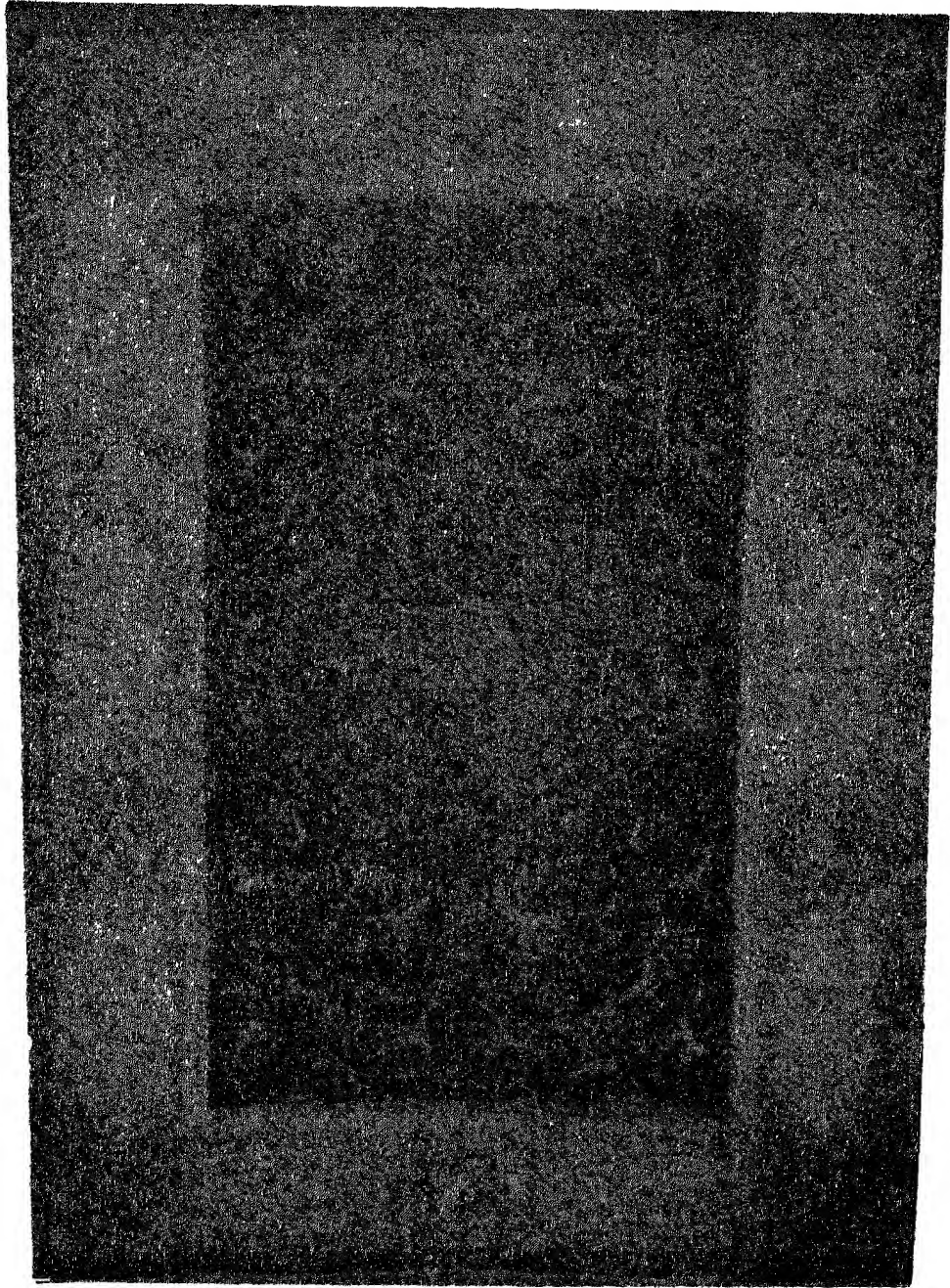
(شكل ٣٥) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



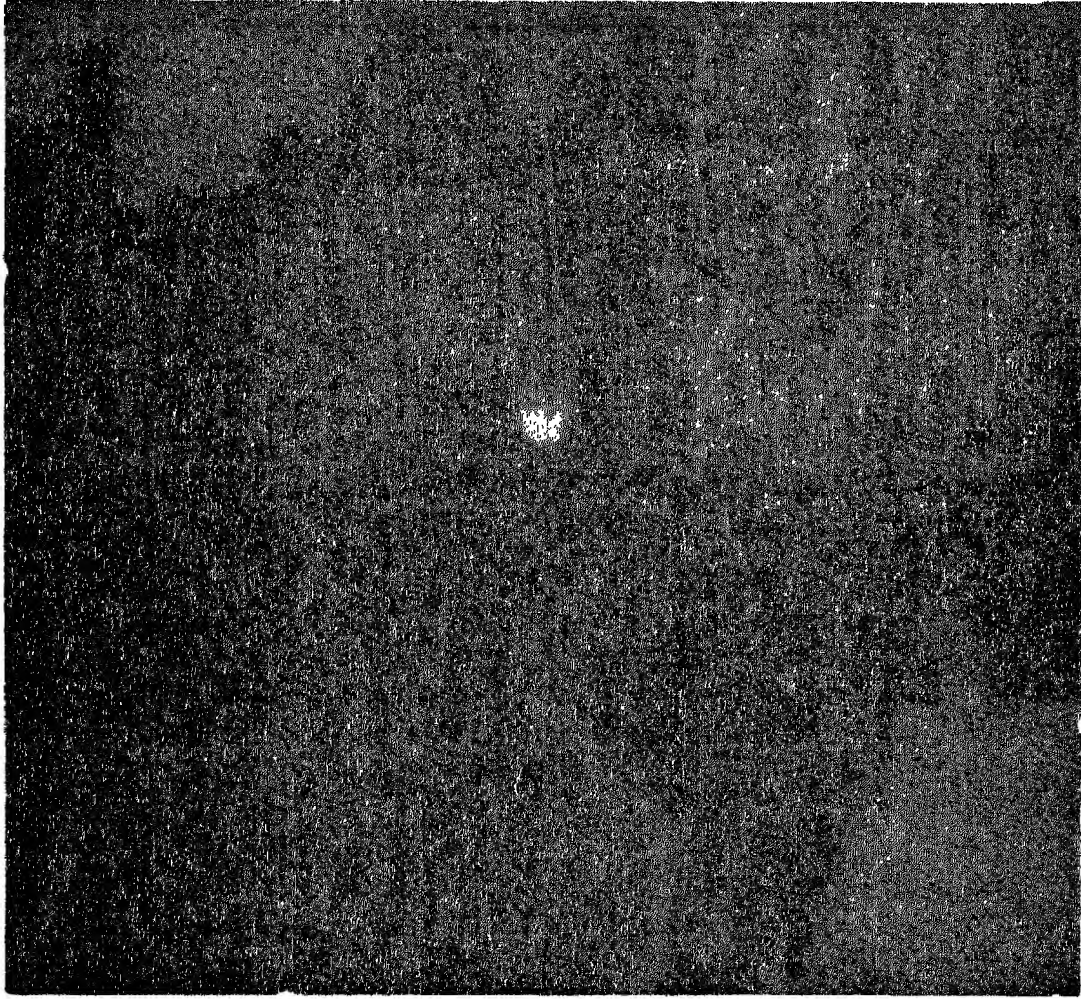
(شكل ٣٦) قدر من الخزف من نوع الفيوم . مصر ، اواخر القرن ٥ هـ (١١) .



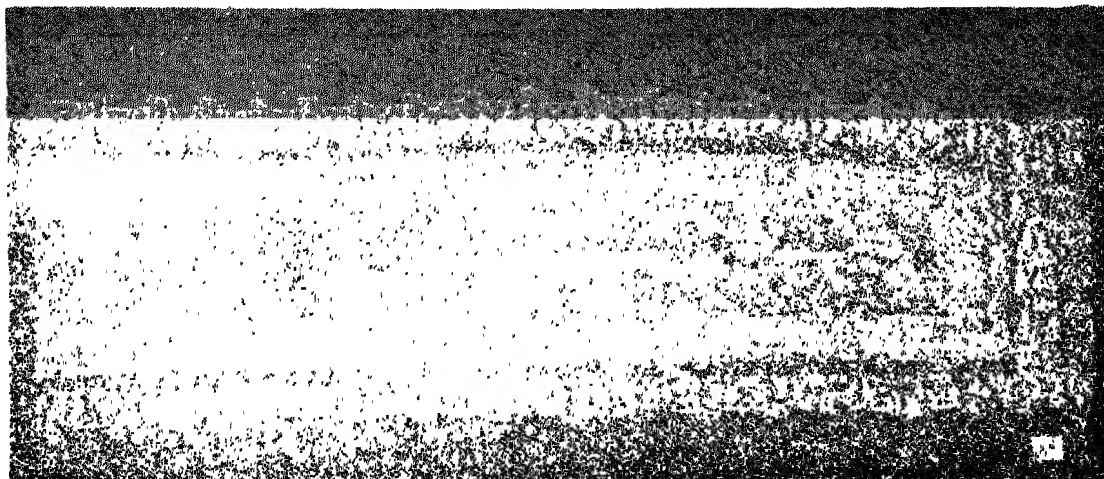
(شكل ٣٧) نسيج مطرز مملوكي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٣٨) سجادة من نوع اصفهان . ايران ، اواخر ١٠ هـ (١٦) .



(شكل ٣٩) نسيج مطبوع بالذهب . اليمن ، اوائل القرن هـ (١٠) .



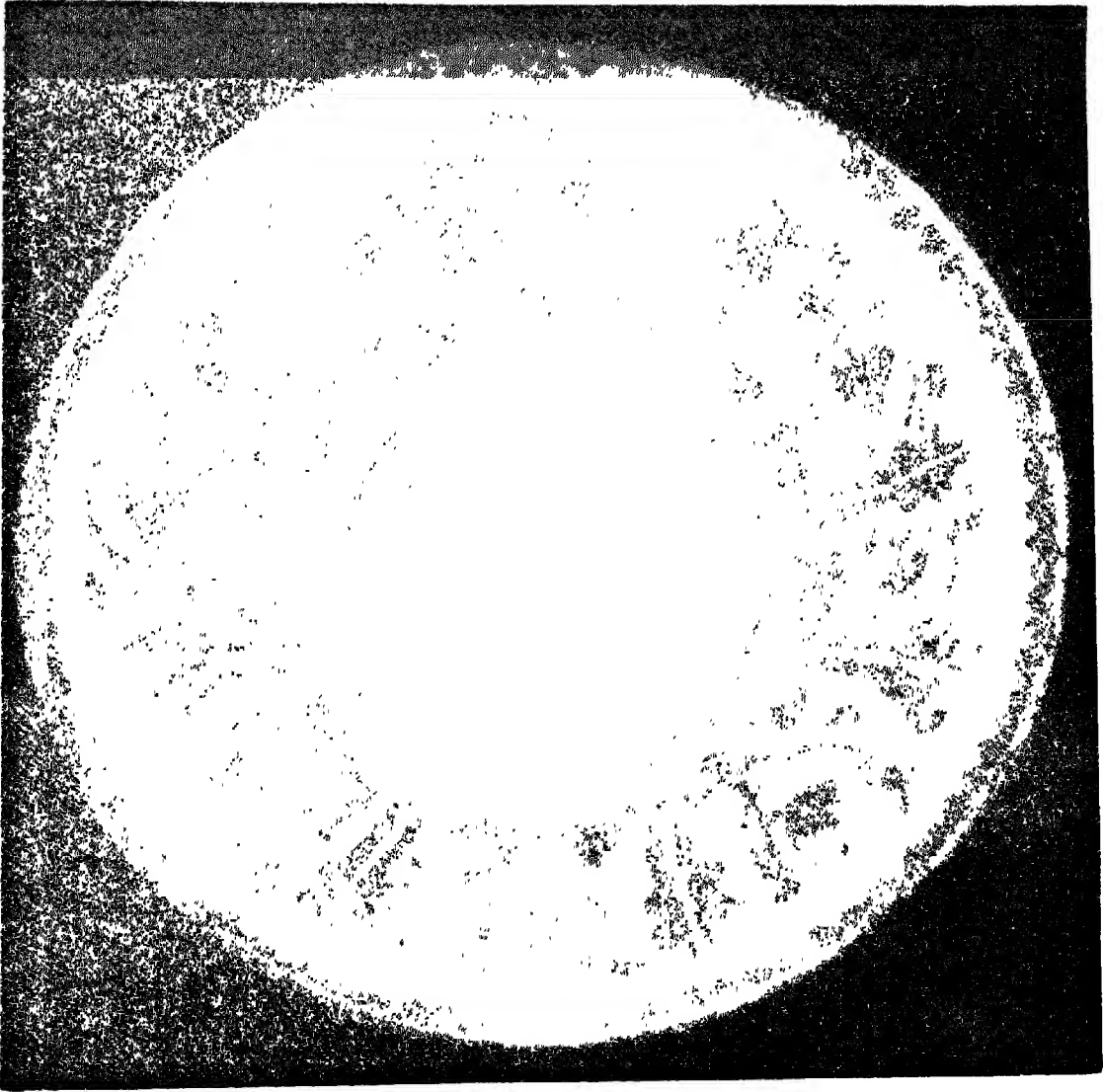
(شكل ١٠) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ، القرن ١٠ هـ .



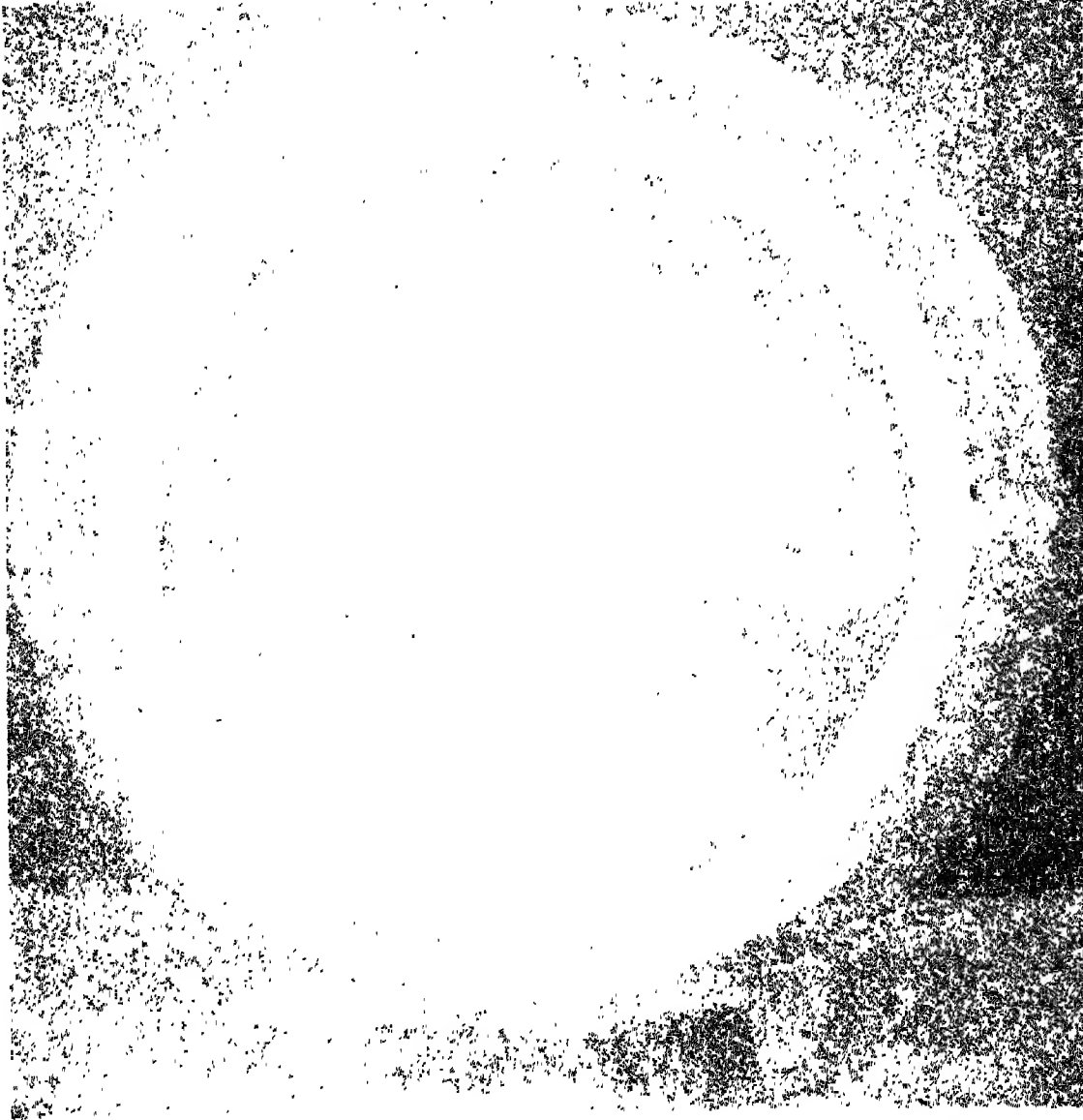
(شكل ١١) قطعة من النسيج الفاطمي . مصر ، القرن ١١ هـ .



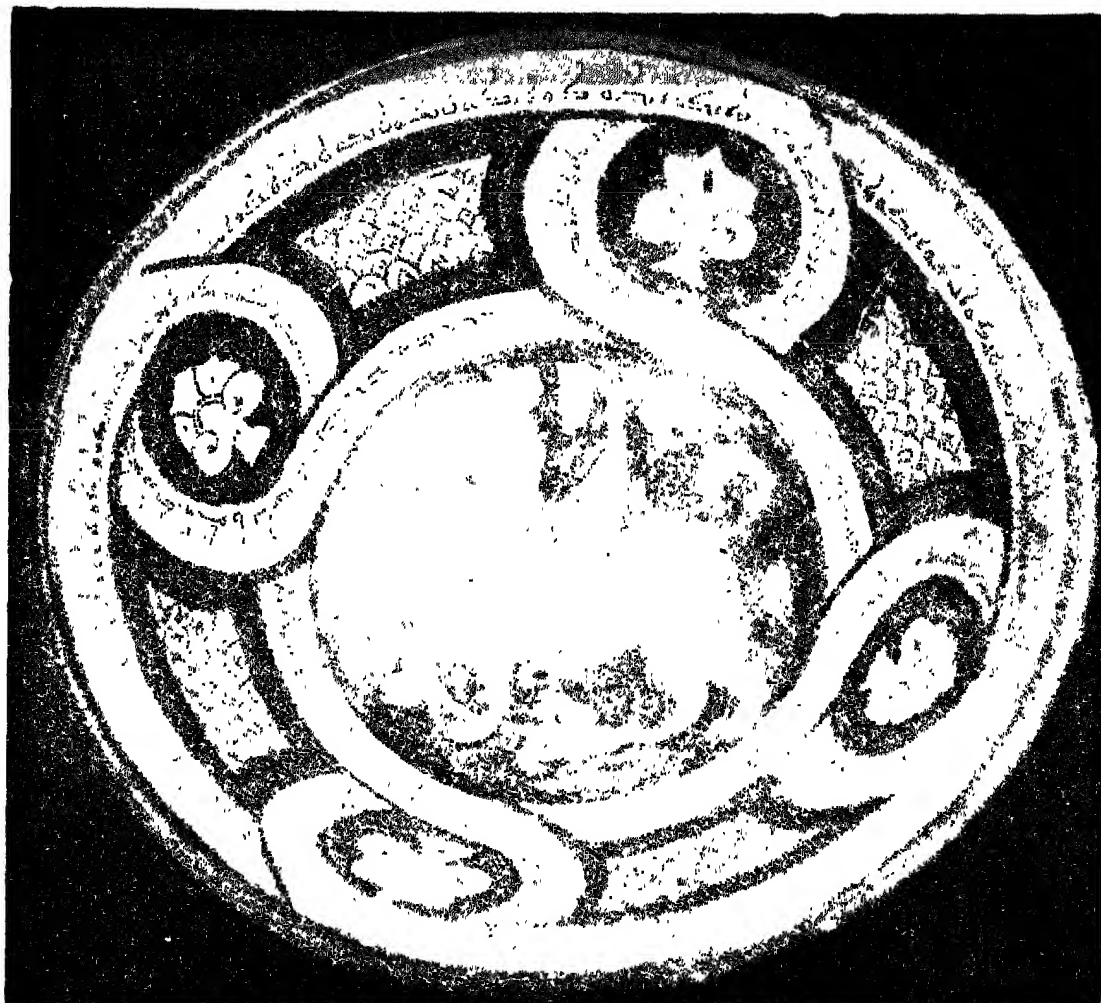
(شكل ٤٢) صحن من الخزف ذي البريق المعدني مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



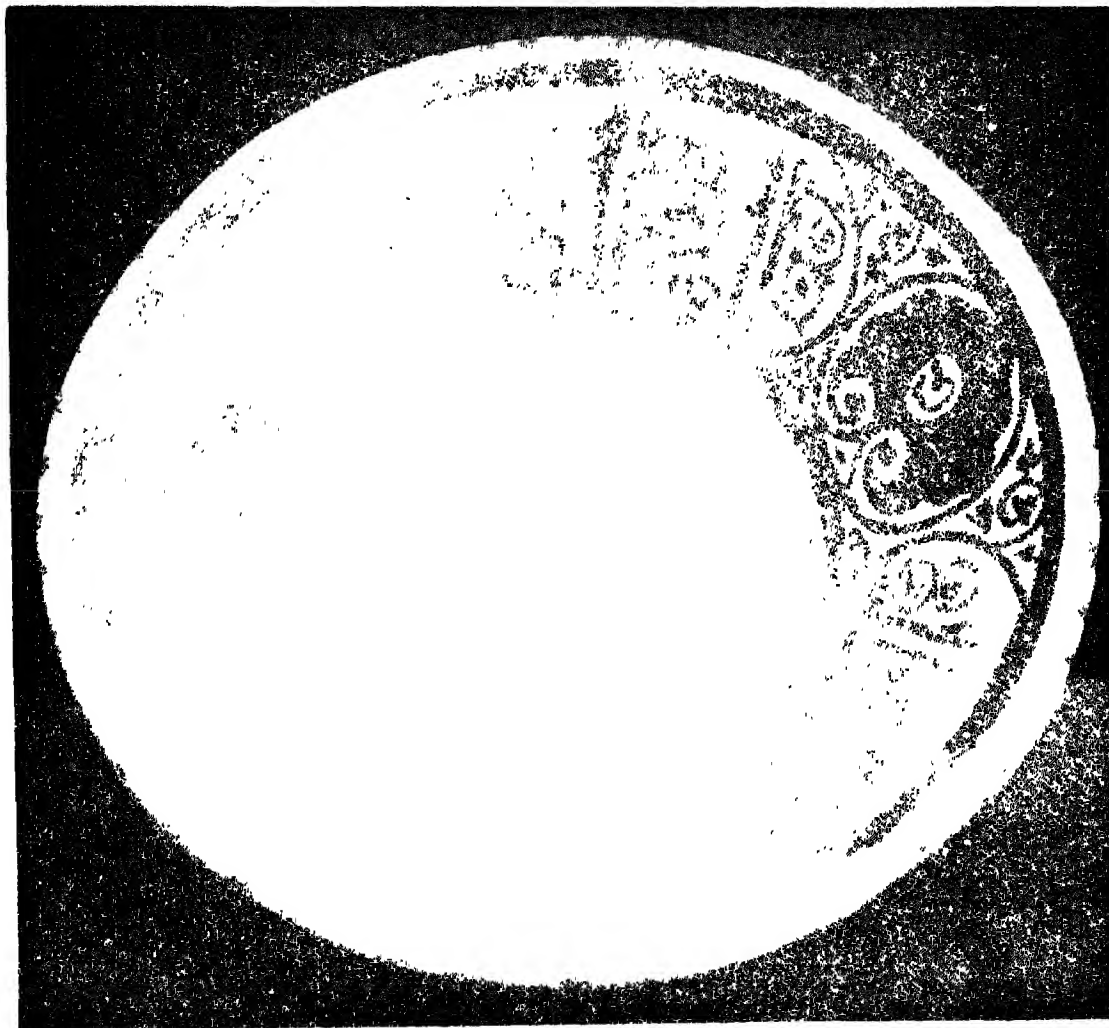
(شكل ٤٣) صحن من الخزف ذي البريق المعدني مصر ، القرن هـ (١١) .



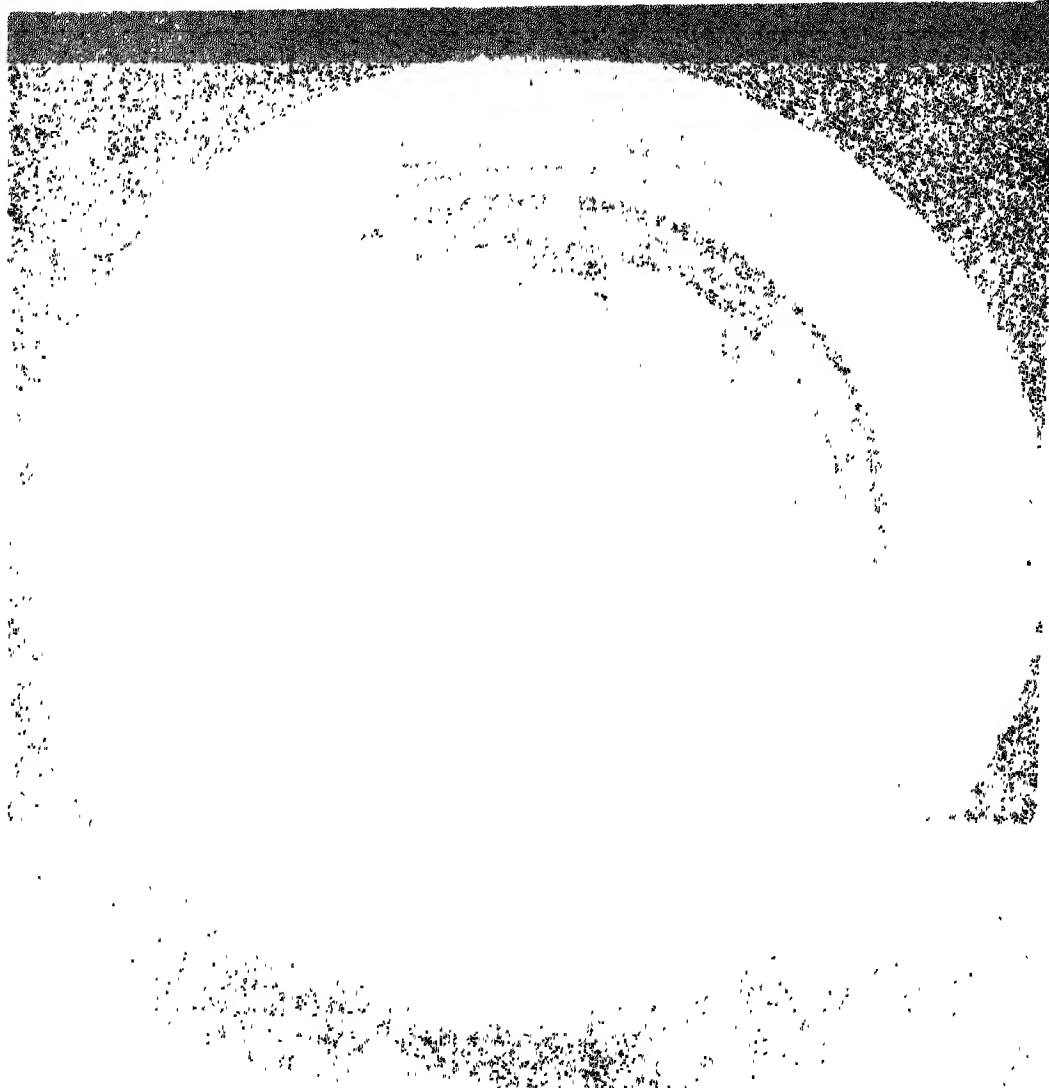
(شكل ١١) صحن من الخزف ذي البريق المعدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



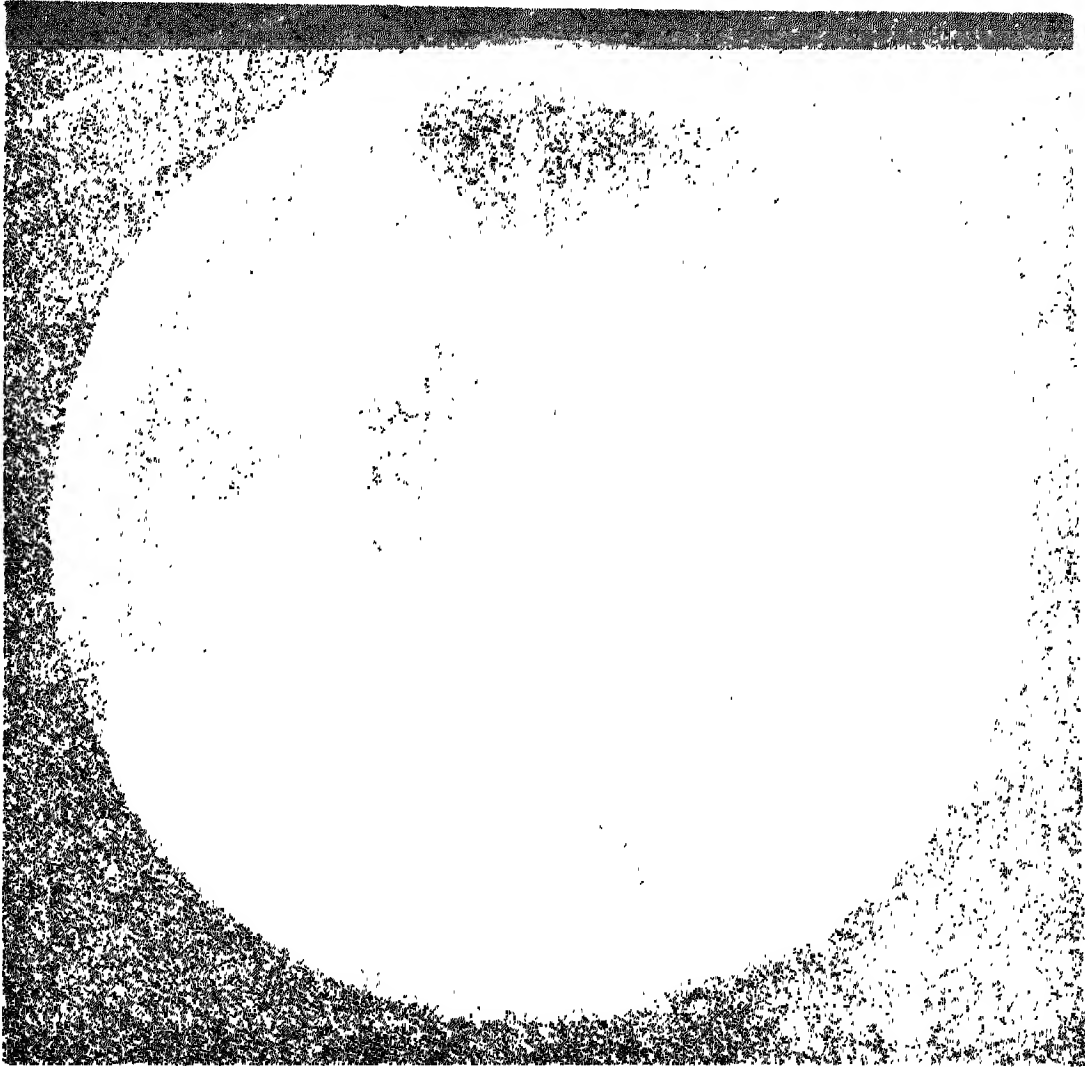
(شكل هـ) صحن من الخزف ذو البريق المسدنى ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



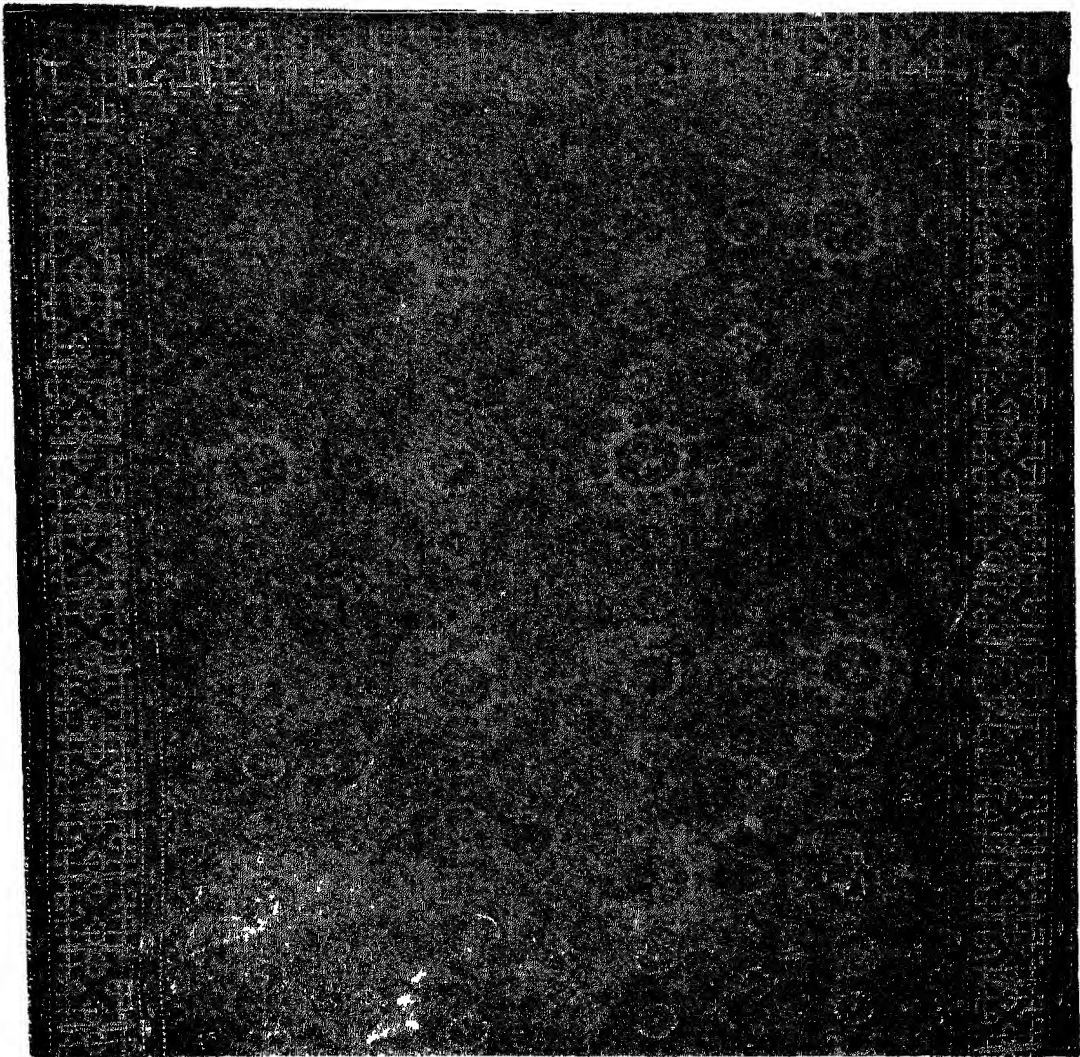
(شكل ٤٦) صحن من الخزف ذي البريق الماسدني . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٧) صحن من الخزف ذي البريق المعدني - مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



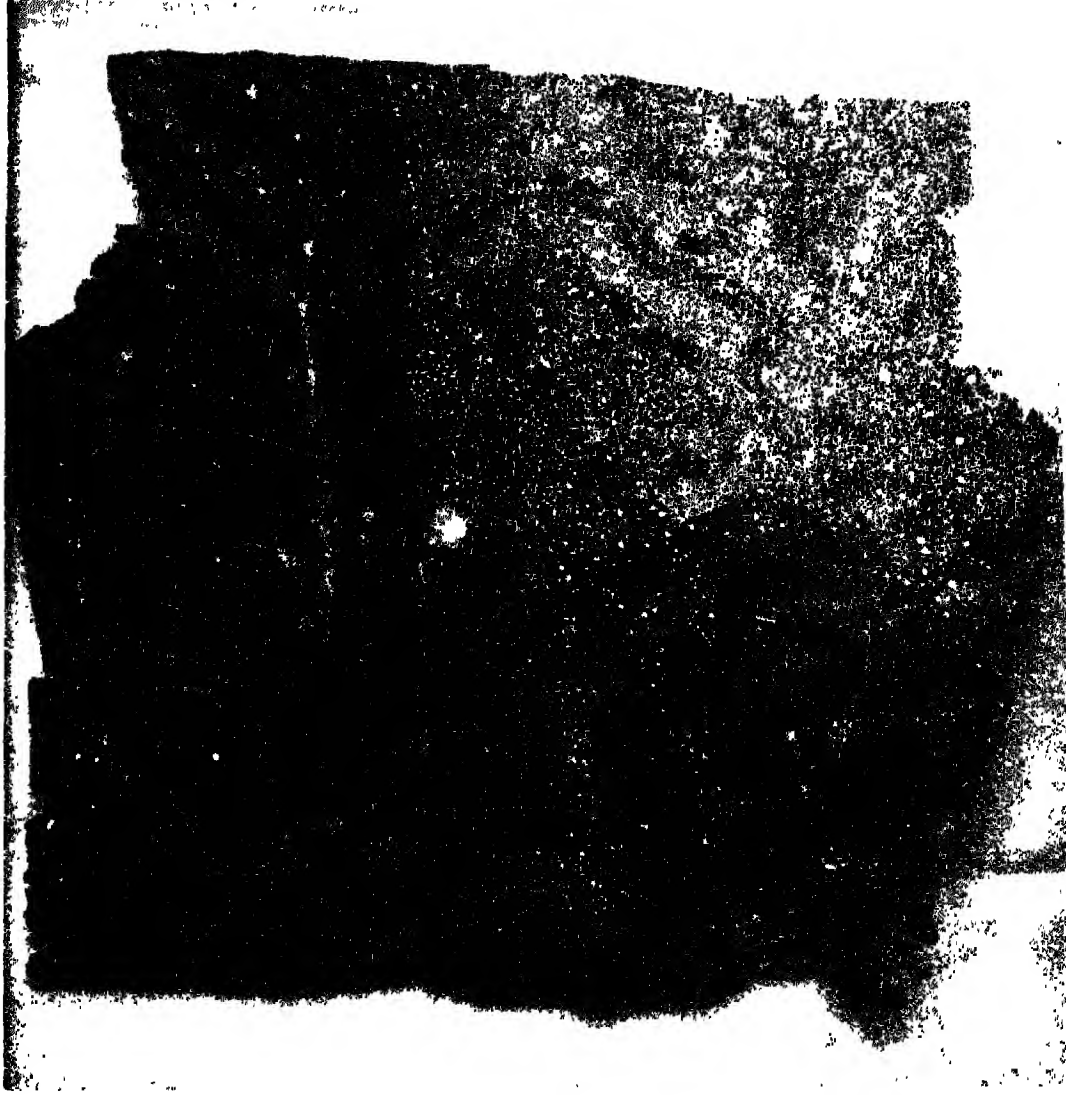
(شكل ٤٨) ابريق من الخزف - ايران ، القرن ٤ هـ (١٠) .



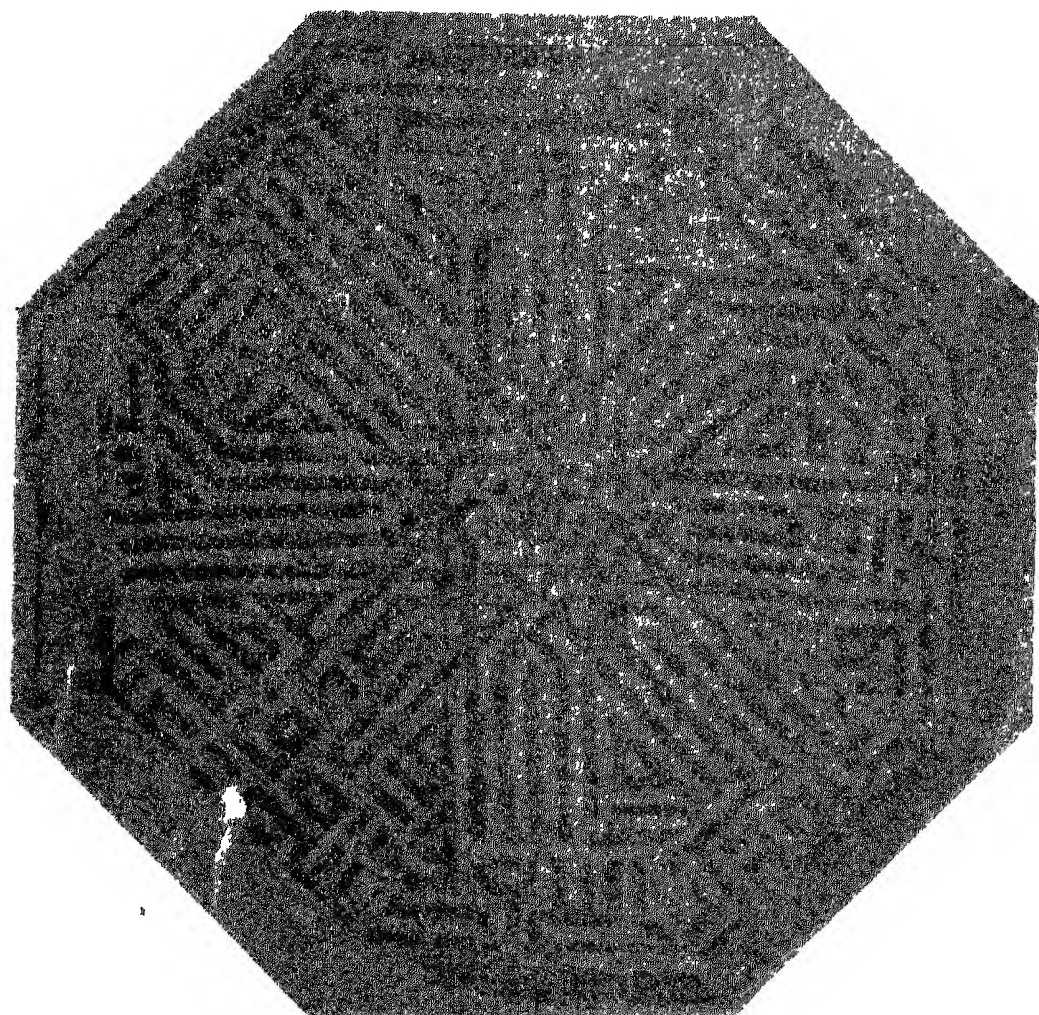
(شكل ٤٩) سجادة من نوع هولباين . آسيا الصغرى : القرن ١٠ هـ (١٦) .



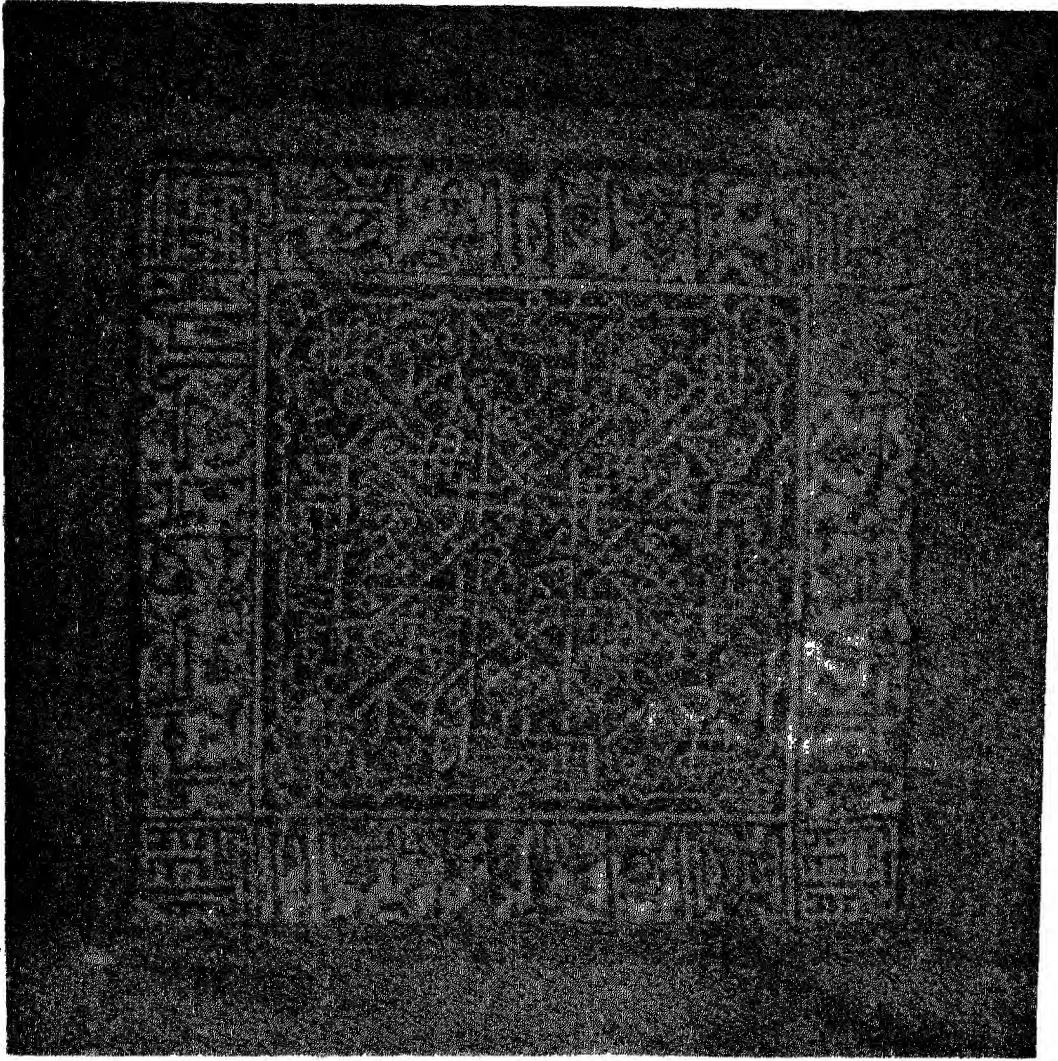
(شكل ٥٠) نسيج بخيوط من الفضة . سوريا ، القرن ١٠ هـ (١٦) .



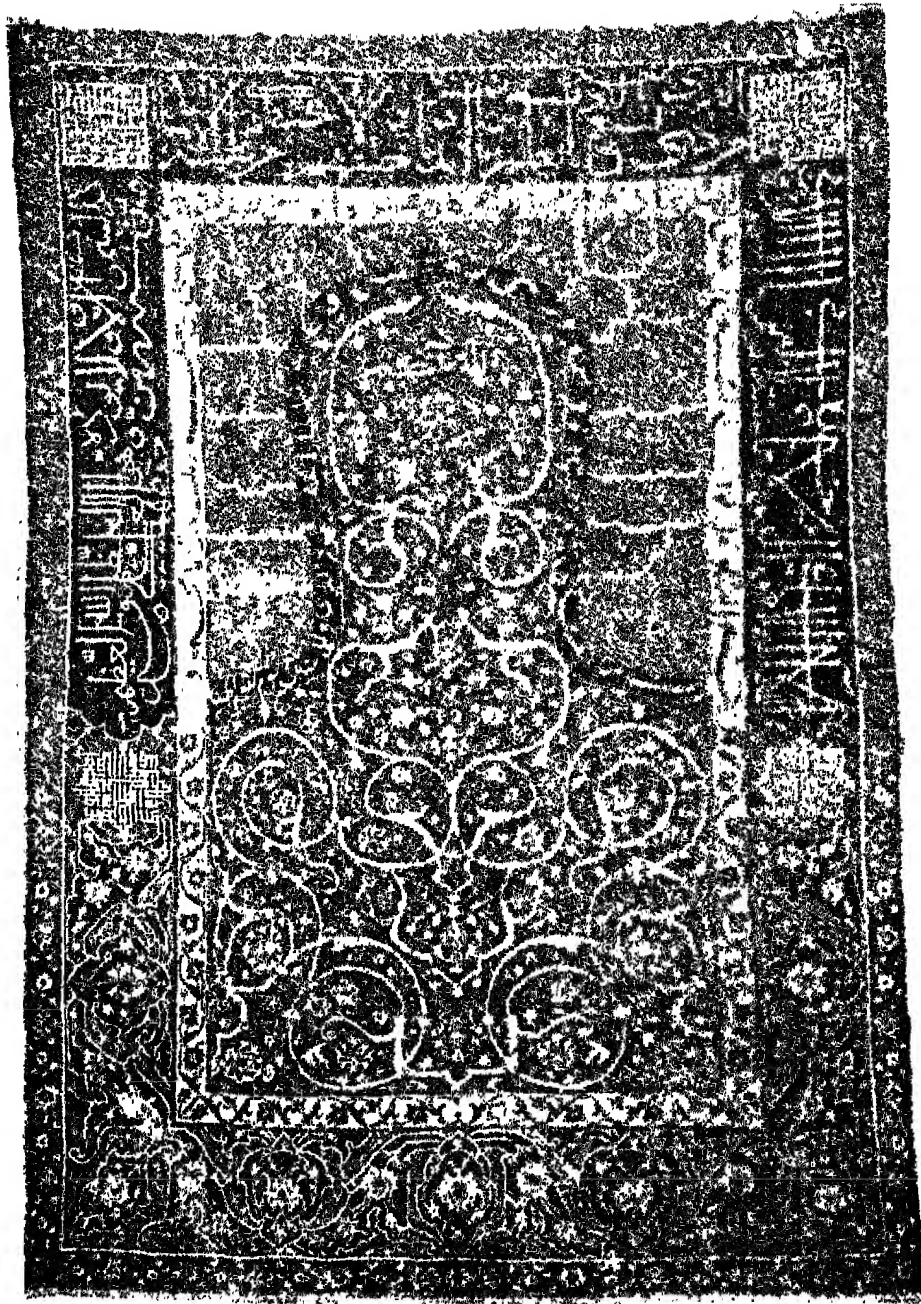
(شكل ٥١) نسيج حرير مملوكى بشارات صينية . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



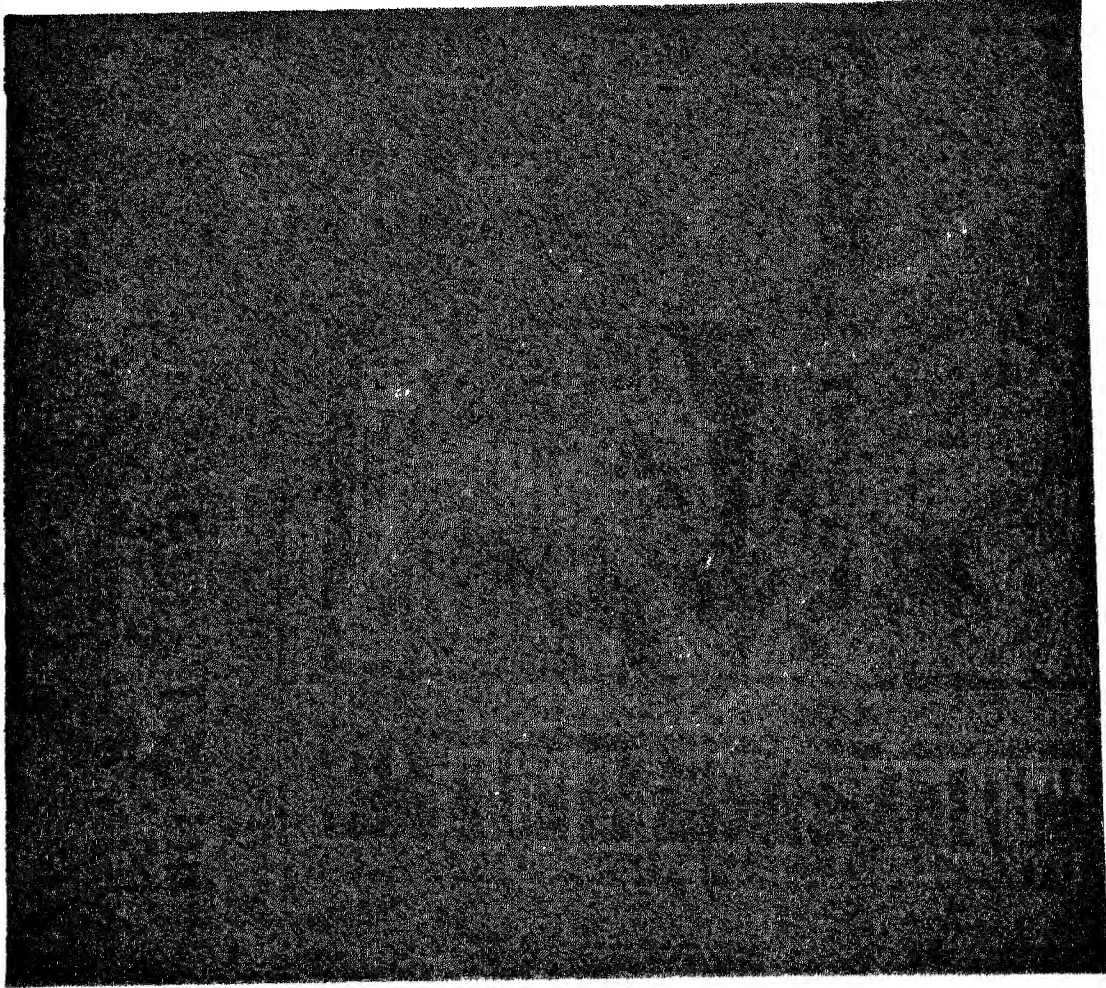
(شكل ٥٢) لوحة من فسيفساء الرخام بقلد الاخشام الصنيه . مصر، القرن ٨ هـ (١٤)



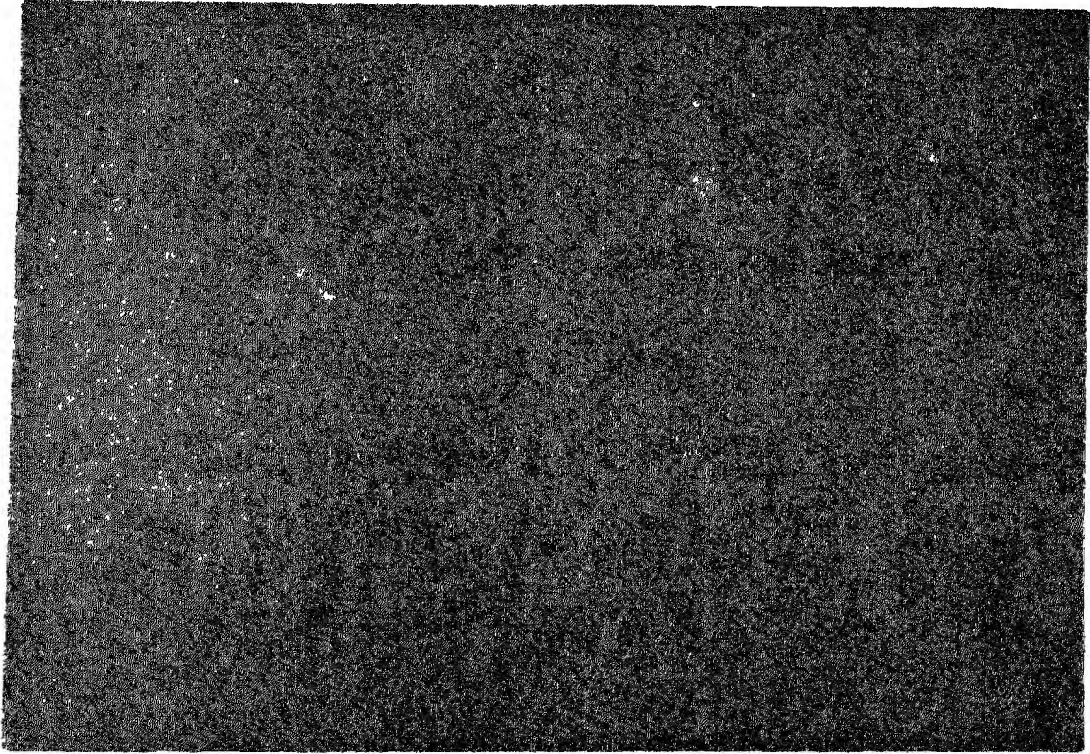
(شكل ٥٣) بلاطة من الخزف المملوكى عليها بوفيع الخزاف غيبى . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



(شكل ٥) سجادة صلاة من الحرير بخيوط معدنية . ايران ، أواخر القرن ١٠ هـ (١٦) .

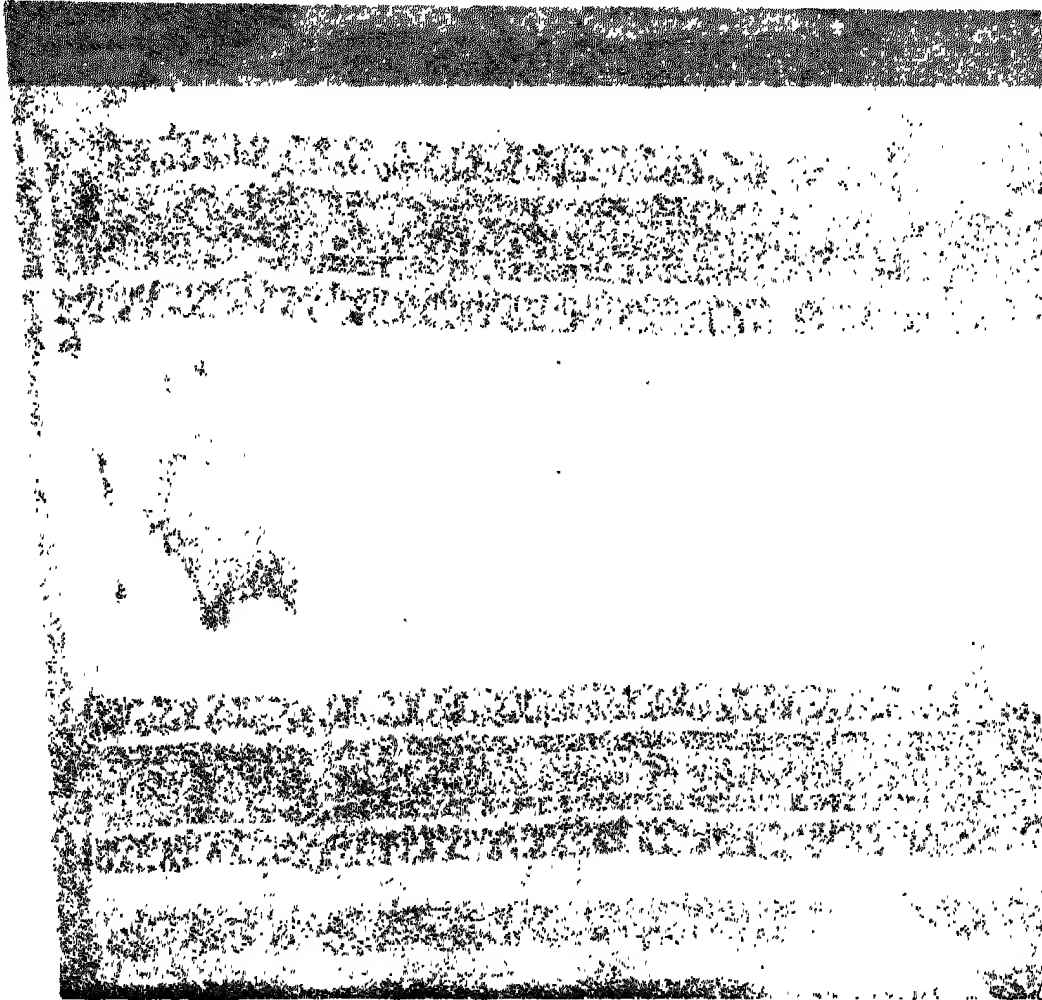


(شكل ٥٥) نسيج من الحرير باسم المائد بختنجين، محفوظ بمتحف اللوفر في باريس . إيران ، توفى المائد بختنجين في سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١)



(شكل ٥٦) نسيج باسم الخادمة المظلمة الخزير نالاه . مصر ، القرن ١٠ هـ (١٠) .

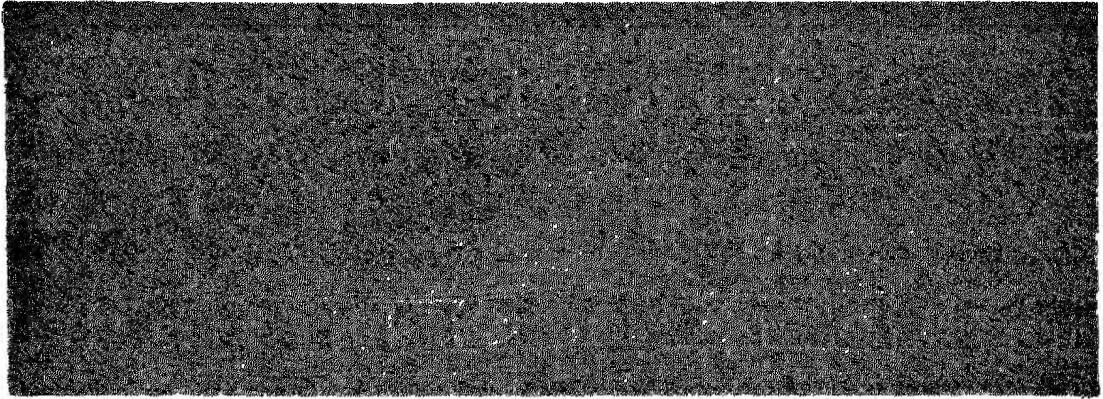
الكتابه العربيه عصر رحرقي



(شكل ٥٧) منديل باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله . مصر ، القرن ١٠ هـ (١٠) .



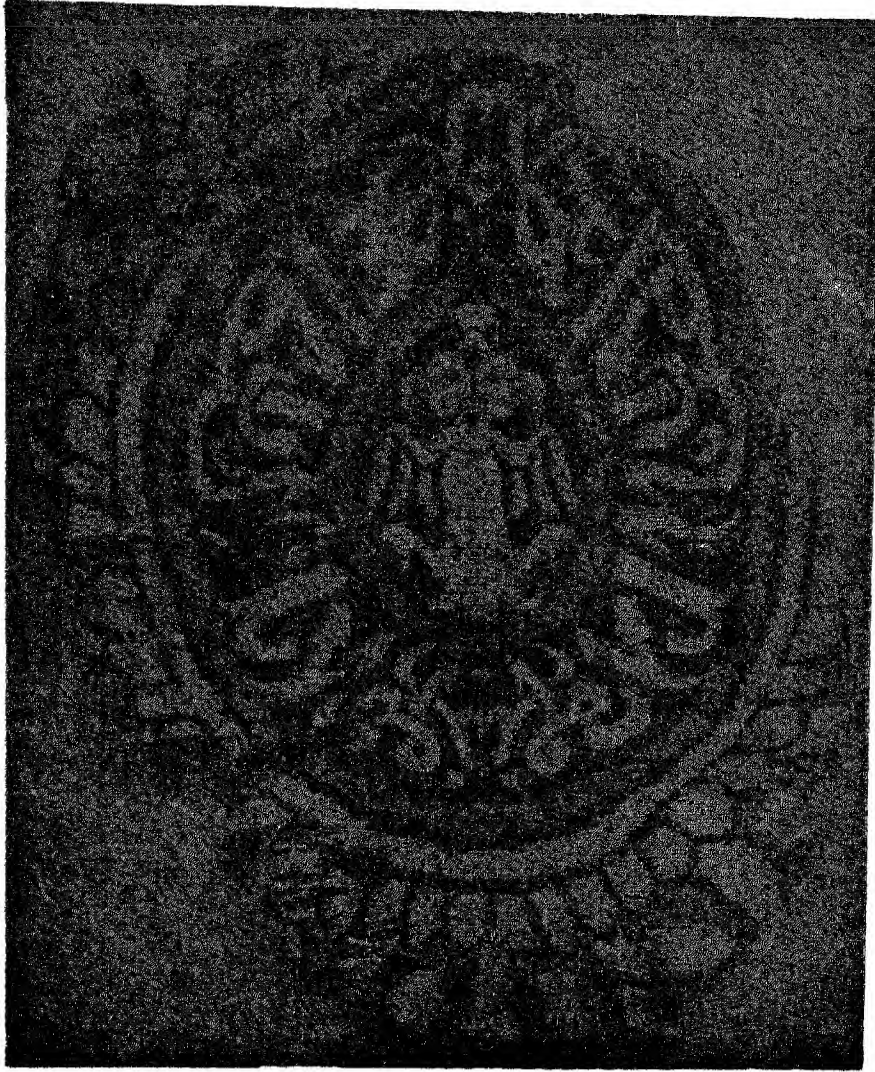
(شكل ٥٨) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمرالله . مصر ، أوائل القرن ١١ هـ (١١) .



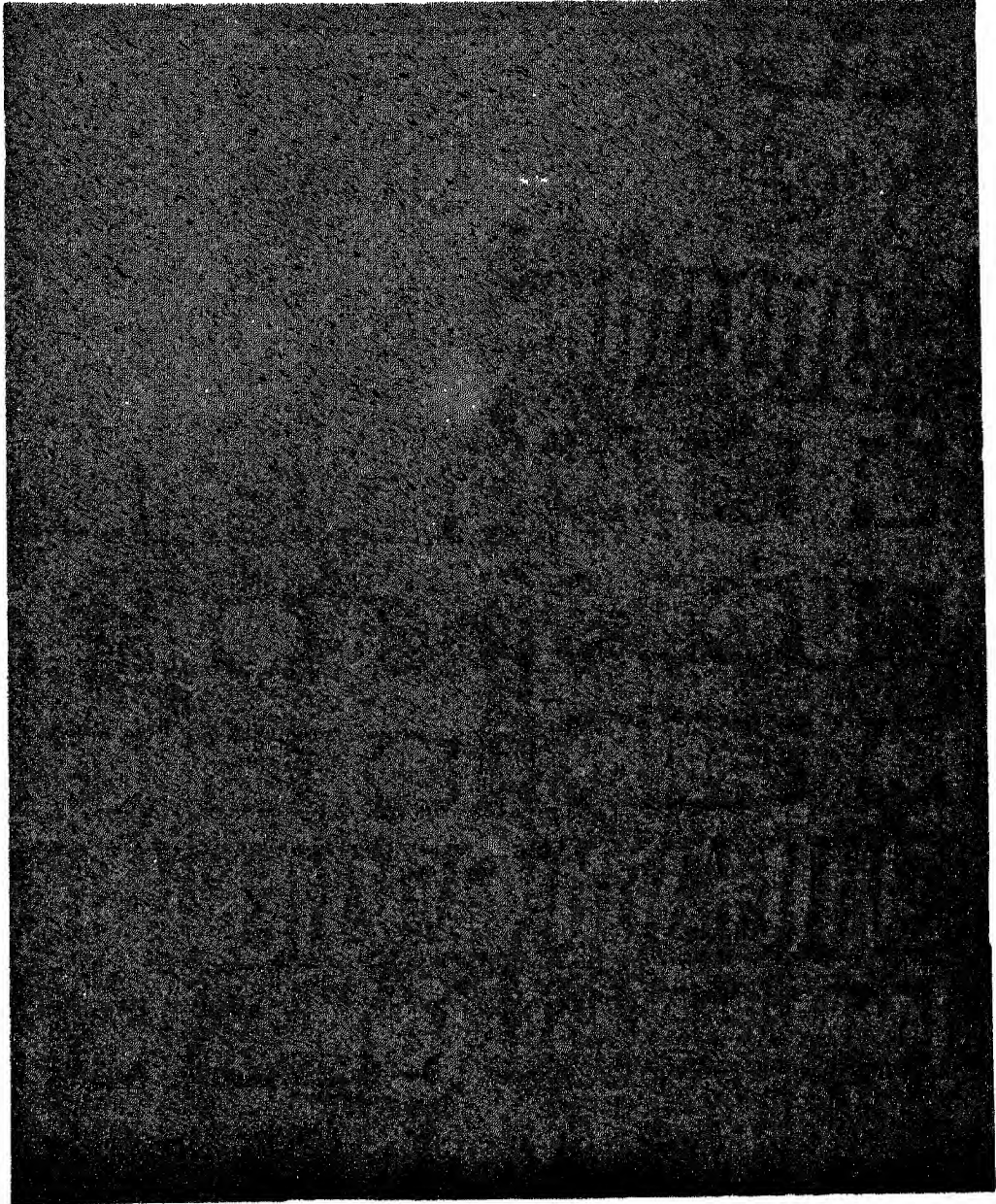
(شكل ٥٩) نسيج باسم الخليفة الفاطمي الامر باحکامدين الله . مصر ، اوائل القرن ٦ هـ (١٢) .



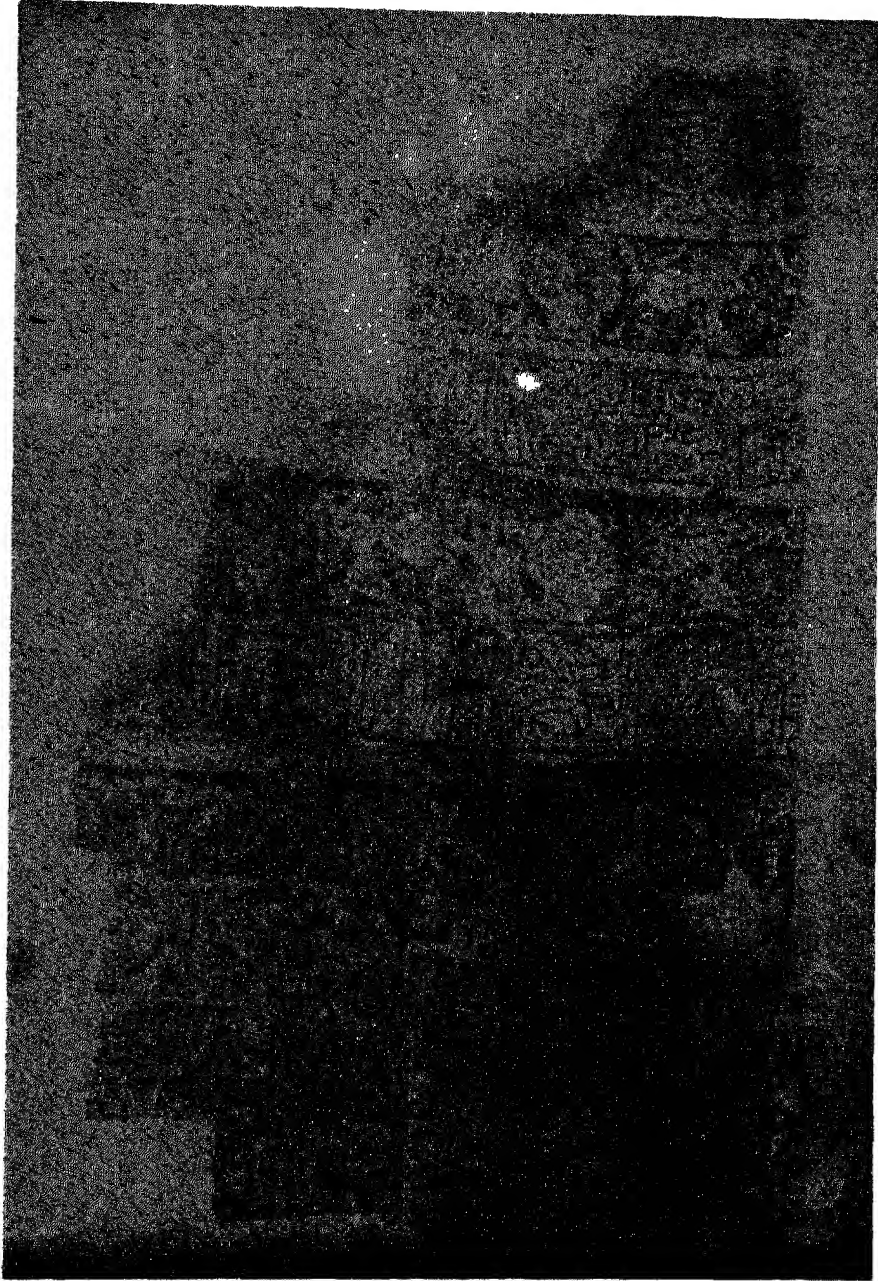
(شكل ٦٠) نسيج حرير مملوكى باسم الملك الناصر . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



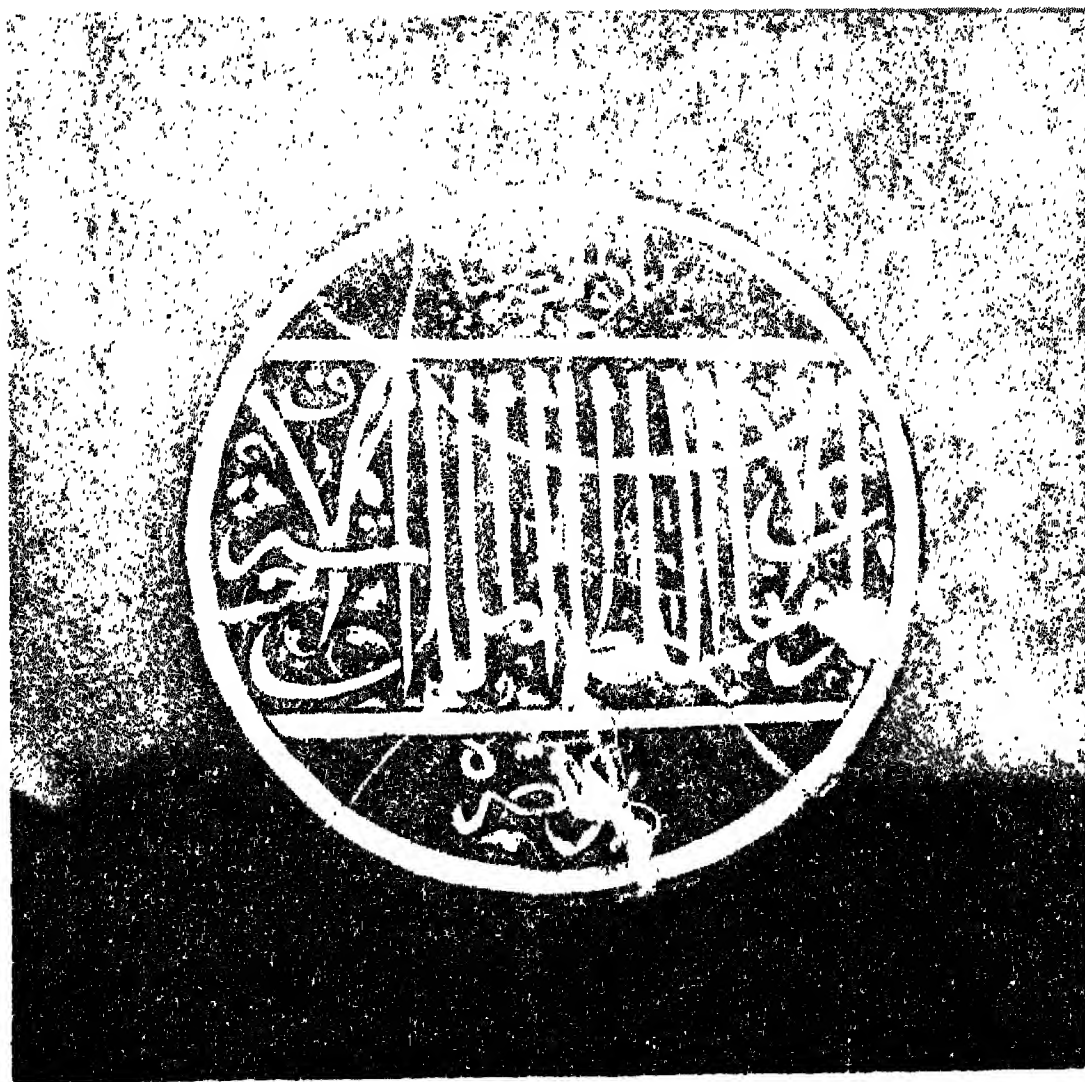
(شكل ٦١) نسيج من الحرير المملوكي عليه كتابة زخرفية ورنك نسر برأسين . مصر ، أوائل القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير الملوكى بكتابة نسخيه وزخارف فى مربعات . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



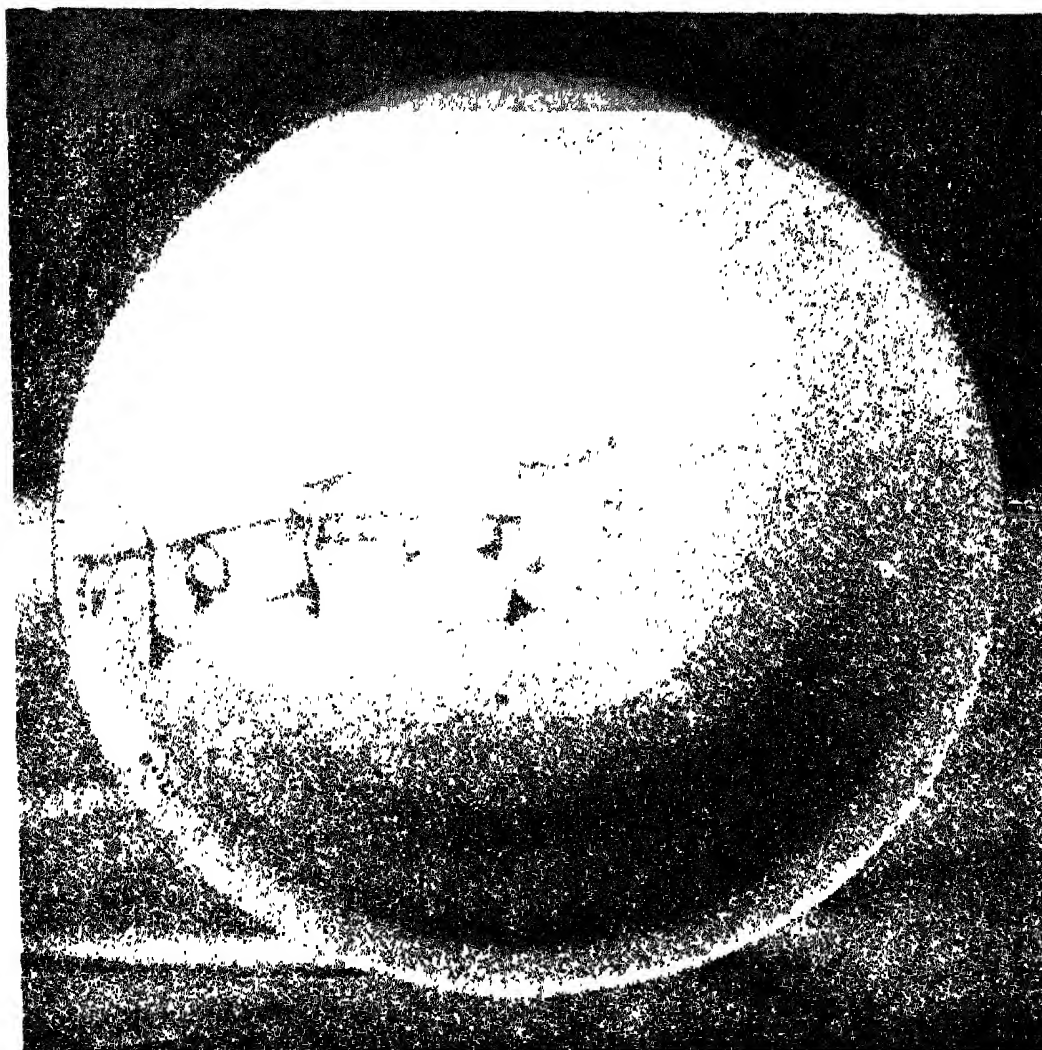
(شكل ٦٣) نسيج من الحرير الملوكى باسم الملك الاشرف . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



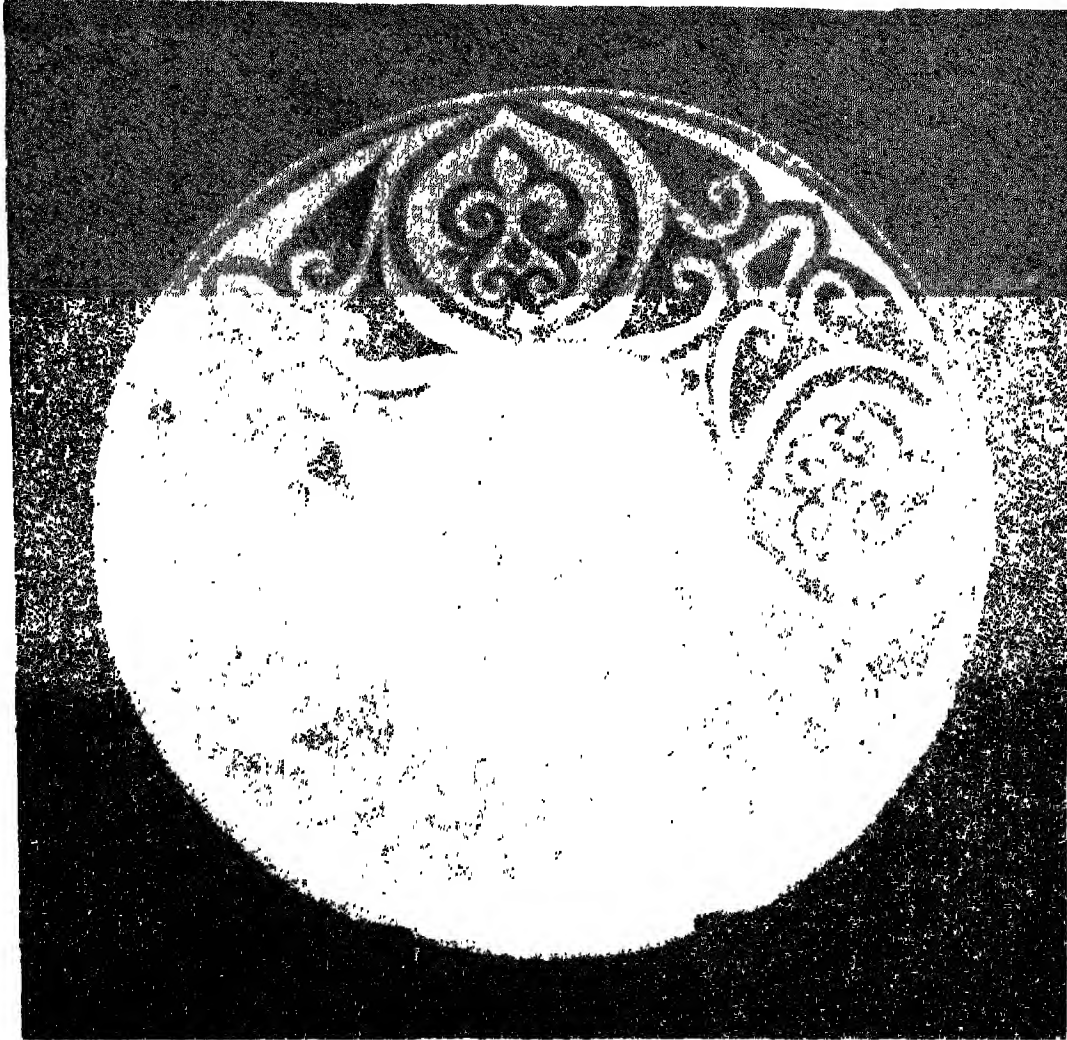
(شكل ٦٤) بلاطة من الخزف المملوكى عبارة عن خرطوش السلطان الاشرف قانصباى . مصر ، القرن ٩ هـ (١٥) .



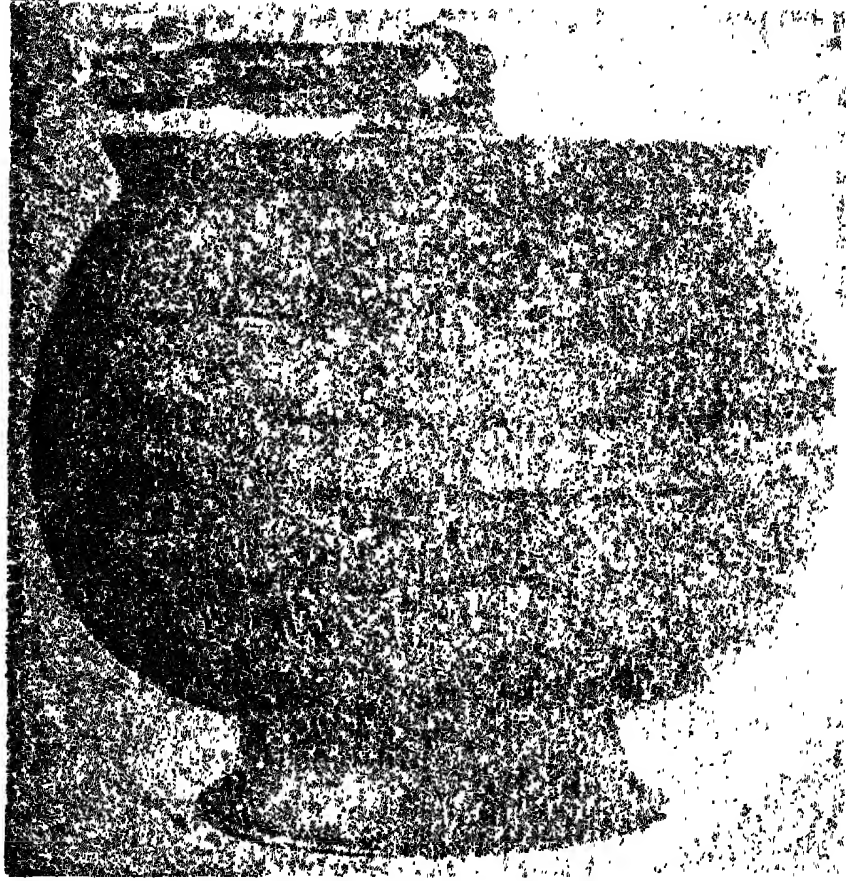
(شكل ٦٥) لوحة من الجص عليها صورة سيدة واسم المصور مفلح ، من حفائر سامرا . العراق ، القرن
٣ هـ (٩)



(شكل ٦٦) صحن من الخزف عليه اسم الخزاف سهيل . ايران ، اوائل القرن ، هـ (١٠) .



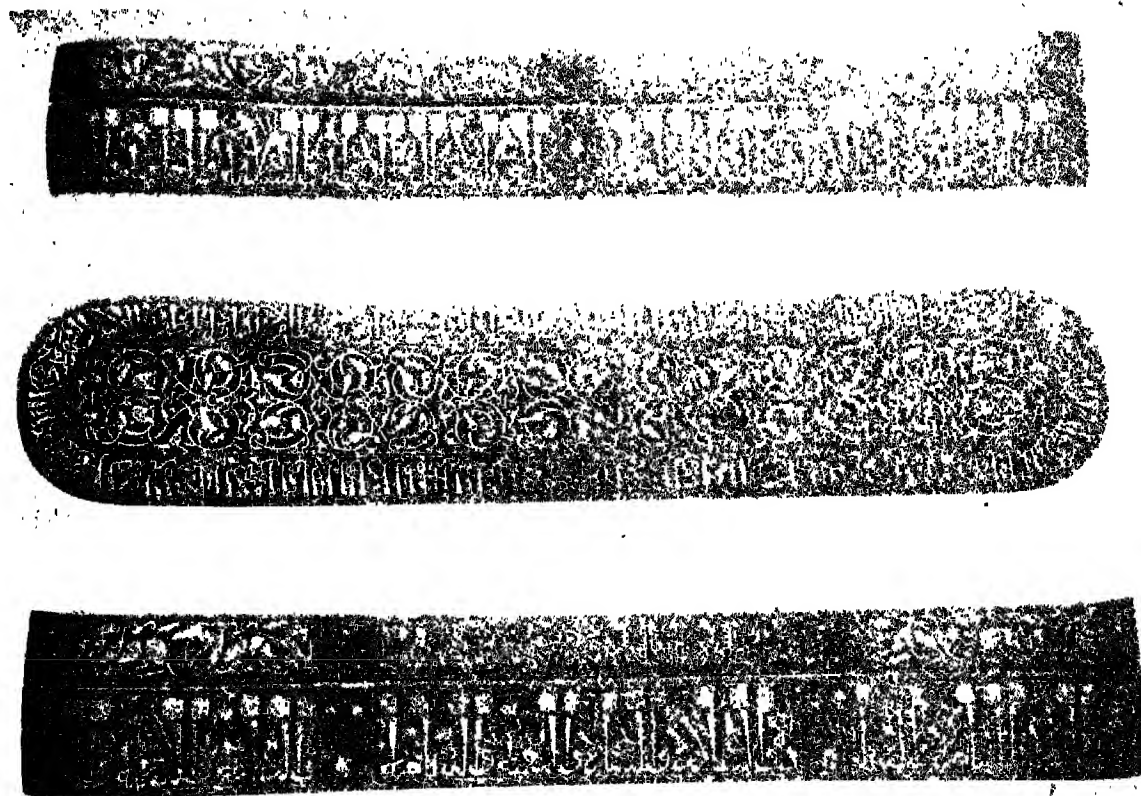
(شكل ٦٧) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، عليه اسم الخزاف مسلم بن الدهان . مصر ، اوائلى القرن ٥ هـ (١١) :



(شكل ٦٨) سطل من البرونز مكثت بالفضا والنحاس ، باسم صاحب عبد الرحمن بن عبدالله الرشودي ، واسم الصانع محمد بن عبد الواحد ، ونقشه حاجب مسعود بن أحمد في مدينة هراة ، أفغانستان ، على المقياس تاريخ سنه ٥٥٩ هـ (١١٦٣) ،



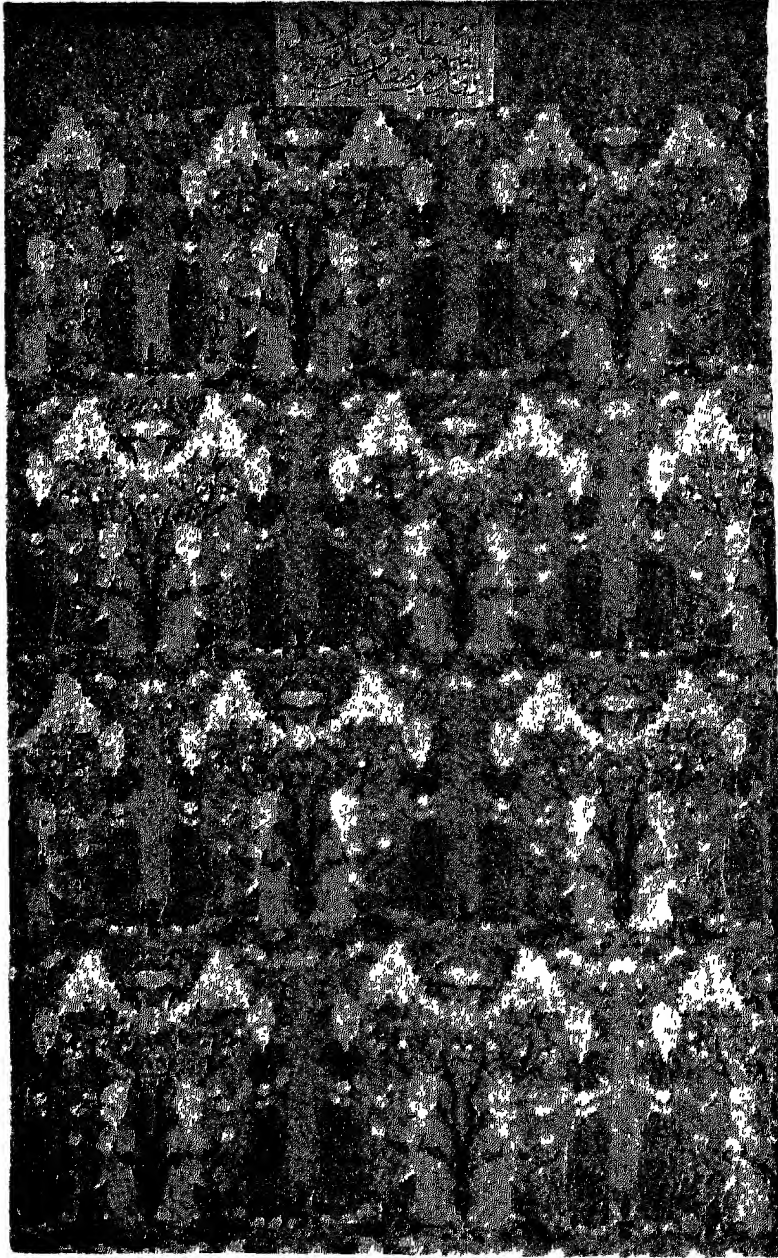
(شكل ٦٩) شمعان من النحاس مكعب بالفضة عليه اسم الصانع محمد بن قنوح الموصلى المظفر أجير
السنجاق الموصلى النفاث مصر ، القرن ٧ هـ - (١٢) .



(شكل ٧) مقلعة من النحاس المكف بالفضة عليها بوضع شادى النقاش ، محفوظة في متحف فرير جالبرى ، بمدينة واشنطن . ايران ، مؤرخ في شهور سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١/١٢١٠) .



(شكل ٧١) مشكاة من الزجاج المموه بالبنا ، باسم الماس حاجب ، وعلى القاعدة توقيع على بن محمد امكي .
مصر ، من مسجد بن بناؤه في سنة ٧٣٠ هـ (١٢٣٠) .

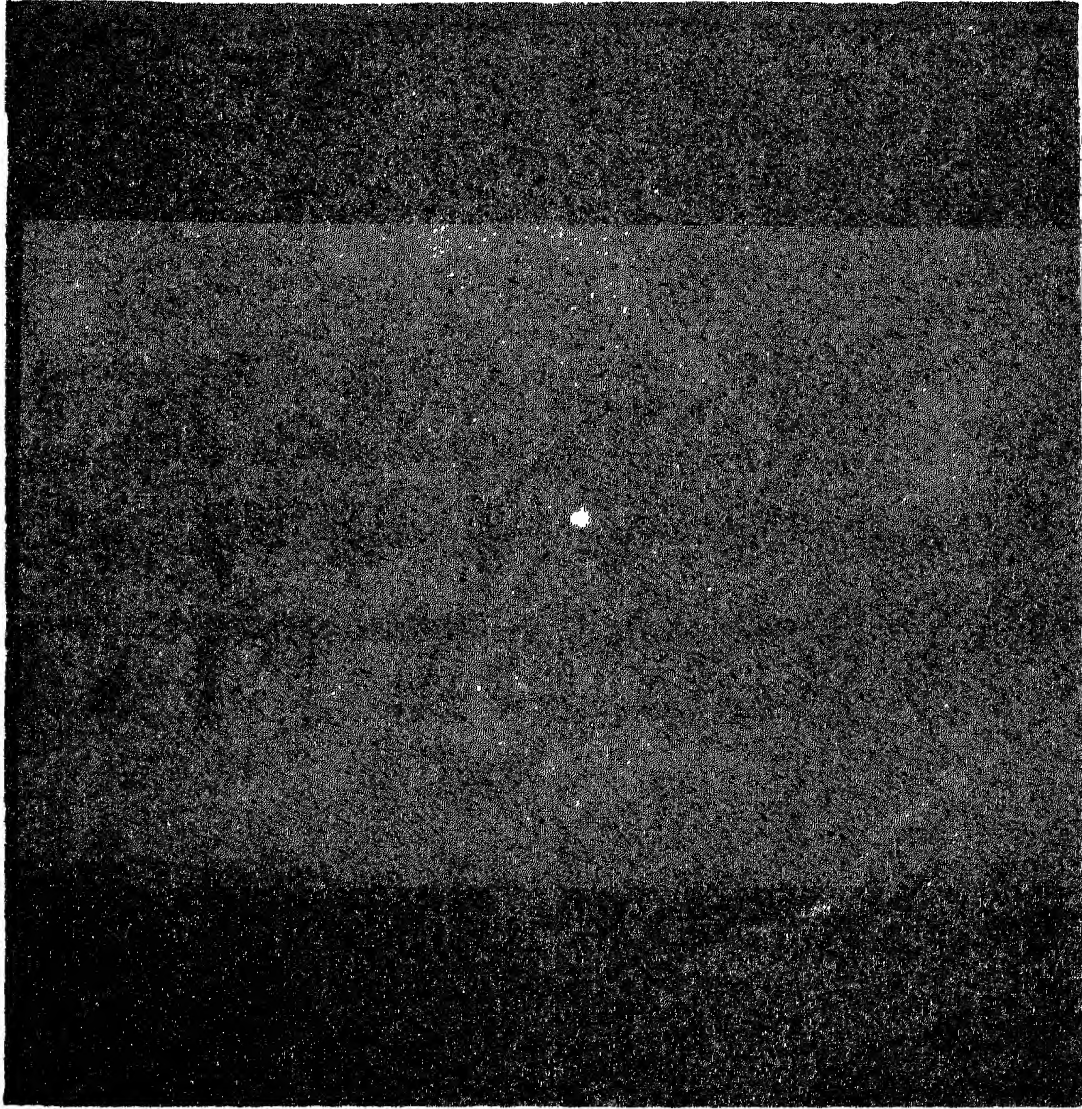


(شكل ٧٢) نسيج من الساتان عليه اسم غلام شهرزاده. سابقا في مجموعة بارس واسن ايران ، مؤرخ سنه ٩٧٩ هـ (١٥٧١)

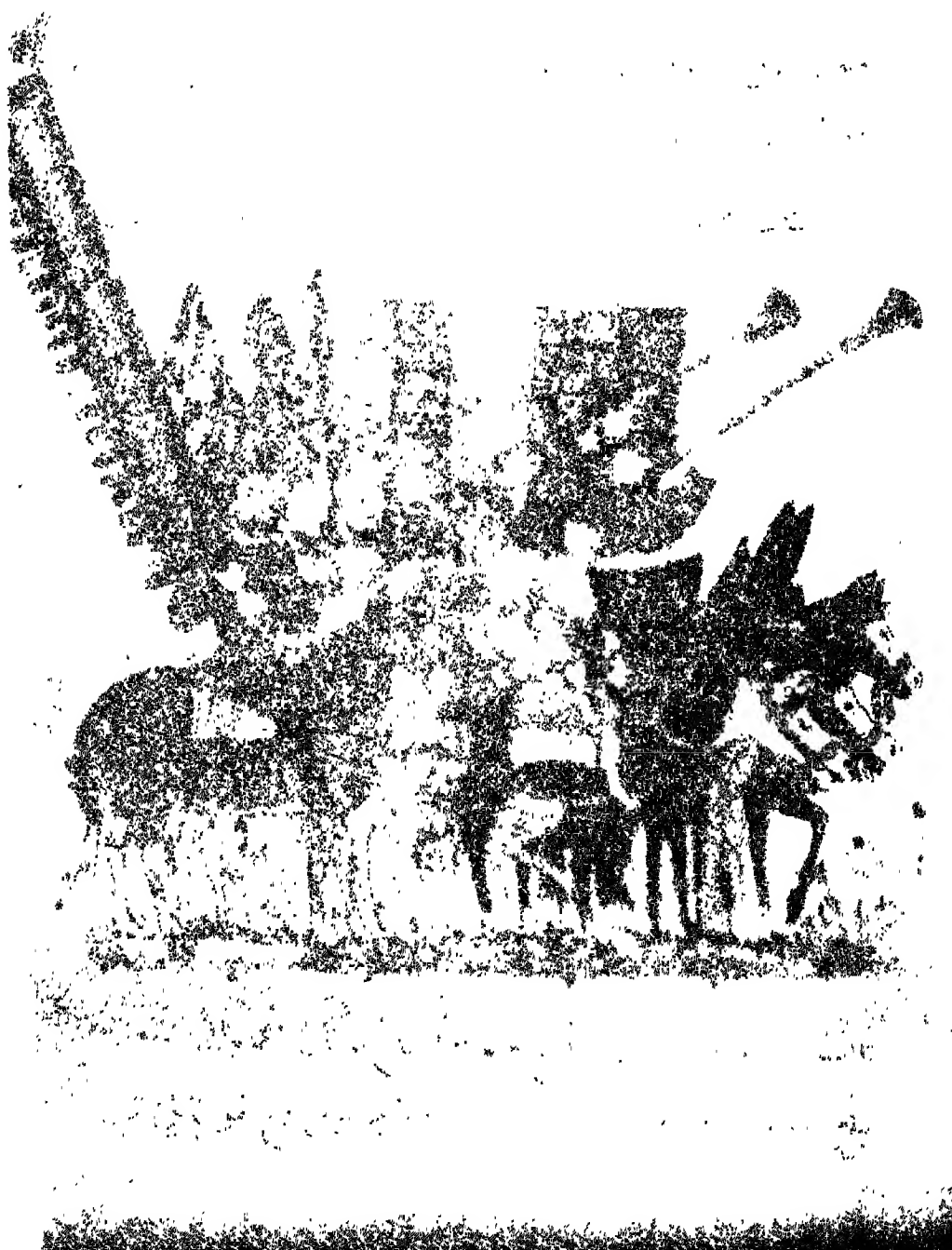
الملك العبد سحر رحره



(شكل ٧٣) نسيج من نوع القبوم ، صنع في طريق الخصاص بمطموذ من كوره القبوم . مصر ، القرن ٤ - (١٠) .



(شكل ٧٤) شريط من النسيج الفاطمي عليه اسم الخليفة الطيع لله ، وصنع بطراز الخاصة بمصر ، على يد فايز مولي أمير المؤمنين . مصر ، حوالي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٤) .



(شكل ٧٥) صورة بوضعية من مخطوط مقامات الحريري للواسطي ، محفوظة في دار الكتب
الاهلية ، في باريس . العراق ، مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧) .



(شكل ٧٦) صورة من مخطوط للشاعر نظامي ، تصوير الفنان
سلطان محمد ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، في لندن - إيران ،
مؤرخ ٩٤٦/٩٤٩ هـ (١٥٤٣/١٥٣٩) .

من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م)
عليها شريط مطرز بوسطه كتابة
دعائية بالخط النسخي ، تقرأ : « سعادة
مؤيدة ونعمة مخلدة » . وتكرر هذه الكتابة
في مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٠٨٥ ،
٢٠٠٤ م سم » .

ومثال آخر السجادة (شكل ٣٨) من نوع
أصفهان من القرن ١٠ هـ (١٦ م) محبشة
بخيوط معدنية وتتألف زخارف اطار السجادة
من جامات ممتدة ، بها أبيات من الشعر ،
باللغة الفارسية تربط بين الوحدات الزخرفية
الاعرى . وفي وسط السجادة زخارف عربية
من فروع وأوراق رشيقة ومتناسقة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٧٦٤ ،
١٣٠٠ م سم » .



وكثيرا ما يملأ الفنانون والخطاطون في البلاد
الاسلامية ، مساحات واشربة بعبارات
وكلمات ، أو بحروف من شبه الكتابة لا رابط
بينها ، ولا معنى لها سوى الغرض الزخرفي
المحض .

ويزخرف قطعة النسيج (شكل ٣٩) وهي
من صناعة اليمن في بداية القرن ٤ هـ (١٠ م) ،
شريط عليه شبه كتابة بالخط الكوفي مطبوعة
بالذهب .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٧٠ ،
٢٦٠٤ م سم » .

وقطعة من نسيج الصوف (شكل ٤٠)
وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ،
وتؤرخ بالقرن ٤ هـ (١٠ م) يزخرفها شريط
عريض ، عليه صور سباع وعناصر زخرفية
اخرى ويحده اطار به حروف من شبه كتابة .

ارانب جبليّة تقفز تحت الخيول . وتزخرف
الارضية بين هذه الوحدات ، كلمات مفردة
تتكرر بالخط الكوفي . وقد عهد الفنان الى
كتابة هذه الكلمات في الاتجاه العادي للكتابة ،
وذلك في القسم الايمن من قطعة النسيج ،
بينما كتبها في القسم الايسر في اتجاه عكسي
مراعاة للتناسق الفني . وكل ذلك امعانا في
تقوية التأثير الجمالي والزخرفي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٨١٧ ،
٢٥٠٢ م سم » .

وعلى قطعة من النسيج من الصوف (شكل
٣٤) ينسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى
ويؤرخ في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، تتألف
الزخارف من سطرين من كتابة دعائية بالخط
الكوفي ، يحدان شريطا به كلاب صغيرة بألوان
متنوعة ، تجرى في اتجاه واحد .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٧٧ ،
٧٠١١ م سم » .

وتؤرخ في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، قطعة من
نسيج الصوف (شكل ٣٥) تنسب الى اقليم
الفيوم بمصر الوسطى ، عليها شريط
عريض به رسوم طيور تذكرنا بالدجاج والحمام ،
ويظهر أن هذا الشريط كان يعلو سطر كتابة
بالخط الكوفي وبالالوان ذاتها .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٢٥٥٦ ،
١٨٠٢ م سم » .

والقدر من الخزف من نوع الفيوم (شكل
٣٦) ، يؤرخ في أواخر القرن ٥ هـ (١١ م) ،
وعليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها
كلمات دعائية بالخط الكوفي تقرأ « بركة كاملة » .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٨٠ ،
ارتفاع ٢٩ م سم » .

كما نجد مناطق بها كتابات دعائية بالخط
النسخي على قطعة من النسخي (شكل ٣٧)

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٠٥٠ ،
٢٦٢×١٣٠ سم » .

وشبه كتابة من الخط الكوفى ، نراها
تزخرف قطعة من النسيج (شكل ٤١) من
صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، اى
من العصر الفاطمى . وعلى الشريط الاوسط
العريض مناطق تضم احداها ارنبا جبليا ،
والى اليمين جزء من منطقة اخرى من بقية
رسم شجرة . وفى اعلى هذا الشريط ، وايضا
فى اسفله سطر من شبه كتابة بحروف بالخط
الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٤ ،
٢٦٦×٢٢ سم » .

وتوجد تحف كثيرة من الخزف من صناعة
مصر فى العصر الفاطمى ، استعمل الخزافون
الكتابة العربية بمهارة فائقة لزخرفتها فى نفس
اسلوب الزخارف المستعمل فى الخزف ذى
البريق المعدنى .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى
(شكل ٤٢) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ
(١١ م) ، تزخرفه ثلاث اوراق نخيلية .
وهو عنصر زخرفى شاع فى العصر الفاطمى .

وبين هذه الاوراق الثلاث اشكال بيضوية
لها طرف مدبب تضم شبه كتابة بالخط الكوفى
على ارضية من فروع نباتية ملتفة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٦٩ ،
٢٤ سم » .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى
(شكل ٤٣) من القرن ٥ هـ (١١ م) ، فى
الوسط رسم ارنب محفوظ بالابيض على
ارضية بالبريق المعدنى ، وعلى الحافة زخرفة
متكررة من حروف كبيرة بالخط الكوفى ، لا
معنى لها ، ولا دلالة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٠٦ ،
قطر ٢٧ سم » .

ونرى زخرفة مماثلة من ارنب جبلى
محفوظ بالابيض على ارضية بالبريق المعدنى ،
على صحن (شكل ٤٤) من القرن ٥ هـ (١١ م)
ويحيط به شريط من شبه كتابة بحروف
بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٦٧ ،
قطر ٢٩ سم » .

والزخرفة بشبه كتابة ، نراها ايضا على
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل
٤٥) من القرن ٥ هـ (١١ م) فى شكل اشربة
تحيط برسم حيوان خزافى مجنح له رأس
نسر وجسم شبع (جريفون) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٧ ،
قطر ١٨ سم » .

وعلى صحن آخر من الخزف ذى البريق
المعدنى (شكل ٤٦) من صناعة مصر فى القرن
٥ هـ (١١ م) نرى صورة طاووس ، تحيط
به حروف متكررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٩ ،
قطر ٢٩ سم » .

وايضا من صناعة مصر فى العصر الفاطمى
صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل
٤٧) من القرن ٥ هـ (١١ م) . عليه رسم
شخص جالس يبدو انه قسم من مناظر فى
حفل طرب وشراب وعلى جانبيه دورقان
للشراب ويمسك بيده كأسا ويحيط به شريط
به شبه كتابة من حروف متكررة بالخط
الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٥ ،
قطر ٢٧ سم » .

ونلاحظ ان الكتابة العربية استعملت ايضا
بنفس الاسلوب كعنصر زخرفى على التحف

يرونها على انواع التحف الفنية والبورسلان والسيلادون ، مما كان يستورد مباشرة من الصين الى مصر وبلاد الشرق الاوسط ، ولا سيما فيما بعد القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وكان ينقل من الصين عبر طريق التجار القديم الى بلاد الشرق الاوسط ، حيث كان الفنانون يستوحون العناصر الزخرفية الصينية في أعمالهم الفنية .

ويبدو أن قطعة الديباج (شكل ٥١) من صناعة الصين في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، وتتألف الزخرفة من مراوح بشكل طبيعي وأغصان مرسومة بشكل طبيعي ايضا بالاسلوب الصيني التقليدي . وتزخرف كل مروحة نخيلية شبه كتابة بحروف بزوايا قائمة لتقليد الكتابة الصينية وفي الوقت نفسه لكى تشبه الكتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٧ ، ٢٩×٣١ سم » .

واستوحى الفنانون في البلاد الاسلامية ما راوه من الاختام التجارية ، والكتابات الصينية فمزجوا بينها وبين زخارف ما انتجوه من تحف فنية بطريقة زخرفية محورة .

ومثال لذلك لوحة مثمثة الشكل من الفسيفساء (شكل ٥٢) . من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف زخرفتها من كتابة عربية مكتوبة بطريقة زخرفية ، بزوايا قائمة تقليدا للاختام التجارية الصينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٩٧ ، ٥٤×٥٤ سم » .

ومثال آخر لهذا النوع من الكتابة الزخرفية ، نجده على بلاطة من الخزف (شكل ٥٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) . ملأ الفنان سطح هذه البلاطة بكتابات عربية ، للغرض الزخرفي المحض . فنرى عليها في الوسط كتابة بالخط النسخي،

الایرانیة كما نراه على صحن من الخزف صناعة ایران (شكل ٤٨) من القرن ٤ هـ (١٠ م) . وفي وسط الصحن شكل مربع مرسوم بخطوط باللون الازرق الكوبالت ويضم شبه كتابة بالخط الكوفي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٣ ، ١٨×٢ سم » .

• • •

ولم يكن الخزافون وحدهم هم الذين أوحى اليهم العنصر الزخرفي للكتابة العربية بنماذج جديدة فنية ، بل ان التأثير الزخرفي للكتابة العربية قد تأثرت به صناعة المنسوجات والبسط والسجاد .

فاننا نرى في النوع المعروف بسجاد « هولباين » (شكل ٤٩) من صناعة آسيا الصغرى في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ان الاطار مزخرف بنوع من شبه حروف كتابية كوفية متشابكة باللون الابيض . وهذا النوع من سجاد آسيا الصغرى نجده مرسوما في لوحات عدد من المصورين الايطاليين والالمان في القرنين ٩ هـ ، ١٠ هـ (١٥ / ١٦ م) . ولا سيما في لوحات المصور هانس هولباين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٦١٣ ، ١٥٢×٢٠٠ سم » .

وعلى قطعة من الديباج بخيوط من الفضة (شكل ٥٠) من صناعة سوريا في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ، رسم الفنان أربعة عقود ، تركز على أعمدة ، تتدلى من كل عقد مشكاة تزخرفها شبه كتابة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٢٠٢١ ، ٦٦×١١٥ سم » .

• • •

كما عمل الفنانون في البلاد الاسلامية على تقليد العناصر الزخرفية الصينية ، التى كانوا

تنتهى حروفها بأشكال مجدولة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة أخرى بالخط الكوفي الزخرفي . وفي الأركان توقيع الخزاف المصرى المشهور « غيبى بن التوريزى » وقد قصد فى أسلوب كتابته أن يقلد به توقيعات الخزافين الصينيين على الاختتام التجارية وعلى منتجاتهم من البورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد الى مصر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٧٧ ، ٤٤×٤٤ سم » .

وعلى سجادة صلاة من الحرير (شكل ٥٤) من صناعة إيران فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ترى فى الركنين العلويين كتابة زخرفية لتقليد الكتابة الصينية وبينهما فى القسم العلوى من السجادة شريط من كتابة قرآنية منسوجة ، بالخط النسخي .

« موسوعة الفنون الإيرانية لوحة رقم ١١٦٥ ، متحف الجزيرة بالقاهرة ، ١٦٢×١٠٧ سم » .

●●●

ومن الطبيعى ان تضم الكتابات على التحف الفنية ، اسم صاحب التحفة او اسم من اقتناها ، مع التمنيات الطيبة والدعوات والبركات لصاحبها . ومن البديهي ايضا ان يذكر فى نصوص الكتابة اسم الفنان صانع التحفة ، وتاريخ صنعها ، واسم البلد الذى صنعت فيه .

وتوجد قطعة من نسيج الحرير ، على سداة من الصوف (شكل ٥٥) من صناعة إيران عليها كتابة دعائية بأسلوب الخط الكوفي ، وتحمل اسم القائد الأعلى لخراسان « أبو منصور بختاجين » . ومن المعروف انه توفى سنة ٣٩٤ هـ (٩٦١ م) ، مما يؤرخ هذه القطعة من النسيج الى هذا العصر . وتزخرف هذه القطعة رسوم قلة تحمل محفات .

« متحف اللوفر ، في باريس ، ٩٢×٥٤ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٦) من صناعة مصر ، نرى عليها شريط به جامات متجاورة بكل منها صورة بطة ويحد هذا الشريط سطران من كتابة دعائية بالخط الكوفي ، باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أواخر القرن ٤ هـ (١٠ م) .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٥ ، ٢٢×٣٥ سم » .

وقطعة أخرى باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله هى عبارة عن منديل مربع من الحرير (شكل ٥٧) عليه زخرفة مطرزة من أسطر كتابة بالخط الكوفي تكرر اسم « العزيز بالله » . والاشربة الزخرفية تحتوى على رسوم طيور تجرى متتابعة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٤ ، ٤٠×٤٠ سم » .

ومن القرن ٥ هـ (١١ م) قطعة من النسيج (شكل ٥٨) عليها سطران من كتابة دعائية بخط كوفي جميل باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٣١٧٤ ، ١١٠×٥٢ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٩) منسوجة بخيوط من الذهب شريط به جامات تضم طيوراً ويحد الشريط على كل من جانبيه سطر كتابة كوفية دعائية باسم الخليفة الفاطمى « الأمر بأحكام دين الله » ، الذى تولى الحكم فى مصر فى أوائل القرن ٦ هـ (١٢ م) . وتنتهى حروف الكتابة بمربعات بها عناصر زخرفية .

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٥٠١٩ ، ٤٠×١٠٠ سم » .

ومن القرن ٨ هـ (١٤ م) ، قطعة من

الكتابة العربية منصر زخرفي

وقد تولى الحكم في مصر في النصف الثاني من القرن ٩ هـ (١٥ م) .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٣٢٦٥ ، قطر ٣٠ سم » .

ونجد توقيعات واسماء الفنانين على التحف الفنية ، منذ بداية العصر الاسلامي .

فنرى على اجزاء من اعمدة القصور من مدينة سامرا صوراً متنوعة على احداها (شكل ٦٥) صورة سيدة يعلوها توقيع الفنان « مفلح » مكتوب بحروف بالخط الكوفي البسيطة .

« ارنست هرتسفلد : التصاوير من مدينة سامرا . ١٩٢٧ لوحة ٦٧ » .

والزخرفة الوحيدة على صحن من الخزف (شكل ٦٦) من صناعة ايران في القرن ٤ هـ (١٠ م) ، عبارة عن اسم الفنان « سهيل » مكتوب بالخط الكوفي البسيط .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٥ ، قطر ٢٣ سم » .

وعلى صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٦٧) نرى في الوسط رسم حيوان خرافي مجنح « جريفون » يتدلى من فمه فرع نباتي . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من اوراق نباتية ملتوية ومدببة الاطراف ، والى جانب احداها توقيع الخزاف الشهير « مسام بن الدهان » ، الذي اشتهر بصناعة الخزف ذي البريق المعدني في مصر اوائل القرن ٥ هـ (١١ م) .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٠ ، قطر ٣٤ سم » .

ويوجد سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس الاحمر (شكل ٦٨) . عليه اشربة

نسيج الحرير (شكل ٦٠) ، على الشريط الاوسط منها رسوم حيوانات ترى منها سبعة يفترس غزالا . والشريطان الاخران بهما كتابات دعائية باسم السلطان المملوكي « الناصر » .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٩٩٥١ ، ٣٦×٥٢ سم » .

وقطعة اخرى من نسيج الحرير (شكل ٦١) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) ، عليها ايضا كتابة دعائية باسم السلطان الناصر .

ونلاحظ ان الكتابة ، في القسم الايسر من قطعة النسيج تتجه اتجاهها صحيحا ، بينما في القسم الايمن نرى ان الكتابة تتجه اتجاهها عكسيا امعانا في ابراز التناسق الزخرفي ، وفي الوسط يوجد رنك به نسر ناشر جناحيه .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٢١٣٩ ، ١١×١٤ سم » .

وباسم احد سلاطين المماليك ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٢) من صناعة مصر ، في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها اشربة بها كتابات دعائية بالخط النسخي .



« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٢٦٦٧/١ ، ١٤×١٢ سم » .

وعصر المماليك ايضا ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٣) من صناعة مصر في القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها اشربة زخرفية بها كتابات دعائية باسم السلطان الاشرف ، وتتابع هذه الاشربة مع اشربة اخرى بها رسوم غزلان .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ١٥٥٥٤ ، ٢٢×٣٥ سم » .

والبلابة من الخزف (شكل ٦٤) من صناعة مصر وهي عبارة عن « خرطوش » يحمل اسم السلطان الاشرف « قايتباي »

زخرفية، عليها مناظر تمثل حياة الترف والطرب والموسيقى في القصور . والاشربة الزخرفية تتابع معها ثلاثة أسطر كتابة ، الاوسط منها بالخط الكوفي والاخران بالخط النسخي . ويقرأ من هذه الكتابات ان السطل صنع بناء على طلب من عبد الرحمن بن عبد الله ، من عامل صانع النحاس محمد بن عبد الواحد . وتنص الكتابة على ان زخارف التكفيت من عمل مسعود بن أحمد ، بمدينة هراة في أفغانستان ، وعلى المقبض تاريخ سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م)

« متحف الهرميتاج ، في ليننجراد . ارتفاع ١٩ سم » .

من نفس الاسلوب شمعدان من النحاس مكفت بالفضة ، نرى منه تفاصيل في (شكل ٦٩) . ويؤرخ هذا الشمعدان بالنصف الثاني من القرن ٧ هـ (١٣ م) . ونرى عليه اشربة زخرفية بها مناظر تمثل الحياة في البلاط . وفي الاوسط جامعة تضم صورة صياد يركب على جواد ، يتعقبه دب . وبين أرجل الجواد كلب صيد وأرنب جبلي . والجامات الزخرفية تقطع سطر كتابة وتقسمه الى مناطق تملأها كتابات بالخط النسخي أو بالخط الكوفي الزخرفي المجدول . وهناك سطر كتابة آخر تنص على الشمعدان صنعه الحاج اسماعيل ، وزخرفه محمد بن فتوح الموصللي ، أجير الشجاع الموصللي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢١ ارتفاع ٣٤ سم وقطر القائمة ٣١ سم » .

والقلمنة من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٧٠) عليها كتابات بالخط النسخي . وعلى القسم الاسفل ، كما نرى في الصورة ، كتابة بالخط الكوفي تنص على ان القلمنة صنعها الكفتي شادي في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠) .

« متحف فريد جاليري ، في واشنطن ، طول ٢١ سم » .

والمشكاة من الزجاج الموه بالمينا ، المتعددة الالوان (شكل ٧١) عليها كتابة بالخط النسخي ، تنص على انها صنعت لمسجد أقامه ألماس احد افراد ممالك السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد بني هذا المسجد في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وعلى قاعدة المشكاة ، بالخط النسخي أيضا توقيع الصانع علي بن محمد أمكي .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٢١٥٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر ٢١ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٧٢) كتابة تنص على ان هذه القطعة نسجت للمكان المقدس ، وان ناسجها هو شولان شير زادة ، في سنة ٩٧٩ هـ (١٥٧١) . وأسفل الكتابة منظر لامير في حديقة ويركع امامه احد أتباعه .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٠٢٩ » ،

« مجموعة باريس واتسون سابقا طول ٣٢ سم » .

وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٧٣) من القرن ٤ هـ (١٠ م) عليها كتابة تنص على انها نسجت في طراز الخاصة بمطموور من كورة الفيوم ، مما نلاحظ اثره في الاسلوب الريفي الجذاب في رسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفي ، وفي أسلوب الكتابة أسفل ذلك ، وكل ذلك بالوان متعددة .

« متحف الفن الاسلامي ، بالقاهرة رقم السجل ٩٠٦١ ، ٢٧×٢٧ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان بخيوط ذهبية (شكل ٧٤) شريط زخرفي في الاوسط ، عليه رسوم أغنام تجري في اتجاه واحد . ويحد هذا الشريط سطر كتابة ، تنص على

مرة للقتال ، فاستوقفته امرأة عجوز لتشكي له أن أحد عساكره قد سرق منها حاجة — وقد أظهر السلطات امتعاضه لأنها استوقفته لصغائر الامور أثناء خروجه للقتال ، فسألته العجوز ، كيف يستطيع أن يفتح بلادا اجنبية وهو يعجز عن حفظ النظام في بلده ، وقد رسم المصور « سلطان محمد » هذه المنمنمة بمهارة فائقة ، واستطاع ان يخلق التناسق الجميل بين أبيات الشعر الفارسية التي كتبها بالخط العربي وبين مناظر القصة . وهذا المخطوط مؤرخ بين سنتي ٩٤٦/٩٤٩ هـ (١٥٤٣/١٥٣٩) .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٨١٦ » ،
« المتحف البريطاني ، في لندن » .

● ● ●

وهكذا نرى ان الكتابة العربية تستعمل في زخرفة التحف الفنية وتزيينها في جميع البلاد الاسلامية ، ولا غرابة في ذلك ، فان المسلمين في أنحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية، كما كانت جميع الشعوب الاسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها . بل كما بقيت كتابة النصوص التاريخية تكتب على المباني والعمائر باللغة العربية الى عهد قريب في كل هذه البلاد حتى ولو لم تكن لغة البلد هي العربية مثل ايران وتركيا .

أن هذه القطعة نسجت في طراز الخاصة بمصر للخليفة العباسي المطيع بالله ، تحت اشراف فايز مولى أمير المؤمنين . والمعروف ان الخليفة المطيع بالله توفي سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤) .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٠٨٢٧ ،
٢٨×١٣ سم » .

● ● ●

واستعمل مصورو المنمنمات الكتابة العربية لزخرفة لوحاتهم . ومثال لذلك منمنمة (شكل ٧٥) من مخطوط مقامات الحريري ، وهو مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) وقد كتبه الخطاط والمصور الشهير « الواسطي » . وتمثل هذه المنمنمة جماعة من الاشخاص يحتفلون بانقضاء شهر رمضان ، وبداية عيد الفطر . وهم ينفخون في ابواق ويحملون رايات ، ويلوحون باعلام تزخرفها حروف كتابة بالخط الكوفي .

« دار الثب الاهلية في باريس ، ٣٠٠٢×٢٢٨ سم » .

وعلى منمنمة أخرى (شكل ٧٦) من مخطوط للمنظومات الخمسة للشاعر نظامي . وقد استعمل الفنان مناطق بها اشعار ليخلق التناسق في التكوين الفني . وهذه المنمنمة من عمل المصور « سلطان محمد » أحد تلاميذ المصور بهزاد . وهي تصور قصة من حياة السلطان السلجوقي سنجر ، عندما خرج

★ ★ ★

بعض المراجع

- مصطف السطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة .
- يوسف احمد ، الخط الكوفي ، الرسالة الثانية ، القاهرة ١٩٣٤ .
- جاستون فييت ، القيمة الفنية للكتابة العربية ، مجلد الموط ، الجزء الثاني من السنة الثالثة - المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٣٨ .
- محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط ، تاريخ الخط العربى وآدابه ، القاهرة ١٩٣٩ .
- محمد فريب العربى ، الخط الديوانى .. كيف ظهر ؟ في مجلة مدرسة تحسين الخطوط الملكية ، القاهرة ١٩٤٣ .
- زكى محمد حسن ، الزخارف الكتابية في الفن الاسلامى ، مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٦ .
- ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . سلسلة « اقرأ » العدد ٥٣ - ابريل ١٩٤٧ .
- م.س. ديماندا ، الفنون الاسلامية ، الترجمة العربية لاحمد محمد عيسى ، راجعها احمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٤ .
- محمد مصطفى ، الكتابة العربية عنصر زخرفى مجلة « المجلة » العدد الثانى ، القاهرة فبراير ١٩٥٧ .
- محمد مصطفى ، روائع من التحف الاسلامية ، من محاضرات المؤتمر الثانى للآثار في البلاد العربية (بغداد ١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) . فصل من كتاب جامعة الدول العربية عن المؤتمر - القاهرة ١٩٥٩ .
- قاسم محمد الخطاط ، قواعد الخط العربى ، بخط قاسم محمد الخطاط ، بغداد ١٩٦١ .
- محمد مصطفى ، متحف الفن الاسلامى ، دليل موجز ، القاهرة ١٩٦٣ .
- عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ناجى زين الدين المصرى ، بدائع الخط العربى ، بغداد ١٩٧٢ .
- محمد ابو الفرج العشى ، نشأة الخط العربى وتطوره ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ٢٣ ، دمشق ١٩٧٣ .
- محمود شكر الجبورى ، نشأة الخط العربى وتطوره ، بغداد ١٩٧٤ .
- ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحربرى ، القاهرة ١٩٧٤ .
- السيدة منى مصطفى المعجمى ، فن الكتابة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

S e l e c t e d B i b l i o g r a p h y

Periodicals :

Ars Islamica

Ars Orientalis

Kunst des Orients

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Katalogisierung der Orientalischen Handschriften in Deutschland.

- Moritz, B. Arabic Palaeography. Cairo 1905.
- Noldeke, Bergstrasser, Pretzl, Geschichte des Qorans.
- Gluck, Heinrich und Diez, Ernst, Die Kunst des Islam. Berlin 1925.
- Herzfeld, Ernst, Die Malereien von Samarra. Berlin 1927.
- Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, The Islamic Book, a Contribution to its Art History from the seventh to the eighteenth century. 1929.
- Kochlin, R. and Migeon, G., Cent Planches d'art musulman. Paris 1929.
- Wiet, Gaston, Lampes et Bouteilles en verre emaille. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1929.
- Wiet, Gaston, Objets en Cuiyre. Catalogur Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1932.
- Weill, Jean David, Bois a Epigraphes. Catalogue Generale Du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1936.
- A Survey of Persian Art. ed. by Arthur Upham Pope. London,. New York 1938 ff.
- Abott, Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its Kur'anic Development, with a full description of the Kur'anci Manuscripts in the Oriental Institute. Chicago 1939.
- Wiet, Gaston, Steles Funeraires. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Caire. Cairo 1939.
- Abott, Nabia, Arabic Paleography. Ars Islamica. Vol. VIII. 1941.
- Dimand, M.S., A Handbook of Muhammadan Art. New York 1944.
- Kuhnel, Ernst, Die osmanische Tughra. Kunst des Orients. Wiesbaden 1945.

- Erdmann, Kurt, Arabische Schriftzeichen als Ornamente in der abendlandischen Kunst des Mittelalters. Wiesbaden 1953.
- Grohmann, Adolf, The Origin and Early Development of Floriated Kufi. Ars Orientalis 1957.
- Ettinghausen, Richard, Arabische Malerei. Genf 1962.
- Grohmann, Adolf, Die Dekorative Rolle der arabischen Schrift. bustan 4. Wein 1962.
- Kühnel, Ernst, Islamischen Kleinkunst. Braunschweig 1963.
- Grohmann, Adolf, Arabische Palaographie. Wien 1967-71.
- Kühnel, Ernst, Die islamischen Elfenbeiskulpturen. Berlin 1971.
- Kühnel, Ernst, Islamische Schriftkunst. Berlin 1942. Neuauflage Graz 1972.
- Sourdel-Thomine, Janine und Bertold Supler, Die Kunst des Islam. Propylaen Verlag Berlin 1973.
- Kühnel, Ernst, The Arabesque. Meaning and Transformation of an Ornament. Translated from the original Text in German by Richard Ettinghausen. Graz 1976.
- Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an. World of Islam Festival Publication. London 1976.



ديناميات التغير السياسى والاجتماعى فى العالم الثالث

عرض وتحليل : محمد غانم الرمحي

نيجيريا ، سوريا ، الصين الشعبية ، وقد قام
محرو الكتاب David E. Schmitt اضافة الى
تحرير الكتاب بكتابة مقدمته ، الطويلة نسبيا
وخاتمته . أما الكتاب الستة الاخرون فقد قام
كل منهم بتحليل ديناميات التحديث السياسى
والاجتماعى فى القطر الذى كتب عنه .

الكتاب الذى بين ايدينا يلقى الضوء على
ديناميات التحديث فى العالم الثالث من جهة
التحديث السياسى والتغير الاجتماعى .
ويشترك فى الكتاب سبعة من المتخصصين
يتناول كل منهم على حدة بلدا مختارا من اقطار
العالم الثالث هى : الهند ، تشيلي ، المكسيك

DYNAMICS OF THE THIRD WORLD POLITICAL AND SOCIAL CHANGE

Editor : David E. Schmitt. Published by : Winthrop Publishers, Inc. 1974.

David E. Schmitt, (Editor), Dynamics of the Third World Political and Social Change,
Winthrop Publishers, Inc. 1974.

ويهدف الكتاب الى تقديم فهم عام للقضايا الرئيسية التي تواجه العالم الثالث في سبيل تطوير نفسه ، وكشف الادوات والاستراتيجيات التي يستخدمها قادة العالم الثالث من اجل مواجهة وحل المشكلات . ويعرف الكتاب العالم الثالث تعريفاً سليماً فهو يشير الى ان العالم الثالث هو « افقر واقل تطوراً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي » ويشير الكتاب الى ان معظم دول آسيا وأفريقيا والشرق الاوسط هي من العالم الثالث . مع استثناء وهو استبعاد اليابان ، وهذا معقول واسرائيل (وهذا غريب) من اطار العالم الثالث * .

ويهتم الكتاب بالعالم الثالث من حيث علاقاته الدولية ، فيشير الى انه مهما بعدت هذه الاقطار عن الولايات المتحدة ومهما قلت مصالح الاخيرة فيها الا ان « امن المواطن الامريكي » وبالتالي امن الدول المتقدمة مرتبط بشكل أو باخر بمشكلات الدول في العالم الثالث وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد تبنى الكتاب اطاراً ثلاثي الابعاد في التحليل النظري لمشكلات التغير السياسي والاجتماعي . وصفها على انها اما :

اولاً : تغير تابع - اي ان التغيرات السياسية والاجتماعية هي نتيجة لعوامل اخرى يمر بها المجتمع كالتغيرات الاقتصادية مثلاً .

ثانياً : متغير فاعل - اي التغيرات السياسية هي في حد ذاتها مؤثرة في العلاقات الاجتماعية السائدة في ذاك المجتمع .

ثالثاً : هي متغير مستقل اي انها تتطور في المجتمع دون التفاعل بالعناصر الاخرى الاجتماعية او الاقتصادية .

في المقدمة يشير محرر الكتاب الى الاسباب التي دفعته هو وزملاؤه لتناول هذا الموضوع ، وبالتحديد اختيار هذه البلدان ، فهي تمثل عينة مختارة من بلدان العالم الثالث والتي تختلف فيها التجارب والاجتهادات السياسية والاجتماعية من تلك المتبعة لاتجاه الديمقراطيات الغربية حتى تلك التي تتبنى الماركسية اللينينية في معالجتها للتحديث السياسي والنمو الاجتماعي . كما ان تلك الاقطار تمثل محاور جغرافية متعددة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ويصر محرر الكتاب على القول ، في مقدمته ، بأن الهدف من هذا الكتاب هو فقط ان يشكل مقدمه عامة لدراسة الموضوع من جوانبه المتعددة ، وانه ليس كتاباً متخصصاً ، فكيفيه ان يشوق القارئ ، على حد تعبيره ، لقراءة الكتاب والاطلاع على بعض المؤشرات الهامة ، الاجتماعية والسياسية ، في بعض اقطار العالم الثالث وهي تسير في ركب التغير . ويبرر اختيار هذه الدول دون غيرها بأنها دول كبيرة ومهمة عدا سوريا فهي ، كما يدعى ، دولة صغيرة نسبياً ، ولكنها تتميز بتغيرات سياسية واجتماعية سريعة منذ الاستقلال ، وقد كتب الفصل الذي عالج الوضع في سوريا . Alan R. Balbomi وهو يهودي يهتم بالصراع العربي الاسرائيلي ، وقد كتب قبل ذلك كتاباً عن جماعات الضغط الامريكية الصهيونية . اما بقية الكتاب الاخرين فهم مجموعة من المتخصصين الامريكيين وينتمون الى عدة جامعات امريكية ، وتنحصر تخصصاتهم في العلوم السياسية او في الاقتصاد السياسي ، وهم مهتمون بالمناطق التي كتبوا عنها .

ويتناول الكتاب في جزء اساسي بعض جوانب العلاقات الدولية ، من حيث كشف علاقة بعض هذه الاقطار بالدول الكبرى الاوروبية او الشرقية .

* استبعاد اسرائيل من اطار العالم الثالث هي نظرة حرصت عليها معظم الكتابات الغربية وهي نظرة متميزة وغير علمية .

ويذهب الكتاب الى تقسيم اشكال التطور السياسى الى قسمين رئيسيين :

الاول : **النمط الديمقراطي الغربي** - وهو من شقين :

أولا : كما هو موجود فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول أوروبا الغربية ، والذي يفضل تقليديا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية مع كل المؤسسات التابعة لهذا الشكل من التطور السياسى .

والشق الثانى وهو ، الشكل الآخر من التطور السياسى هو **نظام الحزب الواحد** كما يظهر فى الاتحاد السوفيتى وبعض دول المنظومة الاشتراكية . ويؤكد الكتاب هنا ان كلا الشكلين يقومان ضمن اطار التطور السياسى فى النمط الديمقراطى . وهذا يناقض كثيرا من الكتب المماثلة ، والتي تنظر الى انظمة الحزب الواحد على انها تجميد سياسى اكثر منها تطور . لذا يضيف الكتاب القول ان «كلا الشكلين المذكورين أنفا من التطور السياسى استطاعا ان يتما شيئا مع التحديث والبقاء والتجديد» . ويضيف الكتاب انه لا يمكن الافتراض بشكل تلقائى ان واحدا من هذين الشكلين فى التطور السياسى هو افضل من الشكل الآخر ، او ان هذه المؤسسات هى الشكل الوحيد للتطور ، انما يؤكد الكتاب ان هذين الشكلين ربما يكونان غير صالحين لعدد وفير من شعوب العالم الثالث التى لها قيم ثقافية وانماط اجتماعية وظروف اقتصادية لها خصوصياتها . ولكن الكتاب هنا يقع فى ازدواجية غير مفهومة وغير مفسره فحيث انه يحصر التطور السياسى فى قسمين ياتي مرة اخرى ليترك الكثير من الهوامش التى يمكن ان يدخل تحتها عدد لا حصر له من تجارب (التطور السياسى) ، فهو يضيف فى هذا الخصوص انه لا يجب النظر الى ان الشعوب المتقدمة هي اكثر تقدما فى مجال التطور

فى الحالة الاولى ينظر الى التغييرات السياسية والاجتماعية على انها تابع للبيئة المحلية وبالتالي تدخل فى تكوينها النهائي عدة عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية ولكن كما يشدد الكتاب بانه من التبسيط المخل النظر الى التغييرات الحادثة فى البنى السياسية والاجتماعية فى دول العالم الثالث على انها فقط تابع لتغييرات اخرى ، وان النظام السياسى هو استجابة لما حوله .

والنظر الى التغيير السياسى فى هذه المجتمعات على انه متغير فاعل على اساسى ان الانظمة الاخرى فى المجتمع مستحبة (تابعة) للتغيير السياسى او مستحبة للقرارات والخطوات المتخذة من الحكومة او القيادة السياسية يظهر ان النظام السياسى له سيطرة كبيرة على المجتمع واذا كانت هذه ظاهرة ملاحظة بوضوح فى بعض البلاد كما يشير الكتاب عند دراسة نموذج الصين الشعبية فهى فى رايانا تعميم تنقصه الدقة العلمية .

يبقى ركن الاطار الثالث الذى ينظر اليه الكتاب فى تحليله النظرى وهو التطور السياسى المستقل ، ولو اننا نجد صعوبة فى ادماج هذا الركن مع الركنين السابقين فى التحليل وهما التابع والفاعل . الا ان هذا الركن يفسره الكتاب بالقول ان التطور السياسى او التدرج السياسى هو « الطريقة التى يزيد بها النظام المعنى قدرته على التعامل مع المتطلبات المتجددة للمجتمع ، ومع المجموعات الجديدة وتوسيع المشاركة السياسية » . يبدو لنا هنا ان ذلك يدخل ايضا فى اطار الفكرة القائلة بأن التغييرات السياسية (تابعة) او مستحبة للتطور فى المجتمع . اى ان ذلك يعنى خلق ورعاية تأييد شعبي وبناء مؤسسات سياسية وادارية صالحة للعمل والاستجابة للحاجات الجديدة ، مثل احزاب سياسية ومؤسسات جماهيرية ... الخ .

١ - الاستعمار :

سيطرت شعوب أوربا على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لذلك فإن الشعوب القبلية في أفريقيا وجزء من آسيا ، والأمبراطوريات التقليدية في آسيا قد تغيرت نتيجة لصراعها مع الامبريالية الغربية . لقد قدمت القوة الاستعمارية مفاهيم جديدة في التجارة وفي العلاقات الاجتماعية وفي التنظيم السياسي ، تأثرت على أثرها الشعوب التي لم تخضع طويلا للاستعمار الغربي ، وقد طالها ذلك التأثير الا ان « الطلب » على التغير قد ازداد بعد رحيل المستعمر مباشرة . ويضرب مثالا على ذلك في الصين وتايلاند . هنا يتجاهل الكتاب فكرة ترددت في الكتابات السياسية في العقدين الاخيرين وهي التبعية الاقتصادية او الاستعمار غير المباشر ، وفي هذا الخصوص يقرر الكتاب ان الاضطرابات السياسية دائما تنلو التحرير . فالتاريخ السياسي لاسيا وأفريقيا بعد الحرب مليء بالانقلابات والعصيان ، ويناقش هذا الموضوع على انه متغير مستقل ليست له علاقة بالوضع الاستعماري او بالطبقات الحاكمة التي تركها الاستعمار المباشر بعد رحيله . وكان السبب في عدم الاستقرار هو داخلي بحث نابع من حب المغامرة او عدم الوصول الى سن الرشد لهذه الشعوب . ويضيف مؤكدا فكرته انه بالرغم من ان الاستعمار بشكله القديم قد ترك او حاول ان يترك حكومات على النمط الديمقراطي الغربي ، الا ان الحكومات التسلطية هي التي سارت في العالم الثالث ، نتيجة للاضطراب السياسي ، وهي القاعدة بدل ان تكون الاستثناء .

٢ - التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية :

التغيرات الاقتصادية تسرع في خطوات الحياة ، والاقتصاد المتطور يحتاج الى وسائل مواصلات سريعة لنقل العمال والمواد الخام الاولى والمصنعة من وإلى الاسواق والتغيرات

السياسي ، لان التطور السياسي يشير الى طرق دائمة لاحتضان التغير الاجتماعي بسهولة ومتى ما اصبحت اقل قدرة على احتضان ومعالجة التغير ، تصبح غير ذات محتوى متطور . ويخرج من هذه المقدمة بتعريف شامل للتطور السياسي وهو « مقبرة النظام السياسي على هضم التغير ومسايرة المهام المتطورة النابعة في المجتمع نتيجة عمليات التحديث » .

بعد هذا التعريف الليبرالي الشامل يفاجئنا الكتاب بالقول ان هذا لا يتم بالضرورة من خلال مؤسسات او نظام حكومي كامل ، انما قد يعتمد مثلا على نظام قبلي . ويبقى السؤال كيف يمكن ان يهضم حكم قبلي حاجات متجددة في مجتمع يسير في ركب التطور ؟ .

ثم يعرض الكتاب قضية هامة هي ميكانيكية العلاقة بين النظام السياسي في أي مجتمع وبين بيئته الاجتماعية والاقتصادية ، فيعتبر ان لا حكومة تستطيع ، وبشكل مطلق ، ان تتحكم في بيئتها ، وليست كثير من الحكومات في المقابل خاضعة بشكل مطلق لشعوبها ، انما هناك تبادل مستمر بين النظام السياسي مع مكوناته الاخرى ، كالنظام الاقتصادي والثقافي السائد في المجتمع وبين البيئة الاجتماعية والمصالح المتعددة لمجموعات الضغط ، ولكن مشكلات الحكومات في العالم الثالث هي مشكلات معقدة او ، على حد تعبير الكتاب ، « ان حكومات العالم الثالث مبحره في بحر مليء بالمشكلات التي لا تستطيع حلها » ويفسر ذلك بأن هناك قوى جديدة وقوى قديمة تتضارب مصالحها فتسبب هذا الاضطراب .

ثم يذهب الكتاب الى مناقشة اهم العوامل السياسية التي اثرت على الوضع السياسي الحالي في العالم الثالث ، وساهمت الى حد بعيد في اشاعة الاضطراب السياسي فيه فيشير الى:

هذه النقاط الاساسية التى يعرضها الكتاب كأهم العوامل التى تؤثر فى المتغيرات السياسية فى دول العالم الثالث ولوانه يناقشها من وجهة نظر احادية فقط ، فهناك لاشك ايجابيات كثيرة للتغيرات الثقافية فى العالم الثالث لصالح التقدم .

ويتابع الكتاب بعد هذا ماسماه (**الازمات ونسب التغير السياسى والاجتماعى**) فيعرض الى ان « الثورة » هى تغير اساسى وجدرى فى النظام القائم ، وتنتج الثورة من غربة مجموعة من الشرائح الاجتماعية عن المجتمع ورغبتهم للعمل معا نحو تحطيم « الامر القائم » السياسى والاجتماعى ، وتتصاعد احتمالات الثورة عندما تكون توقعات الناس مرتفعة نتيجة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى هذا الاطار يشير الكتاب ، ولو بطرف خفى ، الى انه كلما زادت الاصلاحات الاجتماعية والسياسية توقع الناس اكثر ، فاذا لم يتحقق ذلك فان الثورة قائمة . والدرس الواضح من ذلك كله ، كما يريد الكتاب ، ان يعلمنا هو انه يجب حساب الاصلاحات فى العالم الثالث حسابا دقيقا ..

النظام السياسى كنسق مستقل :

هل النظام السياسى يمكن ان يكون نسقا مستقلا فى التطور والتحديث السياسى وما هى الطرق والوسائل الكفيلة بجعل النظام السياسى هو قائد التحديث ؟ يعتقد الكتاب ان ذلك ممكن عن طريق احد العوامل التالية :-

١ - الشخصية العظيمة :

الشخصية القيادية المؤثرة والتى تظهر فى الازمات فى الدول التى لا تحظى بأنظمة سياسية مؤسسية . لذلك فان ظهور هذه الشخصية قد يؤثر فى التحديث السياسى . وهذه الفكرة بالطبع فكرة مبالغ فيها ، لانه بدون ان ننضج الظروف الموضوعية فى المجتمع

الاقتصادية ايضا تتبعها تغيرات فى نمط الحياة الاجتماعية مما يسبب ضغوطا على الحكومات من الشعب قد لا تستطيع هذه الحكومات ، لاسباب متعددة ، انجازها .

٣ - نمو المدينة :

ساعدت الزيادة فى السكان وتغير التكنيك الزراعى والرغبة فى حياة افضل على نمو المدينة وتضخمها ، وسكان المدينة يحتاجون الى خدمات حكومية اكثر من سكان الريف ، انهم يحتاجون الى طرق ومواصلات ومدارس ومحطات اطفاء والى مجموعة كبيرة اخرى من الخدمات . وسكان المدن اكثر استعدادا للانضمام فى اشكال سياسية تطالب باصلاحات او تتحدى النظام القائم .

٤ - ثورة الاتصالات العالمية :

مشكلات متعددة جلبتها معها ثورة الاتصالات العالمية فقد جاءت الثورة التكنولوجية بالتلفزة والسينما والصحافة والاذاعة والتى تحمل اخبارا عن المنتجات المادية للعالم من اكثر العواصم تطورا ، وهى تقدم صورة عما وصلت اليه الحياة البشرية ، فالفسلات الاتوماتيكية والطباخات على الغاز هى مجال لتحرر الناس الذين لا يزالون يفسلون على ضفاف الانهار او يطبخون على نار الحطب .

٥ - التغيرات الثقافية :

المعتقدات والقيم والافكار القديمة تتصادم مع القيم والافكار الحديثة التى تجعل المعتقدات القديمة والشعبية تضعف ، وكلما ضعفت هذه المعتقدات أصبح هناك فرصة اكبر للافادة من الوعي الجديد لدى الشعب ، ومن خلال السياسيين الطموحين والضباط لظهور عدم قدرة الحكومة القائمة على الوفاء بطلبات الجماهير .

يكون دور « الشخصية العظيمة » دورا غير ذي معنى .

٢ - البيروقراطية العامة :

وفي العالم الثالث لا توجد او لا يسمح بوجود مؤسسات سياسية تنقد الحكومة القائمة وموظفيها ، فالقيمة والفعالية العامة لم ترق الى التنظيم الحديث ، والولاء القبلي والعائلي يأخذ الاسبقية ، لذلك فالبيروقراطيون لهم الفاعلية الاكثر في هذه المجتمعات والسياسيون لهم وسائل فعالة للسيطرة على الموظفين العاملين غير الكفاء ، لذلك فان التأثير البيروقراطي يمكن ان يكون مؤثرا في التطور السياسي .

٣ - الاحزاب السياسية :

لمعالجة المشكلة هناك آراء متعددة تطرح عادة منها ان وجود احزاب سياسية متناسقة وقوية كما في الصين والمكسيك ، يمثل الحزب فيها اداة الحاكم القوية يمكن ان يكون لهذا الحزب دور سياسى .

والدور السياسي للحزب هو معالجة ازمة المشاركة الناشئة من التحديث . والحزب هو الوسيلة الاساسية لتنظيمه والاشراف على التوازن بين متطلبات المجتمع ككل وقدرة (الحكومة) على تلبية هذه المطالب . في العالم الثالث (يلاحظ الكتاب) انه لا توجد احزاب فاعلة قوية . هناك مجموعات شخصية وشكلية معتمدة على شخصية زعيم قوى وتابعة . وربما في التحليل الاخير نجد ان الكتاب قد ذهب الى تعميمات غير مستحبة علميا . فهناك احزاب في العالم الثالث كما هو في الهند - على سبيل المثال - وقد اثبتت فاعليتها الديناميكية في اطار التحديث السياسى .

٤ - الايديولوجية :

الايديولوجية هي « نظام من الافكار يتمحور حول السياسات المحتاجة الى شرح او تبرير من خلال كلمات مكتوبة او مقالة ، وفي العالم الثالث تتمحور الايديولوجية حول الاستقلال القومى » .

هكذا يلخص الكتاب مفهوم الايديولوجية كنسق مستقل ومؤثر في التحديث السياسى وربما يكون قد جانبه الصواب في هذا الاطار وبخاصة فيما يخص العالم الثالث ، فقد لعبت (الايديولوجية) وما زالت تلعب دورا حيويا في اطار التحديث والتقدم لدول وشعوب متعددة في العالم الثالث . يعترف بها الكتاب في مكان آخر عندما يتكلم عن التعليم كطريقة للثقافة الايديولوجي فهو يقول انه حتى العلوم البحتة والرياضيات تستخدم الفكر السياسى . فيقرر ان (التعليم واحد من المجالات الهامة التى يستطيع القادة القوميون ان يبسطوا سلطتهم من خلالها) .

٥ - التعليم :

يساعد على المساهمة في تثبيت النظام السياسى عندما يخطط له من اجل ذلك . ولكن التعليم ، كما يقرر الكتاب ، سلاح ذو حدين ، فمن جهة يمكن السيطرة عليه من خلال البرامج الموجهة في التعليم ، سواء كان تعليما عاما او جامعييا او مهنيا ، ولكنه من الجهة الاخرى يرفع درجة توقعات المتعلمين من النظام السياسى السائد ويدفعهم الى تحديه .

٦ - التطور الاقتصادى :

للتطور الاقتصادى مردود اكبر من مجرد اشباع الحاجات الانسانية ، ولكنه ايضا يعطى خيارات متعددة للحراك والتطور الاجتماعى ، لذا فان التطور الاقتصادى جزء اساسى في دعم او اعاقا التطور السياسى .

جعل المؤسسات السياسية قادرة على امتصاص التطور السياسى والاجتماعى . ويصف الكتاب اهم اسباب الانقلابات العسكرية وهى الازمات السياسية المزمه والمظاهرات والاضرابات وعدم الاستقرار السياسى بوجه عام .

طرق التطور السياسى :

طرق التطور السياسى متعددة ، وكل طريق منها تؤدي غرضا او اغراضا ايجابية ، وقد يكون لها عناصر سلبية ، ولكن على كل قائد سياسى ان يتبع طريقة محددة وواضحة فى التطور السياسى ، والايدخل فى تخطيط غير مفهوم للجمهور ، بعض الطرق السياسية صالحة للحكومات الشيوعيون ، فلاحزاب مثلا يمكن ان تستخدم فى اية ايدولوجية سياسية .

ويعرف الكتاب مجموعة من الطرق المعروفة الان فى العالم سواء المتقدم او فى العالم الثالث منها : -

١ - الديموقراطية الليبرالية الغربية :

من مظاهرها حرية الانتخابات والتنافس غير المحدود بين الاحزاب لكسب الاصوات ، ولكن هل يمكن تطبيق ذلك فى دول العالم الثالث ؟ واذا كانت الايدولوجية الغربية قد ينجح فى الدول الغنية فهل يمكن ان تنجح كذلك فى الدول الفقيرة ؟ . هذه الاسئلة يتركها الكتاب لدراسة النماذج ، واكبر نموذج فى هذا الخصوص هو الهند .

٢ - الديموقراطية السياسية المحدودة :

يحدد الكتاب الهدف مما اسماء بالديموقراطية السياسية المحدودة بأن تقوم قيادة قوية لاجراء اصلاحات هامة فى المجتمع من خلال التغير الاجتماعى حتى تصل هذه الاصلاحات الى الديموقراطية الليبرالية ، والاصلاحات العامة تتجه الى التعليم العام ،

٧ - الجيش (العسكر) :

يمكن ان يكون الجيش مساعدا على التطور فى العالم الثالث ، كما يمكن ان يكون معوقا للتطور والتحديث . وحتى الانقلابات العسكرية يمكن ان تاتي بعد تقدم اقتصادى وسياسى ، والجيش هو الطريقة الوحيدة والغالبة فى العالم الثالث التى يمكن من طريقها تحويل السلطة من الارستقراطية غير المعطاء الى شرائح اجتماعية اخرى . والعسكر اكثر قدرة على انجاز التطور الاقتصادى من بعض المؤسسات الاخرى من خلال ما تعودوا عليه فى تسلسل الاوامر التنفيذية - الضبط والربط - ويقوم الجيش فى العالم الثالث بشكل الاسفنجية التى تمتص العاطلين عن العمل ، وتوفر مصادر رزق لقطاع كبير من الشعب دون ان يكون بمقدور هذه القطاعات المشاركة الايجابية فى الساحة السياسية .

وكثيرا ما تتم الانقلابات العسكرية لاسباب اثنائية عندما تفلق سبل الترقيات مثلا فى وجوه الضباط الكبار ، هذه الاسباب فى العادة تتوخى اسبابا سياسية وتجيء فى غمرة تدهور سياسى لان الانقلاب العسكرى اقل احتمالا فى اجواء حكم شعبى يحقق طلبات شعبه .

ولكن العسكريين لا يستطيعون الاحتفاظ بالشعبية لوقت طويل ، لانهم غير قادرين على مواجهة الازمات المزمه للتحديث . ويقدم الكتاب حولا لعلاج خطر الانقلابات وذلك عن طريق احالة الضباط الطموحين الى الاستيداع فى وقت مبكر ، وكذلك اجراء قفزات فى الترقية للضباط الاخرين ، ونقل الضباط من مكان الى آخر حتى لا يكون لهم استقرار دائم فى مكان تنبت لهم فيه ولاءات ، واضفاء الشرف الاجتماعى على البعض بين وقت وآخر وربما اشراكهم فى القرارات الممكنة فيما يلزمهم ضمن سياسة الحكومة . وربما ان افضل طريق لحفظ العسكر خارج التدخل فى الحكم هو

٤ - النظام التبعوى (الشيوعى) :

الأنظمة السياسية هنا ، كما يشير الكتاب تعتمد على القوة المطلقة ، على الأقل فى المدى القريب ، ويضرب امثلة على ذلك كالصين الشعبية . والنظام التبعوى قد لا يكون (شيوعيا) بالضرورة - كما يبدى الكتاب - فقد تتماثل مظاهر النظام التبعوى دون أن يكون ، بالضرورة معتقنا للفكر الماركسى ، ويتجه هذا النوع من الأنظمة ليس الى تعاون وحلول وسط بين فئات المجتمع المختلفة دائما ، وإنما تبدأ الاصلاحات من خلال اعلان حكومى وتصادر الاراضى الزراعية ببساطة من ملاكها الكبار لتوزعها على الفلاحين المعدمين ، وتؤم المصانع دون أن يعرض أصحابها ، والمعارضون للثورة يمكن أن يطبق عليهم القصاص ويردعون عن طريق السجن أو الأبعاد خارج البلاد . ولكن حتى هذه الأنظمة - كما يقول الكتاب - تحتاج الى دعم شعبى اذا أريد لها الحياة الطويلة ، والقادة عادة فى مثل هذه الأنظمة يهتمون بالدعم الشعبى ، لذلك نجدهم يستخرون بكثافة الايديولوجية المتوفرة لديهم للحصول على الدعم الجماهيرى . وهذه الأنظمة ليست كبقية أنظمة العالم الثالث يمكن الاطاحة بها بسهولة ، فيقدر الكتاب انه لم يحصل ان أطيح بحكم شيوعى فى العالم الثالث .

من التقسيمات التى تبناها الكتاب والتى عرضت فى الانماط السابقة تبين لنا انها تقسيمات ، قد تكون عشوائية الى درجة كبيرة ، ويبدو التضارب واضحا فى الحديث عن النظام (التبعوى) والذى انهى الكتاب تحليله حوله بالقول انه لا يمكن الاطاحة بها دون اعطاء تبرير كاف لذلك عدا وجود الايديولوجية ، وفى رأينا ان المشاركة السياسية من قبل أكبر القطاعات هى التى تعتبر صمام الامان لمثل هذه الأنظمة . كما انه لا يبدو فرق واضح بين السلطوية اليسارية واليمينية من حيث منظور التطور السياسى ، فالسلطوية هى سلطوية فى البداية والنهاية واحتكار القرار

القضاء على الفقر ، الاصلاح الزراعى ... الخ ويقود الديمقراطية السياسية المحدودة حزب واحد فى البلاد ، ويتجه هذا الحزب لاتاحة الفرصة لاحزاب اخرى ، بعد ان يكون قد انجز المهمات الاساسية المطلوبة .

٣ - السلطوية :

نظام حكم متسلط لا انتخابات حرة ، ولا حرية تعبير ، ولكنه يسمح فقط بمنظمات متعددة مثل المنظمات الدينية والمنظمات التجارية ، وربما منظمات عمالية فى اضيق الحدود تأخذ هذه المنظمات حرية العمل ما دامت مستمدة من السلطة ومتعاونة معها . ومع ان السلطوية تعتمد على تعاون مجموعات اساسية فى المجتمع ، الا ان سلطتها الاساسية مستمدة من (العسكر) او الشرطة . وهناك اتجاهان فى السلطوية أحدهما هو السلطوية اليمينية والثانى هو السلطوية اليسارية .

١ - السلطوية اليمينية :

تمتاز بأنها تحدد التغيرات الاجتماعية وتتحكم فيها عن طريق عدم فسخ المجال لمجموعات النخبة الجديدة والتحكم فى نموها ، كالابتعاد عن التصنيع وتحديد التعليم والاعتماد على مجموعات تقليدية فى المجتمع كاصحاب الاراضى والجيش والمجموعات الدينية . وعادة فى هذا النوع من السلطوية نجد أن المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) مضغوط عليها .

ب - السلطوية اليسارية :

تحطم المحتوى التقليدى للنظام السياسى ، وتقوم بتوزيع الاراضى لكسر الاحتكار السياسى لاصحاب الاراضى والاقطاعات الكبيرة وتشجع المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) فى مجالات تتوافق والاهداف العامة للسلطة .

الهند ، بمعناها الليبرالي ، قد سبقت التطور الاقتصادي، ومن هنا كان بقاؤها واستمرارها .

التركيب السياسي في الهند استمد شرعيته قبل الاستقلال سنة ١٩٤٨ ، بزمان طويل وقبل أن يبدأ التطور الاقتصادي الحديث في غزو الريف الهندي ، فقد لعب الاستعمار البريطاني في حالة الهند دورا ايجابيا من حيث توحيدها ، اذ اهتم الاستعمار بالهند كوحدة وظهرت المواطنة لعموم الهند منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد بدأت بريطانيا تستجيب (بنصف قلب) لرغبات الهنود في المشاركة السياسية ، وذلك من أجل البعد عن التقسيمات الادارية التقليدية . واشراك الهنود كشعب ، لا كطوائف في السلطة ، وذلك ليسهل الاستقلال الاقتصادي لعموم الهنود من قبل السلطة الاستعمارية . وشهدت الهند فيما بين الحربين تطورا هاما هو اصدار قانون ١٩٣٥ للاصلاحات السياسية وما سبق ذلك من ربط الهند بشبكة مواصلات ، بعد القضاء على ثورة ١٨٥٧ التي قادها حكام الولايات المختلفة والمتنفذون من كبار الاستقراطية ونتيجة لها قامت بريطانيا بحملة واسعة من أجل اضعاف سلطة هذه الطبقة، وهذه الخطوة الأخيرة ساعدت بوجه آخر على ازالة عقبة سياسية من وجه التطور الديمقراطي اللاحق . وهذا هو عكس ما هو قائم في امريكا اللاتينية حيث ساعد الاستعمار ، بشكل أو بآخر على ايجاد طبقة متنفذة وقوية عطلت في وقت لاحق التطور الديمقراطي ، كما قامت بريطانيا في الهند بتشجيع وتنمية طبقة وسطى ، هذه الطبقة وفرت لبريطانيا شريحة ادارية متوسطة وكبيرة العدد ساعدت بدورها على فرض مفاهيم غربية في المجتمع الهندي . هذه الطبقة الوسطى المتعلمة في الغرب أو على الطريقة الغربية بدأت بدورها بالمطالبة

السياسي ، وعدم وجود المشاركة الشعبية الواسعة قائم في الاثنين .

بعد هذه المقدمة النظرية يتناول الكتاب بالتفصيل ، الاقطار التي تبناها كنموذج ، واحدا تلو الآخر ، الا أنه نظرا لاختلاف الكتاب الذين تناولوا هذه الاقطار واختلاف وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية فاننا نلاحظ ان تحليلاتهم لا تتطابق تماما مع ما جاء في الاطار النظري للكتاب ، فبعضهم تناول الدولة التي يتحدث عنها من وجهة نظر متعاطفة (كما في الهند) وبعضهم تناول الدولة التي يتحدث عنها من وجهة نظر (معادية) كما في حالة سوريا مثلا .

ونحن هنا سوف نعرض لدولتين فقط من الدول الست التي جاءت دراستها في الكتاب حتى نبين بالتحديد مدى انطباق التوجه النظري على الواقع الملموس ، وقد أخذنا الهند وشيلي مثلين لهذا العرض .

الهند :

يصفها الكتاب بأنها أكبر الدول الديمقراطية في العالم ، وبالطبع فهو يشير هنا الى عدد السكان . ولكن ما هو الثمن المدفوع لهذا النوع من التطور السياسي على حساب التطور الاقتصادي والاجتماعي ، في مجتمع كالهند متعدد التقسيمات اذ ينقسم الى طوائف دينية وطبقية ولغوية ، مغمور بالفقر والامية ، ولماذا اختارت الهند هذا التطور السياسي وفضلته على النمط الغربي الليبرالي ، ولماذا لم تتحول البلاد الى شيوعية كما هي عليه الصين ، أو تحكم بالعسكر كما هي عليه نيجيريا مثلا .؟

الاسباب التي يضعها الكتاب كعامل للتطور السياسي في الهند هي ان الديمقراطية في

اذن فالطبقة الوسطى الهندية قد طلقت ما بين الحريين والى الابد كل ما يربطها بالامراء والاقطاعية والارستقراطية ، واختلفت التجربة مثلا عن شمال نيجريا حيث تعاونت الطبقة الوسطى مع الزعماء التقليديين ضد الاستعمار ثم قفدت الثانية على السلطة لفترة ، فأصبحت العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الاستقرائية علاقة وثيقة .

التطور الاقتصادي في الهند :

الانجاز الاكبر للبريطانيين في الهند كان في الناحية السياسية ولم يكن في الناحية الاقتصادية ، فقد أعدوا المؤسسات وبنوا الهياكل التنظيمية والادارية ودرّبوا النخبة وسخروا معظم خطواتهم الاقتصادية لاحتلال الاستقرار السياسى . وربما يكون الكتاب ، هنا ، قد تجاوز الواقع عندما افترض أن الاقتصاد الهندى لم يكن ذا قيمة وخدمة للبريطانيين فقد كان هو الهدف ، وفى الطريق الى تحقيق ذلك الهدف ربما تم بناء المؤسسات الادارية .

التشردم الثقافى :

يعتقد كثير من الدارسين أن التشردم الثقافى هو سمة من سمات المجتمع الهندى ، فهناك تقسيمات طائفية وعرقية واجتماعية واقتصادية ، بل أن فى الطائفة الواحدة مجموعة من التقسيمات الداخلية ، فالهندوس مثلا ، يقسمون انفسهم ، فى داخل الطائفة ، الى عشرات الاقسام ، فهناك المحاربون والتجار والناس العاديون ... الخ وادنى مستوى اجتماعى هو لطائفة المنبوذين الذين يعتبر حتى الاختلاط بهم مجلبة للنحس والنجاسة . ولكن الملاحظ أن الدائرة الطائفية ليست مغلقة نهائيا ، فيمكن عن طريق الحصول على قوة سياسية أو اقتصادية الصعود فى السلم

بالاصلاح على الطريقة الغربية ، فى حين استمرت اللعبة البريطانية ضد الوضع الاجتماعى السائد ، تحرض أميرا ضد أمير ، ومسلما ضد هندوسى ، وطائفة ضد طائفة .

وال مؤتمر الهندى الذى انشئ فى سنة ١٨٨٥ كانت جذوره الاجتماعية من الطبقة الوسطى الادارية والمتعلمة سابقة الذكر ، وطالب هذا المؤتمر بتمثيل أكبر للهنود فى الخدمة المدنية والمجلس التشريعى ، ثم بدأ يطالب بعد ذلك بالحريات الليبرالية والتمثيل الشعبى ، وتطور (المؤتمر) بعد ذلك الى أن حصل انشقاق فى صفوفه بين (معتدلين) نادوا بالتطورية أى أن يشارك الهنود فى الحكم يشكل تطورى ، (ومتطرفين) وهى صفة أطلقها عليهم البريطانيون . هؤلاء اتجهوا الى الجماهير ورفعوا شعار المقاطعة فى الاتجاه للوصول الى الحكم الذاتى ، وتجاوب البريطانيون مع هذه الفئة (أيضا بنصف قلب) بعد مذبحه رهيبه فى سنة ١٩١٩ تركت ٣٧٩ هنديا قتيلا وأكثر من ٢٠٠٠ جريح وتزعم المؤتمر فى هذه الفترة المهاتما غاندى الذى أعلن بعد المجزرة ان (أى متعاون مع السلطة الاستعمارية هو مجرم) وفى بداية العشرينات بدأت قوة (الكونجرس) حزب المؤتمر تظهر بقوة عن طريق فروعه الممتدة فى أنحاء الهند ، وبدأت هذه الفروع تنتخب ممثلها فى جو ديمقراطى ، ولأن تشكيل المؤتمر قد اعتمد اساسا على مجموعات متفرقة من الشعب الهندى فقد جاء ممثلا للجماهير الهندية باختلاف قطاعاتها . بالطبع كانت هناك اتجاهات سياسية أخرى فى الهند أهمها المسلمون الذين تكتلوا عن طريق انشاء (الرابطة الاسلامية) وهذه أيضا نبعت من الطبقة المتوسطة الا أن أهدافها الايديولوجية كانت مختلفة عن (المؤتمر) .

اللغة - حتى الان - يجيدها فقط قلة من المتعلمين والعاملين بالادارة .

وبالرغم من هذه الصعوبات، فقد استطاعت الدولة فى الهند ، ان تسير فى طريق التفسير السياسى بطريقة ديمقراطية ليبرالية عن طريق حكومة مركزية مستقرة ونافذة ، يمكن لها ان تحقق .

١ - تشكيل الهوية القومية .

٢ - السلطة المركزية الخاضعة عن طريق اجراءات مؤسسية ومجلس تمثلى .

٣ - ايجاد احزاب جماهيرية ممثلة لقطاعات مختلفة من الشعب بدلا من النبلاء المحليين والاستقراطيين .

٤ - الاقتراع العام .

التنظيم الحزبى والبرلمان :

فى الهند ، هناك على المستوى القومى ، برلمان مكون من مستويين الاول هو (مجلس الشعب Rajya Sabha) وهو الاكثر اهمية، ومنتخب على المستوى العام ، ورئيس الوزراء هو زعيم حزب الاغلبية فى هذا المجلس . اما المجلس الثانى فهو (المجلس الاعلى Lok Sabha) ، وهو يشبه مجلس اللوردات البريطانى ، واعضاؤه منتخبون من الحكومات المحلية للولايات . وعلى مستوى الولايات يوجد المجلس التشريعى للولاية وهو الاهم كما ان رئيس مجلس وزراء الولاية يختار من الاغلبية فى هذا المجلس والسلطة فى يد الوزارة على المستوى المحلى ، وهى ايضا فى يد الوزراء بشكل فعال على المستوى القومى وفيما عدا فترة قصيرة فى حياة الهند السياسية

الاجتماعى ، وبخاصة بعد ان سيطرت القوة الاستعمارية على الهند لعدة قرون ، واستطاعت بعض الفئات ، عن طريق الفرص الجديدة ، الانتقال من درجة ادنى فى السلم الاجتماعى الى درجة اعلى ، ولكن الصراع الاجتماعى / الطائفى قد اضر كثيرا الصراع الطبقي فى الهند ، فخلال الانتخابات الدورية غير مستغرب ان يستخدم السياسيون الشعارات الطائفية الاجتماعية لجلب الانصار .

الا انه بسبب الانتشار الجغرافى للطوائف المختلفة من الصعب تكوين التنظيمات السياسية على اساس طائفى / حزبى فقط . كما ان فى الشعب الهندى فوق ذلك تابعين لأكثر الديانات المعروفة فى العالم ولكن الاغلبية هم الهندوس (٨٥ ٪) والمسلمون الذين يشكلون اكبر الاقليات الدينية (١٠ ٪) تقريبا . وقد شكل المسلمون فى الهند عشية الاستقلال قضية سياسية هامة ، ففى بداية القرن ، ونتيجة للثقة المفقودة بين الهندوس والمسلمين ، اتجه المسلمون لحماية انفسهم بتشكيل (الرابطة الاسلامية) فى بداية الثلاثينات تحت قيادة محمد على جناح ، ثم اصبحت الرابطة الاسلامية بعد ذلك رابطة جماهيرية نتيجة استغلال الخوف المتفشى بين المسلمين حول مستقبلهم ، وفى المقابل لم تكن هناك مؤسسات (دينية) هندوسية قوية (كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الدينية للمسلمين عن طريق العلماء مثلا او الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا الجنوبية) كان يمكن ان تعمل ضد التحديث فى الهند . وقد حدث ذلك فى الدولة المسلمة الهندية (باكستان) لاحقا . وقد ساعد اختلاف اللغات والعنصر بشكل عجيب على ربط الشعب الهندى ، فعندما قدم المستعمر لفته (الانجليزية) تغلبت على اللغات المحلية المتعددة ، ولكن هذه

وفي النهاية يناقش الكتاب سؤالاً مهماً هو : هل يمكن اعتبار الهند مثالا للديمقراطية الغربية في العالم الثالث ؟ الكتاب يجيب على هذا السؤال بنعم ، حتى لو كانت فقيرة ومتخلفة فهي تعتبر مثالا لبلدان العالم الثالث التي تبنت الديمقراطية الليبرالية كطريق لحل مشكلاتها السياسية والاجتماعية ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا . ما هو الثمن الاقتصادي الذي تدفعه الهند لذلك ؟

لا يحاول الكتاب الاجابة على ذلك رغم اشارته للسؤال .

تشيلي : الجذرية وسقوط الديمقراطية

يناقش الكتاب مسيرة شيلي - التي اخترناها للعرض هنا - لانها تمثل « ظاهرة » لا في العالم الثالث فحسب ، وانما في العالم قاطبة حيث تحولت ، في فترة وجيزة نسبيا ومن طريق الديمقراطية الليبرالية الى دولة تؤمن بالماركسية وتطبقها . فقد صوت في سنة ١٩٧٠ اكثر من ٩٠ ٪ من الناخبين في انتخابات حرة واختاروا « شيوعيا » من الحزب الاشتراكي رئيسا للجمهورية . كما ان شيلي تعتبر نموذجا من وجهة نظر أخرى ، فهي دولة من العالم الثالث تتفشى فيها الاحتكارات الرأسمالية .

وتشيلي ، كغيرها من بلدان العالم الثالث ، « النامية » لها علاقات وطيدة بالامبريالية العالمية - حيث شعرت الاحتكارات الاقتصادية مثل (شركة التلجراف العالمية) مع بعض الوكالات الرسمية الاميركية بخطورة تطور وضع شيلي وحرمان الاحتكارات من اوضاعها المميزة ، فكان ان عملت على خلق مصاعب اقتصادية وسياسية نجحت في اسقاط النظام المنتخب وبشكل دموي وعن طريق العسكر . وبذلك سقطت تجربة كان العالم الثالث يعلق عليها الآمال .

بين ٦٩ - ٧١ ، ثم بعد سقوط انديرا غاندى الاخير ، كان حزب المؤتمر هو صاحب الاغلبية على المستوى القومي في مجلس الشعب . وكما هو في البلاد الديمقراطية فان الكثير من الممثلين الشعبيين لهم حساسية خاصة تجاه مطالب ناخبهم ، لان السياسيين في الغالب ، يحكمون من خلال الخدمات التي يقدمونها لناخبهم .

البيروقراطية :

تتحكم في الادارة العامة في الهند بيروقراطية موحدة على المستوى القومي او المحلي . كذلك هناك (حاكم) لكل ولاية تابع مباشرة « لرئيس الجمهورية » مهمته في اوقات الازمات ان يكون (حاكم) الولاية هو ممثل السلطة المركزية في مواجهة اية اضطرابات محلية .

الجيش والشرطة :

الكثير من الجيش والبوليس في الهند مهتم بتغيير السلطة ، ولكن القليل منهم يحاول ان يعمل شيئا باتجاه ذلك ، ولم تحدث في الهند منذ الاستقلال اية محاولة انقلاب . وتقسم القيادات العسكرية في الهند الى خمسة اقسام اقليمية ، وهذا التقسيم قلل من احتمال وجود قوة عسكرية موحدة في الجيش ضد الحكومة . اما الشرطة فهي كالشرطة في معظم اقطار العالم لا تتمتع باحترام شعبي لذلك فان علاقتهم بالشعب علاقة سلبية ، مما يقلل احتمال الثقة بهم .

الايدولوجية :

(تعتمد القيادة الهندية على ايدولوجية محددة خاصة بها كالايدولوجية الصهيونية في اسرائيل مثلا . وتبنى الحكومة الهندية شيئا من الاشتراكية الديمقراطية في شكلها الفضفاض وتترك جانبا كبيرا للمشروع الخاص

أهمية التجربة التشيلية :

يعرض الكتاب الى ان أهمية التجربة التشيلية هي الدروس التى يجب أن تستقى منها ، وهى أن وصول الليندى الى السلطة كان نتيجة طبيعية لعدم قدرة الأنظمة التقليدية على الاستجابة للمطالبات « الشرعية » للجماهير ، مما حدا بالشيليين الى المطالبة بالتغيير حتى لو كان الى أقصى اليسار والشيوعية . ثم بدأ الكتاب ، فى هذا الموضوع بمناقشة العوامل الاقتصادية والسياسية التى أدت الى ذلك كله .

يشير الكتاب الى ان عدد سكان تشيلى هو عشرة ملايين نسمة ، قسم كبير من هؤلاء السكان يعيشون فى المدن - التى تكتظ المهاجرين المتعطلين - معتمدين على اقتصاد متخلف وتابع . لقد حظيت شيلى بفترة طويلة من الاستقرار السياسى الليبرالى - فاستقلالها عن الاستعمار الأمريكى فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨١٧) لم يكن من خلال صراع مع الاستعمار من قبل قوى محلية لها مصلحة فى التطوير ، وقد خرج الاستعمار تاركا التركيبة القديمة التى اعتمد عليها ، بهم كبار الاقطاعيين والمضاربين الباحثين عن الفضة أو الذهب وأصحاب الاقطاعات الكبيرة تركهم فى سدة الحكم ، وتحول الاستعمار المباشر الى استعمار غير مباشر (اقتصادى) تتحكم فيه قلة ارسقراطية كانت اصلا متعاونة مع الاستعمار ومن خلال حكم ليبرالى مقنن استمر الاستنزاف الاقتصادى ، وقدرت الاستثمارات الأمريكية فى تشيلى فى نهاية الستينات (١٩٦٨) بحوالى بليون دولار .

كما ان اكثر من ثلث ما تستورده تشيلى من الخارج يأتى من الولايات المتحدة الأمريكية

يناقش الكتاب فى موضوع تشيلى هذا السؤال : كيف يمكن لبلد مثل تشيلى له خبرة طويلة فى الديمقراطية الليبرالية - ودخل سكانها فى المتوسط اكثر من دخل ٩٠ ٪ من اقطار العالم الثالث ان تتجه الى الطريق « الجدرى للتغير » فى انتخابات ديمقراطية حرة ؟ وكانت النظرة حتى ذلك الوقت انه لا يمكن لشعب حر ومن خلال الانتخابات الحرة ان يتجه بوعى ارادى الى اعتماد الماركسية اللينينية كطريق للخلاص ، على أساس ان تلك الديمقراطية الليبرالية هي نهاية الطريق وفى حدود لعبها يمكن ان يحدث التطوير السياسى المنشود .

ويجب الكتاب على ذلك السؤال بتحليل للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها فى العقود الاخيرة . فيعرض الكتاب الى انه بعد الحرب العالمية الثانية بدا أن النظام السياسى التشيلى لا يقدر على مواجهة الطلبات الاجتماعية والاقتصادية المستجدة . وفى خلال الستينات كانت قدرة النظام التشيلى على عدم الوفاء بالطلب الاجتماعى المرتفع ظاهرة ملحوظة ، لدرجة ان كل العناصر القيادية فى تشيلى ، بتعدد مشاربها السياسية ، كانت تطالب بالتغيير .

لذلك فان وصول سلفادور الليندى الى سدة الرئاسة فى سنة ١٩٧٠ هو تعبير عن المعاناة السياسية والاقتصادية ، ولكن هل ترك حتى ينفذ برنامج الذى وافق عليه الشعب التشيلى ؟ بالطبع لا . فقد استطاعت القوى المضادة - من طريق الاتفاق مع بعض الاجهزة الأمريكية والعسكرية الاطاحة بحكم الليندى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، فاطيح بالشرعية السياسية فى أهم تجربة فى العالم الثالث .

هى اكثر بلدان العالم الثالث تقدما ، وتعتمد شيلي تاريخيا على الزراعة ، ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأت تعتمد على صناعة التنجيم ، وهى الآن اكبر قطاع فى الاقتصاد القومى فى البلاد .

وبالرغم من ان العاملين فى الزراعة يشكلون ٢٨ ٪ من النشاطين اقتصاديا الا ان هذا القطاع لا يساهم باكثر من ١٠ ٪ من الناتج القومى ، ومنذ القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومات المتعاقبة فى شيلي بالزراعة . لذلك ساءت الاحوال فى الريف ، وبخاصة فى السنوات الاخيرة ، واصبحت البطالة فى هذا القطاع تقذف الى المدينة بمجموعات كبيرة من العاطلين بصورة شبه مستمرة ، ولم تعد تشيلي تستطيع تغذية أهلها ، لذلك استخدمت اموال تشيلي فى شراء الطعام من الخارج بينما ارض تشيلي الخصبة غير مستغلة .

وتركز الارض فى يد القلة جعل منها احتكارا ، ففي اواسط الستينات تبين ان ٧ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٨٠ ٪ من الارض الخصبة ، وان ١٠ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٩٠ ٪ من الارض الصالحة للزراعة ، وهذه الارض تملك من اجل المضاربة او تعزيز الواقع الاجتماعى للملاك ، ولكنها بالتأكيد لا تستخدم فى الانتاج . فمعظم ملاك الارض هم ملاك غائبون لهم مصالح تجارية فى المدينة ، لذا فان تركيز الارض فى يد قلة كانت له نتيجتان رئيسيتان ، فقد كانت أولا من اسباب نقص المواد الغذائية ، وثانيا فى اعطاء قلة من الملاك قوة سياسية جبارة ضد الكثير من الفلاحين .

والنشاط الاقتصادى الثانى فى تشيلي هو الصناعة المنجمية ، وكما هى الزراعة ، كان لهذه الصناعة نتيجة لتطور طويل ، سلبات

وربع البضائع المستوردة يأتى من ثلاث دول غربية هى بريطانيا - المانيا - فرنسا . واكثر من ثلاثة ارباع ما تصدره تشيلي يذهب الى الولايات المتحدة وغرب أوروبا . كما تعتمد تشيلي فى تسليحها على الولايات المتحدة ضمن برنامج ضخ من المعونة العسكرية . وكان الطابع الليبرالى الظاهرى فى الاقتصاد والسياسة فى الحقيقة استنزافا لمصادر تشيلي بالرغم من انها تبدو اوروبية الطابع (افكارا وممارسات سياسية) ، الا انها كانت مستنزفة تتمتع فيها القلة بكل الامتيازات وتحرم الاغلبية منها .

التحديث الاجتماعى والاقتصادى

تضاعف عدد سكان شيلي فى الستين سنة الاولى من هذا القرن من ٣ ملايين نسمة الى ٧٤ مليون نسمة ، ومن المتوقع ان يتضاعف فى نهاية القرن ليصل الى حوالى ١٧ مليون نسمة . اما المدينة الشيلية فان التضخم السكانى كان اكثر وضوحا فيها من الريف ، حيث كان فى سنة ١٩٠٠ نحو ١٢ ٪ من السكان يعيشون فى ثلاث مدن بكل منها ٥٠٠.٠٠٠ نسمة واكثر . وقفز فى سنة ١٩٤٠ الى ١٨ ٪ يعيشون فى ست مدن بكل منها ٥٠٠.٠٠٠ نسمة او اكثر من السكان ، وفى سنة ١٩٧٠ كان هناك حوالى ٢٥ مدينة فى تشيلي فى الواحدة منها اكثر من ٥٠٠.٠٠٠ نسمة ، وسكانها يمثلون حوالى ٥٠ ٪ من مجموع سكان تشيلي .

التطور الاقتصادى

تعد شيلي مع بعض بلدان امريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا والارجواى من الدول المتقدمة فى امريكا اللاتينية - وامريكا اللاتينية

نجد فى أواسط الستينات أن ١٢ ٪ من العمال فقط كانوا منظمين ، سياسيا او نقابيا ، فى الوقت الذى ذكر فيه احصاء سنة ١٩٦٠ أن ٨٠ ٪ من النشطين اقتصاديا يمكن تصنيفهم كعمال .

غير أن هذه الصورة قد تغيرت فى العقد الاخير بشكل جذرى ، حيث وجهت جهود تنظيمية كبيرة الى قطاع عمال المدن وعمال الريف من قبل التنظيمات السياسية الوسطى واليسارية .

الاحزاب السياسية :

فى تشيلى كانت الاحزاب السياسية مؤسسة حقيقية ، ويبدو أن الحكومة الحالية تفكر فى تكوين حزب حكومى واحد ، وينظر الكتاب فى تطور الاحزاب خاصة نحو احزاب اليسار منذ الاربعينات وخلال الخمسينات والستينات ثم تطور القيادة فى تلك احزاب ، ويعزو ذلك الى ان تطور الاحزاب الى اليسار والقيادات الجذرية هنا هو نتاج الوضع الاقتصادى وعدم المشاركة السياسية الواسعة .

التغيرات الاخيرة فى تشيلى :

يعزو الكتاب التغيرات الاخيرة الجذرية (وصول حكومة لها توجه جذرى) الى سدة الحكم ، وعن طريق انتخابات ليبرالية حرة ، الى التراكمات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العقدين الاخيرين (الخمسينات والستينات) والى عدم استطاعة النظام السياسى السابق حل هذه التراكمات بسبب طبيعته المنغلقة ، كما ان مجموعة من العناصر الاخرى منها القرارات التى اتخذتها قيادات الاحزاب الوطنية التشيلية للنزول الى الريف مما سبب تزايدا فى الاضرابات السياسية

على المجتمع الشيلى اكثر من ايجابياتها فى المجال السياسى والاقتصادى . فمنا بداية القرن التاسع عشر - بدأ البحث عن معدنى الفضة والنحاس - وكانت المصدر الاول للعمولات الصعبة ، ومنذ الحرب العالمية الثانية مثلت الصناعة المنجمية من ٧٥ - ٨٠ ٪ من الدخل الحكومى وكونت ٢٥ ٪ من الميزانية الحكومية بعد الحرب الثانية .

ولان المناجم وصناعة التنجيم قد طورت وملكت من قبل رأس المال الاجنبى حيث الارباح تذهب الى بلدان رأس المال ، فان هذه الصناعة ساعدت بشكل قليل بقية القطاعات الصناعية . واحيانا فان الاموال قد امتصت من القطاعات الاقتصادية الاخرى الى هذا القطاع مما شكل عدم توازن اساسى فى الاقتصاد الشيلى ، والى وقت قريب ، فان الضرائب المفروضة على هذا القطاع كانت اسمية .

ونظرا لهذا كله فقد كان الاقتصاد الشيلى فى دائرة الركود فى الغالب والانتعاش القليل أحيانا .

وبالرغم من عدم وجود ارقام محددة حول توزيع الدخل ، بين كل القوى الاجتماعية (عدا المالكين) ، فى العقدين الاخيرين ، فقد قدر أن ٨٠ ٪ من الشعب يحصلون فقط على ٢٥ ٪ من الدخل القومى فى أواسط الستينات

التركيب الطبقي :

من المتعارف عليه أن هناك ثلاث درجات طبقية : الطبقة العليا ، الطبقة الوسطى (أو الموظفون) ، الطبقة الدنيا ، وقد سيطرت الارستقراطية التشيلية على حياة الدولة فى النشاطات السياسية وهى القلة القليلة ، بينما

- أى من خلال التجارب التى مرت بها الأمم الغربية - لذا جاءت تحليلاتهم وتوقعاتهم مجملة لهذه النظرية دون اعتبار عميق للدرجة أصبح علماء السياسة والاجتماع فى العالم يأخذونها بعين الاعتبار الآن وهى علاقة التبعية الاقتصادية بين العالمين النامى من جهة والمتطور من جهة أخرى، والتى فى حد ذاتها أما أنها أفسلت تجارب سياسية نابعة من خصوصيات بعض بلدان العالم الثالث ، أو ركزت تجارب هشة بتثبيت مصالح العالم المتقدم فى دول ومجموعات تصدير الخامات الأولية تحت شعارات متعددة .

ويعنى فى النهاية ان هذا الكتاب يستحق القراءة ولو من أجل معرفة كيف يفكر الأكاديميون الغربيون تجاه مشكلات العالم الثالث السياسية .

والتوقف عن العمل . ولم يكن هناك متنفس للمجموعات الجديدة فى خلال الحياة السياسية كما أن وجود الحريات العامة والحريات الصحفية فى حملات الانتخابات المتعددة أسرع فى تكون الوعي السياسى لدى عامة الشعب . كل هذا جعل من عدم الرضا عن الوضع القائم حقيقة يلمسها الناس يوميا مما دفعهم الى التغيير .

خلاصة :

من الخطوط العريضة التى بدأها الكتاب ، كمجمل نظرى للمشكلات السياسية التى تواجه العالم الثالث واقتراح حلول لها ، يبدو لنا ان الكتاب الذى بين يدينا بجميع مساهميه تقريبا قد نظروا الى هذه المشكلات من منظور غربى



العدد التالى من المجلة

العدد الرابع - المجلد العاشر

يناير - فبراير - مارس سنة ١٩٨٠

قسم خاص عن

((آفاق المعرفة))

بالإضافة الى الابواب الثابتة

| | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|-----|
| ١ | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ | ٦ | ٧ | ٨ | ٩ | ١٠ | ١١ | ١٢ | ١٣ | ١٤ | ١٥ | ١٦ | ١٧ | ١٨ | ١٩ | ٢٠ | ٢١ | ٢٢ | ٢٣ | ٢٤ | ٢٥ | ٢٦ | ٢٧ | ٢٨ | ٢٩ | ٣٠ | ٣١ | ٣٢ | ٣٣ | ٣٤ | ٣٥ | ٣٦ | ٣٧ | ٣٨ | ٣٩ | ٤٠ | ٤١ | ٤٢ | ٤٣ | ٤٤ | ٤٥ | ٤٦ | ٤٧ | ٤٨ | ٤٩ | ٥٠ | ٥١ | ٥٢ | ٥٣ | ٥٤ | ٥٥ | ٥٦ | ٥٧ | ٥٨ | ٥٩ | ٦٠ | ٦١ | ٦٢ | ٦٣ | ٦٤ | ٦٥ | ٦٦ | ٦٧ | ٦٨ | ٦٩ | ٧٠ | ٧١ | ٧٢ | ٧٣ | ٧٤ | ٧٥ | ٧٦ | ٧٧ | ٧٨ | ٧٩ | ٨٠ | ٨١ | ٨٢ | ٨٣ | ٨٤ | ٨٥ | ٨٦ | ٨٧ | ٨٨ | ٨٩ | ٩٠ | ٩١ | ٩٢ | ٩٣ | ٩٤ | ٩٥ | ٩٦ | ٩٧ | ٩٨ | ٩٩ | ١٠٠ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|----|-----|

| | | | | | | |
|----------------|-----|--------|-----|----------|-----|--------|
| الخليج العربي | ٥ | ريالات | ٥ | سوريا | ٣ | ريالات |
| السعودية | ٥ | ريالات | ٥ | المقاهرة | ٢٥٠ | ملياً |
| البحرين | ٤٠٠ | فلوس | ٤٠٠ | السودان | ٢٥٠ | ملياً |
| اليمن الجنوبية | ٤٠٠ | فلوس | ٤٠٠ | ليبيا | ٣٥ | قروشاً |
| اليمن الشمالية | ٤,٥ | ريالات | ٤,٥ | مصر | ٤٠٠ | بابية |
| العراق | ٣٠٠ | فلوس | ٣٠٠ | الجزائر | ٥ | دنانير |
| لبنان | ٢,٥ | ليرة | ٢,٥ | تونس | ٥٠٠ | مليماً |
| الأردن | ٢٥٠ | فلماً | ٢٥٠ | المغرب | ٥ | دراهم |

الاشتراك في المجلة يكتب إلى: الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت
 للاشتراك في المجلة يكتب إلى: الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

التمن
 ٢٥٠
 فلساً